

لقد حذف الحق من وصف الفئة الأولى ما يدل عليه في وصف الفئة الثانية .
وعرفنا وصف الفئة التي تقاتل في سبيل الله من مقابلتها في الآية وهي الفئة الأخرى .
فمقابل الكافرة مؤمنة ، وعرفنا أيضا - أن الفئة الكافرة إنما تقاتل في سبيل الشيطان
لمجرد معرفتنا أن الفئة الأولى المؤمنة تقاتل في سبيل الله . ويسمون ذلك في اللغة
« احتباك » . وهو أن تحذف من الأول نظير ما أثبت في الثاني ، وتحذف من الثاني
نظير ما أثبت في الأول ، وذلك حتى لا تكرر القول ، وحتى توضح الانجاء بين
القتال في سبيل الله والإيمان ، والقتال في سبيل الشيطان والكفر .

إذن فالآية على هذا المعنى توضح لنا الآن : لقد كان لكم آية ، أي أمر عجيب
جدا لا يسير ولا يتفق مع منطق الأسباب الواقعية في فئتين فعندما التقت الفئة المؤمنة
في قتال مع الفئة الكافرة ، استطاعت الجماعة المؤمنة المحددة بالغاية التي تقاتل من
أجلها - وهي القتال في سبيل الله - أن تنهض على الفئة الكافرة التي تقاتل في سبيل
الشيطان .

وبعد ذلك يقول الحق : « يروهم مثلهم رأي العين » فنحن أمام فئتين ، فمن
الذي يرى ؟ ومن الذي يُرى ؟ من الرائي ومن المرئى ؟ إن كان الرائي هم المؤمنون
فالمرئى هم الكافرون . وإن كان الرائي هم الكافرين فالمرئى هم المؤمنون ولئر الأمر
على المعنيين :

فإن كان الكافرون هم الذين يرون المؤمنين ، فإنهم يروهم مثلهم ، أي ضعف
عددهم ، وكان عدد الكافرين يقرب من ألف . إذن فالكافرون يرون المؤمنين
ضعف أنفسهم ، أي ألفين . وقد يكون المعنى مؤديا إلى أن المؤمنين يرون الكافرين
ضعف عددهم الفعل . وقد يؤدي المعنى إلى أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف
عددهم وكان عدد المؤمنين يقرب من ثلاثمائة وأربعة عشر ، وضعف هذا العدد هو
ستمائة وثمانية وعشرون مقاتلا .

فإن أخذنا معنى « مثلهم » على عدد المؤمنين ، فالكافرون يروهم حوالي ستمائة
وثمانية وعشرين مقاتلا ، وإن أخذنا معنى « مثلهم » على عدد الكافرين فالكافرون
يرون المؤمنين حوالي ألفين . وما الهدف من ذلك ؟ إن الحق سبحانه يتكلم عن

المواجهة بين الكفر والإيمان حيث ينصر الله الإيمان على الكفر . وبعض من الذين يتصيدون للقرآن يقولون : كيف يقول القرآن : « يرونها مثلهم رأى العين » وهو يقول في موقع آخر :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَلَائِكَةٍ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَظَلْتُمْ وَتَفَرَّقْتُمْ فِي الْأُمُورِ ۚ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٤ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي الْأَعْيُنِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝١٥﴾

(سورة الأنفال)

وهذه الآية تثبت كثرة ، سواء كثرة المؤمنين أو كثرة الكافرين ، والآية التي نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية تثبت قلة ، والمشكلون في القرآن يقولون : كيف يتناول القرآن موقعة واحدة على أمرين مختلفين ؟ ونقول هؤلاء المشككين : أنتم قليلو الفطنة ، لأن هناك فرقاً بين الشجاعة في الإقبال على المعركة وبين الروح العملية والمعنوية التي تسيطر على المقاتل أثناء المعركة ، والحق سبحانه قد تكلم عن الحالين : قتل الحق هؤلاء في أعين هؤلاء ، وقتل هؤلاء في أعين هؤلاء ، لأن المؤمنين حين يرون الكافرين قليلاً فإنهم يزودون بالجرأة وطاقة الإيمان ليحققوا النصر .

والكافرون عندما يرون المؤمنين قلة فإنهم يستهينون بهم ويتراخون عند مواجهتهم . ولكن عندما تلتحم المعركة فما الذي يحدث ؟ لقد دخلوا جميعاً المعركة على أمل القلة في الأعداد المواجهة ، فما الذي يحدث في أعصابهم ؟ إن المؤمن يدخل المعركة بالاستعداد المكثف لمواجهة الكفار . وأعصاب الكافر تخور لأن العدد أصبح على غير ما توقع ، إذن فقول الحق :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي الْأَعْيُنِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝١٥﴾

(سورة الأنفال)

ينصور الحالة قبل المعركة ؛ لأن الله لا يريد أن يتهيب طرف من طرف فلا تنشأ المعركة . لكن ما إن تبدأ المعركة حتى يقلب الحق الأمور على عكسها ، إنه ينقل الشيء من الضد إلى الضد . ونقل الشيء من الضد إلى الضد إيذان بأن قادرا أعلى يقود المشاعر والأحاسيس ، والقدرة العالية تستطيع أن تصنع في المشاعر ما تريد .

لقد قلل الحق الأعداد أولا حتى لا يتهيبوا المعركة ، وفي وقت المعركة جعلهم الله كثيرا في أعين بعضهم البعض فترى كل فئة الطرف الآخر كثيرا ، فتتفجر طاقات الشجاعة المؤمنة من نفوس المؤمنين فيقبلون على القتال بحماسة ، وتخور نفوس الكافرين عندما يواجهون أعدادا أكثر مما يتوقعون . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ تَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُتْرَى كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣٠﴾
(سورة آل عمران)

إن هذه الآية هي خير تبشيري لكل مؤمن بالنصر ، وهي في الوقت نفسه خير إنذارى لكل كافر بأن الهزيمة سوف تلحق به إن واجه الجماعة المؤمنة . فلما كنتم أن تقيموا الأمور بمقاييس الأسباب ، فالأسباب المطلوبة متكم هي المقدور عليها للبشر وعليكم أن تتركوا تنمية كل ذلك للقدور ، فلا تخور الفئة المؤمنة أمام عدد كثير ، ولا تغتروا معشر الكفار بأعدادكم الكثيرة ؛ فالسابقة أمامكم تؤكد أن عددا قليلا من المؤمنين قد غلب عددا كثيرا من الكافرين .

ومن معاني الآية - أيضا - أن الكافرين يرون المؤمنين مثلي عدد الكافرين ، أي ضعف عددهم . ومن معانيها - ثالثا - أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عدد المؤمنين الفعلي . ومن معاني الآية - رابعا - أن يرى المسلمون الكافرين مثلهم ، أي مثل المؤمنين مرتين ، أي ستمائة نفر وقليلا ، وحيث أن يكون عدد الكافرين في عيون المؤمنين أقل من العدد الفعلي هؤلاء الكافرين . إذن فما حكاية مثلهم ، هذه ؟ لقد وعد الله المؤمنين بنصره حين قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِزْبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِنَّ يَسْكُنَ مِثْرَكُمْ عِشْرُونَ صَدْرُوكُمْ يُغْلِبُوا ۚ

مَائَتَيْنِ وَإِنْ بَكَرَ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٦﴾

(سورة الأنفال)

والنسبة هنا أن المؤمن الواحد يخرج إلى عشرة من الكافرين فيهزمهم ، ذلك وعد الله ، وحين أراد الله التخفيف قال الحق :

﴿ أَفَلَمْ يَخَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١٧﴾

(سورة الأنفال)

لقد خفف الله النسبة ، فواحد من المؤمنين يغلب اثنين من الكافرين . فالمؤمنون موعودون من الله بالغلبة حتى وهم ضعاف . والحق يقول في الآية المبشرة للمؤمنين ، المنذرة للكافرين ، والتي نحن بصددها الآن : « والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعلبة لأولي الأبصار » .

وتنحن نسمع كلمة « عبرة » كثيرا ، والمادة المأخوذة منها تدل على الدخول من مكان إلى مكان ، فيقال عن ذلك « عبور » ، ونجس في حياتنا العادية نخصص في الشوارع أماكن لعبور المشاة ، أى المسافة التي يمكن للمشاة أن ينفذوا منها من ضفة الشارع إلى الضفة الأخرى من الشارع نفسه . وعبور البحر هو النفاذ من شاطئ إلى شاطئ آخر .

إذن فمادة « العبور » تدل على النفاذ من مكان إلى مكان ، و« العبرة » أى الدفعة لأنها تسقط من محلها من العين على الحد . و« العبارة » أى الجملة التي نتكلم بها ، فهي تنتقل من الضم إلى الالف ، وهى عبور أيضا . و« العبير » أى الرائحة الجميلة التي تنتقل من الوردة البعيدة عن الإنسان قليلا لتنفذ إلى أنفه . إذن فمادة « العبور » تدل على « النفاذ » .

وحين يقول الحق : « إن في ذلك لعلبة » أى تنقلكم من أمر قد يخيفكم أيها المؤمنون لأنكم قليل ، وهم كثير ، إنها تنقلكم إلى نصر الله أيها المؤمنون ، وتنقلكم

أيها الكافرون إلى الهزيمة برغم كثرة عدتكم وعدتكم . فالعبرة هي حدث ينقلك من شيء إلى شيء مغاير ، كالظالم الذي نرى فيه يوما ، ونقول : إن ذلك عبرة لنا ، أي إنها نقلتنا من رؤيته في الطغيان إلى رؤيته في المهانة .

وهكذا نكون العبرة هي العظة اللافتة والناقلة من حكم إلى حكم قد يستغربه الذهن ، فتذيل هذه الآية الكريمة بهذا المعنى هو إيضاح وبيان كامل ، فالحق يقول في بداية هذه الآية : « قد كان لكم آية في فتنتين التفتا » . وتنتهي الآية بقوله : « إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » .

إذن فالعبرة شيء ينقلنا من أمر إلى أمر قد تستغربه الأسباب وذلك إن كنت متروكا لسياسة نفسك ، لكن المؤمن ليس متروكا لسياسة نفسه ، لأن الله لو أراد أن يعذب الكفار بدون مواجهة المؤمنين وحريم لعذبهم بدون ذلك ، ولكن الله يريد أن يكون عذاب الكافرين بأيدي المؤمنين :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِ قُورٍ ﴾

مُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾

(سورة التوبة)

ولو كان الله يريد أن يعذب الكافرين بغير أيدي المؤمنين لأحدث ظاهرة في الكون تعذبهم ، كزلزال يحدث ويدمرهم ، ولكن الله يريد أن يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين . « والله يؤيد بنصره من يشاء » ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ، « الأيدى » هو القوة ، إذن فهو يريد منك فقط النواة العملية ، ثم بعد ذلك يكملها الله بالنصر ، « وأيدى » أي قواه ، ويؤيد الله بنصره من يشاء ، وتكون العبرة لأولي الأبصار .

وقد يقول قائل : أتكون العبرة لأولي الأبصار أم لأولي البصائر ؟ وهنا نقول : إن العبرة هنا لأولي الأبصار ؛ لأن الأمر الذي نتحدث عنه الآية هو أمر مشهدي ، أمر محسوس ، فمن له عينان عليه أن يبصر بهما ، فإذا كان التفكير والتدبر ليس أمرا موهوبا لكل مخلوق من البشر ، فإن البصر موجود للغالبية من الناس ، وكل منهم

يستطيع أن يفتح عينه ليرى هذا الأمر المشهدى .

وإذا ما نظرنا إلى المعركة بذاتها وجدنا الدليل الكامل على صدق العبارة : فالمؤمنون فئة وعددهم معروف محدود ، وعتادهم قليل ، ولم يخرجوا يقصد حرب ، إنما خرجوا لقصص الاستيلاء على العير المحملة بالأرزاق من طعام وكسوة تعويضا عما اغتصبه المشركون من أموالهم في مكة ، ولو أنهم استولوا على العير فقط لما كان النصر عظيما بالدرجة التي كان عليها ؛ لأن العير عادة لا تسير بعتاد ضخم إنما تحفظ بالحراية فقط . ولكن الله يريد لهم النصر على ذات الشوكة ، أى الطائفة القوية المسلحة ، فقد وعدهم الله بالنصر على إحدى الطائفتين :

﴿ وَإِذْ يَعِذُّكَ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا كُفَرُوا وَتَوَدَّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّرْكِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّطَ الْحَقَّ يَكَلِّمَهُ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٧)

(سورة الأنفال)

نقد كان وعد الله أن ينصر المؤمنين على إحدى الطائفتين ، والأمل البشري كان يود الانتصار على الطائفة غير ذات الشوكة أى الطائفة غير المسلحة وهى العير ، ولكن مثل هذا النصر لا يكون له دوى النصر على الطائفة المسلحة ، فقد كان من السهل أن يقال : إن عمداً ومن معه تعرضوا لجماعة من التجار لا أسلحة معهم ولا جيش ، ولكن الله يريد أن يجعل من هذه المعركة فرقانا وأن يحق الحق .

إنكم أيها المؤمنون لم تخرجوا إلا لقصص العير أى لم يكن استعدادكم كافيا للقتال ، أما الكفار فقد جاءوا بالنفير ، أى بكل قوتهم فقد ألقت مكة في هذه المعركة بأفلاذ أكبادها . وعندما بأن النصر من الله للمؤمن في مثل هذه الموقعة فهو نصر حقيقى ، ويكون آية غاية في العجب من آيات الله . ونصير عبرة للنفير . لذلك نجد العجائب في هذه المعركة - معركة بدر - .

الغرائب أنك تجد الأخوين يكون لكل منهما موقف ومجابهة . وتجد الأب والابن لكل منهما موقف ومجابهة برغم عمق الصلة بينهما ، فعثلا ابن أب بكر رضى الله عنه ، وكان هذا الابن لم يسلم بعد ، وكان في جانب الكفار ، وأبوه الصديق مع رسول الله

صل الله عليه وسلم ، وبعد أن أسلم ابن أبي بكر يحكى الابن لأبيه بشيء من الامتنان والبر : لقد تراءيت لي يوم بدر فزويت وجهي عنك . فبرد أبو بكر الرد الإيمان الصديقي : والله لو تراءيت لي أنت لقتلتك .

وكلا الموقفين منطقي ، لماذا ؟ لأن ابن أبي بكر حين يلتقي بأبي بكر ، ويرى وجه أبيه ، فإنه يقارن بين أبي بكر وبين ماذا ؟ إنه يقارن بين أبيه وبين باطل ، ويعرف غم العلم أنه باطل ، فيرجع عند ابن أبي بكر أبوه ، ولذلك يحافظ على أبيه فلا يلسمه . نكنُّ أبا بكر الصديق حينها يقارن فهو يقارن بين الإيمان بالله وأبيه ، ومن المؤكد أن الإيمان يزيد عند الصديق أبي بكر ، فلو رآه يوم بدر لقتله .

والله حكمة فيمن قُتل على أيدي المؤمنين من مجرمي الحرب من قريش ، والله حكمة فيمن أبقي من الكفار بغير قتل ؛ لأن هؤلاء مدخرون لقضية إيمانية كبرى سوف يبلون فيها البلاء الحسن . فلومات خالد بن الوليد في موقعة من المواقع التي كان فيها في جانب الكفر لحزننا نحن المسلمين ؛ لأن الله قد ادخره لمعارك إيمانية يكون فيها سيف الله المسلول ، ولومات عكرمة لفقدت أمة الإسلام مفاتلا عبقريا .

لقد جزن المسلمون في موقعة بدر لأنهم لم يقتلوا هؤلاء الفرسان ؛ لأنهم لم يعلموا حكمة الله في ادخار هؤلاء المقاتلين ؛ لينضموا فيما بعد إلى صفوف الإيمان . والله لم يمكن مقاتل المسلمين يوم بدر من المحاربين الذين كانوا على دين قومهم آنشد إلا لأن الله قد ادخرهم لمواقع إيمانية قادمة يقفون فيها ، ويحاربون في صفوف المؤمنين ، وهذا نصر جديد .

ونرى أبا عزيز وهو شقيق الصحابي مصعب بن عمير الذي أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشر بدين الله ، ويعلم أهل المدينة ، وكان مصعب فني قريش المدلل صاحب ثرق ، وأمه صاحبة ثراء ، وبعد ذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبس جلد شاة بعد أن كان يلبس الحرير ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى الإيمان ماذا فعل بصاحبكم .

والنقى مصعب في المعركة مع أخيه أبي عزيز ، وأبو عزيز على الكفر ، ومصعب

رضي الله عنه مسلم يقف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وحين يرى مصعب رضي الله عنه أخاه أبا عزيز وهو أسير لصحاب اسمه أبو اليسر ، فيقول مصعب : يا أبا اليسر اشدد على أسيرك ؛ فإن أمه غنية وذات متاع ، وستفديه بمال كثير .

فيقول له أخوه أبو عزيز : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فيقول مصعب مشيراً إلى أبي اليسر : هذا أخى دونك ؛ كانت هذه هى الروح الإيمانية التى تجعل الفتنه القليلة تنصرف على أهل الكفر ، طاقة إيمانية ضخمة تنقلب على عاطفة الأخوة ، وعاطفة الأبوة ، وعاطفة البتوة . وقد جعل الله من موقعة بدر آية حتى لا يخور مؤمن وإن قل عدد المؤمنين ، أو قلت عُدتهم ، وحتى لا يغتر كافر ، وإن كثر عدد قومه وعنادهم .

وقد جعلها الله آية للمصدق الإيمان ، ولذلك يقال : احرص على الموت توهب لك الحياة . وقد كانت القضية الإيمانية هى التى تملا نفس المؤمن ، إنها قضية عميقة متغلغلة فى النفوس . ولماذا يترصد الكفار بالمؤمنين ؟ إنهم إن تربصوا بهم ، فسيدخل المؤمنون الجنة إن قبلوا أو يتصرون على الكفار ، وفى ذلك يقول الحق على لسان المؤمنين :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ إِنَّا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبُّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ۝٥٧﴾

(سورة التوبة)

فالظفر هنا بأحد أمرين : إما النصر على الكافرين ، وإما الاستشهاد فى سبيل الله ، ونيل منزلة الشهداء فى الجنة وكلاهما جميل . والمؤمنون يترصدون بالكافرين ، إما أن يصيب الله الكفار بعذاب من عنده ، وإما أن يصيبهم بأيدي المؤمنين . إنها معادلة إيمانية واضحة جليلة . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ
مَتَكُّ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ

الْمَقَابِلُ ١١

الموضع الذى نأتى فيه هذه الآية الكريمة هو : موقع ذكر المعركة الإسلامية التى جعلها الله آية مستمرة دائمة ؛ لتوضح لنا أن المباركة الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله ، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع . والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحى بكثير من ماله فى تسليح نفسه ، وتسليح غيره أيضا .

فمن يقعد عن الحرب إنسان تغلبه شهوات الدنيا ، فىأتى الله بهذه الآية بعد ذكر الآية التى ترسم طريق الانتصارات المتجدد لأهل الإيمان ؛ وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من منعة القتال فى سبيل الله وإعلاء كلمته فيقول : « زين للناس حب الشهوات » وكلمة « زين » نعطينا فاصلا بين المتعة التى يجعلها الله ، والمتعة التى لا يرضاها الله ؛ لأن الزينة عادة هى شئ فوق الجواهر . فالمرأة تكون جميلة فى ذاتها وبعد ذلك تزين ، فتكون زينتها شيئا فوق جواهر جمالها .

فكان الله يريد أن تأخذ الحياة ولا ترفضها ، ولكن لا تأخذها بزينتها وبهرجتها ، بل تأخذها بحقيقتها الاستباقية فيقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء » . وما الشهوة ؟ الشهوة هى ميل النفس بقوة إلى أى عمل ما .

وحين ننظر إلى الآية فإننا نجد أنها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول ، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو المحفوت .

وسبق أن ضربنا المثل من قبل بأعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس ، وأن

الحيوان يُفَضَّل الإنسان فيها ، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن الأنثى من الحيوان إذا تم لقاحها من فحل لا تُمكن فحلاً آخر منها . والفحل أيضاً إذا ما جاء إلى أنثى وهي حامل فهو لا يُقبل عليها ، إذن فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة ، ولم تأخذها كالإنسان لذّة متجددة .

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات ، ونقول في وصف شهوة الإنسان : إن عند فلان شهوة بهيمية . وبإلتها كانت شهوة بهيمية بالفعل ، لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضروري ، لكن نحن فلسفناها ، إذن فخرجك بالشيء عما يمكن أن يكون مباحاً ومشروعاً يسمى : دناءة شهوة النفس .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه ، والبقاء له نوعان : أن يبقى الإنسان حياته بالمطعم والمشرب ، وتبقى حياة النوع الإنساني بالتزاوج .

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخالق حكيماً عليماً . إنه يعلم أن طفولة أى حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه ، مثال ذلك : الحمامة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران ، ثم لا تعرف أين ذهب فرخها ، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة ، والتي أراد الله لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شفاء إلى أن يبلغ الولد ، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يحرص عليه الإنسان من شهوة ، وما يتحمل من مشاق ومتاعب في سبيل الاستمتاع بها واستبقائها . فقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء » فمن المزين ؟ إن كان في الأمر الزائد على ضروريات الأمر ، فهذا من شغل الشيطان، وإن كان في الأمر الرتيب الذي يضمن استبقاء النوع فهذا من الله .

ونجد الحق يضيف « البنين » إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكران ، ولم يقل البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعزوة كما يقولون ولا يأق منهم العار ، وكان العرب يثدّون البنات ويخافون العار ، والمحبوب لدى الرجل في الإنجاب حتى الآن هو إيجاب البنين ، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة وينادون بها ، سواء كان رجلاً أو امرأة إن لم يرزقه الله بولد ذكر فإنه أو إنها تريد ولداً ذكراً .



ويضيف الحق إلى مجال الشهوات : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » ،
والقناطير هي جمع قنطار ، والقنطار هو وحدة وزن ، وهذا الوزن حددته كثافة
الذهب ، إلا أن القنطار قبل أن يكون وزناً كان حجماً ، لكنهم رأوا الحجم هذا يزن
قدراً كمياً ، فانتقلوا من الحجم إلى الوزن .

وكان علامة الثراء الواسع في الزمن القديم أن يأتوا بجلد الثور بعد سلخه ويملأوه
ذهبا ، وملتء جلد الثور بالذهب يسمونه قنطاراً ، وكانت هذه عملية بدائية . وبعد
ذلك أخذوا ملتء الجلد ذهباً ووزنوه فصار وزناً . إذن فالأصل فيه أنه كان حجماً ،
فصار ووزناً .

وساعة تسمع « قناطير مقنطرة من الذهب والفضة » فهو يريد أن يحقق فيها
القنطارية ، وذلك يعني أن القنطار المقنطر هو القنطار الكامل الوزن ، وليس مجرد
قنطار تقريباً ، كما نقول أيضاً : « دنابر مدنرة » . وعادة تجد في اللغة العربية لفظاً
يأت من جنس اللفظ يضم إليه كى يعطيه قوة ، فيقال « ظل ظليل » أى ظل كثيف ،
ويقال « ليل أليل » أى أن الليل في ظلمة شديدة ، وهي مبالغة في كثافة الظلام .

والظلام على سبيل المثال يحجب الشمس ، وحاجب الشمس عنك قد يكون
حجاباً واحداً ، وقد يكون الشيء الذي يظلك فوقه شيء آخر يظله أيضاً فيكون
الظل ظليلاً ، ولذلك يكون الظل تحت الأشجار جميلاً ، لأن ورقة تستر الشمس ،
ورقة أخرى تستر الورقة الأولى ، وهكذا ، فتصنع تكييفاً طبعياً للهواء .

ولذلك فهم يصنعون الآن خياماً مكيفة الهواء مصنوعة من قماش فوقه قماش
آخر ، وبينهما مسافة ، فيكون هناك قماش يظلل ظلاً آخر ، فإذا ما وضعوا قطعة ثالثة
من القماش تظل الظلين الأولين ، فإن الظل يكون ظليلاً ، ولذلك قلنا : إن ظل
الأشجار هو ظل ظليل ، فيه حنان ، فكل ورقة تظل الإنسان تكون نفسها مظلمة
بورقة أخرى ، وتكون أوراق الشجر التي تظلل بعضها بعضها مختلفة الأوضاع ،
وتعطي الأوراق للنسيم فرصة المرور ، أما الخيام فهي تحجب النسيم . والشاعر حين
أراد أن يصف الروضة قال :

تصبد الشمس أن واجهتها

فتسحبها وتأذن للنسيم
إذن فحين وصف الحق القناطير بأنها مفنطرة فذلك يعنى القناطير الدقيقة الميزان ،
وهى قناطير مفنطرة من ماذا ؟ « من الذهب والفضة والخليل المسومة » . وكانت الخيل
هى أداة العز وأمانة وعلاوة على العظمة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
(الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة) (١) .

قول الحق : « والخليل المسومة » نرى فيه أن اللفظ الواحد يشع فى مجالات متعددة
من المعانى ، فالمسومة من سامها يسومها ، ومعنى ذلك أن لهذه الخيل مراعى تأكل
منها كما تريد ، وليست خيلاً مربوطة تأكل ما يقدم لها فقط ، ومسومة أيضاً تعنى أن
لهذه الخيل علامات ، فهذا حصان آخر ، وذلك أدهم ، وذاك أشقر .

ومسومة أيضاً ، أن تكون مروضة ، ومدرية ، وتم تعليمها ، فالأصل فى الخيل
أنها لم تكن مستأنسة بل متوحشة ، ولذلك لا بد من ترويضها حتى ينتفع بها
الإنسان . فكم معنى إذن أعطته لنا كلمة « مسومة » ؟

سائمة ، أى تأكل على قبر ما نشتهى لا على قدر ما نعطىها من طعام . ومعلمة
أى فيها علامات كالغرة والتجميل ، وهذا جواد أدهم ، وذلك جواد أشقر ، أو أنها
معلمة أى مروضة . فماذا تتطلب الحرب ؟

إن الحرب تتطلب الانقطاع عن الأهل ، فيجب ألا تكون شهوة النفس حاجزاً ،
سواء كانت شهوة للنساء ، أو كانت شهوة العزوة للبنين ورعايتهم ، أو كانت شهوة
المال ، فالمؤمن ينفقه فى سبيل الله ، والخليل أيضاً يستخدمها الإنسان فى القتال لإعلاء
كلمة الله .

ونلاحظ أن هذه الآية - التى تعد أنواع الزينة - جاءت بعد الآية التى تتحدث عن
الجهاد فى سبيل الله ، والى يقول الحق تبارك وتعالى فيها :

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وذلك ليرشدنا إلى أن الإنسان المؤمن لا يصح أن يضحى بشهونه الحقيقية وهي إدراك الشهادة في سبيل الله أو التصبر على العدو بسبب الشهوات الزائلة التي تتمثل في النساء ، وفي البنين ، وفي الغناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وفي الخيل المسومة والأنعام . وقد قال الله عن الأنعام في سورة الأنعام :

﴿ تَحْسِبُ أَزْوَاجَهُم مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آللَّهُ أَكْبَرُ حَرَّمَ أُمَ الْأَثْنَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَثْنَيْنِ تَحْوِي بَعْضُهُنَّ بَعْضًا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آللَّهُ أَكْبَرُ حَرَّمَ أُمَ الْأَثْنَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَثْنَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ الْأُمَّةَ بَغْيِرٍ عَظِيمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

حساب ذلك هو إثنان من الضأن ، وإثنان من المعز ، وإثنان من الإبل ، وإثنان من البقر أي ثمانية أزواج . ولا يمكن حسابها على أنها ستة عشر كما قال البعض قديماً ، لا ؛ إن الزوج لا يعني اثنين من الشيء ، ولكن الزوج واحد ، ولكن يُشترط أن يكون مع غيره من جنسه . ومثال آخر هو كلمة « التوأم » ، إن التوأم هو واحد مع غيره ، وهما توأمين ، وهم توأم إذا كان العدد أكثر من اثنين .

والحق يقول في مجال زينة الشهوات : « رُبَّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ

والبنين والقطاير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ،
وحيث تسمع كلمة « الحرث » فافهم أن المراد بها هنا الزرع ، ولكن الله سبحانه
وتعالى يريد منك أن تعلم أن الله حين يُنبئ لك أشياء بدون معالجتك فإنه يريد منك
أيضاً أن تُستنبط أشياء بمعالجتك ، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث .

والحرث هو إهاجة الأرض ؛ فالتربة تكون جامدة ، فلا يد أن يبتجها الإنسان
بالحرث ، أي أن تفك بيومتها وتلاصق ذراتها ؛ لأن تلاصق ذرات التربة لا يصلح
أن يكون بيئة للنبات ؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء ويحتاج إلى الهواء ، ويحتاج من
الإنسان أن يمهد للشعيرات البسيطة أن تخرج ، ونجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن
تقوى .

إذن فالحرث يثير الأرض ، ويجعلها لينة مُتفتحة حتى تستطيع البذرة أن تنمو ؛ لأن
الله قد أودع في فلقتي كل بذرة مقومات الحياة إلى أن يوجد لها جذر يأخذ مقومات
الحياة من الأرض ، وكلما قوى الجذر في النبات فإن الفلقتين تفسحلان ، وتصيران
مجرد ورقتين . فأين ذهب حجم الفلقتين ؟

لقد قامت الفلقتان بتغذية النبتة إلى أن استطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من
الأرض ، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة . ولذلك يقولون : إن
الأرض الطينية السوداء تكون ضعبة ، وغير خصبة ، ويقال : إن الأرض الرملية
أيضاً غير خصبة ، لماذا ؟

لأننا نريد صفتين اثنتين في الأرض : الصفة الأولى أن تكون الأرض صالحة أن
يتخللها الماء ليشرّب الزرع ، والصفة الأخرى ألا تُسرب الماء بعيداً ، فإذا كانت
الأرض طينية فإن جذور الزرع تحتق وتتعطن ، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب
بعيداً ، لذلك نحتاج في الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية ، أي أرض صفراء .
والله حين يتكلم عن الزرع فإنه يقول : « الحرث » وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد
أن يأخذ زرعاً لا بد أن يجتد ويجتث الأرض . وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ١٧ ، ﴿ أَنْتُمْ تَزَعُّونَهُ أَتُمْ تَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴾ ١٨ ﴿

وعبر الحق عن الزرع بالحرث لأنه السبب الذي يُوجد الزرع . وكل ما نقدم من الشهوات من النساء والبنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، كل ذلك تكون قيمته عند الإنسان ما يوضحه الحق بقوله : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

إن كل ذلك هو متاع الحياة الدنيا ، والفصل هو أن الإنسان يخشى إن تقوته النعمة فلا تكون عنده ، أو أن يفوتها فيموت . وكل ما يفوتك أو تقوته ، فلا تعثر به . وعندما تتأمل الآية في مجموعها تجد أن فيها مفاتيح كل شخصية تريد أن تنحرف عن منهج الله ، إنه سبحانه يقول :

﴿ لِيُزَيِّنَ لِلنَّاسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَاصِ ١١ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا ترى المفاتيح التي قد تجذب الإنسان لينحرف عن مراد الله في منهجه ، إنه - سبحانه - يطلب من عبده المؤمن أن يبني حركة حياته على مراد الله ، فما الذي يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حكم يناقضه ؟ .

لاشك أنه الهوى ، والهوى هو الذي يُميل ويُزيغ القلوب ، ولكل هوى مفتاح ، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج الله مفتاح هواء ، فواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يجب أن يرعاهم رعاية تفوق دخله من عمل أو صناعة مثلاً فقد يسرق أو يرتشي لیسعد هؤلاء . وأناس مفاتيحهم الشخصية في المال ، أو في زينة الخيل ، والعدة والعتاد فلكل شخصية مفتاح هوى .

والذين يدخلون على الناس ليزينوا لهم غير منهج الله بأنون لهم بالمفتاح الذي يفتح شخصياتهم ، فربما كان هناك إنسان لا تغريه نظرة المرأة أو ملايين الذهب ، إنما يتملكه حبه لأولاده وهو الهوى الغلاب .

إذن فكل واحد له مفتاح لشخصيته ، والذين يريدون إغراء الناس وغوايتهم يعرفون مفاتيح من يريدون إغراءه وإغواءه . ونحن يقول الحق أن هذه الأشياء هي المزيئة للناس . قد يقول قائل : إذا كان الله يريد أن يصرفنا عن هذه الأشياء فلماذا خلقها لنا ؟

وعلى هذا القول ترد : إن الحق مادام قد قال : « زَيْن » وبنائها - كما يقول النحاة - للمجهول أى لما لم يسم فاعله ، فمن الذى زين ؟ لقد كان الله قادراً أن يقول لنا من الذى زين تلك الأشياء تحديداً ، لكن الحق يريد أن يعلمنا أنه من الممكن أن يكون الشيطان هو الذى يزين لنا هذه الأشياء ، ومن الممكن أن يكون منطلق المنهج هو الذى يزين ، ألم يقل الحق سبحانه دعاء على لسان عباده الصالحين :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَفِرْسِنَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الفرقان)

إذن فما الفِصل في تلك المسألة ؟ الفصل في هذه المسألة أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل نعمة من نعم الحياة عملاً يعمل به الإنسان فيها ، فالمرأة إنما اتخذت سكناً أى ارتياحاً عندها ، ارتياحاً يطيح كل الحنان والعطف ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١١ ﴾

(سورة الروم)

إن الحق يريد لنا أن يسكن الرجل إلى حلاله ، ونصرف المرأة الحلال هنيئاً زوجها عن أعراض الناس . لكن ماذا في الرجل الذى يحب الابناء ؟ ألم يقل سيدنا زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ١ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذَلِيلًا ٢ وَارْتَبِطْ مِنْ خَلْقِ بَعْقَابٍ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٣ ﴾

(سورة مريم)

لقد طلب زكريا عليه السلام ولياً يرثه ، والأنبياء لا تُورث منهم أموال ، إنما يُورثون العلم والحكمة ، إذن فقد طلب زكريا عليه السلام أن يرث ابنه الحكمة منه ويرث من آل يعقوب وأن يجعله الله رضيعاً . فلو كان الأنبياء يُورثون المال ، لكان البعض قد فهم أن طلب زكريا للإبن كي يرثه في المال ، لكن الحق أراد لأنبيائه ألا يُورثوا المال ، بل يُورثون العلم بمنهج الله . وقد طلب زكريا الابن لتثبيت منهج الله في الأرض .

وكذلك الذي يريد الأموال لينفقها في سبيل الله ، وكذلك الذي يريد الحرث ليملا بطون خلق الله بما يطعمون منه ، كل هؤلاء يناهضهم المدح والثناء والجزاء الكثير من الله . لذلك يجب أن نعلم أن الحكم يأتي من الله محتملاً أن تتجه به إلى الخير المراد الله ، ومحتملاً أن تتجه به إلى الشر المراد لنفسك . وأنت - أيها العبد - حين تنظر إلى أي شهوة من هذه الشهوات فلسوف تجد أنه من الممكن أن تُوجهها وجهة خير . يقول الحق :

﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَفِرْيَتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ من سورة الفرقان)

لقد أراد الله للأتقياء والأنبياء أن يكون لهم من الذرية أبناء ليرثوا المنهج السلوكي ويكونوا مثلاً طيبة للناس يقتدون بهم . إذن فالمؤمن يجب أن تكون ذريته قدوة سلوكية . والذي يجب الخيل يمكن أن يوجه هذا الحب إلى الخير ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (بين خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعتق فرسه في سبيل الله يطير على منته كلما سمع هَيْعَةً^(١) أو فَرْعَةً طار عليه يبتغي القتل والموت مَظَانَّةً^(٢))^(٣) .

(١) الهَيْعَة : كل ما أفرغ من جانب العدو من صوت أو غير .

(٢) مَظَانَّة : بفتح الميم والغاء المعجمة وتشديد النون منصوب على الظرفية : أي يطلبه في المحل الذي يظن وجود فيه طلباً لمرضاة الله تعالى .

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة .

وقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نروض الخيل ، إذن فمن الممكن أن تكون هذه الأشياء مسأراً للخير . وإياكم أن تفهموا أن الله يزهّدنا فيها أو بنفّرنا منها ، ولكنه يزهّدنا أن نستعمل ما خلقه لنا في غير مراده .

ولننظر إلى تعليق الله على الأشياء المزيّنة : « ذلك متاع الحياة الدنيا » أى أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المزيّنة نظرة تقليدية سطحية سيحدها مجرد متاع ، وما عمر هذا المتاع ؟ إنه موقوت بالدنيا القاتية . ولننظر إلى الإنسان عندما يُصعّد في عمله قيمة الخير، وتصعيد قيمة الخير يأتى من تنمية نوعه ، أى الزيادة في نوع الخير ، ومن استدامته ، ومن أن الإنسان لا يترك هذا الخير .

إذن فتصعيد الخير يأتى على عدة صور تبدأ من تنمية الخير نفسه . واستدامة الخير فلا ينقطع ، وضمان أن يحيا الإنسان للخير ويبعث له ، وألا يذهب الخير عنه ، وأمر رابع هو ألا تربط هذا الخير بأغيار ، أى أن تربطه بواحد قوى يأتى لك به ، فقد يضعف ، أو يمرض ، أو يغيب ، أو يغدر بك .

إذن فلا بد من أربعة عناصر : الأول : تصعيد الخير ، أى نوع الخير الذى تفعله يكون أرقى من خير آخر ، فتعمل دائماً على زيادته وتنميته . والثاني : استدامة الخير . والثالث : أن تدوم أنت للخير ، وتحرص على أن تعيش له ، والأمر الرابع : ألا تربط هذا الخير بالأغيار . بل عليك أن تعتمد على الله ثم على نفسك .

وكل خير يأتى دون هذا فهو خير غير حقيقى . فإذا نظرت إلى شهوات النساء والمال والبنين والخيول والأنعام والحرف فإنها ستعطيك متاع الدنيا . ولنسلم جدلاً أن شيئاً لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حيّ ، وأنها ستظل معك طيلة دنياك . فما قيمة الدنيا وهي مقاسة بالآلاف السنين ، والإنسان لا يعيش فيها إلا قدراً محدوداً من الأعوام يقرره الحق سبحانه وتعالى .

إذن فالدنيا تقاس بعمر الإنسان فيها لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عمر الدنيا لغيرك لا يخصك . هب أن هذه الشهوات من نساء وبنين وخيول وذهب وقصّة

وحرث وأنعام وعدة وعناد قد دامت لك ، فما الذي يحدث ؟ إن الدنيا محدودة .
ولا أحد يستطيع أن يستديم الدنيا ، لذلك فلن يستطيع أحد أن يستديم الخير لأن
عمره في الدنيا محدود .

وحياة الإنسان في الدنيا لم يضع الله لها حداً يبلغه الإنسان . إن الله لم يحدد عمراً
يموت فيه الإنسان ، ولكن لكل إنسان عمر خاص محدود بحياته ، فعندما يولد أى
طفل لا تنزل معه بطاقة تحدد عدد السنوات التى سوف يجيها في الدنيا .

وهو سبحانه قد جعل عدد سنوات الحياة مبهما لكل إنسان ، ولذلك يقال إن
الإبهام هو أعلى درجات البيان ، الحق أخفى توقيت الموت وسببه عن الإنسان . متى
يأتى ؟ فى أى زمان وفى أى مكان ؟ كل ذلك أخفاه فأصبح على المؤمن أن يكون مترقباً
للموت فى كل لحظة .

إن الإبهام للموت هو البيان الوافى ، ومادامت الدنيا مبهما طالبت فهمى محدودة وغير
مضمونة للإنسان أن يجيها ، ونعيمه فيها على قدر إمكاناته وقدرته ، وإن لم تذهب
الدنيا من الإنسان فالإنسان نفسه يذهب منها . فإذا ما قارنت كل ذلك باسم الحياة
التي نجياها الآن ، إن اسمها « الدنيا » أى « السفلى » ومقابل « الدنيا » هو « العليا »
وهى الحياة فى الآخرة . ولماذا هى « عليا » ؟ لأنها سنصعد الخبر .

بعد انقضاء هذه الحياة المحدودة ، يذهب المؤمن إلى الجنة وبها حياة غير محدودة ،
وهذا أول تصعيد . ويضمن المؤمن أن أكلها دائم لا يقطع . ويضمن المؤمن أنه
خالد فى الجنة فلا يموت فيها . ويضمن المؤمن قيمة هذه الجنة ؛ لأن الخير إنما يأتى
على مقدار معرفة الفاعل للخير ، ومعرفة الإنسان للخير جزئية محدودة ، ومعرفة الله
للخير كمال مطلق .

فالمؤمن فى الآخرة يتنعم فى الخير على مقدار ما علم الله من الخير . إذن فحياتنا
هى الدنيا ، أى السفلى ، وهناك الآخرة العليا . فإذا طلب المنهج منا ألا نتخذ
بالدنيا ، وألا ننفاد إلى المتاع فهل هذا لون من تشجيع الحب للنفس أو تشجيع
للكراهية للنفس ؟

إنه منتهج سماوى يقود إلى حب النفس ؛ لأنه يريد أن يُصعّد الخير لكل مؤمن ،
لقد بينَ المنهج أن في الدنيا ألوانا من المتع هي كذا وكذا وكذا ، والدنيا محدودة
ولا تدوم للإنسان ، ولا يدوم إنسان لها ، وإمكانات الإنسان في النعيم الدنيوى
محدودة على قدر الإنسان ، أما إمكانات النعيم في الآخرة فهي على قدر قدرة الخالق
المربى ، فمن المنطقى جدا أن يقول الله لنا : « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده
حسن المآب » . وحسن المآب تعنى حسن المرجع .

والحق حينما طلب منك أيها المؤمن أن تغض بصرك عما لا يحل لك ، فقد بطن
الإنسان السطحي أن في ذلك حجرا على حرية العين ، ولكن هذا الغض ليصير أمر
به - سبحانه - إنما ليملا العين في الآخرة بما أحل الله ، إذن فهذا حب من الله
للمخلوق وهذا نصيب في الخير .

ولنفترض أن معك مبلغا قليلا من المال وقابلت فقيرا مسكينا فأثرت أنت هذا
الفقر على نفسك ، فأنت تفعل ذلك لتنال في الآخرة ثوبا مضاعفا . إذن فقضية
الدين هي أمانة عالية سامية ، لا أمانة حمقاء . وبوضح الله بعد ذلك حسن المآب
بقوله سبحانه :

﴿ قُلْ أُوْنِيْتِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ

جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ

بَصِيرٌ ۝١٥﴾

وحين نسمع كلمة « أُوْنِيْتِكُمْ » أوخبركم ، فما نسمعه بعد ذلك كلام عاوى ، أما عندما
نسمع « أُوْنِيْتِكُمْ » فما نسمعه بعدها هو خير هائل لا يقال إلا في الأحداث العظام ،

فلا يقول أحد لآخر : سأثبتك بأنك ستاكل كذا وكذا في الغداء ، ولكن يقال « أنا أثبتك بأنك نلت جائزة كبرى » ، هذا في المستوى البشرى فما بالنسبة لله الخالق الأعلى ، ولذلك يقول الله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ۚ ﴾

(سورة النبا)

إنه الأمر الذى يقلب كيان هذه الدنيا كلها ، فحين يقول الحق : « قل أؤنبثكم بخير من ذلكم » فمعنى ذلك أن الله يخبرنا بخير من هذه الأشياء ، ومن ذلك تعرف أن الله قد جعل هذه الأشياء مقياساً ، لماذا ؟

لأنه مقياس محسوس ، وأوضح لنا كيفية التصعيد فقال : « للذين اتقوا عند ربهم » ، والمؤمن هو من ينظر بشقة إلى كلمة « عند ربهم » أى الرب المتولى التربية والذى يتعهد المربى حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه .

والعندية هنا هى عند الرب الأعلى . فإذا أعد الرب الأعلى للمتقين ؟ لقد أعد لهم « جنات تجري من تحتها الأنهار » ولهم الخيرية فى هذه الجنات ، وهى تقابل فى الدنيا الحرث والزرع ، وقد قلنا : إن الحق حين تكلم عن الزرع تكلم واصفاً له بـ « الحرث » لنعرف أن الزرع يتطلب منا حركة وعملًا .

أما فى الآخرة فالجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً ، ولا يفق الأمر عند ذلك ، بل إن هذه الجنات تجري من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده الله به : « خالدين فيها وأزواج مطهرة » إنه الخلود الذى لا يفنى ، ولا يتركه الإنسان ولا يترك هو الإنسان .

والأزواج المطهرة هى وعد من الله للمؤمنين ، ومن يجب البناء فى الدنيا يعرف أن المرأة فى الدنيا بطراً عليها أشياء قد تنفر ، إما خلقاً تكوينياً ، وإما خلقاً ، فهناك وقت لا يحب الرجل أن يقرب فيه المرأة ، وقد يكون فيها خصلة من الخصال السيئة فيكره الإنسان جامها .

لذلك فالرجل قد يتخدع بالمنظر الخارجى للمرأة فى الدنيا ، وقد يقع الإنسان فى هوى واحدة فيجد فيها خصلة تجعله يكرهها ، أما فى الآخرة فالأمر مختلف ، إنها « أزواج مطهرة » أى مطهرة من كل عيب يعيب نساء الدنيا ، فيأخذ المؤمن جمالها ، ولا يوجد فيها شرور الدنيا ، فقد طهرها الله منها .

« وأزواج مطهرة » من الذى طهرها ؟ إنه هو الله - سبحانه - طهرها خلقاً وخلقاً . فالرجل فى الدنيا قد يهوى امرأة ، وتستمر نضارتها خمسة عشر عاماً تستميله وتجذبه ، ثم تبدأ التجاعيد والترهل والتناثر . أما فى الآخرة فالمرأة مطهرة من كل شيء ، وتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد ، أليس هذا تصعيداً للخير ؟ ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا أمرين :

الأمر الأول : هو جنات تجري من تحتها الأنهار ، ونفارق بينها وبين الحرث فى الدنيا .

والأمر الآخر : هو الأزواج المطهرة ، ونفارق بينها وبين النساء فى الدنيا أيضاً ، ولم يورد الحق أى شيء عن بقية الأشياء ، فأين القناطير المقنطرة من الذهب ؟ وأين الخيل ؟ وأين الأنعام وأين البنون ؟

إننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الأمرين المزيين ، واحداً يستهل به الآية ، والأمر الآخر يأتى فى آخر الآية ، ولنقرأ الآية التى فيها التزيين : « ذين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » .

إن البداية هى النساء ، ذلك هو القوس الأول ، والنهاية هى الحرث وذلك هو القوس الثانى ، وبين القوسين بقية الأشياء المزيينة ، وقد أعطانا الله عوض القوسين ، وأوضح لنا أنهما هما الخير المصعد ، ولم يورد بقية الأشياء المزيينة ، وهذا يعنى أن نفهم ذلك فى ضوء أن الرزق ما به انتفع ، أى أن كل ما ينتفع به الإنسان رزق ، الخلق الطيب رزق ، سماع العلم رزق ، أدب الإنسان رزق ، حلم الإنسان رزق ، صدق الإنسان رزق ، لكن الرزق يأتى مرة مباشرة بحيث تنتفع به مباشرة ، ومرة أخرى يأتى الرزق لكنه لا ينتفع مباشرة ، بل قد يكون سبباً ووسيلة لما ينتفع مباشرة .

مثال ذلك الخبز ، إنه رزق مباشر ، والنقود هي رزق ، لكنها رزق غير مباشر ؛ لأن الإنسان قد يكون جائعاً وعنده جبل من ذهب ، فلو قال واحد لهذا الإنسان : خذ رغيفاً مقابل جبل الذهب ، سيعطى الإنسان الجائع جبل الذهب مقابل الرغيف ؛ لأن الإنسان لا يأكل الذهب ، وكذلك كوب الماء بالنسبة للعطشان .

إذن فهناك رزق لا يطلب لذاته ، ولكن يطلبه الإنسان لأنه وسيلة لغيره فالوسيلة لغيره أنت لمن تحتاج إليها في الآخرة ؛ لأنك ستعيش بيدك الأسباب يقول الحق : « كن » . فالإنسان لمن يحتاج في الجنة إلى مال ، أو قناطر مقطرة من الذهب والفضة ؛ لأن كل ما تشتهي النفس سجنه ، ولن تحتاج في الآخرة إلى خيل مسومة ؛ لأنك لمن تجاهد عليها أو تتلذذ وتستأنس بركوبها .

وكل ما لا تحتاج إليه في الآخرة من أشياء أعطاها لك الله في الدنيا لتسعى بها في الأسباب ، ولم يورده الله في قوله : « قل أوتيتكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » لم يوردها في النص الكريم ، لأن عطاء الله في الآخرة بالرزق المباشر ، أما الأشياء التي يسعى بها الإنسان إلى الرزق المباشر في الدنيا فلم يوردها لعدم الحاجة إليها في الآخرة ، فنحن نحب المال ، لماذا ؟ . لأنه يحقق لنا شراء الأشياء ، والحبل المسومة نجعلها ؛ لأنها تحقق لنا القدرة على القتال والجهاد في سبيل الله . والأنعام ؛ لتحقيق لنا المتعة .

أما الجنة في الآخرة فالمؤمن يجد فيها كل ما تشتهي النفس ، وكل ما يخطر ببال من يرزقه الله الجنة سوف يجده ؛ فالوسائل لا لزوم لها . لذلك تكلم الحق عن الأشياء المباشرة ، فأورد لنا ذكر الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، وذكر لنا الأزواج المطهرة .

وعندما تأمل قول الحق : « قل أوتيتكم بخير من ذلكم » قد يقول قائل : ألم يكن من المنطق أن نخبرنا الحق مباشرة بما يريد أن يخبرنا به ، بدلاً من أن يسألنا : أخبرنا بهذا الخير ، أم لا ؟

ونقول : أنت لم تلتفت إلى التشويق بالأسلوب الجميل ، وحنان الله على خلقه .
إنه سبحانه وتعالى يقول لنا : ألا تريدون أن أقول لكم على أشياء تفضل تلك الأشياء
التي تسيركم في الدنيا . فكأن الحق سبحانه وتعالى قد نبه من لم ينتبه ، ولم ينتظر الحق
أن نقول له . قل لنا يارب .

لا ، إنه يقول لنا دون طلب منا ، ويقال عن هذا الأسلوب في اللغة إنه « استفهام
للتفكير » ، « للإنسان حين يسمع : « أوتيتكم بخير من ذلكم » فالذهن يشغل ، فإن
لم يسمع النبأ ، فليسوف يظل الذهن مشغولاً بالنبأ ، ويأتى الجواب على استيقاف
فيتمكن من نفس المؤمن .

ويأتى النبأ « للذين افقوا » ، فعندما ثمن النظر في الشهوات التي تقدمت من نساء
وبنين وفناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مسمومة وأنعام وحرث ، ألا يكون من
المناسب فيها أن يتقى الإنسان ربه في مجالها ؟

إن التقوى لله في هذه الأشياء واجبة ، ولذلك قلنا من قبل قضية ترد بها على
الذين يريدون أن يجعلوا الحياة زهداً وانحساراً عن الحركة ، وأن يوقفوا الحياة على
العبادة في أمور الصلاة والصوم ، وأن يترك كل شيء . هؤلاء نقول : لا ؛ إن
حركتك في الحياة تعبتك على التقوى ؛ لأننا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل
الإنسان بينه وبين النار حجاباً ، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية . فإذا
ما أخذت نعم الله لتصرفها في ضوء منهج الله فهذا هو حسن استخدام النعم .

وقد أوضحنا من قبل أن التقوى حين تأتي مرة في قول الحق : « اتقوا الله » وتأتي
مرة أخرى « اتقوا النار » فهما ملتقيان ؛ فاتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى ،
وعندما يتقى الإنسان الله فهو يتقى غضب الله ؛ لأن غضب الله يورد العذاب ،
والعذاب من جنود النار . إذن فالذين يتقون الله لا يظنون أنهم زهدوا في هذه الحياة
لذات الزهد فيها ، ولكن للطمع فيها هو أعل منها ، إنه الطمع في النعيم الآخروي
الدائم .

وبوضح الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : أنكم لن تتمتعوا في الآخرة لضرورة

الحاجة للمتعة ، بحيث إذا ما جاءت النعمة عليكم تفرحون بها ، إن الأمر لا يقتصر على ذلك وإنما يتعداه إلى أنكم - أيها المؤمنون - تحبون فقط أن تروا المنعم ، فإمام المؤمن الذي يدخل الجنة يجد كل ما يشتهي بل إنه لا يشتهي شيئاً حتى يأتيه ، ويستمتع على قدر عطاء الله وقدراته .

وإذا لم يشته الإنسان شيئاً في الجنة أو نساء ، ويصبح مشغولاً برؤية ربه فإن مكانه جنة من الجنان اسمها « عليون » و« عليون » هذه ليس فيها شيء مما تسمعه عن الجنة ، ليس فيها إلا أن تلقى الله . إن الرزق والنعم ليسا من أجل قوام الحياة في الجنة ، بل إن الإنسان سيكون له الخلود فيها ، فالذي يحتاج إليه الإنسان هو رضوان من الله .

إن رضواناً من الله أكبر من كل شيء . ولقد نبأنا الله بما في الجنات ، ونبأنا بالخير من كل ذلك . لقد نبأنا الله بأن رضوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمن أن يظفر برؤية ربه . وهذا ما يقول فيه الله .

﴿ وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَٰكُ رَبِّهَا نَاصِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة التين)

إذن فهناك في الجنة مراتب ارتقائية . ونجربنا الحق من بعد ذلك : « والله بصير بالعباد » أي أن الله سيعطي كل إنسان على قدر موقفه من منهج ربه ، فمن أطاع الله رغبة في النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومن أطاع الله لأن ذات الله أهل لأن تطاع فإن الله يعطيه متعة ولذة النظر إليه - سبحانه - تقول رابعة العدوية في هذا المعنى : كلهم يعبدون من خوف نار

ويسرون السجاة حظاً جزيلاً
لئنني لست مثلهم وهذا

لست أبغى بمن أحب بديلاً
وقالت أيضاً : اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فادخلني فيها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمي منها ، وإنما أعبدك لأنك تستحق أن تعبد .

إذن فـ « الله بصير بالعباد » أى أنه سيعطى كل عبد على قدر حركته ونيته في الحركة ؛ فالذى أحب ما عند الله من النعمة فليأخذ النعمة ويفيضها الله عليه . أما الذى أحب الله وإن سلب منه النعمة ، فإن الله يعطيه العطاء الأوفى ، وذلك هو مجال مياهاة الله للملائكة . . . ومن أقوى دلائل الإيمان وكماله .. إيثار حبة الله ورسوله على كل شيء في الوجود :

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعبد في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار » (١) . إن هناك العبد الذى يحب الله لذاته ؛ لأن ذاته سبحانه تستحق أن تعبد ، فذات الله تستحق العبادة ؛ لأنه الوهاب ، الذى نظم لنا هذا الكون الجميل .

إذن فقوله الحق : « والله بصير بالعباد » يعنى أن الله يعلم مقدار ما يستحق كل عابد لربه ، وعلى مقدار حركته ونيته في ربه يكون الجزاء ، فمن عبد الله للنعمة أعطاه الله النعمة المرجوة في الجنة ليأخذها ، ومن أطاع الله لأنه أهل لأن يطاع وإن أخذت - بضم الألف وكسر الخاء - النعمة منه فإن الله يعطيه مكاناً في عليين .

ولذلك قيل : إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل . لماذا ؟ لأن ذلك دليل صدق المحبة . والإنسان عادة يحب من يحسن إليه ، ولا يحب من تأتى منه الإساءة إلا إن كانت له منزلة عالية كبيرة . إنه مطمئن إلى حكمته ، إنه ابتلاه - وهو يعلم صبره - ليعطيه ثواباً جزيلاً وأجرًا كبيراً ، والحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ قُلْ كَانَ رَجُلٌ

لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلَبَّعَلَ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۖ أَحَدًا ۝١٥﴾

(سورة الكهف)

لقد قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه » ولم يقل جنة ربه وهكذا يجب ألا تشغلنا النعمة - الجنة - عن المنعم وهو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان المحسن قد طلب منا ألا نشرك بعبادة ربنا أحداً فلنعلم أن الجنة أخذ .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١٦)

إن قولهم : « ربنا إننا آمنا » هو أول مرتبة للدخول على باب الله ، فكان الإيمان بالله يتطلب رعاية من الذي تلقى التكليف لحركة نفسه ، لأن الإيمان له حق يقتضي ذلك ، كأن المؤمن يقول : أنا بيشري لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك ، فيارب اغفر لي ما حدث لي فيه من غفلة ، أو من زلة ، أو من كبر ، أو من نزوة نفس .

وهذا الدعاء دليل على أنه عرف المطلوب الإيمان كما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه لمعنى الإحسان حين قال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) .

كأنك تستحضر الله في كل عمل ، لأنه يراك . وهل يتأتى لواحد من البشر أن يجترأ على محارم من يراه بعينه ؟ حينئذ يستحضر المؤمن ما جاء إلينا من مأنور القول ، فكانه سبحانه وتعالى يوجه إلينا الحديث : يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم ، فالخلل في إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم ؟

وكان الحق سبحانه يقول للعبد : هل أنا أقل من عبيدي ؟ أتقدر أن تسيء إلى أحد وهو يراك ؟ إذن فكيف تجرؤ على الإساءة لخالقك ؟

إن قول المؤمنين : « إننا آمنا فاعفر لنا » دليل على أنهم علموا أن الإيمان مطلوباته صعبة . « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاعفر لنا ذنوبنا » .

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

فلنر على ماذا رتبوا غفران الذنب ؟ لقد رتبوا طلب غفران الذنب على الإيمان .
لماذا ؟ لأنه مادام الحق سبحانه وتعالى قد شرع التوبة ، وشرع المغفرة للذنب ، فهذا
معناه أنه سبحانه قد علم ألا أن عباده قد تخونهم نفوسهم ، فينحرفون عن منهج
الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله على السنة المؤمنين : «وقنا عذاب النار» لأنه
ساعة أن أعلم أن الحق سبحانه وتعالى ضمن لي بواسع مغفرته أن يستر على الذنب ،
فإن العبد قد ينجل من ارتكاب الذنب ، أو يسرع بالاستغفار .

ولماذا لا يكون قوله : «فاغفر لنا ذنوبنا» بمعنى استرها يارب عنا فلا تاق لنا
أبدا ؟ وإن جاءت فهي محل الاستغفار والتوبة . فإذا أذنبت ذنبا ، واستغفرت رب ،
وعلمت أن رب قد أذن بالمغفرة ، لأنه قال :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾

(من الآية ١٠ من سورة توب)

فإن الرجل يمتنع ، والخوف يذهب عني ، وأقبل على الله بمحبة على تكاليفه وأحمل
نفسى على تطبيق منهج الله كله . ولذلك حينما شرع الحق سبحانه وتعالى للمخلوق
التوبة كان ذلك رحمة أخرى . وهذه الرحمة الأخرى تتجلى في المقابل والنيقض .

حب أن الله لم يشرع التوبة وأذنب واحد ذنبا ، وبمجرد أن أذنب ذنبا خرج من
رحمة الله ، فإذا بصيب المجتمع منه ؟ إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا
الإنسان لأنه فقد الأمل في نفسه ، أما حينما يفتح الله له باب التوبة فإن ارتكب العبد
ذنبا ساهيا عن دينه ، فإنه يرجع إلى ربه .

وتلك واقعية الدين الإسلامى ، فليس الدين مجرد كلام يقال ، ولكنه دين يقدر
الواقع البشرى ، فإنه - سبحانه - يعلم أن العباد سيرتكبون الذنوب ، فيرسم لهم
أيضا طريق الاستغفار . وإذا ما ارتكب العباد ذنوبا ، فإن الحق يطلب منهم أن
يتوبوا عنها . وأن يستغفروا الله . فإذا ما لدعتهم التوبة حينما يتذكرون الذنب فإن
هذه اللذعة كلما لدعتهم أعطاهم الله حسنة .

كان غفران الذنب شيء ، والوقاية من النار شيء آخر . كيف ؟ لأنه ساعة أن يعلم العبد أن الحق سبحانه وتعالى ضمن للعبد مغفرته ، وهو الخالق المربى ، فإن العبد يذهب إلى الله مستغفرا طامعا في المغفرة والرحمة . إنها دعوة المؤمنين إن كانوا قد نسوا أن يستغفروا لأنفسهم . لماذا ؟ لأن الاستغفار من الذنب تكليف من الله . وكما قلنا : إن الإنسان قد ينسى بعضا من التكاليف ، لذلك فمن الممكن أن يسهو عن الاستغفار ، ولذا يقول الحق على السنة عباده المؤمنين : «وفنا عذاب النار» .

ومعنى التقوى أن نجعل بينك وبين النار وقاية ، أو نجعل بينك وبين غضب ربك وقاية ، فإذا ما أخذت النعم من الله لتصرفها في منهج الله تكون حنة لك ، وقلنا : إن «اتقوا الله» و«اتقوا النار» ملتقيتان ، لأن معنى «اتقوا النار» كي لا تصيبكم بأذى ، «واتقوا الله» نعى أن نضع بيننا وبين غضب الله وقاية ، لأن غضب الله سيأتى .

وبعد ذلك يقول الحق :

الضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِلِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ

وهذه كلها صفات للذين اتقوا الله ، وأعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، والأزواج المطهرة ، ورضوان من الله أكبر ، وهم صابرون وصادقون وقانتون ومنفقون في سبيل الله ، ومستغفرون بالأسحار .

وصابرون على ماذا ؟ إنهم صابرون على تنفيذ تكاليف الله ، لأننا أول ما نسمع عن التكليف فلنعلم أن فيه كلفة ومشقة ، والتكاليف الشرعية فيها مشقة لأنها قيدت حرية العبد .

لقد خلقك الحق خلقا صالحا لأن تفعل كذا وألا تفعل . فساعة يقول لك :

افعل . . فإنه قد سد عليك باب « لا تفعل » وساعة يقول لك الحق : لا تفعل فإنه يكون قد سد عليك باب « افعل » ، وهكذا يكون تقييد حركتك وتقييد المخلوق على هيئة الاختيار فيه مشقة ، فإذا ما جاء أمر الله بـ « افعل » فقد يكون الفعل في ذاته شاقا ، فإن صبرت على مشقة الفعل الذي جاء بوساطة « افعل » فأنت صابر ، لأنك صبرت على الطاعة . . وقد تصبر عن المعصية ، عندما يلح عليك شيء فيه غضب الله فترفض أن ترتكب الذنب ، فتكون قد صبرت عن ارتكاب الذنب .

إذن ففى « افعل » صبر على مشقتها ، وفى « لا تفعل » صبر عنها ، فالصابرون لهم اتجاهان اثنان ، لأن التكليف إما أن يكون بإفعل ، وإما أن يكون بلا تفعل . . ساعة يأتي التكليف بإفعل فقد تأتى المشقة . . وعندما تنفذ التكليف بإفعل فأنت قد صبرت على المشقة . . وعندما يأتى التكليف بـ « لا تفعل » كأمر الحق بعدم شرب الخمر ، أو « لا تسرق » فأنت قد صبرت عنها . . إذن فـ « افعل » ولا « تفعل » قد استوعبت نوعى التكليف ، وبقيت بعد ذلك أحداث لا تدخل فى نطاق افعل ولا تفعل ، وهى ما ينزل عليك نزولا قديرا بدون اختيار منك بل هى القهرية والقسرية .

ساعة أن يطلب الله منك أن تفعل ، أى إنه قد خلقك صالحا لا تفعل كما قلنا من قبل . . إلا إن كنت مجبرا على الفعل فقط . وكذلك إذا قال لك الحق : « لا تفعل » . والشئ القدرى الذى لا صلاحية فيه للاختيار ماذا يفعل فيه المؤمن ؟ إنه يصبر على الآلام والمتاعب لأنه آمن بالله ربا ، والرب هو الذى يتولى تربية المؤمن لبلوغه حد الكمال المنشود له فإذا جاء لك الحق بأمر لا خيار لك فيه ، كالمرض أو الكوارث الطارئة ، كوقوع خجر من أعلى أو إصابة برصاصة طائشة ، فكل ذلك هى أمور لا دخل له « افعل » ولا « تفعل » فيها .

وهنا يكون الصبر على مثل هذه الأمور هو إيمان بحكمة من أجزاها عليك . لأن الذى أجزاها رب ، وهو الذى خلقنى فأنا صنعته . وما رأينا أحدا يفسد صنعته أبدا . فإذا ما جاء أمر على الإنسان بدون اختيار منه ، فالذى أجزاها له فيه حكمة ، فإن صبر الإنسان على هذه الآلام فإنه يدخل فى باب الصابرين .

إذن ، فالصابرون أنواع هم : صابر على الطاعة ومشاقها ، صابر عن المعاصي

ومغرياتها ، وصابر على الأحداث الفدرية التي تنزل عليه بدون اختياره . وإذا رأيت إنسانا قد صبر على أمر الطاعة وصبر عن شهوة المعصية وصبر على الأقدار النازلة به ، فاعرف حبه لربه ورضاه عنه .

ونأى بعد ذلك لوصف آخر يقول الله فيه : « الصابرين » والصادقين » .

والصدق كما نعلم يقابله الكذب ، والصدق كما نعرف حقيقته : بأن حين توافق النسبة الكلامية التي يتكلم بها الإنسان ، النسبة الأخرى الخارجية الواقعة في الكون .

فإن قلت : « حصل كذا وكذا » فذلك نسبة كلامية صدرت من متكلم ، فإن وافقها الواقع بأنه حصل كذا وكذا فعلا يكون المتكلم صادقا . وإن لم يكن الواقع موافقا لحدوث ما أخبر به يكون المتكلم كاذبا . لماذا ؟ لأن كلام المتكلم العاقل لا بد له من نسب ثلاث :

الأولى وهي النسبة الذهنية : فقبل أن أتكلم أغرض الأمر على ذهني ، ودعني هو الذي يعطى الإشارة للسان ليتكلم ، هذه هي النسبة الأولى واسمها « نسبة الذهن » . وقد يعنى لي أن تأتي النسبة الذهنية ثم أعدل عنها فلا أتكلم ، فتكون النسبة الذهنية قد وُجِدَتْ ، والنسبة الكلامية لم توجد .

وقد أصر على أن أبرز إشارة ذهني على لسان فأقول النسبة الكلامية . ونأى بعد النسبة الكلامية لنرى : هل الواقع أن ما حدث وتحدث به وقع أم لم يقع ؟ فإن كان قد وقع ، يكون الكلام مني صادقا . وإن لم يكن قد وقع ، وكانت النسبة الخارجية على عكس ما أخبرت به . فإننا نقول : « هذا كلام كذب » إذن : فالصدق : هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والكذب : هو ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع . وكثيرا ما يخطئ الناس في فهم الواقع فيجدون تناقضا في بعض الأساليب .

مثال ذلك ، حينما تعرض بعض المشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

تلك نسبة كلامية صدرت منهم ، فهل هي مطابقة للواقع أم هي مخالفة له ؟

إنها مطابقة للواقع . ويؤكد الحق ذلك بقوله :

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾

(من الآية الأولى من سورة التائِبِينَ)

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

(من الآية الأولى من سورة التائِبِينَ)

فقيم كذب المنافقون ؟ هل كذبوا في قولهم : « إنك لرسول الله » ؟ لا . إن الحق لم يكذبهم في قولهم : « إنك لرسول الله » ، لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ولكن كذبهم الله فيما منها عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : « نشهد إنك لرسول الله » . لقد كذبهم الله في شهادتهم ، لا في المشهود به ، وهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، إن الله يعلم أن محمداً رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان في شهادتهم هم .

إن كلام المنافقين مردود من الله . لماذا ؟ لأن الشهادة تعني أن يواطع القلب ويوافقه . وقولهم : شهادة لا توافق قلوبهم وتعني كذبهم .

إذن ، فالكذب هو لشهادتهم ، فلو قالوا : « إنك لرسول الله » دون « نشهد » لكان قولهم : قضية « سليمة » . ولذلك كان تكذيب الله لشهادتهم ، ومن هنا نذكر السر في قول الله : « والله يعلم إنك لرسوله » . إن الحق يؤكد الأمر المشهود به وهو بعث محمد رسولاً من عند الحق ، وبعد ذلك يأتي لنا الحق بشهادته إن المنافقين كاذبون في قولهم : « نشهد » . فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والصدق .. كما قلنا من قبل - حق ، والحق لا يتعدد ، وضريت من قبل المثل بأن الإنسان الذي نطلب منه

أن يروى واقعة شهدا بعينه ، وأن يحكيها بصدق لن يتغير كلامه أبداً ،
 مهياً تكرر القول ؛ أو عدد مرات الشهادة . لكن إن كانت الواقعة كذباً ، فالراوي
 تختلط عليه أكاذيبه ، فيروى الواقعة بألوان متعددة لا انساق فيها ، وقد ينسى الراوي
 الكاذب ماذا قال في المرة الأولى ، وهكذا ينكشف سر الكذب . لكن الراوي عن
 واقع مشهود وبصدق ، هو الذي يحكى ، وهو الذي لا تختلف رواياته في كل مرة عن
 سابقتها بل تتطابق .

فعندما نقول : « إن زيدا مجتهد » ، فهذا يعني أن اجتهاد زيد قد حدث أولاً ،
 ثم يأتي في ذهن من رأى اجتهاد زيد أن يحبر بأمر اجتهاده ، ثم يحبر بالكلام عن
 اجتهاد زيد . إن الأمر الخارج وهو اجتهاد زيد قد حدث أولاً ، وبعد ذلك تأتي
 النسبة الذهنية ، وبعد ذلك تأتي النسبة الكلامية .

ولكن الإنشاء وهو ضد الخبر ، هو أن نطلب من واحد أن ينشئ أمراً لا واقع
 له ، كأن نقول لواحد : اجتهد . إننا قبل أن نقول لإنسان ما : « اجتهد » فمعنى
 ذلك أن الاجتهاد كان أمراً في ذهن القائل ، وعندما ينطقها تصبح « نسبة كلامية » .
 وبعد ذلك يحدث الواقع ، بعد النسبة الذهنية ، والنسبة الكلامية ، وهذا هو
 الإنشاء .

إن الإنشاء الطلبي يعني أن تحدث النسبة الخارجية بعد النسبة الكلامية .
 والصادقون هم الذين أراد الله أن يمدحهم ، لماذا ؟ وأين هو مجال صدقهم ؟ إنهم
 الذين تتطابق حركاتهم مع منهج الله ، لأنهم حين قالوا : « لا إله إلا الله » ، وآمنوا
 به ، فهم قد التزموا بكل مطلوبات الإيمان قدر الطاقة . ومعنى « لا إله إلا الله » أي
 لا معبود إلا الله . ومعنى لا معبود إلا الله أي أنه لا طاعة إلا لله .

والطاعة - كما نعرف - هي امتثال أمر ، وامتثال نهي . إذن فمجال « لا إله
 إلا الله » يشمل أنه لا معبود بحق إلا الله ، ولا مطاع في تكليفه إلا الله ، ولا امتثال
 لأمر أو لنهي إلا للأمر القادم من الله . فإن امتثال إنسان الأمر من الله بعد قوله :
 « لا إله إلا الله » كان هذا الإنسان صادقاً في قوله : « لا إله إلا الله » .

وهذا هو صدق القمة ، أن تكون كل تصرفات قائل : « لا إله إلا الله » متطابقة

مع هذا القول ، والمؤمن الحق هو من يبني كل تصرفاته موافقة لمنهج الله . هذا هو الإنسان الصادق . أما الذي يقول بلسانه : « لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله » ثم يخالف ربه بعصيانه له ، لنا أن نقول له : أنت كاذب في قولك « لا إله إلا الله » لماذا ؟ لأنه لم يطابق النسبة التي قالها . إن هذا الإنسان إذا آمن بأي تكليف ثم فعل ما يناقضه قلنا له : أنت منافق ، لماذا ؟ لأننا عندما تكلمنا في أول سورة البقرة عن المنافقين قلنا : إن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقا مع نفسه ، لأنه قال : « لا إله إلا الله » وهو مؤمن بها ، والكافر حين ينكر الألوهية يكون صادقا مع نفسه أيضا .

أما المنافق فهو لا يصدق مع نفسه ، ولا يصدق مع الناس ، إنه مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء . إن المنافق بلا صدق مع النفس ولذلك يصفهم الحق :

﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة النساء)

إن الكافر له صدق مع النفس فهو لا يقول : « لا إله إلا الله » لأنه لا يعتقد بها . أما المنافق فقد قال : « لا إله إلا الله » وهي غير مطابقة لسلوكه ، لذلك يكون غير صادق مع نفسه ، وغير صادق مع ربه . إذن ، فقول الحق : « الصادقين » مقصود به هؤلاء الناس الذين يأتون في كل حركاتهم صادرين عن منهج الله ، فلا يؤمنون بقضية ، ويفعلون أخرى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمِ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ ﴾

(سورة الصف)

أي أنه حين يكون القول شيئا مختلفا عن الفعل ، لا تنطبق النسبة . فالصادقون هم الذين يصدقون في سلوكهم مع كلمة التوحيد في كل ما تتطلبه هذه الكلمة من هذه السلسلة : « لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله » أي لا مطاع في أمر أو نهى إلا الله ، فإن جئت وطاوعت أحدا في غير ما شرع الله بحق للمؤمنين أن يقولوا لك : أنت كاذب في قولك : « لا إله إلا الله » .

« فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزن الزاني حين يزن وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) .

هذا هو سمو الإيمان عند المؤمن ، إن المؤمن لا يمكن أن يكذب أو يخالف مقتضيات عقيدته ، لأن المؤمن في كل تصرفاته خاضع لإيمانه بأنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق : « والقانتين » والقانت : هو العابد بخشوع وباطمئنان وباستدامة . والقانت صادق مع نفسه ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف عباده تكليفا ، فقد يكلفهم بشيء يعز على أفهامهم أن تدرك حكمته .

وأقبل القانتون من العباد على هذا التكليف ، لأن الذي أمرهم به إله قادر ، فهم يثقون في حكمته فأدوا الأمر الصادر إليهم لأنهم خاضعون لحكمة الله .

إنهم مفلحون للأمر القادم من الأمر لا لعله الأمر . وبعد أن يصنعوا ذلك : يريهم الله نورانية هذا الحكم بأن يعطيهم فرقا في أنفسهم :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَشْفُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾

(سورة الانفال)

فيقول المؤمن منهم لنفسه بعد أن يرى هذا الفرقان : إن الله قد أراد لي بهذا الأمر أن أدرك حلاوة طاعة هذا الأمر ، ولذلك قال أحد العارفين بالله :

إن كنت تريد أن تعلم عن الله حكما كلفك الله به دون أن تعلم علته فائق الله فيه ، وحين تنفي الله في هذا الأمر ، فإنك تحجب الحكمة مستترة في ذهنك ، ولذلك يقول الله :

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

فكانك قبل التقوى لم يعلمك الله ، أما بعد التقوى فإن الله بعلمك ، فتقبل على تنفيذ التكليف لتلمس إشارة في نورانية نفسك ، وهذا هو الفارق بين الأمر من المساوي ، والأمر من الأعلى . وعندما ترتقى كلمة «الأعلى» ، فإنها لا تنطبق إلا على الأعلى المطلق وهو الله ، إنه الأعلى في الحكمة ، والأعلى في المنزلة ، والأعلى في المكانة ، والأعلى في الربوبية .

إذن ، فالإنسان لا يطلب علة حكم إلا من مساو له ، فإن قال لك أحد من البشر : افعل الشيء الفلاني . فإنك تسأله : لماذا ؟ فإن أفتحك ، فأنت تقوم بالفعل . وتكون قد قمت بتنفيذ هذا الفعل . لأن المساوي لك قد أفتحك بالحكمة لا بالطاعة له .

ولكن عندما يصدر الأمر من الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ، فإنك أيها العبد المؤمن تنفذ الأمر فوراً عشقاً في طاعته . والمثال الذي أضربه للتقريب لا للتشبيه ، قاله الأعلى ، وهو منزّه عن كل شبيه ، إن الأب يقول لابن في حياته اليومية : إن نجحت في المدرسة فسأحضر لك هدية هي الدراجة . فهل معنى ذلك أن علة الذهاب إلى المدرسة هي الحصول على الدراجة كهدية ؟ لا ، ليست هذه هي العلة ، إن العلة عند الأب هي أن يتعلم الابن ويتفوق في حياته ، ويكبر ، وعند ذلك يدرك العلة ، ويقول لنفسه : لقد كان أبي على حق .

إذا كان هذا يحدث في الحياة بيننا نحن البشر ، فكيف لنا بطاعة الأمر الصادر من الله ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف العبد تكليفاً ، فإن العبد قد يجد مشقة في فهم العلة . والعبد المؤمن يعرف أن الرضوخ لتكليف الحق إنما هو خضوع للأمر الأعلى .

إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن بمن هو أعلى منه وأعلى من كل كائن ، ولا يساويه أحد ، إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن أولاً بأن الله هو الإله الواحد - سبحانه - له مطلق

الحكمة ، وله القوة وله كل شيء في الكون ، وسبق أن ضربت المثل - والله المثل الأعلى .

إن الإنسان قد يمرض ، وصحة الإنسان أثمن شيء عنده ، فيفكر في الذهاب إلى طبيب ، ويقول له : إنني أتعب من معدى ، أو من قلى أو من أمعائى ، إنه يحدد ما يشكو منه . وعقل الإنسان هو الذى هداه إلى الطبيب الذى يشخص العلة ، وبعد ذلك يأخذ المريض من الطبيب ورقة مكتوباً فيها الأدوية اللازمة . إن الإنسان يتناول كل دواء من هذه الأدوية دون أن يسأل الطبيب عن حكمة كل دواء ، لأنه لو سأل عن ذلك فهذا معناه الدخول في مناهة كياوية ، فإن سأل أى إنسان ذلك المريض : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فيجيب المريض : لأن الذى كتب لى هذا الدواء هو الطبيب المختص بعلاج المعدة ، أو القلب ، أو الأمعاء أو أى عضو يشكو منه الإنسان .

والطبيب قد يخطئ ، إنما حكم الله لا يخطئ أبداً ، فهو جل شأنه منزّه عن الخطأ تماماً . إن الحكمة تكون عند الحق سبحانه وتعالى ، وعندما يتفقد المؤمن مطلوب الله فإنه يدرك آثار الحكمة الربانية في نفسه . وكلمة « قانتين » كما عرفنا هي وصف لمن يعيشون القنوت ، والقنوت هو عبادة مع خضوع ، وخشوع واستدانة . لماذا الخضوع ، والخشوع ؟

لأن الله جل وعلا لم يشرع العبادة لينفذها الإنسان ، وينفذ نفسه من عذاب النار ، لا ، إنما نرى كثيراً من الناس - إذا ما لاحظنا واقع الحياة - إذا وجدوا رئيساً قوى الشكيمة وقوانينه صارمة في أن الموظفين تحت يده يجب أن يحضروا صباحاً في الميعاد المحدد ، وأن ينصرفوا في الميعاد المحدد ، ولا يسمح لهم بالاستغفال بغير العمل ، فلا يشربون الشاي ، ولا يقرأون الصحف ولا يقابلون الأصدقاء ، وغير ذلك من الأعمال . ويأتى واحد من الموظفين فيقول عن هذا الرئيس « إنه شديد المراس ، ولذلك فليس له عندى إلا أن أحضر في الثامنة إلا خمس دقائق ، ولن أنصرف إلا في الثانية وخمس دقائق ، ولن أقرأ الصحف ولن أفعل أى شيء مما يمنعني » . إن هذا الموظف يفعل ذلك بجبروت واستعلاء على رئيسه حتى لا يسمع له بنقد أو تحريج ، فهذا الموظف ممتثل ولكن باستعلاء .

إنها طاعة بلا حب ، ولكنها باستعلاء . وقد يحاول عبد أن يقول : ماذا يطلب الله مني ؟ ألا يطلب مني الصلاة والزكاة وإقامة العبادات ؟ سوف أفعل ذلك . لمثل هذا العبد نقول : لا ، إن الله يطلب العبادات بحب منك وخشوع واطمئنان ، لأن التكليف من الحق صدقة أخرى أجراها الله على العبد . إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف العبد بالتكاليف الإيمانية ، حتى يكون الإنسان سويا وله قيمة في الحياة .

إن معنى « قانت » هو العبد الذي يؤدي عبادة ربه بخشوع ، وباطمئنان ، وباستدامة . لماذا ؟ لأن الذي يقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرب وده الله فلم يجد الله أهلا للود . أما العبد الطائع فهو لا ينصرف عن العبادة ، لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، ومادام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع ، واطمئنان ، واستدامة ، ويدخل في دائرة القانتين .

وبعد « القانتين » يقول الله سبحانه : « والمنفقين » وكلمة أنفق و« نفق » مأخوذة من كلمة « نفق الحمار » أي مات ، و« نفقت السوق » أي انتهت بضائعها واشتراها الناس ولم يبق منها شيء . و« نفقة » مأخوذة من هذا المعنى لتشعرنا بأن الإنسان حين ينفق فهو يبيع ما أنفقه من نفسه ، فلا يتذكر أنه أنفق على فلان كذا ، وعلى علان كذا ، أي يعلم يقينا أن ما أنفقه هو رزق من أنفقه عليهم وليس له إلا أجر إيصاله إليهم فلا من ، ولا إدلال .

إن الله يريد من كل إنسان يخرج شيئا من ماله أن ينهي من ذهنه هذا الشيء الذي خرج من المال فلا يذكره ولا يحنّ به على أحد . « والنفقة » تقتضي وجود منفق ، ومنفقا عليه ، ومنفقا به ، المنفق كما نعرف هو المؤمن الذي عنده فضل ماله ، والمنفق عليه هو الفقير ، والمنفق به هو الخيرات .

ومن أين تأتي هذه الخيرات ؟ إنها تأتي نتيجة الحركة في الحياة ، وحركة المتحرك في الحياة تقتضي قدرة ، فإذا كان الإنسان عاجزا ، ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ؟ إن الله لا يد أن يضمن له في حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل الله القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزا غدا . ومادامت القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر

من الله بأن يتفق على غير القادر ، فلا بد أن يُقدر في نفسه أن قدرته هي عرض من أعراض الحياة ، والغادر الآن من الأغيار ، لذلك فهو عرضة لأن يصير غدا من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : « عندما أصبح عاجزا سوف أجد من يعطيني » . أليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن . إن المؤمن يعطي عند قدرته ، وذلك حتى يجنبه الله مشقة السؤال إن جاءت الأغيار ، لأن الأغيار إن جاءت سوف يجد من يعطيه .

إننا يجب أن نلتفت في الحكم ، لا ساعة أن تطالب أنت بأداء مطلوب الحكم ، ولكن ساعة أن يؤدي الغير إليك مطلوب الحكم . فالذي يطلب منه أن يتفق ، عليه أن يقدر أنه قد أصبح عاجزا ، ولنا أن نسأله : لو كنت عاجزا ألم تكن تحب أن يعطيك الناس دون من أو أذى ؟

إن هذا هو التأمين الحق ، لأن التأمين في يد الله ، ومادامت الأغيار عرضة لأن يصير القادر عاجزا ويصير العاجز قادرا ، فساعة يتفق المتفق يجب عليه أن يبيت أنه أنفق فلا يتذكر وجه من أنفق عليه ، ولا يخبر أحدا بما أنفق .

عد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذي أنفق حتى لا تعلم شياله ما صنعت بعينه من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله فقال : (سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تجابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شياله ما تنفق بعينه) (١) .

وبعد ذلك على المؤمن المتق أن يقدر ساعة عطاؤه أنه أخر ليأخذ ، إما أن يأخذ إن طرأت له الأغيار في الدنيا ، وإما أن يأخذ من يد الله في الآخرة أضعافا مضاعفة . إذن ، فالمتفق هو الذي يؤمن لغير القادر حركته في الحياة ضمانة لنفسه حين لا يقدر ، أو استشارا مضاعفا عند الله ، وهؤلاء المنفقون الذين يسعون العاجزين بفضل ما لديهم ، يظهرون حكمة الله في الوجود ، لأن الله مادام قد خلقنا ، وغينا

القادر ، وقينا العاجز ، فقد أراد الله لنا أن نعرف أن القدرة ليست لازمة في الخلق . فإن قدرت الآن فقد تسلب - بضم التاء - منك هذه القدرة ، ومادامت القدرة يتم سلبها ، فلا بد أن يتمسك المؤمن بالقبوم الذي يقيم القدرة لك أيها المؤمن دائما ، وذلك حتى يعرف الواحد منا أنه لم ينفلت من ربه ، خلقنا قادرين وانتهت المسألة . لا . إن القدرة أغيار نذهب ونجى . ومادامت الأغيار تذهب ونجى فلا بد أن يضع المؤمن نصب عينه عطاء القادر الأعلى .

وقلنا سابقا : إن الله جعل المتقين وصفا من أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحصى الله الضعيف الذي خلقه الله لحكمة في الوجود . إن الإنفاق ليس أخذا من العبد ، إنما هو متاوله ، هذه المتاوله تنضح في أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك ، إلا بحركتك في الحياة .

وهذه الحركة في الحياة تتطلب عقلا يخطط للحركة وجوارح تنفذ المخطط الفكري ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضا تتم زراعتها ، أو آلة يتم الصنع بها ، ولا شيء للإنسان من هذا في الكون . إن المخ الذي يدبر هو عطاء من الله ، والطاقة التي تنفذ هي عطاء من الله . ونحن نرى في الحياة إنسانا قد نزع الله عنه المخ الذي يفكر ويدبر ، ونجد إنسانا آخر قد نزع الله منه الطاقة التي تنفذ ، فقد يجمع الله عن عبد المادة التي يتفاعل معها .

إذن ، فلا شيء من هذه الأشياء ذاق للإنسان ، إنها كلها عطاء من الله . فليعمل المؤمن مضاربا عند الله ، وليعط المؤمن للعاجز حق الله . إن الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريد الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحق لك إذا عنت لك حاجة يسبب الإغيار .

هكذا تكون « المتقين » صفة من صفات الذين اتقوا ربهم . وألحق سبحانه وتعالى قد جعل في الصبر ، صلابة اليقين الإيماني في النفس البشرية . وفي الصديق انسجاما مع واقع لا إله إلا الله ، وفي النفقة حماية العاجز الذي لا يقدر .

ويعد ذلك يعود إلى نفس المؤمن عودة أخرى فيقول : « والمستغفرين بالأسحار » إننا يجب أن نأخذ هذا الوصف بعد مجيء الأوصاف الأخرى في النفس البشرية . البداية

من إقرارهم بالإيمان ، ودعائهم الحق - سبحانه - أن يغفر لهم وقد طلبوا الوفاة من عذاب النار ، وصبروا ، وصدقوا ، وقتلوا في العبادات ، وأنفقوا في سبيل الله ، إن كل هذه الأوصاف تبرىء ذمتهم من أنهم مقصرون أيضاً في حقوق إلههم لذلك فهم يأتون حال السكون بالليل ، ويستغفرون الله .

إما أن يستغفر العبد لأنه قد قرطت منه هفوة في ذنب ، وإما أن يستغفر لأنه لم يزد فيها بفعله من أمور الطاعة . وكلمة « بالأسحار » توضح لنا اللحظات من اليوم يكون الإنسان فيها محل الكسل والراحة ، إن الذي سوف يصحو في السحر لابد أن يكون قد اكتفى من الراحة ، ولم يكن قد أخذ منه كد الحياة كل النهار ، ثم إن بعضهم يأخذه هو الحياة ليلاً .

وهذا هو وجه الخيبة لما يحدث في زماننا . إن كد الحياة - إن أخذ - يأخذ نهاراً ، وبعد ذلك يأخذنا هو الحياة ليلاً ، مما نشاهده من هو الحديث ، وهو السهرات ، وبعد ذلك يأتي الإنسان لينام متأخراً ، فكيف نطلب من هذا الإنسان أن يصحو في السحر ؟ إن الذي يصحو في السحر هو من أخذ حظه في الراحة ، فيبعد أن جاء من كد العمل نام نوما هادئاً ، ويصحو من بعد ذلك في السحر ليذكر ربه ، في الوقت الذي نام فيه غيره من الناس ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى في لحظة سكون الليل يوزع رحمته ، وعندما يصحو إنسان في السحر ويدعو الله ، ويستغفره فإنه يأخذ من رحمة الله النازلة .

وعندما يأخذ هذا العبد من رحمة الله النازلة في ذلك الوقت ، فمعنى هذا أنه سيأخذ الكثير من رحمة الله . وإياك أن تقول : لو صبحونا جميعاً في الأسحار لغدت الرحمة والعطاء « لا ، لأن الله قد قال :

﴿ مَا عِنْدَكَ يُنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

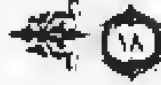
(من الآية ٩٦ من سورة النحل)

إن قدرته جل وعلا تتسع لعطائنا جميعاً دون أن ينقص شيء من عنده . إن كل هذه الأشياء من التقوى ، والإقرار بالإيمان ، وطلب المغفرة للذنوب ، وطلب الوفاة من عذاب النار ، والصبر ، والصدق ، والفتور ، والإنفاق في سبيل الله ،

والاستغفار بالأسحار ، كل ذلك نتيجة للتقوى الأولى .

إنها الثمرة من « لا إله إلا الله » . ومادامت هذه هي الثمرة من « لا إله إلا الله » ، فليعلم كل إنسان ، أن الله لم يدعك لتستنبطها أنت من مفقود ، بل اعلم أن الله قد شهد أنه لا إله إلا الله ، وكفى بالله شهيدا . ولذلك يقول الحق :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا
الْعِلْمِ قَابِمًْا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝



وليأخذ الجملة الأولى من الآية الكريمة بمعناها : لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو ، أى أن الحق قد أخبر بما رآه ، وشاهده ، أو ما يقوم مقام ذلك . إن « شهد » بمعنى علم .

إنه الحق الذى نصب الأدلة فى الوجود على قيوته ، وعلى أنه إله واحد ، أليس فى ذلك إقامة للحجة على أنه إله واحد ؟ ومن الذى خلق الأدلة وجاء بها ؟ إنه الله . إذن ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو . وقلنا : إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو هي شهادة الذات للذات . وشهادة الذات للذات تعنى أنها كلمة مُمكنٌ منها . فعندما يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ١٧ ﴾

(سورة البقرة)

بالله لو لم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك من يعارض مبتغاه ، أكان يجازف فيقولها ؟ إنه الحق الأعلى الذى شهد أن لا إله إلا هو ، فساعة

أن يقول : « كن » فإنه قد علم ، أنه لا يوجد إله آخر يقول : « لا تكن » . إن الحق لا بد أن يطمئنا أنه لا إله إلا هو ، لذلك فلزم أن يشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو . إننا نجد أن من أسماء الله الحسنى « المؤمن » . بماذا يؤمن الله ؟ إنه مؤمن بأنه لا إله إلا هو ويلقى الأمر ، ويلقى الحكم التسخيري ، ويعلم أنه لا إله يعارضه .

واليس من مطلوبات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد أنه رسول الله ؟ لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في صلاته : « أشهد أن محمدا رسول الله » . ولو لم يشهد بهذه لنفسه فكيف يجازف بالأشياء التي يقولها ؟ ولذلك فسيدنا أبو بكر عندما بلغه أمر بعث محمد رسولا ، قال ما معناه : أقالها محمد ؟ إنه صادق ، ومادام قد قالها فهي حق .

إن أبا بكر الصديق واثق من الرصيد الذي سبق بعث محمد بالرسالة . ونحن نرى في التاريخ امرأة كان السبب في إسلامها لمحة من سيرته صلى الله عليه وسلم . قرأت هذه المرأة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له حراس من المؤمنين يقومون بحراسته من الكافرين . وبعد ذلك جاء يوم وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحراس ، وقال لهم ما معناه : إن الله عصمني من الناس فاذهبوا أنتم .

وقد قرأنا هذه الواقعة كثيرا جدا ، ولكن الفتح جاء من الحق لامرأة ، فشغلتها هذه المسألة ، وتساءلت : ألم يكن هؤلاء الحراس يحرسونه خوفا على حياته ؟ فلماذا قال لهم : « لا تحرسوني » لأن الله هو الذي يحرسني ؟ فلو أن رسول الله قد غش الدنيا كلها ، أكان من الممكن أن يمش نفسه في حياته ؟

وأجابت المرأة على نفسها : لا يمكن ، لا بد أن رسول الله قد وثق تمام الثقة في أن الله قد أبلغه أمر حمايته بدليل أنه قام بصرف الحراس ، وإلا فكيف يأمن أن يأتي أحد ليقتله ؟ قالت المرأة : والله لو خدع الناس جميعا ما خدع نفسه في حياته ، أشهد ألا إله إلا الله وإن محمدا رسول الله . حدث إسلام هذه المرأة من نفحة يسيرة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، هي شهادة الذات للذات ، وكفى بالله

شهيذا . وشهدت الملائكة أيضا ، والملائكة هم الغيب الخفى عنا ، وتلقى الأوامر من الحق . إن الملائكة لم يروا أحدا آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر . وهذه هي شهادة المشهد . ويضاف إلى الملائكة « أولو العلم » ، لقد أخذ « أولو العلم » الأدلة وجلسوا يستنبطون من كون الله أدلة على أنه لا إله إلا الله .

إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود ، الله في القمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والملائكة وأولو العلم . ولقد أخذ أولو العلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة .

إن الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قد نثر في كونه الآيات العجيبة العديدة ، والذي يجلس ، ويتفكر ويتدبر ، وينفطن وينظر ، فإنه يستخرج الأدلة على أنه لا إله إلا هو ، وكما قلنا من قبل : إن أبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة . إن كانت « لا إله إلا الله » صدقا فقد كفيينا ، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذى أخذ منه الله هذا الكون ، ولم يخرنا ذلك الإله أنه صاحب الكون ؟ فيما أن هذا الإله الآخر لم يثر ، أو أنه قد علم ، ولا يستطيع فعل شيء ، إذن فلا يصح أن يكون إلهنا يزاحم الحق الذى أبلغنا أنه لا إله إلا هو .

وتظل « لا إله إلا الله » لصاحبها - جل شأنه - « شهد الله أنه لا إله إلا هو » وفي كل حركة من حركات الحياة نجد أن الانفراد بصدور الحركة قد يعطى علوا ، وقد يعطى استكبارا . . . لذلك نقول : ها هو ذا الخالق الأعلى الذى « لا إله إلا هو » يخبرنا أنه قائم بالقسط . ورغم أنه لا أحد في استطاعته أن يتدارك على الله ، إلا أنه يطمئنا أنه قائم بالقسط .

ولنلاحظ هنا ملحظا جديلا في الأداء « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » لماذا لم يقل الله إن « الملائكة » و « أولو العلم » ، الذين شهدوا أنه لا إله إلا هو « قائمين » بالقسط ؟ لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ، والملائكة شهدوا هذه القضية والعلماء شهدوا أيضا بهذه القضية . . . لماذا ؟ لأن الله لو قال : « قائمين بالقسط » لكان الله مشهودا عليه من هؤلاء ، والشهادة هي له وحده أنه قائم بالقسط والعدل .

لأنه سبحانه خلق الملائكة بالقسط ، فلو كانوا معه في ذلك لما استقام الأمر ،

وأولو العلم أيضا مخلوقون بالقسط ، لأن الله قد وزع حركة الحياة على الناس ، فأناس يعملون بعقولهم ، وآخرون يعملون بقلوبهم ، وقوم غيرهم يعملون بجوارحهم ، فهذا هو لون من عدل الله ، وإلا ، فهل يدعى أحد أن إنسانا تتجمع فيه كل المواهب التي تتطلبها الحياة . لا ، وهذه من عدالة الرحمن .

إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب بين البشر ، فبدلاً من أن يعتمد الإنسان على نفسه في صناعة للمليس والمأكّل ، والمشرّب ، جعل الله المهارات موزعة بين البشر . . . فأتقنت مجموعة من البشر حرفة الزراعة لإنتاج الطعام الذي يكفيهم ، وسد حاجة غيرهم ، وكذلك تبادلوا مع غيرهم المنافع ، فالإنسان - بمفرده - لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويغزله وينسجه ، ليلبس ، والإنسان لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يخبزه .

إن الله لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه المترعة ، إنما وزع الله المواهب ، لتتداخل هذه المواهب ، ويتكامل المجتمع البشري ، فواحد يزرع الأرض ، وثاني يغزل القطن ، وثالث ينسج القماش ، ورابع يصنع الأدوات . وهذا عدل عظيم ، لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة ، لذلك جعل الحق هذا التنوع في المواهب ليربط الناس بالناس قهراً عن الناس ، فلم يجعل لأحد تفضلاً على أحد ، فإدام واحد يعرف في مجال ، وآخر لا يعرف في هذا المجال ، فالذي لا يعرف محتاج للآخر ، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغماً عنهم .

ولذلك نجد الكون متكاملاً . ولننظر كل منا إلى حياته وليعدد كم زاوية من زوايا العلم ، وكم زاوية من زوايا القدرات ، وكم زاوية من زوايا المواهب تلزم حتى نخدم حركة الحياة ؟

إن هذه الزوايا موزعة على الناس جميعاً ليخدموا جميعاً حركة الحياة . وهذا قمة العدل . وحتى يوضح لنا الحق قيمة العدل وكيفية العدالة في إقامة المحبة والاحترام بين البشر ، فلينظر الواحد منا إلى الإنسان الآخر البعيد عنه ، ويتساءل بينه وبين نفسه : أهذا الرجل البعيد عني يعمل من أجل ؟ وتكون الإجابة : نعم .

إذن ، فعل الإنسان عندما يرى إنساناً متفوقاً في صفة ما ، فليقل : إن تفوقه في

صنعتة عائد إلى وتفوقه في موهبته عائد إلى ، وهكذا منع الله بالعدل الحقد والحسد ، وجعل الناس متكافئين فهداهم ، لا تفضيلا منهم ، إذن ، فكل إنسان يسعى بحركة الحياة إنما يقيم نفسه في زاوية من زوايا الحياة ، ومن العجيب أن الزاوية التي يحسبها الإنسان تكون حاجته فيها أقل الحاجات ، لذلك نجد المثل الرفيع الذي يقول : « باب النجار مخلق » ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن موهبة ما تكون عند غيره سوف تنفعه هو ، بدليل أن الموهبة التي عندك لم تنتفع أنت بها إلا قليلا .

وبذلك يشيع في الناس اقتناع بأن موهبة كل فرد فيهم ، إنما تعود عليهم جميعا ، وبذلك تحمل المحبة والاحترام بدلا من الحسد والحقد . وعندما سأل أحد الظرفاء : ولماذا يكون باب النجار هو المخلق ؟ قال أحد الظرفاء ردا عليه : لأنه الباب الوحيد الذي لن يأخذ النجار أجرا لإصلاحه ، ونلتفت إلى العجائب في الحكمة الشائعة ، فنجد أطباء اختصاصيين في ألوان من المرض ، وصاروا أعلاما في مجالات تخصصاتهم ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يصابوا إلا بما برعوا فيه ، كأن الذي برعوا فيه لم يفدهم هم شيء ، إنما أفاد الآخرين . ولننظر إلى الآية في مجملها :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

(سورة آل عمران)

لقد استهلها الله بقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » ثم قال بعد ذلك : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فكان الآية تقول لنا : إذا ثبتت شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارا نهائيا لاشك فيه ، فخلوها مسلمة : « لا إله إلا هو » .

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتيادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إنها فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يغلب على أمره .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف^(١).

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله في جدال . إنما يدخل خلق الله مع خلق الله في خلاف أو تضال ، لكن لا أحد يجزئ على أن يدخل في تضال مع الله لأنه عزيز لا يغلب . فإن أمست به وحده ، فلك الفوز . وكلمة « وحده » قد تبدو في ظاهرها تقييلا لتسند الذي تستند إليه في القياس البشري ، فيقال : « أنا لاجيء إلى فلان وحده » وعندما تكون لاجئا إلى عشرين ألا تكون أكثر قوة ؟ لكن هنا لا يكون قياس بين اللجوء إلى الله وحده ، بقياس اللجوء إلى مخلوق . إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير ، فكلمة « وحده » هنا تغنيك وتكفيك عن الكل . اعمل لوجه واحد . يكفك كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد من يغلبه على أمره .

وعظمة الحق أنه واحد أحد فرد متفرد صمد ، وهو عزيز لا يغلب على أمره ، وهو صاحب كل الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها بحيث إذا ما عرفت حكمة ما يجريه الله سبحانه وتعالى على خلقه فانت تتعجب من عظمة قدرة الله . لأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، ومادمت قد وضعت الشيء في موضعه فإنه لا يكون هناك قلق ، ومادام الشيء موضوعا في مكانه فهو مستقر ، ومادام الشيء مستقرا فإنه لا يتلون وترداد الثقة فيه ، وهذه مأخوذة من « الحكمة » التي توضع في فم الفرس ، والتي نسميها « اللجام » وهي كما نعرف تتكون من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإن مال إلى غير الاتجاه الذي تريد ، يكون من السهل جذبه إلى الاتجاه الصحيح .

إن وجود الحكمة يعني وجود شيء بحكمه فلا ينحرف يمينا ولا يسارا ، ومادام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهت القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو ، وأنه العزيز الحكيم ، فكل منج منه يجب أن يُسلم إليه ، وأن ينقاد له . ومادام الله قد شهد لنفسه بأنه إله واحد ، أي لا يوجد له

شريك ينازعه فيما يريد من خلقه ، وليس لله شريك في الخلق ، وليس لله شريك في الرزق ، وليس له شريك في التشريع .

إذن .. فالجهة التي نستمد منها مقومات منهجنا هي جهة واحدة ، وكان من الممكن أن نظلم ونجور هذه الجهة الواحدة الخالقة على ما خلقت لأنه ليس لأحد من خلق الله حق على الله ، لكن الله سبحانه عادل ، إنه سبحانه يطمئتنا ، فهذه الوحدانية بقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها عادلة لا تظلم ، لأنه قال : مع أي إله واحد ، لا يُرد لي حكم ولا أمر فأنا قائم بالقسط .

والقيام بالقسط يجب أن نتوقف عنده لنفهمه جيدا ، إن الحق يقول عن نفسه : « قائما بالقسط » وكلمة قائم تعني أن الله قد خلقهم الخلق الأول ، وهذا الخلق إنما قام على العدل والقسط . وتكليف الحق للخلق قام على العدل والقسط . والعدل والقسط يقتضي ميزانا لا ترجع فيه كفة على كفة ، وهذا الميزان تمسوك بيد القدرة القاهرة التي لا توجد قوة أعلى منها تميل في الحكم ، والحق سبحانه قائم بالقسط في الخلق ، فقبل أن نحلقنا أعد لنا ما تتطلبه حياتنا بالقسط أيضا ، فلم يجعل أمر الحياة قائما على الأسباب التي يكلفنا بها لنعيش ، بل حكم بالقسط ، لقد جعل الحق بعضا من الأمور لا تدخل لنا نحن العباد فيها ، ولم يفض الحق بذلك على حركتنا ولا على حريتنا في الحركة ، لذلك خلق لنا أسبابا إن شئنا أن نفعل بها وصلنا إلى المسيبات ، وإن شئنا ألا نفعل فنترك الأسباب والمسيبات .

إذن .. فالحق سبحانه لم يحكمنا في قضية الخلق الأولى بشيء واحد ، بأن يجبرنا على كل شيء ، بل جبرنا بأنه - سبحانه - لم يدخل أسبابنا ولا حركتنا في كثير من الحركات التي تترتب عليها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ، ولا القمر ، ولا الريح ، ولا المطر . كل هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب تستعمل للمخلوق قبل أن تكون له قدرة . هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أن توجد له حياة ، لتمهد للحياة التي يهبك الله إياها ، فلو ترك الله كل هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرت هذه الأشياء إلى أن يوجد للإنسان إرادة ، وتوجد له قدرة وعلم .

لقد جعل الله أسباب الحياة بيده ، كالتنفس مثلا ، إن التنفس لا يخضع لإرادة القدرة على الحركة في الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان - وهو سبحانه الإله القادر - تحرك

التنفس إلى أن توجد له إرادة . ولا توجد الإرادة إلا إن وجد عند الإنسان علم بأنه يريد إدخال الأوكسجين إلى الرئتين حتى يغذي الدم والمخ وينقى الدم والجسم من الأشياء التي تضره ، هذا يقتضى العلم ، فإذا كان هذا الأمر يقتضى العلم . فإذا يصنع الطفل الذى ليس له علم ؟ كيف يتنفس ؟

لذلك فمن رحمة الله وعدالته أن جعل أمر التنفس - على سبيل المثال - بيده هو سبحانه ، ولكن الحق سبحانه لم يقض على مخلوقه بأن يجعله فى الكون بلا حرية أو اختيار ، لا ، لقد ترك الحق سبحانه بعضا من الأشياء لحرية الإنسان واختياره .

إذن ، فالحق لم يلزم العبد تسخيرا ، ولم يمنع تخيرا . وذلك هو العدل المطلق . لقد احترم الحق كينونة الإنسان ، وحياة الإنسان ، ومشية الإنسان ، واختيار الإنسان ، فقال : أنا سأعطيك أسباب الحياة الضرورية ولا أجعل لك دخلا فيها ، لأنك إن تدخلت فيها أضدتها ، وتأخر وصول خدمتها لك إلى أن تعرف وتعلم ، وأنا - الحق - أريدها لك ، وأنت أيها الإنسان عاجز قبل أن توجد لك ، وأنت قادر بوجودها الذى أمتحه لك ، لذلك جعلتها بيدي أنا الخالق المأمون على خلقى . ولكن لن أقضى على حريتك ، فإن أردت ارتقاء فى الحياة فتتحرك فى الحياة ، إن شئت أيها الإنسان أن تفعل - فافعل . وإن شئت أيها الإنسان ألا تفعل فلا تفعل . وهذا مطلق العدل .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى وجعل قوله : « قاتلوا بالقسط » مشتملا على التكليف أيضا ، أى إن عدالته فى التكليف مطلقة . فأناس يقولون : « لا إله » وأناس آخرون عددوا الآلهة ، فقام الحق بالقسط بين الأمرين . هو إله موجود يا من تقول : « لا إله » . وهو إله غير متعدد يا من تشرك معه غيره . وهذا قيام بالقسط . وجاء الحق سبحانه فى الأحكام . نحن نجد أحكاما شرعية طلبها الحق سبحانه من العبد طلبا باتا ، ولم يتركها لاختيار الإنسان ونجد أشياء تركها الحق سبحانه ليجتهد فيها الإنسان ، فلم يجعل الحق سبحانه العبد حرا طليقا يعربد فى الكون كما يشاء ، ولم يجعل الحق سبحانه عبده مقهورا أو مقسورا بحيث لا توجد له إرادة أو اختيار .

لقد جعل الله للإنسان مجالا فى القصر ومجالا فى الاختيار ، أوجد فى الإنسان القدرة على الحركة فى الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان - وهو الإله القادر - تحرك

في الحياة وأنا أحمي نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لي في مالك الذي جعلت فيه خليفة
حق عليك أن تعطى بعضاً منه لأخيك المحتاج .

لقد أعطى الحق للنفس البشرية أن تكذب ، وأعطى لها أن تكذب ، وحفظ لها
ما تملك ، ولكنه هو الحق لم يطلق للنفس البشرية عنانها ، بل قال : لي حق في
ذلك . وهكذا نجده سبحانه قد عدل في هذا الأمر .

إذن فقول الحق إنه قائم بالقسط . . نجده واضحاً في كل شيء ، ففي الخلق
والرزق والتكليف نجد أنه قائم بالقسط ، ومادام هو إلهاً واحداً وقائماً بالقسط . فما
الذي يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْعِلْمُ بَعْضٌ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ فَإِنَّ اللَّهَ فَاتِكُ
الْعِلْمِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١١ ﴾

بعد أن قال لنا : إنه إله واحد ، وقائم بالقسط هو نتيجة منطقية لكونه - سبحانه -
إلهاً واحداً فكان قوله « إن الدين عند الله الإسلام » هو نتيجة لقوله : « شهد الله أنه
لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » . لماذا ؟ لأنه لا تسليم لأحد
إلا الله ، ومادام الله إلهاً واحداً ، فلا إله غيره بشاركه ، يقول الحق :

﴿ مَا آخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْنَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّا
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ١٢ ﴾

ومادام قد ثبت أنه هو الإله الواحد ، فما الذى يتمتع أيها الإنسان أن تخضع لمراة منك ؟ إذن فقول الحق بعد ذلك : « إن الدين عند الله الإسلام » هو أمر منطقي جدا يجب أن ينتهى إليه العاقل ، ومع ذلك رحنا الله سبحانه وتعالى فأرسل لنا رسلا لينبهونا إلى القضية السببية ، والمسيبة ، والمقدمة والنتيجة « إن الدين عند الله الإسلام » وإذا سألنا : ما هو الدين ؟ تكون الإجابة : إن الدين كلمة لها إطلاقات متعددة فهي من « دان » تقول : دنت لفلان : رجعت له وأسلمت نفسي له ، واثمرت بأمره . ويُطلق الدين أيضا على الجزاء ، فالحق يقول عن يوم الجزاء : « يوم الدين » وهو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية ، وعلى أن الإنسان المؤمن قد دان لأمر الله ، فكلها تلتقى في قول الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يُشعرنا بأنه قد توجد أديان يخضع لها الناس ، ولكنها ليست أديانا عند الله ، ألم يقل الحق :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾

(سورة الكافرون)

إن معنى ذلك أن هناك دينا لغير الله فيه خضوع واستسلام ، وفيه تنفيذ لأوامر ، ولكن ليس دينا لله ، ولا دينا عند الله . إن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام . والدين يطلق مرة على الملة ومرة أخرى على الشريعة ، فإن أراد المؤمن الأحكام المطلوبة فلن أن تسميها شريعة ، وإن أراد المؤمن الطاعة ، والخضوع ، وما يترتب عليهما من الجزاء فليسمها المؤمن الدين ، وإن أراد الإنسان كل ما ينتظم ذلك فليسمها الملة .

إذن فقوله سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام » تعنى أنه لا دين عند الله إلا الإسلام ، وكلمة « إسلام » مأخوذة من مادة « سين » و « لام » و « ميم » . و « السين » و « اللام » و « الميم » لها معنى يدور في كل اشتقاقاتها ، وينتهى عند السلامة من الفساد . وينتهى المعنى أيضا إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وإخوانه ، إنه صلاح وعدم فساد ، كل مادة السين واللام والميم تدل على ذلك ، ومادامت المادة المكونة منها كلمة « إسلام » تدل على ذلك فلماذا لا تتبعها ؟ .

لقد قلنا سابقا : إن الإنسان لا يخضع لمثيله إلا إذا اقتنع بما يقول ، إن الإنسان

يقول لمساويه الذي يأمره : لماذا تريد أن أنفذ أوامرك ؟ إنك لابد أن تقنعني بالحكمة من ذلك الأمر ، لكن عندما يؤمن الإنسان بآله واحد قائم بالفسط ، ويصدر من هذا الإله أمر ، فعلى الإنسان الطاعة .

إذن . . فالإسلام معناه الخضوع ، والاستسلام بعزة وفهم ، وعزة وتعقل ؛ لأن هناك عبودية تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى السطحي ، وهناك عزة تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، إن هذا هو عزة العقل فلا يستهويه أى شيء سوى الخضوع للأمر الثابت الذى لا يتناقض أبدا .

فإمام الله إله واحد قائم بالفسط فإن كعبه من عبده حين يؤمن به وأخذ عنه ، فهذه عزة فى الفهم وعزة فى التعقل ، وعزة فى العبودية أيضا ، لأننى أعبد الله الذى هو فوق كل المخلوقات والكائنات ، ولا أعبد مساويا لى ، وإن الذى يعبد مساويا له لا يملك إلا إنفة وحمية الدليل ، وإمام الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله فهو خضوع لغير مساو ، وه أسلم ، أى دخل فى السلم ، أى دخل فى الصلح ، وعدم التناقض ، وفى الأمان والراحة ، أى خلص نفسه من كل شيء إلا وجه الله ، ولذلك يقول الحق :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّمُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

كان الله يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد ، وبين الخاضع لِسَادَةٍ كثيرين . وضرب الله لنا المثل بالأمر المشهور عندنا ، فقال ما معناه : هب أن عبدا له من السادة عشرة ، وكل سيد له منه طئب ، فإذا يصنع ذلك العبد ؟ وعبد آخر له سيد واحد ، هذا العبد يكون مستريحا لأن له سيدا واحدا ، بينما الآخر المملوك لعشرة تضارب حياته بتضارب أوامر سادته العشرة .

إذن فالعبد المملوك لشركاء تميم ؛ لأن الشركاء غير متفقين ، إنهم شركاء

متشاكسون ، فإذا رآه سيد يفعل أمرا لسيد آخر ، أمره بالعكس ، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعب ، ولكن الرجل المسلم لرجل ، هو مستريح ، وكذلك التوحيد ، لقد جاء الحق سبحانه بمثل من واقعنا ليقرّب لنا حلاوة التوحيد . إن العبد المؤمن بالله واحد بحمد الله لأنه خاضع لإله واحد . إذن فما دام الإسلام هو الخضوع والانسلام ومعناه الدخول في السلم بكسر السين - أو الدخول في السلم - بفتح السين - يقول الحق :

﴿ وَإِنْ جَبَحُوا إِلَيْكَ فَأَجْنَحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٦١ ﴾

(سورة الانفال)

هذا الخضوع ليس لنسأ ، بل لأعلى . والأعلى الذي نخضع له هو الذي خلق ، وهو الأعلى الذي أمدنا بقيوميته بكل شيء . إذن فإذا أسلم الإنسان ، فإن هذا الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله . إن من مصلحة الإنسان أن يسلم . « إن الدين عند الله الإسلام » ومادام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذي يترتب عليه الثواب والإسلام هو دين الرسل جميعا ، وكلهم قد آمن به ، فإبراهيم خليل الرحمن قد قال :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَإِنَّا مُتَسِلُّونَ ١٦٢ ﴾
إِنَّكَ أَنْتَ أَقْوَابُ الرَّحِيمِ ١٦٣

(سورة البقرة)

ويعقوب عليه السلام يخبر الحق عنه في قوله ليثبه وإحيائهم له :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ١٦٤ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول - جل شانه - :

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٣٦) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣٧) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣٨﴾

(سورة الانعام)

إذن فالإسلام دين شائع ، والمسلمون كلمة شائعة في الأديان ، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله في منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات ، إلا أن الإسلام بالنسبة لهذه الرسائل كان وصفاً ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بديمومة الوصف لدنيتها كما كان لأمم الرسل السابقة ، وصار الإسلام - أيضاً - علماً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمنت منتهى ما يوجد من إسلام في الأرض ، فلم يعد هناك مزيد عليها ، وانفردت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صار الإسلام علماً عليها .

إذن فالإسلام في الأمم السابقة كان وصفاً ، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صار علماً لأنه لم يأت بعدها دين ، فأسلامها إسلام عالمي، ولذلك فتحن بهذا الدين نقول : « نحن مسلمون » أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضاً مسلمون لكن بالوصف فقط . نحن الذين تتبع الدين الخاتم - سبأنا الله في كتابه المسلمين فهذا من إعجازات التسمية التي وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا

وَاللَّهُ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(سورة الحج)

لقد صار الإسلام اسماً لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يُطلق هذا الوصف اسماً إلا على من بالغ في التسليم . كيف ؟ نحن نعلم أن لفظ « الله » علم لواجب الوجود ، ونعلم أن « حتى » صفة من صفات واجب الوجود . ونعلم أن « قادر » صفة من صفات الله سبحانه وتعالى : ولكن صارت كلمة « حتى » اسماً من أسماء الله ، لأن الله حتى حياة كاملة أزلية . إذن لا تكون الصفة اسماً إلا إذا أخذ الوصف فيها الديمومة والإطلاق . وعلى هذا القياس يكون الرسل السابقون على محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمم السابقة على أمة الإسلام ، كانوا مسلمين ، وكانوا أمما مسلمة بالوصف ، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بالإسلام وصفاً وعلماً ، فصار الأمر بالنسبة إليها اسماً ، ونظروا لأنه لن يأتي شيء بعدها ، لذلك صار إسلام أمة رسول الله « علماً » . ولقد بشر سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذا الأمر :

﴿ قُلْ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمُ هُوَ شَمُّكُمْ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الحج)

إن الحق قد أورد على لسان سيدنا إبراهيم بالوضوح الكامل « هو شمامكم المسلمين » ولم يقل الحق : « هو وصفكم بالمسلمين » . لا ، إنما قال : « هو شمامكم المسلمين » . لأن الأمم السابقة موصوفة بالإسلام وأما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي مشاة بالإسلام . وتجد من إعجازات التسمية ، أننا نجد لأتباع الأديان الأخرى أسماء أخرى غير الإسلام ، فاليهود يسمون أنفسهم باليهود نسبة لـ « يروها » . ويقولون عن أنفسهم : « موسويون » نسبة إلى موسى عليه السلام . والمسيحيون يسمون أنفسهم بذلك نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم . ولم تقل نحن أمة رسول الله عن أنفسنا : « إنا محمديون » . لقد قلنا عن أنفسنا : « نحن مسلمون » . ولم تأت على لسان أحد قط إلا هذه التسمية لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار اسم الإسلام لنا شرفاً . إذن ، فقول الله الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يعني أنه ، إن جاز أن يكون لرسول أو لأتباع رسول وصف

الإسلام فقد يحيى رسول بشيء جديد لم يكن عند الأمم السابقة فنزيده نحن بالتسليم ، وبزيادتنا - نحن المسلمين - بهذا التسليم ختم التسليم بنا نحن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذا صار الإسلام لا يطلق إلا علينا .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الذين أوتوا الكتاب قد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولماذا اختلفوا ؟ جاءت الإجابة من الحق . الأعلى : (بقيا بينهم) وكلمة الاختلاف هذه توحي أن هناك شيئا متفقا عليه ، ومادام الإسلام هو خصوصاً المنهج الله . لأنه إله واحد وقائم بالقسط ، فمن أين يوجد الاختلاف ؟ وما الذى زاد حتى يوجد اختلاف ؟ أبرز إله آخر يناقض الله فى ملكه ؟ لا لم يحدث . ومادام الإله واحداً ، ومادام المنهج القادم من عنده متبجاً واحداً ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

إن الحق يوضح لنا أن الاختلاف قد جاء للذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم وتلك هى النكايه ، وذلك هو الشر ، فلو كانوا قد اختلفوا من قبل أن يأت إليهم العلم لقئنا : « إنهم معذورون فى الاختلاف » . ولكن أن يحدث الاختلاف من بعد أن جاء العلم من الإله الواحد القائم بالقسط قلنا أن نقول لهم : ما الذى جدد لتختلفوا ؟ إن الذى جدد هو من عالم الأغيار ، ومادام الحديد قد جاء إليهم من عالم الأغيار ، فمعنى ذلك أن هوى النفس قد دخل ، ونريد أن نعرف أولاً - معنى الاختلاف ، الاختلاف فى حقيقته هو ذهاب نفس إلى غير ما ذهبت إليه نفس أخرى .

ولماذا حدث الاختلاف هنا رغم أن الإله واحد ، وهو قائم بالقسط ؟ لابد لنا أن نستنتج أن شيئاً جديداً قد نبت - ما هو هذا الشيء ؟ إنه الهوى المختلف . وحينما يقال : « اختلفوا » فنحن نعلم أن جماعة قد ذهبت إلى شيء وجماعة أخرى ذهبت إلى شيء آخر . وقد نستنتج أن طرفاً قد ذهب إلى حق ، وأن الطرف الآخر قد ذهب إلى باطل ، أو أنهم جميعاً قد ذهبوا إلى باطل . والذهاب إلى الباطل قد يختلف ، لأن كل باطل له لون مختلف . هل أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول : أنا أنزلت الأديان ومن رحمتى بخلقى تركت بعضاً من الناس يحتفظون بالحق فى ذاته وإن طرأ عليهم أناس يختلفون معهم . ونجد المثال لذلك فى اليهود ، عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد اختلفوا ، وأسلم منهم أناس وآمنوا برسالة النبى الخاتم ، بينما

الآخرون لم يسلموا ، ومن أسلم هم الذين كانوا على الحق ، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الذين علموا برسالة رسول الله أن يعلنوا البشارة في كتبهم ولم يكتبوا ذلك العلم بل أعلنوا الإيمان ، بينما أصر البعض الآخر على كتمان ما جاءهم من العلم وأصروا على الإنكار . إن الذين أسلموا هم الذين ينطبق عليهم قول الشاعر :

إن الذي جعل الحقيقة علقها

لم يخل من أهل الحقيقة جبلا

وإذا كان الله قد عصم الأجيال المتتالية من أمة الإسلام بأن حفظ لنا القرآن . ففي الأدیان الأخرى كان هناك أناس من أهل الحقيقة ، وأنصفهم الله :

﴿ لَيَسْأَلُنَا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٢٩﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْحَسَنَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أنصفهم الله حق الإنصاف ، والذين آمنوا برسول الله من أتباع تلك الديانات قد أهدوا إلى الحق ، واختلفوا مع غيرهم وقول الحق : « أوتوا الكتاب » هذا القول يقتضي أن نقف عند « أوتوا » ونقف عند « الكتاب » وقفة أخرى ، إن قول الحق « أوتوا » أي أن شيئا قد جاء إليهم من جهة أخرى . إذن فالكتاب ليس من أفكار البشر ، لأن المنهج لو كان من أفكار البشر لكان من الممكن أن يختلفوا فيه أو حوله ، وبناء « أوتوا » للمفعول يجعلنا نسأل : من الذي آتاهم الكتاب ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه وتعالى لا يأتي بمختلف فيه .

ومادام الكتاب من عند الله فلا يمكن أن يوجد فيه خلاف . بقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ من سورة النساء)

وكان الله يشهدنا بذلك القول إلى أن كل شيء ينبت من البشر للبشر ، فلا بد أن تحدث فيه خلافات . إنما الشيء عندما يأتي من الواحد الأحد لا يمكن أن يحدث فيه خلاف أبدا . لا يمكن أن يحدث خلاف فيما اتحد فيه المصدر والمنبع إلا إن وجدت - بضم الواو وكسر الجيم - أشياء زائدة عن ذلك ، وهذه الأشياء الزائدة هي أهواء الذين يقولون : إنهم منسوبون إلى الله .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الكتاب لم يأت إليهم من بشر مثلهم ، إنما من إله واحد قادر ، وفي هذا تنبيه لاتباع الديانات السابقة . أي إنكم أيها الأتباع لا تتبعون إلا منهج الله ، وحين تتبعون منهج الله الذي جاء به الرسل فإنكم لا تتبعون أحدا من الخلق ، لأن أي رسول أرسل إليكم إنما جاء ليبلغكم بمنهج قادم من ربكم ، ولم يقل لكم أحد من الرسل إن المنهج قادم من عنده والرسول يحمل نفسه على الطاعة والخضوع للمنهج المنزل عليه قبلكم ، وهذه عزة لكم ، ولينبه جميع الخلق أن المنهج الحق دائما قد أخذه الرسل من الله .

وحين يقول الحق : « الكتاب » فلنا أن نعرف أن كلمة « الكتاب » قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، إن الحق سبحانه وتعالى يسمي القرآن مرة « قرآنا » لأنه يقرأ ، ويسميه الحق أيضا « الكتاب » وذلك دليل على أنه يكتب ، وحين نقول : إن القرآن من (القراءة) فهذا يعني أن نبرز ما في الصدور بالقراءة ولكن ما في الصدور قد تلوه الأهواء ، لذلك يجرس الحق قرآنه بما في السطور ولذلك فالقرآن مقروء ومكتوب .

وعندما يقول الحق (من أهل الكتاب) ، فإن ذلك تنبيه لنا أن الكتاب هو منهج مكتوب ، أي لم يتم وضعه في الصدور ونسيته النفوس ، لا ، إنه منهج مكتوب ، هكذا حدد الحق أمر المنهج السابق على القرآن ، إنه مكتوب ، فإن لعبت أهواء النفوس كما لعبت ، فإن ذلك يعني تحريف الكلم عن مواضعه . ولنا أن نتقل الآن إلى معرفة « العلم » : ما هو العلم ؟ إن العلم هو أن تدرك قضية وهذه القضية واقعة في الوجود تستطيع أن تقيم الدليل عليها ، وغير ذلك من القضايا لا يصل إلى مرتبة العلم لأنه لا يستطيع أحد أن يدلل عليه .

مثال ذلك : نحن نقول : « الأرض كروية » إن كروية الأرض هي نسبة

حدثت ، ونقرها ونحن جازمون بها . والسابقون لنا في عصور سابقة قال بعضهم : « إن الأرض مسطحة » ، وحاول أن يجد من الأسباب ما يقيم الدليل على ذلك ، ولكن الذين أقاموا الدليل على أن الأرض كروية كانوا صادقين بالفعل . وفي العصر الحديث صارت كروية الأرض أمرا مرثيا من سفن الفضاء ، وغيرها من الوسائل ، ونحن نعرف أنه « ليس مع العين أين » إن الكروية بالنسبة للأرض ، هي نسبة ، نقولها ونجزم بها ، والواقع أنها كذلك ، ونستطيع أن نقيم على ذلك الدليل .

هذا هو العلم المستوفى ، إن فساد الناس أنهم يأتون إلى قضية لم تصل إلى هذه المرتبة ويسمونها « علما » كقولهم : إن الإنسان أصله قرد ، لا ، إن أحدا لا يستطيع الجزم بذلك ، وتلك قضية ليست من العلم ، إن كلمة « علم » تطلق على القضية المجزوم بها ، وهي واقعة في الوجود ، ونستطيع أن ندلل عليها ، وإذا كانت القضية مجزوما بها ، وواقعة في الوجود ، ولكنك لا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تسمى هذه القضية ؟ هذا ما يطلق عليه « تقليد » تماما كما يقلد الولد أباه قبل أن ينضج عقله فيقول : « لا إله إلا الله ، الله واحد » . ومثلا يأخذ التلميذ عن أستاذه القضية العلمية ، ولا يعرف كيفية إقامة الدليل عليها ، فهذا نطلق عليه « تقليدا » ، وإلى أن ينضج عقل التلميذ ويحسن استيعابه نقول له : ابحث بحثا آخر لتقيم الدليل .

إذن فالتقليد هو قضية مجزوم بها ، وواقعة ، ولا يوجد عليها دليل . وهكذا نعرف أن « العلم » يمتاز عن التقليد بوجود القدرة على التدليل ، لكن إذا ما كانت هناك قضية ومجزوم بها ولكنها ليست واقعة ، فهذا تسمى ذلك ؟ إن هذا هو الجهل . إن الجهل لا يعنى عدم علم الإنسان ، ولكن الجهل يعنى أن يعلم الإنسان قضية مخالفة للواقع ومناقضة له . أما الذى لا يعلم فهو أسمى يحتاج إلى معرفة الحكم الصحيح ، فالجاهل أمره يختلف ، إنه يحتاج منا أن نخرج من ذهنه الحكم الباطل ، ونضع في يقينه الحكم الصحيح ، وهكذا تكون عملية إقناع الجاهل بالحكم الصحيح هي عملية مركبة من أمرين ، إخراج الباطل من ذهنه ، ووضع الحكم الصحيح في يقينه .

ولذلك فنحن نجد أن تعب الناس يتأتى من الجهلاء ، لا من الأميين ، لأن الجاهل هو الذى يجزم بقضية مخالفة للواقع ومناقضة له ، أما الأمى فهو لا يعرف ، ويحتاج

إلى أن يعرف . وماذا يكون الأمر حين تكون القضية غير مجزوم بها ، وتكون نسبة عدم الجزم ، مساوية للجزم ؟ هنا نقول : إن هذا الأمر هو الشك ، وإن رجح أمر الجزم على عدم الجزم فهذا هو الظن ، وإن رجح عدم الجزم يكون ذلك هو الوهم .

إذن فوسائل إدراك القضايا هي كالآتي : أولا : علم . ثانيا : تقليد . ثالثا : جهل . رابعا : شك . خامسا : ظن . سادسا : وهم . والعلم هو أعلى المستويات في إدراك القضايا . ولذلك نجد أن الحق يحدد لنا على ماذا يختلف الذين أوتوا الكتاب ، لقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولم يقل الحق : إنهم اختلفوا بعد ما جاءهم التقليد أو الظن ، أو الجهل أو الشك ، إنما قال الحق : إنهم قد اختلفوا من بعد ما جاءهم الاستيفاء الكامل ، وهو العلم . ومادام هناك أمر قد جاء من القائم بالقسط والإله الواحد ، فالمسألة القادمة منه وهي الحق قد وصلت إلى مرتبة العلم .

إذن ، فقيم الاختلاف ؟ لابد أن أمرا ما قد جد . والذي يحدُّ إنما هو قادم من الأغيار ، وهي الأهواء . ولذلك يحدد لنا الحق هذا الأمر بقوله : « بغيا بينهم » . ما البغي ؟ البغي هو طلب الاستعلاء بغير حق . إذن فطلب الاستعلاء ليس بمحمونا في ذاته ، لأن طلب الاستعلاء هو قضية الطموح في الكون . وأن يطلب إنسان الرفعة فيجد ويجتهد ، ويبذل العرق ليصل إلى مكانة علمية أو غيرها ، فهذا حق طبيعي ، ونحن نعرف أن العالم قد ارتقى بالطموحات الإنسانية ، إن العالم لو اكتفى وثبت عند الذي وصل إليه في جيل ما ، فإن العالم يحكم على نفسه بالجمود . ولكن الناس طورت في العالم الذي نحياه بجهد بذله البعض منهم في قضايا نافعة ، ثم حاولوا أن يرتقوا بها ونالوا خفهم من التقدير ، وارتفعوا بالعلم بجهد حقيقي بذلوه ، وبدراسة لما بذله السابقون عليهم .

إذن فطلب الاستعلاء في حد ذاته غير محفوت ، بل محمود مادام قائما على الجهد . لكن أن يطلب الإنسان الاستعلاء بغير حق ، فهذا هو البغي . لقد أثبت الله لنا في هذه الآية ، أن كل خلاف بين رجال دين ، أو بين دين ودين ، إنما مرجعه إلى نشوء البغي ، ونشوء البغي هو طلب رجال دين الاستعلاء بغير حق . ومظاهر طلب الاستعلاء بغير حق هو إعطاء الفتاوى التي توافق أمزجة القوم ، وتحالف ما أنزله الحق .

إن الواحد من هؤلاء يدعى لنفسه التحضر ، ويعطى من الفتاوى ما يناقض الذى أنزله الله ، ويدعى أنه يأخذ الدين بروح العصر ، ويدعى لنفسه عدم الجُمود ، ويذهب إلى حد اتهام المتمسكين بدينهم بأنهم متخلفون ، والهدف الذى يخبىء فى صدر مثل هذا الإنسان هو الاستعلاء فى قومه بغير الحق ، ويجب أن نفهم أن كل خلاف بين أهل دين واحد ، أو بين دين ودين ، متبعه قول الحق : « بغيا بينهم » . وهذا يعنى اتباع البعض للهدى التابع من بينهم ولم ينزله الله .

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى إما أن ينزل حكما محكما لا رأى فيه لأحد ، ولا يستطيع أحد أن ينقضه ، وإما أن ينزل الله حكما قابلا للفهم والاجتهاد . ولم يجعل الله الأحكام كلها من لون واحد ، إنما جعل الأحكام على لونين ، وذلك حتى يحترم الإنسان ما وهبه الخالق له من عقل ، ويجعل له مهمة ، فيأتى بقضية ويبحثها ويرجع سببا على سبب . وفى ذلك استخدام من الإنسان لعقله ، إنها رحمة من الله حتى لا يحمد العقل الإنسان .

إذن فإذا رأيت أى خلاف بين رجال دين أو بين دين ودين فاعلم أن القول الفضل فى هذا الأمر هو ما عبر عنه القرآن : « بغيا بينهم » فمن البغى يهب الهوى الذى تنشأ منه الأعاصير ، إن من يجب الاستعلاء بغير الحق هو الذى يحاول البغى فيدعى لنفسه أنه أرقى فى الفكر ، أو يستعلى عند من يملكون له أمرا ، أو يستعلى عندما يوافق خاكما فى رأى من الآراء ، ويبرر للحاكم حكما من الأحكام .

إن كلمة « بغيا بينهم » يدخل فى نطاقها كل موجات الخروج عن منهج الله ، والتي نراها فى الكون ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة ضد الأمراض النفسية الناشئة عن البغى ، مثلما يعطى المعاصرون المصل ضد أمراض البدن التى تفتك بالإنسان ، وحتى لا تفاجئنا أمراض البغى ، نجد الرسول يعطينا المناعة

فيقول لنا صلى الله عليه وسلم : (البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)^(١) .

ويحذرننا الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك كما فى الحديث التالى :

فيقول صلى الله عليه وسلم : (البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون)^(١) .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحذرنا ليوضح لنا أن أهل البغي لهم لحاج في أن يقولوا ويصدروا الفتاوى ، وما معنى الإفتاء الذي يحذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل هو مجرد رأى ؟ أم هو رأى يأق من إنسان معروف عنه أنه مشغول بعلم الله وبالأحكام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينهنا إلى ذلك مناعة لنا . فقد يصح أصحاب الحق فلة ، وليس هم نصيب في إيصال رأيهم للناس ، أو أن الذين يملكون الكلمة الإعلامية ليسوا مع أصحاب الحق بل في جانب رجل يسير الباطل أو الركب .

وهنا ترى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة حتى لا يأس المنسكون بالحق ، فأمر الدين لن يمر رخاء ، أو بسلام دائم ، بل سنجد قوما يفسرون أحكام الدين بغير بينهم ، ويلوون الأشياء ، لذلك أوضح لنا أن المؤمن حَكَم في نفسه ، ويحذرنا من الذين يفتون بالبغى ، إن الافتاء يحتاجه الناس من الذي يعلم ، ولذلك جاءت كلمة « يستفتونك » أكثر من مرة في القرآن الكريم ، لأن الذين يطلبون الفتوى هم الذين يحتاجون إلى توضيح لأمر ما ، لأنهم مشغولون بقضية الإيمان ، ولذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يحذرنا من الذين يحاولون إلقاء الفتاوى ، ويحذر كل مؤمن من أن يستمع لكل فتوى .

ويقول الحق : « ومن يكفر بآيات الله » . إذن فمن هو الذي يكفر بآيات الله ؟ وفي أى مجال ؟ إن الكفر بآيات الله هنا محدد في الاختلاف ، وفي البغى بينهم ، أى طلب الاستعلاء بغير حق ، وسمى الحق كل ذلك « كفرا » والمراد منه هنا التشبه لنا ألا نستر أحكام الله بالاختلاف أو البغى ، وجاء التحذير في تدليل الآية بقوله : « فإن الله سريع الحساب » . فإياك أن تستطيل أمر الجزاء وتقول : سأستمتع بنتيجة البغى والاختلاف لخدمة من يهمهم أمر الاختلاف ، وهمهم أمر البغى ، لأنك تريد أن تجعل أشياء نظن أنها نافعة لك ، لكن ها هو ذا الحق سبحانه يحذرك أن تستطيل حسابك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يأق لك الحساب من الله في الدنيا ،

وهب أن الله لم يبتل مثل هذا الإنسان ببلاء كبير في الدنيا فإن هذا الإنسان سيكون له الحساب العسير في الآخرة .

وقد يقول قائل : إن الحساب في الدنيا قد يؤجله الله إلى الآخرة ، والعلامات الصغرى للقيامة نحن في مراحلها ، وما زالت العلامات الكبرى ليوم القيامة لم تظهر . لمثل هذا القائل نقول : هناك فرق بين الحدث في ذاته ، وبين الحدث فيمن يجرى عليه الحدث . هناك فرق بين أن تقوم القيامة على الناس جميعا ، وبين أن تختصر حياة الإنسان بحادثة ليست في حسابه ، فقد يفنى الإنسان فتوى اليوم ، وتأتى له حادثة فورية تنقله فجأة إلى سريع الحساب ، فإن استبطأ إنسان الحساب ، فعليه أن يعرف أن الآخرة قد تحيى له أسرع من مسائل الدنيا ، لأن الإنسان لا يملك القدرة على إطالة عمره ، ومفتاح العمر عند الخالق الأكرم ، وهو الذى يملك القدرة على أن ينقل إليه من يريد فى أى وقت . وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستبطىء . للحساب أسرع من حساب الدنيا ، وكلمة « حساب » كلمة تطمئن المؤمن إلى أن الله قائم بالفسط لا يتخلى حتى عمن كفر به أو عصاه ، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي
وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ، أَسَلَمْتُ فَإِنْ
أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٠﴾

« فإن حاجوك » هذا القول يدل على أن الحق سبحانه وتعالى يلقى منهجه على الرسول الخاتم ، ويعطيه الواقع الذى يحيا فيه ، لقد جاءه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة معسكرات . المعسكر الأول : هم مشركو قريش ، وكان كفرهم فى القمة . والمعسكر الثانى : هو معسكر اليهود والنصارى وبجمعهم معا لأنهم أهل كتاب . والمعسكر الثالث : هو معسكر المنافقين . والمحنة قد أتت من المعسكر

الثاني ، لأن كفار قريش لم يدعوا أن عندهم ديناً قد نزل من السماء ، أما أهل الكتاب فهم يدعون أن عندهم ديناً منزلاً من السماء ، وعندما يناطح الشرك ديناً فهذا أمر معقول ، أما أن يناطح أهل دين نزل من السماء رسولا جاء بدين خاتم من السماء ، فهذا أمر يستحق أن نتوقف عنده .

ومعنى « فإن حاجوك » أي أنهم يحتاجون الرسول صلى الله عليه وسلم وتم إدغام الحرفين المتشابهين وهما حرفا « الجيم » حتى لا تصبح ثقيلة على اللسان . ومعنى الحاجة : أن يدلي كل واحد من الخصمين بحجته . وهذا يعنى النقاش ، ومادام هناك نقاش بين حق وبين باطل ، فإن الله لا يترك الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يقول له : « فإن حاجوك » أي إن ناقشوك في أمر الإسلام الذي جئت به كدين خاتم مناقض لوثنية أو شرك قريش ومناقض لما قام أهل الكتاب بتغييره من مراد الله فقل يا محمد : « أسلمت وجهي لله » وقد قلنا من قبل : إننا عندما نسمع قول الحق : « فقل » كان من الجائز أن يكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقول القول ، وضربنا مثلاً على ذلك ، حين يقول الأب لابنه : اذهب إلى عمك وقل له : كذا وكذا : وساعة أن يذهب الابن إلى العم فيقول له : الأمر كذا ، وكذا . إن الابن لا يقول لعمه : قل لعمك كذا وكذا . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حافظ على النص الذي جاءه من ربه لأن النص واضح . « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله » فهل هذا رد بالحجة ؟ نعم هذا هو الرد ، لأن أهل الكتاب وكفار قريش يأتى فيهم القول :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ١٠١ ﴾

(سورة الزخرف)

ويأتى فيهم القول الحكيم :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ١٠٢ ﴾

(سورة الزخرف)

والكون كما نعرف « مكان » و« مكان » فالمكان : هو السماء والأرض . والمكين وهو الإنسان . والمكان مخلوق لله ، والمكين مخلوق لله . وكان من المنطق

أن نسلم وجهنا لمن خلق .

إذن فقول الحق : « فقل أسلمت وجهي لله » أي انتبهوا أيها الناس ، إنني لم أخرج عن دائرة الإيمان بالآله الواحد ، الذي تؤمنون به . إنه هو الذي خلق وهو الذي أوجد الكون . وبعد ذلك إذا كان في الإسلام خضوع ، فإن الحق يأتي بأشرف شيء في الإنسان ليجعله مظهر الخضوع . لأن الوجه هو السمة العالية المميزة ، وهو الذي يظهر عليه انفعالات الأحداث في الكون من سرور أو حزن ، ويظهر عليه أنك قد تكون قد سجدت وأنت كاره للسجود ، أو سجدت وأنت مقرب لله سبحانه وتعالى فيمثل الوجه بالبشر والبشاشة .

وقول الحق : « أسلمت وجهي لله » . تعني أن الوجه المسلم لله وهو أشرف شيء في الإنسان قد خضع للحق ، وكأن القول الكريم لم ينسب الخضوع للبدن ولكن لأشرف شيء في الإنسان وهو الوجه ، والوجه يطلق مرة ويراد به الذات كلها ، فعندما يقول إنسان : « أسلمت وجهي » فهو يعني « أسلمت ذاتي » بكل ما أوتيت الذات من جوارح ومن أعضاء . ولتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(من الآية ٨٨ من سورة القصص)

أي كل شيء هالك إلا ذاته سبحانه وتعالى ، هذا هو المقصود بـ « إلا وجهه » . وإلا إن أخذنا الوجه على أنه الوجه فقط فقد يقول قائل : أليس لله يد مثلاً ؟ ونقول : إن له يداً في نطاق ليس كمثله شيء ، ولذلك فلا يد الله يهلك ولا أي شيء فيه يهلك ، ووجهه يعني ذاته في نطاق ليس كمثله شيء . وأطلق الوجه على الذات ، لأن الوجه هو الشخص للذات ، فلا يستطيع أحد أن يميز أعضاء بدن عن أعضاء بدن ، إنما التمييز يأتي بسمة الوجه ، لأنها السمة المميزة . وقول الحق في تلقيته لرسول الله : « فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » . ندل على أن الرسول قد أسلم وجهه لله ، لأن الله خاطبه بواسطة الوحي ، والوحي يباشره صلى الله عليه وسلم ، ولكن حين يقول : « ومن اتبعن » فقد قام الدليل لمن اتبعني ، وإن لم يكن مخاطباً من الله مباشرة .

إذن فلا مجال لأن يقول قائل للرسول صلى الله عليه وسلم : أنت أسلمت وجهك لله لأنه خاطبك وحدك ، وكان صاحب هذا القول يريد خطايا لكل مؤمن ، قال سبحانه : « ومن آتبع » فمن اتبع الرسول فقد آمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول صدق مبلغ عن الله منهج حق ، فلا مجال لطلب البلاغ لكل فرد ، لأن البلاغ قد وصل إليهم بالإيمان بما أنزله الله على رسوله الكريم ويأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم « وقل للذين آمنوا الكتاب والأمين أسلمتم » .

وساعة تقرأ أو تسمع أسلوبا فيه « همزة الاستفهام » فلك أن تعرف أن الاستفهام يُطلب منه أن تعرف الحقيقة ، كقول إنسان لآخر : أعندك عمدا ؟ أو أزارك فلان ؟ إن هذا استفهام المراد به فهم الحقيقة ، ومرة يريد الاستفهام مجرد الأمر بشيء ، كأن يأنبك ضيف وتجلس معه ويدخل عليك والدك فيقول لك : أصنعت قهوة لضيفك ؟ إن ذلك توجيه لك إن كنت لم تقم بواجب الضيافة فعليك أن تسرع في القيام بهذا الواجب . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « أسلمتم » ولذلك تقرأ قول الحق سبحانه بعد الكلام عن الخمر :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ ﴾ (٩١)

(سورة المائدة)

إن قول الحق : « فهل أنتم منتهون » يتضمن استفهاما ، والاستفهام هنا يعني الأمر بالانتهاء . وفي مجال الآية التي نتعرض لها بالخواطر نجد قول الحق : « أسلمتم » تعني الدعوة للإسلام ، أي « أسلموا » وجاء بعد ذلك قول الحق الكريم : « فإن أسلموا فقد اهتدوا » ومعنى « اهتدوا » أنهم عرفوا الطريق الموصل للنجاة التي خلق الله من أجلها الإنسان . وهنا يجب أن نعلم أن كلمة « الإسلام » هنا جاءت لتدل على الخضوع ، والخضوع لا يلحق إلا من خاضع ، وعملية الخضوع تعرف بالحركة والسلوك ، ولا نعرف فقط بالاعتقاد ، ولذلك فالإمام على كرم الله وجهه الذي أوتي شيئا من نفع النبوة في الأداء الإيماني بالأسلوب البياني الجميل قال الإمام علي لإخوانه : سأنسب الإسلام نسبا لم ينسبه قبل أحد : الإسلام هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء

أى أننا نسأل « هو ابن مَنْ » ؟ ومعنى كلمة « نسبة » عند العرب هو الرجل الذى يعرف سلسلة النسب ، ومن ابن مَنْ ، ففلان ابن فلان ابن فلان ، ابن فلان . والإمام على كرم الله وجهه ، حين ينسب الإسلام ينسبه بالفعل إلى نسب لم ينسبه قبله أحد . وحين ينتهى الإمام على كرم الله وجهه إلى أن نسب الإسلام إلى العمل قال :

﴿فَلَمَّا كَبَحَ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَشَقُّا﴾ ﴿٥﴾

لماذا؟ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عليه البلاغ فقط ، وما دام قد جاء في صدر الآية : « أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » فإن البلاغ أيضا يشمل النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ، ولذلك تأتي آية أخرى لتشرح هذه القضية الإيمانية، وتبقى الرسالة في أمته صلى الله عليه وسلم ، ولتخيرنا أيضا لماذا لم يعد هناك داع لوجود أنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمناء على أن يعدلوا فساد السلوك في الكون ، فلم يعد العالم في حاجة إلى أنبياء جدد، وهذا السبب قال الرسول : صلى الله عليه وسلم : (العلماء ورثة الأنبياء)^(١) .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو دارود والترمذي وصححه ابن حبان والحاكم .

إذن وفعلبك البلاغ ، تأخذ منها الفهم الواضح أن البلاغ لا تنتهى مهمته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما يشمل كل عالم بالبلاغ الذى وصل إلى رسول الله وأمن به ، فقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة ، ويوضح الحق ذلك في آية أخرى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِاللهِ وَلَوْ أَنَّمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١)

(سورة آل عمران)

ويقول الحق في آية أخرى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَتَّىٰ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ
مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرُّسُلُ شُهَدَاءَ
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا
بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٧٨)

(سورة الحج)

ومعنى ذلك أنكم تشهدون على الناس أنكم أبلغتموهم رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يتم بإبلاغ الناس برسالة رسول الله فهو لم يأخذ ميراث النبوة . وميراث النبوة كما يكون شرف تبليغ ، فهو أيضا تجلّد وتحمل ، إن ميراث النبوة يكون مرة هو نيل شرف التبليغ لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرة أخرى يكون ميراث النبوة هو جلادة التحمل في سبيل أداء الرسالة ، وجلادة التحمل هي التي يجب أن يتصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكما ورثناه نحن المسلمين في شرف النبوة فإننا نرثه في جلادة التحمل ، وهذا هو معنى القول الحق :

﴿ لِيَكُونَ الرُّسُلُ شُهَدَاءَ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الحج)

فما معنى الأسوة إذن ؟ إن الأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتضي أنه مادام قد تحمل بجلادة بلاغ الناس في رسالته ، فعلينا أيضا أن نفتدى به . لقد ناضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أتباع رسول الله أن يناضلوا في سبيل نشر الدعوة ، فإن رأيت أهل الدين في استرخاء وترهل وعدم قدرة على النضال في سبيل البلاغ عن الله فلتعلم أن هؤلاء القوم لم يأخذوا ميراث النبوة . ولذلك إذا رأيت عالما من علماء الإسلام ليس له أعداء فأعلم أنه قد يقص ميراثه من ميراث الأنبياء .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أعداء وكان يواجههم ، فساعة أن ترى رجل دين وله أعداء فأعرف أنه قد أخذ حظه من ميراث الأنبياء ولنظر الآن إلى قول الحق سبحانه تذييلا للآية يوضح لنا ما الإسلام : « والله بصير بالعباد » لم يقل الله : إنه عليم بالعباد ، لأن « عليم » تكون للأمور العقدية ، لقد قال الحق في وصف ذاته هنا : « إنه يصير بالعباد » ، والبصر لا يأتي إلا ليدرك حركة وسلوكا . فماذا يرى الله من العباد؟ إنه - سبحانه - يرى العباد المتحركين في الكون، وهل حركة العبد منهم تطابق الإسلام أولا ؟ ومتابعة الحركة تحتاج إلى البصر ، ولا تحتاج إلى العلم ، وكان الحق سبحانه وتعالى يقول : إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم ، فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموه أهون الناظرين إليكم ؟

إذن فقول الحق : « والله بصير بالعباد » نفهم منها أن الإسلام سلوك لا اعتقاد فقط ، لأن الذي يرى هو الفعل لا المعتقدات الداخلية . ومادام الله بصيرا بكل سكنات الإنسان وحركاته فإن الإنسان يستحي أن يراه ربه على غير ما يحب ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه فالحق سبحانه له المثل الأعلى وليس كمثل شيء ، نحن في حياتنا العادية نجد أن الشاب الذي يدخن يستحي أن يظهر أمام كبار عائلته كمدخن ، فيمتنع عن التدخين أثناء تواجده مع الكبار ، فما بالنا بالعبد وهو يعتقد أن الله يراه ؟ وبعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ
يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٥١)

وقلنا إن الحق حين يقول : « إن الذين يكفرون بآيات الله » هم الذين يكفرون بآيات الله على إطلاقها ، وهناك فرق بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله . لماذا ؟ لأن الإيمان بالله يتطلب البينات التي تدل على الله ، والبيانات الدالة على وجود الله موجودة في الكون .

إذن فالبيانات واضحة ، إن الذي يكفر بالله يكون قبل ذلك كافرا بالأدلة التي تدل على وجود الخالق . إن الحق لم يقل هنا : إن الذين يكفرون بالله ، وذلك حتى يوضح لنا أن الحق غيب ، ولكن الآيات البينات ظاهرة في الكون ، لذلك قال : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين » . ولنا أن نلاحظ هنا ، أن كلمة القتل تأتي دائما للنبيين ، أي أنها لا تأتي للذين أخذوا صفة تزيد على مهنة النبي ، وهو الرسول ، فليس من المعقول أن يرسل الله رسولا ليبلغ منهجا لله ، فيقدر الله خلقه على أن يقتلوا الرسول . لكن الأنبياء برسولهم الله ليكونوا أسوة سلوكية للمؤمنين ، ولا يأتي الواحد منهم بتشريعات جديدة ، أما الرسول فإن الله يبعثه حاملا لمنهج من الله . وليس من المعقول أن يصطفى الله عبدا من عباده ويستخلصه ليبلغ منهجه ، ويمكن الله بعد ذلك بعضا من خلقه أن يقتلوا هذا الرسول .

إن الخلق لا يقدرون على رسول أرسله الله ، لكنهم قد يقدرون على الأنبياء ، وكل واحد من الأنبياء هو أسوة سلوكية ، ولذلك نجد أن كل نبي يتبع على دين الرسول السابق عليه ، فلماذا يقتل الخلق الأسوة السلوكية مادام النبي من هؤلاء قد جاء ليكون مجرد أسوة ، ولم يأت بدين جديد ؟ فلو كان النبي من هؤلاء قد جاء بدين جديد ، لقلنا : إن التعصب للدين السابق عليه هو الذي جعلهم يقتلونه ،

لكن النبي أسوة في السلوك ، فلماذا القتل ؟ إن النبي من هؤلاء يؤدي من العبادة ما يجعل القوم يتشبهون إلى أن السلوك الذي يفعله النبي لا يأتي وفق أهوائهم .

إن القوم الذين يقتلون النبيين هم القوم الذين لا يوافقون على أن يسلكوا السلوك الإسلامي الذي يعنى إخضاع الجوارح ، والحركة لمنطق الدين ومنطق الإسلام ، لماذا ؟ لأن النبي وهو ملتزم بشرع الرسول السابق عليه ، حينما يلتزم بدين الله بين جماعة من غير الملتزمين يكون سلوكه قد طعن غير الملتزمين .

إن وجود النبي الذي يتمسك بشرع الله ، ويخضع جوارحه ، وسلوكه لمنهج الله بين جماعة تدعى أنها تدين بدين الله ، ولكنها لا تتمسك بمنهج الله تجعلهم إلى أن يقولوا : لماذا يفعل النبي هذا السلوك القويم ، ولماذا يخضع جوارحه لمنطق الإيمان ، ونحن غير ملتزمين مثله ؟ وهذا السؤال يثير الغيظ والحقد على النبي بين هذه الجماعة غير الملتزمة بدين الله ، وإن أغلقت في ظاهر الأمر التزامها بالدين . إنهم يحقدون على النبي لأنه يرتفع بسلوكه المسلم ، وهم لا يستطيعون أن يرتفعوا ليكونوا مثله .

إن النبي بسلوكه الخاضع لمنهج الله يكون أسوة واضحة جليلة يظهر بها الفرق بين مجرد إعلان الإيمان بمنهج الله ، وبين الالتزام السلوكي بمنهج الله ، وتكون أسوة النبي محقرة لفعالهم . ولذلك حين نجد إنسانا ملتزما بدين الله ومنهجه ، فإننا نجد غير الملتزم ينال الملتزم بالسخرية والاستهزاء ، لماذا ؟ لأن غير الملتزم يتلذذ بالغيظ والحقد على الملتزم القادر على إخضاع نفسه لمنهج الله ، ويسأل غير الملتزم نفسه :

لماذا يكون هذا الإنسان قادرا على نفسه تخضعا لها لمنهج الله وأنا غير قادر على ذلك ؟ إن غير الملتزم يحاول إزاحة الملتزم وإبعاده من أمامه . لماذا ؟ لأن غير الملتزم يتضاءل في نظر نفسه ونظر الآخرين . إذا ما قارن نفسه بالملتزم بمنهج الله ، وعندما يقارن الآخرون بين سلوك الملتزم بمنهج الله وسلوك غير الملتزم بمنهج الله فهم لا يحترمون غير الملتزم ، فيشعر بالصغار النفسى أمام الملتزم وأمام الناس . فيحاولون غير الملتزم أن يزيح الملتزم وينحيه عن طريقه ، إن غير الملتزمين بمنهج الله يسخرون ويتغامزون على الملتزمين بمنهج الله ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴾

(سورة الطافقين)

الا توضح لنا تلك الآيات البينات ما يقوله غير الملتزمين في بعض مجتمعاتنا للملتزمين بمنهج الله ؟ ألا نسمع قول غير الملتزمين للملتزم بمنهج الله : « خذنا على جناحك » ؟ إن هؤلاء غير الملتزمين ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝ ﴾

(سورة الطافقين)

إن غير الملتزمين قد يفرح الواحد منهم ، لأنه استطاع السخوية من مؤمن ملتزم بالله . وقد ينهم غير الملتزمين إنسانا ملتزما بأن الالتزام ضلال . والحق سبحانه وتعالى يرد على هذا الاتهام بالقول الكريم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴾

(سورة الطافقين)

الحق يرد على الساعرين من الملتزمين بمنهج الله ، فيضحك الذين آمنوا يوم القيامة من الكفار ، وينساءل الحق بجلال قدرته وغمام جبروته :

﴿ قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(سورة الطافقين)

مكذبا ينال غير الملتزمين عقابهم ، فإذا عن الذين يقتلون النبيين بغير حق ؟ إن لنا أن نسأل : لماذا وصف الله قتل النبيين بأنه « بغير حق » ، وهل هناك قتل لنبي بغير حق ؟ لا يمكن أن يكون هناك قتل لنبي بغير حق ، وإذا كان الله قد قال : « ويقتلون النبيين بغير حق » هذا القول الكريم قد أن لبوضوح واقعا ، إنه سبحانه يقول بعد ذلك في سلسلة أعمال هؤلاء الذين يقتلون النبيين بغير حق : « ويقتلون الذين يأمرون بالباطل من الناس » إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين ، بل يقتلون أيضا من بدافع من المؤمنين عن هذا النبي كيف ؟ لأنه ساعة يُقتل نبي ، فالذين ألزموا بمنهج النبي ، وكانوا معه لا بد لهم أن بغضبوا ويحزنوا .

إن أتباع النبي يفعلون بحدث قتل النبي ، فإن استطاعوا منع ذلك القتل لفعلوا وإن لم يستطع أتباع النبي منع قتل النبي فلا أقل من أن يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، لكن القتل يتجاوز طغيانهم فلا يقتلون النبيين فقط فإذا قال لهم منكر لتصرفهم : ولماذا يقتلون النبيين ؟ فإنهم يقتلونه أيضا ، وبالنسبة لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نحن نعرف أن أعداءه قد صنعوا معه أشياء أرادوا بها اغتياله ، وذلك بدل على غباء الذين فكروا في ذلك الاغتيال .

لماذا ؟ لأنهم لم ينظروا إلى وضعه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن نبيا فقط ، ولكنه رسول أيضا . ومادام رسولا فهو أسوة وحامل المنهج في آن واحد ، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم نبيا فقط لكان في استطاعتهم أن يقتلوه كما قتلوا النبيين من قبل ، لكنه رسول من عند الله ، ولقد رأوه بحمل منهجا جديدا ، وهذا المنهج بسفه أخلاقيهم ، ويوضح أكاذيبهم ، من تبديلهم للكتب المنزلة عليهم .

إذن ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا يحمل رسالة ومنهجا ، وحينما أرادوا أن يقتلوه كنبى ، غفلوا عن كونه رسولا . ولذلك قال الحق مطمئنا لنا ومحدثا رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

يَنْصِبُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

الرسول الكريم إذن حامل رسالة ومعصوم بالله من أعدائه ، والحق سبحانه وتعالى قد حكى عن الذين يقتلون الأنبياء ، وأراد أن يطمئن المؤمنين ، ويطمئن الرسول على نفسه ، وأن يعرف خصوم رسول الله أنه لا سبيل إلى قتله ، فيقول الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٩١ من سورة البقرة)

ولماذا يأتي الله بـ « من قبل » هذه ؟ إنه يوضح لنا وللرسول ولأعدائه محمد صلى الله عليه وسلم أن مسألة قتل الأنبياء كان من الممكن حدوثها قبل رسول الله ، لكن هذه المسألة صارت منتهية ، ولا يجرؤ أحد أن يمارسها مع محمد رسول الله ، وبذلك طمأن الحق المؤمنين ، وطمأن رسول الله بأن أحدا لن يناله بأذى ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ من سورة المائدة)

وأيأس الحق الذين يريدون قتل رسول الله فقد قال لهم :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ من سورة البقرة)

ولوإن المسألة مسألة نبوة ، ورسالة رسول الله غير داخلية في مواجيدهم ، وكان إنكارهم لرسالته عنادا ، لكنوا قد قالوا : « إن مسألة قتل الأنبياء لا تتوقف عند » من قبل ، لأننا سنجعلها « من بعد » أيضا ، ولكنوا قد كتلوا قواهم وقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن الله سبحانه أيأسهم وقتلهم من ذلك ، وذلك من مناط قدرة الله . وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يحكى عن أمر في قتل الأنبياء ، وقتل الذين يأمرون بالقسط ، أكان ذلك معاصرا لقول الرسول هذا ؟ أو كان هذا الكلام لمن ؟ إنه موجه لبعض من أهل الكتاب ، إنه موجه لمن آمنوا باتباع الذين قتلوا النبيين من قبل ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط ، لقد آمنوا كإيمان السابقين لهم من قتلة الأنبياء ، وقتلهم للذين يأمرون بالقسط .

وهذا تقرير هؤلاء الذين اتبعوا في الإيمان قوما قتلوا الأنبياء من قبل ، وقتلوا الذين يأمرهم بالقسط ، إنه تقرير ونسأل . كيف تؤمنون كإيمان الذين قتلوا الأنبياء؟ وكيف تتبعون من فعل مثل ذلك؟ وقد قص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن بني إسرائيل قد قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا دفعة واحدة ، فقام مائة وسبعون من أتباع الأنبياء لينكروا عليهم ذلك ، فقتلهم^(١) ، وهذا هو معنى هذه الآية الكريمة :

﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ

بِعَذَابِ أَلِيمٍ

(من الآية ٢١ من سورة آل عمران)

لماذا يبشرهم الحق بعذاب أليم؟ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يسر في أمد يمكن أن يؤول فيه الفعل الذي يسر؟ إن التبشير دائما يكون للفعل الذي يسر ، كتبشير الحق للمؤمنين بالجنة ، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يخبر المؤمن بأمر يسر له المؤمن ، ويعطى الحق الفرصة للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الجائزة والبشارة .

لماذا يكون الحديث بالبشارة موجها لأبناء الذين فعلوا ذلك؟ لأننا نعرف أن الذين قتلوا النبي وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس لم يكونوا معاصرين لنزول هذه الآية ، إن المعاصرين من أهل الكتاب لنزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين أمروا بالقسط ، ويبشرهم الحق بالعذاب الأليم ، لأنهم ربما رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا ، فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا فلهم أيضا البشارة بالعذاب .

وتتسع دائرة العذاب لهم أيضا ، ولكن لماذا يكون العذاب بشارة لهم ، رغم أن البشارة غالبا ما تكون إخبارا بالخير ، وعملية العذاب الأليم ليست خيرا؟ إن علينا أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمة « أبشر » فإن النفس تتفتح لاستقبال خير يسر ، وعندما نستعد النفس بالسرور وانسباط الأسارير إلى أن نسمع شيئا حسنا بأن قول : أبشر بعذاب أليم ، ماذا يحدث؟ الذي يحدث هو انقباض مفاجيء أليم ، ابتداء مطمح « فبشرهم » وانتهاء مقيس (بعذاب أليم) وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشده لأن الحق لو أنذرهم وأوعدهم من أول الأمر بدون أن يقول :

« فيشرهم » لكان وقوع الخبر المؤلم هينا . لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعا صاعقا ، ومثال لذلك قول الحق :

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

(من الآية ٢٩ من سورة الكهف)

إنهم يستغيثون في الآخرة ، ويغاثون بالفعل ، ولكن بماذا يغاثهم الله ؟ إنه يغاثهم بماء كالمهل يشوي الوجوه . إننا ساعاة أن نسمع « يغاثوا » قد نظن أن هناك فرجا قادما ، ولكن الذي يأتي هو ماء كالمهل يشوي الوجوه . وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء أو لاتباع القتل . الذين آمنوا بمثل ما آمن به هؤلاء القتل . « فيشرهم بعذاب أليم » وكلمة « عذاب » تعني إيلام حتى يحس بالألم . والعذاب هو للمحن الذي يظل مثالاً ، أما القتل فهو ينهي النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أن يبقى الشخص حياً حتى يتألم ويشعر بالعذاب ، وقول الحق : « بعذاب أليم » يلفتنا إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا

غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٥ ﴾

(سورة النساء)

أي ان الحق بديم عليهم الحياة لديم عليهم التعذيب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٥٦ ﴾

إنهم الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين بغير حق ، وقتلوا الذين أمروا بالقسط بين الناس ، هؤلاء لهم العذاب ، ولهم أيضا حبط العمل في الدنيا

والآخرة ، وكذلك من نرجع نهجهم ، ومعنى « حبطت » أى لا ثمرة مرجوة من العمل ، إن كل عمل يعمله العاقل لأبد أن يكون له هدف يقصده ، فأى عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون ليس لها هدف . إن العاقل قبل أن يفعل أى عمل ينبغي أن يعرف الغاية منه ، وما الذى يحققه من النفع ؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدوم ، أو هو أقل من ذلك ؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله ، وحينئذ يقول الحق : « أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن إنساناً قد يعمل عملاً هو فى ظاهره خير ، فإياك أن تغترأيا المؤمن بأنه يعمل خيراً . لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمن يجازى ، فالإنسان إن عمل عملاً قد تصلح به دنياه فهو عمل حسن ، فلماذا يكون عمل هؤلاء حابطاً فى الدنيا ، وفى الآخرة ؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حابطاً لأنه لم يصدر من مؤمن ، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل ، لا ثقة بالأمر الأعلى .

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يقوم بالعمل ثقة فى الأمر الأعلى . وبعض من الناس فى عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية . يقول الواحد منهم : هل يعقل أحد أن « باستير » الذى اكتشف الميكروبات ، والعالم الآخر الذى اكتشف الأشعة ، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار ؟ ول هؤلاء نقول : نعم ، إن الحق بعدالة أراد ذلك ، ولنتقاضى نحن وأنتم إلى أعراف الناس . إن الذى يطلب أجراً على عمل يطلبه ممن ؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له . فهل كان الله فى بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال ؟ إن بهم كان مشغولاً بالإنسانية ، وقد أعطتهم الإنسانية التخليد ، وغير ذلك من مكاسب الدنيا ، وينطبق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فىك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقي فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فىك القرآن قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ، ليقال : هو قارىء ،

فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرّفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل فحب أن يتفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقي في النار (١) .

إذن فإذا كان الجزاء من الله ، فلنا أن نسأل : هل كان الله في بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم ؟ لم يكن في بالهم الله . والذي يطلب أجرا ، فهو يطلبه ممن عمل له . ولم يضع الله ثمرة عملهم ، بل دوت عليهم أعمالهم الذكر والجاه والرفعة . لم يضع الله اجر من أحسن عملا .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢)

(سورة الشورى)

وقد قلت لكم قديما : تذكروا المفاجأة التي تحدث لمن عمل عملا هو في ظاهره خير ، ولكن لم يكن ربه في باله ، هذا ينطبق عليه قول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْتَبُونَ الظُّلُمَاتِ مَاءً حَقِيقًا إِذَا جَاءَهُمْ لَمَسٌ مِنْ شَيْءٍ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقَهُ جَahِرٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣)

(سورة التود)

إنه يفاجأ بوجود الله ، ولم يكن هذا الإله في باله ساعة أن قام بهذا العمل الذي هو في ظاهره خير ، كان الله يقول لصاحب مثل هذا العمل : أنا لم أكن في بالك ساعة أن قمت بهذا العمل ، فخذ جزاءك عن كان في بالك . « أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين » إن أعمالهم حبطت في الدنيا ، لأنهم قد يعملون عملا يراد به الكيد للإسلام ، لذلك لا يمكنهم الله من ذلك ، بل يحذلهم

(١) أخرجه الإمام مسلم بروايات مختلفة وأخرجه النسائي والترمذي وابن ماجه .

جميعا . وانتصر دين الله رغم قلة العدد وقلة العدة . وليس هؤلاء ناصرون . أى ليس لهم من يأتى ويبراهم مهزومين أمام خصم لهم وينجدهم ، إنهم لن يجحدوا ناصرا إذا هزمهم الله ، فليس مع الله أحد غيره . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾

ونعرف أننا ساعة نسمع قول الحق : (ألم تر) - فهنا همزة استفهام ، وهنا أداة نفى هى « لم » ، وهنا « تر » ومعناها أن يستخدم الإنسان آلة الإبصار وهى العين . فإذا ما قال الله لرسوله : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم معرضون » . إن هذه دعوة لأمر واضح . لكن فى بعض الأحيان تأتى « ألم تر » فى حادث كان زمانه قبل بعثته صلى الله عليه وسلم فلم يره رسول الله كقول الحق :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾

(سورة الفيل)

إن النبى صلى الله عليه وسلم لم ير أصحاب الفيل ، إذن فساعة تسمع « ألم تر » ، إن كان حدثها من المعاصر ، فمن الممكن أن تكون رؤية ، والرؤية تؤدى إلى علم يقين ، لأنها رؤية لمشهود . وإن جاءت « ألم تر » فى أمر قد حدث من قبل ، أو أمر لما يحدث بعد فهى تعنى « ألم تعلم » ، لأن الرؤية سيدة الأدلة ، فكان الله سبحانه وتعالى ساعة يقول لرسوله فى حادث لم يشهده الرسول : ألم تر ؟ فهذا معناه : ألم تعلم ؟

وقد يقول قائل : ولماذا لم يأت بـ « تعلم » وجاء بـ (تر) ؟ لأن سيادة الأدلة هو الدليل المرئى ، فكان الله يريد أن يخبرنا بـ « ألم تر » أن نأخذ المعلومة من الله على أنها

﴿ اِنَّ اَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْعَیْلُوْهُۥ سُبْحٰنَهُۥ وَتَعَالٰی عَمَّا یُشْرَکُّوْنَ ۝۱ ﴾

فهل ينسجم قوله : « أتى أمر الله » مع « فلا تستعجلوه » ؟ إن الأمر الذي يخبرنا به الله قد أتى ، فكيف يمكن عدم استعجاله ؟ إن « أتى » معناها أن الأمر قد حصل قبل أن يتكلم . يجب علينا إذن أن نعرف أن الذي قال : « أتى » قادر على الإتيان به ، فكانه أمر واقع ، إنها مسألة لا تحتاج إلى جدال ، لأنه لا توجد قوة تستطيع أن تتنازع الله لتبرز أمراً أرادته في غير مراده . فكأن قوله الحق : « ألم تر » إن كانت تحكى عن حدث فات زمنه فالذى يأتي منها هو العلم ، لأنه إخبار الله ، وإن كانت تحكى عن حدث معاصر فالذى يأتي منه أيضاً هو العلم ، لأنه صادر عن رؤية ومشاهدة .

وعندما يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، . . . وأوتوا ، تلقىنا إلى قوم قد نزل إليهم منهج من أعلى . ولذلك يأتي في القرآن ذكر المنهج بـ « نزل » و « أنزل » ، وذلك حتى نشعر بعلو المكانة التي نزل منها المنهج . وما هو النصيب ؟ إننا نسمى النصيب « الحظ » ، أو خارج القسمة ، كأن يكون عندنا عشرون ديناراً ، ونقسمها على أربعة فيكون لكل واحد خمسة ، هذه الخمسة الدنانير هي التي تسمى « نصيباً » أو « حظاً » ، والنصيب : « حظ » أو « قسمة » يضاف لمن أخذه .

إذن ، فلماذا يقول الحق : « الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » إنها لفظة جميلة ، فالكتاب كله لم يبق لهم ، إنما الذي وصل وانتهى إليهم جزء بسيط من الكتاب ، فكان هذه الكلمة تنبه الرسول والسماعين له أن يعذروا هؤلاء القوم حيث لم يصلهم من الكتاب إلا جزء يسير منه ، إن نصيبا من الكتاب فقط هو الذي وصلهم .

رَاجِعْ أَصْلَهُ وَخَرُجْ أَحَادِيثَ الدُّكْتُورِ أَحْمَدَ عَمْرٍو هَاشِمٍ نَائِبِ رَئِيسِ جَامِعَةِ الْأَزْهَرِ ،

ويشرح الحق ذلك في آيات أخرى :

﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِنْ أَفْئَتِهِمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَنُوسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ١٣ من سورة المائدة)

إن الجزء النسي من الكتاب لم يأخذه المعاصرون لرسول الله - وقلنا أيضا : إن الحق قد أوضح أن بعضهم كتم بعضا من الكتاب .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومادام هناك من كتم بعضا من الكتاب فمعنى ذلك كتمانهم عن المعاصرين له ، وهناك أناس منهم مخدوعون ، فشيء من الكتاب قد نسي ، وبالتالي مسح من الذاكرة ، وهناك شيء من الكتاب قد كتم ، فصار معلوما عند البعض ، وغير معلوم عند البعض الآخر ، وحتى الذي لم يكتموه ، جاء فيه القول الحكيم :

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلْعَنُونَ أَلَيْسَتْهُمْ بِأَلْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فالكتاب الذي أنزل إليهم من الله قد تعرض لأكثر من عدوان منهم ، ولم يبق إلا حظ من الكتاب ، وهذا الحظ من الكتاب هو الذي يجادل القرآن به هؤلاء الناس ، إن القرآن لا يجادلهم فيما تبدل عندهم بفعل أجبارهم ورهبانهم السابقين ، ولكنه يجادلهم بالنصيب الذي أوتوه .

يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله

ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . وعن أى كتاب الله تتحدث هذه الآية ؟ هل تتحدث عن القرآن ؟ لو كان الحديث عن القرآن فلا بد أنه حُكِّمَ في أمر بينهم وبين رسول الله ، لكن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب قد اختلفوا فيما بينهم ، ولماذا يختلفون فيما بينهم ؟ السبب هو أيضا لون من البغى فيما بينهم . وإذا كان الكتاب هو القرآن ، أليس القرآن مصدقا لما معهم ؟

إذن فعندما يدعون لئتم التصديق على ما جاء في كتبهم ، فاللدعوة هنا لأن يسود حكم القرآن . وما معنى « يدعون إلى كتاب الله » ، إن الداعي هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم المدعون ، ومادام الحق قد قال : « أوتوا نصيبا من الكتاب » فهل كان خلافهم في النصيب الذى بين أيديهم أم النصيب المحذوف ؟ إنه خلاف بينهم في النصيب الذى بين أيديهم ، ليكون ذلك حجة على أنهم غير مأمورين حتى على ما وصلى إليهم وما هو مكتوب عندهم . وعندما تكلم العلماء عن هذه المسألة أوردوا لذلك الأمر حادثة . لقد اختلفوا في أمر سيدنا إبراهيم وقالوا : إن سيدنا إبراهيم يهودى وقال بعضهم : إنه نصرانى . وجاء القرآن خاسيا :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ۝ ٣٧ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا . لأن كلمة يهودى ونصرانى قد جاءت بعد إبراهيم ، وكان لابد لهم أن يخرجوا من قلة الفطنة وأن يرتبوا الأحداث حسب زمانها . إذن ففى أى أمر اختلفوا ؟ هل اختلفوا في أمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ هل اختلفوا في حكم موجود عندهم في التوراة ؟ لقد كانت الدعوة موجهة إليهم في ماذا ؟ إنهم « يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » وذلك يدل على أن كلمة :

﴿ بَقِيَا بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة آل عمران)

هى حالة شائعة بينهم ، لماذا ؟ لأن العلماء حينما ذكروا الحادثة التى دعوا للحكم فيها بكتاب الله ، قال العلماء : إن اثنين من يهود خيبر - امرأة - خيبرية ورجل من

خبير ، قد زنيا ، وكان الاثنان من أشرف القوم ، ويريد الذين يحكمون في هذا الأمر بكتاب التوراة ألا يبرزوا حكم الله الذي جاء بالتوراة ، وهو الرجم ، فاحتالوا حيلة ، وهي أن يذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولماذا يذهبون في هذه الجزئية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إننا نأخذ مجرد الذهاب إلى رسول الله ارتضاءً لحكمه .

لكن لماذا لم يرتضوا من البداية بكل ما جاء به رسول الله ؟ لقد أرادوا أن يذهبوا لعلهم يجدون تفهما في مسألة يفتونها ، أما في غير ذلك فهم لا يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينا فكرة عنهم ، لقد كانوا يريدون حكماً غفياً غير الرجم . إن الزاني وهو من خبير والخبيرة الزانية أرادا أن يستقذا أنفسهما من حكم التوراة بالرجم ، إيهما من أشرف خبير ، ولأن اليهود قد صنعوا لأنفسهم في ذلك الوقت سلطة زمنية ، فذهب الزاني والزانية ومعهما الأخبار الذين يريدون أن يلوا حكم الله السابق نزوله في التوراة وهو الرجم . وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك واحد اسمه « النعمان بن أوفى » ، وواحد اسمه « بحرى بن عمرو » فقالوا : يا رسول الله إقض بين هؤلاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أو ليس عندكم حكم ؟ وأضاف رسول الله ما معناه : أنا أحتكم إلى التوراة وهي كتابكم ، فماذا قالوا ؟ قالوا : أنصفتنا .

وكان رسول الله قد بين لهم أولاً حكم الإسلام في الزنا بأنه الرجم . وحي ، بالجزء الباقي عندهم من التوراة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينضمن الحكم الملزم دليلاً على أن الله أطلعه على أشياء لم تكن في بال أحد . فدعا بقسم من التوراة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أيكم أعلم بالتوراة ؟ فقالوا : شخص اسمه عبدالله بن صورية فأحضره ، وأعطاه التوراة ، وقال : اقرأ فجلس عبدالله بن صورية يقرأ ، فلما مر على آية الرجم وضع كفه عليها ليخفيها ، وقرأ غيرها وكان عبدالله بن سلام حاضراً ، فقال : يا رسول الله أما رأيته قد ستر بكفه آية وقرأ ما بعدها ؟ وزحزح ابن سلام كف الرجل ، وقرأ هو فإذا هي آية الرجم .

هذه المسألة تعطينا أن الحكم في القرآن الكريم هو الحكم في التوراة في أمر الزنا ، وتعطينا أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاض الله عليه من إلهاماته فجاء

بالجزء من التوراة الذي يحمل هذا النص . وجاء بعد ذلك جندى من جنود الله هو عبدالله بن سلام وكان يهوديا قد أسلم ليظهر به رغبة القوم في التزييف والتزوير .

وإسلام عبدالله بن سلام له قصة عجيبة ، فبعد أن اختبر الإيمان في قلبه ، جاء إلى رسول الله قائلا : لقد شرح الله صدرى إلى الإسلام ونطق بكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكنى أحب قبل أن أعلن إسلامي أن تجلس رؤساء اليهود لتسألهم رأيهم في شخصي ، لأن اليهود قوم بهت » ، فبهم افتراء وفيهم الكذب وفيهم التضليل ، فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء اليهود عن رأيهم في عبدالله بن سلام قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا . إلخ . وأفاضوا في صفات المدح والإطراء والتقدير . فقال عبدالله بن سلام أمامهم : الآن أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فانقلب رؤساء اليهود ، وقالوا في عبدالله بن سلام : عكس ما قالوه أولا ، قالوا : إنه خبيثنا وابن خبيثنا . إلخ .

لقد غيروا المديح إلى ذم . فقال عبدالله بن سلام : يا رسول الله أما قلت لك : إنهم قوم بهت ؟ والله لقد أردت أن أعلمك برأيهم في قبل أن أسلم . ذلك هو عبدالله بن سلام الذي زحزح كف عبدالله بن صورية عن النص الذي فيه آية الرجم في التوراة ، وفي ذلك جاء القول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم مغرضون » إنهم الذين أعرض فريق منهم عن قبول الحق .

ما سبب هذا الإعراض ؟ أهو قضية عامة ؟ أو أن سبب هذا الإعراض هو السلطة الزمنية التي أراد اليهود أن يتخذوها لأنفسهم ؟ ومعنى السلطة الزمنية أن يحىء أشخاص فيأخذوا من قداسة الدين ما يفيض عليهم هم قداسة ، ويستمنعوا بهذه القداسة ثم يستخدموها في غير قضية الدين ، هذا هو معنى السلطة الزمنية . وقلنا سابقا : إن كل تحوير في منهج الله سببه البغى ، والمفروض أن أهل الكتاب من أصحاب التوراة كانوا يستفتحون على العرب ويقولون : سيأتى نبي من العرب نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوه سابقا في كتبهم كفروا به ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في مثل هذه القضية موضحا موقفهم من قضية الإيمان العليا :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَمَّ مَرْسَلًا قُلْ كُنْ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (١٤)

(سورة الرعد)

فكان من عنده علم بالكتاب كان مفروضاً فيه أن يشهد لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلا يقول الله : « ومن عنده علم الكتاب » لن يقول الحق ذلك إلا إذا كان عند علماء أهل الكتاب ما يتفق مع ما جاء به الله في صديق رسوله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عنه . وكان السبب في محاولة بعض اليهود الإنكار رسالة رسول الله هو السلطة الزمنية ، وأرادوا أن يسروا لأتباعهم أمور الدين :

إن كل دعى - أى مزيف - في مبدأ من المبادئ يحاول أن يأخذ لنفسه سلطة زمنية ، فيأتى إلى تكاليف الدين التى قد يكون فيها مشقة على النفس ، ويحاول أن يخفف من هذه التكاليف ، أو يأتى بدين فيه تخفيف محلي بالعبادات ، فإذا نظرنا إلى مسيلمة الكذاب ، نجده قد خفف الصلاة حتى يرغب في دينه من تشق عليه الصلاة ، وينضم إلى دين مسيلمة ، وحذف مسيلمة جزءاً من الزكاة ، وهذا يعطى فرصة التحلل من تكاليف الدين ، ولذلك فالذى أفسد الأدیان السابقة على الإسلام أن بعضاً من رجال الدين فيها كلها رأوا قوماً على دين فيه تيسيرات أخذوا من هذه التيسيرات ووضعوها في الدين ، لأن تكاليف الدين شاقة ولا يحمل إنسان نفسه عليها إلا من آمن بها إيمان صدق وإيمان حق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في عمدة العبادات وهى الصلاة :

﴿ وَأَسْعِبُوا الضَّيْرَ وَالصَّلَاةَ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (١٥)

(سورة البقرة)

ويقول في موقع آخر في القرآن الكريم عن الصلاة :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِيبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١٦)

(سورة طه)

إن الحق عليم حكيم بمن خلق وهو الإنسان ، ويعلم أن الضعف قد يصيب روح الإنسان فلا يصطبر على الصلاة ، أو يراها تكليفا صعبا ، لكن الذي يقيم الصلاة ويحافظ عليها فهو الخاشع لربه . ولذلك فإننا نجد أن كل منحرف يأتي ويحاول أن يخفف من تكاليف الدين ، ويحاول أن يحلل أشياء محرمة في الدين ، ولم نر منحرفا يزيد في الأشياء المحرمة . إن المنحرفين يريدون إنقاص الأمور الحرام . وإذا سألنا هؤلاء المنحرفين : لماذا تفعلون ذلك ؟ فإننا نجد أنهم يفعلون ذلك لجذب الناس إلى أمور محرمة بحللها هؤلاء المنحرفون . ولذلك أراد بعض من اليهود أن يسهلوا على أتباعهم الدين ، وقال بعض من أحبارهم : لا تخافوا من أمر يوم القيامة . وجاء القول الحق يحكي عنهم وكأنهم حاولوا أن يفهموا الأمر بأن الله يحلل لهم أموراً ، لا ، إن الله لم يحلل إلا الحلال ، ولم يحرم إلا الحرام . وإذا كان الحق قد قال :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٠ ﴾

(سورة التحريم)

فهذا القول الحكيم جاء في مناسبة محددة وينطبق فقط في مجال ما حلل الله فلا تحرمه ، أما ما حرم الله فلا تقربه ، لقد أرادوا أن يبيحوا للأتباع ارتكاب الآثام ، لأن النار لن تصيبهم إلا أياما معدودة ، وإذا دققنا التأمل في القول الحق الذي جاء على لسانهم ، فإننا نجد الأتي : إننا نعرف أن لكل حدث زمانا ، ولكل حدث قوة يحدث عليها ، فمن ناحية الزمان . قال هؤلاء المزورون لأحكام الله عن يوم القيامة إنها أيام معدودة ، فلا خلود في النار ، وحتى لو كان العذاب شديدا فإنه أيام معدودة ، فالإنسان يستطيع أن يتحمل ، ومن ناحية قوة الحدث ، أرادوا أن يخففوا منه ، فقالوا : إنه عذاب ليس بشديد إنما هو مجرد مس . إنهم يحاولون إغواء الناس لإفسادهم وقال هؤلاء الأحبار : نحن أبناء الله وأحباؤه أرايتم أحدا يعذب أبناءه وأحباؤه ؟ لقد أعطى الله يعقوب النبوة ، ولا يمكن أن يعاقب ذريته أبدا ، إلا بتقدير تحلة القسم .

﴿ وَخُذْ يَسْـَٔدَكَ صِغْثًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ١١ ﴾

(سورة ص)

إن أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته إذا برىء من مرضه مائة سوط ، وأراد الله له أن يحله من هذا القسم فأمره أن يأخذ حزمة من حشيش أو

عشيب فيها مائة عود ويضربها بها ضربة خفيفة ليرى في قسمه ، وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وقت المرض ، وكان أيوب عبدا شاكرا لله ، كان الضربة الواحدة هي مائة ضربة ، وهذا تحليل للقسم ، وقال بعض من بنى إسرائيل : إن ذرية بنى يعقوب لن تعذب من الله إلا بمقدار تحلة القسم ، وكل ذلك ليزينوا للناس بقاءهم على هذا الدين الذي سوف تكون الآخرة فيه بعداها مجرد من النار ، وأيام معدودة ، بادعنا أن بنى يعقوب هم أبناء الله وأحبائه ، وأن الله قد أعطى وعدا ليعقوب بأنه لن يعذب أبناءه إلا بمقدار تحلة القسم ، وهذا بطبيعة الحال هو ترتيب لذين الله ومنهجه لقد تولوا عن منهج الله ، وأعرضوا عنه بمصيان ، بوضح لنا هذا المعنى القول الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ

وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾

لقد تولوا وهم معرضون عن حكم الله لقد ظنوا أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات . ولنا أن نعرف معنى « عرهم » ولنا أن نسأل ما الغرور ؟ إن الغرور هو الإطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد والعبادة بالله : « أنت مغرور » فأنت تقصد أنه يسلك سبيلا لا يوصله إلى الهدف المنشود . إذن فالغرور هو الإطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، ولذلك يسمى الله الشيطان « الغرور » .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ

الشَّعِيرِ ۝٢٥﴾

(سورة غاطر)

إنه الشيطان الذي يزين للناس بعض الأمور ويحث الخلق ليطمعوا في حدوثها ،

وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها ، فهي مما رآه الشيطان ، لذلك فحسببتها لا تتناسب مع الطمع فيها .. والحق سبحانه يقول عن الدنيا :

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَؤُلَاءِ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أُنْجَبَ الْكُفَّارُ بِنَاهٍ ثُمَّ يَسْجُ فُتْرُهُ مُمْسِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطْلًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾
(سورة الحديد)

ويقال عن الرجل الذي ليس له تجربة : إنه « غرٌّ » فبأن بأشياء بدون تجربة ، فلا يتفحص منها ، ولا تصحح . إذن ، فكل مادة « الغرور » مأخوذة من إطماع فيما لا يصح ولا يحصل . لذلك سمى الله الشيطان « الغرور » لأنه بظمنا نحن البشر بأشياء لا تصح ولا تحدث . ولهذا سوف يأتي الشيطان يوم القيامة ليشر من الذين اتبعوه وبتهمهم بالبلاهة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا اتِّخَاذُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْصِرِيَّيَّ إِلَى كُفْرَتِي بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

ما معنى « وما كان لي عليكم من سلطان » ؟ السلطان أي القوة التي تقنع الإنسان بعمل فعل ما ، وهو إما أن يكون سلطان الحجة فيقنعك بفعل ما ، فتفعله ، وإما أن يكون سلطان القوة ، فيرغمك أن تفعل ، السلطان - إذن - نوعان : سلطان حجة ، وسلطان قوة . والفرق بين سلطان الحجة وسلطان القوة الفاعلة على الفعل ، هو أن سلطان الحجة يقنعك أن تفعل الفعل وأنت مفتتح ، أما سلطان القوة الفاعلة فهو لا يقنع الإنسان ، ولكنه يرغم الإنسان على فعل ما ، ولذلك فالشيطان يعلن لاتباعه يوم القيامة : لم يكن لي سلطان عليكم ،

لا حجة عندي لأفتعنكم بعمل المعاصي ، ولا عندي قوة ترغمكم على الفعل ، لكنكم أنتم كنتم على حرف إثبات المعاصي ودعوتكم فاستجبتم لي . ويضيف الشيطان مخاطبا أتباعه :

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أي أن الشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، إن كلمة « بصرخ » تعني أن هناك من يفزع لأحد تلبية لنداء أو استغاثة . الشيطان إذن لن ينجد أحدا من عذاب الله ، ولن ينجد أحد الشيطان من عذاب الله . وهكذا ذهب بعض من أهل الكتاب إلى الغرور في الدين ، فافتروا أقوالا على الله ، لم تصدر عنه ، وصدقوا افتراءاتهم ، وبأليت غرورهم لم يكن في الدين ، لأن الغرور في غير الدين تكون المصيبة فيه سهلة ، لكن الغرور في الدين هو المصيبة الكبرى ، لماذا ؟ لأن الغرور في أي أمر يخضع لقانون واضح ، وهو أن ميعاد كل حدث موقوت بنهايته ، لكن الغرور في أمر الدين يختلف ، لماذا ؟ لأن حدث الدين غير موقوت بجاهية الزمان ، إنه مستمر ، لأنه منهج قيم صدر من الحق إلى الخلق ، إن الغرور في أي جزئية من جزئيات الدنيا ، فإن فشلت ، فالفشل يقف عند هذه الجزئية وحدها ، ولا يتعدى الفشل إلى بقية الزمن . لكن الغرور في الدين يجعل العمر كله يضيع ، لأن الإنسان لم يتبع المنهج الحق بل يمتد الضياع والعذاب إلى العمر الثاني وهو الحياة في الآخرة . يقول الحق :

﴿ وَغَرَّمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة النجم)

والافتراء هو نعت الكذب ، إن الحق سبحانه يوضح لهم المعنى فيقول : إن حصل ذلك منكم وأعرضتم عن حكم الله الذي دعيتم إليه في كتاب الله ، وعلمتم ذلك بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة ، وادعيتم كذبا أن الأيام المعدودات هي أيام عبادتكم لتعجل ، وادعيتم أنكم أبناء الله وأحبائه ، إن ذلك كله غرور وافتراءات . وبأليتهم كانوا يعلمون صدق هذه الافتراءات ، لكنهم هم الذين قالوها ويعرفون أنها كذب ، فإذا جاز ذلك لهم في هذه الدنيا فكيف يكون موقفهم

وحالهم عندما يجمعهم الله في يوم لا ريب فيه ؟ وفي هذا يقول الحق :

﴿ كَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٥)

إن كذبتهم سينكشف في هذا اليوم ، فالفاضحة قد جاءت ، والفاضحة هي القيامة ، إنها تقضح كل كذاب وكل غشاش وكل داعية بغير الحق . إن الحق يتضاءل : كيف يصنعون ذلك كله في الحياة التي جعلنا لهم فيها اختبارا ، فيفعلون ما يريدون ، ولا يفعلون ما لا يريدون ، يحدث منهم كل ذلك وهم يعلمون أن الحق قد جعل الثواب لمن أتبع نكاليف الله ، وجعل العقاب لمن فجر عن مراد الله ، كيف ينصرفون عندما يسلب الحق منهم الاختيار ويحيى يوم القيامة . لقد كانوا في الدنيا يملكون عطاء الله من قدرة الاختيار بين البدلات ، وركز الله لهم في بنائهم أن كل جوارحهم خاضعة لإرادتهم كبشر من خلق الله ، فمنهم من يستطيع أن يستخدم جوارحه فيما يرضى الله ، وفيهم من يستخدم جوارحه المسخرة له - بفضل الله - فيما لا يرضى الله ، إن الجوارح كما نعظم جميعا خاضعة لإرادة الإنسان ، وإرادة الإنسان هي التي تختار بين البدلات ، لكن ماذا يفعل هؤلاء يوم القيامة ؟ إن الجوارح التي كانت تطيع الخارجين عن منهج الله في الفعل لا تطيعهم في هذا اليوم العظيم ، لأن الطاعة اختيار أن تفعل وتطيع ، والجوارح يوم القيامة لا تكون مقهورة لإرادة الإنسان ، إن الجوارح يوم القيامة تنحل عنها صفة القهر والتسخير لمراد الإنسان ، ونصير الجوارح على طبيعتها :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٦) يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٢٧)

(سورة النور)

إن اللسان كان أداة إعلان الكفر ، وهو يوم القيامة يشهد على الكافر ، واليد

كانت أداة معصية الله ، وهي يوم القيامة تشهد على صاحبها ، والجلود تشهد أيضا ، لقد كانت الجوارح خاضعة لإرادة أصحابها ، وتفعل ما يريدونها أن تفعل ، ولكنها كانت تفعل الفعل العاصي لله وهي كارهة لهذا الفعل ، لذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يَظْلَمُونَ ۝۲۵﴾

(سورة الن عمران)

كيف يكون حالهم يوم يجمعهم الله للجزاء في يوم لا ريب فيه ولا شك في محيئه . . وهذا اليوم قادم لا محالة لقيام الأدلة على وجوده ، ورغم خصومتهم لله فإن الله العادل الحق لا يظلمهم بل سيأخذهم بمقاييس العدل .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ

وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ

مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝۲۶﴾

وساعة تسمع كلمة « ملك » ، فلنا أن نعرف أن هناك كلمة هي « مُلْك » بضم الميم ، وكلمة أخرى هي « مِلْك » بكسر الميم . إن كلمة « فِلْك » تعني أن للإنسان ملكية بعض من الأشياء ، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشياءه ، لكن الذي يملك مالك هذا الملك فهذا تسميه « مُلْك » ، فإذا كانت هذه الملكية في الأمر الظاهر لنا ، فإننا نسميه « عالم الملك » ، وهو العالم الشاهد ، وإذا كانت هذه الملكية في الأمر الخفي فإننا نسميه « عالم الملكوت » . إذن ، فنحن هنا أمام « مِلْك » ، و« مُلْك » و« ملكوت » . ولذلك فعندما نحكي الحق سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم خليل الرحمن وكشف له ما خفي عن العيون وما ظهر ، قال سبحانه :

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

(سورة الانعام)

أى أن الله سبحانه وتعالى أراد لسيدنا إبراهيم أن يشاهد الملكوت فى السماوات والأرض ، أى كل الأشياء الظاهرة والخفية المخفية عن عيون العباد . وهكذا نرى مراحل الحياة كالآتى : ملك ، أى أن يملك الإنسان شيئاً ما ، وهذا نسميه مائكا للأشياء ، فهو مالك لأشيائه ، ومالك لمناعه ، أما الذى يملك الإنسان الذى يملك الأشياء فإننا نسميه « ملك » ، أى أنه يملك من يملك الأشياء ، والظاهر فى الأولى نسميها « ملك » فكل إنسان له ملكية بعض من الأشياء ، وبعد ذلك تنحاز إلى الأقل ، أى أن تنسب ملكية أصحاب الأملاك إلى ملك واحد ، فالملكية بالنسبة للإنسان تنلخص فى أن يملك الإنسان شيئاً فيصير مالكا ، وإنسان آخر يوليه الله على جماعة من البشر فيصير ملكاً ، هذا فى المجال البشرى .

أما فى المجال الإلهى ، فإننا نصعد لنرى من يملك كل مالك وملك ، إنه الله سبحانه وتعالى . ولا يظن أحد أن هناك إنساناً قد ملك شيئاً ، أوجهاها فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه ، فكل إنسان يملك بما يريد الله له من رسالة ، فإذا انحرف العباد ، فلا بد أن يولى الله عليهم ملكاً ظالماً ، لماذا ؟ لأن الأخيار قد لا يحسنون تربية الناس .

﴿وَكَذَلِكَ نُورِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(سورة الانعام)

وكان الحق سبحانه يقول : يا أيها الخير - بنشديد الياء - ضع قدما على قدم ولا تلوث يدك بأن تنتقم من الظالم ، فسوف أضع ولاية ظالم أكبر على هذا الظالم الصغير ، إني أربأ بك أن تفعل ذلك ، وسأنتقم لك ، وأنت أيها الخير منزله عندي عن ارتكاب المظالم ، ولذلك نجد قول الحق :

﴿وَكَذَلِكَ نُورِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(سورة الانعام)

ونحن جميعا نعرف القول الشائع : « الله يسلط الظالمين على الظالمين » . ولو أن الذين ظلموا مَكَّنْ منهم من ظلموهم فما صنعوا فيهم ما يصنعه الظالمون في بعضهم بعضا . إن الحق يسلط الظالمين على الظالمين ، وينجي أهل الخير من موقف الانتقام ممن ظلموهم .

إذن فنحن في هذه الحياة نجد « مالك » ، و« ملك » وهناك فوق كل ذلك « مالك الملك » ، ولم يقل الله : إنه « ملك الملك » ، لأننا إذا دققنا جيدا في أمر الملكية فإننا لن نجد مالكا إلا الله . « قل اللهم مالك الملك » ، إنه المتصرف في ملكه ، وإياكم أن تظنوا أن أحدا قد حكم في خلق الله بدون مراد الله ، ولكن الناس حين تخرج عن طاعة الله فإن الله يسلط عليهم الحاكم الظالم ، ولذلك فالحق سبحانه يقول في حديثه القدسي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يطوى الله - عز وجل - السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون)^(١)

إياك أيها المؤمن أن تظن أن أحدا قد أخذ الملك غصبا من الله . إنما الملك بريده الله لمن يؤدب به العباد . وإن ظلم الملك في التأديب فإن الله يبعث له من يظلمه ، ومن رأى ظلم هذا الملك أو ذاك الحاكم فمن الجائز أن يريه الله هذا الملك أو ذلك الحاكم مظلوما . إنه القول الحكيم يؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى مالك الملك وحده .

إن الحق سبحانه يأمر رسوله الكريم : « قل اللهم مالك الملك » إن كلمة « اللهم » وحدها فيها عجب من العجائب اللغوية ، إن القرآن قد نزل باللسان العربي ، وأمة العرب فصيحة اللسان والبيان والبلاغة ، وشاء الحق أن يكون للفظ الجلالة « الله » خصوصية فريدة في اللغة العربية .

إن اللغة العربية تضع قاعدة واضحة وهي ألا يُنادى ما فيه ، أداة التعريف ، مثل « الرجل » بـ « يا » فلا يقال : « يا الرجل » بل يقال : « ياها الرجل » لكن اللغة

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

التي يسرها الله لعباده تخص لفظ الجلالة بالتقديس ، فيكون من حق العباد أن يقولوا : « يا الله » . وهذا اللفظ بجلاله له تميز حتى في نطقه .

ولنا أن نلاحظ أن العرب من كفار قريش وهم أهل فصاحة لم يفتنوا إلى ذلك ، فكان الله يرغم حتى الكافرين بأن يجعل للفظ الجلالة تميزا حتى في أفواه الكافرين فيقولون مع المؤمنين : « يا الله » . أما بقية الأسماء التي تسبقها أداة التعريف فلا يمكن أن تقول : « يا الرجل » أو « يا العباس » لكن لابد أن تقول : « يا أيها الرجل » ، أو « يا أيها العباس » ، ولا تقول حتى في نداء النبي : « يا النبي » ، إنما تقول : « يا أيها النبي » .

لكن عند التوجه بالنداء إلى الله فإننا نقول : « يا الله » ، إنها خصوصية يلفتنا لها الحق سبحانه بأنه وحده المخصوص بها ، وأيضا ما رأينا في لغة العرب علما دخلت عليه « التاء » كحرف القسم إلا الله ، فإننا نقول « تالله » ، ولم نجد أبدا من يقول « تزيد » أو « تعمرو » .

إننا لا نجد التاء كحرف قسم إلا في لفظ الجلالة ، ولا نجد أيضا عليها من الأعلام في اللغة العربية تحذف منه « يا » في النداء وتستبدل بالميم إلا في لفظ الجلالة فتقول : « اللهم » كل ذلك ليدل على أن اللفظ في ذاته له خصوصية المسمى . « قل اللهم » وكأن حذف حرف النداء هنا يعلمنا أن الله هو وحده المستدعي بدون حرف نداء . « اللهم » وفي بعض الألسنة يجمعون الباء والميم ، مثل قول الشاعر :

إني إذا ما حادث المآ

أقول يا لله يا الله

إنها خصوصية لصاحب الخصوصية الأعلى . « قل اللهم مالك الملك » وقد سأل إنسان لماذا لم يقل الحق : « ملك الملك » ؟ هنا لابد أن نعرف أنه سيأتي يوم لا تكون فيه أي ملكية لأي أحد إلا الله ، وهو المالك الوحيد ، فهو سبحانه يقول :

﴿ رَفِيعُ الثَّرَاجَتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ

الْتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ
الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

(سورة غافر)

إن قول الحق هنا : « مالك الملك » توضح لنا أن ملكية الله وهي الدائمة والقادرة واضحة ، وجلية ، ومؤكدة . ولو قال الله في وصف ذاته : « ملك الملك » لكان معنى ذلك أن هناك بشرا يملكون بجانب الله ، لا ، إنه الحق وحده مالك الملك . ومادام الله هو مالك الملك ، فإنه يهبه لمن يشاء ، ويترعه ممن يشاء . وهنا نلاحظ أن قول الحق : إنه مالك الملك يعطى الملك لمن يشاء ويترع الملك ممن يشاء . تأتي بعد عملية الحاجة ، وبعد أن تهرب بعض من أهل الكتاب من تطبيق حكم الله . بعد أن دعوا إليه ، فتولى فريق منهم وأعرض عن حكم الله ، وعلموا ذلك بادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات .

كل هذه خيارات من لطف الله وضعها أمام هؤلاء العباد ، خيارات بين اتباع حكم الله أو اتباع حكم الهوى ، لكنهم لم يختاروا إلا الاختيار السيئ ، حكم الهوى . ولذلك بأن الله يخبر اليوم الذى سوف يجيئ ، ولن يكون لأحد أى قدرة ، أو اختيار . إن حق الاختيار موجود لنا في هذه الدنيا ، وعلينا أن نحسن الاختيار في ضوء منهج الله .

ولنتأمل هذا المثل الذى حدثنا عنه السيرة النبوية الطاهرة ، حينما جاءت غزوة الأحزاب التى اجتمع فيها كل خصوم الدعوة ، واشتغل اليهود بالدس والوقيعة ، وأرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحفر بمشورة سلمان الفارسي خندقا حول المدينة المنورة . ومعنى « الخندق » ، أى مساحة من الأرض يتم حفرها بما يعرق التقدم . وكان المقاتلون يعرفون أن الفرس يستطيع أن يقفز مسافة ما من الأمتار .

لقد حاول المؤمنون أثناء حفر الخندق أن يكون اتساعه أكبر من قدرة الخيل ، ولنتظر إلى دقة الإدارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن سلمان الفارسي قد اقترح أن يتم حفر الخندق ، وفيها يبدو أنه قد أخذ الفكرة من بيته وقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الفكرة وأقرها ، وفعلها المسلمون .

إذن فليس كل ما فعله الكفار كان مرفوضاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل تطبيق كل الأعمال النافعة ، سواء أكان قد فعلها الكفار من قبل أم لا ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن عملية الحفر مرفهة بسبب جمود الأرض وصخريتها في بعض المواقع ، لذلك وضع حصص قدرها أربعون ذراعاً لكل عشرة من الصحابة ، وبذلك وزع الرسول الكريم العمل والمسئولية ، ولم يترك الأمر لكل جماعة خشية أن ينواكلوا على غيرهم .

وتوزيع المسئولية يعني أن كل جماعة تعرف القدر الواضح من العمل الذي تشارك به مع بقية الجماعات وقد يسأل سائل : وإذا لم يوزع الرسول صلى الله عليه وسلم التكليف لكل واحد بمفرده ؟ ونقول : إنها حكمة الإدارة والحزم هي التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرف على حقيقة واضحة ، وهي أن الذين يحفرون من الصحابة ليسوا منساوين في القدرة والمجهود ، لذلك أراد لكل ضعيف أن يكون مسنداً بتسعة من الصحابة .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل الأمر مشاعاً ، بل كان هناك تحديد للمسئولية ، لكنه لم يجعل المسئولية مشخصة تشخيصاً أولياً ومحدداً بكل فرد ، وذلك حتى يساعد الأقوياء الضعيف من بينهم . لقد ستر رسول الله صلى الله عليه وسلم الضعيف بقوة إخوانه ، وساعة أن يوجد ضعيف بين عشرة من الإخوان يحملون عنه ويحفرون ، فإن موقفه من أصحابه يكون المحبة والألفة ، ويكون الغنى قد أفاض على الضعيف .

وكان عمرو بن عوف ضمن عشرة منهم سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فلما جاءوا لبحفروا صادفتهم منطقة يقال عنها : « الكنود » ، ومعنى « الكنود » هي المنطقة التي تكون صلبة أثناء الحفر ، فالحافر إذا ما حفر الأرض قد يجد الأرض سهلة ويواصل الحفر ، أما إذا صادفته قطعة صلبة في الأرض فإنه لا يقدر عليها بمحوله لأنها صخرية صماء ، فيقال له : « أكدي الحافر » . وعندما صادف عمرو بن عوف وسلمان الفارسي والمنبرة وغيرهم هذه الصخرة الكنود ، قالوا سلمان : « اذهب فارفع أمرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن هذا نتعلم درساً وهو أن المكلف من قبل من يكلفه بأمر إذا وجد شيئاً يعوقه عن أداء المهمة فلا بد أن يعود إلى من كلفه بها .

وذهب سلمان الفارسي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الموقع وأخذ المفعول وجاء على الصخرة الكنود وضربها ، فحدث شرر أضواء من فرط قوة الاصطدام بين الحديد والصخرة ، فهتف رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحَتْ قصور بصري بالشام ، ثم ضرب ضربة أخرى ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحَتْ قصور الحمراء بالروم . وضرب ضربة ثالثة وقال : الله أكبر ، فُتِحَتْ قصور صنعاء باليمن ، فكانه حين ضرب الضربة أوضح الله له معالم الأماكن التي سوف يدخلها الإسلام فاتحا ومتصرا ، فلما بلغ ذلك القول أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الأعداء للصحابه : ينيكم محمد بفتح قصور صنعاء في اليمن ، والحمراء في الروم ، وفتح قصور بصري ، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا لنا للقتال فأنزل الله قوله : « قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » .

إن المسألة ليست عزيمة من هؤلاء المؤمنين ، إنما هي نية على قدر الوسع ، فإن فعلت أى فعل على النية بقدر الوسع فانتظر المذد من الحمد الأعلى سبحانه وتعالى ..

إن الله سبحانه هو الذي يعطى الملك ، وهو الإله الحق الذي ينزع ملك الكفر في كسرى والروم وصنعاء ، يعطى سبحانه الملك لمحمد رسول الله وأصحابه ، وينزعه من قريش ، وينزع الملك من يهود المدينة حيث كانوا يريدون الملك .

إن قول الحق : « وتنزع الملك ممن تشاء » فجعلنا تشاءل : ما النزع ؟ إنه القلع بشدة ، لأن الملك عادة ما يكون متمسكا بكرسى الملك ، متشبثا به ، لماذا ؟ لأن بعضا ممن يجلسون على كراسى السلطان ينظرون إليه كمغنم بلا تبعات فلا عرق ولا سهر ولا مشقة أو حرص على حقوق الناس ، إنهم يتناسون سؤال النفس « وماذا فعلت للناس » ؟ إن الواحد من هؤلاء لا يلتفت إلى ضرورة رعاية حق الله في الخلق فيسهر على مصالح الناس ويتعب ويكد ويشقى ويحرص على حقوق الناس .

إننا ساعة نرى حاكمنا متكاليا على الحكم ، فلنعلم أن الحكم عنده مغنم ، لا مغرم . ولشئ ماذا قال سيدنا عمر بن الخطاب عندما قالوا له : إن فقدناك - ولا نفقدك - نولى عبدالله بن عمر ، وهو رجل قرقره الورع . . فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : بحسب آل الخطاب أن يسأل منهم عن أمة محمد رجل واحد ، لماذا ؟ لأن الحكم في الإسلام مشقة ونعب .

لقد جاء الحق بالقول الحكيم : « ونزع الملك ممن تشاء » وذلك لينبها إلى هؤلاء المتشبهين بكراسي الحكم وبتزعمهم الله منها ، إن المؤمن عندما ينظر إلى الدول في عنقوانها وحضاراتها وقوتها ونجد أن الملك فيها يسلب من الملك فيها على أهون سبب . لماذا ؟ إنها إرادة الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا راد لفضائه .

إن الحق إما أن يأخذ الحكم من مثل هذا النوع من الحكام ، وإما أن يأخذه هو من الحكم . ونحن نرى كل ملك وهو يوطن نفسه توطينا في الحكم ، بحيث يصعب على من يريد أن يخلعه منه أن يخلعه بسهولة ، لكن الله يقتلع هذا الملك حين يريد سبحانه .

وبعد ذلك يقول الحق : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » لأن ظواهر الكون لا تقتصر على من يملك فقط ، ولكن كل ملك حوله أناس هم « ملوك ظل » . ومعنى « ملوك الظل » أي هؤلاء الذين يتمتعون بنفوذ الملوك وإن لم يكونوا ظاهرين أمام الناس ، ومن هؤلاء يأتي معظم الشر . إنهم يستظلمون ويستترون بسلطان الملك ، ويقعلون ما يشاءون ، أو يفعل الآخرون لهم ما يأمرهم به ، وحين ينزع الملك فلا شك أن المغلوب بالظالمين يعزه الله ، وأما الظالمون لأنفسهم فيذهبهم الله ، لذلك كان ولا بد أن يجيء بعد « تؤي الملك من تشاء ونزع الملك ممن تشاء » هذا القول الحق : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » . لماذا ؟ لأن كل ملك يعيش حوله من يتمتع بجاهه ونفوذه ، فإذا ما انتهى سلطان هذا الملك ، ظهر هؤلاء المستمعون على السطح . وهذا نشاهده كل يوم وكل عصر . « وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير » .

ونلاحظ هنا : أن إبناء الملك في أعراف الناس خيرة ونزع الملك في أعراف الناس شر . ول هؤلاء نقول : إن نزع الملك شر على من خلع منه ، ولكنه خير لمن أوق الملك . وقد يكون خيرا لمن نزع منه الملك أيضا . لأن الله حين ينزع منه الملك ، أو ينزعه من الملك يخفف عليه مؤوته ظلمه فلو كان ذلك الملك المخلوع عاقلا ، لتقبل ذلك وقال : إن الله يريد أن يخلصني لنفسه لعل أتوب . .

إذن فلو نظرت إلى الجزئيات في الأشخاص ، ونظرت إلى الكليات في العموم لوجدت أن ما يجري في كون الله من إبناء الملك وما ينجمه من إعزاز ، ثم نزع الملك

وما يتبعه من إذلال ، كل ذلك ظاهرة خير في الوجود ، لذلك قال الحق هنا : « بيدك الخير » ولودقق كل منا النظر إلى مجريات الأمور ، لوجد أن : الله هو الذي يزرع ، والله هو الذي ينزع ، والله هو الذي يعز ، والله هو الذي يذل ، ولا بد أن يكون في كل ذلك صور للخير في الوجود ، فيقول : « بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

إن إنشاء الملك عملية تحتاج إلى تحضير بشري وبأسباب بشرية ، وأحيانا يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية ، أو السياسية ، وكذلك نزع الملك يحتاج إلى نفس الجهد .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا المعنى فيقول : ليس ذلك بأمر صعب على قدرتي اللانهاية ، لأنني لا أتناول الأفعال بملاج ، أو بعمل ، إنما أنا أقول : « كن » فتتعمل الأشياء لإرادتي ، ويأتي الحق بعد ذلك ليدلل بنواميس الكون وآيات الله في الوجود على صدق قضية « إنك على كل شيء قدير » فيقول وقوله الحق :

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ
وَتَرْزُقُ مِنْ نَشَاءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

إن الحق يقول لنا : عندكم ظاهرة تختلف عليكم ، وهي الليل والنهار ، وظاهرة أخرى ، هي الحياة والموت . إن ظاهرة الليل والنهار كلنا نعرفها لأنها آية من الآيات العجيبة ، والحق يقول عنها : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » إن الحق لم يصنع النهار بكمية محدودة من الوقت متشابهة في كل مرة ، لا ، إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحيانا عن النهار خمس ساعات ، وأحيانا يزيد النهار على الليل خمس ساعات .

ولنا أن نتساءل . . هل تنقص الخمس الساعات من الليل أو النهار مرة واحدة وفجأة ؟ هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون انقضى عشرة ساعة ليصبح سبع عشرة ساعة ؟ هل يكون الليل مفاجئاً لنا في الطول أو القصر ؟ لا ، إن المسألة تأتي تباعاً ، بالدورة ، بحيث لا تحس ذلك ، إن هناك نوعاً من الحركة اسمها الحركة الترسية ، إننا عندما ننظر إلى الساعة التي تدور نجد أن دورتها تعتمد على التروس ، فهل يمشي عقرب الساعة في كل الزمن ؟ لا ، إن كل ترس له زمن يتوقف فيه ، وعندما يتوقف فإننا ندفع به ليعيد دورته ، وبعمل ، وإذا دققنا النظر في عقرب الدقائق فإننا نستطيع أن نلاحظ ذلك .

إذن هناك فترة توقف وسكون بين انتقال عقرب الدقائق من دقيقة إلى أخرى ، وهذا اللون من الحركة تسميه « حركة ترسية » . وهناك حركة أخرى ثانية ، نسميها « حركة انسيابية » ، بحيث يكون كل جزء من الزمن له حركة ، كما يحدث الأمر في ظاهرة النمر بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان .

إن الطفل الوليد لا يكبر من الصباح إلى المساء بشكل جزئي ، أو محسوس ، إنه يكبر بالفعل دون أن نلاحظ ذلك ، وقد يزيد بمقدار ملليمتر في الطول ، وهذا الملليمتر شائع في كل ذرات الثواني من النهار ، إن الطفل لا يظل على وزنه وطوله أربعاً وعشرين ساعة من النهار ، ثم يكبر فجأة عند انتهاء اليوم ، لا ، إن نمو الطفل كل يوم يتم بطريقة تشيع فيها قدرة النمو في كل ذرات الثواني من النهار ، وهذه العملية تحتاج إلى الدقة المتناهية في توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمان ، وهذه هي العظمة للقدرة الخالقة التي يظل الإنسان عاجزاً عنها إلى الأبد .

وقد قلت لكم مرة : إن الواحد منكم إن نظر إلى ابنه الوليد ، وظل ناظراً له طوال العمر فلن يلاحظ الإنسان منكم كبر ابنه على الإطلاق ، لكن عندما يغيب الإنسان عن ابنه شهراً أو شهوراً ، ثم يعود ، هنا يرى في ابنه مجموع نمو الشهور التي غاب فيها عنه وقد أصبح واضحاً . ولوزرع الإنسان نباتاً ما ، وجلس ينظر إلى هذا النبات ، فهو لن يرى أبداً نمو هذا النبات لماذا ؟ لأن الجزئيات تكبر دون قدرة على أن يلمس الإنسان طريقة نموها .

ولنا أن نعرف أن كل ما يكبر إنما يصغر أيضاً ، ولا توجد عند الإنسان قدرة

للملاحظة المباشرة لذلك ، وفي الحياة أمثلة أخرى ، نأخذ منها هذا المثل ، فعندما قام العلماء بتصوير الأرض من الأفبار الصناعية ، كانت الصور الأولى لمدينة نيويورك هي صورة لنقطة بسيطة ، وعندما قام العلماء بتكبير هذه الصور ظهرت الجزئيات ، كالشوارع وغيرها ، أين كانت الشوارع في هذه النقطة الصغيرة ؟ لقد صغرت الشوارع أثناء التصوير بصورة تستحيل معها على آلات الإدراك عند الإنسان أن تراها ، ولذلك فلا بد من التكبير لهذه الصور حتى يمكن للإنسان أن يراها ، ونحن نرى الشيء البعيد صغيرا ، ولكما قربناه كبر في نظرنا .

إذن فقول الله : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » هو لفت للانتباه البشري إلى أن الليل والنهار لا يفصل بينهما حد قاطع بنسبة متساوية لكل منهما ، لا ، إنه الحق يقدرته بدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل . إن معنى « تولج » هو « تدخل » ، ومثال ذلك أن يؤذن المؤذن لصلاة المغرب في يوم ما عند الساعة الخامسة ، ويؤذن المؤذن لصلاة المغرب في أيام أخرى في الساعة السابعة . إن ذلك لا يحدث فجأة ، ولا يفقر المغرب من الخامسة إلى السابعة ، إنما يحدث ذلك بانسيابية ، ورتابة . ومن ذلك نتلقى الدرس والمثل .

إنك أيها العبد إن رأيت ملكا قائما على حضارة مؤصلة ، فاعلم أن هناك عوامل دقيقة لا تراها بالعين تنخر في هذا الملك إلى أن يأتي يوم ينتهي فيه هذا الملك . وهكذا تنهار الحضارات بعد أن تبلغ أوج الارتفاعات ، ويصل الناس فيها إلى استعدادات ضخمة وإمكانات هائلة ، وذلك لأن عوامل الانهيار تنخر داخل هذه الحضارات .

إن الحق يلفتنا إلى جلال قدرته وعظمة دقة صنعه ، يمثل الليل والنهار : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » . ثم يأتي لنا الحق الأعلى يمثل آخر ، فيقول : « ونخرج الحي من الميت ونخرج الميت من الحي » ، إنها القدرة المطلقة بدون أسباب .

والوقفه هنا نجعلنا نرى كيف اهتمت بما أفاض الله على بعض خلقه من اكتشاف لبعض أسرارهِ في كونه ، لقد وصل العلم لمعرفة أن لكل شيء حياة خاصة ، فنرى أن ورقة النبات تحدث فيها تفاعلات ولها حياة خاصة ، ونرى أن الذرة فيها تفاعلات

ولها حياة خاصة ، والتفاعل معناه الحركة ، والحياة كما تعرف مظهرها الحركة ، وغاية ما هناك أنه يوجد فرق في رؤية الحياة عند العامة ، ورؤية الحياة عند الخاصة . إن الإنسان العاظم لا يعرف أن النطفة فيها حياة ، وأن الحبة فيها حياة ، ولا يعرف ذلك إلا الخاصة من أهل العلم .

إن العامة من الناس لا يعرفون أن الحبة توجد لها حياة مرثية ، ويكمن فيها غو غير ظاهر ، ولا يعرف العامة أن هناك فرقا بين شيء حي ، وشيء قابل لأن يحيا . ومثال ذلك نواة البلح التي تأخذها وتزرعها لتخرج منها النخلة ، إنها كنواة نخل مجرد نواة إلى أن يأخذها الإنسان ، ويضعها في بيتها ، لتخرج منها النخلة .

إذن فالنواة قابلة للحياة ، وعندما ننظر إلى ذرات التراب فإننا لا نستطيع أن نضعها في بيئة لتصنع منها شيئا ، ورغم ذلك فإن لذرة التراب حركة . ويقول العلماء : إن الحركة الموجودة في ذرات رأس عبدان عليه كبريت واحدة تكفي لإدارة قطار كهربائي بإمكانه أن يلف حول الكرة الأرضية عددا من السنوات .

إن هذه أمور يعرفها الخاصة ، ولا يعرفها العامة . فإن نظرنا إلى العامة عندما يسمعون القول الحق : « وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي » كانوا يقولون : إن المثل على ذلك نواة البلح ، وكانوا يعرفون أن النخلة تنمو من النواة . ولكن الخاصة بحثوا واكتشفوا أن في داخل النواة حياة وعرفوا كيفية النمو . وعرف العلماء أن لكل شيء في الوجود حياة مناسبة لمهمته . فليست الحياة هي الحركة الظاهرة والنمو الواضح أمام العين فقط ، لا ، بل إن هناك حياة في كل شيء .

إن العامة يمكنهم أن يجدوا المثال الواضح على أن الحق يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، أما الخاصة فيعرفون قدرة الله عن طريق معرفتهم أن كل شيء فيه حياة ، فالتراب الذي نضع فيه البذر لو أخذنا بعضا منه في مكان معزول ، فلن يخرج منه شيء ، هذا التراب هو ما يصفه العلماء بوضف « الميت في الدرجة الأولى » وأما النواة التي يمكن أن تأخذها وتضعها في هذا التراب ، فبصفتها العلماء بأنها « الميت من الدرجة الثانية » .

وعندما ننقل الميت في الدرجة الأولى ليكون وسطا بيثيا للميت في الدرجة الثانية

تظهر لنا نتائج تدل على حياة كل من التراب والنواة معا ، وقد مس القرآن ذلك مساً دقيقاً ، لأن القرآن حين يخاطب بأشياء قد تقف فيها العقول فإنه يتناولها تناولاً الذي تتقبلها به كل العقول ، فعقل الصفة يتقبلها ، وعقل العامة يتقبلها أيضاً ؛ لأن القرآن عندما يلمس أى أمر إنما يلمسه بلفظ جامع راق يتقبله الجميع ، ثم يكشف العقل البشري تفاصيل جديدة في هذا الأمر .

إن القرآن على سبيل المثال لم يقل لنا : إن الذرة فيها حركة وحياة وفيها شحنات من لون معين من الطاقة ، ولكن القرآن تناول الذرة وغيرها من الأشياء بالبيان الإلهي القادر ، وخصوصاً أن هذه الأشياء لن يترتب عليها خلاف في الحكم أو المنهج . فلو عرف الإنسان وقت نزول القرآن أن الذرة بها حياة فهذا الذي يزيد من الأحكام ؟ ولو أن أحدا أثبت أن الذرة ليس بها حياة ، فما الذي ينقص من أحكام المنهج الإيمان ؟ لم يكن الأمر من ناحية الأحكام ليزيد أو لينقص ، وعندما نأخذ القرآن مأخذ الواعين به ، ونفهم معطيات الالفاظ فإننا نجد أن كلمة « الحياة » لها ضد هو « الموت » ، وقد ترك الحق سبحانه كلمة « الموت » في بعض المواقع من الكتاب الكريم وأورد لنا كلمة أخرى هي « الهلاك » قال الحق سبحانه :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة الأنفال)

إن « الهلاك » هنا هو مقابل الحياة ، لماذا لم يورد الحق كلمة « الموت » هنا ؟ لأنه الخالق الأعظم بعباده ، يعلم أن العباد قد يختلطون في مسألة « الموت » فيعوض منهم يقول تعريفاً للميت : إنه الذي لا توجد به حركة أو حس أو نمو ، ولكن هذا الميت له حياة مناسبة له ، كحياة الذرة أو حياة حبة الرمل ، أو حياة أى شيء ميت ، وهكذا عرفنا من الآية السابقة أن الحياة يقابلها الهلاك . ويقول الحق سبحانه عن الآخرة ليوضح لنا ما الذي سوف يحدث يوم القيامة :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(الآية ٢٨ من سورة القصص)

لقد استثنى الحق الوجه أو الذات الإلهية ، وكل ما عداها هالك . ومادام كل شيء هالكا فمعنى ذلك أن كل شيء كان حيا . وإن لم ندرك له حياة . إذن فالحياة الحقيقية توجد في كل شيء . بما يناسبه ، مرة تدركها أنت ، ومرة لا تدركها .

إذن فقوله الكريم : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » يجوز أن تأخذه مرة بالعرف العام ، أو تأخذه بالعرف الخاص ، أى عرف العلماء ، ومادام ذلك أمرا ظاهرا في الوجود . كولوج الليل في النهار ، وولوج النهار في الليل ، أى أن الحق يدخل النهار في الليل ، ويدخل الليل في النهار . وفي اللغة يسمون بظانة الرجل . أى خاصة أصدقائه . « الوليعة » لماذا ؟ لأنها تتداخل فيه ، لأنك إن أردت أن تعرف سر واحد من البشر فاجلس مع صديق له أو عدد من أصدقائه الذين يتداخلون معه .

لذلك جاء أمر إبلاج الليل في النهار وإبلاج النهار في الليل بالوضوح الكامل ، وجاءت مسألة الحياة والموت بالفاظ يمكن أن يفهمها كل من العامة والخاصة . وإذا كانت تلك الظواهر هي بعض من قدرات الله . فمن إذن يستكثر على الله قدرته في أنه يؤن الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويذل من يشاء ؟ لقد جاء الدليل من الآيات الكونية ، ونراه كل يوم وأي العين . « قل اللهم مالك الملك ... تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » . إنك أنت يا الله ، الذي أجريت في كونك كل هذه المسائل وهي كلها أمور من الخير ، وإن بدا للبعض أن الخير فيها غير ظاهر .

إن الإنسان عندما يرى في ابنه شيئا يحتاج إلى علاج فإنه يسرع به إلى الطبيب ويرجوه أن يقوم بكل ما يلزم لشفاء الابن ، حتى ولو كان الأمر يتطلب التدخل الجراحي . إن الأب هنا يفعل الخير للابن ، والابن قد يتألم من العلاج ، فإذا كان هذا أمر المخلوق في علاقته بالمخلوق ، فما بالنا بالخالق الأكرم الذي يجري في ملكه ما يشاء ، إيتاء ملك أو نزع ، وإعزازا أو إذلالا ، فكل ذلك لابد أن يكون من الخير ، وآيات الله تشهد بأن الله على كل شيء قدير لذلك يأتي بعد الآية السابقة قوله :

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهْرِ وَتُولِجُ النَّهْرَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مِنْ نَشَاءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٧)

(سورة النحل: ١٧)

فإذا كان هناك إنسان لم يفطن أبدا لمسألة إيلاج الليل في النهار أو إخراج الحي من الميت ، فإنه لا يد أن يلتفت إلى رزقه ، فكل واحد منا يتصل برزقه قهرا عنه ، ولذلك جاء الحق سبحانه بهذا الأمر الواضح : « وترزق من نشاء بغير حساب » وساعة نسمع كلمة « حساب » فإنك تعرف أن الحساب هو كما قلنا سابقا : بين لك مالك وما عليك .

وعندما تأمل قول الحق : « وترزق من نشاء بغير حساب » . فإننا نعلم أن « الحساب » يقتضي « محاسبا » - بكسر السين - ويقتضي « محاسبا » - بفتح السين - ويقتضي « محاسبا عليه » . إن الحساب يقتضي تلك العناصر السابقة . فعندما يقول الحق : « وترزق من نشاء بغير حساب » قلنا أن نقول : ممن ؟ ولين ؟ من أين يأتي الرزق ؟ وإلى أين ؟ إنه يأتي من الله ، ويذهب إلى ما يقدره الله لأن الله هو الرزاق ، وهو الحق وحده ، وهو الذي لا يستطيع ولا يجزؤ أحد على حسابه ، فهو سبحانه الذي يحاسبنا جميعا ، لا شريك له ، وهو الفعال لما يريد .

إن الحساب يحريه الله على الناس ، وهو سبحانه لا يعطي الناس فقط على قدر حركتهم في الوجود ، بل يرزقهم أحيانا بما هو فوق حركتهم . وقد يرزقك الله من شيء لم يكن محسوبا عندك ، لأن معنى الحساب هو ذلك الأمر التقديري الذي يخطط له الإنسان ، كالفلاح الذي يحسب عندما يزرع الفدان ويتوقع منه نتاجا يساوي كذا إردبا أو قنطارا ، أو الصانع الذي يقدر لنفسه دخلا محددًا من صنعه . هذا هو الحساب ، لكن الإنسان قد يلتفت فيجد أن عطاء الله له من غير حساب . وقد يحسب الإنسان مرة ولا يأتي له الرزق .

مثال ذلك : قالوا : إن دولة أعلنت أنها زرعت قمحا يكفي الدنيا كلها ، ولكن عندما نضج المحصول هبت عاصفة أهلكت الزرع ، وأكلت هذه الدولة قمحها من

الخارج . فمن قالوا عن أنفسهم : إنهم سيطعمون الناس . أطعمهم الناس . أليس ذلك مصداقاً لقول الحق : « من غير حساب » ؟ إنه الحق سبحانه لا يحسب حركتك أيها الإنسان ليعطيك قدرها ، ولكنه قد يعطيك أحياناً فوق حركتك .

ونحن نرى إخواننا الذين أفاض الله عليهم بثروة البترول / لقد تفجر البترول من تحت أرجلهم دون جهد منهم ، إنه الله يريد أن يلفت الناس إلى قدرته جل وعلا ، وأن الأرزاق في يده هو . وننظر إلى الناس الذين يشيرون إلى منطقة البترول فيتهمون أهلها بالكسل ، وتجد أن الحق سبحانه وتعالى قد سخر لهم غير الكسالى ليعملهم ، وعندما أفاء على المنطقة العربية بالبترول احتاجت لهم الدول التي نقول عن نفسها : إنها متقدمة ، إنه رزق بغير حساب .

إن هذه اللفظات إنما تؤكد للمؤمن طلاقة القدرة . إن الحق قد خلق الأسباب ، ولم يترك الأسباب تتحكم وحدها ، وقد يترك الحق الأسباب للإنسان ليعمل بها ، وقد لا يعطيه منها ، ويعطي الحق الإنسان من جهة أخرى لم يحسب لها حساباً . والإنسان الذي يتأمل تقدير أموره أو أمور من يعرف يجد أن تلك القضية منتشرة في كل الخلق ، إنه سبحانه يرزق بغير حساب ، ولا يقول : « لقد فعلت على قدر يساوي كذا » . والحق سبحانه يعطي بغير حساب من الإنسان ، لأن الموازنة التي قد يقوم بها الإنسان قد يأتي لها من الأسباب ما يحرقها .

إذن : « وترزق من تشاء بغير حساب » تعني قدرة الحق المطلقة على الرزق بغير حساب ولا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا فعلت ؟ أو ماذا أعطيت ؟ أو من غير حساب منه سبحانه لخلقه ، فيأتي الرزق على ما هو فوق أسباب الخلق ، أو من غير حساب للناس المرزوقين فيأتي رزقهم من حيث لم يقدروا ، فإذا كانت كل هذه الأمور لله ، وهو مالك الملك ويعطي من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويولج الليل في النهار ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، أليس من الحق أن يذهب إنسان ليوالي من لا سلطان له ويترك هذا السلطان ، إن من يوالي غير الله هو الذي استبد به الغباء . ولنفسننا تلك القضية الإيمانية : أي فمأدات كل الأمور عندي فيأيكم أن توالوا خصومي ، لأنني أنا الذي بيده كل شيء ، ها هوذا أقول الحق :

﴿ يَنَادِي الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْذَرُوا بَطَانَتِي مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتِ الْقُرُونُ بِشَيْءٍ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ

قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٦٨﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق بامرنا ألا نوالى إلا الله ، فإن كنت تجري حسابا لكل شيء ، وتقدير
 مؤمن فلا نوال إلا صاحب هذه الأشياء ، وإياك أن تعتمد إلى عدو هذه القوة القاهرة
 القادرة المستبدة في كل أمور الكون ونواميسه ، إياك أن تعتمد إلى أعداء الله لتتخذ
 منهم أولياء ، لأنك لو فعلت تكون غير صائب التفكير .

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
 الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ
 إِلَّا أَنْ تَكُنُّوا مِنْهُمْ تَقِيَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ
 وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿٢٨﴾

أنت لا تتخذ الكافر وليا إلا إن بانت لك مظاهر القوة فيه ، ومظاهر الضعف
 فيك ، إنك عندما تتأمل معنى كلمة « ولي » ، تجد أن معناها « معين » وحين
 تقول : « الله هو الولي » فإننا نستخدم الكلمة هنا على إطلاقها ، إن كلمة الولي
 تضاف إلى الله على إطلاقها ، وتضاف بالنسبة والمحدودية لخلق الله ، فالخلق يقول :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

(من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة)

إن الله ولى على إطلاقه ، والحق يقول :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٥٦ ﴾

(سورة بقره)

إن المفرد لأولياء الله هو « ولى الله » ، فالمؤمن ولى الله ، والحق يقول :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ٥٧ ﴾

(سورة الكهف)

هكذا نلاحظ أن الولاية قد تضاف مرة إلى الله ، ومرة إلى خلق الله . إن الله ولى المؤمن ، وهذا أمر مفهوم ، وقد تساءل : كيف يكون المؤمن ولى الله ؟ إنا نستطيع أن نفهم هذا المعنى كما يلي : إن الله هو المعين للمؤمنين فيكون الله ولى الذين آمنوا ، أى معيتهم ومقوِّمهم . وأولياء الله ، هم الذين ينصرون الله ، فينصرهم الله ، وهو - سبحانه - الحق الذى قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ٥٨ ﴾

(سورة محمد)

ألم يكن الله قادرا أن ينتقم من الكفار مرة واحدة وينتهى من أمرهم ؟ ولكن الحق سبحانه قال :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ٥٩ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق لو قاتلهم فإن قتاله لهم سيكون أمرا خفيا ، وقد يقولون : إن هذه مسائل كبرية في الوجود ، لذلك يأتي بالقتال للمؤمنين الذين استضعفهم الكافرون . إذن مرة تطلق « الولى » ويراد بها « المعين » . ومرة أخرى تطلق كلمة « الولى » ويراد

بها « المعان » لأنك إن كنت أنت ولي الله ، والله وليك فإنه الحق سبحانه « معين » لك وأنت « معان » ..

إن الحق سبحانه يريد لمنهجه أن يسود بإيمان خلقه به ، وإلا لكان الحق سبحانه وتعالى قد استخدم طلاقة قدرته على إرغام الناس على أن يكونوا طائعين ، فلا أحد يقادر على أن يخرج عن فطرة الله ، والإنسان عليه أن يفكر تفكيراً واضحاً ، ويعرف أن حياته بين قوسين : بين قوس ميلاده وقوس وفاته ، ولا يتحكم الإنسان في واحد من القوسين ، فلماذا يحاول التحكم في المسافة بين القوسين ؟ إذن القواميس الكونية بيد الله وتسير كالساعة ، إنه سبحانه يقول :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة غافر)

إن شيئاً لم يخرج عن مراد الخالق الأعظم . إنما الحق سبحانه وتعالى أخذ هذه المسائل في حركة السماوات والأرض بقوة قهره وقدرته جبروته ، فلا شيء يخرج من يده ، أما بالنسبة للعباد فهو سبحانه يريد أن يأخذ قوماً بحب قلوبهم . إن الإيمان طريق متروك لاختبار الإنسان ، صحيح أن الحق قادر على أن يأتي بالناس مؤمنين ، ولكنه يريد أن يرى من يجيء إليه وهو مختار ألا يجيء ..

إن تسخير الأشياء يظهر لنا صفة القدرة الكاملة لله ، واختيارات الإنسان هي التي تظهر صفة المحبوبة لله ، والله يريد لنا أن نرى قدرته ، ويريد منا أن نتجه إليه بالمحبة لذلك يقول الحق : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » لماذا ؟ لأن الكافرين وإن تظاهروا أنهم أولياء لك أيها المؤمن ، فهم يحاولون أن يجعلوك نسيبهم لهم ، وتطمئن إليهم وربما تسللوا بلطف ودقة ، فدخلوا عليك مدخل المودة ، وهم ليسوا صادقين في ذلك ، لأنهم ماداموا كافرين ، فليس هناك النقاء في الأصل بين الإيمان والكفر ، لذلك يقول الحق : « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » ..

إن من يتخذ هؤلاء أولياء له ، فليس له نصيب من نصرة الله ، لماذا ؟ لأنه اعتقد

ان هؤلاء الكافرين قادرون على فعل شيء له . لذلك يحذرن الله ويزيد المعنى وضوحا
 أى : إياكم أن تغتروا بقوة الكافرين وتتخذوا منهم أولياء ، ولا تفل أيتها المؤمن :
 « ماذا أفعل ؟ » لأن الله لا يريد منك إلا أن تبذل ما تستطيع من جهد ، ولذلك قال
 سبحانه :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَنْتَحِلَ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
 وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ
 إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُغْلَبُونَ ﴿٦٣﴾﴾

(سورة الأنفال)

إن الحق لم يقل : « أعدوا لهم ما تغلبونهم به » ، ولكنه قال : « أعدوا لهم
 ما استطعتم » . إن على المؤمن أن يعمل ما في استطاعته ، وأن يدع الباقي لله ،
 ولذلك فهناك قضية قد يقف فيها العقل ، ولكن الله يطمئنتنا : أى : لا تخافوا
 ولا تظنوا أن أعداءهم الكبيرة قادرة على أن تهزمكم ، ولا تسأل : « ماذا أفعل
 يا الله ؟ » لقد علمنا الحق ألا نقول ذلك ، وعلمنا ما يحميننا من هذا الموقف لذلك
 قال :

﴿سَأَتْنِقُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

(من الآية ١٢ من سورة الأنفال)

إذن فساعة يلقي الله في قلوب الذين كفروا الرعب فإذا يصنعون مهما كان
 عددهم أو عدتهم ؟ أليس في ذلك نهاية للمسألة ؟ إن الرعب هو جندى ضمن جنود
 الله ، ولذلك فعلى المؤمن ألا يوالى الكافرين من دون المؤمنين ، لماذا ؟ حتى لا ينطبق
 عليه القول الحق : « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » ويضع الحق بعد ذلك
 الاستثناء : « إلا أن تنفوا منهم نقاة وبجذركم الله نفسه وإلى الله المصير » ...

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى المنهج للإنسان وهو من خلقه سبحانه ، ويعرف كل
 غرائزه ، وانفعالاته ، وفكره ، وفي أنه قد تاق له ظروف أقوى من طاقته ، لذلك

يعامل الحق الإنسان على أنه مخلوق محدود القدرات ، وفي موضع آخر جاء الحق
بامتناء آخر فقال :

﴿ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِشَيْءٍ فَرَّهُ إِلَّا مَكْرَهاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِتْنَةٍ لَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنِشْرَ الْمَصِيرِ ١٦ ﴾

(سورة الأنفال)

إن الحق يقول في هذا الموضع من سورة آل عمران : لا يتخذ المؤمنون الكافرين
أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تنفوا منهم
تقاة .

« وتقاة » مأخوذة من « الوقاية » . إنهم قد يكونون أقوياء للغة ، وقد لا يملك
المؤمن بغلبة الظن في أن يتصر عليهم ، وهم الكافرون ، فلا مانع من أن يتقى
المؤمن شرهم .

إن الثقة برخصة من الله ، روى : أن مسيلة الكذاب جاء برجلين من المسلمين وقال
لواحد منهما : « أتشهد أن محمداً رسول الله » ؟ قال المؤمن « نعم » : قال مسيلة :
« وتشهد أني رسول الله » ؟ قال المؤمن : « نعم » . وأحضر مسيلة المسلم الآخر وقال
له : « أتشهد أن محمداً رسول الله » ؟ قال المؤمن : « نعم » . قال مسيلة : « أتشهد أني
رسول الله » ؟ قال المؤمن الثاني : « إني أصم » كيف رد عليه المؤمن يدعوى الصمم ؟ لقد
علم مسيلة أنه يدعى الصمم ، ولذلك أخذه وقتله ، فرفع الأمر إلى سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فهاذا قال ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « أما المفتول . . فقد صدع
بالحق فهنيئاً له ، وأما الآخر فقد أخذ برخصة الله » . فالثقة برخصة ، والإفصاح بالحق
فضيلة . .

وعمار بن ياسر أخذ بالرخصة وبلال بن رباح تمسك بالقرعة .

ولننظر إلى حكمة التشريع في هذا الأمر . إن كل مبدأ من مبادئ الخير جاء ليواجه ظاهرة من ظواهر الشر في الوجود ، وهذا المبدأ يحتاج إلى منهج بأن من حكيم أعلى منه ، ويريد صلابة يقين ، وقوة عزيمة ، كما يريد تحمل منهج ، فالتحمل إنما يكون من أجل أن يبقى المنهج للناس ، والعزيمة من أجل أن يواجه المؤمن الخصوم ، فلزم بشرع الله التقية بقوله :

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

(من الآية ١٠٦ من سورة النحل)

لكننا حفيظة سنحقق الفدائية التي تفدى مناهج الحق بالتضحية بالحياة رخيصة في سبيل الله ، ولكن هب أن كل مؤمن وقف هذا الموقف فمن يحمل علم الله إلى الآخرين ؟ لذلك بشرع الحق سبحانه وتعالى التقية من أجل أن يبقى من يحمل المنهج ، إنه يفرز لنا الفداء للعقيدة ، ويشرح لنا التقية من أجل بقاء العقيدة . لقد جاء الحق بالأميرين : أمر الوقوف في وجه الباطل بالاستشهاد في سبيل الحق ، وأمر التقية لحماية لبعض الخلق حتى لا يضيع المنهج الحق لو جاء جبار ، واستأصل المؤمنين جميعا ، لذلك بشرع الحق ما يبقى للفداء فوما ، ويبقى للمبقاء قوما ليحملوا منهج الله ، هل عرفنا الآن لماذا جاءت التقية ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد منها يعمر الأرض ، ويورث للأجيال المتتالية ، فلو أن الحق لم بشرع التقية بقوله :

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦)

(سورة النحل)

لثبتت الفدائية في العقيدة ، ولو ثبتت الفدائية وحدها لكان أمر المنهج عرضة لأن يزول ، ولا يرثه قوم آخرون ، لذلك شرع الله التقية ليظل أناس حول شمع الإيمان ، يحتفظون بضوئها ، لعل واحدا يأخذ بتبسيها ، فيضيء بها نورا وهاجا . ولذلك ، فلا ولاية من مؤمن لقوم كافرين إلا أن يبقى منهم تقاء ، لماذا ؟ لأن الله يحذرنا نفسه بقوله : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

فإياك أن تقبل على السلوك الذي يضعه أمامك الكفار بانسراح صدر وتقول : أنا أقوم بالتقية ، بل لابد أن تكون المسألة واضحة في نفسك ، وأن تعرف لماذا فعلت التقية ، هل فعلتها لتبقى بمنح الخير في الوجود ، أو لغير ذلك ؟ هل فعلتها حتى لا نجعل جنود الخير كلهم إلى فناء أو غير ذلك ؟ إنك إن فعلت التقية بوعى واستيقظت نفسك لمهمة استبقاء المنهج الإيمان ، فأنت أهل الإيمان ، وعليك أن تعرف جيداً أن الحق قد قال : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » . إنه الحق يقول للمؤمنين : إياكم أن تختعوا على التقية أمراً هو مرغوب لنفوسكم ، لماذا ؟ لأن الحق قد حدها :

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢١)
(سورة النحل)

فلا غاية إلا الله ، فإياكم أن تغشوا أنفسكم ، لأنه لا غاية عند غيره ، فالغاية كلها عنده وبعد ذلك يقول الحق :

﴿قُلْ إِنْ تَحْقُقُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢١)

لأن الإنسان قد يقوم بالتقية كظاهرة شكلية ، أما المؤمن فلا يفعل ذلك أبداً . لماذا ؟ لأن التحذير واضح في هذه الآية . هنا قد يقول قائل : إن إخفاء ما في الصدر هو الذي يعلمه الله أما إبداء ما في الصدر فإنه قد علمه أحد غير الله ، فلماذا جاء هذا القول ؟ لقد جاء هذا القول الحكيم ، لأنه قد يطرأ على بالك أن الله غيب فهو يعلم

الغيب فقط ولا يعلم الشاهد . لكن الله لا يحجب مكان عن مكان أو زمان عن زمان . فإياك أن تعتقد أن الله غيب فلا يعرف إلا الغيب . إن الحق يعلم الغيب ويعلم ما برز إلى الوجود . وبعد ذلك يقول الحق :

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا
وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

إن العمل في ذاته ظاهرة تحدث وتنتهي ، فكيف يأمن الإنسان يوم القيامة ، ويجد عمله ؟ إنه لاشك سوف يجد جزاء عمله ، إننا حتى الآن نقول ذلك ، لكن حين يفتح الله على بعض العقول فتكتشف أسراراً من أسرار الكون فقد يكون تفسير هذه الآية فوق ما نقول ، إنهم الآن يستطيعون تصوير شريط لعمل ما وبعد مدة يقول الإنسان للآخر : انظر ماذا فعلت وماذا قلت إن العمل المسجل بالشريط يكون جاضراً ومصوراً ، فإذا كنا نحن البشر نستطيع أن نفعل ذلك بوسائلنا فماذا عن وسائل الحق سبحانه وتعالى ؟ لابد أنها تفوقنا قدرة ، إنه الحق يعلم كل شيء ، في الصدر ، أو في السماوات أو في الأرض : إن الحكم الإلهي يشمل الكون كله مصداقاً لقول الحق :

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْفُتُ
مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَابَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

(سورة الانعام)

ويختتم الحق هذه الآية بقوله : « والله على كل شيء قدير » إنه القادر الذي يعلم عنا الغفلة ، فينبهنا دائما إلى كمال قدرته ، كما قال في آية قبلها : « إنك على كل شيء قدير » ونحن مخلوقون لله ، وهو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ويأتى لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَقِيلَ هَٰؤُلَاءِ أَكْرَمَةٌ ۖ وَأَكْثَبَةٌ ۖ ﴾

(سورة الحاقة)

إذن فمن تقف في عقله هذه المسألة ، قليلا : « ما عملت من خير محضرا » يعنى أنه يجد جزاء عمله . أما ما عملته النفس من سوء فهي تود أن يكون بينه وبينها أمد بعيد ، أى غاية بعيدة ، ويقول الإنسان لنفسه : « ياليتها ما جاءت » . والحق سبحانه يقول : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » إن الحق سبحانه يكرر التحذير لنستحضر قوته المطلقة ، ولكنه أيضا رءوف بنا رحيم ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ ﴾

ولنا أن نعرف أن كل « قل » إنما جاءت في القرآن كدليل على أن ما سيق من بعدها هو بلاغ من الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بلاغ للأمر وللماثور به ، إن البعض ممن في قلوبهم زيغ يقولون : كان من الممكن أن يقول الرسول : « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » لمؤلاء نقول : لو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لكان قد أدى « المأمور به » ولم يؤد الأمر بتمامه . لماذا ؟ لأن الأمر في « قل » . . . والمأمور به « إن كنتم تحبون الله » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل بلاغ عن الله بدأ بـ « قل » إنما يبلغ « الأمر » ويبلغ « المأمور به » مما يدل على أنه

مبلغ عن الله في كل ما يبلغه من الله .

إن الذين يقولون : يجب أن نحذف « قل » من القرآن ، وبدلاً من أن نقول : « قل هو الله أحد » فلننطقها : « الله أحد » . هؤلاء نقول : إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى « المأمور به » ولم يؤد « الأمر » .

إن الحق يقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » هذه الآية تدل على ماذا ؟ إنهم لا بد قد ادعوا أنهم يحبون الله ، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئاً ، واتباع التكليف شيئاً آخر ، والله سبحانه وتعالى له على خلقه إيجاد ، وإمداد ، وتلك نعمة ، والله على خلقه فضل التكليف ، لأن التكليف إن عاد على المكلف « بفتح الكاف » وتشديد اللام » ولم يعد منه شيء على المكلف بكسر الكاف فهذه نعمة من المكلف .

إن الحق سبحانه لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد . إن الحق سبحانه عندما كلّفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان . وقد ضربنا المثل - والله المثل الأعلى ، بالآلة المصنوعة بأيدي البشر ، إن المهندس الذي صممها يضع لها قانون صيانة ما ، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها ، وهي تلخص في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، ويختار هذه الآلة مكاناً محدداً ، وأسلوباً منظماً للاستخدام .

إذن . فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانة واستعمال آلة ما وطبيعتها في كراسة صغيرة ، هي لفائدة المنتفع بالصنعة ، هذا في مجال الصنعة البشرية . فما بالنا بصنعة الله عز وجل ؟ إن لله إيجادا للإنسان ، والله إمدادا للإنسان ، والله تكليفاً للإنسان ، والحق قد جعل التكليف في خدمة الإيجاد والإمداد ، إن الحق لو لم يعطينا نظام حركة الحياة في « افعل » و « لا تفعل » ، لفسد علينا الإيجاد والإمداد ، إن من تمام نعمة الحق على الخلق أن أوجد التكليف ، وإن كان العبد قد عرف قدر الله فأحبه للإيجاد والإمداد فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضاً من ناحية قبول التكليف ، وإن يحب العبد ربه لأنه كلّفه بالتكاليف الإيمانية .

إنك قد تحب الله ، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله ، وأن

يحبك الله . إن التكليف قد يبدو شاقا عليك فتهمل التكليف ؛ لذلك نقول لك : لا يكفي أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده ؛ لأنك بذلك تكون أهملت نعمة تكليفه التي تعود عليك بالخير ، إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان ، فلا تهملها ، ومن الجائز أن تجد عبدا يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدهم بكل أسباب الحياة ، ولكن حب الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته - سبحانه - في التكليف ؛ إن الله يحب العبد الذي يعرف قيمة النعمة في التكليف .

ونحن في مجالنا البشري نرى إنسانا يحب إنسانا آخر ، لكن هذا الآخر لا يبادلُه العاطفة ، والمتنى قال :

أنت الحبيب ولكني أعوز به

من إن أكون حبيبا غير محبوب
إن المتنى يستعيز أن يحب واحدا لا يبادلُه الحب . فكأن الذين يدعون أنهم يحبون الله ، لأنهم عبيد إحسانه وإيجاده وإمداده ، ثم بعد ذلك يستنكفون ، أولا يقدرّون على حمل نقوسهم على أداء التكليف لهؤلاء ، نقول : أنتم قد منعتم شطر الحب لله ، لأن الله لم يكلفكم لصاحبه ولكنه كلفكم لصلحكم ؛ لأن التكليف لا يقل عن الإيجاد والإمداد .

لماذا ؟ لأن التكليف فيه صلاح الإيجاد والإمداد ، والحب - كما نعرف - هو ودادة القلب وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة لله ، فإننا نرى آثارها ، وعملها ، من عفو ورحمة ورضا ، وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلى الله فإنها تكون في الطاعة . إن الحب الذي هو ودادة القلب يقدر عليه كل إنسان ، ولكن الحق يطلب من ودادة القلب ودادة القلب ، وعلى الإنسان أن يتحلى عن تكاليف الله ليقوم بها ، طاعة منه وحبا لله ، ليتلقى محبة الله له بآثارها ، من عفو ، ورحمة ، ورضا .

والحب المطلوب شرعا يختلف عن الحب بمفهومه الضيق ، أقول ذلك لنعلم جميعا ، أنه الحق سبحانه قائم بالقسط ، فلا يكلف شططا ، ولا يكلف فوق الوسع أو فوق الطاقة . إن الحب المراد لله في التكليف هو الحب العقلي ، ولا بد أن نفرق بين الحب العقلي والحب العاطفي ، العاطفي لا يقن له . لا أقول لك : « عليك أن تحب فلانا حبا عاطفيا » لأن ذلك الحب العاطفي لا قانون له . إن الإنسان يحب ابنه حتى ولو كان قليل الذكاء أو صاحب عاهة ، يحبه بعاطفته ، ويكره قليل الذكاء

بعقله

والإنسان حينما يرى ابن جاره أو حتى ابن عدوه ، وهو متفوق ، فإنه يحب ابن الجار أو ابن العدو بعقله ، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بعاطفته ، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة فإنه يعطيها لابنه لا لابن الجيران ، هناك - إذن - فرق بين حب العقل ، وحب العاطفة .

والتكليف دائما يقع في إطار المقدور عليه وهو حب العقل ، ومع حب العقل قد يسأل الإنسان نفسه : ماذا تكون حياتي وكيف . . لو لم أعتنق هذا الدين ؟ وماذا تكون الدنيا وكيف ، لولا رحمة الله بنا عندما أكرمنا بهذا الدين ؟ وأرسل لنا هذا الرسول الكريم ؟ إن هذا حديث العقل وحب العقل .

وقد يتسامى الحب فيصير بالعاطفة أيضا ، لكن المكلف به هو حب العقل ، وليس الحب العاطفي ، ولذلك يجب أن نقتن إلى ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب إليه من ولده والديه والناس أجمعين) (١) .

وقف سيدنا عمر عند هذه النقطة فقال : أمعقول أن يكون الحب لك أكثر من النفس ؟ إنني أحبك أكثر من مالي ، أو من ولدي ، إنما من نفسي ؟ ففي النفس منها شيء . وهكذا نرى صدق الأداء الإيماني من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكررها النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وثالثا ، فعرف سيدنا عمر أنه قد أصبحت تكليفا وعرف أنها لا بد أن تكون من الحب المقدور عليه ، وهو حب العقل ، وليس حب العاطفة . وهنا قال عمر : « الآن يا رسول الله ؟ » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر ، أي كمل إيمانك الآن ، أي أن سيدنا عمر قد فهم المراد بهذا الحب وهو الحب العقلي .

ونريد هنا أن نصرب مثلا حتى لا تقف هذه المسألة حفة في القلوب أو العقول

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه واحد .

- تقول - والله المثل الأعلى: إن الإنسان ينتظر إلى الدواء المرطبا ويسأل نفسه هل أحبه أو لا ؟ إن الإنسان يحب هذا الدواء بعقله ، لا بعاطفته

إذن فحب العقل هو ودادة من تعلم أنه صالح لك ونافع لديك وإن كانت نفسك تعاقبه ، وعندما تتضح لك حدود نفع بالشئ ، فأنت تحبه بعاطفتك ، إذا فالمطلوب للتكليف الإيمان ، الحب العقل ، وبعد ذلك يتسامى ليكون ، حبا عاطفيا ، وهكذا يكون قول الحق : « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » وهذا الحب ليس دعوى . إن الإنسان منا عندما يدعى أنه يحب إنسانا آخر ، فكل ما يتصل به يكون محبوبا ، ألم يقل الشاعر : « وكل ما يفعل المحبوب محبوب » ؟ فإن كنتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتبعوه بتنفيذ التكليف الإيمانية ، ولتلتفت إلى الفرق بين « اتبعني » و « استمع لى » .

إن الاتباع لا يكون إلا فى السلوك ، فإن كنت تحب رسول الله فعليك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تفعل مثله ، أما إذا كنت تدعى هذا الحب ، ولا تفعل مثله فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عدم صدق فى الحب ، إن دليل صدقكم فى الحب المدعى منكم أن تتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة ، ونقبلها من الله مع ما فيها من مشقة علينا ، فحبنا الله ، لأننا أثرتنا تكليفه على المشقة فى التكليف .

إن فهم هذه الآية يقتضى أن نعرف أن الحق ينهنا فكأنه يقول لنا : أنتم أحببتم الله للإيجاد والإمداد ، وبعد ذلك وقفتم فى التكليف لأنه ثقل عليكم ، وهنا نقول : « انظروا إلى التكليف أهو لصالح من كلف أم هو لصالح من تلقى التكليف ؟ » . إنه لصالح المكلف أى الذى تلقى التكليف .

وهكذا يجب أن نضم التكليف للنعم ، فتصبح النعم هى « نعم الإيجاد » ، وه الإمداد ، وه التكليف ، فإن أسببت الله للإيجاد والإمداد ، فهذا يقتضى أن تحبه أيضا للتكليف ، ودليل صدق الحب هو قيام العبد بالتكليف ، وما دامت أنت قد عبرت عن صدق عواطفك بحبك لله ، فلا بد أن يحبك الله ، وكل منا يعرف أن حبه لله لا يقدم ولا يؤخر ، لكن حب الله لك يقدم ويؤخر .

إن قول الحق سبحانه وتعالى فيها يعلمه لرسول الله ليقول لهم : « فاتبعوني يحبيكم الله » أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتف شئاً مما أمر بتبليغه ، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقاً بين رسول الله وبين الله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه .

وبعد ذلك يقول الحق : « ويغفر لكم ذنوبكم » إن مسألة « يغفر لكم » هذه تتضمن ما نسميه القوانين البشرية بالآثر الرجعى ، فمن لم يكن فى بآله هذا الأمر ، وهو حب الله ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعليه أن يعرف أن عليه مسئولة أن يبدأ فى هذه المسألة فوراً ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وينفذ التكليف الإيماني ، وسيغفر له الله ما قد سبق ، وأى ذنوب يغفرها الله هنا ؟ إنها الذنوب التى فر منها بعض العباد عن اتباع الرسول ، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالحقكم فيها .

وهكذا نعرف ونبش أن عدالة الله أنه سبحانه لن يعاقب أحداً على ذنب سابق مادام قد قبل العبد أن ينفذ التكليف الإيماني ، إن الذين أبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجب عليهم أن يفتنوا بعقوبتهم إلى ما أعلنه الرسول لهم ، إن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغاً ، وقد جاء البلاغ ، ولذلك يغفر الله الذنوب السابقة على البلاغ ، وبعد ذلك يقول الحق : « والله غفور رحيم » إننا نعلم أن المغفرة من الله والرحمة منه أيضاً ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ ٢٢

وقد قلت من قبل فى مسألة الأمر بالطاعة ، إنها جاءت فى القرآن الكريم على ثلاثة ألوان : فمرة يقول الحق : « أطيعوا الله والرسول » . كما جاء بهذه الآية التى

نحن بصدده تناولها بخواطئنا الإيمانية . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه لم يكرر أمر الطاعة ، بل جعل الأمر واحداً ، هو « أطيعوا » ، فإذا سألك من المطاع ؟ تكون الإجابة : الله والرسول معا .

إذن فقول الرسول صلى الله عليه وسلم بلاغا عن الله « اتبعون بحببكم الله » يعنى أن طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله . إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمرنا بطاعته ، ولكنه بأمرنا بطاعة الله ، ولذلك لم يكرر الحق أمر الطاعة ، إن الحق هنا يوحد أمر الطاعة فيجعلها لله وللرسول معا ، إنه يعطف على المطاع الأول وهو الله بمطاع ثانٍ هو الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق في كتابه العزيز :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٥١ ﴾

(سورة النور)

إن الحق يورد أمر الطاعة ثلاث مرات : فمرة يكون أمر الطاعة لله ، ومرة ثانية يكون أمر الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومرة ثالثة يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٢ ﴾

(سورة النساء)

فما مسألة هذه الأوامر بالطاعة ؟ إنها طاعة بالثواب والتكليف وأنواعها ، إن الأحكام المطلوبة من المؤمنين أن يطيعوا فيها ، مرة يكون الأمر من الله قد جاء بها وأن يكون الرسول قد أكدها بقوله وسلوكه ، إن المؤمن حين يطيع في هذا الأمر الواحد ، فهو يطيع الله والرسول معا ، ومرة يأتي حكم من الله إجمالا ، ويأتي الرسول ليفصله .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦)

(سورة النور)

إن الواحد منا لم يكن يعرف كم صلاة في اليوم ، ولا عدد الركعات في كل صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فصل لنا الأمر في كل صلاة ، إذن ، فالمؤمن يطيع الله في الإجمال ، ويطيع الرسول في التفصيل . إن علينا أن نلتفت إلى أن هنا طاعتين : الأولى : طاعة الله ، والثانية : طاعة الرسول ، أما في الأمر المتحد ، فتكون الطاعة لله والرسول ، لأنه أمر واحد . وأما الأمر الذي جاء من الله فيه تكليف إجمالي فقد ترك الله للرسول صلى الله عليه وسلم بيانه ، فالمؤمن يطيع الله في الأمر الإجمالي كأمر الصلاة ، وإقامتها ، ويطيع الرسول في تفصيل أمر الصلاة ، وكيفيتها ، وأحياناً يحىء الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول ، فيقول الله لرسوله ما معناه إنك أنت الذي تقرر في هذه الأمور ، كما قال الحق :

﴿وَمَا أَتَشْكُرُ الرَّسُولَ فَعُذُّهُ وَمَا نَهَكَرُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا﴾

(من الآية ٧ من سورة العنكبوت)

لقد ترك الحق سبحانه للرسول أن يصدر التشريعات اللازمة ، لاستقامة حياة المؤمنين ، لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، وما دام سبحانه قد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم التفويض العام فإن طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول وإن لم يقل الله به . إننا على سبيل المثال لا نجد في القرآن دليلاً على أن صلاة الفجر ركعتان ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فصل لنا الصلاة فعرفنا أن الفجر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات . إن الدليل هو تفصيل الرسول ، وقول الحق :

﴿وَمَا أَتَشْكُرُ الرَّسُولَ فَعُذُّهُ وَمَا نَهَكَرُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا﴾

(من الآية ٧ من سورة العنكبوت)

إنه دليل من القرآن الكريم . هكذا نعرف أن الأمر بالطاعة جاء بالقرآن على ألوان ثلاثة : اللون الأول : إن اتحد المطاع « الله والرسول » ان عطف الرسول هنا يكون على لفظ الجلالة الأعلى . اللون الثاني : هو طاعة الله في الأمر الإجمالي وطاعة الرسول في تفصيل هذا الأمر ، فإن الحق يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » اللون الثالث : وهو الذي لم يكن لله فيه حكم ، ولكنه بالتفويض العام للرسول ، بحكم قوله الحق : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه طاعة للرسول ، ثم يأتي في أمر طاعة أولى الأمر فيقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩ ﴾

(سورة النساء)
إن الحق لم يورد طاعة أولى الأمر مندوحة في طاعة الله والرسول ، لتكون طاعة واحدة . لا . إن الحق أورد طاعة أولى الأمر في الآية التي يفرق فيها بين طاعة الله وطاعة الرسول ، ثم من بطن طاعة الرسول تكون طاعة أولى الأمر . لماذا ؟ لأنه لا توجد طاعة ذاتية لأولى الأمر لأن الرسول صلى الله عليه وسلم له الطاعة الذاتية . أما طاعة أولى الأمر فهي مستمدة من طاعة أولى الأمر لله ورسوله ، ولا طاعة لأولى الأمر فيها لم يكن فيه طاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم .

إن الحق يقول : « قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . إن الله يبلغ الرسول أن يبلغ هؤلاء الذين قالوا : إنهم يحبون الله ، بالشروط التي يمكن أن يبادل بها الحق عبادة الحب ، وذلك حتى تتحقق الفائدة للبشر ، لأن محبة الله تفوق ما يقدمه البشر من حب . إن اتباع الرسول وتنفيذ التكليف بالطاعة لله والرسول .

ذلك هو أسلوب تعبير العباد عن حبهم لله وللرسول صلى الله عليه وسلم ، أما إن تولوا ، أي لم يستمعوا إليك يا محمد ، ولم يتبعوك ، فإن موقفهم - والعباد بالله - ينتقل إلى الكفر ، لأن الحق يقول عن الذين يتولون عن الله والرسول : « فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . وليس هناك تفضيح أكثر من هذا .

إن كلمة « تولوا » توحى بأن الذين استمعوا إلى أوامر الحق قد نفروا وأعرضوا ، فهم لم يأخذوا حكم الله ، ثم منعهم الكسل من تنفيذه . لا . إنهم أعرضوا عن حكم الله - والعباد بالله - ولذلك فقد قلت ومازلت أقول : فليحذر الذين يخالفون عن أوامر الله ألا يفرقوا بين أمر متقبل على أنه الحكم الحق وبين حمل النفس على اتباع الحكم وتنفيذه .

إياك أيها المسلم أن تنكر حكما لا تستطيع أن تحمل نفسك عليه أولا تقدر عليه . إنك إن أنكرت تنقل نفسك من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعباد بالله . ولكن عليك أن تؤمن بالحكم ، وقل : « إنه حكم الله وهو صواب ولكني لا أستطيع أن أقدر على نفسي » إن ذلك يجعل عدم تنفيذ الحكم معصية فقط . ويأتى الحق سبحانه - بعد أن بين لنا أصول العقائد في قوله :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَابِئًا بِأَلْفِ سِطٍّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

هو العزيز الحكيم ﴿١٥﴾

(سورة آل عمران)

وبعد أن بشر الحق المؤمنين بأنه سبحانه وتعالى يعطيهم الملك الإيمان وأنه الإله القادر ، وطلاقة قدرته تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وبعد أن رسم سبحانه طريق محبته ، فإن كنتم قد أحببتم الله للإيجاد والإمداد ، وتريدون أن يحبكم فعليكم بطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم في تنفيذ التكليف .

وبعد أن وضع الله سبحانه وتعالى المبادئ الإيمانية عقديّة وتشريعية ، بعد هذا وذاك يعطى لنا نماذج تطبيقية من سلوك الخلق ، ذلك أن هناك فرقا بين أن توضع نظريات ويأتى الأمر للتطبيق فلا تجد من يطبق ، إن الحق لم يكلف شططا ولا عشا ، إن الله يقول لنا : أنا كلفت بالتكاليف الإيمانية ومن الخلق أمثالكم من استطاع أن يسير عليها وأن ينفذها ، لذلك يعرض الحق لنا النماذج التي توضح ذلك .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى أمة أمية ، وكان الإسلام جديدا عليهم ، ولذلك يعرض الحق نماذج قديمة ، وهذه النماذج تؤكد لنا أننا في دين

الإسلام لا نجد تعصبا؛ لأن الدين الذي جاء من الله على آدم عليه السلام هو الدين الذي جاء به إبراهيم عليه السلام من عند الله وهو الدين الذي نزل إلى آل عمران وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

إن الحق يعطى صفات التكريم لأهل أديان منسويين إلى ما أنزله الله عليهم من منهج . وجاء الإسلام لينسخ بعضها عما جاء في تلك الرسائل السابقة ويضعها في منهج واحد ياق إلى يوم القيامة ، هو منهج الإسلام ، إنه مطلق العظمة . هاهوذا الحق يقول :

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ

وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

إنها عدالة القرآن الكريم ، إنه الحق العادل الذي ينزل على الرسول بلاغا بذكر الأبناء بطهارة أصول الأبناء ، ومن الخسارة أن يصير الأبناء إلى ما هم عليه . «إن الله اصطفى آدم ، وكلمة «اصطفى» تدل على اختيار مريض . ولنا أن نسأل : هل اصطفى الحق هؤلاء الرسل ، آدم ونوحا ، وآل إبراهيم ، وآل عمران فكانوا طائعين ، أم علم الحق ألا أنهم يكونون طائعين فاصطفاهم ؟ إن الحق علمه أزلي ، وعلمه ليس مرتبا على شيء . وساعة أن تأن أنت بقانونك البشري وتفرض في إنسان ما ، وتولي به أمرا ، وينتجع فيه ، هنا تنهى نفسك بأن فراستك كانت في محلها ، بعلم الله واقتداره ؟

إن الذين اصطفاهم الله هم الذين علم الله ألا أنهم سيكونون طائعين ، وقد يقول قائل : إنهم طائعون لله بالاصطفاء ، لمثل هذا القائل ترد : إنهم طائعون بالنفس العامة ويكونون في مزيد من الطاعة بعد أن يأخذوا التكليف بالنفس الخاصة ، إنهم طائعون من قبل أن يأخذوا أمور التكليف ، ولو تركهم الحق للأمور

العقلية لا هندروا إلى طاعته ، وعندما جاءهم الأمر التكليفي ويصطفاهم الله يكونون رسلا وحلة منهج سماوى .

عندما يسمع الإنسان قول الحق : « إن الله اصطفى آدم » فقد يتساءل عن معناها ، ذلك أن من اصطفاه الله لآدم تأتى إلى الذهن معنى « خصه » بنفسه أو أخذه صفوة من غيره ، فكيف كان اصطفاه آدم ، ولم يكن هناك أحد من قبله ، أو معه لأنه الخلق الأول ؟ إننا يمكن أن نعرف بالعقل العادى أن اصطفاه الله لنوح عليه السلام ، كان اصطفاه من بشر موجودين ، وكذلك اصطفاه إبراهيم خليل الرحمن وبقية الأنبياء .

إذن ، فكيف كان اصطفاه آدم ؟ إن معنى « اصطفى آدم » - كما قلنا - تعنى أن الله قد اختاره أو أن « المصطفى عليه » يأق منه ومن ذريته . نعم وقد جاء المصطفى عليه من ذريته ، وهذا المعنى يصلح ، والمعنى السابق عليه يصلح أيضا . إن الحق يقول : « إن الله اصطفى آدم ونوحا » ونحن نعلم أن سيدنا نوحا عليه السلام واجه جماعة من الكافرين به ، فأغرقهم الله فى الطوفان، ونجا نوح ومن معه بأمر الله .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِّنَ الثَّيْنِ وَأَمَّاكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَى الْقَوْلِ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝١١٠﴾

(سورة هود)

إن الذين بقوا من بعد نوح عليه السلام كانوا مؤمنين ، ثم تعرضوا للأغيار . وجاءت هذه الأغيار فى أعقابهم ، ففسدوا كفر وإيمان ، لماذا ؟ لأن آدم عليه السلام حين خلقه الله وضع له التجربة التكليفية فى الجنة ، كان من الواجب أن ينقل ما علمه له الله لأبنائه .

لقد نقل آدم لهم مسائل صيانة مادتهم وعلمهم كيف يأكلون ، وكيف يشربون ، وغير ذلك . وكان يجب أن تكون معهم القيم . إن آدم عليه السلام قد أدى ذلك ، وعلم أبنائه كيفية صيانة مادتهم وعلمهم القيم أيضا ، ولكن بمرور الزمان ، ظل بعض من أبناء آدم يتخففون من التكاليف حتى اندثرت وذهبت . ومن رحمة الله بخلقه يحدد سبحانه وتعالى الرسالة يبعث رسول جديد .

والرسالة الجديدة تعطى ما كان موجودا أولا ، فيها يتعلق بالعقائد والأخبار ، والأشياء التي لا تتغير ، وثاني الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة . فإذا ما أمكن للبشر أن يعدلوا من سياسة البشر ، بظل الأمر كما هو ، فإن ارتكب واحد منكرا وضرب قومه على يده ، استقام أمر الرسالة وبقيت هذه الأمة على الخير . لماذا ؟ لأن مصافي اليقين في النفس الإنسانية موجودة ، ونحن نراها ونلمسها . إن هناك واحدا تجد مصافي اليقين في ذاته ، وقد لا يقدر على نفسه ، فيرتكب المعصية ، وتلومه نفسه ، فيرجع عن المعصية .

ومرة أخرى نجد إنسانا آخر لا يجد في نفسه مصافي اليقين ، ولكنها موجودة في غيره ، فتجد من يأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، فإذا امتنعت المصافي الذاتية للإيمان ، وكذلك امتنعت المصافي الإيمانية في المجتمع ، فلا أمل هنالك ، لذلك يجب أن يأتي رسول جديد ، وينبه الناس بمعجزة ما .

لقد شاءت إرادة الحق سبحانه ألا يأتي رسول آخر بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك شهادة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن الله أمنها على منهج الله ، فإذا مُنعت من أي نفس مصافياها الذاتية فسبق مصافياها الاجتماعية ، ولا بد أن يكون في أمة محمد ذلك ، لأن امتناع ذلك كان يستدعي وجود نبي جديد .

إن الله أمن أمة محمد على منهجه ، ولذلك لم يأت نبي بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أمن الحق أمة محمد فلم يمنع فيها أبدا المصافي الذاتية أو الاجتماعية ، ولذلك يأتي القول الحق :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

إن هذا توجيه لنا من الحق لنعرف أن المصافي الاجتماعية ستظل موجودة في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذن فبعد حدوث العقلة من بعد نوح عليه السلام جاء الله بأصطفاءات أخرى رحمة منه بالعالمين ، ويقول الحق : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » . ونحن نقول على إبراهيم عليه السلام : « أبو الأنبياء » وأورد الحق نيا بعض من أبناء آل إبراهيم ، وهم آل عمران وأعطاهم ميزة .

وكلمة « عمران » هذه حين ترد في الإسلام قلنا أن نعرف أن هناك اثنين هما الاسم نفسه ، هناك « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام . وهناك « عمران » آخر . إن عمران والد موسى وهارون كان اسم أبيه « يصهر » وجده اسمه « فاهات » ، ومن بعده « لاوى » ومن بعده « يعقوب » ، ومن بعده « إسحق » ، وبعده « إبراهيم » ، أما عمران الآخر ، فهو والد مريم عليها السلام .

وقد حدث إشكال عند عدد من الدارسين هو « أى العمرانين يقصده الله هنا ؟ » والذي زاد من حيرة هؤلاء العلماء هو وجود أخت لموسى وهارون عليهما السلام اسمها مريم ، وكانت ابنة عمران والد موسى وهارون فكلتاها اسمها مريم بنت عمران . وكانوا في ذلك الزمن يتفاءلون باسم « مريم » لأن معناه « العابدة » ، ولما اختلفوا لم يفتنوا إلى أن القرآن قد أبان وأوضح المعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون عليهما السلام ، بل عمران والد مريم ، ومتبها عيسى عليه السلام ، وعمران والد مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود ، وداود من أوشى ، وأوشى من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحق .

وكنا قدبها أبام طلب العلم نضع لها ضبطا بالحرف ، فنقول « عمعم سدثيا » ومعناها . . عيسى بن مريم ، ومريم بنت عمران ، وعمران ابن ماثان ، وماثان من سليمان ، من داود من أوشى وأوشى من يهوذا ويهوذا من يعقوب ويعقوب من إسحاق . لقد التبس الأمر على الكثير وقالوا : أى العمرانين الذى يقول الله فى حقه هذا القول الكريم ؟ وهؤلاء نقول : إن محىء اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك يعنى أنه عمران والد مريم ، وأيضا يجب أن نفتن إلى أن الحق قد قال عن مريم :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْزِجُ لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِرِزْقِكَ مِنْ شَاءٍ بِغَيْرِ حَسَابٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وذكر يا عليه السلام هو ابن آذن ، وآذن كان معاصرا لماثان . إن المراد هنا هو عمران والد مريم . هكذا حددنا أي العمرانين يقصد الحق بقوله : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » . وعندما تقول : اصطفت كذا على كذا ، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن تصطفى واحدا من مجموعة على الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بـ « على العالمين » أي على عالمي زمانهم ، إنهم قوم موجودون وقد اصطفى منهم واحدا ، أما الذي سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ، فلا اصطفاء على محمد صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣١ ﴾

وحين يقول : « ذرية بعضها من بعض » فلنا أن نسأل : هل المقصود بذلك الأنساب أم الدين والقيم ؟ ولنا أن نلتفت أن الحق قد علمنا في مسألة إبراهيم عليه السلام أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هي أنساب القيم والدين . وكنا قد عرضنا من قبل لما قاله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَ قَائِمَةٍ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فردها الله عليه قائلا :

﴿ لَا يَبْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

لماذا ؟ لأن الإمام هو المقتدى في الهدايات . إذن فالمسألة ليست وراثه بالدم . وهكذا علم سيدنا إبراهيم ذلك بأن النسب للأنبياء ليس بوراثه الدم ، إذن فنحن نفهم قول الحق : « ذرية بعضها من بعض » على أنها ذرية في توارثها للقيم . ونحن نسمع في القرآن :

﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَنكِرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢٥)

(سورة النور)

إن هذا التفريق ليس أمرا يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم ، إنها كلها أمور قيمية ، وحين يقال : « والله سميع عليم » أى أن الله يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢٥)

وعندما نقرا « إذ » فلتعلم أنها ظرف ويُقدر لها في اللغة « اذكر » ، ويقال « إذ جئتك » أى « اذكر أن جئتك » . وعندما يقول الحق : « إذ قالت امرأة عمران » فبعض الناس من أهل الفتح والفهم يرون أن الحق سبحانه سميع عليم وقت أن قالت امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى » وهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها ، بأن الله سميع وعليم . ونقف عند قول امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا » .

إننا عندما نسمع كلمة « محررا » فمعناها أنه غير مملوك لأحد فإذا قلنا : « حررت

العبد « يعنى ينصرف دون قيد عليه . أو « حررت الكتاب » أصلحت ما فيه . إن تحرير أى أمر ، هو إصلاح ما فيه من فساد أو إطلافة من أى ارتباط أو قيد . أما قولها : « رب إني نذرت لك ما فى بطنى محررا » هو مناجاة لله ، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله ؟

إن امرأة عمران موجودة فى بيثة ترى الناس تعز بأولادها ، وأولاد الناس - كما نعلم - يحكمون حركة الناس ، والناس تحكم حركة أولادهم ، ويكد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة ، وقرة عين ، ويتقدم المجتمع بذلك التواصل المادى ، ولم تعجب امرأة عمران بذلك ؛ لقد أرادت ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، إنها تريد محررا منها ، وهى محررة منه . وهذا يعنى أنها ترغب فى أن يكون ما فى بطنها غير مرتبط بشيء أو بحب أو برعاية .

لماذا ؟ لأن الإنسان مهما وصل إلى مرتبة اليقين ، فإن المسائل التى تتصل بالناس وبه ، تمر عليه ، وتشغله ، لذلك أرادت امرأة عمران أن يكون ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، وقد يقال : إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر فى ذات إنسانية كذاتها ، ونرد على ذلك بما يلى :

لقد كانوا قديما عندما يندرون ابنا للبيت المقدس فهذا النذر يستمر مادامت لهم الولاية عليه ، ويظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد ، وعند بلوغ سن الرشد فإن للابن أن يختار بين أن يظل كما أراد والداه أو أن يجبا حياته كما يريد .

إن بلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته . كانت امرأة عمران لا تريد ما فى بطنها أن يكون قرة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريد محررا لخدمة البيت المقدس ، وكان يستلزم ذلك فى التصور البشرى أن يكون المولود ذكرا ، لأن الذى كان يقوم بخدمة البيت هم الذكور .

ونحن نعرف أن كلمة « الولد » يطلق أيضا على البنت ، ولكن الاستعمال الشائع ، هو أن يطلق الناس كلمة « ولد » على الذكر ، لكن معنى الولد لغويا هو المولود سواء أكان ذكرا أم أنثى . وعندما نسمع كلمة « نذر » فلنفهم أنها أمر أريد به الطاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كلفه به الله .

إن الله قد فرض علينا خمس صلوات ، فإذا نذر إنسان أن يصلي عددا من الركعات فوق ذلك ، فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله ، وهو من جنس ما كلف الله وهو الصلاة . والله قد فرض صيام شهر رمضان ، فإذا ما نذر إنسان أن يصوم يومى الاثنين والخميس أو صيام شهرين فالإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، وهو الصيام . والله فرض زكاة قدرها باثنين ونصف بالمائة ، ولكن الإنسان قد ينذر فوق ذلك ، كمقدار عشرة بالمائة أو حتى خمسين بالمائة .

إن الإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، إن النذر هو زيادة عما كلف المكلف من جنس ما كلف سبحانه . وكلمة « نذرت » من ضمن معانيها هو أن امرأة عمران سيدة تقية وورعة ولم تكن مجبرة على النذر ، ولكنها فعلت ذلك ، وهو أمر زائد من أجل خدمة بيت الله .

والنذر كما نعلم يعبر عن عشق العبد لتكاليف الله ، فيلزم نفسه بالكثير من بعضها . ودعت امرأة عمران الله من بعد ذلك بقبول ذلك النذر فقالت : « فتقبل منى » . « والتقبل » هو أخذ الشيء برضا ، لأنك قد تأخذ بكراهة ، أو تأخذ على مضض ، أما أن « تقبل » فذلك يعنى الأخذ بقبول وبرضا . واستجابة لهذا الدعاء جاء قول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة آل عمران)

ونلاحظ أن امرأة عمران قالت فى أول ما قالت : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » ، ولم تقل : « يا الله » وهذا لنعلم أن الرب هو المتولى التربية ، فساعة ينادى « ربى » فالمفهوم فيها التربية . وساعة ينادى بـ « الله » فالمفهوم فيها التكليف . إن « الله » نداء للمعبود الذى يطاع فيما يكلف به . أما « رب » فهو المتولى التربية .

قالت امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » . هذا هو الدعاء ، وهكذا كانت الاستجابة : « فتقبلها ربها

بقبول حسن ، وبعد ذلك تكلم الحق عن الأشياء التي تكون من جهة التربية . « وأنبئها نبأنا حسنا . . وكفلها زكريا » . كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية ، فساعة نادى امرأة عمران عرفت كيف تنادى ونذرت ما في بطنها . وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا . « فتقبلها ربها بقبول حسن » .

فالحسن هنا هو زيادة في الرضا ، لأن كلمة « قبول » نعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة « حسن » توضح أن هناك زيادة في الرضا ، وذلك مما يدل على أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا ، وبشيء حسن ، وهذا دليل على أن الناس ستلح في تربيتها شيئا فوق الرضا ، إنه ليس قبولا عاديا ، إنه قبول حسن . « وأنبئها نبأنا حسنا » . مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما في بطنها ، ألا تربى ما في بطنها إلى العمر الذي يستطيع فيه المولود أن يخدم في بيت الله . ولكنها نذرت ما في بطنها من اللحظة الأولى لل ميلاد . إنها لن تتنعم بالمولود ، ولذلك قال الحق : « وكفلها زكريا » ، وزكريا هو زوج نحالة السيدة مريم . وبعد دعاء امرأة عمران ، يحى القول الحكيم :

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا
مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ ﴿٢١﴾

لقد جاء هذا القول منها ، لأنها كانت قد قالت : إنها نذرت ما في بطنها محررا لخدمة البيت ، وقولها : « محررا » تعني أنها أرادت ذكرا لخدمة البيت ، لكن المولود جاء أنثى . فكانها قد قالت : إن لم أمكن من الوفاء بالنذر ، فلأن قدرك سبق ، لقد جاءت المولودة أنثى . لكن الحق يقول بعد ذلك : « والله أعلم » .

بما وضعت . وهذا يعنى أنها لا تريد إخبار الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحسر ، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق وبعد ذلك يقول الحق : « وليس الذكر كالأنثى » . فهل هذا من كلامها ، أم من كلام الله ؟

قد قالت : « إني وضعنها أنثى » وقال الله : « وليس الذكر كالأنثى » .

إن الحق يقول هنا : لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنينه موصول إلى مرتبة هذه الأنثى ، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم . أو أن القول من تمام كلامها : « إني وضعنها أنثى » ويكون قول الحق : « والله أعلم بما وضعت » هو جملة اعتراضية ويكون تمام كلامها « وليس الذكر كالأنثى » . أى أنها قالت : يارب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .

وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه ، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر ، إنه تصور أن الحق قد قال : أنت تريدان ذكرًا بمفهومك في الوفاء بالنذر ، وليكون في خدمة البيت ، ولقد وهبت لك الولود أنثى ، ولكنى سأعطي فيها آية أكبر من خدمة البيت ، وأنا أريد بالآية التي سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد ، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر .

إننى سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد في الدنيا إلى أن تقوم الساعة . ولأننى أنا الخالق ، سأوجد في هذه الأنثى آية لا توجد في غيرها ، وهى آية تثبت طلاقة قدرة الحق ، ولقد قلت من قبل : إن طلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية ، إن القدرة تخلق بأسباب ، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق هو خالق الأسباب أيضا .

إذن فهإدام الخالق للأسباب أراد خلقا بالأسباب فهذه إرادته . ولذلك أعطانا الحق القدرة على رؤية طلاقة قدرته ، لأنها عقائد إيمانية ، يجب أن تغل في بؤرة الشعور الإيماني ، وعلى بال المؤمن دائما . لقد خلق الله بعضا من الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن ، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم ، أما خلق الحق لآدم عليه السلام فقد خلقه بلا أسباب . ونحن نعلم أن الشيء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية ، فهإدام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، فسيجىء منها تكاثر .

إن الحق يقول :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٩)

(سورة الذاريات)

وعندما يجتمع الزوجان ، فهذه هي الصورة الكاملة ، وهذه الأولى في القسمة المنطقية والتصور العقلي ، وإما أن ينعدم الزوجان فهذه هي الثانية في القسمة المنطقية والتصور العقلي . أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثاني ، وهذه هي الثالثة في القسمة المنطقية والتصور العقلي ، أو أن ينعدم الزوج الثاني ويبقى الطرف الأول ، وهذه هي الرابعة في القسمة المنطقية والتصور العقلي .

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية . وجميعها جاء من اجتماع العنصرين ، الرجل والمرأة . أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة قدرته ليكون السبب . وكذلك تم خلق حواء من آدم . وأخرج الحق من لقاء آدم وحواء نسلًا . وهناك أنثى وهي مريم ويأتى منها المسيح عيسى بن مريم بلا ذكر . وهذه هي الآية في العالمين ، وثبتت قمة عقدية . فلا يقولن أحد : ذكرا ، أو أنثى ، لأن ثبة امرأة عمران في الطاعة أن يكون المولود ذكرا ، وشاء قدر ربكم أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمران في الطاعة ، لذلك قال : « وليس الذكر كالأنثى » . أي أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى .

وقالت امرأة عمران : « وإن سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة بأئوتها أن تكون في خدمة بيت الله فقد تمت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعة ، عابدة ، فسمتها « مريم » لأن مريم في لغتهم - كما قلنا - معناها « العابدة » .

وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان . إنه هو الذى يجعل الإنسان يتعدى على العبودية . إن الإنسان يريد أن يصير عابدا ، فيجىء الشيطان ليزين له المعصية . وأرادت امرأة عمران أن تحمى ابنها من نزغ الشيطان لأخا عرفت بتجربتها أن المعاصي كلها تأتى من نزغ الشيطان ، وقد سميتها « مريم » حتى تصبح « عابدة لله » . ولأن امرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدى كله لذلك قالت : « وإن أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

إن المستعاذ به هو الله ، والمستعاذ منه هو الشيطان ، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزيين المعاصي ، فهو يدخل مع المخلوق في عراك ، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك ، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يحنس أي يتراجع ، ووصفه القرآن الكريم بأنها « الخنافس » ، إن الشيطان إنما يفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيدا عن الله ، ولذلك قال الحق يُعَلِّمُ الإنسان :

﴿ وَإِنَّمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

إن الشيطان يزعد فرقا ورعدة من الاستعاذة بالله . وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة ، فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصي . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحىء الرجل أمراته ، ويحىء الأهل هو مظنة لمولود قد يحىء ، فيقول العبد : « اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني » (من دعاء رسول الله) .

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق « قلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذي يأتي بإذن الله » . ولذلك قالت امرأة عمران : « وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر ، ولكن كلمة « ذرية » تطلق على الواحد وعلى الاثنين ، وعلى الثلاثة أو أكثر . والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هي عيسى عليه السلام ، وتنتهي المسألة . وبعد دعاء امرأة عمران « وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » يحىء القول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ

عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

وقد عرفنا القبول الحسن والإيجاب الحسن ، أما قوله الحق : « وكفلها زكريا »
هكذا يعنى أن المسألة جاءت من أعلى ، إنه الرب الذى تقبل بقبول حسن ، وهو
الذى أنبأها نبأنا حسنا . إذن ، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله . والدليل
على ما حدث عند كفالة مريم . لقد اجتمع كبار القوم رغبة فى كفالتها وأجروا بينهم
قرعة من أجل ذلك . وساعة تجد قرعة ، أو إسهما . فالتاس تكون قد خرجت من
مراداتها المختلفة إلى مراد الله . فعندما نختلف على شيء قلنا نجرى قرعة ،
ونخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج سهمه ، ويلجأ
الناس فذا الأمر ، ليمتصوا هوى البشر عن التدخل فى الاختيار ، ويصبح الأمر
خارجا عن مراد البشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما حدث عند كفالة زكريا
لمريم . ولذلك فالحق يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ اتَّخَذُوا صُورًا ۚ

(سورة آل عمران)

إذن ، فالكفالة لمريم أخذت لها ضجة ، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالتها ، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم ، عن أبيهم بكفل مريم ، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجا من : إشباع ، وأخت ، وحنة ، وهي أم مريم ، فهو زوج خالتها .

وكلمة « أقلامهم » قال فيها المفسرون : إنها القداح التي كانوا يصنعونها قديما ، أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة ، فرموها في البحر ، فمن طغى قلبه لم يأخذ رعاية مريم ، ومن غرق قلبه في البحر فهو الذي فاز بكفالة مريم . إذن فهم قد أخرجوا

عن مراداتهم إلى مراد الله .

والخروج عن المرادات ، والخروج عن الأمواء بجسم ليس له اختيار - كفداح القرعة - لا يوجد في النفس غصاصة . لكن لو كان هناك من سبأخذ رعاية مريم بالقوة والغضب فلا بد أن يجد نفوس الآخرين وقد اعتلات بالمرارة أو الغضب . ولذلك فقد كان سائدا في ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يساء الظن بأحد ، وهناك قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق ، وكان لابد لإنقاذها أن ينزل واحد إلى البحر ، وجاء القول الحكيم :

﴿ وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۚ إِذْ أَبْرَأَ إِلَىٰ آلِفُكٍ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾

(سورة الصافات)

كان لابد أن ينزل واحد من تلك السفينة ، لذلك تم إجراء قرعة بالسهم حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة ، وحتى لا تكون الغلبة للأقوياء ، ولكن القرعة حنت الناس من ظلم بعضهم بعضا . قالوا : لنجر قرعة السهام ، فمن يخرج سهمه فهو الذي يلقي به ، وكان على يونس عليه السلام أن ينزل إلى البسم فيلتقمه الحوت . ولأنه من المسبحين فإن الله ينقله . لقد قبل يونس عليه السلام اختيار الله ولم ينس نسيح الله فكان في ذلك الإنقاذ له . وهكذا نقرأ قول الله لنفهم أن كفاية ذكريا كانت باختيار الله . « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نبأنا حسنا وكفناها ذكريا » .

وكلمة « كفناها » أى تولى كل مهمة تربيتها ، هذه هي الكفالة ، ونحن نعرف أن الكفيل في عرفنا هو الضامن ، والضامن هو من يسد القرض عندما يعجز الإنسان عن السداد ، وقوله الحق : « وكفناها ذكريا » يعطينا المعنى الواضح بأن ذكريا عليه

السلام هو الذي قام برعاية شئون مريم .

ويتابع الحق الكريم قوله : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا »
أنه لم يدخل مرة واحدة ، بل دخل عليها المحراب مرات متعددة . وكان زكريا عليه
السلام كلما دخل على مريم يجد عندها الرزق ، ولذلك كان لابد أن يتساءل عن
مصدر هذا الرزق ، ولابد أن يكون تساؤه معبرا عن الدهشة ، لذلك يحىء القول
الحق على لسان زكريا : « أنى لك هذا » .

وساعة أن تسمع « أنى لك هذا ؟ » فهذا يدل على أنه قام بعمل محاسب على المكان
الذى توجد به مريم ، وإلا لظن أن هناك أحدا قد دخل على مريم ، وكما يقولون :
فإن زكريا كان يقفل على مريم الأبواب . وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة لظن أن
هناك من دخل وأحضر لها تلك الألوان المتعددة من الرزق .

والرزق هو ما ينتفع به - بالبناء للمجهول - وعندما يقول زكريا عليه السلام :
« أنى لك هذا » . فلنا أن نتذكر ما قلناه سابقا من أن أى إنسان وكله الله على جماعة
ويرى عندهم ما هو أزيد من الطاقة أو حدود الدخلى ، فلا بد أن يسأل كلاً منهم :
من أين لك هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت والمجتمعات إنما يأتى من عدم الاهتمام
بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟

إن الذى يدخل بيته ويجد ابنته ترتدى فستانا مرتفع الثمن وفوق طاقة الأسرة ،
أو يجد ابنته قد اشترى شيئا ليس فى طاقة الأسرة أن تشتريه ، هنا يجب أن يتوقف
الأب أو الولي ليسأل : من أين لك هذا ؟ إن فى ذلك حماية لأخلاق الأسرة من
الأنهار أو التحلل . فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون فى كفالتهم : « من
أين لك هذا ؟ » لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب للفساد
الامر .

وقول زكريا : « أنى لك هذا ؟ » هو سؤال محدد عن مصدر هذا الرزق ، ولننظر
إلى إجابتها : « قالت هو من عند الله » ثم لا تدع البديهة الإيمانية عند سيدنا زكريا
دون أن تذكره أنها لا تنسى حقيقة واضحة فى بؤرة شعور كل مؤمن : « إن الله يرزق

من يشاء بغير حساب « وأثارت هذه المسألة في نفس زكريا نوازع شتى ؛ إنها مسألة غير عادية ، لقد أخبرته مريم أن الرزق الذي عندها هو من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله هو القادر على أن يقول : « كن » فيكون .

وهنا ذكر زكريا نفسه ، وكان نفسه قد حدثته : « إذا كانت للقدرة طلاقة في أن تفعل بلا أسباب ، وتعطي من غير حساب ، فأنا أريد ولدا يختلفني ، رغم أنني على كبر ورغم بلوغى من السن عتياً ، ومراق عاقر . إن مسألة الرزق الذي وجده زكريا كلها دخل على مريم هي التي نهت زكريا إلى ما يمتنى ويرغب .

ونحن نعلم أن المعلومات التي تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة ، ولكن لا يستقر في بؤرة الشعور إلا الذي يصر عليه الإنسان ، وهناك فرق بين معلومات توجد في بؤرة الشعور . ومعلومات في حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم ، فلما وجد زكريا الرزق المتنوع عند مريم وقالت له عن مصدره : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » - هنا تسأل زكريا : كيف فأتني هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا :

هَٰذَا نَذَارٌ لِّكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ

إنها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيفظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، وما دام قد قال هذا القول فلا بد أنه قد صدق مريم في قضيتها ، بأن هذا الرزق الذي يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر في التصديق ، هو أنه لا بد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التي توجد عند مريم ليست في بيته ، أو ليست في أوانها ؛ وكل ذلك في المحراب .

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة . يقول الحق :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَعْتِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ^٤ أَعْمَلُوا ^٥ عَالٍ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة سبا)

أو « المحراب » وهو مكان الإمام في المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم ، كالمبلىحات التي تقام في بعض المساجد . وماذا مريم قد أخبرت زكريا وهي في المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية في بؤرة شعوره ، فهذا يكون تصرفه ؟ هنا دعا زكريا أثناء وجوده في المحراب - « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » إنه هنا يطلب الولد . ولكن لابد لنا أن نلاحظ ما يلي :

- هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو « عزوة » أو ذكرا ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة . وفي قول زكريا الذي أورده الحق :

﴿ يَرْثِي وَيُورِثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ ﴾

(من الآية ٦ سورة مريم)

أنى أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد . لقد طلبه لمهام كبيرة ، وفول زكريا : « رب هب » تعنى أنه استعطاء شيء بلا مقابل ، إنه يعترف . أنا لیس لی المؤهلات التي تجعل لي ولدا ، لأن كبير السن وامرأت عاقر ، إذن فعطاؤك يا رب لي هو هبة وليس حقا ، وحتى الذي يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلا بد أن يعرف أن عطاء الله له بظل هبة ، فإياك أن تظن أن احتمال الأسباب والشباب هي التي تعطى الذرية ، إن الحق سبحانه ينهنا ألا نقع في خديعة وغش أنفسنا بالأسباب .

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَ شَاءَ وَيَهَبُ

لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿١٩﴾ أَوْ يَرْزُقُهُمْ ذُنُورًا ۖ وَإِنَّهَا لَوَ تَجْعَلُ مِنْ يَشَاءِ عَاقِبَةً
 إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

(سورة الشورى)

إن في ذلك لقنا وإضحاً ونحذيراً محمداً ألا تفتتن بالأسباب ؟ إذن فلكل عطاء
 من الله هوية ، والأسباب لا تعطى أحداً ما يريد . إن زكريا يقول : « رب هب لي
 من لدنك » وساعة أن تقول من : « لدنك » فهو يعنى « هب لي من وراء
 أسبابك » . لماذا ؟ لأن الكل من الله .

ولكن هناك فرقا بين عطاء الله بسبب ، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث
 عشرين عاما ليتعلم ، وهناك إنسان يفيض الله عليه بموهبة ما ، ولذلك يقول أهل
 الإشرافات : إنه علم لدنى ، أى من غير تعب ، وساعة أن نسمع « من لدن » أى
 انعزلت الأسباب ، كان دعاء زكريا هو « رب هب لي من لدنك » وكلمة « هب »
 توضح ما جاء في سورة مريم من قول زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَكُونُ فِي غَائِمٍ مِمَّا تَكْنِى ۖ فَاصْبِرْ إِنِّي أَخَافُ ۖ وَأَن كُنْتُ بِرَبِّكَ
 غَافِلًا ۖ ﴾

(سورة مريم)

إن « هب » هى التى توضح لنا هذه المعانى ، هذا كان دعاء زكريا : « رب هب
 لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ؟ أم أن
 يجب الله الدعاء ؟ إنه يضع كل أمله في الله ، وكأنه يقول : إنك يارب من فور أن
 تسمعى استجيبى إلى طلبى بطلافة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يارب تعلم صدق نيتى في
 أننى أريد الغلام لأشئ من أمور كفرة العين ، والذكر ، والعز ، وغيرها ، إنما أريد
 الولد ليكون وارثا لي في حمل منهجك في الأرض ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ
أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا
وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٩)

هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكريا ؟ لا ، لأن جبريل عليه السلام الذي ناداه . ولماذا جاء القول الحق هنا بأن الملائكة هي التي نادته ؟ لقد جاء هذا القول الحق لفظن إلى شيء هو ، أن الصوت في الحدث - كالأصوات - له جهة يأتي منها ، أما الصوت القادم من الأعلى فلا يعرف الإنسان من أين يأتيه ، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتي من كل الجهات ، وكأن هناك ملكا في كل مكان .

والعصر الحديث الذي نعيشه قد ارتقى في الصوتيات ووصل لدرجة أن الإنسان أصبح قادرا على جعل المؤثر الصوتي يحيط بالإنسان من جهات متعددة ، إذن فقول الحق : « فنادته الملائكة » فهذا يعني أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات .

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ
مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٩)

(سورة النحل)

لقد نادته الملائكة في أروع لقاءاته مع ربه ، أو هو حينما دعا أخذ ما علمته الله للأنبياء إذا حزبه أمر قاموا إلى الصلاة . اليس طلبه من الله ؟ إذن فليقف بين يدي الله . وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أي شيء ، وتتأزم الأمور ، وتمنع الأسباب ، فليقم ويتوضأ وضوءا جديدا ويبدأ بالنية حتى ولو كان متروضا . وليقف بين يدي الله ، وليقل - إنه أمر يارب عز علي في أسبابك ، وليصل بخشوع ، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلم من هذه الصلاة إلا ويكون الفرج قد جاء . ألم نتفق عن رسول الله هذا السلوك البديع ؟ إنه كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؟

ومعنى حزيه أمر ، أى أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة خالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى السبب . وبدلاً من أن تلف وتدور حول نفسك ، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تتعب نفسك أيتها العبد ولك رب حكيم ؟ وقدما قلنا : إن من له أب لا يحملهما ، والذي له رب ليس أولى بالإطمئنان ؟

إن زكريا قد دعا الله في الأمر الذى حزيه ، وبمجرد أن دعا في الأمر الذى حزيه ، قام إلى الصلاة ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى ، إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب أن الله يشرك .

والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأت فلنر من الذى يخبر بالبشارة ؟ أمن يقدر علماً بإيجاده أم من لا يقدر ؟ فإذا كان الله هو الذى يشرك ، فهو الذى يقدر ، لذلك فالمبشرة قادمة لا محالة ، «إن الله يشرك بيحى» لقد قال له الله : سأعطيك . وزيادة على العطاء سباه الله بـ «يحى» وفوق كل ذلك : «مصدقاً بكلمة من الله» .

ولنتظر إلى دقة الحق حين يقول : «يحى مصدقاً» . هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله وما يعرفه من الطاعات سيسير في هذا الطريق وهو مصدق ، وهو سيقبلك كلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ، لأن سيدنا يحى هو أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام . وهو موصوف بالقول الحق : «وسبداً وحضوراً ونبياً من الصالحين» . أى ممنوعاً عن كل ما حرم عليه ، أو ممنوعاً عن قمة الغرائز وهى الشهوة ، وهو نبي ، أى قدوة في اتباع الرسول الذى يحى ، في عصره ، لقد دعا زكريا ، وقام ليصلى ، وتلقى البشارة بيحى ، وهنا ارتجت الأمور على بشرية زكريا ، ويصوره الحق بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ
الْكِبَرُ وَأَمْرَاقِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٠﴾

إن زكريا - وهو الطالب - يصيبه التعجب من الإستجابة فيستأجل : كيف يكون ذلك ؟ والحق يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائماً تكون في دائرات التلويح ، وليست في دائرات التمكين . وذلك ليعطى الله لخلقهم الذين لا يهتدون إلى الضراط المستقيم الأسوة في أنه إذا ما حدث له ابتلاء فعليه الرجوع إلى الله ، فيقول زكريا : « أتى بكون لي غلام وقد بلغت الكبرى وإمرأى عاقراً » .

إن بلوغ الكبر ليس دليلاً على أنه عاجز عن الإنجاب لأنه قد يكون كبير العمر ، وقادراً على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمراً عسيراً مهما بلغ من العمر إن لم يكن عاقراً ، ولكن المرأة هي العنصر المهم ، فإن كانت عاقراً ، فذلك قمة العجز في الأسباب . ولو أن زكريا قال فقط : « وإمرأى عاقرة » لكان أمراً غير مستحب بالنسبة لزوجته ، ولكن معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهي غير القادرة .

إنه أدب النبوة وهو أدب عال ، لذلك أوردناها من أولها : « وقد بلغت الكبر وإمرأى عاقرة » ونرددة القول في : « بلغت الكبر » ، إنه لم يقل : « بلغت الكبر » بل يقول : إن الكبر هو الذي جاءني ولم أنجى ، أنا إلى الكبر ، لأن بلوغ الشيء ، يعني أن هناك إحساساً ورغبة في أن تذهب إليه ، وذكر زكريا « وإمرأى عاقرة » هو توضيح لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة ، لقد أورد كل الخواص البشرية ، وبعد ذلك يأتي القول الفصل : « قال كذلك الله يفعل ما يشاء » إنها طلاقة القدرة التي فوق الأسباب لأنها خالقة الأسباب . ويقول زكريا :

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا

وَسَمِّحْ بِالْعِشْيِ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

إن زكريا يطلب علامة على أن القول قد انتقل إلى فعل .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾
 ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (١)
 (سورة مريم)

لقد كان هذا القول تأكيداً لاشك فيه ، فبمجرد أن قال الرب فقد انتهى الأمر .
 فماذا يريد ذكرى من بعد ذلك ؟ إنه يطلب آية ، أى علامة على أن بحينى قد تم
 إيجادها في رحم أمه ، ومادامت المرأة قد كبرت فهي قد انقطع عنها الحيض ، ولا بد أنه
 عرف الآية لأنه يعرف مسبقاً أنها عاقرة . لكن ذكرى لم يرغب أن يفوت على نفسه
 لحظة من لحظات هبات الله عليه ، ومادام الحمل قد حدث فهذا كانت استغاثه
 ذكرى ، لا تتركى يارب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسنة ، لأننى أريد أن
 أعيش من أول نعمتك على في إطار الشكر لك على النعمة ، فبمجرد أن يحدث
 الإحصاء لابد أن أحيى في نطاق الشكر ، لأن النعمة قد تآتى وأنا غير شاكر .

إنه يطلب آية لعيش في نطاق الشكر ، إنه لم يطلب آية لأنه يشك - معاذ الله - في
 قدرة الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا
 ومعها الشكر عليها ، والذي يعطينا هذا المعنى هو القول الحق : « قال آيتك ألا
 تكلم الناس ثلاثة أيام إلا زمرا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار » . لابد أن
 معناها أنه يرغب في الكلام فلا يستطيع .

إن هناك فرقاً بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام .
 ومادامت الآية هبة من الله . فالحق هو الذى قال له : سأمنعك من أن تتكلم ،
 فساعة أن تجد نفسك غير قادر على الكلام فأعرف أنها العلامة ، وستعرف أن تتكلم
 مع الناس زمرا ، أى بالإشارة ، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن الله علم
 عن عبده أنه لا يريد أن تمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها ، فإننا
 نعلم أن الله سينطقه . . « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار » .

لقد أراد ذكرى أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكراً ، وجعل كل وقته
 ذكراً ، فلم يشغل بالناس أو بكلام الناس ، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه
 - سبحانه - عن ذكرى عندما طلب الآية ليصحبها دائماً يشكر الله عليها ، إن قوله :

« واذكر ربك كثيرا » تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس ، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس ، وكان الله يريد أن يقول له : مادمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر .

والذكر مطلقا هو ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفاته الكمال له ، والنسيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أن يحدث من سواه ، فسبحان الله ، معناها تنزيه لله ، لأنه القادر على أن يفعل ما لا تفعله الأسباب ولا يقدر أحد أن يصنعه . إنه يريد أن يشكر الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب . تلك اللفتة . التي جاءت من قبل من مريم لزكريا .

وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكوتها تنطق بهذه العبارة دلالة على أن الله مهد لها بالرزق ، بحيثها من غير زكريا ، بأنها ستأتي بشيء من غير أسباب . وكان التجربة قد أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ، لأنها ستعرض لشيء يتعلق بعرض المرأة ، فلا بد أن تعلم مسبقا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وبدون أسباب . فإن جاءت بولد بدون سبب من أبوة . فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : مادام الله يرزق من غير حساب ويأتى بالأشياء بلا أسباب . فأننا قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب من رب أن يهينى غلاما ؟ إذن فمقولة مريم : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » قد لفتت زكريا ، ونهت إيمانا موجودا في أعماقه وحاشية شعوره ، ولا نقول أوجدت إيمانا جديدا لزكريا بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولكنها أخرجت القضية الإيمانية من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا : مادام الأمر كذلك . فأننا أسأل الله أن يهينى غلاما . . وقول زكريا : « هب لى من لدنك ذرية طيبة » دل على أنه وزوجته لا يملكان اكتساب الأبوة والأمومة ولذلك طلب الهبة من الله . . والهبة شيء بدون مقابل .

فلما سأل الله ذلك استجاب الله له ، وقال له سبحانه : سأهبك غلاما بدون أسباب من خصوبتك في التلقيح أو خصوبة الزوجة في الحمل ، ومادامت المسألة ستكون بلا أسباب وأنا - الخالق - سأتولى الإيجاب بـ « كن » ولنعنى سام شريف سأمنحكهم شيئا آخر تقومون به أنتم معشر الآباء والأمهات - عادة - إنه تسمية

المولود . فافترض الحق عليهم نعمة أخرى وهي تسمية المولود بعد أن وهبه لها . . . هنا وقفة عند الغبة بالاسم .

﴿ فَتَادَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يَبَشِّرُكِ بِمِثْلِ بِكْلِكِ ۖ

مِنْ اللَّهِ وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

حين يولد للناس ولد فهم يسمونه ، فالنسمية أمر شائع في عادات الناس . ولكن من يهمهم أمر الوليد حينها يقبلون على تسميته ، فهم يحاولون أن يتفاهلوا ، فيسموه اسما يرجون أن يتحقق في المسمى ، فيسمونه « سعيدا » أملا في أن يكون سعيدا ، أو يسمونه « فضلا » أو يسمونه « كريما » . إنهم يأتون بالاسم الذي يحبون أن يحدوا وليدهم على صفته ، وذلك هو الأمل منهم ، ولكن أتاق المقادير على وفق الأمال ؟

قد يسمونه سعيدا ، ولا يكون سعيدا . ويسمونه فضلا ، ولا يكون فضلا . ويسمونه عزا ، ولا يكون عزا . ولكن ماذا يحدث حين يسمي الله سبحانه وتعالى ؟ لا بد أن يختلف الموقف تماما ، فإذا قال اسمه « يحيى » دل على أنه سيعيش . وقديما قال الشاعر حينما تفاءل بتسمية ابنه يحيى :

فسميته يحيى ليحيا

فلم يكن لرد قضاء الله فيه سبيل

كان الشاعر قد سمى ابنه يحيى أملا أن يحيا ، ولكن الله لم يرد ذلك ، فهات الابن . لماذا ؟ لأن المسمى من البشر ليس هو الذي يحيى ، إن المسمى إنسان قدرته عاجزة ، ولكن « المحيى » له طلاقة القدرة ، فحين يسمي من له طلاقة القدرة على إرادة أن يحيا فلا بد من أن يحيا حياة متميزة ؟ وحتى لا نفهم أن الحياة التي أشار الله إليها بقوله : « اسمه يحيى » بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة . لأن الرجل حينما يسمي ابنه « يحيى » يأمل أن يحيا الابن متوسط الأغمار ، كما يحيا الناس ستمين عاما ، أو سبعين ، أو أى عدد من السنوات مكتوبة له في الأزل .

لكن الله حينما يسمي « يحيى » فإنه لا يأخذ « يحيى » على قدر ما يأخذه الناس ،

بل لا بد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، ويهيء له الحق من خصومه ومن أعدائه من يقتله ليكون شهيدا ، وهو بالشهادة يصير حيا ، فكأنه يحيا دائما ، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وهكذا أراد الله ليعلم أن يحيا كحياة الناس ، ويحيا حياة أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة ، وأيضا نأخذ ملحظا في أن زكريا حينما بشر بأن الله سيهبه غلاما ويسميه يحيى ، نجده قد استقبلها بالعجب . كيف يستقبل زكريا مسألة الرزق بالولد متعجبا مع أنه رآها في الرزق الذي كان يجده عند مريم ؟ « يرزق من يشاء بغير حساب » .

ولنا أن نقول : أكنت تحب أن يمر مثل هذا الأمر الخارق للعادة والخارق للناموس على سيدنا زكريا كأنه أمر عادي لا يندهش له ولا يتعجب ؟ لا ، لا بد أن يندهش ويتعجب لذلك قال : « إني أنى يكون لى غلام » . فكان الدهشة لفقته إلى أنه ستأتى أبة عجيبة ، ولو لم تكن تلك الدهشة لكأنت المسألة وثيقة وكأنها أمر عادي . إذن ، فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذى خصه الله به . وأيضا جاءت المسألة على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل : « وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » .

إن المسألة كلها تفضل وهبة من الله . فلما جاءت البشارة ، لم يقل الله له : إبنى سأهبك الغلام واسمه يحيى من امرأتك هذه ، أو وأنت على حالتك هذه . فبئسكك ويتردد ويقول : أنرى بأن الغلام الذى اسمه « يحيى » منى وأنا على هذه الحالة ، امرأتى عاقر وأنا قد بلغت هذا الكبر ، أو ربما ردتنا الله شيئا حتى نستطيع الإنجاب ، أو تأتى امرأة أخرى فأتزوجها وأنجب .

إذن فالعجب فى الغيبة التى سيصير عليها الإنجاب فقوله : « إني يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » هذا التساؤل من زكريا يهدف به إلى معرفة الغيبة أو الحالة التى سبأت بها الإنجاب . لأن الإنجاب يأتى على حالات متعددة . فلما أكد الله ذلك قال : « كذلك » ماذا تعنى كذلك ؟ إنها تعنى أن الإنجاب سبأت منك ومن زوجك وأنتما على حالكما ، أنت قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتك عاقر ، لأن العجيبة تتحقق بذلك ، أكان من المعقول أن يرددهما الله شيئا حتى يساعدها أن يهبها الولد ؟ لا . لذلك قال الحق : « كذلك الله يفعل ما يشاء » . أى كلما أتمها ، وعلى حالكما .

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام في نظر الناس مرضا لا ، إنه ليس كذلك ، لأن الحق يقول له : « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار » . إن الحق يجعل زكريا قادرا على التسبيح ، وغير قادر على الكلام . وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إنه اللسان الواحد ، غير قادر على الكلام ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه - أيضا - يصبح قادرا فقط على التسبيح ، وذكر الله بالعشي والإبكار ، ذكر الله باللسان ويسمعه الناس ، وذلك بيان لطلاقة القدرة .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى مسألة أخرى تتعلق بمريم ، لأن مريم هي الأصل في الكلام ، فالرزق الذي كان يأتيها من الله بغير حساب هو الذي نبه سيدنا زكريا إلى طلب الولد ، وجاء الحق لنا بقصة زكريا والولد ثم عاد إلى قصة مريم :

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ
وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾

« وإذا قالت الملائكة » المراد بها جبريل عليه السلام ، والسبب في أن الحق يورد ذلك به قالت الملائكة ، لأن كلام المتكلم - أي الإنسان - له - كما قلنا - زاوية انطلاق يأتي من جهتها الصوت . وتستطيع أن تتأكد من ذلك عندما يجيء لك صوت ، فأنت تجد ميل أذنك لجهة مصدر الصوت ، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليميني فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال . لكن المتكلم هنا هو جبريل عليه السلام ، ويأتي صوته من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبا ، لهذا جاء الكلام منسوبا إلى الملائكة .

فماذا قال جبريل ؟ قال جبريل مبلغا عن رب العزة : « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » وما الاصطفاء ؟ إن الاصطفاء اختيار واجتباء ، وهو ماخوذ

من الصفر أو البياض ، أى الشيء الخالص من الكدر . وعادة تؤخذ المعاني من المحسّات ،
وعندما تقول الماء الصّافى أى الماء غير المكدر ، أو كما يقول الحق :

﴿ وَأَنْهَرُ مِنْ عَيْلٍ مُصَفًّى ﴾

(من الآية ١٥ من سورة محمد)

وعندما يقول الحق : « إن الله اصطفاك وظهرك واصطفاك على نساء العالمين »
نحن هنا أمام اصطفاءين ، الاصطفاء الأول ورد دون أن تسبقه كلمة « على »
والاصطفاء الثانى تسبقه كلمة « على » ، والمقصود بالاصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أن
الله ميزها بالإيمان ، والصلاح والخلق الطيب ، ولكن هذا الاصطفاء الأول جاء
بجردا عن « على » أى أن هذا الاصطفاء الأول لا يمنع أن يوجد معها فى مجال هذا
الاصطفاء آخرون ، بدليل قول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم أورد الحق سبحانه أنه طهرها ، وجاء من بعد ذلك بالاصطفاء الثانى المسبوق
بـ « على » فقال « واصطفاك على نساء العالمين » إذن فهذا خروج للرجال عن دائرة
هذا الاصطفاء ، ولأن يكون مجال الاصطفاء موضوعا يتعلق بالرجولة ، فهى مصطفاة
على نساء العالمين ، فكانه لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها هذا الاصطفاء . لماذا ؟
لأنها الوحيدة التى ستلد دون ذكر ، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد .

وقوله الحق : « واصطفاك على نساء العالمين » هذا القول يجب أن ينبه فى نفسها
سؤالا هو : ما الذى تمناز هى به عن نساء العالمين ؟ إن الذهن يشغل بهذا الأمر ،
ويشغل على أمر من وظيفة الأنثى ، ولننضم هذه إلى قول الحق على لسانها : « إن الله
يرزق من يشاء بغير حساب » ونجد أن هذه كلها إنباسات للمحدث الذى سأتى من
بعد ذلك ، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها ، فلا بد أن يهد الله له تمهيدا مناسباً
حتى تتأكد من أن هذه المسألة ليس فيها شيء يחדش العرض أو يחדش الكرامة .
« واصطفاك على نساء العالمين » ولنا أن نسأل : ما نتيجة الاصطفاء ؟

لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار ، ويقتضى « مصطفى » بفتح الفاء . ويقتضى « مصطفى » بكسر الفاء . والمصطفى هو الله ، لكن ما علة الاصطفاء ؟ إن الذى يصطفيه الله إنما يصطفيه لمهمة ، وتكون مهمة صعبة . إذن هو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه فى الناس . كان الله قد خصه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان . ليشيع صفاؤه فى كل ما اصطفى عليه . لقد اصطفى الله الكعبة من أجل ماذا ؟ حتى يتجه كل إنسان إلى الكعبة . إذن فقد اصطفاها من أجل البشر وليشيع اصطفاؤها فى كل مكان آخر . ولذلك قال الحق عن الكعبة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١)

(سورة البقرة)

وإذا اصطفى الحق سبحانه زمانا ، كما صطفاه لرمضان ، فليماذا اصطفاؤه ؟ ليشيع صفاؤه ، وصفاؤه ما أنزل فيه فى كل زمان . إذن فاصطفاه الحق للشخص أو للمكان أو للزمان هو لمصلحة بغية الناس أو الأمكنة أو الأزمنة ، لماذا ؟ لأن أحدا من الخلق ليس ابنا لله ، وليس هناك مكان أولى بمكان عند الله . ولكن الله يصطفى زمانا على زمان ، ومكانا على مكان ، وإنسانا على إنسان ليشيع اصطفاؤه المصطفى فى كل ما اصطفى عليه . إذن فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى ، أو لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ، لأنه جاء لمصلحتهم ، والحق سبحانه يقول :

﴿ يَمْزِجُ مَقْنِي رَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي ﴾

مع الركعتين (٤٣)

فكان ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول ، والاصطفاء الثانى ، يستحق منها القنوت ، أى العبادة الخالصة الخاشعة الخاشعة . وقد يقول قائل : ولماذا يصطفى

الله واحدا ، ليسيع اصطفاؤه في الناس ؟ لأن الاصطفاء من الحق لابد أن يبرنه من كل ما يمكن أن يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المرضية ، والحق - سبحانه - يريد أنموذجا لا يقع منه إلا الخير ، والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر وجعله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسول القدوة الإيمانية في ثلاث وعشرين سنة هي مدة الرسالة المحمدية .

والحق يقول لمريم على لسان الملائكة : « يا مريم اقنتي لربك » إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديرة لربها ، وكلمة « لربك » تعني التبرية ، فكان الاصطفاءات هي من نعم الله عليك يا مريم ، وتستنحق منك الفتوة « واسجدي واركعي مع الراكعين » وه اسجدي « أي بالقي في الخضوع ، والخضوع ، بوضع الجبهة التي هي أشرف شيء في الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

لكن أيعفيها هذا اللون من الخضوع عما يكون من الركوع لله مع الناس ؟ لا ، إنه الأمر الحق يصدر لمريم « واركعي مع الراكعين » ولا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه في الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعي مع الراكعين ، فلا يحق لك يا مريم أن تقول : « لقد أمرني الله بأمر » أعلى ولن أنقل الأمر الأدنى .

إن الحق بأمرها أن تكون أيضا في ركب الراكعين مثلها نقرأ قوله الحق عن الكفار :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝١١﴾

(سورة المذثر)

إنهم كفار ، فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ، ولم يكونوا مسلمين في سلك من يصل ، واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله . وهنا يسأل سائل كريم : لماذا قال سبحانه وتعالى في خطابه لمريم : « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » ولم يقل الحق : « مع الراكعات » ؟ هذا هو السؤال .

وإجابة على هذا السؤال تحب أن نعهد تمهيدا بسيطا إلى فلسفة الأسماء في وضعها على مسمياتها . إن الأسماء ألفاظ من اللغة تعين مسميها . والمسميات مختلفة ، فمنها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التي تدل على عالم الغيب كالجن ، والملائكة ، وكل ما غيب الله . هذه الأسماء تدل على معانيها .

وهدى الله سبحانه البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ، فكيف كان باستطاعة آدم التعبير عن معطيات الأسماء بمسمياتها ؟ إذن لا بد أن يوجد لكل شيء اسم حتى نستطيع حين تفاهم على الشيء أو الكائن بأن نذكر لفظا واحدا موجزا يشير إليه . ولولم يكن يذكر هذا فكيف كان باستطاعة إنسان أن يتكلم مع إنسان آخر عن الجبل مثلا ؟ أكان على المتكلم أن يأخذ السامع إلى الجبل ويشير إليه ؟ أم يكفي أن يقول له لفظ « جبل » حتى يستحضر السامع في ذهنه صورة لهذا المسمى ؟

إذن . . . فلسفة تعليم الحق للأسماء لنا أزاحت عنا عبا كبيرا من صعوبة التفاهم . ولولا ذلك لما استطعنا أن نتفاهم على شيء إلا إذا واجهنا الشيء وأشرنا إليه . فكلمة « جبل » وكلمة « صخر » وغيرها من الكلمات هي أسماء لمسميات . . . وعندما نتكلم على سبيل المثال عن أمريكا فإنني لن آخذ السامع إليها وأشير إليه قائلا « إن هذه هي أمريكا » ، لكن كلمة واحدة هي « أمريكا » تعطى السامع معنى للمسمى ، فتلحق الأحكام على مسمياتها . ومادامت المسألة هكذا فلا بد من وجود أسماء لمسميات ، هذه الأسماء علمها الله للإنسان حتى يتفاهم بها والإنسان أصله من آدم .

وكلمة « آدم » حينما نتكلم بها نجدها في النحر مذكرة ، والمذكر يقابله المؤنث . وقد خلق الحق الأعلى : الذكورة والأنوثة ، لأن من تزاوجهما سيخرج النسل . إذن فكان لا بد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد . فالذكر والأنثى ، هما بنو آدم ، ومنها ينشأ التكاثر . لكن العجيب أن الله حين سمي آدم ونطقناه اسما مذكرا وسمى « حواء » ونطقناه اسما مؤنثا ، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذي وجد منه الخلق هو « نفس » . لقد قال الحق :

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلَيْكَ رَقِيبًا ﴿١﴾

(سورة التين)

لقد سمى الحق آدم بكلمة نفس ، وهي مؤنثة ، إذن فليس معنى التانيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن « التذكير » هو فقط علامة لتضع الأشياء في مسمياتها الحقيقية وكذلك التانيث . إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا « نفس » وهي كلمة مؤنثة ، وحينما تكلم الحق سبحانه كلاما آخر عن الخلق قال :

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وكلمة « ناس » تعني مجموع الإنسان . وهكذا نعرف أن كلمة « إنسان » تطلق مرة على الذكر ، ومرة أخرى على المؤنث . إذن فالحق قد أورد مرة لفظا مذكرا ، ومرة أخرى أطلق لفظا مؤنثا ، وذلك حتى لا نقول : إن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط ، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لتعارف بها .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

ومعنى « لتعارف » أي أن يكون لكل منا اسم يعرف به عند الآخرين . وفي حياتنا العادية - والله المثل الأعلى - نجد رجلا عنده أولاد كثيرون ، لذلك يطلق على كل ابن اسمها ليعرفه المجتمع به ، والعجيب في هذه الآية الكريمة : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . أننا نجد كلمة « شعوبا » مذكرة وكلمة « قبائل » مؤنثة . إذن فلا تمايز بالأحسن ، ولكن الكلمات هنا مسميات لتعارف . والحق الأعلى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَسِيرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

إذن فما وضع النساء الثلاثي آمن ؟ إنهن يدخلن ضمن « الذين آمنوا » . ولماذا أدخل الله المؤمنات في المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جاء منه فرعاً . إذن فالمؤنث هو الذي يدخل مع المذكر في الأمور المشتركة في الجنس .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ﴾

(سورة البقرة)

وهذا يعني أن « المؤمنات » عليه أن يدخل في تكليف العبودية لله .

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس . وبشوعية الذكر والأنثى . وفي الأمر الخاص بالمرأة ، يحدد الله المرأة بذاتيتها . فالخلق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ۝ ﴾

(سورة الاحزاب)

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد : الرجل والمرأة ، زوج وزوجة ، فصلاً نجد زوجاً يريد تطليق زوجته ، فيأت الحق بتفصيل يوضح ذلك . وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فيها هوذا قوله الحكيم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّسَاءُ اتَّقِيْنَ كَإِْحِدٍ مِّنَ النَّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

الْجَنَّةِ الْأُولَى وَأَمِنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأُطْمِئِنَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكَ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٢٢﴾

(سورة الاحزاب)

إن كل ما جاء في الآية السابقة يحدد المهام بالنسبة لئساء النبی صل الله عليه وسلم ، فالخطاب الموجه يحدد الأمر بدقة « لستين » و « اتقین » ، « لا تخضعن » ، « وقرن » ، « لا تبرجن » . الحديث في هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتي لها بضميرها مؤنثا .

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق يأتي بالأمر شاملا للرجل والمرأة ويكون مذكرا ، ولذلك فعندما قالت النساء لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة ، جاء قول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْخَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٢٥﴾

(سورة الاحزاب)

هكذا حسم الحق الأمر . قال سبحانه تأكيدا لذلك :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ﴿٢٦﴾

(سورة النساء)

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان في وصف واحد هو : « وهو مؤمن » إذن فعندما يأتي الأمر في المعنى العام الذي يطلب من الرجل والمرأة فهو يضم المرأة في الرجل

لأنها مبنية على السر والحجاب ، مطمورة فيه . داخله معه . فإذا قال الحق سبحانه لمريم : « وأركمى مع الراكمين » فالركوع ليس خاصا بالمرأة حتى يقول : « مع الراكعات » ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين ، وبعد ذلك يقول الحق :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١١﴾

وقد قلنا من قبل : إن كلمة « نبا » ، لا تأتي إلا في الخبر العظيم . والغيب هو ما غاب عن الحس . وهناك « غياب عن الحس » من الممكن أن يدركه مثلك . وهناك غياب عن الحس لا يدركه مثلك . وقلنا من قبل : إن حجب الغيب ثلاثة : مرة يكون الحجاب في الزمن ماضيا ، ومرة مستقبلا ، ومرة ثالثة يكون الحجاب في المكان . لماذا ؟ لأن ظروف الأحداث زمان ومكان . فإذا أنبأ منى بخبر مضى زمنه فهذا اختراق للحجاب الزمن الماضي ، فالحدث يكون قد وقع من سنوات وصار ماضيا ، وإذا أخبرن به الآن فهذا يعنى أنه اخترق حجاب الزمن الماضي ، وإذا قال لى عن أمر سيحدث بعد سنتين من الآن فهذا اختراق حجاب الزمن المستقبل ، وهب أنه أخبرك نبأ معاصر لزمانك الآن . نقول : هنا يوجد حجاب المكان ، فعندما أكون معكم الآن لا أعرف ما الحادث في مدينة أخرى غير التى نحن بها ، ورغم أن الزمن واحد .

لذلك فعلىنا أن نعرف ، أنه مرة يكون الحجاب حجاب زمان . . أى قد يكون الزمن ماضيا ، أو يكون الزمن مستقبلا ، وقد يكون حجاب مكان . فإذا كان الله نبي . ومنوله بهذا النبا ، فوسائل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث : لأن وسيلة العلم بالنبا أحد ثلاثة أمور : مشاهدة ، أو سماع ، أو قراءة .

والوسيلة الأولى وهي مشاهدة النبا بشرط أن يوجد في زمن هذا النبا ، والنبأ الذي أخبر الله به رسوله حدث من قبل بعث الرسول بمالا يقل عن ستة قرون . إذن فالمشاهدة كوسيلة علم بهذا النبا لا تصلح ؛ لأن النبا قد حدث في الماضي . قد يقول قائل : لعل الرسول صلى الله عليه وسلم قد قرأها ، أو سمعها . وبإقرار خصوم محمد صلى الله عليه وسلم أنه ليس بفارسي ، فامتعت هذه الوسيلة أيضا ، وبإقرار خصومة صلى الله عليه وسلم أنه لم يجلس إلى معلم فلم يستمع من معلم . إذن فلم يكن من سبيل لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النبا إلا بالوحي ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَّ يَأْتِهِمْ
يَكْفُلْ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ١١ ﴾

(سورة ال عمران)

وقلنا قديما إن الوحي ، هو إعلام بخفاء ؛ لأن الإعلام العادي هو أن يقول إنسان لإنسان خبرا ما ، أو يقرأ الإنسان الخبر ، أما الإعلام بخفاء فاسمه « وحي » . والوحي يقتضي « موحى » وهو الله ، « وموحى إليه » وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « وموحى به » وهو القرآن الكريم .

وإذا نظرنا إلى الإعلام بخفاء لوجدنا له وسائل كثيرة . إن الله يوحى . لكن الموحى إليه يختلف . الله سبحانه وتعالى يوحى للأرض :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأُتْرَجَّتِ الْأَرْضُ انْجَامًا ٢ وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا أَنَّ رَبَّكَ آوَحَىٰ لَهَا ٤ ﴾

(سورة الزلزلة)

إنه إعلام بخفاء ، لأن أحدا منا لم يسمع الله وهو يوحى للأرض ، والحق سبحانه يوحى للشعل ، ويوحى للملائكة ، ويوحى للأنبياء ، وهناك وحى من غير الله ، كوحى الشياطين .

﴿ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوكَ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(سورة الانعام)

وهناك وحي من البشر للبشر :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَتُحَرِّفُ الْكَلِمَ عُرُوجَهَا وَزُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

(سورة الانعام)

لكن الوحي إذا أطلق ، ينصرف إلى الوحي من الله إلى من اختاره لرسالة ، وما عدا ذلك من أنواع الوحي يسمونه : وحيًا لغويًا ، إنما الوحي الاصطلاحي وحي من الله لرسول ، إذن فوحي الله للأرض ليس وحيًا اصطلاحيا ، ووحي الله للنحل ليس وحيًا اصطلاحيا ، ووحي الله لأم موسى ليس وحيًا اصطلاحيا ، ووحي الله للحواريين ليس وحيًا اصطلاحيا ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَمَنَّا وَآشَهِدْ بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ ﴾

(سورة المائدة)

إن هذا لون من الوحي غير اصطلاحيا ، بل هو وحي لغوي ، أي أعلمهم بخفاء . لكن الوحي الحقيقي إن يُعلم الله من اختاره لرسالة ، وهذا هو الوحي الذي جاء للرسول صلى الله عليه وسلم . يقول الحق : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ

هكذا يخبرنا الحق أن الرسول تلقى هذا النبأ بالوحي ، فلم يقرأه ، ولم يشاهده ، ونحن نعرف أن خصوم رسول الله شهدوا أنه لم يقرأ ولم يستمع من معلم . وهكذا يخبرنا الحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودا مع قوم مريم حين القوا أقلامهم .

والقلم يُطلق على القلم الذي نكتب به ، أو يطلق القلم على القداح التي كانوا يقرعون بها إذا اختلفوا على شيء . وكانوا عندما يختلفون يحضرون قداحا ، ليقرعوا من يظفر بالشئ المختلف عليه ونسبها نحن القرعة ، والقرعة يقومون بإجرائها لإخراج الهوى من قسمة شائعة بين أفراد ، وذلك حتى لا يميل الهوى إلى هذا أو إلى ذاك مفضلا له على الآخرين ، ولذلك فنحن أيضا نجرى القرعة فنضع لكل واحد ورقة .

إذن فلا هوى لأحد في إجراء قسمة عن طريق القرعة ، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله لأن الورقة لا هوى لها ، ولما اختلف قوم مريم على كفالتها ، واختصموا حول من الذي له الحق في أن يكفلها . هنا أرادوا أن يعزلوا الهوى عن هذه المسألة ، وأرادوا أن تكون فدرية ، ويكون القول فيها عن طريق قدح لا هوى له . وهذا القدح سيجرى على وفق المقادير . أما « أقلامهم » فقد تكون هي القداح التي يقتسمون بها القرعة ، أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة تبركا .

وتساءل البعض ، ما المقصود بقول الحق : « إذ يلقون أقلامهم » وأين تم إلقاء هذه الأقلام ؟ قيل : إنها ألقيت في البحر وإذا ألقيت الأقلام في البحر فمن الذي يتميز في ذلك ؟ قيل : إنه إذا ما أطل قلم بسنه إلى أعلى فصاحبه الفائز ، أو إذا غرقت كل الأقلام وطفا قلم واحد يكون صاحبه هو الفائز . ولابد أنهم اتفقوا على علامة أو سمة ما تميز القلم الذي كان لصاحبه فضل كفالة مريم . « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

وكلمة « إذ يختصمون » تدل على حرارة المنافسة بين القوم شوقا إلى كفالة مريم ، لدرجة أن أمر كفالتها دخل في خصومة ، وحتى تنتهي الخصومة لجئوا إلى الاقتراع بالأقلام .

وننتقل الآن إلى مرحلة أخرى .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ
بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١٥)

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم هي قوله الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . وبذلك تعرفت على طلاقة قدرة الله ، والمرحلة الثانية هي سماعها للحكاية ذكرى ويحيى وتأكيد الحق لها أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وفي ذلك أمر يتعلق بالنساء ، وكان ذلك إيناساً من الحق لها ، وتدخل مريم إلى مرحلة جديدة .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة آل عمران)

والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل البعض ؟ ماذا يقصد الحق بقوله : « كلمة منه » ؟ والإجابة هي : أن الحق سبحانه وتعالى يزاول سلطانه في ملكه بالكلمة ، لا بالعلاج ، فالخلق سبحانه علمنا ذلك بقوله :

﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

وهذا القول هو مجرد إيضاح لنا وتقريب لأنه لا يوجد عندنا أقصر في الأمر من كلمة « كن » ، إن قدرته فاعرة بطلاقتها أن نسبق نطقنا بالكاف وهي الحرف الأول من « كن » ، ولكن الحق يوضح لنا بأقصر أمر على طريقة البشر ، إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له كن فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور ، و« كن » هي مجرد إظهار الأمر للخلق ، هكذا نفهم معنى بشارة الحق لمريم بـ « كلمة منه » ويقول الحق : « اسمه المسيح عيسى ابن مريم » . إنها ثلاثة أسماء ، « المسيح » ، « عيسى » ، « ابن مريم » .

ما معنى المسيح ؟ قد يكون المسموح من الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يحس على المريض فيبرأ ، أو المسيح المبارك . . . أما عيسى . فهذا هو الاسم ، والمسيح هو اللقب ، وابن مريم هي الكنية . . . ونحن نعرف أن العلم في اللغة العربية يأتي على ثلاثة أنواع : اسم أو لقب أو كنية . وابن مالك يقول : « واسماً أو كنية ولقباً » إن العلم على الشخص له ثلاث حالات . إما اسم وهو ما يطلق على المسمى أولاً . والاسم الثاني الذي أطلقناه عليه . إن كان بشعر برفعة صاحبه أو بفضيلة تسميه لقباً . أما ما كان فيه أب أو أم فيقال له : « كنية » وجاءت الثلاثة في عيسى « اسمه المسيح عيسى بن مريم » .

« المسيح » هو اللقب ، « عيسى » هو الاسم « و ابن مريم » هو الكنية . ونجى عيسى باللقب والاسم والكنية ستكون لها حكمة تظهر لنا من بعد ذلك . ويقول عنه الحق : « وجيها في الدنيا والآخرة » .

ونحن في حياتنا نستعمل كلمة فلان وجيه من وجهاء القوم ، والوجيه هو الذي لا يردده مستول للكرامة في وجهه ، ونحن نسمع في حياتنا اليومية . فلان لا يصح أن نسيباً له الخجل برفض أي طلب له . وكما يقول العامة : (هو الوجهة ده أحد يكسفه) إذن فالوجيه هو الذي يأخذ سمة وتميزاً بحيث يستحي الناس أن يردوه إذا كان طالباً ، وهناك إنسان آخر قد يسألك أو يسأل الناس ، فلا يبالي به أحد ، إنه يريق ماء وجهه وتنتهي المسألة .

إذن فقوله الحق في وصف عيسى بن مريم : « وجيها في الدنيا والآخرة » أي أن أحداً لا يردده إن سأل . لكرم وجهه ، فالإنسان يجمل أن يرد صاحب مثل هذه الكرامة ، لذلك نجد أن السائل قد يقول : أعطني لوجه الله . أي أنه يقول لك : لا تنظر إلى وجهي ، ولكن انظر إلى وجه الله ، لأن الله هو الذي جاء في الدنيا وخلقني ، ومادام قد جاء في الخالق إلى الدنيا فهو المتكفل برزقي ، فأنت حينها تعين على رزق من استدعاه الله إلى الوجود تكون قد أعطيت لوجه الله ، إنه الخالق الذي يرزق كل مخلوق له حتى الكافر .

إذن فعطاء الإنسان للسائل ليس عطاء لوجه السائل ، ولكنه عطاء لوجه الله . والحق يقول عن عيسى بن مريم : « وجيها في الدنيا والآخرة » وعرفنا كيف يكون

الإنسان وجيها في الدنيا ، فلماذا نص الحق على وجاعة عيسى في الآخرة ؟ وخصوصا أن كل وجوه المؤمنين ستكون ناضرة ، لقد نص الحق على وجاعة عيسى في الآخرة لأنه سوف يُسأل سؤالا يتعلق بالفضة الإيمانية :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١١٦﴾

(سورة المائدة)

إياك أن نظن أن هذا السؤال هو تفريع من الله لعيسى بن مريم . لا . إن الحق يريد أن يفرع من قالوا هذا الكلام . ولذلك يقول عنه الحق :

﴿وَأَنْتُمْ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُمْ وَأَنْتُمْ أَمْوَتْ وَأَنْتُمْ أُبْعَثُ حَيًّا ١١٧﴾

(سورة مريم)

لأن ميلاده كان له ضجة ، وبعض بني إسرائيل اتهموا والعباد بالله أمه مريم البتول . « يوم المات » . كلنا نعرف حكاية الصلب وكان لها ضجة . إنه لم يصلب ولكن صلب من خانه ووشى به فألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه . ويوم أبعث حيا يوم يسأله الله :

﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ١١٨﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

إنه عيسى ابن مريم الذي أنعم الله عليه بالسلام في هذه المواقف الثلاثة . ويتابع الحق فيصف عيسى ابن مريم بقوله : « وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » إن كلمة « من المقربين » تدل على الحق في عظمته ، فحين يفتن بعض البشر في واحد منهم قد يغضب بعضهم من الشخص الذي فتن الآخرون به مع أنه ليس له ذنب في ذلك .

والحق سبحانه . يعلمنا أن للمغالي جزاءه ولكن المغالي فيه نتجبه رحمة الغفار .

إن الحق يعلمنا أن فتنة بعض الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام لا تؤثر في مكانة عيسى عليه السلام عند الحق ، إنه مقرب من الله ، ولا تؤثر فتنة الآخرين في مكانته عند الله ويقول الحق .

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا

وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦﴾

الكلام : معناه اللفظ الذي ينقل فكر الناطق إلى السامع ، وقول الحق : « يكلم الناس في المهد » ، معناه أن المواجهة لعيسى عليه السلام في المهد هم الناس . و « المهد » هو ما أعد كفراش للوليد . ولقد أورد الحق « المهد وكهلا » رمزية لشيء ، وهي أن عيسى ابن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مرة أن يكون في المهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلا ، ومادام في عالم الأغيار فلا يصح أن يفتن به أحد ليقول إنه « إله » أو « ابن إله » .

ونفهم أيضا من « ويكلم الناس في المهد » سر وجود آية المعجزة التي وهبها له الله وهو طفل في المهد . لأن المسألة تعلقت بعرض أمه وكرامتها وعفتها ، فكان من الواجب أن تأتي آية لنمحو عتجا من الناس حين يرونها تلذ بدون أب لهذا الوليد أو زواج لها . وهذه المسألة لم نجد لها وجودا . مع أنها مسألة كان يجب أن يقال لأنهم يمجّدون نبيهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذه العجيبة ، إن كلام طفل في المهد لما كان أمرا عجيبا كان لا بد أنه سيكون محل حفظ وتداول بين الناس ، ولن يكتفى الناس برواية واحدة كلامه في المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ، ويرددون قوله .

والكلمة التي قالها عيسى عليه السلام في المهد لا تسعف من يصف عيسى عليه السلام بوصف يناقض بشرته ، لأن الكلمة التي نطق بها أول ما نطق : إني عبدالله ، فأخفوا هم هذه المسألة كلها لأن هذه الكلمة تنقض القضية التي يريدون

أن يضحوا فيها عيسى عليه السلام ، إن الحق يقول : « ويكلم الناس في المهد وكهلا » .

ونعرف أن الكلام في المهد أي وهو طفل وه كهلا أي بعد الثلاثين من العمر ، أي في العقد الرابع . والبعض قد قال : إن الكهولة . . بعد الأربعين من العمر . وهو قد حدث له في رواياتهم حكاية الصلب قيل أن يكون كهلا ، فإذا كان قد تكلم في المهد فيبقى أن يتكلم وهو كهل ، وقالوا إن حادثة الصلب أو عدم الصلب ، أو الاختفاء عن حس البشر قد حدثت قبل أن يكون كهلا ، إذن فلا بد أن يأتي وقت يتكلم فيه عيسى بن مريم عندما يصير كهلا ، وأيضا قوله الحق : « ويكلم الناس في المهد وكهلا » أي أنه تكلم في المهد طفلا ويتكلم كهلا ، أي ناضج النكرين ، وبذلك نعرف أن عيسى بن مريم فيه أغيار وفيه أحوال ، فإذا كنتم تقولون إنه إله فهل الألوهية في المهد هي الألوهية في الكهولة ؟

إن كانت الألوهية في المهد فقط فهي ناقصة لأنه لم يستمر في المهد ، وحدثت له أغيار ، ومادام قد حدثت له أغيار فهو محدث ، ومادام محدثا فلا يكون إلها ، وبعد ذلك يقول الحق عن عيسى ابن مريم : « ومن الصالحين » ما حكايتها ؟

إن العجيبة التي قال عنها الله : إنه يكلم الناس في المهد لم تكن باختياره ، وكلامه وهو كهل سيكون بالوحي ، أي ليس له اختيار فيه أيضا ، « ومن الصالحين » مقصود بها عمله ، أي الحركة السلوكية . لماذا ؟ لأنه لا يكفي أن يكون مبلغا ، ولا يكفي أن يكون حامل آية ، بل لابد أن يؤدي السلوك الإيمان .

ويقول الحق عل لسان مريم البتول :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾

قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا

يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

وتريد أن نقف وقفة ذهنية تدبرية عند قولها : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم
يمسسنى بشر » فلو أنها سكنت عند قولها : « أنى يكون لى ولد » لكان أمرا معقولا فى
نساؤها ، ولكن إضافتها « ولم يمسنى بشر » تثير سؤالا ، من أين أتت بهذا القول
« ولم يمسنى بشر » ؟ هل قال لها أحد : إنك ستلدن ولدا من غير أب ؟ إن الملائكة
لم تخبرها بذلك ، لذلك انصرف ذهنها إلى مسألة المس . إنها فطرة وفطنة المهياة
والمعدة للتلقى عن الله ، عندما قال لها : « المسيح عيسى ابن مريم » .

قالت لنفسها : إن نسبته بأمر الله هى لى ، فلا أب له ، لقد قال الحق : إنه
« ابن مريم » ولذلك جاء قولها : « ولم يمسنى بشر » ذلك أنه لا يمكن أن ينسب
الطفل للأم مع وجود الأب ، هكذا ترى فطنة التلقى عن الله فى مريم البتول . لقد
مر بها خرف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها وقالت لنفسها : إن الحمل يعيسى
لن يكون بوساطة أب ، وكيف يكون الحمل دون أن يمسنى بشر . وقال الخالق
الأكرم : « كذلك » أى لن يسك بشر ، ولم يقل لها : لقد نسبناه لك لأنك مندورة
لخدمة البيت ، ولكن الحق قال : « كذلك » تأكيدا لما فهمته عن إنجاب عيسى دون
أن يمسنها بشر . وتتجلى طلاقة القدرة فى قوله سبحانه : « الله يخلق ما يشاء » .

إنها طلاقة القدرة ، وطلاقة القدرة فى الإنسال أو الإنجاب أو فى عدم التكثير
بالنسبة للإنسان ، وطلاقة القدرة لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، ولو كانت
طلاقة القدرة متوقفة على إيجاد ذكورة وأنوثة فكيف خلق آدم أول الخلق ؟ إن طلاقة
القدرة فى الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، إنه الحق الأعلى القادر على أن
يخلق دون ذكورة أو أنوثة ، كخلقه لآدم عليه السلام ، ويخلق الحق سبحانه بواحد
منهما ، كخلقه سبحانه نوحا ويخلق عيسى عليه السلام ، ويخلق الخالق الأعلى
بالذكورة والأنوثة ، وهذه تتضح فى خلق جبهة الناس ، ولا تظنوا أن باجتماع
الذكورة والأنوثة يمكن أن يخلق الخلق ، فقد توجد الذكورة والأنوثة ولا يوجد
إنجاب ، ها هوذا القول الحق :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِيُظْهِرَهُمْ آيَاتِهِ وَلِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٥ ۝ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مِّنْ بَيْنِهِمْ عَقِبًا ۚ ۝﴾

إِنَّهُ عَزِيزٌ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

(سورة النور)

هذه هي إرادة الحق / إذن فلا تقبل : إن اكتمال عنصرى الذكورة والأنوثة هو الذى يحدث الخلق ، لأن الخلق يحدث بإرادة الحق . « كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب ، لكن الذى تخلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذى بيده أن يوجد بلا أسباب ، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب .

ويقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام :

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ﴿١٨﴾ وَالنُّورَ وَالْإِنجِيلَ ﴿١٩﴾

وساعة نسمع « يعلمه الكتاب » أفنحن نفهم أن المقصود بها الكتاب المنزل ، ولكن مادام الحق قد أتبع ذلك بقوله : « والنور والإنجيل » فلا بد لنا أن نسأل : إذن ما المقصود بالكتاب ؟ هل كان المقصود بذلك الكتاب الذى تقدمت عليه كالتزبور ، والصحف الأولى ، كصحف إبراهيم عليه السلام ؟ إن ذلك قد يكون صحيحاً ، ومعنى « يعلمه الكتاب » أن الحق قد علمه ما نزل قبله من زبور داود ، ومن صحف إبراهيم ، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى مكملها .

وبعض العلماء قد قال : أئز عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده . وبذلك يمكن أن نفهم « يعلمه الكتاب » أى القدرة على الكتابة . وما المقصود بقوله : إن عيسى عليه السلام تلقى عن الله بالإضافة إلى « يعلمه الكتاب » أنه تعلم أيضاً « الحكمة والتوراة والإنجيل » وكلمة الحكمة عادة تأتي بعد

كتاب منزل ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي يَوْمِنَا مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٤١﴾

(الآية ٢١ من سورة الاحزاب)

كتاب الله المقصود هنا هو القرآن الكريم ، والحكمة هي كلام الرسول عليه الصلاة والسلام . فالرسول له كلام يتلقاه ويبلغه ، ويعطيه الحق أيضا أن يقول الحكمة ، أما التوراة التي علمها الله لعيسى عليه السلام فقد علمها له الله ، لأننا كما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام جاءت لتكمل التوراة ، ويكمل ما انقصه اليهود من التوراة ، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع المبعوث إليه فهو بالنص القرآني :

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَآرِئُ
الْأَكْثَمَهُ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْقِ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٥١﴾

إن كلمة رسول تحتاج إلى علامة ، فليس لأي أحد أن يقول : « أنا رسول من عند الله » بل لابد أن يقدم بين يدي دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله . والآية كما نعرف هي الأمر العجيب الذي خرج عن القوانين والنواميس لتثبت صدق

الرسول في البلاغ ، وما دامت المعجزة خارجة عن نواحيش البشر ، فالمخالف نقول له : أنت حين تكذب أن حامل المعجزة رسول ، فكيف تعلل أنه جاء بمعجزة خرجت عن الناموس ؟ إذن ، فالمعجزة تلزم المنكر الذي يتحدى وتفحمة ، لأنه لا يستطيع أن يأتى بمثلها ، ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدى ألا يتحدى الله حين يعطى رسولا بمعجزة إلا بشيء ينبغ فيه القوم المبعوث إليهم ذلك الرسول ، لأن الحق لو جاء لهم بشيء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالرد متهم يكون للرسول بقولهم : إن هذا أمر لم تروؤص أنفسنا ولم ندرها عليه ، ولو رؤصنا أنفسنا عليه لاستطعنا أن نفعل مثله ، وأنت قد جئت لنا بشيء لم نعود أنفسنا عليه ، لذلك يرسل الحق الرسول - أى رسول - بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسل إليهم . . مثال ذلك ، موسى عليه السلام ، أرسله الله إلى قوم كانوا تابعين في السحر ، فكانت معجزته تقرب من السحر .

وإياك أن تقول إن معجزة موسى كانت سحرا ؛ لأن موسى عليه السلام لم يتول بسحر ولكن بمعجزة . كانوا هم يخيلون للناس أشياء ليست واقعا ، لذلك نجد القرآن يطبق الفارق بين ما يكون عليه ما يأتى به الله على يد رسول من الرسل من معجزة وسحر القوم ، فيقول القرآن :

﴿ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ۚ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَمْشِي بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَىٰ ۚ قَالَ أَفَقَدْ آتَاهَا يَمْوَسَىٰ ۖ فَاتْلُهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ ۝٢٠﴾
(سورة طه)

كأن الحق يقول لموسى عليه السلام : إن حدود علمك بما فى يدك أنها عصا تتوكأ عليها وتمش بها على غنمك ، أما علمى أنا فهو علم آخر . لذلك يأمره أن يلقى العصا ، فلما ألقاها وجدها حية تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة . . إن « أوجس » فى نفسه خيفة ، هى التى فرقت بين سحر القوم ومعجزة موسى عليه السلام .

لماذا ؟ لأن الساحر يلقى العصا فيراها الناس حية وهو يراها عصا لأن الساحر لو رآها حية لخاف مثل الناس ، لقد خاف موسى عليه السلام لأنها تغيرت وصارت حية فعلا ، ولذلك قال له الله :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَظْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ (٢١)

(سورة طه)

فلو كانت من جنس السحر لما أوجس في نفسه خيفة لأنه سوف يراها عصا وإن رآها غيره حية ، وهذا هو الفارق . وقوم عيسى أيضا كانوا مشهورين بالحكمة والطب ، إذن فستجىء الآيات من جنس الحكمة والطب ، ثم تنسأى المعجزة ، لأن الذى يطيب جسما ويداويه لا يستطيع أن يعيد الميت إلى الحياة ، لأن الإنسان إذا ما مات فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب . ولذلك رقى الله آية عيسى ، إنه يشفى المرضى ، ويحيى الموتى أيضا ، وهذا ترقى في الإعجاز . قال عيسى : « أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » . إن كلمة « أخلق » تحتاج إلى وقفة وكذلك « الطين » و « الهيئة » و « الطير » .

« أخلق » مأخوذة من الخلق ، والخلق هو إيجاد شيء على تقدير ، فأنت تتخيله وتقدره في ذهنك أولا ثم تأتى به على هذه الحالة . فإن كان قد أتى على غير تقدير فكيف خلقت ، إنما هو شيء جزافى جاء على غير علم وتقدير ، وإن من يأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أى شيء فهذا ليس خلقا . إن الخلق هو المطلوب على تقدير . مثال ذلك الكوب أو الكأس البتور الذى نشرب فيه حينما صنعه الصانع . هل كانت هناك شجرة تخرج أكوابا ، أم أن الصانع أخذ الرمال وصهرها ووضع عليها مواد كيميائية لتحليها من الشوائب ، ثم قام بتشكيلها على هيئة الكوب ؟

إذن فالكوب لم تكن موجودة ، ووجدت على تقدير أن تكون شكل الكوب ، فهو خلق . أوجد على تقدير . فهاذا عن خلق الله ؟ إنه يخلق على تقدير ، وفرق بين صنعة البشر حين يخلق ، وبين صنعة الله حين يخلق . إن صنعة البشر حين يخلق ، إنما يخلق من موجود ، وحين يخلق الله فهو يخلق من معدوم ، وهذا هو أول فرق ، إنه سبحانه يخلق من عدم ، أما الإنسان فيضع الأشياء بنظام يحدث فيها تفاعلات أرادها الله فتوجد ، فلا يوجد من يستطيع - على سبيل المثال - من يصنع كوبا من غير المادة التى خلقها الله .

إن هذا أول فرق بين خلق الله ، وخلق الإنسان ، فخلق الله يكون من عدم ،

وخلق الإنسان من موجود ، وإن كان الإنسان على تقدير . وأيضا يعطى الله لخلقه سرا لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعه ، فإله يعطيه سر الحياة ، والحياة فيها غم ، وفيها تكاثر ، لكن البشر يصنعون الكوب مثلا ، فتظل كوبا ، ولا يوجد تكاثر بين كوب ذكر وكوب أنثى .

إن الإنسان يوجد صنعه فتظل على حالتها ، ولا يستطيع أن يصنعها صغيرة ثم تكبر ، لكن صنعة الله هي صنعة القادر الذي يهب الحياة ، فتكبر مخلوقاته وتنمو وتزدهر بمراحل ، وتعطى مثلها . إذن ، فخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد معدوما ، والمعدوم موجوده مادته ، هذا في خلق الإنسان ، أما في خلق الله ، فإله يخلق من معدوم لا توجد له مادة . والله يخلق من الشيء ذكرا وأنثى ويعطيها القدرة على التناسل ، فيها هوذا قول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٥ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٦﴾

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا ۝١٧﴾

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ۝١٨ فَانزَلْنَاهُ نَارَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٩﴾

(سورة المؤمنون)

ولم يمنع الحق خلقه أن يخلقوا أشياء ، ولكن خلق الله أحسن ، لماذا ؟ لأنه يخلق من عدم ، والبشر يخلقون من موجود . وهو الحق يخلق ويوجد في مخلوقاته حياة وتكاثر ، والبشر يخلقون بلا غم ولا حياة ، إنه الحق أحسن الخالقين ، إذن قول عيسى عليه السلام : « أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » .

يعني أن كل إنسان يستطيع أن يصنع مثلا كهيئة الطير . لكن الله أوجد معجزة عيسى وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير ، وينفخ فيه ، وقد تسأل ، في ماذا ينفخ ؟ أينفخ في الطير ، أم في الطين ، أم في الهيئة ؟ إن قلنا : إن النفخ في الطين بعد ما صار طيرا . يكون النفخ في الطين ، كالنفخ في الطير ، وجاءت في آية أخرى أنها نفخ في الهيئة .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبْدُوكَ بِرُوحٍ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ
وَإِنْجِيلًا وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِي ﴾

(سورة المائدة)

إن « النفخ فيه » ، تكون للطين أو الطير . و« النفخ فيها » تكون للهيئة ، وهناك
آية بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ
رَبِّهَا وَكُنِيَءٌ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴾

(سورة التحريم)

إن النفخ هنا في الفرج ، وآية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا
آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الانبياء)

مرة بقول : « نفخنا فيه » أي في الفرج ، ومرة بقول : « نفخنا فيها » أي فيها
هي ، والقولان متساويان ، وهنا في هذه الآية ، نجد أن الإعجاز ليس في أن عيسى
صنع من الطين كهية الطير ، لأن أي إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكأنه حينما
قال : « أي أخلق لكم من الطين كهية الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » .

كانه صار طيرا من النفخة ، أما عن أمر صناعة طير من الطين فأي إنسان يمكن أن
يفعلها ، لكن عيسى عليه السلام يفعل ذلك بإذن الله ، ولا بد أن يحى الأمر

مختلفا ، و« ياذن الله » هنا تضم صناعة الطير ، والنفع فيه .

إن عيسى لم يكن ليحتريء ويصنع ذلك كله إلا ياذن الله ، وجاءت كلمة « ياذن الله » من عيسى وعلى لسانه كاعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته ، وكأنه يقول لقومه : إن كنتم تفتنم بهذه . فكان يجب أن تفتنوا بإبراهيم من باب أولى ، حينما قطع الطير وجعل على كل جبل جزءا منهن ثم دعاهن .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ لَوْ لِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُونَ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَبْطِغَنَّ قُلُوبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

(سورة البقرة)

إذن كان من الأولى الفتنة بما أعطاه الله إبراهيم عليه السلام من معجزة ، فإن كانت الفتنة من ناحية الإحياء . لكان ما صنعه إبراهيم عليه السلام أولى بها ، وإن كانت الفتنة من ناحية أنه جاء إلى الدنيا بدون أب لكانت الفتنة أكثر في خلق آدم ، لأن الله خلقه بلا أب أو أم . إذن فالفتنة لا أصل لها ، ولا منطق يبررها . ويتابع الحق سبحانه على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام « وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى ياذن الله » .

لماذا تفرض عيسى ابن مريم هذين المرضين ؟ لأنها كانت الأمراض المستعصية في ذلك العصر ، والأكمه هو الذي ولد أعمى ، أى لم يحدث له العمى من بعد ميلاده . والبرص ، هو ابيضاض بقعة في الجلد وإن كان صاحبها آدم أو أسود . وبعد ذلك تنتشر بقع متناثرة في كافة الجسم يلون أبيض ، مما يدل على أن لون الجلد له كيمياويات في الجسم تغذي هذا اللون ، فإن منعت الكيمياويات في الجسم صار أبرص .

وثبت صدق هذا في أن العلم المعاصر قد عرف أن الملونات للجلد هي غدد خاصة توجد في الجسم ، واسمها الغدد الملونة ، فإن امتنعت الغدد الملونة من إعطاء الألوان ، جاء البرص والعياذ بالله . وهو مرض صعب ، لم يكن باستطاعتهم أن

يدأوه ، فعندما جاء عيسى ابن مريم أعطاه الله الآية من جنس ما شئوا فيه وهو الطب . وجاء لهم بآية هي إبراء ما كانوا عاجزين عنه .

وبعض القوم الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس . يقولون : إن هذه المعجزات إنما هي سبق زمني ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجاً لهذه الأمراض ، لكن هؤلاء يقولون : لا ، إن المعجزة تظل معجزة إلى أن تقوم الساعة . كيف ؟

لنأخذ مثلاً من طب العيون ، عندما قالوا إن هناك علاجاً للعمى . « سنقوم بتركيب قرنية » أو أن نأخذ مثلاً من طب الجلد لو قالوا : « سندأوى البرص » واكتشفوا ألواناً مختلفة من العلاج تحاول أن تجعل الجلد على لون واحد ، لكنه لا يستعيد لونه الأصلي . ولذلك قال البعض : « إن معجزة عيسى كانت مجرد سبق زمني » . هؤلاء يقولون : لا ، لنأخذ كل أمر بأدواته .

إن عيسى بن مريم عليه السلام كان يرى ، بالكلمة والدعوة ومهما تقدم العلم نرى يستطيع العلم أن يرى المرض بالكلمة والدعوة ، إنما سيأخذون أشياء ويقوم بتحليل تلك الأشياء ، ويخلط الكيمياء وإجراء الجراحات ، لذلك تظل المعجزة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة ؛ لأنه كان يرى بالكلمة والدعوة .

ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم : « وأحيى الموتى بإذن الله وأنشئكم بما تأكلون » . ومساءلة إحياء الموتى لم يأخذها عيسى هكذا عن إطلاقها فيحيى كل ميت ، إنما قام بها وفي وحدات تثبت صدق الآية ولا تعمم مدلول المعجزة كسام بن نوح مثلاً ، وه عازره إنها أشياء لمجرد إثبات المعجزة ، ولكنها ليست مطلقة ، ذلك أنه نبي ورسول من الله فلا يمكن أن يصادم قدر الله في الأجل . ولذلك قالوا : إنه عندما أحيى سام بن نوح ، أحياه حتى نطق بكلمة ، ثم عاد سام إلى الموت من بعد ذلك ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿وَأَنْشِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُرُوجِكُمْ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل إنسان يعلم جزئية من أحداثه الحياتية الخاصة ، يكون هذا العلم

خاصا به ، وكل إنسان - مثلا - يأكل طعامه بلوان مختلفة يعرفها هو ، ولا يعرفها الآخرون . إن الأمر الأول كخلق الطير ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، هي أمور عامة للكل . أما الإنبياء باللوان الطعام التي يأكلها كل إنسان فهي خاصة أحداث ، لأن كل واحد يأكل أكلا معينا فيقول له عيسى ابن مريم ماذا أكل . وليس من المعقول أن يكون عيسى ابن مريم قد دخل كل بيت أو جاءت له أخبار عن كل بيت .

وكذلك أمر الادخار . وذلك حتى تنتفى شبهة أنه كان يشم رائحة الإنسان فيعرف لون الطعام الذي يأكله ، لذلك كان الإخبار بما يدخر كل واحد في بيته ، فهذه مسألة توضح بالجلاء التام أنها آية من إخبار من يعلم منيات الأمور .

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

إن هذه آية عجيبة تثبت أن هناك قوة أعلى قاهرة هي قوة الله الحق هي التي تعطيه هذه الأشياء ، فإن كنتم مؤمنين بوجود قوة أعلى فعلosكم تصديق الرسالة التي جاء بها عيسى ابن مريم ، لأن معنى (رسول) أنه مخلوق اصطفاه الله وأرسله سبحانه إلى الأرض منه ، فالذي يؤمن بالآية هو الذي يؤمن بوجود إله أعلى قادر ومن يريد أن يشب - مع إيمانه بالله - من الآية التي بعثها الله مع عيسى ابن مريم ، فالآية واضحة . أما غير المؤمن بالله فلن نفيد الة في الإيمان . ويقول الحق متابعا على لسان عيسى ابن مريم :

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحْدِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٥﴾

وقد قلنا : إن (مصدقا ، نعى أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابق لما جاء في

التوراة . وقلنا : إن « ما بين يدي » الإنسان هو الذي سبقه ، أي الذي جاء من قبله وصار أمامه . ومادام عيسى ابن مريم جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة في زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

لكن القول الحق يتضمن هذا المعنى : إن عيسى سيأتى بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك في قوله الحق سبحانه على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » إذن فليس المهم هو التصديق فقط ، ذلك أن عيسى جاء ليحل بعضا من الذي حرّمه التوراة .

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتي مصدقة بعضها بعضا فما فائدة توالي نزول الكتب السماوية ؟ والإجابة هي : أن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكر من سبها عن الكتب السابقة ، هذا في المرتبة الأولى ، وثانيا : تأتي الكتب السماوية بأشياء ، وأحكام تناسب التوقيعات الزمنية التي تنزل فيها هذه الكتب . هذه هي فوائد الكتب السماوية التي نوات نزولا من الحق على رسله ، إنها تذكر من عقل وتعديل في بعض الأحكام .

ومن الطبيعي أننا جميعا نفهم أن العقائد لا تبدل فيها ، وكذلك الأخبار والقصص ، لكن التبديل يشمل بعضا من الأحكام . ولهذا جاء القول الحق على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » ونحن نعرف أن القوم الذي أرسل الله عيسى ابن مريم لهم هم بنو إسرائيل ، والتحريم والتحليل يكون بحكمة من الله .

إن الله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم ، إنما إياك أن تفهم أن كل شيء يحرمه الله يكون ضارا ؛ قد يحرم الله أشياء لتأديب الخلق ، فيأمر بالتحريم ، ولا يصح أن تسأل عن الضرر فيها ، وقد يعيش المؤمن دنياه ولم يشب له ضرر بعض ما حرم الله . فإن تسأل أحد : لماذا حرم الله ذلك ؟ تقول له : من الذي قال لك إن الله حين يحرم فهو يحرم الشيء الضار فقط ؟ إنه الحق سبحانه يحرم الضار ، ويحرم بعضا مما هو غير ضار ، ولذلك قال الحق :

﴿ فِظْلِهِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِيقِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ ﴾

(سورة النساء)

وتفصيل ذلك في آية أخرى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِغَنَمٍ ۚ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبِقُورِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ ﴾

(سورة الانعام)

إذن التحريم ليس ضروريا أن يكون لما فيه الضرر ، ولهذا جاء قول الحق على لسان عبده ورسوله إلى بني إسرائيل عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » لقد جاء عيسى ابن مريم ليحل لهم بأمر من الله ما كان قد حرمه الله عليهم من قبل .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عبده ورسوله عيسى ابن مريم : « وجئتكم بأية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » ومجموعة هذه الأوامر التي تقدمت هي آية أى شيء عجيب ، بلغت القوم الذين أرسل الله عيسى إليهم ، إنه كرسول وكبشر لا يستطيع أن يحيى ، بالآية المعجزة بمفرده بل لابد أن يكون مبعوثا من الله . فيجب أن يلتفتوا إلى أن الله الذى أرسله ، وله طلاقة القدرة في خرق النواميس هو سبحانه الذى أجرى على يدي عيسى هذه الأمور ، ويأمرهم عيسى ابن مريم بتقوى الله نتيجة لذلك ، ويدعو القوم لطاعته في تطبيق منهج الله .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم :

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ﴾ ٥١

إذن اجتمع الرسول والمرسل إليهم في أنهم جميعا مريدون إلى إله واحد ، هو الذى ينولى تربيتهم والتربية تقتضى إيجادا من عدم ، ونقتضى إمدادا من عدم ، وتقتضى رعاية قىومية ، وعيسى ابن مريم بقر عبوديته لله وكأنه يقول : وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيذا عليكم ، ولكن أنا وأنتم مشتركون فى العبودية لله . (إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .

ومعنى « هذا صراط مستقيم » أى أنه صراط غير ملتوي لأن الطريق إذا انثنى ؛ انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكل يسير على طريق مستقيم واحد ؛ فلتعلم أنك إذا نظرت على سبيل المثال إلى الدائرة ، فستجد أن لها محبطا ، ولها مركزا ، ومركز الدائرة هو الذى نضع فيه « سن الفرجار » حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك نصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلما بعدنا عن المركز زاد الفرق ، وكلما نقرب من المركز تلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخلق جميعا يلتقون عند المركز الواحد فهذا يعنى الانفاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز ولذلك لا تجتمع للناس أهواء ولا تجتمع للناس شيعا إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم . والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، ومادامت عبوديته للإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو نفرق .

إنه حتى فى الأمر الحسى وهو الدائرة المرسومة ، نجد أن الأقطار المأخوذة من المحيط وتمر بمركز الدائرة ، ستجد أنه فى مسافة ما قبل المركز تتداخل الأقطار إلى أن تصير عند نقطة المركز شيئا واحدا لا انفصال بينها أبدا . وهكذا الناس إذا اتفوا جميعا عند مركز عبوديتهم للإله الواحد ، فإذا ما اختلفوا ، بعدوا عن العبودية للإله الواحد بمقدار ذلك الاختلاف .

ولذلك دعا المسيح عيسى ابن مريم الناس لعبادة الله « إن الله ربى وربكم فاعبدوه

هذا صراط مستقيم ، ذلك هو منطق عيسى . كان منطق الأول حينما كان في المهدي

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ ﴾

(سورة مريم)

إن قضية عبوديته لله قد حُسمت من البداية ، وهي قضية القمة ، إنه عبد الله والقضية الثانية هي قضية الرسالة ونقل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله حتى ينوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم . ومن الطبيعي أن أى رسول عندما يأتي بمنهج من عند الله ، فالهدف أن يحمل الناس جميعا على سلوك هذا المنهج ، ويحدد حركة حياتهم بـ « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » وعندما يسمع الواحد من الناس الأمر بـ « افعل » فقد يجد في التكليف مشقة ، لماذا ؟ لأنها تلزمه بعمل قد يتقّل عليه ، و « لا تفعل كذا » فيها مشقة ، لأنها تبعده عن عمل كان يحبه .

والمرء في الأحداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيحب أن يجتنبه ، وعمل يستهويه فيحب أن يقترب منه ، والمنهج جاء من السماء ليقول للإنسان « افعل » و « لا تفعل » إذن فهناك مشقة في أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف ، ومشقة أخرى في أن يتبعد عن عمل نهى عنه التكليف .

ومعظم الناس لا تلتفت إلى الغاية الأصيلة ، ولا يفهمونها حق الفهم ، فبأى أنصار الشر ، ولا يعجبهم حمل نفوسهم على مرادات خالفهم . إن أفكار الشر تلح على صاحبها فيتمرد على التكليف الإيماني ، وأفكار الشر تحاول الاقتراب بصاحبها من فعل الأمور التي حرمها التكليف . ولذلك ينقسم الناس لأنهم لم يحددوا هدفهم في الوجود .

إن كل حركة في الوجود يمكننا أن نعرف أنها حركة إيمانية في صالح انسجام الإنسان مع الكون ، أو هي حركة غير إيمانية تفسد انسجام الإنسان مع فطرته ومع الكون ، فإذا كانت الحركة تصل بالإنسان إلى هدفه الإيماني . فستكون حركة طيبة وحسنة بالنسبة للمؤمن ، وإذا كانت تبعده عن هدفه تكون حركة سيئة وباطلة ، وهكذا نرى أن الهدف هو الذي يحدد الحركة .

إن التلميذ الذي يذهب إلى المدرسة له هدف بأن يتخرج في مهنة ما ، ومادام ذلك هو هدفه فنحن نقيس حركة سلوكه ، هل هي حركة تقربه إلى الهدف أم تبعد به عنه ؟ فإن كان مجتهدا ، فاجتهاده حركة تقرب له الهدف ، وإن كان كسولا ، خاملا فإنه يبتعد بنفسه عن الهدف . إذن يجب أن نحدد الهدف حتى نعرف هل يكون هذا العمل صالحا ، أو غير صالح .

وأفة الناس أنهم عندما يحددون أهدافهم يقعون في اعتبار ما ليس بالهدف هدفا وغاية . ومادام هناك من يعتبر غير الهدف هدفا فلا بد من حدوث اضطراب وضلال ، فالذي يعتبر أن الحياة هي الهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها . أما الذي يعرف أن الهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، نسأله : ما الهدف إذن ، فيقول : إنه لقاء الله والآخرة .

هذا المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف . لكن الضال الذي يرى الدنيا وحدها هدفا ولا يؤمن بالجنة أو النار ، هو غارق في ضلاله ويقبل على ما تشتهي نفسه ، ويبعد عما يتعبه وإن كانت فيه سعاده .

ولكن المؤمن يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وأن الهدف في مجال آخر ، لذلك يسعى في تطبيق الشكايف الإيمانية ليضل إلى الهدف ، وهو الجنة . إذن ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف ، فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذي يقربه من الهدف ، فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذي يبتعد عن الهدف ويفعل عكس الموصلى إليه فهذا هو الشر .

وإذا كان الأمر كذلك والمسألة هي في تحديد الهدف يجب أن تعلم أن الناس يستقبلون الكثير من الأحداث بما يناقض معرفة الهدف ، ومادام الهدف هو أن تذهب إلى الآخرة لتلقى الله فثماذا يغرق في الحزن إنسان لأن له حبيبا قد انتقل إلى رحمة الله ؟

هذا الإنسان يمكننا أن نسأله ، لماذا تحزن وقد قصر الله عليه خطواته إلى الهدف ؟ لابد أنك حزين على نفسك لأنك مستوحش له ، ولأنك كنت تأنس به ، أما حزنك من أجله هو ، فلا حزن ، لأنه اقترب من الهدف ووصل إليه .

وفي حياتنا اليومية عندما يكون هدف جماعة أن تصل إلى الإسكندرية من القاهرة ، نجد إنسانا ما يذهب إلى الإسكندرية ماشيا ، لأنه لا يجد نفودا أو وسيلة توصله ، ونجد آخر يذهب إليها راكبا حمارا ، وثالثا يذهب إليها راكبا حصانا ، ورابعا يصل إليها راكبا « أتوبيسا » ، وخامسا يصل إليها بركوب الطائرة ، وسادسا يصل إليها بصاروخ ، وكل ما حدث هو أن كل واحد في هذه الجماعة قد اقترب من الهدف بالوسيلة التي توافرت له ، وهكذا نجد إنسانا يذهب إلى الله ماشيا في سبعين عاما ، وآخر يستدعيه الله قورا ، فلماذا نحزن عليه ؟

إن لنا أن نحزن على الإنسان الذي لم يكن موفقا في خدمة الهدف ، أما الموفق في خدمة الهدف فلنا أن نفرح له ، ونقول : إن الله قد فصر عليه المسافة ، وأغلبنا . إن كان عنده ولد حبيب إلى قلبه وصغير ويفقده فهو يغرق في الحزن قائلا : إله لم ير الدنيا . لهذا الإنسان نقول : يا رجل إن الله جعل ابنك يقفز الخطايا ويتجاوزها وأخذه إلى الغاية ، فما الذي يحزنك ؟ إن علينا أن نحسن استقبال ما يقضى به الله في خلقه ، ونعرف أنه حكيم ، وأنه رحيم وأن كل شيء منه يجب ألا نفهمه خارجا عن الحكمة .

وبعد تلك الآيات الكريمة التي تحدث فيها الحق عن مريم وعيسى عليه السلام . . . قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَحْسَرَ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي ۖ
إِلَى اللَّهِ قَائِلَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

لقد ذكر عيسى ابن مريم الفضيلة الجامعة المانعة أولا حين قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

وأوضح عيسى ابن مريم بما لا يقبل الجدل : « أنا معكم سواء في مربييتنا إلى إله واحد ، وأنا لم أجيء لأعلمكم لأن تميزت عنكم بشيء . فيها يتعلق بالعبادة نحن سواء ، فإله رب لي ورب لكم ، والضراط المستقيم هو عبادة الله الحق .

وتحن ساعة نسمع « الضراط المستقيم » فإننا نتخيل على الفور الطرق الموصلة إلى الغاية ، ونعرف جميعا أنه لا يوجد طريق في الحياة مصنوع لذات الطريق ، إنما الطريق يصنع ليوصل إلى غاية . وساعة نسمع « صراط » فإننا نفهم على الفور الغاية التي نريد أن نصل إليها . والحق سبحانه يقول :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

(سورة الأنعام)

ومادام هناك طريق لغاية ما فلا بد لنا أن نحدد الغاية أولا ، ونحدد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصِل إلى تلك الغاية . وهكذا يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه » .

والعبادة هي إطاعة العابد لأمر المعبود ، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية في الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، إن هذه هي أركان الإسلام ولا يستقيم أن يتفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة في الدنيا هي كل حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وعمارة الكون .

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هي تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء في الفقه ككتاب العبادات وباب المعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شيء يأمر به الله اسمه « عبادة » . إذن فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون . ولذلك قلنا : إنك حينما

تتقبل من الله أمرا بعبادة ما ، فانت تتلقاه وانت موصول بأسباب الله بحثا عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة ، والمثل الواضح لذلك هو قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، وهذا الأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ ، إنما أخذ الإنسان من عمل ، هو البيع . . ولو نظرنا إلى دقة الأداء في البيع لوجدناها قمة الأخذ المباشر للرزق . إن كلام الله يصل في دقته إلى ما لا يصل إليه كلام بشر ، فلم يقل الله مثلا « اتركوا الصنعة ، « اتركوا الحرث » ولكن الحق جاء بالبيع هنا لأنه قمة النفع العاجلة .

إن الذي يحرق ويزرع ينتظر وقتا قد يطول حتى تنضج الثمار ، لكن الذي يبيع شيئا ، فإنه ينال المنفعة فورا ، لقد جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التي قد تأتي ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلم هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلا عن الشراء ، لأن الشاري قد يشتري وهو كاره ، لكن البائع بملاة السرور وهو يبيع فقد يذهب رجل لشراء أشياء ليته فيسمع الأذان فيسرع إلى الصلاة ويقول لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء ، لكن المؤذن قد أذن لصلاة الجمعة ، ذلك أن الإنسان يجب ألا يدفع نقودا ، لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة . لذلك يخرجنا الحق من قمة « كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهي مبادلة السلع بأثمانها » . لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشَرُّوا فِي الْأَرْضِ وَأَبْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

لقد أخرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغي من فضل الله ، ولذلك يكون الإشتار في الأرض والبحث عن الرزق عبادة .

ولنتظر إلى الدقة في قوله الحق : « فانتشروا في الأرض » إن الانتشار يعني أن ينساح البشر لينتظموا في كل حركات الحياة ، وبذلك نتمر كل حركة فيها ، إن كل حركة في الحياة هي عبادة ، وهكذا نستوعب قوله الحق على لسان عيسى بن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ومن بعد ذلك يقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » لقد خشم عيسى بن مريم أمر العقيدة حينما قال : « إن الله ربى وربكم » إن في ذلك تحذيرا من أن يقول أتباع عيسى أى شئ آخر عن عيسى غير أنه عبد الله خاضع لله ، مأمور بالطاعة والعبادة لله . ووضع أمامهم المنهج ، فقال : « هذا صراط مستقيم » .

وقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » يدل على أن كل صاحب فكرة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف لابد أن يكون يفظ الأحاسيس ، لأن صاحب الفكرة وخاصة الذنينة يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناس في الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ ونكون الإجابة : إن هناك أناسا يستفيدون من وجود جموع الناس في الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناس ظالمون وأناس مظلومون ، والظالم الذى يأخذ - اغتصابا - خير الآخرين ويعر يد في الكون يخاف من رجل الدعوة الذى ينهائهم عن الظلم ، ويدعوهم إلى الهداية إلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب أن تنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

إن الداعية مأمور من الله بأن يكون يفظا لأنه إن اعتدى بكلماته أناس وسعدوا بها ، فإنه يفضب أناسا آخرين ، ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد ، فالداعية عليه أن يعرف بفضة الحس ، وبفضة الحس معناها الالتفاف إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كل إنسان ، ونحن نسمى الأشياء الظاهرة منها الحواس الخمس ، اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشم .

إن رجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه حتى يعرف من الذى يجب ويرجف

لحظة أن تأتي دعوة الخير ، ومن الذي يطمئن ويحسن الراحة لدعوة الخير . إن رجل الدعوة مأمور بدقة اليقظة والإحساس ليميز بين الذي تتغير سحنه لحظة دعوة الخير ، ومن الذي يستبشر ويفرح .

وعندما أعلن عيسى ابن مريم منهج الحق ، وجد أنصار الظلم وأنصار البغي ، وأنصار الظلمات غير معجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحس منهم الكفر لقد كان ملجأ باليقظة والانتباه . إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ، ليخرج أناساً من مفسدة إلى مصلحة . وعندما أحس منهم الكفر ، أراد أن يتدب جماعة ليعينه على أمر الدعوة . « قال من أنصاري إلى الله ؟ »

إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية . والتضحية تكون بالنفس والنفيس ، لذلك لابد أن يشتر ويحرك من يجد في نفسه العون على هذه المسألة . وهو لم يناد أفراداً محددين ، إنما طرح الدعوة لباتي الأنصار الذين يستشرقون في أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ، ولنكون التضحية بإقبال نفس لا استجابة لداع . « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ، وكلمة « أنصار » هي جمع « نصير » . والنصير هو المعين لك بقوة على بغيئك .

وعندما سأل عيسى : « من أنصاري إلى الله ؟ » كانت إلى في السوال تفيد الغاية ، وهي الله ، أي من ينصروني نصراً نصير غايته إلى الله وحده لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن أناس يدخلون في لواء الدعوة من أجل الغنيمة أو يدخلون من أجل الجاه ، أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كل منهم متجهاً بطاقته إلى نصرة الله وحده .

ومثال ذلك ما دار بين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين رجال من المدينة في أثناء مبايعتهم له في العقبة فقد قال لهم رسول الله : « أبايعكم على أن تمنعوني عما تمنعون فيه نساءكم وأبناءكم » فأخذ الداء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذي بعثك بالحق لنمنعك عما تمنع منه أربنا » فبايعوا رسول الله على ذلك فقام أبو الهيثم بن النبهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حباً وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن قعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتذعننا ؟ فتبسم رسول الله ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »

أى ذمتى وحرمتى حرمتكم^(١)

أقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم ستمتلكون الأرض ، وستسودون الدنيا ، أو ستتصرون على أعدائكم ؟ لا . بل قال صلى الله عليه وسلم أنا منكم وأنتم منى . لماذا ؟ لأنه لو قال لهم ستتصرون على أعدائكم ، فقد يدخلون المعركة ، ويموت واحد منهم ؛ ولا يرى النصر ، لكن الأمر الذى سيراه كل المؤمنين أن رسول الله منهم وأنهم من رسول الله ومادموا كذلك ف سيدخلون معه الجنة وهى الغاية الأصلية .

وعندما سأل عيسى ابن مريم « من أنصارى إلى الله » فكأنه كان يسأل : من يعينى معونة غايتها الله ؟ ولماذا تأخذ هذا المعنى ؟ تكون الإجابة : أنا آخذ المعنى على قدر ذهنى ؛ لأن مرادات الله فى كلماته لا تنهى كمالاً ، وقد بأتى غيرى وبأخذ منها معنى آخر . ومعنى « النصر » : هو « من ينصر بجهد وقوة » . وننظر النصر فى الإيمان كيف بأتى ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال :

﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيَثْبُتْ أَقْدَامُكُمْ ۝٧ ﴾

(سورة محمد)

إذن فالنصر منا لله . بأن نطبق دينه ، وهذا مراد الله ، ولذلك بأتى النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرب لمربوبه ، وقد يكون مراد عيسى - عليه السلام - من الذى ينصرف كى ينضم إلى الله فى النصر ؟

ونحن هنا أمام معسكرين ، معسكر الإيمان ، ومعسكر الكفر . لقد سأل عيسى « من أنصارى إلى الله » أى أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية هى الله ، وننفهم نحن هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق :

﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيَثْبُتْ أَقْدَامُكُمْ ۝٧ ﴾

(سورة محمد)

ونعرف أيضا أن هناك نصراً من المؤمن لله ، وهناك نصر من الله للمؤمن . وهكذا

يكون سؤال عيسى ابن مريم ، من أنصاري إلى الله ، ؟ قد أفاد المعنيين معاً . وكانت الإجابة : « قال الخواريون نحن أنصار الله ، أمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .
والخواريون مأخوذة من الخور ، وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقت في وجوههم سيئة الإيمان ، فكانها مشرقة بالنور . ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه في المؤمن يكون بإشراق الإيمان في النفس ، ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ رَرَبُّهُمْ رُحْمًا يُجَادِلُ الَّذِينَ فُضِّلُوا مِنْ اللَّهِ فِي دِينِهِمْ فِي أُمُورِهِمْ مِنْ أَمْرِ الشُّعْبِ ﴾
(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه . كيف ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ، ومكون من ذرات ، وكل جهاز في الإنسان له مطلوب محدد ، وساعة ان تتجه كل الأجهزة إلى ما أراده الله ، فإن الذي يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، ومادامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة ، تكون السحنة مكفهرة .

عندما قال عيسى : « من أنصاري إلى الله » سمع الاستجابة من الخواريين ، والخواريون قوم غم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان ، أوهم قوم بيض المعاني ، أي أن معانيهم بيضاء ومشرقة . والنبى صلى الله عليه وسلم سمى بعضاً من صحابته خواري رسول الله ، وهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت .

وحين قال الخواريون : « نحن أنصار الله » كان ذلك يعنى أن كل إنسان منهم يريد نصرة الله . فينضم إلى الله ناصراً للمنج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج . ونحن نعرف مقومات النصرة لله . إنه الإيمان وما الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان في عسومه . فلولم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى أسير فيه موصل إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه .

مثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط لولم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، وإن لم اعتقد أنى إن لم أذاكر دروسى سوف أرسب لما ذاكرت . إذن فكل أمر

في الدنيا يتم بناؤه على الإيمان ، لكن إذا أطلق الإيمان بالمعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا ، وهي الإيمان بالله ، ولذلك فأسلحة النصر إلى الله هي : إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله ، ولذلك قال الخواريون : « نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

لماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض في الرسول أن يبلغ القوم عن الله ، فيشهد عليهم كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِي مَظْهَرٍ لِبُكُورِ الرَّسُولِ مُبِيدًا عَلَيْكَ وَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الحج)

ولنا أن نلاحظ أن الحق أورد على لسانهم - الخواريين - الإيمان أولاً ، لأنه أمر غيبي عقدى في القلب ، وجاء من بعد ذلك على لسان الخواريين طلب الشهادة بالإسلام ، لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه . إن قولهم : « واشهد بأنا مسلمون » هو أيضاً طلب منهم بآلونه لعيسى ابن مريم أن يبلغهم كل مطلوبات الإسلام قل لنا افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا إنهم قالوا : « آمنا » وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن يبلغهم عن الله ، والمطلوب من عيسى ابن مريم أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام وقد يبلغهم ذلك وعملوا به وقالوا من بعد ذلك :

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

فهل يكون إعلانهم للإيمان ، يعني إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة ، لا ، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ، لأن كل رسول جاء بشيء من الله ، فوراء

مجيء رسول جديد أمر بريد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تتغير فيها ، وكذلك الأخبار ، وكذلك القصص ، ولكن الأحكام هي التي تتغير ، فكان إعلان الحوارين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات .

وقولهم : « ربنا آمنا بما أنزلت » كلمة « بما أنزلت » تدل على منهج منزل من أعلى إلى أدنى ، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى ، ولذلك قلنا سابقا : إن الله حينما يتأدى من آمن به لاتباع مناهج الإيمان يقول : « تعالوا » أي ارتفعوا إلى مستوى التلقي من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلموا في حضيض الأرض ، أي لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم ، ومادام المؤمن يريد العلو في الإيمان ، فليذهب بسلوكه في الأرض إلى منهج السماء .

وقولهم : « ربنا آمنا بما أنزلت وأتبعنا الرسول » . إن المتبع عادة يفتنع بمن اتبعه أولا ، حتى يكون الاتباع صادرا من قيم النفس لا من الإرغام قهرا أو فبرا ، فنحن قد نجد إنسانا يرغم إنسانا آخر على السير معه ، وهنا لا يقال عن المرغم : إنه « اتبع » إنما الذي يتبع ، أي الذي يسير في نفس طريق صاحبه يكون ذلك بمنحصر إرادته ومحض اختياره . فلو سار شخص في طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب ، لا بالقلب . ولذلك فمن الممكن لتجبر أن يمسك سوطا ويقهر مستضعفا على السير معه ، وفي ذلك إخضاع لقلب المستضعف ، لكنه لم يخضع قلبه ، فالإكراه يخضع القلب لكنه لا يخضع القلب .

﴿ لَعَلَّكَ بَئِيعَ نَفْسِكَ إِلَّا بِكُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤٠ إِنْ تَشَاءْ نَنْزِلْ عَلَيْهُمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤١﴾

(سورة الشعراء)

إن الحق يخبر رسوله أن أحدا من العباد لا يستعصي على خالقه ، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والإماتة ، ولو أراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لفعل ، لكن الحق لا يريد أعناق الناس ، ولكنه يطلب القلوب التي تأتي طوعية وبالاختيار ، وأن يأتي العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يجيء . هذه هي العظمة

الإيمانية . وقال الحواريون بعد إعلانهم الإيمان بما جاء به عيسى : « فاكثبنا مع الشاهدين » إنه الطلب الإيماني العالی الراعى ، الفاهم . إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول ، ويشهدون كما يشهد الرسل لأمتهم ، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يبلغون رسالات الله وأنهم يحملونها من بعدهم ؛ ولذلك قلنا عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام : إنها الأمة التي حملها الله مهمة وصل بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة . لماذا ؟ ها هو ذا القول الحق :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِثْلَ أَيْمَنِ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۝٥١﴾

(سورة الحج)

ولذلك فلن يأتى أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد اتسمن الله أمة محمد ؛ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك فلا نبوة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يخبرنا الحق :

﴿ وَتَكُونُ لِلنَّاسِ عِتَابًا عَلَىٰ مَا كَفَرُوا بِآيَاتِهِ وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٥٢﴾

إن الأشياء التي يدركها العقل هي مسميات ولها أسماء وتكون أولا بالحقس ؛ لأن الحق هو أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء ، وبعد ذلك تأتى المعاني عندما تكبر وتعرف الحقائق . إن البداية دائما تكون هي الأمور المحسوسة ، ولذلك يقول الله عن المنهج الإيماني : إنه طريق مستقيم ، أى أن نعرف الغاية والطريق الموصل إليها

وكلمة « الطريق المستقيم » من الأمور المحسنة والتي يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج .

إن كلمة « مكر » ، مأخوذة من الشجر ، فساعة أن ترى الشجرة التي لا تلتف أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يتحكم أن ورقة ما ، هي من فرع ما . ولكن هناك نوع من الأشجار تكون فروعها ملفوفة على بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أي ورقة من أي فرع هي ، ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « المكر » . فالرجل الذي يلف ويدور ، هو الذي يكر ، فالذي يلف على إنسان من أجل أن يستخلص منه حقيقة ما ، والذي يمثال من أجل إبراز حقيقة ، فإن كان ذلك بغیر قصد الضرر نسميه حيلة ، وإن كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيئ . ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ لَا يَحِثُّ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

ومعنى ذلك أن هناك مكرأ غير سيئ ، أي أن المكر الذي لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد ، فإننا نسميه مكر خير ، أما المكر الذي يقصد منه إيقاع الضرر فهو « المكر السيئ » . ولنا أن نسأل : ما الذي يدفع إنسانا ما إلى المكر ؟ إن الذي يكر يدارى نوابه ، فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليكر بك ، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بك أبلغ الضرر ، وقد يكون القتل .

إذن ، فمن أسس المكر التبييت، والتبييت يحتاج إلى حنكة وخبرة ، لأن الذي يحاول التبييت قد يجد قبائله من يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، ومادام المكر يحتاج إلى التبييت ، فإن ذلك علامة على الضعف في البشر لأن القوى لا يكر ولا يكيد ولكن يواجهه .

إن القوى لحظة أن يمسك بخصم ضعيف ، فمن الممكن أن يطلقه ، لأن القوى مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذي هذا الضعيف . لكن الضعيف حين يملك قويا ، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر ، ولذلك فالشاعر يقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت
كذلك قدرة الضعفاء

إن الضعيف هو الذى يترك ويبيت . والذى يترك قد يضع في اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجع عقلا ، وقد يتكىل به كثيرا ، لذلك يخفى الماكر أمر مكره أو تبيته . فإذا ما أراد خصوم المنهج الإيمان أن يمكروا ، فعل من يمكرون ؟ إن الرسول لا يكون في المعركة بمفرده ولكن معه الله .

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥)

(سورة البقرة)

فإنه يعلم ما يبيت أى إنسان ، ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئا ويوجده قلن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره ، إذن فمكر الله لا قبل لأحد لمواجهته .

﴿ وَمَكْرُؤُاْ وَمَكْرَآءُ اللَّهِ وَآلَهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ (٦)

(سورة آل عمران)

وساعة نجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة فقط وليست من أسماء الله الحسنى . إن المؤمنين بإمكانهم أن يقولوا للمكافرين : إنكم إن أردتم أن تبتوا لنا ، فإن الله قادر على أن يقلب المكر عليكم . أما أسماء الله وصفاته فهي توقيفية ، نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن إذا وجد فعل لله لا يصح أن نشق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . فليس من أسماء الله مخادع ، أو ماکر ، إياك أن تقول ذلك ، لأن أسماء الله وصفاته توقيفية وجاء القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر ، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يستطيعون أن يمكروا بالله ، لأن الله إذا أراد أن يمكر بهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك . إن الحق يقول :

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

إذن فهناك « مكر خير » . . وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدي إلى الخير . ولماذا تأتي هذه الآية هنا ؟ لأن هناك معركة سيدخلها عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى عليه السلام لم يحيى ليقا تل بالسيف ليحمى العقيدة ، إنما جاء واعظا ليبدل الناس على العقيدة ، إن النصر لا تكون بالسيف فقط ، ولكن بالحجة . ونحن نعرف أن السماء كانت لا تطلب من أى رسول أن يجارِب في سبيل العقيدة لأن السماء هي التي كانت تتولى التأديب .

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَوْنَهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنِ أَخَذَتُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولم يحيى . فقال إلهنا طلب بنو إسرائيل :

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجِيِّهِمْ أَنَا مَلِكَا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا قُلْنَا كُنِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن أمة محمد صل الله عليه وسلم هي التي أذن الله لها أن تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس . إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمى الاختيار في النفس الإيمانية ، فبدلا من أن يترك الناس

مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة. فالمسلمون يرفعون السيف في وجه الظالم الفاهر لعباد الله . وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم .

ولذلك فعندما يقول أعداء الإسلام : « إن الإسلام انتشر بالسيف » . نرد عليهم : إن الله قد بدأ الإسلام بضعف حتى يسقط هذا الاتهام ، لقد كان المسلمون الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فينجه بعضهم إلى الحبشة ، ويهاجرون بحثا عن الحماية ، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف قلنا أن نسأل : من الذى حمل أول سيف ليكره أول مؤمن ؟ إن المؤمنين رضوا بالإسلام ديناً وهم في غاية الضعف ومنتهاه . إن الإسلام قد بدأ واستمر ومازال يحيا بقوة الإيمان .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء في أمة أمية ، ومن قبيلة لها شوكتها ، وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أنبياء قريش أولا ، بل آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء وخاض رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلة الدعوة الإيمانية مدة ثلاثة عشر عاما ، دعوة للإيمان بالله ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ، إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية ، وارتفع السيف لا ليفرض العقيدة ، ولكن ليحمي حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف . فكيف نفسر وجود آباء لديانات أخرى في البلاد المسلمة ؟ لقد أتاح الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان .

إذن فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وواجب كل مسلم أن يعرف أن الإسلام قد انتشر بالأسوة الحسنة ، وأنه كمؤمن بالله وبدين الله ، قد اصطفاه الله ليطبق السلوك الإيماني ، فقد مكن الله للإسلام في الأرض بالسلوك والفدوة .

إن كل مسلم عليه واجب ألا يترك في سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ، ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام ، ولذلك فالفكرون في الأديان الأخرى حينما يذهبون إلى الإسلام ، ويقتنعون به ، إنما يقتنعون بالإسلام لأنه منهج حق . إنهم يخصصونه بالعقل ، ويبتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن في الإسلام ، فهم يتفكرون إلى سلوك بعض المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام .

إن المفكرين المنصفين يفرقون دائماً بين العقيدة ، ومتبع العقيدة ، ولذلك فأغلب المفكرين الذين يتبعون هذا الاتجاه ، بلجأوا إلى الإسلام ويؤمنون به . ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ، فإن صادفوا تابعاً للإسلام ملتزماً دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام ، ولذلك كانت الجماهرة الكثيرة الوفيرة في البلاد الإسلامية المعاصرة في بلاد لم يدخلها فتح إسلامي ، وإنما دخلتها الأسوة الإسلامية في أفراد تابعين ملتزمين ، فراق الناس ما عليه هؤلاء المسلمون من حياة ورعة ، ومن تصرفات مستقيمة جبلة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه ، نظيف ، كل ذلك لفت جبهة الناس إلى الإسلام ، وجعلهم يتساءلون : ما الذي جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون . وتساءل الناس في تلك المجتمعات : وما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن ، فالذي لفت إلى الإسلام هو السلوك المنهجي الملتزم . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى حين يعرض منهج الدعوة الناجحة يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة فصلت)

والدعوة إلى الله تكون باللسان والعمل الصالح ، ليدل المؤمن على أن ما يدعو إليه غيره قد وجدته مفيداً فالترمه هو ، فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان . ولا يكفي المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول : « إني من المسلمين » يقول ذلك لمن ؟ يقوله لمن يرويه على السلوك السمع الرضى الطيب . إنها لفظة من ذاته إلى دينه .

إن هذا يفسر لنا كيف انتشر الإسلام بوساطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام ، وبوقار الإسلام ، وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم لافتاً ، وعندما يسألهم القوم عن السر في سلوكهم الملتزم ، يقول الإنسان منهم : أنا لم أجد بذلك من عندي ولكن من أتباعي لدين الله الإسلام .

ومثال ذلك في السلوك الأسوة : المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد كان صحابته رضوان الله عليهم يخافون عليه من خصومه ، فكانوا

يتناوبون حراسته ، ومعنى تناوب الحراس أنهم أرادوا أن يكونوا المصد للأخطار يتداولون ذلك فيما بينهم . وأراد الحق سبحانه أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خفية ، ونام على بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أراد على - كرم الله وجهه - أن يكون هو المصد ، فإذا جاء خطر فإنه هو الذى يصد .

لاشك أنه كان يفعل ذلك لأنه واثق أن بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم خير للإسلام حتى ولو افتداه بروحه . هذا هو التسامى العالى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان الواحد منهم يحب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسوة بالرسول واتباع دين الله إنما يعود ذلك عليه بالخير العميم . وعندما يموت واحد منهم في سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولا ليبلغ دعوته فقد نال الشهادة في سبيل الله .

هذا هو أبو بكر الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله في الغار . ألم يجد الصديق شقوقا فيمزج من ثيابه ليسد الشقوق ؟ ألم يضع قدمه في شق لأنه يخشى أن تحبسه حشرة من الحشرات قد تؤذى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ لقد أراد أن يحافظ على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو افتداه ، وهذه شهادة بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بأن بقاء الرسول خير لهم وللإيمان ولنفوسهم من بقائهم هم أنفسهم .

وهكذا أراد الله نصرته رسول الله صلى الله عليه وسلم على الكفار ، عندما مكروا وبيتوا أن يقتلوه قبل الهجرة ، وهكذا أراد الله نصرته رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة عندما واجه أعداء الإسلام في القتال ، لقد مكروا ، ولكن الله خير الماكرين .

وكان الحق سبحانه وتعالى يقول بهذا النصر من الله : لن نستطيعوا أن يقاتلوا محمدا لا بالواجهة ولا بالتبيت . وما هذا تابع من أتباعه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا عمر رضى الله عنه يهاجر علنا ، ويقول : من أراد أن تقتله أمه ، أو ترمي زوجته ، أو يبيته ولده ، فليلقني وراء هذا الوادى . بينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة للضعيف . إن القوى يستطيع حماية نفسه ويخرج إلى الهجرة مجاهدا . أما الضعيف فلا بد أن يهاجر خفية ، لذلك فالأسوة للضعيف كانت في رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد مكر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله مكر بهم .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَوَلَّى مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (٤٤)

(سورة إبراهيم)

إن مكرهم رغم عنفه وشده والذى قد يؤدي إلى زوال الجبال ، هذا المكر يور عند مواجهته لمكر الله الذى يحصى رسله وعباده الصالحين . لقد جاء مكر بنى إسرائيل وأنزل فيه الله قوله الحكيم : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام . فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ
وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ
اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ
مَرَجِعِكُم فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤٥)

لقد جاء الحق سبحانه بعد عرضه لمسألة المكر بهذا القول الحكيم ، وذلك دليل على أن عيسى عليه السلام أحسن من بنى إسرائيل الكفر ، والتبصير ، ومؤامرة للقتل . فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة . « إن متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . إنها أربعة مواقف ، أرادها الله لعيسى ابن مريم عليه السلام .

وتريد أن نقف الآن عند كلمة قول الحق : « متوفيك » . نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع ، ثم تموت المعاني الأخرى في اللفظ ويروج المعنى الشائع فنفهم المقصد من اللفظ . إن كلمة « التوفى » نفهمها على أنها الموت ، ولكن علينا هنا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظة ، فإنه قد يقبل معنى على لفظ ، وهذا اللفظ موضوع لمعان متعددة ، فبأخذه واحد ليجمعه خاصا بواحد من هذه . إن كلمة « التوفى » قد يأخذها واحدا لمعنى « الوفاة » وهو الموت ، ولكن ، ألم يكن ربك الذى قال : « إن متوفيك » ؟ وهو القائل فى القرآن الكريم :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِبُقْصَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢١ ﴾

(سورة الانعام)

إذن « يتوفاكم » هنا بآى معنى ؟ إنها بمعنى يبعثكم . فالنوم معنى من معاني التوفى . ألم يقل الحق فى كتابه أيضا الذى قال فيه : « إن متوفيك » .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ كُتِبَ فِي مَنَامِهَا فَبِمِمْ كُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُنْحَرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢٢ ﴾

(سورة الزمر)

لقد سمي الحق النوم موتا أيضا . هذا من ناحية منطق القرآن ، إن منطق القرآن الكريم بين لنا أن كلمة « التوفى » ليس معناها هو الموت فقط ولكن لها معان أخرى ، إلا أنه غلب اللفظ عند المستعملين للغة على معنى فاستقل اللفظ عندهم بهذا المعنى ، فإذا ما أطلق اللفظ عند هؤلاء لا ينصرف إلا لهذا المعنى ، وهؤلاء نقول : لا ، لا بد أن ندقق جيدا فى اللفظ ولماذا جاء ؟

وقد يقول قائل : ولماذا يختار الله اللفظ هكذا ؟ والإجابة هي : لأن الأشياء التى قد يقف فيها العقل لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة ويأتى فيها الله بأسلوب يحتفل هذا ،

ويحتمل ذلك ، حتى لا يقف أحد في أمر لا يستاهل وقفة . فالذي يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إلى السماء ما الذي زاد عليه من أحكام دينه ؟ والذي لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفع ، ما الذي نقص عليه من أحكام دينه ، إن هذه القضية لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين ، لكن العقل قد يقف فيها ؟ فيقول قائل : كيف يصعد إلى السماء ؟ ويقول آخر : لقد توفاه الله . وليعتقدوا أي إنسان كما يريد لأنها لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين .

إذن ، فالأشياء التي لا تؤثر في الحكم المطلوب من الخلق يأتي بها الله بكلام محتمل الفهم على أكثر من وجه حتى لا يترك العقل في حيرة أمام مسألة لا تضر ولا تنفع . وعرفنا الآن أن « توفي » تأتي من الوفاة بمعنى النوم من قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَظَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ يُرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥١ ﴾

(سورة الانعام)

ومن قوله سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٥٢ ﴾

(سورة الزمر)

إن الحق سبحانه قد سمى النوم موتاً لأن النوم غيب عن حس الحياة . واللغة العبرية توضح ذلك ، فانت تقول - على سبيل المثال - لمن أقرضت مبلغاً من المال ، ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه لا ، لا بد أن أستوفي مالي ، وعندما يعطيك كل مالك ، تقول له : استوفيت مالي تماماً ، فتوفيته ، أي أنك أخذته بتمامه .

إذن ، فمعنى « متوفيك » قد يكون هو أخذك الشيء تماماً . أقول ذلك حتى نعرف

الفرق بين الموت والقتل ، كلاهما يلتقي في أنه سلب للحياة ، وكلمة « سلب الحياة » قد تكون مرة بنقض البنية ، كضرب واحد لآخر على حجمته فيقتله ، هذا لون من سلب الحياة ، ولكن بنقض البنية . أما الموت فلا يكون بنقض البنية ، إنما يأخذ الله الروح ، وتبقى البنية كما هي ، ولذلك فرق الله في قرآنه الحكيم بين « موت » و « قتل » وإن اتحدا معا في إزهاق الحياة .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَأْتِ أَوْفِيلَ أَنْفَلَيْتُمْ عَلَىٰ أَغْلَبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْعًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الموت والقتل يؤدي كل منهما إلى انتهاء الحياة ، لكن القتل ينهي الحياة بنقض البنية ، ولذلك يقدر بعض البشر على البشر فيقتلون بعضهم بعضا . لكن لا أحد يستطيع أن يقول : « أنا أريد أن يموت فلان » ، فالموت هو ما يجربه الله على عباده من سلب للحياة بتزع الروح . إن البشر يقدرون على البنية بالقتل ، والبنية ليست هي التي تنزع الروح ، ولكن الروح تحل في المادة فتحيا ، وعندما ينزعها الله من المادة تموت وتروى أي نصير رمة .

إذن ، فالقتل إنما هو إخلال بالمواصفات الخاصة التي أرادها الله لوجود الروح في المادة ، كسلامة المخ أو القلب . فإذا اختل شيء من هذه المواصفات الخاصة الأساسية فالروح تقول : « أنا لا أسكن هنا » . إن الروح إذا ما انتزعت ، فلاها لا تريد أن تنزع . . . لأي سبب ولكن البنية لا تصلح لسكنها . وتضرب المثل والله المثل الأعلى :

إن الكهرباء التي في المنزل يتم تركيبها ، وتعرف وجود الكهرباء بالمصباح الذي يصدر منه الضوء . إن المصباح لم يأت بالنور ، لأن النور لا يظهر إلا في بنية بهذه المواصفات بدليل أن المصباح عندما ينكسر نطل الكهرباء موجودة ، ولكن الضوء يذهب . وكذلك الروح بالنسبة للجسد . إن الروح لا توجد إلا في جسد له بمواصفات خاصة . وأهم هذه المواصفات الخاصة أن تكون خلايا البنية مناسبة ، فإن توقف القلب ، فمن الممكن تدليكه قبل مرور سبع ثوان على التوقف ، لكن إن

فسدت خلايا المنع ، فكل شيء ينتهي لأن المواصفات اختلت .

إذن ، فالروح لا تحل إلا في بنية لها مواصفات خاصة ، والقتل وسيلة أساسية
لهدم البنية ؛ وإذهاب الحياة ، لكن الموت هو إزهاق الحياة بغير هدم البنية ،
ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن خلق الله بقدرون على البنية ، لأنها
مادة ولذلك يستطيعون تحريبها .

إذن ، « متوفيك » تعني مرة تمام الشيء ، « كاستيفاء المال » وتعني مرة
« النوم » . وحين يقول الحق : « إن متوفيك » ماذا يعني ذلك ؟ إنه سبحانه يريد أن
يقول : أريدك تماما ، أي أن خلقي لا يقدرون على هدم بيتك ، إن طالك إلى
تماما ، لأنك في الأرض عرضة لأغيار البشر من البشر ، لكني سأق بك في مكان
تكون خالصا لي وحدي ، لقد أخذتك من البشر تامة ، ومعنى « تماما » ، أي أن
الروح في جسدك بكل مواصفاته ، فالذين بقدرون عليه من هدم المادة لن يتمكنوا
منه .

إذن ، يقول الحق : « ورافعك إلى » هذا القول الحكيم يأتي مستقيما مع قول
الحق : « متوفيك » . وقد يقول قائل : لماذا تأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟ نقول : إن
الحق بجلال قدرته كان قادرا على أن يقول : إن رافعك إلى ثم أتفأك بعد ذلك .
ونقول أيضا : من الذي قال : إن « الواو » تقتضي الترتيب في الحدث ؟ ألم يقل الحق
سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾

(سورة القمر)

هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن
« الواو » تفيد الجمع للحدثين فقط . ألم يقل الله في كتابه أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَآدَمُ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ

مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(سورة الأحزاب)

إن « الوار » لا تقتضى ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك قد أخذت « متوفيك » أى « مميتك » ، فمن الذى قال : إن « الوار » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه . فإذا قال قائل : ولماذا جاءت « متوفيك » أولا ؟ نرد على ذلك : لأن البعض قد يظن أن الرفع ثبوت من الموت . ولكن عيسى سيموت قطعاً ، فالموت ضربة لازب . ومسألة يمر بها كل البشر . هذا الكلام من ناحية النص القرآنى . فإذا ما ذهبنا إلى الحديث وجدنا أن الله فوض رسوله صلى الله عليه وسلم ليشرح ويبين ، ألم يقل الحق :

﴿ وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

فالحديث كما رواه البخارى ومسلم : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) ؟ .

أى أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لنا أن ابن مريم سينزل مرة أخرى . ولنقف الآن وقفة عقلية لتواجه العقلايين الذين يحاولون إشاعة التعب فى الدنيا فنقول : يا عقلايون أقبلتم فى بداية عيسى أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد وال ميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشئ عجيب خارق للتواميس فكيف تقفون فى نهاية حياته إن كانت خارقة للتواميس ؟ إن الذى جعلكم تقبلون العجبية الأولى يهد لكم أن تقبلوا العجبية الثانية . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى مَطَهْرِكَ مِنَ الدَّرِثِ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

إنه سبحانه يبلغ عيسى إننى سأخذك ناماً غير مقدور عليك من البشر ومطهرتك من حيث هؤلاء الكافرين ونجاستهم ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وكلمة « اتبع » تدل على أن هناك « متبعا » يتلو متبعا . أى أن المتبع هو

الذى يأتي بعد ، فمن الذى جاء من بعد عيسى بمنهج من السماء ؟ إنه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن على أى منهج يكون الذين اتبعوك ؟ أعلى المنهج الذى جاؤا به أم المنهج الذى بلغته أنت يا عيسى ؟ إن الذى يتبعك على غير المنهج الذى قلته لن يكون تبعاً لك ، ولكن الذى يأتي ليصحح الوضع على المنهج الصحيح فهو الذى اتبعك . وقد جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح الوضع ويبلغ المنهج كما أَراده الله . « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . فإن أخذنا المعنى بهذا ، فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي التي اتبعت منهج الله الذى جاء به الرسل جميعاً ، ونزل به عيسى أيضاً ، وأن أمة محمد قد صححت كثيراً من القضايا التي انحرف بها القوم . نقول لبس المراد هنا من « فوق » الغلبة والنصر ، ولكننا نريد من « فوق » الحجة والبرهان . وذلك إنما يحدث في حالة وجود قوم منصفين عقلاء يزنون الأمور بحججها وأدلتها وهم لن يجدوا إلا قضية الإسلام وعقيدة الإسلام .

إذن ، فالفوقية هي فوقية ظهور دليل وقوة برهان . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣)

(سورة التوبة)

وفي موقع آخر من القرآن الكريم ، يؤكد الحق ظهور الإسلام على كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِي أَوْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُنِيَ بِاللهِ

شَهِيداً ﴾ (٣٨)

(سورة الفتح)

ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل الأديان . وقد يقول قائل : إن في العالم أديانا كثيرة ، ولم يظهر عليها الإسلام ، والموجودون من المسلمين في العالم الآن مليار وأضعاف ذلك من البشر على ديانات أخرى . نقول لمثل هذا القائل : إن

الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة ، لا من قبلكم أنتم فقط ولكن من قبلهم هم كذلك . والناس دائما حين يجتمعون ليشرعوا القوانين وليحددوا مصالح بعضهم بعضا ، يلجأون أخيرا إلى الإسلام . فلننظر إلى من بشرع من جنس تشريع الأرض ولنسأل أرايت تشريعا أرضيا ظل على حاله ؟ لا ، إن التشريع الأرضي يتم تعديله دائما .

لماذا ؟ لأن الذي وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما بدله على مقتضيات الأمور التي تجدد ، فلما تجددت أمور في الحياة لم تكن في ذهن من شرع أولا ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع . ولننمك بأي قانون بشري معدّل في أي قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أي اتجاه يسير ؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام ، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام . وعندما قامت في أوروبا ضجة على الطلاق في الإسلام ، ما الذي حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق في إيطاليا تحت سماع وبصر الفائيكان . هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟ لا ، إنما شرعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقا . بدليل أن أوروبا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأني إلا به .

وهل هناك ظهور وغلبة أكثر من الدليل الذي يأتي من الخصم ؟ تلك هي الغلبة . لقد وصلوا إلى تشريع الطلاق رغم كراهيتهم للإسلام كدليل على صدق ما جاء به الإسلام . وفي الربا ، الذي يريد البعض هنا أن يحلله ، نجد أوروبا تحاول التخلص منه ، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أن المال لا يؤدي وظيفته في الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى صفر . أي أنهم عرفوا أن إلغاء الربا ضروري حتى يؤدي المال وظيفته الحقيقية في الحياة ، والذي ألجأهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الربا ، فأرادوا أن يمنعوا الربا . لقد وصلوا إلى ما بدأ به الإسلام من أربعة عشر قرنا . أتريد غلبة ، وتريد فوقا ، وتريد ظهورا ، أكثر من هذا بالنسبة لدين الله ؟

إذن ، نفهم الخصوم ما يصلح أمر الحياة اضطربهم إلى الأخذ بمبادئ الإسلام . ونتابع بالتأمل قول الحق : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . أي أن الحق جاعل الذين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الذين كفروا . فالذين يقولون فيك يا عيسى ابن مريم ما لا يقال من الوهمية ، هل

اتبعوك ؟ لا . . لم تتبعوك .

إن الذى يتبع عيسى هو الذى يأتى على المنهج القادم من الله . إن عيسى ابن مريم رسول إلى بنى إسرائيل . وديانات السماء لا تأتى لعصبيات الجنس أو القومية أو الأوطان أو غير ذلك ، ولكن المنهج هو الذى يربط الناس ببعضهم ببعض ، ولذلك جاء لنا الحق بقصة سيدنا نوح لتتعرف على هذه المعاني . لقد وعد الله سيدنا نوحاً أن ينجى له أهله . وعندما دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معه : ولكن ابن نوح رفض ، فقال نوح عليه السلام لله :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَاكِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فهل الأهلية بالنسبة للأنبياء هي التي قالها نوح هل أهلية الدم ؟ لا ، لأن الحق قال :

﴿ قَالَ يَتُوحَّ إِتَرُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُصَلِّ عَلَى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخِٰٔلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة مود)

لماذا ؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون بها فالذين اتبعوا المنهج الذى جاء به المسيح من عند الله ليس من يطلق على نفسه النسب للمسيح ، ومن يطلق على نفسه أنه يهودى إن هذه أسماء فقط . إن المتبع الحق هو من يتبع المنهج المنزل من عند الله . إن الأنبياء ميراثهم المنهج والعلم . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلمان وهو فارسى لا يجتمع مع رسول الله فى أرومة عربية :

(سلمان منا آل البيت)^(١) .

(١) هذا الحديث رواه الحاكم والطبرانى في الكبير .

وهكذا انتسب سلمون إلى آل البيت بحكم إيمانه ، وبنص حديث رسول الله صل الله عليه وسلم .

إذن : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ، أى أن الحق سبحانه قد جعل الفوقية للذين يتبعون المنهج الحق القادم من عند الله . والذي يصوب منهج عيسى هو محمد رسول الله . هل تكون الفوقية هي فوقية مساحة جغرافية ؟ لأن رقعة من الأرض التى تتبع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعة أرض المؤمنين بالإسلام ؟ لا . . . فالفوقية تكون فوقية دليل .

وقد بقول قائل : إن الدليل لا يلزم . نرد قائلين : كيف لا يلزم الدليل ؟ ونحن نرى الذين لا يؤمنون به يدللون عليه . كيف يدللون عليه ؟ إنهم يسرون فيها يقتنون من قوانين البشر إلى ما سبق إليه تقنين السماء . وما دام هنا في هذه الآية كلمة « فوق » وكلمة « كفروا » وهناك اتباع ، إذن ، فهناك قضية وخصومة ، وهناك حق ، وهناك باطل ، وهناك هدى ، وهناك ضلال . فلا بد من الفصل في هذه القضية . ويقاق الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادى لا على ذات نفسه ولا على سواه .

إن الظالمين يستطيعون التصرف في الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكتكم وأنتم عصاة لى في كثير من الأسباب ، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب . إذن . . . فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل لأن الله أوجد لنا جميعا إرادات ومرادات اختيارية . لكن في يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٥٠ ﴾

(سورة غافر)

(إذن فالحكم قادم بدون منازع . . . والذي يدل على ذلك قوله الحق :

﴿ إِذْ نَبَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ

﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُغْلِبَ الَّذِينَ هَارَوْا عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

(سورة البقرة)

إن الذي اتبع واحدا على ضلال يأتى يوم القيامة ليجد أن صاحب الضلال يتبرأ منه ، فيقول المتبعون سائلين الله : يا رب ارجعنا إلى الدنيا لننتقم ممن خدعونا . هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر . أما من ناحية الجسد الواحد نفسه ، فسوف تجد شهادة الجلود والألسنة والأيدي ، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح والخوارج لخدمة الإنسان ، تقول الجوارح والخوارج : لقد كانت لصاحبى إرادة نرغمى على أن أفعل ما لا أحب ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، فلا فخر ولا إرغام ولا تسخير لأن الملك كله لله . لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق : ولهم إلى مرجعكم فالحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هى ماذا ؟ هل هناك تكليف بعد ذلك ؟ لا . . لكن ثمرة الحكم هى الجزاء . ففى الآخرة لا عمل هناك ، والحكم فيها للجزاء . وكما قلنا : مادام هناك متبعون وكافرون ، وجماعة فوق جماعة ، وإلى الله مرجعهم ، فلا بد لنا أن نرى ما هو الحكم الذى سوف يكون ؟ ها هوذا القول الحكيم :

﴿١٦٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدِدْ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿١٦٩﴾

لماذا لم يأت الله بالحكم على المؤمنين أولا ؟ لأن المؤمنين يؤمنون بذلك تماما ، إنهم بإيمانهم يعرفون ذلك ويعونه . ولنتنبه هنا إلى أن الحكم لا يشمل العذاب فى الآخرة فقط ولكنه يشمل على العذاب فى الدنيا أيضا ، فعذاب الدنيا سيكون قبل الحكم ،

وكأن الحق يقول لنا : لا تعتقدوا أن تعذيب إياهم في الدنيا يعفيهم من تعذيب إياهم في الآخرة ، لأن التعذيب في الدنيا فقط قد يصيب من آمن بي .

أما من كفر بي ، فإنني أعذبه في الدنيا وأعذبه في الآخرة . إنني لا أؤجل العذاب للكافرين إلى الآخرة فقط ولكن سأضرم عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

إن الحصيصة بعد كل شيء هي أن يعذب الكافر في الدنيا وفي الآخرة . ويقول الحق عن هذا العذاب : إنه عذاب شديد ؛ لأن الحدث حين يقع لابد أن تلاحظ فيه القوة التي تناسب من أحدث . ولنضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى :

إن الطفل قد يكسر شيئاً في حدود قوته كطفل ، والشاب قد يكسر شيئاً مناسباً لقوته ، إذن فالحدث يجب أن نأخذ قياساً بالنسبة لفاعله ؛ فإذا كان الفاعل هو الله ، فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟ لا أحد يتصور ذلك ، وليس لأحد من هؤلاء من ناصر ، لأن الذي يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له ، وبعد ذلك يأتي الحق بالمقابل :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

أي فهذه أمة الذين كفروا سينالون العذاب الشديد من الله ، فالذين آمنوا سينالون النعيم المقيم بإذن الله .

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ

الْحَكِيمِ

يقول الحق تبارك وتعالى :

« ذلك » إشارة لما سبق من الأحداث ، في شأن امرأة عمران ، ومريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكان لكل واحد من هؤلاء قضية عجيبة بخلاف فيها تاموس الكون ، وكلها آيات ، أي عجائب . وقد نقلت إلينا هذه العجائب من واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث ، وجاء الخبر اليقين بتلك العجائب في قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكتاب الحق الموصوف من الله بأنه « الذكر الحكيم » فاطمئنوا - أيها المؤمنون - إلى أن ما وصلكم عن طريق القرآن ، إنما حكى واقعا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فما جاء به من أخبار عن تلك الآيات هو ما يطابق الواقع الذي عاصره الناس وحكوه .

وبعد ذلك يعرض الحق لنا سبحانه قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وهي قضية يجب أن نشبه إليها تنبها جديدا فتعرض وجهة نظر الذين يضعونه في غير الموضع الذي أراده الله ، كما تعرض وجهة نظر الذين يضعونه في الموضع الذي يريده الله ، فالمسألة ليست انتصارا منا في الدنيا على فريق يقول : كذا ، وليست انتصارا لفريق آخر في الدنيا ليقول : كذا ، لأنها مسألة لها عاقبة تأتى في الآخرة وبخامسيتها عليها الحق تعالى ، لذلك كان من المهم جدا أن نضيفها تصفية يتضح فيها الحق ، حتى لا يظلم أحد نفسه .

لقد جاء عيسى عليه السلام على دين اليهودية ، أي طرأ على دين اليهودية ونحن تعلم أن دين اليهودية قد تم تحريفه من اليهود تحريفا جعله ينحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، دون أدنى اعتبار للأمور الروحية والإيمان بالغيب ، فهم ماديون ، وتمثل ماديتهم في أنهم قالوا لموسى عليه السلام ما حكاه القرآن الكريم :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ بِمُوسَىٰ إِنَّ نُزُومَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ٥٥﴾

(سورة البقرة)

إنهم لم يلتفتوا إلى أن بعضا من كمال وجلال الله غيب ، لأنه لو كان مشهودا بحسب ، لحدد - بضم الحاء وكسر الدال - وحيز ، ومادام قد حُددَ وحيزَ في تصورهم فذلك يعنى أنه سبحانه قد يوجد في مكان ولا يوجد في مكان آخر ، والحق سبحانه منزّه عن مثل ذلك لأنه موجود في كل الوجود ، ولا تراه بالعين ، لكن يرى آثار أعماله وجميل صنعه في كل الكون .

إذن فكون الله غيبا هو من تمام الجلال والكمال . فية .

لكن اليهود قد صوروا الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقيتات حياتهم وهي الطعام ، لقد أرادها الله لهم غيبا حتى يربحهم في التيه ، فأرسل عليهم المن والسلوى ، كرزق من الغيب الذي يأن إليهم ، لم يستنبطوه . ولم يستوردوه ، ولم يعرفوا كنهه ، ولم يجتهدوا في استخراجها ، إنه رزق من الغيب ، ومع ذلك تمردوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ بِمُوسَىٰ إِنَّ نَصِيرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَاقِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَفَعِلُوا مِصْرًا قِيَانًا لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ
وَبَاءَ وَيَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما ألفوا ، وإن يروا هذا الطعام كأمر مادي من

أمور الحياة ؛ لذلك تشككوا في رزق الغيب ، وهو المن والسلوى ، وقالوا : « من يدرينا أن المن قد لا يأت ، وأن السلوى قد لا تنزل علينا » فلم تكن لهم ثقة في رزق وهب لهم من الغيب ؛ لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صرفة . ومادامت كل أمورهم مادية فهم في حاجة إلى هزة عنيفة نهز أوصال ماديتهم هذه ؛ لنخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب .

ونحن نعلم أن الفكر المادي لا يرى الحياة إلا أسبابا ومسببات ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع منهم ذلك الفكر المادي ، لذلك جاء يعيسى عليه السلام على غير طريق الناموس الذي يأتي عليه البشر ، فجعله من امرأة دون أب ، حتى يزلزل قواعد المادية عند اليهود . لكن الفتنة جاءت في قومه ، فقالوا بينوته للإله ، وسبحانه منزله عن أن يكون له ولد .

ولنا أن نسأل ما الشبهة التي جعلتهم يقولون بهذه النبوة ؟

قالوا : إن الأمومة موجودة والذكورة محتمة ، والشبهة إنما جاءت من أن الله نفخ فيه الروح ، فإنه هو الأب .

تقول لهم : لو أن الأمر كذلك لوجب أن تفتنوا في آدم أولى من أن تفتنوا في عيسى ؛ لأن عيسى عليه السلام كان في خلقه أمومة ، أما آدم فلا أمومة ولا أبوة ، فتكون الفتنة في آدم عليه السلام أكبر ، وإن قلتم : « إن الحق قال : إنه نفخ فيه من روحه » ، فلكم أن تعرفوا قول الله في آدم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّتَّسٍ ۖ فَلَمَّا إِذًا تَوَضَّعَ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ٥١ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالنفخ هنا في آدم موجود ، فلماذا سكتكم عن هذه الحكاية منذ آدم وحتى يحيى عليه السلام ، وهكذا يتم دحض تلك الحجة ونهايتها ، وبعد ذلك نأتي إلى قضية أخرى ، وهي توفيه أو وفاته ، إلى القضيتين معا - توفيه ووفاته - حتى

تُبَيِّنُ الرَّأْيَيْنِ مَعًا . وَمَعَنَا نَسْأَلُ : لِمَاذَا فَتِنْتُمْ فِي ذَلِكَ ؟ يَقُولُونَ : لَقَدْ أَحْيَا عِيسَى الْمَوْتَى ، وَنَقُولُ لَهُمْ : أَلَمْ تَأْخُذُوا تَارِيخَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَما قَالَ اللَّهُ لَهُ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُوْتِرَ تَوْفِيقٌ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَبْطِئَنَّ قُلُوبُكَ فَتُعْذِرَ أَرْبَعَةً مِّنَ النَّظَائِرِ فَوَضَعَهُنَّ لَكَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْ جَبَلٍ أَلَمْ تَدْعُهُنَّ يَا إِبْرَاهِيمُ سَعْيًا وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ ٢٥ 〉 ﴾

(سورة البقرة)

إِذْنٌ فَمَجَالُ الْفِتْنَةِ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَبِيرٌ ، وَكَذَلِكَ ، أَلَمْ يَحْيَءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَابَهُ هِيَ الْعَصَا ؟ . إِنَّهُ لَمْ يَحْيَءِ مَبْنًى كَانَتْ فِيهِ حَيَاةٌ ، إِنَّمَا أُجْرِيَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ خَلَقَ الْحَيَاةَ فِيهَا لَمْ تَثْبِتْ لَهُ حَيَاةٌ ، فَاصْبَحَتْ الْعَصَا - وَهِيَ جَادٌ - حَيَةً تَسْمَى لِمَاذَا إِذْنٌ لَمْ تَفْتِنُوا فِي عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟

وَهَكَذَا نَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَفْتِنَ أَحَدٌ فِي الْمَعْجَزَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَوْ فِي إِحْيَايَةِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاتَّبَاعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَفَقَّهُونَ مَعْنَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَيْبٌ ، وَلَكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ مَعْنَى يَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُوَسِّسَ الْبَشَرَ بِصُورَةٍ يَتَجَلَّى لَهُمْ فِيهَا بَشَرًا فَجَاءَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَتَحَقَّقَ لَهُمْ ذَلِكَ الْأَنْسَ .

وَنَقُولُ لَهُمْ : سَنَسْأَلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِدُونِ حَسَّاسِيَّةٍ ، وَبِدُونِ عَصِيَّةٍ ، بَلَى بِالْعِزِّ ، وَنَسْأَلُ : هَلْ خَلَقَ اللَّهُ عِيسَى لِيُعْطَى صُورَةٌ لِلْإِلَهِ ؟ . إِنْ عِيسَى كَانَ طِفْلًا ، ثُمَّ كَبُرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَأَيُّ صُورَةٍ مِنْ صُورِهِ الْمُرَحِّلِيَّةِ كَانَتْ تُمَثِّلُ اللَّهَ ؟

إِنْ كَانَتْ صُورَةٌ طِفْلٌ فَهَلْ هِيَ صُورَةُ اللَّهِ ؟ وَإِنْ كَانَتْ صُورَةٌ كَهْلٌ فَهَلْ هِيَ صُورَةُ اللَّهِ ؟ إِنْ لَمْ تَكُنْ صُورَةً وَاحِدَةً لَا تَرَاهَا وَلَا تَعْرِفُ كُنْهَهَا فَهُوَ سُبْحَانَهُ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَأَيُّ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي تَقُولُونَ : إِنَّهَا صُورَةُ اللَّهِ ؟

وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الصُّوَرِ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَغْيَارًا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مِثْرُهُ عَنْ ذَلِكَ . وَلَوْ كَانَ عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْنَا : إِنَّهُ الثَّابِتُ وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ

- سبحانه - الحق الذي لا يتغير إنهم يقولون : إن الله أراد أن يجعل صورته في بشر
لبؤنس الناس بالإله ، فتمثل في عيسى .

ولنا أن نسأل : كم استغرق وجود عيسى على الأرض ؟ والإجابة : ثلاثين عاما
أو يزيد قليلا . وهكذا تكون فترة معرفة الناس بالصورة الإلهية محدودة بهذه السنوات
الثلاثين طبقا لتصوركم . ولابد أن نسأل : ما عمر الخلق البشري كله ؟ إن عمر
البشرية هو ملايين السنين . فهل ترك الله خلقه السابقين الأولين بدون أن يبدى لهم
صورته ، ثم ترك خلقه الآخرين الذين قدموا إلى الحياة بعد وفاة عيسى - أى تمام
مهمته - ورقعه ، بدون أن يعطيهم صورة له ؟ إن هذا تصور لإله ظالم ، وسبحانه
وتعالى منزّه عن الشرك والظلم . فلا يعقل أن يرض بصورته فلا يفيها إلا ثلاثين
عاما ؟ إن هذا قول لا يقبله عقل يثق في عدالة الله المطلقة .

ثم إنهم يقولون : إن عيسى عليه السلام قد صلب ، وهم معذورون والحق
سبحانه وتعالى قد عذرهم في ذلك فأورد التاريخ الحق العادل ، حين يقول :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن
شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ ﴾ (٥٧)

(سورة النساء)

لقد جعل الله لهم عذرا في أن يقولوا : إنه قتل أو صلب ؛ لأنه شبه لهم وكان من
المعقول أن يلتمسوا من الإسلام حلا لهذه المشكلة ، لأن الإسلام جاء ليقول :
« لا ، لقد شبه لكم ، فما قتلوه وما صلبوه ؛ لأن هذا الفعل - القتل أو الصلب -
ينقض فكرتهم عن أنه إله أو ابن إله . لأن المصلوب لو كان إله أو ابن إله ، لكانت
لديه القدرة التي تغلب الصالب ، فكيف يعقل الإنسان أن يتقلب الإله - أو ابن
الإله - مقدورا عليه من مخلوق ؟ والإسلام عندما يقول : إن عيسى ابن مريم لم
يصلب فقد كرمه الله . وهكذا نرى أن الإسلام قد جاء ليصفى العقائد كلها من
عيوب التحريف التي قام بها المتبعون لتلك الأديان .

وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٥٩

لقد جاء القول الفصل بالحجة الأقوى ، فإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء يدون أب ، فإن آدم عليه السلام قد جاء بدون أب ، ويدون أم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلمون أنى رسول الله وأنى نبي هذه الأمة ، فقالوا : انظرونا غدا نتكلم فى هذه المسائل ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فقالوا : لا .

وعندما يعرض الحق سبحانه صراع قضية حق مع قضية باطل فهو يفوق :

﴿وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُرْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(سورة سبأ)

أى إن طرفا واحدا على هدى ، والطرف الآخر على ضلال مبين ، لماذا ؟ لأن القضيتين متناقضتان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجتمع بهم فى مكان ظاهر ، ويدعو الطرفان الأبناء والنساء ، ويستهل الجميع إلى الله الحق أن تستنزل لعنة الله على الكاذبين ، وفى هذا جاء القول الكريم :

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُسْتَرِينَ﴾ ٦٠

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ
تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ
وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ
عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

لقد جاء الحق البين والقول الفصل من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا مجال للشك أو المراء ، ومن يرد أن يحثكم إلى أحد فليقبل الاحتكام إلى الإله العادل الذى لن يحكم بالباطل أبدا ، فهو سبحانه الحق ، ويحيى هذا القول : « تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . إن الطرفين مدعوان ليرجها الدعوة لأبنائهم ونسائهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مدعو لدعوة أبنائه ونسائه ، ومن له الولاية عليهم ؛ وبحضوره هو صلى الله عليه وسلم ، وهم مدعون لدعوة أبنائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال .

وقد يسأل سائل : ولماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء ؟ والإجابة هي : أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التى نهم كل إنسان ، وإن لم يكن رسولا ، إنهم بضعة من نفسه وأهله . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يقول لهم : « هاتوا أحبائكم من الأبناء والنساء لأنهم أعزة الأهل والصقهم بالقلوب وادخلوا معنا فى مباهلة » « والمباهلة » : هى التضرع فى الدعاء لاستئزال اللعنة على الكاذب ، فالمباهلة - بضم الباء - هى اللعنة ، وعندما يقول الطرفان : « يارب لتزل لعنتك على الكذاب منا » فهذا دعاء بمعمل مطلق العدالة ؛ فالإله الذى يستطيع أن ينزل اللعنة هو الإله الحق . وهو سينزل اللعنة على من يشركون به ، ولو كانت اللعنة تنزل من الألهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد .

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة والبهلة - كما قلنا - وهى ضراعة إلى القوة القاهرة التى تنصرف فى الأمر لتبى الخلاف ، ثم صار المراد بالمباهلة هنا مطلق الدعاء ،

فلنحن نقول : « نبتهل إلى الله » ، أى ندعو الله .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالأمر المنزل من عند الله الحق بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ، لكنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : « أنظرنا إلى غد ونأتى إليك » .

ثم أرسلوا في الصباح واحدا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط ؟ ووجد رسولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسين والحسن وفاطمة وعلى بن أبي طالب ، لذلك قالوا : « لالئن نستطيع المباهلة » ، والله ما باهل قوم نبيا إلا أخذوا ، وحاولوا ترضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : « لنظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه » لقد ظنوا أن الدعوة إلى المباهلة هي مجرد تهديد لن ينفذه الرسول ، لكن صاحب اليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة ، ولئن يقبل على مثل هذا الموقف إلا من عنده عميق الإيمان واليقين ، أما الذى لا يملك يقينا فلن يقبل على المباهلة بل لابد أن يرجع عنها . وقد رجعوا عن المباهلة ، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لننطق معا ألا تغفروا أو تخفنا على أن نرسل لك الجزية في رجب وفي صفر وهي من الخيل وغير ذلك ! لقد فروا من المباهلة لمعرفتهم أنهم في شك من أمرهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على يقين بما أنزله الله عليه وكان العرب إذا خرجوا إلى الحرب يأخذون نساءهم معهم ، وذلك حتى يتجمل الرجل من الفوار ، وحتى لا يترك أولاده ونساءه لكيلا يذلوا من بعد موته ، فإن قتل قتلوا معه هم أيضا .

إذن إن أردنا نحن الآن أن نهى الجدل في مسألة عيسى عليه السلام فلنسمع قول الحق سبحانه وتعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين » إنه الحق القادم من الربوبية فلا تكن أيها السامع من الشاكين في هذه المسألة . ومن أراد أن يأق بحجة مضادة للحجة القادمة من الله فلنا أن نحسمها بأن نقول : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

ولن يجروا واحد منهم على ذلك . لماذا ؟ لأن السابقين عليهم قد فروا من المباهلة

ولأن الله - سبحانه - يريد أن يزيد المؤمنين إيماناً واطمئناناً إلى أن ما ينزله على رسوله هو الحق قال - جل شأنه - :

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وقوله الحق : « إن هذا هو القصص الحق » يلفتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا هو الحق المطلق ، وليس مجرد حكاية أو قصة ، أو مزج خيال بواقع ، كما يحدث في العصر الحديث ، عندما أخذت كلمة القصة في العرف الأدبي الحديث - القادم من حضارة الغرب - إن القصة بشكلها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دوراً كبيراً ، لكن لو عرفنا أن كلمة « قصة » مشتقة من قص الأثر ليبحث أهل الأدب فيها يكتبون من روايات وخیالات عن كلمة أخرى غير « قصة » ، فالقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا تخيلة .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : « إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله » فإذا جاء القصص من الإله الواحد فلنطمئن إلى أنه لا يوجد إله آخر سيأتى بقصص أخرى ، ولأن الله الواحد هو « العزيز الحكيم » أى الغالب على أمره ، ومع أنه غلب على أمره فهو حكيم في تصرفه .

لكن هل انتظ القوم الذين جادلوا ؟ لا ، إن الحق يقول :

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

إن قوله « فإن تولوا » يدل على أن الله قد علم ألا أنهم لن يقبلوا المباهلة ، وهكذا حكموا على أنفسهم بأنهم المفسدون ، فصدق الحق سبحانه في قوله : « فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين » ومع ذلك فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى الدين الكامل لأنهم مؤمنون بالإله ، وبالسماء ، وبالكتاب ، لذلك يقول الحق :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ



إنها دعوة إلى كلمة مستوية لا التواء فيها « ألا نعبد إلا الله » وهذا أمر لا جدال فيه ، ثم « ولا نشرك به شيئا » أى لا ندخل معه من لا يقدر على الارتفاع إلى جلال كماله ، فالعقول السليمة ترفض كلمة « الشرك » ؛ لأن الشرك يكون على ماذا ؟ هل الشرك على خلق الكون ؟ إن كل مخلوق أشركوه في الألوهية إنما جاء من بعد أن خلق الله الكون . أو يكون الشرك على إدارة هذا الكون ؟

إذا كان هذا هو السبب في الشرك فهو آفته من أن يكون سببا لأن الحق سبحانه قادر على إدارة الكون ، وأنزل منهجا إذا ما اتبعه الإنسان صار الكون منسجما . إذن فأي شرك لا لزوم له . وإن كان - والعياذ بالله - له شريك وتمتع إله ما يقدرات خاصة فهذه القدرات تنقص من قدرات الإله الثاني . وهذا عجز في قدرة هؤلاء الآلهة ، ولهذا يحسم الحق هذا الأمر بقوله الكريم :

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٦١)

(سورة المؤمنون)

إذن فمسألة الشركاء هذه ليست مقبولة ، وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » . أى ألا نأخذ من بعضنا كهنوتا وكهنة ، يضع الواحد منهم الخلال لنا أو الحرام علينا ؛ فالتحليل والتحرير إنما باقى من الله ، وليس لمخلوق أن يحلل أو يحرم . ثم يقول الحق : « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أى إن من لا يقبل عبادة الإله الواحد الذى لا شريك له ولا أرباب تحلل أو تحرم ، إنما يريد أربابا وشركاء ، وهذا معناه أن عليه غير مستعد لتقبل قضية الإيمان ؛ لأن قضية الإيمان تتميز بأن مصدرا واحدا هو الذى له مطلق القدرة ، وهو مصدر الأمر فى الحركة وهو الواحد الأحد ، فلا تتضارب الحركات فى الكون .

إن حركاتنا كلها وهى الخاضعة لمنهج الله بـ « افعل » و « لا تفعل » فلو أن هناك إلها قال : « افعل » وإلها آخر قال : « لا تفعل » ، لكان معنى ذلك والعياذ بالله أن هؤلاء الآلهة أغيار لها أهواء . والحق سبحانه يحسم هذا بقوله :

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلَى أَتَيْتَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٧١)

(سورة المؤمنون)

وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، إنها آية تحمل دعوة مستوية بلا تنوعات ، فلا عبادة إلا لله ، ونحن لا نأخذ « افعل » و « لا تفعل » إلا من الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا كهنوتا أو مصدرا للتحليل أو التحريم ، فإن رفضوا وتولوا ، فليقل المؤمنون : « اشهدوا بأنا مسلمون » أى أنه

لا يوجد إلا إله واحد ، ولا شركاء له ، وبعضنا لا يتخذ بعضا أربابا ، وتلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر المستوى الذي لا عوج ولا تقوى فيه ونحن متبعون ما جاء به .

وبعد ذلك يقول الحق :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ
وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

إن الحق يسألم : لماذا يكون جدالكم في إبراهيم خليل الله ؟ إن اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى ، والنصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى ، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا كما يدعى اليهود ، فاليهودية قد جاءت من بعد إبراهيم والنصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيا ، لأن النصرانية قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، فلم الحاجة إذن ؟ لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم فكيف يكون تابعا للتوراة والإنجيل ؟

وبعد ذلك يقول الحق :

هَٰؤُلَاءِ حُجَجُكُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ ، عَلِمُ
فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ ، عَلِمُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
لَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾

أى لقد جادلتم فيما بقى عندكم من التوراة وتريدون أن تأخذوا الجدل على أنه باب مفتوح ، تجادلوا في كل شيء ، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الخالق الرحمن علام الغيوب .

ويوضح الحق هذا الأمر فيقول :

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

وبذلك يتأكد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ، لأن اليهودية جاءت من بعده . ولم يكن إبراهيم نصرانيا ، لأن النصرانية جاءت من بعده ، لكنه وهو خليل الرحمن « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ونحن نفهم أن كلمة « حنيفا » تعنى الدين الصافي القادم من الله ، والكلمة مأخوذة من المحسات ، فالحنف هو ميل في الساقين من أسفل ، أى اعرجاج في الرجلين ، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير مستقيم .

وهنا يتساءل الإنسان ، هل كان إبراهيم عليه السلام في العوج أو في الاستقامة ؟ وكيف يكون حنيفا ، والحنف عوج ؟ وهنا نقول : إن إبراهيم عليه السلام كان على الاستقامة ، ولكنه جاء على وثنية واعوجاج طاغ فالتعالم كان معوجا . وجاء إبراهيم ليخرج عن هذا العوج ، وما دام منحرفا عن العوج فهو مستقيم ، لماذا ؟ لأن الرسل لا يأتون إلا على فساد عقلى وتشريع طاغ . والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل في كل نفس خلية إيمانية . والخلية الإيمانية تسبقت مرة ، فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتتحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف ، فيكون الانتباه ، وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التى تهمس للإنسان عند الفعل الخاطيء : إن الله لم يأمر بذلك .

ويعود الإنسان إلى منهج الله تائباً ومستغفراً ، فإن لم توجد النفس اللوامة ضارت النفس أماراة بالسوء ، وهي التي تتجه دائماً إلى الانحراف ، وحول النفس الواحدة توجد نفوس متعددة تحاول أن تقاوم وتفهم المعوج ، وهي نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرة يكون الاعتدال والانحياز إلى الصواب بعد الخطأ فلماذا من ذات الإنسان أى من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفس اللوامة ، بل توجد النفس الأماراة بالسوء ، لكن المجتمع الذي حول هذا الإنسان لا يحظر من أن يكون فيه خلقة من الخير تهديه إلى الصواب ، أما إذا كانت كل الخلايا في المجتمع قد أصبحت أماراة بالسوء فمن الذي يعدها ويصوبها ؟

هنا لابد أن يأتي الله برسول جديد ، لأن الإنسان يفترق الردع من ذاتية النفس بخلاياها الإيمانية ، ويفترق الردع من المجتمع الموجود لخلوه كذلك من تلك الخلايا الطيبة ، وهكذا يطم الظلام ويعم ، فيرسل الله رسولا ليعيد شعلة الإيمان في النفوس . والله سبحانه وتعالى قد ضمن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يأتيها نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا فمن الضروري أن يوجد فيها الخير ويبقى ، فالخير يبقى في الذات المسلمة ، فإن كانت الغفلة فالفنفس اللوامة تضرب ، وإن كانت هناك نفس أماراة بالسوء فهناك قوم كثيرون مطمئنون يهدون النفس الأماراة إلى الصواب .

وهكذا لن تخلو أمة محمد في أى عصر من العصور من الخير ، أما الأمم الأخرى السابقة فامرأها مختلف ؛ فإن الله يرسل لهم الرسل عندما تنطق كل شعور الخير في النفوس ، ويعم ظلام الفساد فتدخل السماء ، وحين تدخل السماء يقال : إن السماء قد تدخلت على عوج لتعده وتقومه .

إذن إبراهيم عليه السلام جاء حنيفاً ، أى مائلاً عن المائل ، ومادام مائلاً عن المائل فهو مستقيم ، فالحنيفية السمحة هي الاستقامة . وهكذا تفهم قول الحق : وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين .

إن إبراهيم هو أبو الأنبياء ، ولو لم تكن اليهودية قد حُرِفَت وبدلت ، وكذلك النصرانية لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم ؛ لأن الأديان لا تختلف في أصولها ، ولكن قد تختلف في بعض التشريعات المناسبة للعصور ،

ولذلك فبينا إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا باعتبار التحريف الذي حدث منهم ، أى لا يكون موافقا لهم في عقيدتهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيا للأسباب نفسها ، لكنه « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » أى أنه مائل عن طريق الاعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : « إن إبراهيم كان مستقيما » ولماذا جاء بكلمة « حنيفا » التي تدل على العوج ؟ ونقول : لو قال : « مستقيما » لظن بعض الناس أنه كان على طريقة أهل زمانه وقد كانوا في عوج وضلال ولهذا يصف الحق إبراهيم بأنه « كان حنيفا مسلما » وكلمة « مسلما » تقتضي « مسلما إليه » وهو الله ، أى أنه أسلم زمامه إلى الله ، ومُسَلِّما فيه وهو الإيمان بالمنهج .

وعندما أسلم إبراهيم زمامه إلى الله فقد أسلم في كل ما ورد به « افعل ولا تفعل » وإذا ما طبقنا هذا الاشتقاق على موكب الأنبياء والرسل فنستجد أن آدم عليه السلام كان مسلما ، ونوحا عليه السلام كان مسلما ، وكل الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين .

كان كل نبي ورسول من موكب الرسل يلقي زمامه في كل شيء إلى مُسَلِّم إليه ؛ وهو الله ، ويعطى المنهج الذي نزل إليه ، وبذلك كان الإسلام وصفا لكل الأنبياء والمؤمنين بكتب سابقة ، إلى أن نزل المنهج الكامل الذي اختتمت به رسالة السماء على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم به « افعل ولا تفعل » ولم يعد هناك أمر جديد يأتي ، ولن يشرع أحد إسلاما لله غير ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اكتملت الغاية من الإسلام ، ونزل المنهج بنهايه من الله . واستقر الإسلام كعقيدة مصفاة ، وصار الإسلام علما على الأمة المسلمة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهي التي لا يُستدرك عليها لأنها أمة أسلمت لله في كل ما ورد ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم . لذلك قال الحق :

﴿ إِنِّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا

النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

ولنا أن نلاحظ أن كل رسول من الرسل السابقين على سيدنا رسول الله إنما نزل لأمة محددة ، فموسى عليه السلام أرسله الله إلى بني إسرائيل ، وكذلك عيسى عليه السلام ، قال تعالى : « ورسولا إلى بني إسرائيل » أي رسولا مسلما في حدود تطبيق المنهج الذي جاء به ونزل إلى هؤلاء الرسل ، فلما تغير بعض من التشريع وثبت تصفية المنهج الإيماني بالرسالة الخاتمة ، وهي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهي عامة لكل البشر فقد آمن بعض من أهل تلك الأمم بومكاته عليه الصلاة والسلام ، كما آمن بها من أرسل فيهم سيدنا رسول الله ، واستمر موكب الإيمان بالدين الخاتم إلى أن وصل إلينا . وهكذا صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي خاتمة الأمم الإسلامية ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأناب اللبنة وأنا خاتم النبيين » (١) .

وحين يقولون : إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا . إنما أوردوا ذلك لأن إبراهيم عليه السلام فيه أبوة الأنبياء . وهم قد أرادوا أن يستحضروا أصل الخلقة الإيمانية في محاولة لأن يسبوا إلى أنفسهم وكأنهم تناسوا أن المسألة الإيمانية ليست بالجنس أو الوطن أو الدم ، أو أي انتهاء آخر غير الانتهاء لمنهج الله الواحد ، ولذلك فأولى الناس بإبراهيم ليسوا من جاءوا من ذريته ، بل إن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد اتبع إبراهيم عليه السلام ، لذلك فلا علاقة لإبراهيم بمن جاء من نسله ، ممن حرفوا المنهج ولم يواصلوا الإيمان ، لقد حسم الله هذه القضية مع إبراهيم عندما قال سبحانه :

(١) رواه البخاري ومسلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ بَيْعَتَهُمْ فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ إِنَّهُ أَقْبَلُ النَّاسَ بِإِيمَانٍ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٢١٦)

(سورة البقرة)

لقد امتحن الحق إبراهيم بكلمات هي الأوامر والنواهي ، فآتمها إبراهيم عليه السلام تماما على أقصى ما يكون من الالتزام ، ولم يكن مجرد إنعام يتظاهر بالشكلية ، إنما كان إنعاما بالشكل والمضمون معا .

والمثال على تمام الأوامر والنواهي بالشكل فقط هو رؤيتنا لمن يتلقى الأمر من الله بأن يصل خمسة فروض ، فيصل هذه الفروض الخمسة كإجراء شكل ، لكن هناك إنسانا آخر يصل هذه الفروض الخمسة بحققها في الكمال مضمونا وشكلا ، إنه يتم الأوامر الإلهية إنعاما يرضى عنه الله .

ولقد أدى إبراهيم عليه السلام الابتلاءات التي جاءت بالكلمات التكليفية من الله على أكمل وجه . ألم يأمر الله إبراهيم عليه السلام على أن يرفع القواعد من البيت ؟ أما كان يكفي إبراهيم عليه السلام لينفذ الأمر برفع بناء الكعبة إلى أقصى ما تطوله يده ؟ إنه لو فعل ذلك لكان قد أدى الأمر ، لكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يوفي الأمر بإقامة القواعد من البيت تمام الوفاء ، فبنى الكعبة بما تطوله يده ، وبما تطوله الحيلة أيضا ، فجاء إبراهيم عليه السلام بحجر ليقف من فوقه ، ويزيد من طول جدار الكعبة مقدار الحجر ، لقد أراد أن يوفي البناء بطاقته في اليدين وبمحيطه الابتكارية أيضا ، فلم يكن معروفا في ذلك الزمان « السقالات » وغير ذلك من الأدوات التي تساعد الإنسان على الارتفاع عن الأرض إلى أقصى ما يستطيع .

ولو أن إبراهيم عليه السلام قد رفع القواعد من البناء على مقدار ما تطوله يده ، لكان قد أدى تكليف الله ، لكنه أراد الأداء بإمكاناته الذاتية الواقعية ، وأضاف إلى ذلك حيلة من ابتكاره ، لذلك جاء بالحجر الذي يقف عليه ليزيد من جدار الكعبة ، وهذا ما نعرفه عندما نزور البيت الحرام بـ « مقام إبراهيم » فلما أتم إبراهيم الكلمات

هذا الإنعام قال الحق سبحانه لإبراهيم :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى إنك يا إبراهيم مأمون على أن تكون إماماً للناس في دينهم لأنك أديت « افعل ولا تفعل » بنهم وإتقان . ولترغبه إبراهيم عليه السلام على منهج ربه ، إنه لم يرد أن يستمر المنهج في حياته فقط ، ولكنه طلب من الله أن يظل المنهج والإمامة في ذريته ، فقال الحق سبحانه على لسان إبراهيم طالبا استمرار الأمانة في ذريته :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

إن سيدنا إبراهيم قد امتلأ بالغيرة على المنهج وخاف عليه حتى من بعد موته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يعلم الخلق جميعهم من خلال إبراهيم فيقول سبحانه :

﴿ لَا بَنَاءَ لَكُمْ عَلَيْهِ ۖ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن المسألة ليست وراثية ، لأنه سيأتى من ذريتك من يكون ظالماً لنفسه ويعدل في المنهج بما يناسب هواه ، وهو بذلك لا تتوافر فيه صفات الإمامة . إن الحق يعلمنا قواعد إرث النبوة ، إن تلك القواعد تقضى أن يرث الأنبياء من هو قادر على تطبيق المنهج بتفاهه دون تحريف ، والمثال على ذلك ما علمه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لسلمان الفارسي : « سلمان منا آل البيت »^(١)

إن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لم يقل لسلمان الفارسي « أنت من العرب » لا . بل نسبته لآل البيت ، أى نسبته إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث

(١) رواه الخاتم في مستدرکه، والطبرانی في معجمه الكبير.

من تطبيق المنهج بنهاية ، لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علمه الحق سبحانه لسيدنا إبراهيم عليه السلام عن إرث النبوة ، فليس هذا الإرث بالدم ، إنما بتطبيق المنهج نصا وروحا ، كما تعلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علمه له الحق عن نوح عليه السلام ، لقد وعد الحق نوحا بأن ينجيه وإهله من الطوفان . ويرى نوح عليه السلام ابنه مشرفا على الغرق ، فيسأله : ألم يعدني الله أن ينجي أهلي ؟ ، فيأدى نوح عليه السلام ربه ، بما أورده القرآن الكريم حين قال :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَاكِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فيقول الحق ردا على طلب نوح نجاة ابنه :

﴿ قَالَ يَتُوحُّ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُصَلِّهِ فَلَا تَمَسَّهُ مَتَابَسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

إِنِّي أُعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة هود)

ولننظر إلى التعليل البقراى لانتفاء الاهلية عن ابن نوح عليه السلام : إنه ليس من أهلك ؟ لماذا ؟ : إنه عمل غير صالح ، إن الحق لم يقل : إنه عامل غير صالح ، الذاتية ممنوعة . لأن الفعل هو الذى يحاسب به الله ، فالإيمان ليس نسبا ، ولا انتهاء لبلد ما ، أو انتهاء لقوم ما ، إنه العمل ، فمن يعمل بشرع أى رسول يكون من أهل هذا الرسول ، إن النسبة للأنبياء لا تافى للذات التى تنحدر من نسب النبى ، بل يكون الانتساب للأنبياء بالعمل الذى تصنعه الذات .

وفى موقع آخر يعلمنا الحق عن سيدنا إبراهيم موقفا بصور رحة الخالق بكل خلقه من آمن منهم ومن كفر . لقد طلب إبراهيم عليه السلام سعة الرزق لأهل بيته الذين جعل إقامتهم بمكة ، كما جاء فى الكتاب الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

فهل استجاب الحق لدعوة إبراهيم برزق الذين آمنوا فقط من أهل مكة ؟ لا ، بل رَزَقَ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ . وعلم إبراهيم ذلك حينما قال له :

﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

إن الرزق المادى مكفول من الحق لكل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، والافتيات المادى مكفول من قبل الله لأنه هو الذى استدعى المؤمن والكافر إلى هذه الدنيا . أما رزق المنهج فأمر مختلف ، إن اتباع المنهج يقتضى التسليم بما جاء به دون تحريف . وهذا المنهج لم يتبعه أحد عن جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام إلا القليل ، فمن آمن برسالة موسى عليه السلام دون تحريف هم قلة .

ثم جاء عيسى عليه السلام برسالة تبعد بنى إسرائيل عن المادية الصرفة إلى الإيمان بالغيب ، لكن رسالة عيسى عليه السلام تم تحريفها أيضا ، وعلى ذلك فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتبعوا المنهج الخاتم الصحيح والمصفى لكل ما سبق من رسالات ، وهؤلاء هم الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى المؤمنين جميعا من آمن منهم برسالة إبراهيم خليل الرحمن ، إيمانا صحيحا كاملا ، ومن آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَن يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

إن معنى «ودت» هو «ثمنت» و«أحبت». ولماذا أحبوا أن يضلوا المؤمنين؟ لأن المنحرف حين يرى المستقيم، يعرف أنه كمنحرف لم ينجح في أن يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيماني لـ «افعل» و«لا تفعل»، أما الملزم المؤمن فقد استطاع أن يضبط نفسه، ومساعدة يرى غير الملزم إنساناً آخر ملتزماً، فإنه يحقر نفسه، ويقول بينه وبين نفسه حسداً للمؤمن: لماذا وكيف استطاع هذا الملزم أن يقلد على نفسه؟

ويحاول المنحرف أن يأخذ الملزم إلى جانب الانحراف، وعندما لا يستطيع جذب الملزم إلى الانحراف فهو يسخر منه، ويهزأ به، ويحاول أن يحتال عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف. ألم يقل الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا أَمَرُوا بِهِمْ يَنْصَامُونَ ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَفِيفِينَ ۝﴾

(سورة الطه)

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنساناً مؤمناً إذا استقامة، فيسخرون منه بكلمات كالتي تسمعها «خذنا على جناحك» أو يحاولون النيل من إيمانه وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم فهم يروون يتندر كيف سخروا من المؤمنين، وكأنهم يحققون السعادة هؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن، ويطعن الحق المؤمنين بأن لهم يوماً يضحكون فيه من هؤلاء الكفار:

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى الْأَرْآءِكِ يَنْظُرُونَ ۝﴾

(سورة الطه)

ويسأل الحق أهل الإيمان:

﴿ هَلْ لِرَبِّ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(سورة التَّوْبَةِ)

أى قد عرفتم كيف أجازى بالعقاب أهل الكفر .

لذلك فأولى الناس بإبراهيم هم المؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ولا يفتأ بعض من أهل الكفر من محاولة جذب المؤمنين إلى الضلال . إنهم يحبون ذلك ويتمنونه ، ولكن ليس كل ما يوده الإنسان يحدث ، فالتمنى هو أن يطلب الإنسان أمرا مستحيلا أو غير المثال ، هم يحبون ذلك ولكن لن يصلوا إلى ما يريدون ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم يسمنون إضلال المؤمنين ، لكن هل يستطيعون الوصول إلى ذلك ؟ لا : والمثال على ذلك هو ما فعله بعض أهل الكتاب من اليهود عندما ذهبوا إلى معاذ بن جبل وإلى حذيفة الصحابيين الجليلين ، وذهبوا أيضا إلى عمار الصحابي الجليل وحاولوا فتنه معاذ وحذيفة وعمار لكنهم لم يستطيعوا .

وعلىنا أن نعرف أن « الضلال » يأتي على معان متعددة ، فقد يأتي الضلال مرة بمعنى الذهاب والقضاء في الشيء ، مثل قوله الحق :

﴿ وَقَالُوا أَوَآدَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَنَا لَمْ نَحْتِجْ جَدِيدَ بَلَىٰ هُمْ يَلْتَمِسُونَ ﴾

(سورة السجدة)

لقد تساءل المشركون : أبعد أن نذوب في الأرض وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ، ونبحث من جديد ؟ . وقد يأتي الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اعتناء الإنسان إلى وجه الحق ، كما قال الحق وصفا لرسوله صلى الله عليه وسلم عندما رفض عبادة الأصنام وظل يبحث عن المنهج الحق .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾

(سورة الضحى)

اى أنك يا محمد لم يعجبك منهج قريش في عبادة الأصنام ، وظللت تبحث عن المنهج الحق ، إلى أن هدأك الله فانزل إليك هذا المنهج القويم . لقد كنت ضالا تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لون آخر من الضلال ، وهو أن يتعرف الإنسان على المنهج الحق ، لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيدا عن هذا المنهج مثل قول الحق : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم » .

ونسأل : كيف يحدث إضلال النفس ؟ وتكون الإجابة هي : أن الضال الذى يعرف المنهج وينكره إنما يرتكب إثما ، ويزداد هذا الإثم جرما بمحاولة الضال إضلال غيره ، فهو لم يكتف بضلال ذاته بل يزداد ضلالا بمحاولة إضلال غيره . وهذا القول الكريم قد حل لنا إشكالا في فهم قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰٓ جِلْهَا لَا تُخْلَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة فاطر)

وفي فهم قوله - جل شأنه - :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَرْمُونَ ۚ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نعرف أن الوزر في آية فاطر هو وزر الضلال في الذات والأوزار في سورة النحل هي لإضلال غيرهم فهؤلاء الضالون لا يكتفون بضلال أنفسهم ، بل يزدادون من ضلال أنفسهم أوزارا بإضلال غيرهم فهم بذلك يزدادون ضلالا مضافا إلى أنهم يحملون أوزارهم كاملة . « وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم لا يشعرون بالكارثة التي سوف تأتي من هذا الضلال المركب الذي سينالون عليه العقاب . ولو أنهم تعمقوا قليلا في الفهم لتوقفوا عن إضلال غيرهم ، ولو بحثوا عن اليقين الحق لتوقفوا عن ضلال أنفسهم .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا كُنْتُمْ تَشْهَدُونَ
وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

إن الحق يسأله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ وهنا قد يسأل سائل هل شهد أهل الكتاب الآيات العجيبة في زمن رسول الله ؟

والإجابة هي : ألم يستفتح اليهود علي من يقاتلونهم بمجيء نبي قادم ؟ إنهم كانوا يدعون الله قاتلين : إنا نسألك بحق النبي الأُمِّي الذي وعدتنا أن يخرجنا لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم فكانوا يُنصرون على أعدائهم فلما بعث - صلى الله عليه وسلم - كفروا به بغيا وحسدا قال الله تعالى :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَتَعَنَّاهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾

(سورة البقرة)

لقد كفروا من أجل السلطة الزمنية . فقد كانوا يريدون الملك والحكم . وهذا عبد الله بن سلام الذي كان يهوديا فأسلم قد قال عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عرفته حين رأيتكم عرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد » .

إذن فمعرفتهم بنعت رسول الله ووصفه موجودة في آيات التوراة ولقد شهدوا
الآيات البينات ، لكنهم أنكروا الآيات طمعا في السلطة الزمنية حتى ولو تطلب ذلك
أن يحرف بعضهم منهج الله سبحانه وتعالى ويحولوا هذا التحريف إلى سلطة زمنية
ناسدة كهؤلاء الذين باعوا صكوك الغفران ولذلك قال الحق عن هؤلاء الذين يحرفون
منهج الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴾ (٧٨)

(سورة البقرة)

إن العذاب هو مصير هؤلاء الذين يحرفون كلام الله ومنهجه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُوكَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٧٨)

ومعنى « تليس » هو إدخال شيء في شيء ، فنحن عندما ترتدى ملابسنا ، إنما
ندخل أجسامنا في الملابس ، وهذا يختلف منظر اللباس والملبس .

وفي مجال الدعوة إلى الله نجد دائما الحق وهو يواجه الباطل ، إنهم يخلطون الحق
بالباطل فهذه الآية نتحدث عن محاولة من بعض أهل الكتاب لإلباس الحق
بالباطل ، وقد حدث ذلك عندما حرقوا التوراة والإنجيل وأدخلوا فيها ما لم يأت به
موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام ، وكانت هذه هي محاولة ضمن محاولات
أخرى لإلباس الحق بالباطل ، ثم جاءت أكبر المحاولات لإلباس الحق بالباطل وهو

إنكارهم للبشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغم أنها وردت في كتبهم السماوية .

لقد أعلنوا الإيمان بموسى أو عيسى ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لقد أنكروا بشارة موسى وعيسى برسالة محمد الخاتمة ، وكان ذلك فمة إلياس الحق بالباطل ، لأنهم أعلنوا الإيمان برسولين ثم أنكروا الإيمان بالنبي الخاتم وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله هو الدين الحق ، وكانوا إذا ما دخلوا إلى أنفسهم عرفوا ذلك ولكنهم يحدونه .

﴿ وَحَمِّدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ومع ذلك فهم يحاولون العثور على حيلة لابتعاد بها الناس عن تلك الرسالة الخاتمة ، تماديا منهم في الكفر ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي

أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

لقد أراد بعض من أهل الكتاب أن يشككوا المسلمين في أمر المنهج ، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة ، فالمؤمنون من العرب وقريش في ذلك الزمن كانوا أميين وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء ، ولم يكن القرآن كله قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا ما آمن بعض منهم برسالة رسول الله وجه النهار وكفروا به آخر النهار فهذا خلط للحق بالباطل . وفي هذا خداع للمؤمنين .

ولنا أن نعرف أن « وجه النهار » مقصود به ساعات الصباح والظهر ، فالوجه هو أول ما يواجهه في أي أمر ، ونحن نأخذ ذلك في أمثلة حياتنا اليومية ، فنقول عن بائع الفاكهة : « لقد صنع وجهها للفاكهة » ، أي أنه قد وضع أنضج الثمار في واجهة العرب ، وأخفى خلف الثمار الصالحة الناضجة ثمارا أخرى فاسدة . وعندما يفعل التاجر مثل هذا الفعل فمقصده الغش والخداع ، لأن الإنسان إذا ما اشترى أي مقدار من هذه الفاكهة فسيجد ربع ما اشترى هو من واجهة الفاكهة ، والباقي من الثمار الفاسدة .

وكذلك حاول بعض من أهل الكتاب أن يخدعوا المؤمنين بإعلان الإيمان أول النهار ثم إعلان الكفر آخر النهار ، وأهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشك وزراعة اليأس في نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين ، فقد يقول بعض من الأميين : « لقد اختبر أهل الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهل علم بمناهج السماء ولم يبدؤوا مطبقا بمناهج السماء » .

أو أن الآية قد نزلت في مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، فإذا كان الحق سبحانه قد أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، فالكافرون من أهل الكتاب أرادوا نفرض ذلك ، وقالوا : « فلنسمع أول النهار كلام محمد ونوجه في الصلاة إلى الكعبة ثم نصلي آخر النهار ونجعل قبلتنا بيت المقدس » .

وكان الحق قد أراد بذلك أن يكشف لنا أن كل أساليب الكفر هي من غمام قلة القطة وعدم القدرة على حسن التدبر ، لقد أرادوا إشعال الحرب النفسية ضد المسلمين ، لعل بعضا من المسلمين يتشككون في أمر الدين الجديد ، لكنهم دون أن يلحظوا أنهم قد فضحوا أنفسهم ، واعترفوا دون قصد منهم بأن الذين آمنوا بالقرآن هم المؤمنون حقا بينما هم قد أخذوا لأنفسهم موقف الكفر الذي هو نقبض للإيمان ، قال سبحانه حكاية عنهم : « آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » فهم قد ارتضوا لأنفسهم الكفر .

لقد أعلن هؤلاء المشككون التصديق بالإسلام ، وذلك ليعرف الناس عنهم ذلك ، ولكونهم أهل كتاب فهم قادرون على الحكم عليه ، فإذا ما رجعوا عن

الإسلام من بعد معرفته ، فيقولون : إن رجوعنا ليس بسبب الجهل أو النعصب ، إنما بسبب اختيارنا لهذا الدين ، فلم نجد مناسبا ولا متوافقا مع ما نزل على رسولنا . وهذا من أساليب الحرب النفسية .

والحق سبحانه وتعالى يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أن يكتسبوا خداعهم ولعنهم الماكرة ، والتي أرادوا بها التشكيك والخداع . فيُنزل على رسوله هذا القول الحق :

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى
هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعبة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار ، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين ، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » أى لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم ، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغه إيها للمؤمنين ، وبذلك فسد أمر تلك البلبلة ، وارتدت الحرب النفسية إلى صندوق من أشعلوها ، ويستمر القول الكريم في كشف خديعة هؤلاء البعض من أهل الكتاب فيقول سبحانه : « قل إن الهدى هدى الله أن يؤق أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » .

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من « هدى النفس » لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له ، ولم يكن هدى من الله ؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التي يريد بها الله ، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخدعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام ؛ لقد تواصى هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره ، والاعلنوا ذلك إلا لأهل ديارهم حتى لا يفقد المكر هدفه ، وهو بلبلة المسلمين .

لقد أخذهم الخوف ؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتى أهل الكتاب من معرفة بالمنهج ، بل إن المنهج الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم ، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان ، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم في المحاجة في أمر الإيمان ، وكان كل ذلك من فلة القطة التي تصل إلى حد الغباء .

لماذا ؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا ، إنهم تناسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر ، وذهبوا إلى اثنية أثناء عبور الصحراء ، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام : « علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون ، لأن سأنزل وأبطلش بالبلاد كلها » . وكانهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله ، إنه كلام حائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال ، ويبلغ الحق رسوله الكريم : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

ومادام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون ، وبعد ذلك تريدون أن تحذوهم ؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله .

فالخيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله ، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا ، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

الْعَظِيمِ ﴿٧١﴾

إن أحدا ليس له حق على الله ؛ فكل لحظة من لحظات الحياة هي فضل من الله ،
وهو سبحانه يعطي رحمته بالإيمان بمنهجه لمن يشاء وهو صاحب الفضل المطلق .
وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ

إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا

مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي

الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

إنه مطلق الإنصاف الإلهي ، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضا من مكر
أهل الكتاب فذلك لا يعنى أن هناك جملة على أهل الكتاب وكانهم كلهم أهل سوء ،
لا ، بل منهم من يتميز بالأمانة ، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله النصف العدل .

راجع أصله وأخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

إن الحق سبحانه يخاطب النفوس التي يعلمها ، فهو يعلم أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد نزلت رحمة للناس أجمعين ، ويخاطب بها العالم كله بما فيه من أهل الكتاب ، وهم الذين يعرفون الآيات والعلامات التي تدل على محيى رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم أناس قد جنحوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في بؤرة شعورهم ليدرسوها ويؤمنوا بها . ولو أن الله قد جعل الجملة على كل أهل الكتاب ، لقال الذين فكروا في الإيمان برسول الله : « كنا نفكر في أن تؤمن ، ونحن نريد أن ننفذ تعاليم الله لنا لكن محمداً يشن حملة على كل أهل الكتاب ونحن منهم » .

فساعة يقول الله إن بعضاً من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن من تراوده فكرة الإسلام يقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا عن نور من ربه ، لكن لو عمم القرآن الحكم على الكل ، لتساءل الذين يشغلون برغبة الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم : لماذا يعم الحكم الجميع ونحن نسير في الطريق إلى الإيمان ؟ .

ولهذا يضع الحق القول الفصل في أن منهم أناساً يتجهون إلى الإيمان :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ الْبَيِّنَاتِ وَمِمَّنْ

يَسْتَعِذُّونَ ۖ ﴾

(سورة آل عمران)

وفي هذا ما يطمئن الذين شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين والتفكير في أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

لو كان القرآن قد نزل بلغتهم جميعاً لقال الذين يفكرون منهم في الإيمان : نحن لسنا كذلك ولا نستحق اللعنة ، فلماذا يأتى محمد بلغتنا ؟ .

لذلك نرى القول بأن « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » العذل المطلق في الإنصاف :

وقد قال بعض المفسرين : إن القرآن يقصد هنا من « أهل الكتاب » النصارى ؛

لأن منهم أصحاب ضمير حي ، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وفي هذا التفسير إنصاف للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله ، بل يشيخها في قرآنه الذي ينزل إلى يوم الدين ، وذلك ليصدق أيضا أهل الكتاب أي أمر سيء تنزل فيه آيات من القرآن ، لأن القرآن منصف مطلق للإنصاف . فإدام قد قال خصلة الخير فيهم فلا بد أن يكون صادقا عندما يقول الأمور السيئة التي اتصفوا بها . وعندما يقول الحق سبحانه : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » فالقنطار هنا للمبالغة في القدر الكبير من المال ، وكلمة الأمانة حينها نستعرضها في كتاب الله عز وجل نجد أنها مرة تتعدى بالباء ، كمثل هذه الآية « من إن تأمنه بقنطار » ومرة تتعدى بـ « على » .

﴿ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ لَا تَأْمَنْ عَلَى يُونُسَ وَإِنَّا لَفَرَاتٌ سَحُورٌ ﴾ (١٥)

(سورة يوسف)

ورغله الحق :

﴿ قَالَ هَلْ أُمِيتُ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أُمِيتُكَ عَلَى إِخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ خَيْرٌ حَفِظْتُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٦)

(سورة يوسف)

إن مادة الأمانة تأتي متعدية مرة بالباء ، ومرة متعدية بـ « على » . وكل حرف من هذين الحرفين له حكمة ، فالتكلم هو الله .

إن الأمانة هي شيء يأتين فيه مؤمن على مؤمن ولا حاجة لصاحب الشيء المؤمن عليه إلا ذمة المؤمن ، فإن كانت العلاقة بينها محكومة بإيصال أو عقد ، أو شهود فهذه ليست أمانة ، إنما الأمانة هي ما يعطيها إنسان لآخر فيها بينهما ، وبعد ذلك فالمؤمن بعد ذلك إما أن يقربها وإما لا يقربها .

وقلنا سابقا : إن على المؤمن الحق أن يحتاط للأمانة ، لأن هناك وقتاً تنحمل فيه الأمانة ، وهناك وقت آخر تؤدي فيه الأمانة إن طلبها صاحبها .

ومثال نحمل الأمانة كأن يعرض عليك إنسان مبلغا من المال ، ويقول : « احفظ

هذا المبلغ أمانة عندك » فتقول له : نعم سأفعل . وتأخذ المبلغ ، إن هذا الفعل يسمى « اتحمّل » ، وعندما يأتي صاحب المال ليطالبه فهذا اسمه « الأداء » والكل يضمنون أنفسهم وقت التحمل ، وقد تكون النية هكذا بالفعل ، ولكن المؤمن الحق لا يأمن ظروف الأغيار ، فمن المحتمل أنه عندما يأتي صاحب المال ليطالبه من المؤمن يجد المؤمن نفسه وقد انشغل بالأغيار ، فقد تكون ظروف الحياة قد داهمته مما دفعه ليتصرف في الأمانة أو أن تكون نفسه قد تحركت ، وقالت له : وماذا يحدث لو تصرف في الأمانة ؟ إن المؤمن الحق لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإن ضمن نفسه وقت التحمل .

إذن يجب أن نلاحظ في الأمانة ملحوظتين هما « الأداء » و « التحمل » . والذين يأخذون الأمانة وفي نيتهم أن يؤدوها ضمنوا أنفسهم وقت التحمل ، لكنهم لا يضمنون أنفسهم وقت الأداء لذلك فالمؤمن المحتاط يقول لنفسه : ولماذا أعرض نفسي لذلك ، فقد يأتي وقت الأداء فلا أستطيع ردها لصاحبها .

لذلك يقول لصاحب الأمانة : أرجوك ابتعد عني فإنا لن نحمل هذه الأمانة .

إنه خائف من وقت الأداء وذلك ما حدث في أمانة التكليف والاختيار والتي قال عنها الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٦٥)

(سورة الاحزاب)

إن السماء والأرض والجبال طلبوا ألا يكون لهم اختيار وأن يظلوا مقهورين ، لأنهم لا يضمنون لحظة الأداء ، أما الإنسان فلأنه ظلم جهول فقد قال : « لا ، إنني عاقل ومأرب الأمور » فالإنسان ظلم لنفسه ، وجهول لأنه لم يعرف ماذا يفعل وقت الأداء ..

لذلك نرى هنا القول الحق : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار » ونجد الأمانة متعددة بالباء ، فمعنى الباء « في اللغة - الإضياع » أي النصق القنطار

بأمانته ، فأصبح هناك ارتباط وامتزاج ، وإليك ساعة الأداء أن تفصل الأمانة عن القنطار ، فساعة يغريك قنطار الذهب بريقه فعليك أن تلتصق الأمانة بالقنطار ، وإليك أن يغريك القنطار فتترك أمانتك لأنك إن نظرت إلى القنطار دون أن تنظر إلى الأمانة فهذه هي الخيبة .

أما استعمال « على » مع الأمانة ، فـ « على » في اللغة تأتي للاستعلاء ، ويمكن ، أي أجعل الأمانة مستعلية على القنطار ، وبذلك تصير أمانتك فوق القنطار ، فساعة تحدث نفسك بأن تأخذ القنطار لأنه بدير لك حركة حياتك ، ولأنه يخرجك إلى دنيا عريضة مغرية فتذكر عز الأمانة ، ولهذا نجد الفقهاء قد قالوا بقطع يد السارق في ربع دينار ، وجعلوا دية قطع يد إنسان لم يسرق خميسة دينار وتساءل البعض قائلاً : يد بخمس شين عسجد وديت مابها قطعت في ربع دينار فقال فقيه رداً على ذلك المعارض :

عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الحياة ، فافهم حكمة البارئ

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » هذا القول جاء بإثبات ليلصق الأمانة بالمؤمن عليه ، وجاء بالمؤمن عليه وهو القنطار وهو أضخم شيء في عالم الموازين وكان من الذهب وهو أثمن المعادن وأغلاها ليؤكد على كل مؤمن أن يلصق الأمانة بما أوثمن عليه ولا يفصل بينها أبداً لأنه لو فصل الأمانة وعزها عن القنطار ربما سولت له نفسه أن يأخذ القنطار ويترك الأمانة .

وكذلك عندما تأتي الأمانة متعددة يعلى ، تكون الأمانة فوق الشيء المؤمن عليه ، فالأمانة يجب أن تكون مستعلية على الشيء ، مهما غلت قيمته ، ويقول الحق من بعد ذلك : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دبت عليه قائماً » أي أن تكون دائم السؤال عن دينارك الذي ائتمنت عليه ذلك الإنسان ، وأن تلح في طلب دينارك .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » وقد قام بعض من بني إسرائيل على عهد رسول الله ، بخديعة الأميين من العرب المؤمنين

فأنكروا حقوقهم . والمقصود بالأمين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ،
أو هم المنسوبون إلى الأم كما قال الحق :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الشَّعْرَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(سورة البقره)

أو أن يكون المقصود : بالأمين « أهل مكة » ، فقد كانوا يسمونهم كذلك لأنهم
منسوبون إلى أم القرى : مكة المكرمة .

من أين جاء أهل الكتاب إذن بهذا الأسلوب المزدوج في معاملة الناس ؟ ومن
الذى وضع هذا المنهج الذى يقضى بخديعة المؤمنين الأميين ؟ وهل الفضائل ومنازل
الخلق تختلف في المعاملة من إنسان إلى آخر ؟ وهل يقضى اخلاق القويم أن يأخذ
إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمي ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت
ليهودي ؟ هل يصح أن يفرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود ، ويفرض اليهود دون
ربا ؟ إذن تكون هذه المعاملات مجحفة ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ، إن
القضية يجب أن تكون مستوية ومكتملة في كل وقت وكل زمان ولكل إنسان ،
ولا ينبغي أن تتنوع .

من أين إذن جاءوا بهذا القول وهم أهل كتاب ؟ إن هذا ضد منهج الكتاب الذى
أنزله الله عليهم بل هو من التحريف والتحويل لقد خدعوا أنفسهم وأنصفوا بالتشريع
ماليس فيه ، فالكتاب السماوى الذى نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين :
صنف هم أهل الكتاب وهم معاملة خاصة ، وصنف هم الأميون وهم معاملة
أخرى ، وكان عليهم أن يتعلموا من عدالة رسول الله صلى الله عليه وسلم في
معاملتهم .

لقد أرخ لهم رسول الله بالنص المنزل عليه من الله التاريخ الصادق والعدل ، في
هذا القول الكريم الذى تناول به الخواطر إنما يسجل تاريخ اليهودية مع الإسلام .
وهذا التاريخ لم يصدر فيه الله حكما واحدا بشملهم جميعا ، بل أنصف أصحاب
الحق منهم ، وإن كانوا على دين اليهودية ، وبذلك استقر في أذهان المنصفين منهم أن

الإسلام قد جاء بكل الحق ، فلو كان الإسلام قد أصدر حكما واحداً ضد كل اليهود سواء من وقف منهم ضد دعوة رسول الله أو المنصف منهم الذي تراوده فكرة الإيمان بالإسلام ، لو كان مثل ذلك الحكيم العام الشامل قد صدر لقال المنصفون من اليهود : نحن نفكر في أن نؤمن بالإسلام فكيف يهاجنا الإسلام هذه المهاجمة ؟ لكن الإسلام جاء لينصف فيعطى كل ذي حق حقه .

وهؤلاء هم الذين يورخ الله لهم بالقول : « من إن تأمنه بقطار يؤده إليك » وتلك شهادة على صدق اليقين من هؤلاء ، أما الذين طغت عليهم المادية فهؤلاء هم الذين نجاء فيهم القول الحكيم : « ومنهم من إن تأمنه بدینار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما » وهذا هو التاريخ الصادق لمن طغت عليهم المادية فلا يرد الإنسان منهم ما عليه إلا بعد الملاحقة والمطاردة ، وهكذا يبلغنا القرآن التاريخ بصدق .

والعلة في أن الذي يؤمن على قطار يؤديه ، والذي يؤمن على دينار لا يؤديه هي علة واضحة . فالمتؤمن على قطار ويؤديه هو إنسان ملتزم أمام إله موصوف باسم الحق ، ولا يريد الله من عباده إلا أن يواجهوا حركة حياتهم بالحق .

وأكرر هنا مرة أخرى ، إن كلمة « الأمانة » ترد في القرآن الكريم مرة وهي متعددة بـ « على » ، ومرة أخرى وهي متعددة بالياء ، لأن الياء تأتي في اللغة للإصاق شيء بشيء آخر ، فكانت إذا أؤتمنت أيها المسلم فلا بد أن تلتنصق بالأمانة حتى تؤديها ، وكذلك جاءت الأمانة متعددة بـ « على » ، أي أنك أيها المؤمن إذا أؤتمنت فعليك أن تستعمل على الشيء الذي أؤتمنت عليه . فإذا ما أؤتمنت على مائة جنيه مثلا فلا تنظر إلى ما يعود عليك من نفع إذا ما تصرف في هذا المبلغ ، بل يجب أن تستعمل على تلك المنفعة . فإياك أن تعثر نفسك أيها المؤمن بفائدة ونفاسة الشيء الذي تحتله من الأمانة ، بل قارن هذا الشيء بالأمانة فستجد أن كفة الأمانة هي الراجحة .

والذين استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال الشهرة بالأمانة سواء قبل الرسالة أو بعدها . وعميت أبصارهم ، إن الدين الحق لا يفرق في أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ، فالدين الحق يضم تشريعا من إله خلق الجميع وهكذا نجد أن تشريعهم بالفرقة في أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولى شئون خلقه جميعا ، ويدحض الحق القضية التي حكموا بوساطتها أن يعاملوا الأميين

معاملة. نختلف عن معاملتهم لأهل الكتاب ، فقال سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

يعلمون ماذا ؟ يعلمون أن قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه ، وبإلبيتهم قالوا : إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين - كما قلنا - مأخوذة من الله ، وهم بذلك - والعبادة بالله - يفترون على الله كذباً بأنه خلق خلقاً ثم صنفهم صنفين : صنفاً تؤدي الأمانة له ، وصنفاً لا تؤدي الأمانة له ، وهكذا كذبوا على الله وعلموا أنهم كاذبون ، وهذا هو الافتراء . وهم أيضاً يعلمون العقوبة التي تلحق من يكذب على الله ورغم ذلك كذبوا .

لقد حذف الحق في هذه الآية المفعول به فلم يقل : « يعلمون كذا » . الحق حين يحذف « المفعول » فهو يريد أن يعمم الفهم ويريد أن يعمم الحركة ، إنه سبحانه يريد أن يبلغنا بأن هؤلاء يعلمون أن قولهم هذا كذب ، ويعلمون عقوبة ذلك الكذب . . . وساعة تأن قضية متفية ثم يأتي بعدها كلمة « بل » فإنها تنقض القضية التي سبقتها ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها . لقد قالوا :

« لئس علينا في الأمين سبيل » وهذه قضية متفية به ليس ، والحق يقول في الآية التالية :

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَوْفُوْا بِعَهْدِكُمْ وَاَتَقُوا لِلّٰهِ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ

الْمُتَّقِيْنَ ﴿٧٦﴾

إن قول الحق في بداية هذه الآية « ولم » إنما جاء لينقض القضية السابقة التي ادعاه أهل الكتاب ، وكان الحق يقول : أي عليكم في الأمين سبيل ، لأن المشرع هو الله ، والناس بالنسبة له سبحانه سواء .

وبعد ذلك يلقى قول الحق بقضية عامة :

﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ . وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

(من آية ٧٦ سورة آل عمران)

ما العهد هنا ؟ وأى عهد ؟

إنه العهد الإيماني الذي ارتضيناه لأنفسنا بأننا آمننا بالله وساعة تؤمن بالآله فمعنى إيمانك به هو حثية قبولك لكل حكم يصدر منه سبحانه ، وأن تلتزم بما يطلبه منك ، وإن لم تلتزم بما يطلبه منك كان إيمانك بلا قيمة ، لأن فائدة الإيمان هو الالتزام . ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد تشريع حكم لمن آمن به ينادي أولا بأبيها الذين آمنوا كتب عليكم كذا ، إن الحق سبحانه لا ينادي في التكليف كل الناس ، إنما ينادي من آمن وكأنه سبحانه يقول : « يا من آمن بي إلهي ، اسمع مني الحكم الذي أريدك منك ، أنا لا أطلب ممن لم يؤمن بي حكماً ، إنما أطلب ممن آمن » .

وهنا بقول الحق : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » وقد يفهم البعض هذا القول بأن من أوفى بعهده الإيمان واتقى الله في أن يجعل كل حركاته مطابقة لـ « افعل ولا تفعل » فإن الله يحبه . هذا هو المعنى الذي قد يفهم للوهلة الأولى ، لكن الله لم يقل ذلك ، إن « الحب » لا يرجع إلى الذات بل يرجع إلى العمل ، لقد قال الحق : « فإن الله يحب المتقين » .

إن الإنسان قد يخطئ ويقول : « لقد أحبني الله ، وسأفعل من بعد ذلك ما يحلو لي » ونحن نذكر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذي يؤديه العبد بنية خالصة لله وليس للذات أي قيمة ، لذلك قال : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

إن الذي أوفى بعهده واتقى سبحانه الله فيه التقوى ، وإياك أن تفهم أن الحب من الله للعبد سيصبح حباً ذاتياً ، لكنه حب لوجود الوصف فيه ، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائماً ، لتظل في محبوبة الله .

ولذلك نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أوضح لنا أن الذات تتناسل من ذات ، والتواتر عند الله متناصلة من أصل واحد . فالجئنا ليس له قيمة ، إنما القيمة للعمل الصالح .

وقد ضربنا المثل قديما ، وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه من الغرق هو وأهله ، ثم فوجيء نوح بأن ابنه من المغرقين ، قال سبحانه حكاية عما حدث :

﴿ قَالَ سَدَوْنِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ ١٥٠ ﴾

(سورة هود)

ماذا فعل نوح عليه السلام ؟ لقد نادى ربه طالبا نجاة ابنه :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ١٥١ ﴾

١٥١

(سورة هود)

ويعلمنا الله من خلال رده على نوح ، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من تسلمهم ، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهمهم ، لذلك قال الحق لنوح عن ابنه :

﴿ إِنَّهُ لَبِئْسَ مِنَ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ١٥٢ ﴾

(من الآية ١٥٢ من سورة هود)

لماذا يكون ابن نوح ليس من أهل نوح ؟ ذلك لأن أهل النبوة هم الذين يتبعون منهج النبوة ، ولذلك لم يقل الحق لنوح عن ابنه : « إنه عامل غير صالح » لكن الحق سبحانه قال عن ابن نوح : « إنه عامل غير صالح » . . . لقد تسب الحق الأمر إلى العمل .

إذن فالحكمة هي أن الله سبحانه وتعالى في أسلوبه القرآن يوضح لنا أن الله لا يحب شخصا لذاته ، إنما لعمله وصفاته فلم يقل : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحبه » ، لأن « الله » هنا ترجع إلى الذات ، إن في ذلك إيضاحا كاملا للبيان بأن الله يحب عمل العبد لا ذات العبد ، فإن حرص العبد على محبوبية الله فذلك يتطلب من العبد أن يظل متبعا لمنهج الله ، وبعد ذلك يقول الحق :

حَسْبُكَ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ
اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

وساعة نسمع كلمة « شراء وبيع » فلا بد أن نتوقف عندها ؛ لفهم معناها بدقة .
ونحن في الريف نرى المقايضات أو المبادلات في الرزق الذي له نفع مباشر ، كأن
يبادل طرف طرفا آخر ، قمحا بقمح ، فهذه سلعة يتم مبادلتها بسلعة أخرى ،
وعلى ذلك فليس هناك شارب وبارع ، لأن كلا من الطرفين قد اشترى وباع . وهنا
نسأل : متى يصبح الأمر إذن شراء وبيعا ؟

إن الشراء والبيع يحدث عندما نستبدل رزقا مباشرا برزق غير مباشر ، ومثال ذلك
عندما يشتري الإنسان رغيف خبز بخمسة قروش ، إن هذا هو الشراء والبيع ، لأن
الخمسة قروش هي رزق غير مباشر النفعية ؛ لأن النقود لا تشبعك ولا ترويك من
عطشك ولا تسترك . والرغيف هو رزق مباشر النفعية لأنه يشبعك ويدفع عنك
الجوع وعندما يجب الإنسان أن يشتري شيئا فإن الذي يدفعه في الشراء يسمى ثمننا .
إذن فكيف يشتري الثمن ؟

إن الحق يوضح لنا أن الأثمان لا تكون مشتراة أبدا ، إنها تشتري بها ، ولذلك
تكون أول خيبة في صفقة الذين يشترون بعهد الله ثمنا قليلا ، أنهم اشتروا الثمن ،
بينما الثمن لا يشتري ، فالذي يشتري هو السلعة . وبالنسبة الثمن الذي اشتروه ثمن
له قيمة ، لكنه ثمن قليل ، ومن هنا جاء تحريم الربا لأن المرابي يعطى الشخص
مائة ، ويريد أن يسترده مائة وعشرة ، ويكون المرابي في هذه المسألة قد جعل النقود
سلعة ، وهكذا تكون الصفقة خائبة من بدايتها .

إذن فأول خيبة في نفوس الناس الذين يستبدلون الهدى ويأخذون بدلا منه
الضلالة ، إنهم خاسرون .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ قَبَرٍ يَخْتَرْتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٥)

(سورة البقرة)

والحق سبحانه يقول هنا : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، ونعرف أن « الباء » دائما تدخل على المترك ، أى أنهم تركوا عهد الله والأيمان التي حثفوا بها على التصديق بالرسول ، وعلى نصرته إذا جاءهم ، أنهم اشتروا ذلك بتمن قليل ، كيف يحدث ذلك ؟ لهذه المسألة واقعة حال ، وإن كان المراد عموم الموضوع لا خصوص السبب ، فلا يقولن أحد : إن هذه الآية نزلت في الأمر القلاني فلا شأن لي بها ، لا فكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا تنطبق عليه هذه الآية ..

واقعة الحال التي نزلت فيها الآية هي أن جماعة في عهد جدب وجماعة دخلت على كعب بن الأشرف اليهودي يطلبون منه الميرة - أى الطعام والكسوة - فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله ؟ قالوا نعم ، قال : إني هممت أن أطعمكم وأن أكسوكم ولكن الله حرمكم خيرا كثيرا وتساءلوا : لماذا حرمنا الله الخير الكثير ؟ وجاءتهم الإجابة لقد أعلنتم الإيمان بمحمد فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف ، قالوا لكعب بن الأشرف : دعنا فترة لأنه ربما غلبتنا شبهة ، فلتراجع فيها أنفسنا . وعندما مرت الفترة ، فضلو الطعام والكسوة على الإيمان ، وقالوا لكعب بن الأشرف : لقد قرأنا في كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولا ، فأعطاهم كعب القوت والكسوة . وهؤلاء هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وهو الطعام والكسوة . وكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ، فهو يطمس حكما من أحكام الله من أجل أن يتظاهر أمام الناس أنه عصري ، أو أنه مسابر لروح الزمان ، أو يزين لأولياء الأمر فعلا من الأفعال لا يرضى عنه الله .

إذن فالذي يفعل مثل ذلك إنما يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ، وكل من يجعل آية من آيات الله عرضة للبيع من أجل أن يأخذ عنها ثمنا يعتبر دخلا في هذا النص « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » .

والمقصود هنا بعهد الله ، إما أن يكون عهد القطرة أو العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب بأنهم إن أهرقوا بعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يعلنوا الإيمان به وهو العهد الذي جاء به القول الحق :

﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصَبُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
فَالرَّاءِ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾

(سورة آل عمران)

إذن فعندما جاءت صفة تكذيبهم لما أعلنوه من إيمان سابق مقابل الميرة والكسوة فهم قد تركوا عهد الله وأخذوا الثمن القليل من الميرة والكسوة ، وكان ذلك خيبة كبرى فهم قد اشتروا الثمن ، والثمن مع ذلك قليل ، ولذلك يقول عنهم الحق :
﴿ أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْكِبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٨٩﴾

(سورة آل عمران)

وكلمة « أولئك » تدل على أن الصلة وهي « يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمتنا قليلا » تلحق بهم كل من يتصف بهذه الصفات وتجعل له المصير نفسه ، لهذه الآية وإن نزلت في هؤلاء الأشخاص الذين جرت منهم حادثة شراء الطعام والكسوة مقابل التكويس عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تشمل كل منصف بهذه الصفة وكل من كان على هذا اللون في أى عصر ، وفى أى دين من الأديان ، ويصفهم الحق سبحانه به « أولئك لا خلاق لهم » .

وكلمة « خلاق » وكلمة « خلق » وكلمة « خليفة » وكلمة « خلق » كلها تدور حول معنى يكاد يكون متقاربا ، فالخلق - بضم الخاء واللام - أن توجد صفة فى الإنسان تغلب عليه حتى تصير ملكة . فيقال : « فلان عنده خلق الصدق » أو « فلان خلقه الكرم » ومعناه : أن فلانا الأول صار الصدق عنده ملكة ولا يتعب نفسه فى أن يكون صادقا بل صار الصدق أمرا طبيعيا فيه ، وكذلك وصف فلان الثانى بالكرم أى أن الكرم صار ملكة وسجية عنده .

وهذه الملكة فى الأمور المعنوية تساوى الآلية فى الأمور الحسية ؛ لأننا نعرف أن كل فعل من الأفعال يحتاج إلى درجة ليكون الإنسان متميزا فى أداؤه ، وعلى سبيل المثال ، العامل الذى ينسج على آلة يحتاج إلى أن يتدرب على تحريك مكوك الخيط ، وأن يتعلم كيف يحرك المكوك بين خيوط النسج ، وبعد ذلك يختلف الخيطان معا لتبسك

بها حركة المكوك الثانية في ارتدادها ، وبذلك يتم النسيج ، وحين يتدرب إنسان على هذا العمل فهو يحتاج إلى وقت طويل ، ليصل إلى كفاءة الحركة .

في بداية التدريب يكون الأمر صعبا ، ويستطيع النسيج بعد أن يتقن التدريب أن يجلس أمام آلة النسيج ويدها تحرك المكوك بآلية . لقد صارت المسألة بالنسبة إلى النسيج المتدرب آلية .

وسبق أن ضربت المثل بالإنسان الذي يتعلم قيادة السيارة ، فالمدرّب يعلمه كيف يدير المفتاح ، وكيف ينتظر لتسخين المحرك ، وكيف يفك مكبح السيارة ، ثم كيف يحرك عصا التحكم في اندفاع السيارة ، وكيف يوازن بين الضغط على بدال الوقود والضغط على بدال التحكم الفاصل ، وكيف يوازن بين سير السيارة بتخفيض السرعة ولمسات خفيفة لبدال المكبح .

وقد يخطئ الإنسان في بداية التعلم ويرتبك ، ولكنه بعد تمام التدريب فإنه يعمل بآلية وبدون تفكير ، إنه عمل آلي لا يحتاج إلى تفكير ، وضربت في السابق مثالا بالصبي الذي يتعلم حياكة الملابس ، إنه يأخذ وقتا ليضع الخيط في سم الإبرة ، وتقع منه الأخطاء في قياس المسافات المختلفة بين الغرز ، لكنه من بعد ذلك يتدرب على فعل هذه الأعمال التي كانت صعبة ، ويؤديها بآلية ، والعمل الآلي في الأمور المحسنة ، يقابل الملكية في الأمور المعنوية ، فيقال : « إن الصديق عند فلان ملكة » أي أنه إنسان لا يرهقه أن يكون صادقا .

ونحن أثناء تعليم أبنائنا للنحر - مثلا - نقول لهم : « إن حكم الفاعل الرفع والمفعول به منصوب » وعندما ينطق الابن عبارة ما ، فإنه يحاول تطبيق القاعدة أثناء القراءة ، وقد بنسأها ، أو يتلجلج ، وعندما يتذكرها فإنه ينطق الكلمات برسمها الصوري الصحيح ، وبعد أن يتم التدريب على القاعدة ويقرأ الابن ، فإن أخطاءه تتلاشى ، وبذلك يصير النحر ملكة عنده .

وكذلك الخلق ، إن الخلق صفة ترسخ في النفس ، فتصدر عنها الأفعال يسر وسهولة ، فيقال : « الصديق له خلق » ، « الكرم له خلق » ، « وه الشجاعة له خلق » إنها الصفات التي ترسخ في النفس فتصدر عنها الأفعال في يسر وسهولة . والحق سبحانه يقول : « أولئك لا خلاق لهم في الآخرة » وقد فسر البعض حرمان أولئك من الخلق بأن هذا الصنف من الناس لا نصيب لهم من الخلق ، لأن الخلق

صفة راسخة في الإنسان ، والحق يجدد الزمن بأنه « في الآخرة » . والآخرة هي الوقت الذي لا يمكن التدارك فيه ، فالآخرة هي يوم التقييم الصحيح والنهائي .

إن الإنسان قد لا يكون له نصيب السلوك القويم فيعدل سلوكه حتى يكتسب هذا السلوك القويم في الدنيا لكن الإنسان لا يستطيع في الآخرة أن يجد مجالا للاستدراك ، وهذه هي الحياة القوية .

فالإنسان في الدنيا ، قد يقوم بعمل ما ولا يكون له نصيب من أجره أو قد لا يرى نحن أجزاء والنصيب الذي يعطيه له الله ولكن الله يعوضه في الآخرة عن هذا العمل الذي لم يكن له نصيب منه في الدنيا أما من لا خلاق له في الآخرة فكيف يتم التعويض ؟ إن ذلك أمر مستحيل ؟

ويضيف الحق : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم » وقد يقول قائل : ألم يقل القرآن الكريم في موقع آخر ، إن الله يقول للكافرين :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا فِيهَا ﴾ (١٥)

(سورة المزمل)

فلماذا يقول الحق لهم مرة : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ، ومرة أخرى يقول الحق : « لا يكلمهم الله » ؟ . ونجيب على مثل هذا القول : إن الحق لا يكلمهم كلاما ينفعهم ، أو أنه سبحانه يكلمهم بواسطة ملائكته ، ولكن كيف لا ينظر إليهم الله ؟

وساعة نجد أمرا يوجد في الناس وله نظير منسوب لله سبحانه وتعالى ويقول سبحانه عن نفسه ، فلا بد أن نأخذ هذا الأمر في إطار : « ليس كمثله شيء » .

إننا في مجالنا البشري نقول : « فلان لا ينظر إلى فلان » أي أنه لا يوجه عينه إليه ، وبحول حقيقته عنه ، لكن لا يمكن قياس ذلك على الله ، لأن الله منزّه عن التشبيه ففي الوضع البشري نجد إنسانا يحب صديقا له فيقبل عليه بالوجه والنظر فيقال : « فتى هو قيد العين » أي أنه شاب عندما تنظر إليه البعير فهو يقيد العين

فلا تذهب عنه إلى أي مكان آخر؛ ففي هذا الشاب محاسن تجعل العين لا تذهب بعيداً عنه . وهكذا تأخذ إقبال العين بالنظر على المنظور أو على المرئى كسمة للاهتمام به ، وهذا صحيح في الوضع البشري .

لكن إذا ما جاء ذلك بالنسبة لله ، هنا تأخذ المسألة في إطار : « ليس كمثله شيء » . وهكذا نفهم عدم نظر الله إلى « الذين يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، بأن الله يهملهم ، ولا يهتم بهم » لا ينالهم الله برحمته ، فالحق سبحانه متزه عن كل تشبيه ، وهكذا الأمر في عدم نظر الحق إليهم ، تأخذ الأمر أيضاً في إطار : « ليس كمثله شيء » إن ولى الأمر من البشر عندما يرغب في عقاب أحد رعاياه ، لا ينظر إليه ويهمله ، فما بالنا بإهمال الحق سبحانه وتعالى ؟ إنه إبعاد لهم عن رحمة الله ورضوانه .

ويضيف الحق سبحانه « ولا يذكهم ولهم عذاب أليم » والتركيز تأتى بمعنى التطهير ، أو بمعنى الثناء أو النماء والزيادة فنقول : « فلان زكى فلانا » أى أثنى عليه ويقال أيضاً : « فلان زكى فلانا » أى طهره ، ومن هذا تكون « الزكاة » التى هى تطهير ونماء .

وعندما نخبرنا الحق سبحانه أنه لا يكلم ذلك الصنف من البشر ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم من أوزارهم ، فهذا مقدمة لما أعده لهم بقوله : « ولهم عذاب أليم » .

وكان الحق سبحانه قد أورد هذا المصير بالنسبة لهذا الصنف من البشر حتى لا يقول أحدهم ليس مهماً أن الله لن يكلمنى ولن ينظر إلى ، ولن يذكى ، ولكنه قد يدخلنى الجنة ، لا لن يدخل واحد من هذا الصنف من البشر الجنة بل له ولا مثاله العذاب الأليم . . وحين يقال : « ولهم عذاب أليم » فلا بد أن تأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

وفي حياتنا العادية عندما يقال : « صفع الطفل فلانا الرجل » نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف في قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل في الملاكمة . إذن فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفاً على المفعول به الذى هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلا بد أن يكون عذاباً

أليها ، ولا حدود لآله ، أنجانا الله وإياكم منه . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السُّنْتَهُم بِالْكِتَابِ
لِيَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَاهُو مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَاهُو مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

أى أنهم يلوون السنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يلوون السنتهم عندما يريدون التعبير عن المعنى . وه اللى « هو القتل » فنحن عندما نقتل حبلا ، نحاول أن نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نقتلهم معا لنصنع حبلا ، والهدف من القتل هو أن نصنع قوة من شعيرات الخيوط ، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة ، وعندما نقتل هذه الخيوط فإننا نزيد من قوة الخيوط بجعلها معا .

إذن فالقتل المراد به الوصول إلى قوة ، وهكذا نرى أنهم يلوون السنتهم بكلام يدعون أنه من المنهج المنزل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله إنهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والتفويض من مكانة الإسلام وانظمن في الرسول كما قالوا من قبل : « راعنا » ، لذلك قال الحق مخاطبا المؤمنين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق يوضح لنا ألا نعطي لهم فرصة لتحريف كلام الله ، فهو سبحانه القائل :

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ
 مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَبًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا
 لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٦)

(سورة النساء)

لقد فضحهم - الحق سبحانه - لنا ، وهم يحرفون الكلام عن موضعه ، فقد قال
 الحق هذا القول بمعنى : أن الذي نسمعه لا يضرك لقد سجل الله عليهم أنهم قالوا سمعنا
 وعصينا كما فاموا بتحريف الكلمة وقالوا : « اسمع غير مسمع » أي « لا سمعت أبدا » ، تماما
 كما أخذوا من قبل قول الله :

﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ١٦١ من سورة الاعراف)

وحرفوا هذا القول : « وقولوا حنطة » ، وهم قد فعلوا ذلك حتى نحسب هذا
 التحريف من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، أي أنهم يقتلون بعضا من المعاني
 المستنبطة من الكلمات حتى يوهوا المؤمنين بأن هذه المعاني غير المرادة وغير الصحيحة
 هي معاني مرادة الله ، وصحيحة المعنى ، إنهم يدعون على الشج المنزل من السماء
 ما ليس فيه ، ولذلك قال سبحانه : « لتجسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب »
 إنهم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يحرفونه رغبة في التلبس والتدليس عليكم لتظنوا
 أنه من الكتاب المنزل من عند الله على رسوله ، إنهم لو فعلوا ذلك فحسب لجاز أن
 يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم ويندموا على ما فعلوا .

أما قولهم بعد ذلك : « هو من عند الله » فهو دليل على أنهم أحدثوا في الكتاب
 شيئا وأصروا عليه فجاءوا بقولهم : (هو من عند الله) لينفوا عن أنفسهم شبهة أن
 يدعى عليهم أنهم حرفوا الكتاب ، ولولم يكونوا قد حرفوا الكتاب أكانت تحظر
 بياهم ، هذه ؟ إن أمرهم جاء من باب (يكاد المرئيب أن يقول خذون) إنهم بهذا
 القول يحتالون على إخفاء أمر حدث منهم ، إن الحق - سبحانه - يؤكد أن الخيانة
 تلاحقهم فيقول : (وما هو من عند الله) ، فهذه الآية الكريمة تفضحهم وتكشف
 تحريفهم لكتاب الله ، يقول سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

إنهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب ، والكذب كما عرفنا هو أن تكون النسبة الكلامية غير مطابقة للواقع ، فالتسبب في الأحداث تأتي على ثلاث حالات :
نسبة واقعة .

نسبة يفكر فيها وهي نسبة ذهنية .

نسبة ينطق بها .

فعندما نعرف إنسانا اسمه محمد ، وهو يجتهد بالفعل فهذه نسبة واقعة
وإذا خطر ببالك أن تخبر صديقا لك باجتهاد محمد فهذا الخاطر نسبة ذهنية .

وساعة ننطق بهذا الخبر لصديق لك صارت النسبة كلامية . والصدق هو أن تكون النسبة الكلامية لها واقع متسق معها كأن يقول : « محمد مجتهد » ويكون هناك بالفعل من اسمه محمد وهو مجتهد بالفعل ، وهذا تكون أنت الناطق بخبر اجتهاد محمد إنسانا صادقا ، أما إن لم يكن هناك من اسمه محمد ومجتهد فالتسبب الكلامية لا تتفق مع النسبة الواقعية ، لذلك بصير الخبر كاذبا . والعلماء يفرقون بين الصدق والكذب بهذا المعيار . فالصدق : هو مطابقة الكلام للواقع ، والكذب : هو عدم مطابقة الكلام للواقع .

وحاول بعض من الذين يحبون التشكيك أن يقفوا عند سورة المنافقين التي يقول فيها الحق :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴾

يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴿١﴾

(سورة المنافقون)

لقد قال المنافقون : نشهد إنك لرسول الله ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله بالفعل ، والحق سبحانه يقول : « والله يعلم إنك لرسوله » فهل علمهم كعلم الله ؟ لا ، لأن الله سبحانه قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، فكيف يصفهم الحق بأنهم كاذبون مع أنهم شهدوا بما شهد هو به ؟

إن الحق لا يكذبهم في أن محمدا رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذبهم في قضية قالوها وهي : « نشهد » ، لأن قولهم : « نشهد » تعني أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدونه في قلوبهم ، وقولهم : « نشهد » هو قول لا يتفق مع ما في

قلوبهم ، ولذلك صاروا كذابين ، فلما كل منهم لا يوافق ما في قلبه .

إذن فقول الحق : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، أى إنهم يقولون كلاما ليس له نسبة خارجية نطائقه ، وهم يعلمون أنه كذب ، حتى لا نقول : إنهم نطقوا بذلك غفلة ، لقد تعمدوا الكذب ، وهم يعرفون أنهم يقولون الكذب . والدقة تقتضى أننا يجب أن نفرق بين صدق الخبر ، وصدق المخبر . صدق الخبر هو أن يطابق الواقع لكن أحيانا يكون المخبر صادقا ، والخبر في ذاته كذب ، كأن يقول واحد : « إن فلانا يستذكر طول الليل » لأنه شاهد حجرة فلان مضاءة وأنه يفتح كتابا ، بينما يكون هذا الفلان غارقا في قراءة رواية ما ، إن المخبر صادق في هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

ولكن في مجال الآية نحن نجد أنهم كاذبون عن عمد ، فاللسان هو وسيلة بيان ما في النفس :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا
ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمًا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ٧٩

وتحسنعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين ينزل منهجة ، فهو ينزل في كتاب ، ويقضى ذلك أن بصطفى سبحانه إنسانا للرسالة ، أى أن الرسول يحىء بمنهج ويطبقه على نفسه وبإماء للناس ، الرسول مصطفى من الله ويختلف في مهمته عن

النبي ، فالنبي أيضا مصطفى لطبق المنهج ، وهكذا حتى لا يسمع الناس المنهج ككلام فقط ولكن يرونه تطبيقا أيضا ، إذن فالرسول واسطة تبليغية ونموذج سلوكي ، والنبي ليس واسطة تبليغية ، بل هو نموذج سلوكي فقط .

إن الحق سبحانه وتعالى يرسل النبي ويرسل الرسول ، ولذلك تأتي الآية :
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الْقَبْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ۚ فَيَلْخُصُّ اللَّهُ مَا بُلِّغِيَ الشَّيْطَانُ ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ ءِأَنبَاءَهُ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٤٦﴾

(سورة الحج)

هكذا نعرف أن الرسول والنبي كليهما مرسل من عند الله ، الرسول مرسل للأمر والأسوة ، والنبي مرسل للأسوة فقط ، لأن هناك بعضا من الأزمنة يكون المنهج موجودا ، ولكن حمل النفس على المنهج هو المفقود ، ومثال ذلك عصرنا الحاضر .

إن المنهج موجود وكلنا نعلم ما الحلال وما الحرام ، لكن خيبة هذا الزمان تأتي من ناحية عدم حمل أنفسنا على المنهج ، لذلك فتحن نحتاج إلى أسوة سلوكية ، هكذا عرفنا الكتاب ، والنبوة ، فما هو الحكم إذن ؟

لقد جاء الحق بكلمة : « الحكم » هنا ليدلنا على أنه ليس من الضروري أن توجد الحكمة الإيمانية في الرسول أو النبي فقط ، بل قد تكون الحكمة من نصيب إنسان

من الرعية الإيمانية ، وتكون القضية الإيمانية ناضجة في ذهنه ، فيقولها لأن الحكمة تقتضي هذا . ألم يذكر الله لنا وصية لقمان لابنه ؟ إن وصية لقمان لابنه هي المنهج الديني ، وعلى ذلك فمن الممكن أن يأتي إنسان دون رسالة أو نبوة ، ولكن المنهج الإيماني يتفدح في ذهنه ، فيعظ به ويطبقه ، وهذا إيذان من الله على أن المنهج يمكن لأي عقل حين يستقبله أن يقنع به ، فيعمل به ويبلغه .

ولا بد لنا أن نؤكد أن من يهبه الله الحكمة في الدعوة لمنهج الله ونطبق هذا المنهج ، لن يضيف للمنهج شيئا ، وبحكم صدقه مع الله فهو لن يدعى أنه مبعوث من الله للناس ، إنه يكتفي بالدعوة لله وبأن ، يكون أسوة حسنة .

لكن لماذا جاءت هذه الآية ؟ لقد جاءت هذه الآية بعد جدال نصارى نجران مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وأثناء الجدال انضمت إليهم جماعة من اليهود ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- لماذا تؤمن وتأمروا ؟ فأبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر المنهج وفوائده ، وأصول العبادة ، ولأن تلك الجماعة كانوا من أهل الكتاب ، بعضهم من نصارى نجران والبعض الآخر من يهود المدينة ، وكانوا يزيقون أوامر تعبدية ليست من عند الله ، ويريدون من الناس طاعة هذه الأوامر ، لذلك لم يفتنوا إلى الفارق بين منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامره ، وبين ما يزيقونه هم من أوامر ، فمحمد صلى الله عليه وسلم يطلب من الناس عبادة الله على ضوء المنهج الذي أنزله عليه الحق سبحانه ، أما هم فيطلبون طاعة الناس في أوامر من تزييفهم .

والطاعة - كما نعلم - هي لله وحده في أصول كل الأديان ، فإذا ما جاء إنسان بأمر ليس من الله ، وطلب من الناس أن يعطوه فيه ، فهذا معناه أن ذلك الإنسان يطلب أن يعبد الناس - والعبادة بالله - لأن طاعة البشر في غير أوامر الله هي شرك بالله . ولهذا تشابهت المواقف على هذا البعض من أهل الكتاب ، وظنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منهم طاعتهم لأوامره هو ، كما كانوا يطلبون من الناس بعد تحريفهم للمنهج وقالوا : أتريد أن نعبدك ونتخذك إلها ؟

(إنهم لم يفتنوا إلى الفارق بين الرسول الأمين على منهج الله ، وبين رؤسائهم الذين خالفوا الأحكام واستبدلوا بغيرها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب منهم طاعته لذاته هو ، ولكنه قد طلب منهم الطاعة للمنهج الذي جاء به رسولا وقدوة ، واستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه .

وأنزل الله سبحانه قوله الحق :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ

دُونِ اللَّهِ ﴾

لقد بلغت بهم الغفلة والشرك أنهم ظنوا أن الله لم يختار رسولا أميناً على المنهج ، وظنوا بالله ظن السوء ، أو أنهم ظنوا أن الرسول سيحرف المنهج كما حرفوه هم ، فتحولوا عن عبادة الله إلى عبادة من بعثه الله رسولا ، ولذلك جاء القول الفصل « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله » .

وقد ينصرف المعنى أيضاً إلى أن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يحلونه - صلى الله عليه وسلم - وكل مؤمن مطلوب منه أن يحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن يعظمه ، ومن فرط حب بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، ألا تسجد لك ؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب السجود له من أحد ، والحق سبحانه هو الذي كلف عباده المؤمنين بتكريم رسوله فقال :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكَ لِوَادِّ الْفَحْشَاءِ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة التور)

إن المطلوب هو التعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أن نعطي له أشياء لا تكون إلا لله . إن تعظيم المسلمين لرسول الله وتكريمهم له هو أن نجعل دعاءه مختلفاً عن دعاء بعضنا بعضاً .

والحق في هذه الآية التي نحن في مجال الخطاير عنها وجوها يقول : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

إن « لكن » هنا للاستدراك ، مثلما قلنا من قبل : إن « بلى » تنقض القضية التي قبلها وتثبت بعدها قضية مخالفة لها . إن الحق يستدرك هنا لفهم أنه ليس لأحد من البشر أن يقول : « كونوا عباداً لي » بعد أن أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة ، والقضية التي يتم الاستدراك من أجلها وإثباتها هي : « كونوا ربانيين » . وكلمة « رباني » ، وكلمة « رب » ، وكلمة « ربون » ، وكلمة « ربان » ، وكل المادة المكونة من « أراء » و « الباء » تدل على التربية ، والولاية ، وتعهد المربي ، وتدور

حول هذا المعنى . أليس ربان السفينة هو الذي يقود السفينة ؟

وكلمة « الرب » توضح المتولى للتربية ، إذنا فيما معنى كلمة « ربان » ؟ إنك إذا أردت أن تنسب إلى « رب » تقول : « رب » . وإذا أردنا المبالغة في النسبة نضيف لها ألفا ونونا فنقول : « ربان » . ولذلك نجد في التعبيرات المعاصرة من يريدون أن ينسبوا أمرا إلى العلم فيقولون : « علماني » وفي ذلك مبالغة في النسبة إلى العلم . والفرق بين « علمي » و« علماني » هو أن العلماني يزعم لنفسه أن كل أموره تخشى على العلم المادى ، ونجد أن في « علماني » ألفا ونونا زائدين لتأكيد النسبة إلى العلم .

وقد يقول قائل : ولماذا نؤكد الانسحاب إلى الله بكلمة « ربان » ؟ ونقول : لأن الكلمة مأخوذة من كلمة رب ، وتؤدي إلى معان : منها أن كل ما عنده من حصيلة البلاغ لابد أن يكون صادرا ومنسوبا إلى الرب ، لأنه لم يأت بشيء من عنده ، أى أنه يأخذ من الله ولا يأخذ من أحد آخر أبدا ، فهو ربان الأخذ .

وتؤدي الكلمة إلى معنى آخر : إنه حين يقول ويتكلم فإنه يكون متصفاً بخلق أنزله رب يرى الناس ليلغوا الغاية المقصودة منهم ، فهو عندما يفل ما عنده للناس يكون مربيا ، ويدير الأمر للفلاح والصلاح .

يقول الحق - سبحانه - : « بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » إن العلم هو تلقى النص المنهجي . والدراسة هي البحث الفكرى في النص المنهجي .

لذلك فنحن في الريف نقول : « ندرس القمح » أى أننا ندرس القمح بآلة حادة كالنورج حتى تنفصل حبوب القمح عن « التبن » وتكون نتيجة الدراسة هي استخلاص النافع . . إذن فقيه فرق بين « تعلمون » أى تعلمون غيركم المنهج الصادر من الله وذلك خاضع لتلقى النص ، وبين « ماكنتم تدرسون » أى تعملون أفكاركم في الفهم عن النص .

إن الفهم عن النص يحتاج إلى مدرسة ، ومعنى المدرسة هو أخذ وعطاء ، ويقال : « دارسه » أى أن واحدا قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضا : « تدارستا » أى أنتى قلت ما عندى وأنت قد قلت ما عندك حتى يمكن أن نستخلص

ونستنبط الحكم الذي يوجد في النص .

وقد يأتي النص محكمًا ، وقد يأتي النص محتملاً لأكثر من معنى .

ومادمت قد تعلمت ، فلا بد أنك تعرفت على النصوص المحكمة للمنهج .
ومادمت قد تدارست ، فلا بد أنك قد فهمت من النصوص المحتملة حين مدارستك
لأهل الذكر حسن استقبال المنهج ولذلك يجب أن تكون ربانياً في الأمرين معاً .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا

أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨﴾

أى أنه ليس لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة
والنبيين أرباباً . إن من الخصه الله بعلم وكتاب ونبوة لا يمكن أن يقول : «عبدوني»
أو «عبدوا الملائكة» أو «عبدوا الأنبياء» .

لماذا ؟ وبجيب الحق سبحانه : «أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» .

وقوله الحق : «بعد إذ أنتم مسلمون» تدل على أن واقعة القضية وما معها كانت
مع مسلمين كأنهم عندما جاءوا وأرادوا أن يعظموا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقالوا : نحن نريد أن نعظمك وضعا في التعظيم أكثر من أى كائن ونريد أن نتخذ
لك . فَوَضَّحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ : أَنَّ السُّجُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ .

إذن فالذين نكلموا مسلمون ، وكانوا يقصدون بذلك تعظيم الرسول صلى الله
عليه وسلم ، ولو أن رسول الله وافقهم لكان معنى ذلك أنه يخرجهم عن الإسلام .
ولا يتصور أن يصدر هذا عن سيدنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أو عن غيره
من الأنبياء عليهم السلام .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَ أَتَيْتُكُمْ
مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ
وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

هذه الآية نجعلنا نتعرف على أسباب بعث الحق لموكب الرسل ، ونعرف جميعا أن المنهج الأول قد أنزله الله على آدم عليه السلام متضمنا كل ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام ، وبلغ آدم أولاده هذا المنهج كما علمهم أمور حياتهم ، تماما مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم ، كما يفهم / يبلاغ الأبناء المطلوب الدين ، والأبناء يبلغون أبناءهم ، ويتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كي يكتمل وصول المنهج للذرية ، ولكن مع توالي الزمن وتتابعه نجد أن بعضا من مطلوبات الدين يتم نسيانها .

إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج ، وهكذا نرى أن الغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنسانا يغفل عن جزئية ما في هذا المنهج ، ونسيه نفسه وتلومته على تركه لتلك الجزئية ، ونسمى صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة ، إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج الله ؛ لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه ، وهناك إنسان آخر يستمرىء المخالفة للمنهج وتلج عليه نفسه بالمخالفة ؛ إنه صاحب النفس الأماراة بالسوء ، وتتوالى به دواعي ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وماذا يحدث للمجتمع إذا صار أفرادُه جميعاً من أصحاب النفس الأمارَة بالسوء ؟

إن معنى ذلك أن الفساد قد طم ، ولا بد من مجيء رسول ، لأن مراد الحق سبحانه هو هداية الناس ، لقد خلقنا سبحانه وله كل صفات الكمال ، ولم يضاف خلقنا إليه شيئاً . وما هو ذا الحديث القدسي الذي رواه أبوذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادي إن حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوا بهدى الله ، يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموا أطعمكم ، يا عبادي ، كلكم عار ، إلا من كسوته ، فاستكسوا أكسكم ، يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١)

إن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو من الأزل إلى الأبد ، في تمام صفات الكمال ولم يضاف له هذا الخلق شيئاً ، فهو القائل :

﴿ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
الْعَلِيِّ ۝٥٧﴾

(سورة الذاريات)

إذن فعندما يشرع لنا الحق أمراً فهو يشرعه لمصلحتنا ؛ إنه سبحانه يحب لصنعتة أن تظفر بسعادة المنهج ؛ لذلك أنزل المنهج « بافعل ولا تفعل » وحين يقول المنهج : « افعل ولا تفعل » فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة على الخلق إلا بما يحميهم ، إنه يحدد حرية هنا ليحمي حرية هناك . فعندما حرم الله السرقة - على سبيل المثال - فالأمر شامل لكل البشر ، فلا يسرق أحد أحداً .

إن الحق سبحانه حين منع يد واحد من السرقة ، كان في ذلك منع لملايين الأيدي أن تسرق من هذا الإنسان ، وفي هذا حماية لكل البشر من أن يسرق إنسان إنساناً آخر ، وفي ذلك كسب لكل إنسان ، فساعة تأخذ التشريع لا تأخذه على أنه مطلوب منك ، ولكن نأخذ على أنه مطلوب منك ومطلوب لك أيضاً .

ومثال آخر ، لقد حرم المنهج على العبد المؤمن أن يمد عينيه إلى محارم غيره ، ولم يكن هذا التحريم لعبد واحد ، إنما لكل إنسان مؤمن ، وبذلك لا تمتد أي عين إلى محارم هذا العبد ، لقد جاء الأمر لك بغض البصر عن محارم غيرك وأنت واحد ، وكففتنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتد إلى محارمك .

إذن فكل عبد مؤمن يكسب حياة مطمئنة من وجود التشريع ، وكل التشريعات إنما جاءت لصالحنا جميعاً ، ولذلك كان الحق رحيماً بنا لأن ركب الرسل قد تواصل واستمر في الكون منذ آدم ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنهج الذي جاء به كل هؤلاء الرسل لا يتناقض فيه أبداً ، لأن في هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ، ليناقض موكب رسول آخر .

لكن ما الذي يأتي بالتناقض بين الأديان والمشرع واحد ؟ وكل الناس عيال له ؟

إننا نرى الرسل من التناقض ، وإن حاول البعض أن يصوروا الأمر كذلك فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم سلطة زمنية يتحكمون بها في الدنيا ، فالذين كانت لهم سلطة زمنية في دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك .

وعندما جاءت النصرانية على اليهودية قال أحبار اليهود : نحن لا نريد النصرانية لماذا ؟ لأن السلطة الزمنية كانت في أيديهم ، ولو أن هؤلاء الأحبار ظلوا باقين على

ما أنزله الله عليهم من منهج لقبلوا يدي أى رسول قادم شاكرين له مقدمه ومحبة وقالوا له : ساعدنا عل أن نعلم قهمن المنهج الله . . إذن فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها سلطات زمنية ، وموكب الرسالات من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج متعاند لا متعاند .

وحيثما يأتي رسول ليجد أناسا غير مؤمنين بإلهه فالمشكلة تكون سهلة . لأنه سبقتهم إلى إله واحد ، وبالمنهج الذى يريده الله ، لكن المشكلة تكون كبيرة مع الجماعة التى لها رسول وهم منسوبون إلى السماء ، فإذا ما جاء رسول من الله فهو يحمى . وهؤلاء الأنبياء قد أخذوا من ادعائهم بالانساب لرسالة رسول سابق سلطنة زمنية كما حدث مع اليهود والنصارى ، فتعصبوا للدين الذى كانوا عليه متناسين أن كبارهم قد حرفوا المنهج لحساب السلطة الزمنية .

وقد استمر موكب الرسل إلى الخلق ليحمى الله الخلق من سيادة الانحراف واصطفى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم لتحمل الأمانة فلن يأتي لها رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله قد ضمن بقاء الخير في هذه الأمة ، فإذا رأيت أناسا بالغوا في الإلحاد فتق أن هناك أناسا زادهم الله في المدد حتى يحدث التوازن ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَلَتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١١٠ ﴾

(سورة آل عمران)

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ١١١ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فإن امتنع الوازع النفسى فى النفس اللوامة عند فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسوف يأتى أناس مسلمون ينيهونه إلى المنهج ، والحق سبحانه وتعالى لا يعصم الناس من أن يخطئوا فهو القائل :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنِ خَشِيرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٤ ﴾

(سورة العصر)

إن الحق جاء بكلمة « وتواصوا » ، ولم يأت بكلمة « وصوا » وذلك لفهم أن التوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان فى لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه .

وترد هذه المسألة أيضا إلى الموصى ، فقد تاق له لحظة ضعف أمام المنهج ؛ فيجد من يوصيه وهكذا نرى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا ، وآخرون مهمتهم تلقي التوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيماني ، والإنسان قد يضعف فى مسألة من المسائل فيأتى أخ مؤمن يقول له : ابتعد عن هذا الضعف ، إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار فى النفس البشرية ، لأن لحظات الأغيار لا نجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنسانا قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق وتواصى بالصبر ، وأنت أيضا حين تضعف مستجد من أخوتك الإيمانية من يوصيك .

هذا هو الحال فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الأمم السابقة عليها فقد كانوا لا يتناهون عن متكر فعلوه ، ولذلك كان لابد أن تتدخل السماء وتأتى برسول جديد ومعه معجزة جديدة تلفت العقول لغتنا قسريا إلى أن هناك أشياء تأتى بها المعجزة ، وهى خرق ناموس الكون ، وفى ذلك لفت من الله للناس إلى مناطق القدرة .

وأخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يبلغ كل نبي قومه هذا البلاغ ، انتظروا أن

ترسل إليكم السماء رسلا ، وساعة يحىء الرسول المبلغ عن الله منهجه فكونوا معه ، وأبدوه .

كان الرسل عليهم جميعا السلام مأمورين أن يضعوا في المنهج . وصلبه أن السماء حينما تتدخل وتأت برسول جديد فلا بد أن يتبعه أقوامهم ، ألا يتعصبوا ضد الرسول القادم ، بل يسلمون معه ويرحبون به ؛ لأن الرسول إنما يحىء ليعاون الناس على المنهج الصحيح ، لكن الأنبياء الذين يعشقون السلطة الزمنية تعمدوا التحريف ، ومن أجل أن يحىء الحق خلقه من هذا المرض أنزل الميثاق الذى أخذه على النبيين ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

قد يقول قائل : إن هذا القول يصلح عندما يأتى رسول معاصر لرسول مثلما عاصر شعيب سيدنا موسى عليه السلام ، وكما عاصر لوط سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ونقول : هذا يحدث - أيضا - وإن لم تتعاصر الرسل ، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطى لقومه البلاغ الواضح ، وإن لم يتعاصر الرسولان فلا بد أن يعطى الرسول مناعة ضد التعصب ، فما داموا قد آمنوا بالرسول واتبعوه فعليهم حسن استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم ، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه : كونوا فى انتظار أن تتدخل السماء فى أى وقت ، فإذا تدخلت السماء فى أى وقت من الأوقات ، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تغفوا منه موقف المضارة ، وإياكم أن تغفوا منه موقف العداوة ، بل عليكم أن « تنصروه » وهذا قول واضح وجلى ولا لبس فيه .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ونقول في شرح معنى : « رسول مصدق لما معكم » .

إن الدين يأتي بقضايا متفق عليها ؛ لأن العقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والقصاص واحد ، لكن الذي يختلف هو الحكم التشريعي الذي قد يتناسب زماناً ولا يتناسب زماناً آخر ، فإذا جاء الرسول بكتاب مصدق لما معكم في الأمور الدائرة في منهج العقائد ، أو منهج الأخبار أو منهج القصاص فلا بد لكم أن تصدقوه .

لكن اليهود لم يفعلوا ذلك ؛ لأن الرسول جاء ليعيد هداية الجماعة التي آمنت بالرسول والتي تؤمن بالله ، وكان مجيء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الواضح المعقبة والأخبار الصحيحة غير المحرفة والقصاص التي تدغم المنهج كما جاء بالتشريع المناسب وكان مجيء النبي الخاتم مزلزلاً لمن استمرروا السلطة الزمنية ، فمنهم من أصر على اتباع رسولهم فقط وبالمنهج الذي تم تحريفه ورفضوا اتباع الرسول الجديد ، ومنهم جماعة أخرى آمنت ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك جماعة ثالثة تؤمن برسول آخر ، والخيبة تأتي نتيجة للتعصب ، ولذلك كانت دعوة الإسلام هي لنصفية العقائد ، ودعوة لكل متبع لأي رسالة سابقة أن يدرس ويناقش ، هل الدين الخاتم قد جاء بما يختلف عن الأديان السابقة في العقائد ؟ أو جاء مصدقاً لها ؟

لقد جاء الدين الخاتم مصدقاً لما سبقه في العقائد والأخبار والقصاص وإن اختلف في التشريعات التي تناسب زماناً ولا تناسب زماناً آخر ، فكان الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم البشرية من العصبية الموهجاء ، والعصبية العمياء التي تنشأ من اتباع رسول لتقف سداً حائلاً أمام رسول آخر ؛ فالله حين أرسل كل رسول قد أعطاء الأخبار والحقائق وأنه سبحانه قد أخذ المباني على كل نبي أرسله بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصديق كل رسول يأتي معاصراً ومصدقاً لما معهم ، وأن يؤمنوا به ، وأن يبلغ كل رسول أمته بضرورة هذا الإيمان .

لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الركب الإيمان المتمثل في مواكب الرسل ألا يكون بعضهم لبعض عدواً ، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قضية الدين كلها . فالذي يجعل الإلحاد متفشياً في هذا العصر هو أن النسويين إلى الأديان السماوية يختلفون ، وربما كانت العدواة بينهم وبين بعضهم أقوى من العدواة بينهم وبين

الملحدين والمتكبرين لله ، وهذا الاختلاف يعطى المجال للملحدين فيقولون : لو كانت هذه الأديان حقا لاتفقوا وما اختلفوا ، فيما معنى أن يقول أتباع كل رسول منهم يتبعون رسولا قادمًا من السماء ؟

إن الملحدين يجدون من اختلاف أتباع الديانات السماوية فرصة ليلذروا في الناس بذور الإلحاد ، ولا يجدون تكتلا ولا قوة إيمانية لمن يؤمن بالسماء أو بمنهج السماء لكن الحق سبحانه يقول : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين : وهذا يعنى أنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبي ساعة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة ، وأنه إذا جاءكم رسول مصدق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به ، ولا يكفى إعلان الإيمان فقط ، بل لابد أن يكون النبي ومن معه في نصرة الرسول الجديد يقول : ولو عمل أتباع كل نبي بهذا العهد والميثاق لما كان هؤلاء الملحدين حجة ويضيف سبحانه : « قال ، « أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا » والإقرار سيد الأدلة كما يقولون ، والإصر هو العهد الشديد ، ولذلك يقال : « آصرة المودة » أى الرابطة الشديدة المعقودة . وقال الموكب الإيمانى للأنبياء موجهين إقرارهم لله تعالى « أقررنا » ، فقال الحق سبحانه : « فاشهدوا » . والشهادة دائما تقتضى شاهدا ومشهودا عليه ومشهودا به .

ومادام الحق سبحانه هو الذى يقول للنبيين الذين أخذوا منه العهد والميثاق الحق : « فاشهدوا » ، إذن فهم في موقف الشاهد ، وما المشهود عليه ؟ وما المشهود به ؟ هل يشهدون على أنفسهم ؟

أو يشهد كل نبي على الأنبياء الآخرين ؟

أو يشهد أنه قد بلغ أمته هذا القرار الإلهي ؟

إن الرسول يشهد على أمته ، وأن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض .

إذن قد يكون الشاهد نبيا ، والمشهود له نبي آخر ، والمشهود به أن يؤمنوا بالرسول القادم ويتصروه .

وقد يكون الشاهد النبي ، والمشهود عليه هي أمته بأنه قد بلغها ضرورة الإيمان بالرسول القادم بمنهج السماء ؛ لأن الأمة مادامت قد آمنت برسول فعليهم مؤازرة هذا الرسول ، ومؤازرة مَنْ يَأْتِي من بعده ، وذلك حتى لا يتبدد ركب الإيمان ومُمام باطل الإلحاد :

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ولترتب الشهادات التي وردت في هذه الآية الكريمة : الأنبياء يشهد بعضهم على بعض ، أو الأنبياء يشهدون على أمهم ، ثم شهادة الله على الأنبياء .

ومادام الأمر قد جاء بهذا التوثيق فعلينا أن ننبه أنه إذا ما وجدنا ديننا سابقا يتعصب أمام دين لاحق ، بعد أن يأتي هذا الدين بالمعجزة الدالة على صدق بلاغ ذلك الرسول عن الله فلنعلم أنهم خائنوا هذه القضية . وسبب ذلك إنما يرجع إلى أن الله يريد أن يحتفظ بالدعوة إلى الإيمان ، بانسجام تام ، فلا يتعصب رسول لنفسه ولا لقوميته ولا لبيته ، ولا يتعصب أهل رسول لملتهم أو نحلتهم ؛ لأنهم جميعا مبلغون عن إله واحد لمنهج واحد ، فيجب أن يظل المنهج مترابطا فلا يتعصب كل قوم لنبيهم أو دينهم ، وهذا ليكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متساندا متعاضدا ، فلا حجة من بعد ذلك لنبي ، ولا لتابع نبي أن يضاد دعوة أي رسول يأتي ، مادام مصدقا لما بين يديه .

لقد أعلمنا الحق أنه قد عرض شهادة الأنبياء على بعضهم ، وشهادة الأنبياء على أمهم ، وشهادة الله سبحانه على الجميع ، وذلك أوثق العهد وأكدها ؛ ولذلك فكل من أستمع لهذا يجب أن ينصر أي رسول يأتي مصدقا لما معه ، وبذلك يزاد موكب الإيمان تأزرا وتلاحما ، فلا يأتي مؤمن برسالة من السماء ليصادم مؤمنا آخر برسالة من السماء . . . ولندع المصادمة لمن لا يؤمنون برسالة السماء ، وحين يتكاتف المؤمنون برسالة السماء يستطيعون الوقوف أمام هؤلاء الملاحدة ، وبعد هذا البيان الواضح يقول الحق :

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

معنى «تولى» هو مقابل «أقبل» . و«أقبل» تعنى أنه جاء بوجهه عليك . و«تولى» أعرض كما نقول نحن في تعبيراتنا الشائعة : «أعطاني ظهره» . ومعنى هذا أنه لم يأبه لى ، ولم يقبل على . إذن فالمراد من «أخذ العهد» أن يُقبل الناس على ذلك الدين ، فالذى يُعرض ويعطى الإيمان الجديد ظهره يتوعد الله ويصفه بقوله : «فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» بعد ماذا ؟ إنه التولى بعد أخذ العهد والميثاق على النبيين ، وشهادة الأمم بعضها على بعضها ، وشهادة الله على الجميع ، إذن فلا عذر لأحد . فمن أعطى ظهره للنبي الجديد ، فماذا يكون وعيد الله له ؟

إن الحق يصفهم بقوله : «فأولئك هم الفاسقون» أى أن الرعبد هو أن الله يحاسبه حساب الفاسقين ، والفسق - كما نعلم - هو الخروج عن منهج الطاعة . والمعاني - كما تعرف - أخذت وضعها من المحسوسات . لأن الأصل في الوعي البشرى هو الشيء المحسوس أولاً ، ثم تأتي المعنويات لتأخذ من ألفاظ المحسوسات . والفسق في أصل اللغة هو خروج الرطوبة عن قشرتها ، فالبلع حين يرطب ، يكون حجم كل ثمرة قد تناقص عن قشرتها . وحينئذ يتناقص الحجم الطبيعي عن القشرة تصبح القشرة فضفاضة عليه ، وتصبح أى حركة عليه هى فرصة لانفلات الرطوبة من قشرتها .

ويقال : «فسقت الرطوبة» أى خرجت عن قشرتها . وأخذ الدين هذا التعبير وجعله وصفاً لمن يخرج عن منهج الله ، فكأن منهج الله يحيط بالإنسان في كل تصرفاته ، فإذا ما خرج الإنسان عن منهج الله ، كان مثل الرطوبة التى خرجت عن قشرتها .

ونحن أمام فسق من نوع أكبر ، فهناك فسق صغير ، وهناك فسق كبير . وهنا

نسال أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج يوصف به كل عاصٍ ، أى أن صاحبه مؤمن بمنهج وفسق جزئيا ، إننا نقول عن كل عاصٍ : « إنه فسق » أى أنه مؤمن بمنهج وخارج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسق الذى يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة ؛ لأنه فسق عن ركب الإيمان كله ، فإذا كان الله قد أخذ العهد ، وشهد الأنبياء على أممهم ، وشهدت الأمم بعضها على بعض ، وشهد الله على الجميع ، أبعد ذلك نكون هناك فرصة لأن يتولى الإنسان ويعرض ؟

ثم لماذا يتولى ويعرض ؟ إنه يفعل ذلك لأنه يريد منهجا غير هذا المنهج الذى أنزله الله ، فلو كان قد افتتح بمنهج الله لأقبل على هذا المنهج ، أما الذى لم يقتنع فإنه يعرض عن المنهج ويطلب منهجا غيره فأى منهج تريد يا من لا ترضى هذه الشهادة ولا هذا التوثيق ؟ خصوصا وأنت تعلم أنه لا يوجد منهج صحيح (لا هذا المنهج ، فليس هناك إله آخر يرسل مناهج أخرى .

وهكذا نعرف أنه لا يأتى منهج غير منهج الله ، إلا منهج من البشر لبعضهم بعضا ، ولنا أن نقول لمن يتبع منهجا غير منهج الله : من الذى جعل إنسانا أولى بأن يتبعه إنسان ؟ إن التابع لا بد أن يبحث عمن يتبعه ، ولا بد أن يكون الذى يتبعه أعلى منه ، لكن أن يتبع إنسان إنسانا آخر فى منهج من عنده ، فهذا لا يليق ، وهو فسق عن منهج الله ؛ لأن المساوى لا يتبع مساويا له أبدا ، ومن فضل الله سبحانه أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعا حتى لا يتبع إنسان إنسانا آخر . لماذا ؟ حتى لا يكون هوى إنسان مسبطا على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لا هوى له . إن كل إنسان يجب أن يكون هواه تابعا لله الذى خلق كل البشر .

ومادام ليس هناك إله آخر فما المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه ؟

إن المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه لو لم يتبع منهج الله هو منهج من وضع البشر ، والمنهج الذى يضعه البشر ينبع دائما من الهوى ، ومادامت الأهواء قد وجدت ، فكل مشرع من البشر له هوى ، وهذا يؤدي إلى فساد الكون . قال تعالى :

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ

يَذْكُرُهُمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُغْرَضُونَ ﴿٧١﴾

(سورة التَّوْهِيْدِ)

فإذا كانوا لا يرتضون منهج الله ، فأى فسق هم فيه ؟ إنه فسق عظيم ؛ لأن الله قد أخذ عليهم العهد وعلى أنبيائهم ووثق هذا العهد ، أفغير الله يبنون ؟ نعم ، إنهم يبنون غير الله ومن هو ذلك الغير ؟ أمواليه آخر ؟ لا ، فليس مع الله إله آخر ، بل هم قد جعلوا الخلق مقابل الخالق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴾

إنهم ماداموا غير مؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله نبيا ورسولا فإن ذلك يكشف رغبتهم فى أنهم يريدون منهجا غير منهج الله ، وليس أمامهم إذن إلا منهج البشر النابعة من الأهواء ، والتى تقود حتما إلى الضلال ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد لخلقه أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، إنه الحق سبحانه وتعالى قد أوضح لنا في منهجه ، وقال لنا هذا المنهج : أنتم مستخلفون فى الكون ، وأنتم أيها الخلفاء فى الأرض سادة هذا الكون ، سادة يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدها فى خدمتكم ، الحيوان أقل منكم بالفكر . والنبات أقل من الحيوان بالحس . والجهد أقل من النبات .

إذن فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فالنبات يخدم الحيوان والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجماد يخدم الجميع ، والعناصر التى تأخذها نحن البشر من الجهاد يستفيد منها أيضا النبات والحيوان . إذن فكل جنس فى الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التى تعملوه .

الجهاد بخدم النبات .

والجهاد والنبات بخدما الحيوان .

والجهاد والنبات والحيوان في خدمة الإنسان ، وأنت أيها الإنسان تخدم من ؟

كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطا يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى ، كان لابد أن تبحث عن أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى .

هل أنت أيها الإنسان قد سخرت هذه الأجناس بقدرتك وقوتك ؟

لا ، فليست تملك قدرة ذاتية تتيح لك ذلك ؟ أما كان يجب عليك أن تفكر ما هي القوة التي سخرت لك ما لا تقدر عليه ، فخدمتك حين لا توجد لك قدرة ، وخدمتك وأنت نائم تنفط في نوم عميق ؟ أما كان يجب أن تفكر هذا الفكر ؟ إنك أيها الإنسان يجب أن تكون منطقيا مع نفسك ، وأن تبحث لك عن سيد يناسب سيادتك على غيرك . والكون لا يوجد فيه سيد عليك ؛ لأن الكون محس ، فإن جاءك من يخدمك بأن غيا هو الإله يطلب أن تكون في خدمته فيجب أن تقول : « إن هذا كلام منطقي بالنسبة لوضعي في الكون » وبعد ذلك انظر إلى الكون ، فأنت في الكون لست وحدك بل هناك أجناس أخرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه وله مهمته ، للحيوان مهمة ، وللنبات مهمة ، وللجهاد مهمة . فهل وجدت جنسا من الأجناس تمرد على مهمته ؟ لا .

إن الحصان مثلا ، تستخدمه كمطية عليها وسادة من حرير وجلد ولها لجام من فضة لتركبه ، ونجد هذه المطية في يوم آخر تحمل سباد الأرض من روث الحيوان وما تأبت ، لقد أدت الخدمة لك راكبا ، وأدت الخدمة لك ناقلا ، وما تمردت عليك أبدا . كل الأجناس - إذن - تؤدي مهمتها كما ينبغي ، فاستقام الأمر فيها ، ومادام الأمر قد استقام فيها ، فبأي شيء استقام ؟ إن الله هو الذي خلقها ذللها ، قال لها : « كوني في خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا » وفي هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخر أو تشك عن حركتها في خدمة الإنسان .

أراي أحدكم الشمس مرة قالت : لم يعد الخلق يعجبونني ، ولن أشرق عليهم

ونسأحتجب اليوم ؟! أقمرد الهواء وقال : لا ، إن الخلق لم تعد تستحق تنفس الهواء ، لذلك لن أمكنهم من الارتفاع .

أراينا المظر امتنع ؟ هل استتبت الإنسان أرضا صالحة للزراعة واستعصت عليه ؟ لا . . . فكل شيء في الوجود يؤدي مهمته تسخييرا وتذليلا .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٦ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ ۝٧٧ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾

(سورة يس)

والحق سبحانه وتعالى يطلق بعضا من الحيوان فلا يذلل ، ولا يستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل بقدرتك فإن كانت لك قدرة مطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم أو استأنس الأسد . وأنت أيها الإنسان ترى في هذا الكون بعضا من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة . يغير استأنس ليدلنا الحق على أن هذا الذي يخدمك لو لم يذلل الله لك لما استطعت أنت بقدرتك أن تدبله ، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضيلا منه - سبحانه - مع عجزك وضعفك .

ولم نجد شيئا نافعا قد عصى الإنسان في الكون ، لأن كل الخلق مسخر من الله لخدمة الإنسان كاقرا كان أو مؤمنا ، وهذا هو عطاء الربوبية ، لأن عطاء الربوبية يشمل الخلق جميعا ، فالخالق الأكرم هو رب الناس كلهم ويتولى تربيته جميعا ، ولذلك نستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا . فإن أحسن الكافر استخدام الأسباب فإن الأسباب تعطيه ولا تعطى المؤمن الذي لا يستخدم الأسباب ، أو لا يحسن استخدامها فهذا هو عطاء الربوبية ، والربوبية للجميع . أما عطاء الألوهية فهو « افعل ولا تفعل » وهو عطاء للمؤمنين فقط .

فإذا كانت هذه هي صورة الكون وهو يؤدي مهمته بلا شذوذ فيه ، ومنسجم في ذاته انسجاما عجبيا فلنا أن نسأل « من أين جاء الخلل في الكون ؟ » إن الخلل قد

جاء منك أيها الإنسان . ولهذا فنحن لا نجد فسادا في الكون إلا وللإنسان مدخل فيه ، أما مالا مدخل للإنسان فيه فلا فساد فيه أبدا .

أرأيت أحدا قد اشتكى من أن الهواء فصر ؟ لا .

لماذا ؟ لأن أحدا لا دخل له بمسألة الهواء هذه أبدا ، صحيح أننا نتدخل في الهواء بتلويثه بالعوادم والفضلات ، وصحيح أيضا أن الحق يكرم الخلق باكتشافات قد تصلح من هذا الفساد إذن ، فحين يتدخل الإنسان فإن الشيء قد يفسد . لكن هل معنى ذلك ألا نتدخل ؟ هل نقف من الكون مكتوفى الأيدي ؟ لا ، بل يجب أن نتدخل في الكون ، ولكن بمنهج الله .

إنك إن تدخلت في الكون بمنهج الله ، فكل شيء يسير كما يسير الكون الذى لا منهج له إلا الخضوع والتسخير ، فكما أدت الشمس مهمتها والجماد مهمته ، والحيوان مهمته ، وأنت أيها الإنسان مطلوب منك أن تؤدى مهمتك ، وهى أن تطيع الله ، تلك الطاعة التى تلخص مطلوباته منك فى : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فإن انتظمت مع المنهج بدو افعل ، وه لا تفعل ، تكن قد انسجمت مع الكون .

إن الله سبحانه يزيل هذه القضية ويختمها باستفهام تنقطع وتنظر له قلوب المؤمنين :

﴿ أَقْبِرْ دِينَ اللَّهِ يَتَّقُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَاللَّهُ يَرْجِعُهُمْ ۖ ﴾

(سورة آل عمران)

إن كل شيء فى السماوات وفى الأرض قد أسلم لله طوعا أو كرها . وإذا ما تساءلنا ، وما معنى « طوعا ؟ » فالإجابة هى طاعة التسخير ، كما قالت السماوات والأرض فى النص القرآنى الحكيم :

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٥١﴾

(سورة فصلت)

فكل ما لا تكليف له جاء طائعا مسجرا ، وما معنى : « كرها » ؟ إن بعضا من العلماء قد قال : إن « طوعا » تشمل أجناس الملائكة ، والجهاد ، والنبات ، والحيوان ، فكل منهم يؤدي مهمته بخضوع ولا يعترض أحد منهم ولا يملك أحدهم قدرة على العصيان ، وأما عن « كرها » فقد فهم بعض العلماء أنهم الناس الذين يخدمون الناس بالقوة كالعبيد مثلا ، ولهذا نقول : لا يصح ولا يستقيم أن نعطي خصوم الإسلام فرصة ليقولوا إن الإسلام قد أكره أحدا من البشر أن يخدم أحدا كرها ، لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فيأدام الله لم يكره أحدا على الإيمان به فكيف يكره إنسانا ليعلم إنسانا آخر ؟ وهذا فإننا يجب أن نفهم كرها على وضعها الحقيقي ، والحق سبحانه أبلغنا أن هذا الكون كله مسخر له ، لأنه سبحانه هو الذي خلقه ولا إله غيره وهذه مسألة مسلم بها ، فالكون كله لله ، وهو المدبر والقاهر له ، قال الحق :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَاهُ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وما دام هو الواحد وهو الخالق فلن يتمرد أحد على مراده ، وكان يجب أن يفهم الإنسان مهمته على أنه هو الوحيد الذي كلفه الله ، لأن بقية الأجناس لا اختيار لها وهي غير مكلفة كما كلف الله الإنسان بـ « افعل » و « لا تفعل » إذن فالتكليف فرع

الاختيار : فالمنهج يقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » لأن الذي وضعه يعلم أنه قد خلقك صالحا لأن تفعل ما يأمرك به ، وصالحا لأن تفعل ما لا يأمرك به .

إن اليد - مثلا - مخلوقة لتتحرك حسب إرادة صاحبها ، بدليل أن الإرادة إن شئت وانقطع الخيط الموصل للإرادة الأمرة إلى الجارحة الفاعلة عندئذ يحاول الإنسان المصاب بذلك - والعياذ بالله - أن يرفع يده فلا يستطيع ، فاليد مسخرة لإرادة الإنسان ، وإرادتك أيها الإنسان عندما تسير في ضوء منهج الله فإنك توجهها في ضوء « افعل » و « لا تفعل » .

وعندما يقال لك مثلا : « لا تضرب بها أحدا » فمعنى ذلك أن اليد صالحة لأن تضرب ، وعندما يقال لك : « خذ بيد العائثر » فبذلك قادرة على أن تأخذ بيد العائثر ، فأنت مخلوق على هيئة البطواعة من جوارحك لإرادتك . ويبقى المنهج ليقول لك : « نفذ الإرادة في كذا ولا تنفذ الإرادة في كذا » .

إذن فالإنسان عندما يتبع المنهج فهو يتفق مع الأشياء المسخرة تمام الاتفاق ، ويؤدي كل شيء على خير أداء ، لكن متى يختلف الإنسان عن الانسجام مع الأجناس الأخرى في الكون ؟ إن الإنسان يختلف عن الانسجام عندما لا يطبق المنهج ، فيشذ عن الركب في الكون كله ، ولتقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٨)

(سورة الحج)

إنها الأجناس كلها ساجدة ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجهادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات ساجد لله ، والحيوان والذوابة ساجدة لله ، وكثير من الناس سجد ، لكن في مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد لذلك حق عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ

منهج الله فنغذه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان اختلف ، وقال : « أنا سوف آخذ اختيار تحمل الأمانة ، لأنى عالم وعافل » كما جاء فى القول الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٦)

(سورة الأنعام)

فلو اخذ الإنسان منهج الله فى « افعل ، و « لا تفعل » ، لانسجم الإنسان مع الوجود كله وحين ينسجم الإنسان مع الوجود كله قلن تأتى منه مخالفة أبدا كما لا تأتى مخالفة فى الوجود من غير الإنسان ، وعند ذلك يصبح الكون مثاليا فى الانسجام . ونحن نعرف أن الطموحات العلمية حين تعمل وتشغل العقل فى أمر ما فإنها تريد الخير ، ولكنها تعلم شيئا ، ويغيب عنها شيء آخر ، ولو أخذوا عن الله العليم بكل شيء لصارت الدنيا إلى انسجامها .

إن المخترعين الذين صمموا المحركات التى تتحرك بسائل البنزين قاموا بتسهيل الحركة على الإنسانية ، ولكن العادم والمخلفات الناتجة من البنزين صنعت ضررا بالكون ، ودليل ذلك أن العلماء الآن يبحثون عن أساليب لمقاومة تلوث البيئة . وعندما كان الوقود هو الحطب لم يكن هناك تلوث للبيئة ، لماذا ؟ لأن كل عنصر كان يؤدي مهمته ، فجزء من احتراق الحطب كان يتحول إلى كربون ، وجزء آخر يتحول إلى غازات ، وتنصرف كل الأشياء إلى مساراتها .

إن هذا يدلنا على أن الإنسان قد دخل إلى المخترعات المعاصرة بتصف علم . لقد قدّر الإنسان أنه يريد تخفيف الحركة ، وينقل الأثقال ويختصر المسافات ، لكنه لم ينظر إلى البيئة وتلوثها ، فنشأ عادم بفسد البيئة ، لكن لو كان عند الإنسان القدرة الشاملة على العلم لكان ساعة اختراع هذه المحركات قد بحث عن وضع معادلة لتعدل من فساد العادم .

ولننظر إلى عظمة الحق ، إنه بترك للعقل البشرى أن يتقدم . ولكن العقل البشرى قاصر ويشقى من الأشياء ما ينتج عنه الضرر أخيرا . إن الذين اخترعوا

المبيدات الحشرية كانوا يظنون أنهم قاموا بفتح جديد في الكون ، وتشاء إرادة الحق أن يقوم بتحريم هذه المبيدات القوم أنفسهم الذين اخترعوها ، لأنهم وجنّبوا منها الضرر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ يَتَّبِعُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

إنك إن أردت أن تكمل صنعك فابحث عن الحسن في ضوء منهج الله ، والحق سبحانه يضرب لنا المثل الواضح . إننا نعرف أن عادم صناعتنا ضار كعادم المصانع والسيارات وغيرها ، لكن عادم خلق الله في الحيوان نافع ، فالإنسان يأخذ روث الحيوان ويصنع منه السماد ليزيد من خصوبة الأرض ، والعجيب أن فضلات الحيوان التي تعطى خصوبة للأرض لا نجد فيها شيئاً يقرّر ، ولا نجد لها الرائحة التي توجد في فضلات الإنسان ، لماذا ؟

لأن الحيوان يأكل على قدر حاجته ، إن الحيوان قد يجد أمامه أصنافاً كثيرة ، مثل الحشيش الجاف اليابس ، وأمامه التنوع الأخضر ، فلا يأكل التنوع الأخضر ويأكل الحشيش اليابس ، وإذا شبع الحيوان امتنع عن الطعام ، ولذلك لا يخرج فضلات كريهة الرائحة ، لكن الإنسان ينوع ويلون ويأكل فوق طاقته ويبحث شهيته على الانطلاق والانفلات ، إن الحيوان لا اختيار له ، ومحكوم بالغريزة ويجد أمامه هذا الذي يؤكل وذلك الذي لا يؤكل فيختار بغريزته المناسب له ، وإذا امتلأت البطن لا يأكل ، لأنه محكوم بالغريزة والتسخير المطلق ، لكن الإنسان يتمتع بالاختيار ، فأفسد عليه هذا الاختيار وأبعده عن منهج الله وجعله بما لديه من قدرة يتجاوز الاكتفاء بحدود الشبع .

وهكذا نرى بوضوح أن الكون كله أسلم لله طوعاً في المسخرات . وإياك أن تفهم أن هناك إسلاماً بالقهر والإكراه . وبعض العلماء قد فاتهم ذلك ، وهم يعطون

لخصوم الإسلام حجة فيقولون : « إن دينكم انتشر بإكراه السيف » ولذلك نقول لهم : لا ، إن أحدا لم يسلم كرها أبدا ؛ لأن السيف إنما رفع لشيء واحد هو حماية حرية الاختيار . إن السيف قد رفع ليمنع الإكراه ، وليمنع تسلط بعض الناس بقوتهم ليجبروا الناس على عقائدهم فقال لهم السيف : « قفوا عند حدكم ، ودعوا الناس أحرارا في اختيار ما يعتقدون » ، ودليل ذلك أن البلاد التي فتحها الإسلام تجد فيها غير المسلمين ، ولو كان الأمر فتحا بالسيف لما وجدنا ديانات أخرى . غير الإسلام ، نجدهم أيضا يتشدقون بذلك ويزيدون « إنكم تفرضون جزية » .

ونقول لهم : أنتم تردون على أنفسكم ، نحن لم نفرض جزية على المؤمن ولكن الكافر تركناه على كفره ، والجزية يدفعها الكافر ليدافع عنه المؤمنون لو أصاب البلاد مكروه .

إذن فكيف نفهم قوله الحق بأن هناك من أسلم كرها ؟

نحن نفهمها كالآتي : إن الإنسان هو الذي انقسمت عنده المسائل ، وفيه أمور ندخل في فعله ومراداته ، وفيه أمور تحدث قهرا عنه ، وتحدث له بلا إرادة ولا اختيار ، فالإنسان يكون مختارا في الفعل الذي يقع منه ، أما الفعل الذي يقع عليه أو فيه فلا دخل له فيه بالاختيار ؛ إن أحدا منا لا يختار يوم ميلاده ، أو يوم وفاته أو يوم إصابته بالمرض ، والإنسان الذكي هو الذي يعرف ذلك ونقول للإنسان الذي لا يعرف أو يتجاهل ذلك : أيها الإنسان دعك من الغباء ؛ إن هناك زوايا من حياتك أنت مجبر فيها على أن تكون مسلما لله كرها إنك تسلم لله دون إرادتك في كثير من الأمور التي تقع عليك ، ولا تستطيع لها دفعا ، فلماذا تقف في الإسلام عند زاوية الاختيار ؟

إن المسخرات كلها مسلمة لله ، والإنسان فيها يقع فيه أو عليه من أمور لا يستطيع دفعها . هو تسليم لله كرها من الإنسان ، وهكذا نرى أن قيادة التسخير قيما ليس لك دخل فيه أيها الإنسان هي مسلمة لله ، مثلك في ذلك مثل كل الكائنات ، أفلا يجب عليك أن تسلم بكل زوايا حياتك ؟ فلو كان هناك إنسان كافر بكل ما فيه من أبعاد فعل هذا الكافر ألا يسلم بأي شيء من جوارحه ؟ هل يستطيع أن يمنعها من أن تؤدي عملها ؟

ولتر ما سيحدث له لا بد أن يتوقف عن التنفس ؛ لأن التنفس يحدث رغما عنه ، لا بد أن يوقف دقات قلبه ؛ لأنها تدق رغما عنه . ومادام هناك من يستمرى الكفر فليحاول أن يجعل كل ما فيه كافرا ، ولن يستطيع ؛ بل سيجد أنه يجب أمورا ولا تائق له ، ويكره أمورا وتنزل به ، ولن يفلت أحد من الإسلام لله ، لأن الله قد اختار لكل إنسان يوم الميلاد ويوم الموت ، واختار الله للإنسان أن تجري الأحداث فوقه ولا يستطيع دفعها ، ويصبح خاضعا رغم أنفه ، لذلك قال الحق : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » .

إذن ولتأخذ « طوعا » لغير الإنسان ، وللمؤمن الذي نفذ تعاليم المنهج ، ولتأخذ « كرها » في المسائل التي لا تدخل لاختيار الإنسان فيها وتقم عليه وهو يكرهها ، ولا يستطيع دفعها ، لأن الذي يجبرها عليه هو الخالق الفعال لما يريد ، ومادامت هناك زاوية من حياتك أيها الإنسان أنت مكره فيها فلماذا تمردت في المسألة الاختيارية ؟

كان يجب أن يأخذ الكافر هذه النقطة ويقول للكفر : « لا » ، وشجه إلى الإيمان ، لأن المؤمن يأخذ هذه النقطة ويقول : أنا أريد أن أنسجم مع الكون كله حتى لا تطفئ ملكة على ملكة ، ولا تطفئ إرادة على إرادة أخرى ، وهذه رحمة من الله بالخلق .

وحين يسلم الإنسان منهجه لله فإنه يفعل ما يطلبه المنهج ولا يفعل ما يحرمه المنهج ومن يريد أن يقف في « افعل » و « لا تفعل » ، نقول له : إذا فعلت ما الذي يستفيده الله منك ؟ وإذا لم تفعل ما الذي يضر الله منك ؟

لا شيء ، إن عليك أن تفكر جيدا فالأمر إما برّد أو يتمرد عليه إن كان للامر فيه مصلحة ، وحيث إنه لا مصلحة للحق سبحانه وتعالى في مراداته من الخلق إلا إصلاح الخلق ذاته ، إذن فممنهج الحق هو مصلحة الإنسان ، وأول ما يصاب به من يقف في منهج الله أنه يصبح ضد نفسه ، ولا ينسجم مع الكون ، فإن كان هناك من يريد ألا يسلم ، فليجرب نفسه بالأيسلم في المفهورات التي هو مقهور عليها ، وهذا أمر مستحيل .

ولنقرأ الموقف القرآني بدقة ، لنرى أنه الحق بعد القسم وبعد العهد وبعد الإشهاد

عليه ، قال لنا : « أفغير دين الله يبيعون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » . إن من يبعي غير دين الله ليس منطقيا مع نفسه أو مع الكون ؛ لأن الكون كله لله بما فيه ومن فيه من السماوات والأرض ، وكذلك الإنسان الذي ارتضى منهج الله ، وأيضا أسلم الكافر لله فيما ليس له فيه اختيار .

« وأسلم » في هذا السياق القرآن الكريم تعني أنه خضع وسُخر ، وقُهر على أن ينفذ ، ولكن الحق سبحانه أورد عن السماء والأرض فقال : « قلنا أثبتنا طائعتين » . إن المؤلف أن ترضخ السماء والأرض لأمر الله ، وعندما « قلنا أثبتنا طائعتين » فقد كسبت السماء والأرض الإسلام لله ، فإلى الله كل مرجع فالإنسان - مؤمنا كان أو كافرا - سيعود إلى الله حتما .

وكلمة « يرجعون » التي تأتي في تدليل الآية يمكننا أن نراها في مواقع أخرى من القرآن مرة تأتي مبنية للمفعول وتنطقها « يرجعون » بمعنى أنهم مهجورون على الرجوع إلى الله ، ونجدها في مواقع أخرى في القرآن كفعل مبني للفاعل فننطقها « يرجعون » ، أي أنهم يريدون الإسراع في العودة إلى الله ، وفي هذه الآية نفهم أن الذين يبيعون غير دين الله لا يرغبون أن يعودوا إلى الله لذلك يتم إرجاعهم بالقهر ، فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى تَارِجِهِمْ دَعَا ﴾ (١٧)

(سورة الطور)

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ ﴾

مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

عندما ننظر إلى هذه الآية بخواطرنا فإننا نجد أن الحق يمزج الرسول والمؤمنين به والمرسل إليهم في الإيمان به ، ويتحدث إلى الرسول والمؤمنين كوحدة إيمانية ، إن قول الحق : « قل » هو خطاب لمفرد هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والمقول : « آمنا » دليل على انسجام الرسول مع الأمة المؤمنة به ، فكان الأمة الإسلامية قد انصهرت في « قل » ، وكان الرسول موجود في « آمنا » ، وبذلك يتحقق الامتزاج والانسجام بين الرسول وبين المؤمنين به ، ويصير خطاب الحق إليهم هو خطاب لوحدة إيمانية واحدة لا انفصام فيها .

وقد جاء الحق بهذا الأسلوب ليوضح لنا أن الرسول لم يأت ليتعالى على أمته ، بل جاء ليحمل أعباء هذه الأمة ، ولذلك قلنا من قبل : إن للرسول صلى الله عليه وسلم إيمانين ، لقد آمن بالله ، وأمن للمؤمنين ، وهو صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا ، لأنه قد أدى مؤدى بسع أمته كلها ، لقد أتم البلاغ وخضع للتكليف بما يسع أمته كلها ، ولذلك يقول الحق : « قل آمنا » ، كان القياس أن يقول : « قل آمنت » ، أو أن يقول : « قولوا آمنا » . لكن الحق في قرآنه الكريم يضع كل كلمة في موضعها ، فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها ، ويصبح كل معنى عاشقا لكللمته ، وقد قال الحق هنا : « قل آمنا » ليتضح لنا أن محمدا رسول ممتزج في أمته ، وأمة الإسلام في طواعية لرسولها ، والأمر يأتي لرسول الله من الحق سبحانه ، والتنفيذ لهذا الأمر يكون من الجميع ، وفي هذا إشعار للخصوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون ذا عصبية إيمانية قوية ، فلو قال : « قل آمنت » لكان معنى ذلك أن الرسول لن يملك إلا إيمانه فقط ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به قومه ، وكثير غيرهم وجاء على يديه فتح مكة كما قال الحق :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿٨٥﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة النصر)

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا » فلنا أن نتلفت إلى أن العلماء لهم وقفة في مسألة الإنزال ، فمرة يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرَةُ هُمْ يَأْتُونَ ﴾

(سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نجد أن « الإنزال » يأتي مرة متعديا بـ « إلى » ، ويأتي مرة أخرى متعديا بـ « على » . وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينما يكون موجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالحق يقول : « أنزل عليك » ، وكان هؤلاء العلماء - دون قصد منهم - يفصلون بين بلاغ الله للرسول عن البلاغ إلى أمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتفتوا إلى أن الغاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمة .

ونحن نقول : إن علينا ألا نأخذ الأمر بسطحية من أسلوب ظهر لنا ؛ ذلك أن هناك أسلوبا خفيا ، وهو أن « إلى » وه « على » إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمة والرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فمرة يأتي الحق بالتزول متعديا بـ « إلى » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله الحق :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ بِمَا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(سورة المائدة)

ومرة يأتي الحق بالتزول متعديا بـ « على » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم

وسلم كقوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١)

(سورة التحل)

ومرة ثالثة يأتي الحق بالإتزال في حديث إلى المؤمنين :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ نَادَىٰٓ إِلَٰهِي بُكْفَرُهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا يَبْقُلُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (١٢)

(سورة النساء)

إنه كتاب منزل من السماء وملحوظ فيه العلو، والغاية من النزول هو مصلحة الأمة، فالإتيان به (على) يُفيد العلو، ومصلحة الأمة، « والعلية » هنا لتزيد مقام المنهج بالنسبة للمؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم. إذن فالنزل يقتضي « علية »، وهو من حيث العلو يأتي به « على »، ومن حيث الغاية يأتي به « إلى »، فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليلبغه إلى المؤمنين لمصلحتهم. ولذلك قلنا : إننا إذا رأينا حكماً يقيد من حرية الفرد فلا يصح أن نفهم أن الله قد قصد هذا الفرد ليقيد حريته، إنما جاء مثل هذا القيد ليقيد الملايين من أجل حرية الفرد، مثال ذلك ساعة يحرم المنهج السرقة على الإنسان، فهو أمر لكل إنسان من الملايين وهو لمصلحة كل إنسان، فالقرآن قد نزل لمصلحتك، ومصلحة المؤمنين جميعاً.

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوحى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفارق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ». فهذا القول يوضح أن الرسول صلى

الله عليه وسلم إنما جاء بمنهج يضم صحيح العقائد والقصص والأخبار ، وهو يوافق ما جاء في موكب الرسالات من يوم أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل . وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء من قبل ، بأنه إذا جاء رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ، وكذلك أخذ الله العهد على رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن بالرسول السابقين ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يأت ليهدم أديانا ، ولكن ليكمل أديانا ، وهكذا ترى النص القرآني الجليل :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

كان الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد ، والقصص ، والأخبار موجودة في الإسلام ، وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث شريف :

« إنما مثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله وأكمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما زينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة فكنت أنا اللبنة » (١)

إذن فرمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذ الله العهد على غيره أن يصدقوه عندما يحىء ، وهو صلى الله عليه وسلم آمن وصدق بمن سبق من الرسل ، ولن يحىء من بعده شيء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن يصدقوه ، وقال الحق تذيلا لهذه الآية الكريمة : « ونحن له مسلمون » .

أى أنه لا يوجد لأتباع أى رسول من الرسل السابقين ما يعطيهم سلطة زمنية ، بل المسألة كلها تبدأ من الله ، وتنتهى إلى الله . وتلك هى القضية النهائية في موكب

الرسالات . ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد الذي يختاره الإنسان لنفسه ليكون منسجما مع نفسه في الإسلام لله ، ويكون انسجاما مع الكون الآخر وما يحتويه من حيوان ونبات وجماد وغيرها في أنه أسلم خضوعا لله ، وبذلك يصبح الكون بما فيه الإنسان المؤمن المسلم لله كله مسخرا لله سبحانه وتعالى . ومادام الكون بالإنسان قد صار مسخرا لله فلا تضاد في حركة لتعاند حركة أخرى ؛ لأن الذي يهيمن هذه الحقيقة هو الذي وضع لكل إنسان في مجال حركته في الحياة قانونا يعصمه من أن يصطدم بغيره ، وإذا كان البشر قد استطاعوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم في الحركة ، ذلك التصادم الذي يؤدي إلى كوارث ومصائب .

مثال ذلك ، ننظر إلى السكك الحديدية ، ألا يوجد موظف اسمه « المحوّلجى » ؟ ومعنى هذه الوظيفة هو أن القائم بها يقوم بتحويل القاطرة القادمة من طريق معين إلى مسار محدد حتى لا تدهم قاطرة أخرى جاءت من الطريق نفسه . إن ذلك من فعل الإنسان فيما صنع من قطارات ومواصلات ، لقد صنع أيضا وسائل تمنع تصادمها ، فما بالنا بالحق - وله المثل الأعلى - وهو الذي خلق الإنسان ؟ إنه سبحانه قد وضع المنهج حتى لا تصطدم حركة في الوجود بحركة أخرى .

ولننظر إلى الأشياء التي جاءت بقانون التسخير ، والأشياء التي دخلت في ظل الاختيار . أسمعنا أن جملين سارا في طريقين متعارضين واصطدم الجمل بجمل ؟ لم يحدث ذلك أبدا ، فالجمل يفادى نفسه وما يحمل من الجمل الآخر وما يحمله ، لكننا نسمع عن تصادم سيارة مع سيارة ، ذلك أن السيارة لا تسير بذاتها بل تسير بقيادة إنسان مختار ، وهو الذي يصدم وهو الذي قد تأتى منه في غفلته الكوارث .

إذن فتصادم حركة بحركة إنما ينشأ في الأمور الاختيارية ، أو غفلة إنسان عن مهمته ، كغفلة « المحوّلجى » عن عمله في تنظيم مرور القطارات ، لكن تصادم حركة في الوجود بحركة أخرى في الوجود هو أمر مستحيل ، ولا يحدث أبدا ؛ لأن الأمر الذي مازال في يد المهيمن الأعلى ، مهيمن الأرض والسماء ، وهو الله الذي يسير الكون منسجما ويعرفنا بصفاته فيقول : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ومعناه : أن القائم بأسبابكم ومدير أمركم ولا أنام أو تأخذنا سنة أو غفلة أي فناموا أنتم فقد سخرت الوجود كله من أجلكم .

وبإدام الأمر في الإسلام هكذا ، والوجود ينسجم مع نفسه ، فلماذا نشذ أنت أيها الإنسان عن الوجود ؟ ولماذا نشذ عن ملكات نفسك ؟

لماذا لا تكون منسجما مع الكون ؟ إنك إن انسجمت مع نفسك ومع الكون صرت الإنسان السعيد .

وفي عصرنا الحديث نرى ارتفاع العالم ماديا بصورة عالية ، بحيث يقع الحدث في أمريكا مثلا فنراه على شاشة التليفزيون فورا ، ويركب الإنسان مركبا صاروخيا إلى الفضاء ولكن هل استراح العالم ؟ لا ، لقد ازداد العالم عناء ، وكأنه يكبد ذهنه ويرهق العلماء في معاملهم لابتكار أشياء تعطى للعالم مزيدا من القلق والاضطراب وتتصادم وتتعارض . وبذلك صار الكون لا يفرغ أبدا من حرب باردة أو ساخنة .

كل ذلك إنما ينشأ من إدارة أمور العالم بأهواء البشر ، فلسنا جميعا مردودين إلى منهج واحد يأمرنا فتاقر ، وينهانا فتنتهي ، بل كل إنسان يتبع في عمله هواء ، لذلك نرى القلق والاضطراب ، ونرى الصرخات تملأ الدنيا من أهوال ومضائب ، منها مثلا المخدرات وغيرها . إن الذي يدمن المخدرات هو إنسان غير راض عن واقع حياته ، فلا يريد مواجهة حياته ، إنما يحاول الهرب منها بالإدمان ، ونقول لمثل هذا الإنسان : ليس هذا حلا للمشكلة ؛ لأن الإنسان عندما تأتيه مشكلة فهو يحتاج عقلا على عقله لمواجهة هذه المشكلة ، وأنت بهذا الإدمان إنما تُضَيِّعُ عقلك ، رغم أنك مطالب بأن تأق بعقل آخر بجانب عقلك لتحل مشكلتك ، فالهرب من المشكلة لا يحلها ، إنما الهروب غباء وقلة فطنة فالمشكلة زادت تعقيدا ونقول للمجتمعات التي تشكو من مثل هذه اليلايا لو أخذتم شرائعكم من منهج الله لكان ذلك حماية لكم من مثل تلك الكوارث .

وهكذا ترى أن كل الابتكارات تُوجه دائما إلى الشر أولا ، فإذا لم يوجد لها مبدآن شر فإننا توجهها إلى الخير ، وبإلئيه خير خالص لوجه الله ، لا ، إنه خبر مجتج ومنحرف عن الخير لأن الذي لا يملك هذا اللون من الاختراعات كالشعوب النامية والعالم الثالث قد جعله المخترعون بوساطة هذه الاكتشافات والمخترعات مستعبدا ومقهورا لهم ؛ إنهم جعلوا تقدمهم استعبادا وإذلالا لغيرهم وإن نظاهروا بغير ذلك .

لماذا يحدث كل ذلك ؟ لأننا لم نكون منطقيين - كما يجب - مع أنفسنا ولا مع واقع

الأمور النهوضية التي نحن فيها فالطموحات العلمية التي لا حد لها لا يصح أن تسب لنا كل هذا التعب ، بل كان المفروض بعد الوصول إلى تحقيق هذه الطموحات أن نستريح ، ولكن لم يحدث هذا ؟ لأن زماننا نحن البشر بيد أهوائنا ، والأهواء ليست هي اليد الأمانة ، إن اليد الأمانة هي شرع الله الذي لم يشرع إلا لمصلحة من خلق ، ومادام الإسلام يرسم طريق الأمان مع الخائف والنفس والكون الذي نحياء ، بما فيه من الأجناس الأخرى ، إذن فالدين عند الله هو الإسلام ، وهذه هي النتيجة الحتمية لذلك يقول الحق سبحانه : « ونحن له مسلمون » ويتبعها الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ
وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

إن الغاية التي تسعد العالم كله هي دين الإسلام ، ومن يرد دينا غير ذلك فلن يقبله الله منه . فإن كان هناك من لا يعجبه تقنين السماء ويقول مندهشا : إن في هذا التقنين قسوة ؛ إنك تقطع يد إنسان وتشوهه نرد على مثل هذا القائل : إن سبارة تصدم سبارة تشوه عشرات من البشر داخل السيارات ، أو قطار يصاب بكارثة فبشوه مئات من البشر .

ونحن عندما نبحث عن عدد الأيدي التي تم قطعها في تاريخ الإسلام كله ، فلن نجد لها إلا أقل كثيرا من عدد المشوهين بالحوادث ، وأي ادعاء بالمحافظة على جمال الإنسان مسألة تثير السخرية ؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به الحياة ، بينما الحروب الناجمة عن الهوى شوهت وأفنت المئات والآلاف ، إن مثل هذا القول نفطة ، هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب ؟ لا ، إن تشريع العقوبة يعنى تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب .

وعندما نقول لإنسان : « إن قتلت نفسا فسيؤتى ولي الأمر فتلك » أليس في ذلك

حفاظاً على حياته وحياته الآخرين ؟ وحين يحافظ التشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ في الوقت نفسه على حياة كل إنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ حَيَوةٌ يَكْأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يصبح هذا التقنين سلباً غاية السلامة ، إذن فقول الحق سبحانه : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » يدلنا على أن الذي يشرع تشريعاً يتناقض ما شرعه الله فكأنه خطأ الله فيما شرع ، وكأنه قد قال الله : أنا أكثر حناناً على الخلق منك أيها الإله : لأنه قد فانتك هذه المسألة .

وفي هذا القول فسق عن شرع الله ، وعلى الإنسان أن يلتزم الأدب مع خالقه . وليرد كل شيء إلى الله المربي ، وحين نرد أيها الإنسان كل شيء إلى ربك فأنت تستريح وتريح ، اللهم إلا أن يكون لك مصلحة في الانحراف . فإن كان لك مصلحة في الانحراف فأنت تريد غير ما أراد الله ، أما إذا أردت مصلحة الناس فقد شرع الحق ما فيه مصلحة كل الناس ؛ لذلك قال الحق : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

وقد يقول قائل في قوله تعالى : « فلن يقبل منه » إن هذه العبارة لا تكفي في منحى اطمئناننا إلى جزاء العمل الذي اتقرب به إلى الله ، فإنه قد يقبل وقد لا يقبل فهو سبحانه - لا أحد يكرمه على شيء ، وتقول له : إنك ستأتي إلى ربك رضى أو أبى ؟ فما حاجتك إلى هذا القول ؟ لو كنت تستطيع أن تعجز الله وتفوته فلا يقدر عليك ؛ الحق لك أن تقول ذلك ، ولكنك لا تستطيع ، فكن عاقلاً ولا تتطرد على أمر ربك ؛ ويقول الحق : « وهو في الآخرة من الخاسرين » . والخاسر : مأخوذة من « الخسر » ، وهـ الخسر ، هو ذهاب رأس المال وضياعه ، والآخرة حياة ليس بعدها حياة ، ومن الغباء أن يقول قائل : « سوف أتعذب قليلاً ثم تنتهى المسألة » لا ، إن المسألة لا تنتهى ، لأن الآخرة حياة دائمة ولا حياة بعدها . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّمْضُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

إننا نرى هنا الأسلوب البديع ؛ إن الحق سبحانه يدعونا أن نتعجب من قوم كفروا بعد الإيمان ، إنهم لو لم يعلنوا الإيمان من قبل لقلنا : إنهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان ، لكن الذي آمن وذاق حلاوة الإيمان كيف يقبل على نفسه أن يذهب إلى الكفر ؟ إنه التمرد المركب .

وقد يتساءل إنسان قائلا : مادام الله لم يهديهم ، فما ذنبهم ؟ نقول له : يجب أن نتذكر ما نكرره دائما ، لتتضح القضية في الذهن لأنها قضية شائعة وخاصة عند غير المتزمين ، الذين يقول الواحد منهم : إن الله لم يرد هدايتي ، فماذا أفعل أنا ؟ إن ذلك استدلال لتبرير الانحراف ومثل هذا القول لا يصدر إلا من المسرف على نفسه ، ولا يأتي هذا القول أبدا من طائع لله ، إن الذي يقول : « إن المعصية إنما أرادها الله مني ، فما ذنبي ؟ » يجب أن يعرف أن الطاعة من الله ، فلماذا لم يقل : « إن الطاعة من الله فلماذا يثيبنا عليها ؟ لماذا تغفل أبها العاصي عن ذكر ثواب الطاعة ، وتقف عند المعصية ونقول : « إن الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبني ؟ » كان يجب أن نقول أيضا : « مادام قد كتب على الطاعة فلماذا يعطيني ثوابا ؟ » .

إننا نقول لمن يبرر لنفسه الانحراف : إنك تريد أن تأخذ من الطاعة ثوابها ، وتريد أن تهرب من عقاب المعصية ، وأنت تحتاج إلى أن تفهم الأمر على حقيقته ، لقد قلت من قبل : إن « الهداية » تأتي بمعنيين « هدى » أي دل على الطريق الموصلة للغاية المرجوة ولم يصنع شيئا أكثر من ذلك والمثال هو إشارات المرور الصماء ؛ إن كل إشارة توضح طريقا معيناً وتهدى إليه ، وإشارة أخرى توضح طريقا آخر وتهدى إليه . ولا يوجد أحد عند هذه الإشارة يأخذ بيد الإنسان ويقول له : أنا سأخذ بيدك وأصلح لك العربة عندما تقف منك ، أو أركب معك لأوصلك إلى غايتك .

إن هذه الإشارة هي هداية فقط ، أى أنها دلالة على الطريق الموصلة إلى الغاية المرجوة والله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعا المؤمن منهم والكافر أيضا ، أى دهم سبحانه على الطريق الموصل للغاية . وانقسم الناس بعد ذلك إلى قسمين : قسم قبل هذا المنهج وارتضاه وسار كما يريد الله ، وساعة أن راح هذا المؤمن إلى جناب الله وآمن به ، فكان الحق يقول له : « إنك آمنت بي وبعييتى ، لذلك ستكون لك جائزة أخرى ، وهى أن أعينك وأخفف عليك الأمور ، وهذه هى الهداية الثانية التى يعطيها الله جائزة لمن آمن به وارتضى منهجه وتعنى « المعونة » ، إن الله يعطى عبده المؤمن حلاوة الطاعة ، ويجعله مقبلا عليها بنشاط .

إذن فالهداية تكون مرة « دلالة » وتكون مرة ثانية « معونة » . إننى أكرر هذا القول حتى يتضح الأمر فى أذهاننا جميعا ، ولنذكره دائما ، ونقول : من يعين الإنسان ؟ إن الذى يعينه هو من آمن به ، أما من كفر بالله ، فلا يعينه الله .

وسبق أن قلت مثلا - ومازلت أضربه - : إن إنسانا ما يسير فى طريق ثم التبس عليه الطريق الموصل للغاية كالمسافر إلى الإسكندرية مثلا ، وبعد ذلك وجد شرطيا واقفا فسأله : أين الطريق إلى الإسكندرية ؟

فيشير الشرطى إلى الطريق الموصل إلى الإسكندرية قائلا للسائل : هذا هو الطريق الصحيح إلى الإسكندرية .

إن الشرطى هنا قد دل هذا الإنسان ، لكن عندما يقول السائل للشرطى : « الحمد لله أننى وجدتك هنا لأنك يشرت لى السبيل » فهذا القول يأسر قلب الشرطى ، فيزيد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى الطريق ، وينبئه إلى أى عقبة قد تعترضه ، وإن زاد السائل فى شكره للشرطى ، فإن ذلك يأسر وجدان الشرطى أكثر ، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق ، شارحا له ما يجب أن يتجنبه من عقبات ، وبذلك يكون الشرطى قد قدم كل المعونة لمن شكره .

لكن لنفترض أن رجلا آخر سأل الشرطى عن الطريق ، فكذب الرجل الشرطى ، وفى مثل هذا الموقف يتجاهل الشرطى مثل هذا الرجل ، وقد ضربت

هذا المثل للتقريب لا للتشبيه . إن الحق يدل أولا بهداية الدلالة ، وقد هدى الله الناس جميعا ، أي دلمهم على المنهج ، فمن ذهب إلى رحابه وآمن به ، أعطاه الله هداية ثانية ، وهي هداية المعونة والتيسير .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

إن الحق يعطيهم حلالة الهداية وهي التقوى ، كأن الحق يقول للعباد المؤمنين : ما دمتم قد أقبلت على الإيمان فلك حلالة الإيمان ، أما الذي يكفر ، والذي يظلم نفسه بالشرك ، فالحق يمنع عنه هداية المعونة ، لأنه قد رأى هداية الدلالة ولم يؤمن بها . إذن فالاستفهام في قوله تعالى : « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم » هو تساؤل يراد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية الأولى وهي هداية الدلالة ، ولكنه عن هداية المعونة ، أي : كيف أعين من كفر بي ؟

والمنفصود بهذا القول هو بعض من أهل الكتاب الذين جاءهم نعت الرسول صلى الله عليه وسلم في كتبهم حتى إن عبد الله بن سلام وهو منهم ، يقول : لقد عرفت محمدا حين رأيته كمعرفتي لأبي ، ومعرفتي لمحمد أشد ، ومصدق ذلك ما يقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْفَاحِشَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ أَمْتَوْا بِهِ ۖ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۖ ﴾ (٢٤)

(سورة الأعراف)

والتعبير القرآن الدقيق لم يقل : يجدون وصفه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل إنما يقول الحق :

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

كأن الذي يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أن يرى صورة النبي عليه الصلاة والسلام من دقة الوصف ، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصلة وشاملة ، مع نطق وقول يؤكد ذلك وهناك فرق بين أن « تعرف » وبين أن « نقول » ؛ فقد يعرف الإنسان ويكتب ما عرف ، ولكنهم عرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم واعترفوا بذلك ، فقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا ، قال الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِشُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٨٩﴾

(سورة البقرة)

لقد أخذوا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه نصرة على الكافرين ، فقالوا : سيأتى نبي وتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم . فماذا فعلوا ؟ إن الحق يجب :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن هم آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من قبل مجيئه ، فلما جاء كفروا به . انظر إلى العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، حين يريد أن يذهبهم على موقف الصدق والحق والكرامة الإيمانية .

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

(سورة الرعد)

إن الذين عندهم علم الكتاب هم اليهود والنصارى ، هؤلاء يشهدون أن محمدا رسول الله ، وإن القرآن بعدالته ينصف التوراة والإنجيل وهى الكتب التى بين أيديهم ،

« كيف يهتدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق » لقد آمنوا به رسولا من مطلق كتبهم ، ثم أعلنوها حينما قالوا : « ياق نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

فإذا كانوا قد صنعوا ذلك ، فكيف يهديهم الله ؟ إنهم ليس لديهم الاستعداد للهداية ، ولم يقبلوا على الله بشيء من الحب ، لذلك فهو سبحانه لا يعينهم على الهداية ولو قبلوا على الله لأعانهم قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

وهؤلاء لم يهتدوا ، فلذلك تركهم الله بدون هداية المعونة ، وهذا يوضح لنا معنى القول الحق :

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

إن الذين لم يهتدوا بهداية الدلالة فلم يؤمنوا بضلهم الله أي يتركهم في غيهم وكفرهم ، أي أنه مادام هناك من لم يؤمن بالله فهل يسلك الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟ لا ، لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يمنحه الله هداية المعونة ؟ ومادام لم يؤمن بالله أكان يصدق التيسيرات التي يمنحها الله له ؟ لا ، إنه لا يصدقها ، ويجب أن نعلم أن هداية الدلالة هداية عامة لكل مخاطب خطايا تكليفيا ، وهو الإنسان على إطلاقه ، أما هداية المعونة فهي لمن أقبل مؤمنا بالله وكان الحق يقول له : « أنت آمن بتدليلي فخذ معونتي » أو « أنت أهل لمعونتي » أو « ستجد التيسير في كل الأمور » ، أما الذي كفر فلا يهديه الله ..

إن الحق سبحانه لا يعين الكافر ؛ لأن المعونة تقتضي ابتداء فعلا من المؤمن ، والكافر لم يفعل ما يمكن أن ينال به هذه المعونة ، فهو لم يؤمن ، لذلك يكون القول الفصل : « والله لا يهدي القوم الكافرين » ويكون القول الحق « والله لا يهدي القوم الفاسقين » ويكون القول الحق « والله لا يهدي القوم الظالمين » . إن هؤلاء هم

الظالمون الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله كما قال الحق :

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۚ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٢﴾

(سورة لقمان)

والحق عندما يتركهم فإنه يزيدهم ضلالا ، ويختم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقا إلى الإيمان :

﴿كَفَى يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٨٦﴾

(سورة آل عمران)

لقد جاءهم الرسول بالآيات الدالة على صدق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم الظلم الكبير العظيم ، وهو الشرك بالله ، ولكن هل هذه الآية قد نزلت في أهل الكتاب الذين كان عندهم نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارات وبشارات به ؟ أو نزلت من أجل شيء آخر هو أن أناسا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به ؟

إن القول الحق يتناول الفثنين ، وينطبق عليهم ، سواء أكانوا من أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول من قبل ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، أم من الذين آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم في عهد الرسول ، مثال ذلك طعنة بن أبيرق ، وابن الأسلت والحارث بن سويد ، هؤلاء أعلنوا الإيمان وانجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، ناب منهم واحد وأخذ له أخوه ضيانا عند رسول الله ، والباقي لم يتوبوا -

إن القول الحق يتناول الفثنين ، وينطبق عليهم جميعا قوله تعالى :

﴿كَفَى يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ

الْبَيْتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

(سورة آل عمران)

وينصل لنا الحق سبحانه جزاء هؤلاء بقوله الحكيم :

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٧﴾

واللعنة هي الطرد من الرحمة ، والله يعلم كل ملعون منهم ، وماداموا قد طردوا من رحمة الله فالللائكة وهم المؤمنون بالله إيمان المشهد يرددون اللعنة ، والمؤمنون من خلق الله يرددون اللعنة ، وكذلك يلعنهم جميع الناس ، وكيف يلعنهم كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا ؟ كيف يلعنهم الكافرون ؟ إن الكافر عندما يرى إنسانا يرتكب معصية ما فإنه ينزله من نظره ويحتقره وإن لم يكن مؤمنا .

وعب أن كفرا وجد إنسانا يخرج على المنهج ويفعل معصية ويرتكب جرما ألا يلعن الكافر مثل ذلك الإنسان ؟ إنه يلعنه لأن الفطرة المركوزة التي فطر الله الناس عليها ترفض ذلك ولا ترضيه .

وهكذا شاء الحق أن يجعلهم ككفار يتلاعنون فيما بينهم ، ونجد أن جميع الناس يلعنونهم كذلك ؛ لأنهم قد خرجوا عن منهج الله بالكفر بعد الإيمان ، وجبرهم ذلك إلى اقتراف الآثام ، وهكذا تصبح الملاعنة من الجميع ، وهم مع ذلك خالدون في اللعنة قال تعالى :

﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

ومعنى « لا يخفف عنهم العذاب » أى أن العذاب يظل دائما أبدا وقد يظن بعض الناس أن الكافر مادام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهى أمره. لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية ، إنه يتناسى قول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا بَيْنَنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(سورة النساء)

إنهم سيدوقون العذاب بأمر من الحق دائما وأبدا ، وقد يقول بعضهم : إن العلم قد توصل إلى أن الإنسان تقل حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطا الأولى ، وهو بذلك ينسى أن العذاب في الآخرة على غلط آخر ، إن الله يخلق للمعذب إحساسا جديدا ليظل مستشعرا دائما العذاب ، قال الحق : « لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » أى أن عذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم . وبعد ذلك يقول تعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

والحق سبحانه وتعالى هو الخالق للخلق كلهم ، يجب أن يكونوا على ما يورد

ويحب ؛ لأنهم صنعة الله فهو سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين

وقد أمر عباده أن يتوبوا إليه توبة نصوحاً أى توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها هذه التوبة تنسم بالاقلاع عن الذنب والتندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى ورد المظالم لأصحابها إن كانت هناك مظالم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : إن الله ييسر يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها^(١) .

وهكذا أوجد الحق تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة لمن أذنب فإن من غفل عن منهج الله ولو مرة واحدة قد يصير في نظره نفسه ضائعاً فاسداً مرتكباً لكل الخبايا ، فكان الله يشريع التوبة قد ضمن لصاحب الإسراف على نفسه في ذنبه أن يعود إلى الله ، كما يرحم المجتمع من شرور إنسان فاسد ، إذن فتشريع التوبة إنما جاء لصالح الكون ، ولصالح الإنسان لينعم بحببة الله ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥١)

(سورة آل عمران)

فزرعهم كفهم السابق إلا أن الله برحمته لا يدخلهم في الوعيد ؛ إنهم مطالبون بالتوبة والإصلاح ، ومعنى كلمة : أصلح ؛ أنه زاد شيئاً صالحاً على صلاحه . والكون ليس فيه شيء فاسد اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختياري من الإنسان وعمل التائب أن يزيد من الإصلاح في الكون ، وهكذا تضمن الآية التائب إلى الشيء فيفسده ؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحاً ، لن يفسد الشيء الصالح .

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيمان ساعة يذكرون الذنب أو الجريمة التي اقترفوها بالنسبة لدينهم ، يحاولون أن يجهنوا ويسارعوا في أمر صالح حتى يجبر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة .

ولذلك نجد كثيرا من الناس الذين يتحمسون للإصلاح وللخير ، هم أناس قد تكون فيهم زاوية من زوايا الإسراف على نفوسهم في شيء ، وبعد ذلك يتجهون لعمل الخيرات في مجالات كثيرة جدا ، كأن الله يقول لكل منهم : أنت اختلست من محارمي شيئا وأنا سأخذك إلى حلال ، إنه الحق يجعل من معصية الفرد السابقة سييئا دائما تلهب ضميره فينتجه إلى الخير ، فيصدق على الفقراء ، وربما كان أهل الطاعة الرتيبة ليس في حياتهم مثل هذه السيئات .

ولكن الذين أسرفوا على أنفسهم هم الذين تلهبهم تلك السيئات ، فساعة يرى الواحد منكم إنسانا قد أسرف على نفسه فليدع الله له بالهداية ، وأعلم تمام العلم أن الله سبّخر منه ما يفعل به الخير ؛ لأن أحدا لن يسرق الكون من مخالفه أبدا . وهذا ينطبق على من قال عنهم الله : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » (وأصلحوا) أى عملوا صلاحات كثيرة لأن حرارة إسرافهم على نفوسهم تلهب ظهورهم دائما ، فهم يريدون أن يصنعوا دائما أشياء لاحقة تستر انحرافاتهم السابقة وتذهبها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا
لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾

هذه الآية تحدث عن أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم ، وازدادوا كفرا ، وهؤلاء لا تقبل توبتهم وهم الضالون ، وقد جاءت مقابلة للآية السابقة ، أناس تابوا وأناس لم يتوبوا . لكن كيف يزداد الكفر ؟ إنه قد كفر في ذاته ، وبعد ذلك كان عائقا لغيره عن أن يؤمن ، وهو لا يكتفى بخيسته ، بل يحاول أن ينشر خيسته على الآخرين ، وفي ذلك ازدياد في الكفر والعياذ بالله ، وهذا القول قد نزل في بعض من اليهود الذين آمنوا بالبشارات التي نأت بمقدم عيسى عليه السلام ، فلما جاء عيسى كفروا به ، فلما جاء محمد ازدادوا كفرا .

لقد كفروا يعيسى أولاً ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد وادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهؤلاء ليسوا من الذين تابوا . أو أنهم أعلنوا التوبة باللسان ، ولم يتوبوا بالتوبة النصوح ، « والراجع في توبته كالمستهزئ بربه » . وقبانا الله وإياكم هذا المنقلب .

ويعبد ذلك يقول الحق :

﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٢﴾

لقد كفروا ، ولم يقدر الله لهم أن يتوبوا ، فماتوا على الكفر ، ويريد الله أن يعطينا حكما خاصا بعملهم في الدنيا ، وحكما خاصا بما يتلقونه من عذاب في الآخرة ، والحكم الخاص بعملهم في الدنيا سيبه أن لهم اختيارا ، والحكم الخاص بما يتلقونه في الآخرة من عقاب لأنه لا خيار لهم ، وهنا للعلماء وقفة ، فهل ملء الأرض ذنبا أنهم أنفقوا في حياتهم ملء الأرض ذهبا ؟ نقول له : لا يتفعل هذا الإنفاق في أعمال الخير لأن أعمالك حابطة .

هـب أن كافرا مات على الكفر وقد أنفق في الخير مئة الأرض ذهبا ، نقول له : هذا الإنفاق لا ينفع ، مع الخيانة العظمى وهى الكفر ، فإدام غير مؤمن بالله ، فهو قد أنفق هذا المال من أجل الناس ، وصار منتفعا على من لا يقدر على أن يجازيه بالخير فى الآخرة ، لذلك فليس له عند الله شيء ، فالذى يعمل عملا ، عليه أن يطلب أجرا من عمل له ، فهل كان الله فى بال ذلك الكافر ؟ لا ، لأنه مات على الكفر ، لذلك لو أنفق مئة الأرض ذهبا فلن يقبل منه . لقد صنع ذلك الخير وفى باله الناس ، والناس يعطونه حقه من الثناء ، سواء كان مخترعا أو محسنا أو غير ذلك ، إنه ينال أجره من الإنسانية ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« وفعلت ليقال وقد قيل » (١)

(من حديث شريف)

كان الله يقول له : لم أكن في بالك فلماذا تطلب مني اجرا في الآخرة ، لم يكن في بالك أن الملك لي ، قال سبحانه :

﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٥﴾

(سورة غافر)

وبعض الناس يقول : كيف لا ينال ثواب الآخرة من ملئوا الدنيا بالاكشافات والابتكارات وخففوا بها آلام الإنسانية ؟ نقول : لقد أعطتهم الإنسانية وخلدت ذكراهم ، وأقامت لهم التنايل والمؤلفات والأعياد والجوائز ، لقد عملوا للناس فاعطاهم الناس ، فلا يخس في حقوقهم ، ذلك أنهم لم يعملوا وفي باهم الله ، وقد صور الحق موقفهم التصوير الرائع فيقول جل شأنه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ كَرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الْمُطَشَّانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَا يُبْعِدُهُ

شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَ حِسَابِهِمْ وَأَلَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٦﴾

(سورة النور)

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء في الصحراء يتوهم السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء ، فيظل السائر متجها إلى وهم ماء ، إنه يصنع الأمل لنفسه ، فإذا جاءه لم يجده شيئا ، ويناجي بوجود الله ، فيندم ويتلقى العذاب ، وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهبا لو أنفقه في أي خير في الدنيا ، ويعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهبا لو افتدى به نفسه في الآخرة ، إن كان سيجد ملء الأرض ذهبا ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهبا ، فهل يجد من يقبل ذلك منه ؟ لاء إنه في الحقيقة لن يجد الذهب ، لأنه في الآخرة لم يعد يملك شيئا : يقول الحق :

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَوْمَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأْهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (١٧)

(سورة الزمر)

« أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » أى إن هؤلاء عذابا أليما ، لأن كل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يطلق . ولن يجد الظالم من بدرا عنه هذا العذاب . لأنه لن يجد ناصرا له ، ولن يجد شفيعا فلن يأتى أحد ويقول : إن فلانا يتعذب فيها بنا ننصره ، لا يأتى أحد لينصره .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (١٢)

وتؤدى كل مادة الباء والراء المضعفة إلى معنى « السعة » ، ف « البر » أى الواسع والبر أى الأرض المتسعة ومقابلته « البحر » وإن قال قائل : « إن البحر أوسع من البر » لأن حجم القارات ليس فى حجم البحار والمحيطات التى تفصل بينها : « نقول لكل هذا القائل » لا ، إن حركتك فى البر - الأرض - موسعة ، وحركتك فى البحر مضيقة ، لأنك لا تتحرك فى البحر إلا على شكل خاص ، إما أن تتحرك بسفينة أو

حتى على لوح من الخشب ، أما حركتك في البر - الأرض - فانت تمشي أو تركب ، تذهب أو تحي ، فمجالك في البر منسج عن مجالك في البحر .

وه البر هو التقوى ، والطاعة ، أو هو الجنة ، وكلها معان ملتقية ، لأنها تؤدي إلى السعة ، فالطاعة تؤدي إلى السعة ، وكذلك التقوى ، وكذلك الجنة ، كلها ملتقية ، لأن كلها سعة ، فأحدهم أخذ معنى الكلمة من مرحلتها الأولى أي بالسبب وهو الطاعة ، وبعضهم أخذها من المرحلة الأخيرة أي بالمسبب وهو الجنة ، وقد يسأل سائل ، لماذا أراد الله أن يحىء بحديث عن المنفعة بعد الحديث عن تعذيب الكفار ؟ ونقول : إن الحق حين يتكلم عن بصييه العذاب الأليم لأنه كفر ومات كافرا ، وماله من ناصرين فإن المقابل يأتي إلى الذهن ، وهو من آمن وعمل صالحا ، ومات على إيمانه ، فله عكس العذاب الأليم وهو النعيم ، وسيجد من يأخذ بيده ، بينما الكافر لن يجد ناصرين له . إن المؤمن سيجد جزاء الله على الطاعة وهي البر ، لأن البر هو كل خير ، وإن جاء على إطلاقه فإنه ينصرف إلى الجزاء من الله وقمته هو الجنة .

وهكذا نرى المقابل لمعاملة الحق للكفار وهو معاملة الحق للمؤمنين ، لقد جاء هذا القول في القرآن وهو كلام الله المعجز ، وحين يخاطب سبحانه المكلفين بالمنهج . فهو يخاطب بكلامه ملكات إنسانية خلقها هو ، إذن فلا بد أن يعنى هذا الكلام كل الملكات المخلوقة لله ، فلو كان الخالق للملكات غير المتكلم لكان من الممكن ألا ينسجم الكلام مع الملكات ، ولكن الكلام هنا لله الذي خلق ، لذلك لا بد أن تنسجم الملكات مع كلام الله .

وفي النفس الإنسانية ملكات متعددة ، وهذه الملكات المتعددة متشابكة تشابكا دقيقا فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أن تحرك مواجيد وجدانية ، فإن لم يكن العالم بالملكات عليها لما أمكن أن يحىء المنطق موافقا للذة سمعية ، وموافقا للملكات وجدانية قد تنأى بها طبيعة تداعى المعاني .

وه تداعى المعاني هو الخاصية الموجودة في الإنسان ، ومعنى « تداعى المعاني » أن الإنسان يستقبل معنى من المعاني فيشير ذلك المعنى إلى معان خبيثة يستدعيها لتخضر في الذهن ، فمثلا حين ترى إنسانا تعرفه . فإن تداعى المعاني يعطيك تاريخك معه

وتاريخه معك ، ويصور بخاطرك أيضا صورا عن أمله وأصدقائه ، ومعارفه ، ويأتي لك تداعي المعاني بالأحداث التي كانت بينك وبينه أو شاهدتها أنت وهذا هو ما نسميه « تداعي المعاني » أي أن المعنى يدعو المعنى .

وحين يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان ، فإنه يخاطب كل ملكة فيه في آن واحد ، حتى لا تأخذ ملكة غذاءها ، دون ملكة أخرى لا تجد لها غذاء إن كلام الله جاء مستوفيا وكافيا لكل الملكات ، ومثال ذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت ، وكان المشركون قبل تحريم الله للطوافهم ، يطوفون بالبيت ، ويأتون من أماكن سحيقة بعيدة ليطوفوا في موسم الحج ، وكانوا يأتون بأموالهم لينفقوها على أهل مكة ، ويشترى كل شيء يلزمهم منها ، فموسم الحج كان موسما اقتصاديا . وحين يريد الله أن يمنع المشركين من الحج فهو يخاطب المسلمين المقيمين بمكة حتى يحولوا بين المشركين وبين الطواف ، وهو سبحانه قد علم - وهو العليم - بما خلق من ملكات ، يعلم سبحانه أن ملكة أخرى ستدخل في هذا الوقت ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَذَا ۖ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وعندما ينزل هذا الحكم فلا بد أن تتحرك ملكات في النفس الإنسانية ، والحق قد علم ألا أن ملكة النفع الاقتصادية عند أهل مكة ستتحرك عند سماع هذا الحكم ، بمعنى أن بعضا من المسلمين المقيمين بمكة وقت نزول هذا الحكم قد يقولون : « وإذا كنا نمنع المشركين الذين ينفقون علينا بالأموال ليشترى بضاعتنا وموسمهم الاقتصادي هو الذي يعولنا طيلة العام فلماذا نصنع إذن ؟ إن الله يعلم أنه عند نزول حكم بتحريم البيت على المشركين أن يقربوه فلا بد أن تتحرك في النفس الإنسانية تلك الملكة النفعية ، فيقول - سبحانه - عقب ذلك مباشرة :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۖ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

الخوف من العيلة ، أي الخوف من الفقر ، وتلك هي عظمة الكلام الإلهي لأن

رَبًّا يَتَكَلَّمُ إِنَّ الْإِنْسَانَ حِينَمَا يَتَكَلَّمُ قَدْ تَفَوَّتَهُ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ قَدْ تَحَدَّثَ ضَبْجَةٌ وَبَلْبَلَةٌ وَثَوْرَةٌ بَيْنَ النَّاسِ ، لَكِنَّ الْحَقَّ الْأَعْلَى عِنْدَمَا يَقُولُ : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا » وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ فَوْرًا يَقُولُهُ الْمُطْمَئِنُّ : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » وَقَدْ فَعَلَ وَجَبَى الْحَقُّ وَجَلَبَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَنَا : لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ هَذِهِ الثَّمَرَاتُ قَادِمَةٌ عَنْ طَرِيقِ التَّطَوُّعِ وَلَكِنَّهَا رِزْقٌ مِنْ لَدُنَّا ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ الْحَقُّ :

﴿ وَقَالُوا إِنْ تَنْبِئْ أَهْلَ دِينِكَ مُعْتَادِ تِخَاطَفٍ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَرَمْسِكِنْ هُمْ حَرَمًا مِمَّنَّا بَجْعِي

إِلَيْهِ نَحْمَرُّ كُلَّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

أَيُّ أَنَّهُ لَيْسَتْ هُنَاكَ حَرِيَّةٌ لِأَحَدٍ أَنْ يُعْطَى أَهْلُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَوْ لَا يُعْطَى ، إِنَّهَا جَبَالِيَّةٌ ، لَطَمَانَةٌ الْمُلْكَةِ النَّفْعِيَّةِ فِي النَّفْسِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يُعْطَى الْأَمَانُ الْاِقْتِصَادِي الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ قَوَامُ الْحَيَاةِ ، وَعِنْدَمَا نَحْنُ فِي الْبَيْتِ الْاِقْتِصَادِيِّ نَجِدُ أَنَّ هُنَاكَ آيَةٌ قَدْ تَقَدَّمَ آيَةٌ قَدْ تَأَخَّرَ ، وَآيَةٌ قَدْ تَأَنَّ فِي الْوَسْطِ ، وَنَجِدُ أَنَّ الْآيَةَ الْوَسْطَى ، مُرْتَبِطَةٌ بِتَدَاخُلِ الْمَعَانِي بِالْآيَةِ الَّتِي قَبْلُهَا ، وَمُرْتَبِطَةٌ بِتَدَاخُلِ الْمَعَانِي بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا ، وَذَلِكَ لِتَرْتَوِي وَتَتَغَذَّى كُلُّ مِلْكَاةٍ الْإِنْسَانِ فَلَا يَأْتِي أَمْرٌ يُوحِي بِأَنَّ هُنَاكَ مَا يَنْقُصُ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ ، لِتَتَأَمَّلَ مِثَالًا لِذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُهُ الْحَقُّ :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْطَلُونَهَا فِئْسَ

الْمَصِيرُ ﴾

(مَنْ الْآيَةُ ٨ سورة المجادلة)

إِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَقُولُوا لِأَحَدٍ : « إِنَّمَا قَالُوا لِأَنْفُسِهِمْ » ، وَبِكَشْفِهِمُ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ الْعَلِيمُ فِي أَخْفَى خَبَايَاهُمْ ، وَيُظْهِرُ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ خَفَايَا عِبَادِهِ وَالْكَاشِفُ لِكُلِّ الْمُلْكَاةِ النَّفْسِيَّةِ فِي خَلْفِهِ . وَحِينَ يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ : « وَلَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » . فَإِنَّ الْآيَةَ تَحْرِيطُ عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَجَاءَتْ بَعْدَ آيَةٍ تُفِيدُ أَنَّ هُنَاكَ إِتْفَاقًا لَا يَقْبَلُهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلٌّ أَرْضٍ دُهَبًا وَلَوْ أُقْنَدَتْ
بِهِمُ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ١١ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فهناك لون من النفقة يرفضه الله ، وتداعى المعانى فى النفس الإنسانية قد يجعل الإنسان يسأل « ما هى إذن النفقة المقبولة ؟ » لذلك كان لابد وأن يأتى قوله تعالى : « لن تتألفوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فإذا كانت هناك نفقة مردودة فهناك أيضا نفقة مقبولة ، وهكذا نرى الآية التى تحرض على الإنفاق منسجمة مع ما قبلها . « لن تتألفوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، قد يسأل سائل ، ولماذا لا يتألف الإنسان البر إلا بعد أن ينفق مما يحب ؟ وله أن يعرف أن طبيعة النفس الإنسانية هى « الشح » ولهذا جاء فى القرآن الكريم :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ
يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١١ ﴾

(سورة التباين)

وشح النفس يأتى لأن الإنسان لا يأمن أبدا أن يأتيه العجز من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول أن كان يملك شيئا أن يؤمن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات ، ومن هنا جاءت الحياة والملكية ولم تنشأ هذه الأشياء من أول الخلق ، وإنما نشأت من يوم أن ضاقت الأمكنة المعطية دون الحاجات ، فحين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا داعى لهذا العجز المتوهم .

لفترض أن رجلا اشترى صندوقا من البرتقال ، ودخل منزله وعندما يحتاج ابن هذا الرجل لبرتقالة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يريد ، لكن لو أحضر الرجل قليلا من البرتقال فإن زوج الرجل تكون حريصة على أن تقسم البرتقال بين الأولاد حتى لا تترك كل ابن على سجيته بما قد يحرم الآخرين .

وهكذا كان الأمر فى بدء استخلاف الله للإنسان فى الأرض ، فمن أراد الأرض

ياخذ ، ومن أراد أكل الثمار فهي أمامه ، وعندما قلت مُعطيات الحاجات وذلك بضيق الأمكنة المعطية بدأت في الظهور الرغبة في الملكية ، وامتياز الأشياء ، والحق سبحانه يلفتنا في هذه المسألة وكأنه يقول لنا : إن النفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية لوجدت أنك أيها العبد مضارب لله في خير الله . ومعنى « مضارب » أى أنك تعمل عند الله بالعقل الذى خلقه لك ، وتخطط به ، وتعمل عند الله بالطاقة التى خلقها الله ، والمادة التى خلقها الله لك نفعل معها فإذا لك أنت ؟

إن كل شيء لله ، وأنت مجرد مضارب لا تملك شيئا ومادمت مضاربا أيها العبد ، فأعط الله حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ؛ فهو أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أخوك غير القادر الذى لا يستطيع أن يتفاعل مع المادة ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أنه - جل شأنه - قد استكثر عليك ما طلب منك أن تنفقه ، إنه ساعة يأخذ منك لأخيك وأنت قادر ، إنما بطمئنتك أنك إن عجزت فسيأخذ لك من القادرين ذلك هو التأمين في يد الله .

إن الحق يريد أن يبيننا في أن نفق ، لكن الإنسان يحاول أن ينفق عما لا يحب ، فيهدى الإنسان الثوب الذى لم يعد صالحا للاستعمال يعطيه لفقير ، أو يعطى الخداء المستهلك لواحد محتاج . لكن الله يأمرنا بأن نفق مما نحب لذلك انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : « لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون » هذا أبو طلحة حينما يسمعها يقول : يا رسول الله ، إن أحب ما لى هو « بريحاء » فإنا أخرجه في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعله في أقاربك ، فجعله في أقاربه ، وهذا زيد بن حارثة يسمع الآية الكريمة فينفعل بها كذلك ، وكان عنده فرس اسمه « نبل » وكان يحبه ، فيقول : يا رسول الله أنت تعلم حبى لفرسى ، وأنا أجعله في سبيل الله . فأخذه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بأسماء بن زيد وأركبه الفرس . قال زيد : « فوجدت في نفسى ، أى أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول الله أنا أردت أن أجعل الفرس في سبيل الله وأنت تعطى الفرس لابنى ليركبه . فقال رسول الله لزيد : « أما إن الله قبله منك » .

وبعد ذلك بنفع سيدنا أبو ذر رضى الله عنه وكان عنده إبل ، والإبل لها فحل يلفح إناث الإبل ، وكان هذا الفحل أحب مال أبى ذر إليه وجاء ضيف إلى أبى ذر ،

فقال له : إني مشغول ، فأخرج إلى إبل فاختار خيرها لنذبحه لضيفتك . فخرج الضيف ، ثم عاد وفي يده ناقة مهزولة ، فلما رآها أبوذر قال : ختنى ، قلت لك هات خير الإبل ، قال الضيف : يا أباذر لقد رأيت خيرها فحلا لك وقدرت يوم حاجتكم إليه . فقال أبوذر : إن يوم حاجتى إليه ليوم أوضع في حفرتى .

إن الصحابي الجليل أباذر يعرف أن يوم أن يوضع في الحفرة هو اليوم الجليل الذي يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا ابن عمر كان عنده جارية جميلة من فارس ، وكان يحبها ، فلما سمع الآية ، قال : ليس عندي أحب إلي من هذه الجارية ، وأعتقها ، وكان من الممكن أن يتزوجها بعد أن أعتقها لكنه قال : لولا أن ذلك بقدر في عتقها لتزوجتها . وسيدنا أبوذر رضي الله عنه يعطينا في مسألة الإنفاق درساً من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية ، فيقول : في المال شركاء ثلاثة : القدر لا يستأمر أن يذهب بخيره وشره من هلك أو موت . أى أن القدر لا يستأذن عبداً في أن يذهب بالمال حيث يريد ، فتأى أى مصيبة فتأخذ المال إلى هلك أو موت . هذا هو الشريك الأول في المال ، إنه القدر .

والشريك الثانى في المال يوضحه لنا أبوذر فيقول : إنه الوارث ، ينتظر إلى أن تضع رأسك ، ثم يستاقها وأنت قد سلبت بالموت كل ما غللك في الدنيا وأصبحت من غير أهلها . إن الوارث يقول لنفسه : « فلاستمع بما ترك لى » ، وهذا هو الشريك الثانى في المال .

ويوضح لنا أبوذر رضي الله عنه الشريك الثالث في المال فيقول : والثالث أنت ، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها . أى إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث ، ينبغي عليك أن تغلب بإنفاق المال في سبيل الله وإلا أخذه منك باقى الشركاء .

إذن لقد انفعنا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية حينما نزلت حتى عدا الخير المحبوب منهم إلى غيرهم ، وكان جزاء ذلك الجنة . لقد عرفوا قول الحق : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » أى الجنة المترتبة على الطاعة أو

التقوى ، أو سعة البركة أو سعة القوة ، وكلها معان ملتصقة ، ولذلك يقول الله في الحديث القدسي :

« قد كان العباد يكافئون في الدنيا بالمعروف وأنا اليوم أكافئ بالجنة » .

إن الحق سبحانه الذي يعطي البر ثمنا لنفقة مما يحب يعلم هل أنفقت بما تحب فعلا أو تبذمت الخبيث لتنفق منه ، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك في هذا الأمر ، لأن الذي يعطي البر ثمنا لنفقة مما يحب يعلم خبايا النفس ، لذلك يقول سبحانه : « وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » .

وعلم الله شامل ، إنه يعلم ما في نيتك ، وكيف أنفقت .

ولقد بين الحق سبحانه النفقة المرفوضة حتى ولو كانت ملء الأرض ذهبا ، ثم أوضح لنا أن هناك نفقة مقبولة وجزاؤها الجنة ، وبذلك نرى التقابل بين النفقتين ولماذا جاء هذا الحديث ؟ لقد كذب بعض أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مستهل أمر الدعوة وكذبوا البشارة به ، والنعت والبشارة جاءا في التوراة والإنجيل ، وأنكروا الأوصاف التي ذكرت في كتبهم السماوية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتماحوا وعحوا هذه الأوصاف من كتبهم . حدث ذلك مع أنهم قد نورطوا من قبل في إعلان البشارة به « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد أراد الله أن يفضحهم في التوراة التي يعتقدون أنها كتابهم وقد حرفوا بعض أحكام الله ، وظنوا أن هذه التحريفات ستظل مستورة ، لذلك جاء لهم بأحداث ولم يتبهاوا إليها لتقوم الحجة على أنهم قاموا بتحريف التوراة مثلما قلنا من قبل عن الخبيرة التي ارتكبت فاحشة الزنا ، وأراد رؤساء اليهود أن يخففوا العقوبة عنها ، لأن العقوبة الواردة في التوراة على جريمة الزنى هي الرجم وقال هؤلاء الرؤساء : « نذهب إلى محمد ، لعل لديه حكما مخففا » فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضع لهم أنه الرجم . فقالوا : لا ، إنك لم تنصف في حكمك . فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم إنه يرضى بحكم التوراة التي عندكم وجيء بالتوراة وأمرهم الرسول أن يقرأوا فلما جاءوا إلى آية الرجم أرادوا أن يغفلوها

فقال ابن سلام : إنهم بأمر رسول الله قد وثبوا وأغفلوا الآية .

وهكذا انتبه الجميع إلى أن رؤساء اليهود أرادوا أن يتخطوا حكمها لله موجودا عندهم وأرادوا أن ينكروه ، كما فعلوا وأحدثوا في وصف النبي عليه الصلاة والسلام وعوا هذا الوصف ، ولم يتركوا له أثرا ، لكن الله أنساهم بعض الأشياء لتكون بينة وآية على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما أحل الرسول صلى الله عليه وسلم الإبل والبائنا ، قالوا : هذه محرمة من أيام إبراهيم ومن قبله من أيام نوح ، ولا يمكن أن نقبل تحليلها ، فوضح النبي صلى الله عليه وسلم لهم أنها ليست محرمة ، الله أحلها .

وكان يجب أن يفهموا أن الإبل والبائنا حتى وإن كانت محرمة من قبل إلا أن رسولا قد جاء من عند الله ينشريع له أن ينسخ ما قبله مع أن الإبل والبائنا لم تكن محرمة ، لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحتكم إلى التوراة . وهذه هي العظمة التوراتية المحمدية ، فلا يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم : نحتكم إلى التوراة ، إلا وهو واثق أن التوراة إنما تأتي بالحكم الذي يؤيد ما يقول ، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب ، ويحضر التوراة ، فيجدون الكلام مطابقا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال الله :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا
بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ١١٣ ﴾

وحين يحرم نبي الله يعقوب - إسرائيل - طعاما ما ، فهو حر ، فقد يحرم على نفسه طعاما كئذ ، أو كوسيلة علاج أو زهادة ، لكن الله لم يحرم عليه شيئا ، وما تحتجون به أيها اليهود إنما هو خصوصية لسيدنا يعقوب ، كل الطعام كان حلالا لبني إسرائيل

إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ، فلماذا تقولون : إن الإبل والبانها كانت حُرمة ؟

لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يسترُوا على أنفسهم نقيصة لا يحبون أن يُفصحوا بها ، وتلك هي النقيصة التي كشفها القرآن بالقول الكريم :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ مَخْمُمَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَعْضِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١١)

(سورة الأنعام)

إذن فهناك أشياء قد حُرمت على اليهود لأنهم ظلموا ، وهذه الآية الكريمة هي التي أوضحت أن الحق قد حرم عليهم هذه الأطعمة لظلمهم . ومعنى : « كل ذي ظفر » أى القدم التي تكون أصابعها مندرجة ومتصلة ، فليست الأصابع منفصلة ، ونجدها في الإبل والنعام والأرؤ ، والبط ، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر . إلا ما حملت ظهورهما ، يعنى الشحم الذى على الظهر . أما « الحوايا » فهى الدهون التى فى الأمعاء الغليظة « أو ما اختلط بعظم » . أى الشحم الذى يختلط بالعظم إن التحريم هنا لم يكن لأن هذه الأشياء ضارة ، ولكن التحريم إنما كان عقابا لهم على ظلمهم لأنفسهم وبغيرهم على غيرهم .

وأقول ذلك حتى لا يقول كل زاغب فى الانفلات من حكم الله ما الضرر فى تحريم الأمر الفلانى ؟ إن محاولة البحث عن الضرر فيما حرمه الله هى رغبة فى الانفلات عن حكم الله . فالتحريم قد يأتى أديبا وتأديبا ، ونحن على المستوى البشرى - والله المثل الأعلى - يمنع الإنسان منا « المصروف » عن ابنه تأديبا ، أو يمنع عنه الحلوى ، لأن الابن خرج عن طاعة أمه ، إذن كان التحريم جزاء لهم وعقابا قال تعالى :

﴿ نَظَّيْنَاهُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّيقِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

كَثِيرًا ﴿١٦١﴾ وَأَخَذِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبِهَهُمْ أَمْوَالَهُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾

(سورة النساء)

وذلك هو الجزاء الذي أراده الله عليهم .

إن التشريع السماوي حينما يأتي لظالم يخرج عن منهج الله فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله ؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟ إن الظالم يفعل ذلك حتى يتمتع نفسه بشيء أكثر من حقه ، لذلك يأتي التشريع السماوي ليضيق عليه حيز المتعة ، وكان هذا الحيز من المتعة حقاً وخلاً له ، لكن التشريع يحرمه . ومثال ذلك القاتل بحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يعجل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ، لذلك يأتي التشريع ليحرمه من الميراث .

كان التشريع يقول له : « مادامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث » والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدي ورثته عليه بالقتل لينتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمه من الميراث وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم بإنكار الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ومادام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقاً لهم .

وكان اليهود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبون ألا يُشاع عنهم هذا الأمر فقالوا : إن هذا الطعام محرم على بني إسرائيل . وبعد ذلك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا اللون من الطعام حلال في التوراة ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذي فضحهم .

ولماذا نحىء هذه الآية بعد قوله الحق في الآية السابقة : « لن تناولوا البر حتى تنفقوا عما تحبون » ؟ ونحن نعرف أن آية « لن تناولوا البر » قد جاءت بعد آية نوضح النفقة غير المقبولة من الله . ولندكر ما قلناه أولاً ، عن تداعى المعاني في الملكات

الإنسانية : إن في النفس الإنسانية ملكة تستقبل ، فتتحرك ملكة أخرى ، وحين يقول الحق : « كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل » فالذين يسمعون هذا سينفعلون انفعالات مختلفة ، فالشبعان من الناس لن يلتفت إلى هذه المسألة بانتباه بالغ ، ومن عنده بعض الطعام فإن نفسه قد تتحرك إلى ألوان أخرى من الطعام ، أما من ليس عنده طعام فلسوف يلتفت بانتباه شديد ليتعرف على الحلال من الطعام والحرام منه .

إذن فقبل أن يأتي الله بالحكم الذي يحلل ويحرم ، هذا الحكم الذي ينير عند الجائع شجن الافتقار وشجن ذكر الطعام الذي يسيل له لعابه ، إن الحق قبل أن يحرك معدماً على غير موجود معه ، فإنه يحرك معطياً على موجود معه ، لذلك نقبل أن يأتي الحق سبحانه ويذكر الطعام ، وقبل أن يُقلب الأمر على النفس الإنسانية التي لا تحب طعاماً ، نجد الرسول قد نطق قبلها بما أنزله عليه الحق : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . فبتداعى المعاني في النفس الإنسانية يكون - سبحانه - قد حرك ملكة واجدة وملكة قبل أن يحرك ملكة معدمة . وهكذا يكون التوازن الذي أراه الله في الكون المخلوق له .

إنه رب يحكم كونه ، فلا ينسى شيئاً ويذكر شيئاً . « لا يضل ربي ولا ينسى » ، إن كل شيء في علمه كما قدره وهو الخلاق القدير العليم ، وهو لا يذكر بعضاً من الخلق ، وينسى بعضاً آخر ، فهو قد كتب العدم لحكمة ، وأعطى النعمة لحكمة .

لقد جعل الفقير عبدة ، ولكنه لم يتركه ، وذلك حتى يرى كل إنسان أن القدرة على الكسب ليست إلا عرضاً زائلاً ، فمن الممكن أن يصبح القادر الآن عاجزاً بعد دقائق أو ساعات ، ومن الممكن أن يصبح القوي ضعيفاً ، فإذا ما علم القوي أو القادر ذلك فإنه يتحرك إلى إعطاء الآخرين ؛ حتى يضمن لنفسه التأمين الإلهي لو صار ضعيفاً ، فيعطيه الأقوياء ، فعندما يأمر الله الأقوياء بأن يعطوا وينفقوا فإن عليهم أن يستجيروا ؛ لأن الواحد منهم لو صار ضعيفاً فسوف يأخذ .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا القول قد خدم قضية سبقتها ، وهي أنه لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به ، مادام كافراً ، إنها نفقة مرفوضة لا اعتبار لها ، إنها هدر . ويأتى من بعد ذلك بتحديد النفقة التي ليست هدراً ، ثم يفضح اليهود بقضية توجد عندهم في التوراة

ولكنهم كذبوها ، وهي فضية تتعرض للطعام ، ومادامت الفضية تتعرض للطعام
فهناك الكثير من الملكات التي يمكن أن تتحرك ، فملكات الواجد حين تتحرك
فحركاتها تكون بأسلوب غير الأسلوب الذي تتحرك به ملكات المعدم . فقبل أن
تُحرك وجدان المعدم إلى أنه معدم ، حتى لا يتلقى ذلك بحسرة ، فإنه سبحانه يكون
قد عمل رصيدا لهذا المعدم ، فيزق قلب الواجد أولا ، لن نألوا البر حتى ننفقوا بما
نحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ، وبعد ذلك يأتي قوله الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالَيْنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

تَنْزِلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣١﴾

(سورة آل عمران)

ومعنى كلمة « حل » هو « حلال » ، ويقابلها « حرام » وحل هي مصدر ،
ومادامت مصدرا فلا نقول « هذان حلالان » بل نقول : « هذان حل » ، ونقول :
« هؤلاء حل » وإن شئت فافقوا قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ

بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ

وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴿١٣٢﴾

(من الآية ١٣١ سورة المتحنة)

« لا هن » هذه لجماعة النساء ، والحل مفرد ، وعندما يقول الحق سبحانه : « كل
الطعام كان حلالينى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فهذا معنى أنه قد حرم
بعضا من الطعام على نفسه فهو حرق أن يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرمه على نفسه
فوافق الله ؛ لأن النافر حين ينذر شيئا لم يفرضه الله عليه فهو قد ألزم نفسه بالنذر
أمام الله .

إن الزمن الذي حرم فيه إسرائيل على نفسه بعضا من الأطعمة هو « من قبل أن
تنزل التوراة » أى أن هذا التحريم لم يحرمه الله ، ويأتى الأمر لرسوله
الكريم أن يخاطب بنى إسرائيل : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » إنه
قد كشف سرهم ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن النص الذى

يؤيد صدقه موجود في التوراة ، ولهذا لم يأت اليهود بالتوراة ، وذلك لعلمهم أن فيها نصا صريحا يصدق ما جاء به رسول الله ، ولا يجتمل اللجاجة ، أو المجادلة ، وماداموا لم يحضروا التوراة فهذا يعنى أنهم غير صادقين . ويقول الحق :

﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٩٤

إن في هذا القول التحذير الواضح ألا يخلق أحد على الله شيئا لم ينزل به رسول أو كتاب فمن يفتري الكذب على الله لا يظلم إلا نفسه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٩٥

بأمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا » .

ونعرف أن ملة إبراهيم هي التي سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين ، والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هي لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يجتمل الخلاف ، فركب الإيمان والوسل والأنبياء هو ركب واحد ، وكلمة « اتبعوا » تعنى أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا . وه الملة ، تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، كما أن الشريعة تشمل الأحكام ، والدين يكون لبيان العقائد .

راجع أصله وخرج احاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وقد عرفنا من قبل أن كلمة « حنيف » تعني الذي يسير على خط مستقيم ، ويتبع منهجا قويمًا ومستويًا ، ونحن نسمى ملتنا « الحنيفية السمحاء » ومع ذلك فالحنيف هو ميل في الساقين ، اليمين مقوسة إلى اليمين ، واليسار مقوسة إلى اليسار ، فكيف إذن نقول عن الدين الحق الهادي لمنهج الله وشريعته : إنه حنيف ؟

لقد قلنا : إن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعم الفساد ، ومادام الفساد قد عم فإن الذي يميل منحرفًا عن الفساد هو الذي اهتدى إلى الصراط المستقيم ، فالحنيف معناه مائل عن الفساد ، فالمائل عن المعوج معتدل ، « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين » .

« صدق الله » نعم ؛ لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلاً ، وحين يتكلم الحق وهو العليم أولاً فيما الذي يحدث ؟ لابد أن يوافق الواقع ما يقوله سبحانه وتعالى فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاماً يأتي على لسان رسول ، أو على لسان أتباع الرسول ، وبعد ذلك يأتي واقع الحياة فينقض قول الحق ويخالفه ، إن الحق العليم أولاً ينزل من الكلام ما هو في صالح الدعوة إلى منهجه .

إذن فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان فإنه سبحانه عليم أولاً أنها سوف تحدث على وفق ما قال ، وإن كان الظرف الذي قبلت فيه لا يشجع على استيعابها وفهمها . إن المؤمنين كانوا في أول الأمر مضطهدين ، ومرهقين وإن لم يكن للواحد منهم عشيرة تحميه فإنه يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يعذب ويُضطهد . وفي هذه الفترة الشديدة القاسية وفي قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق :

﴿ سَيُزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدِّبْرَ ۝١٥﴾

سورة النجم

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل : أي جمع هذا ؟ إن الواقع لا يساعد على هذا ثم جاءت بدر ، وهزم المؤمنون الجمع وولوا الدبر ، وهذا دليل على أن الله قد أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر ، وهذا مطلق الصدق . إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذي قال غير الذي

خلق ، لكن الذى قال ذلك هو الذى خلق ويخلق ويعلم ، فمن أين يأتي التناقض ؟
وهذا معنى القول الكريم :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ٤٦ ﴾

(سورة النساء)

إنه قول حق جاء من عند العليم أزلا ، ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود
ونصارى يتمسحون في سيدنا إبراهيم ، فقال بعضهم: إن إبراهيم عليه السلام كان
يهوديا ، وبعضهم قال: إن إبراهيم كان نصرانيا . وكان يجب أن يفهموا أن اليهودية
والنصرانية إنما جاءتا من بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا وهذه الملل قد
جاءت من بعده ؟ لذلك جاء القرآن الكريم قائلا :

﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَنْ حَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ٤٧
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٤٨ ﴾

(سورة آل عمران)

وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ٤٩ ﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يمكن أن يختلفوا على إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ إنه كلام لا يصدر
إلا عن قلة فظة وغفلة بالغة . وعندما يقول الحق عن إبراهيم: « وما كان من
المشركين » فهل أهل الكتاب مشركون ؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالنبوة لعزير ،
ويؤمنون بالنبوة لعيسى فهذا إشراك بالله ، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام
يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ؛ لأن شعائر الحج جاء بها إبراهيم عليه السلام ،
ولهذا ينزه الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك ، ويقول : « قل صدق الله فاتبعوا
ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به

موافق لملة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾

لقد عرفنا من قبل كيف كان تداعى المعانى سبباً في إرواء الحق لكل ملكات الإنسانية ، وقبل هذه الآية التى تتحدث عن بناء البيت الحرام بمكة المكرمة كان هناك حديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال الحق :

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

وإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام ، وكان رفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طمر وستر بالطوفان في عهد نوح عليه السلام ، فحين يأتى الكلام في رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلا بد أن تأتى أكبر حادثة في تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهى حادثة بناء البيت الحرام ، كما أن الحق سبحانه حيناً تكلم عن الحاجة بين المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده القرآن ، وبين أهل الكتاب وفى أيديهم الثوراة المحرفة والإنجيل المحرف أراد سبحانه أن يردنا إلى شىء واحد هو ملة إبراهيم الذى سمانا مسلمين . ومعنى ذلك أن الله يريد منا أن نسيطر قيم السماء على حركة أهل الأرض ، لأن حركة أهل الأرض إن اتبعت الأهواء تصادمت الحركات ، ومادامت الحركات قد تصادمت فإن ما ينتج عنها هو ضياع مجهود الحركة الإنسانية ، ويضيق هذا المجهود مبداً .

ولكن الإنسان الذى يحمل القيم التى تتركز عقيدة فى قلبه - بعد أن يبحثها بفكره - هذا الإنسان له قالب تنفذ به تشريعات الله ، ولولا وجود القالب هذا لما استطاع

الإنسان أن يطبق تشريعات الله ، ولما استطاع أن يؤدي هذه التشريعات ، ولما استطاع أن يطيع الله بجوارحه ؛ فالإنسان بغير قالب لا يستطيع أن يؤدي الحركة المطلوبة .

إذن فلا بد للقالب الإنساني - البدن - في التشريع من عملية أخرى وهي أن ينصب القالب ويكون له عمل حين يتوجه إلى بيت واحد لله ، وبذلك يصبح للقالب نصيب في العبادة أيضا .

ولهذا كان لابد أن يوجد للقالب - أيضا - مُنْجَهِ وهذا المنجى يحكم القالب نفسه ، فكان المؤمن المسلم محكوما قلبا وقالباً ، فحين نأتى للصلاة لتكون في حضرة الله نتحرى أن يكون قالبنا منجها إلى المكان الذي أمرنا الله أن نتوجه إليه ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى ساعة يعطى رحمته وبركته وتنزلاته وإشراقاته يريد أن يكون الجسم في وضع مؤهل لاستقبال هذه التجليات ؛ ولذلك كان لابد أن يكون لله بيت يتجه إليه الجميع حتى يعطى للتدين وحدة ، فكما أعطى الحق لموكب الرسائل وحدة ، فإنه يعطى أيضا وحدة في القالب الإنساني والمنجى ، وكل مكان يعبد الله فيه بالنسبة للإسلام يُعتبر مسجدا ، وقد يسر الله الأمر على أمة سيدنا محمد ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « جعلت في الأرض مسجداً وطهوراً » (١) .

وكان لقاء الله وعبادته في الديانات السابقة يقتضى مكانا محددًا ولكن قد وسع رحمته على أمة محمد صل الله عليه وسلم .

إن تراب الأرض طهور ، إننا عندما نفتقد الماء الطهور فإن التراب الذي قد يبدو للوهلة السطحية أنه سبب في عدم النظافة قد جعله الله لنا طهورا .

إن الإنسان يمكنه أن يتيمم ويتطهر بالتراب ، وكان الله قد أراد أن يكون لقاء كل فرد من أمة محمد به ميرا تيسرا كبيرا . وكل مكان نعبد فيه الله ويسجد فيه المسلم لله يصير مسجدا .

(١) هذا جزء من حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، والإمام مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، والإمام أحمد في مسنده وغيرهم من أصحاب السنن .

لكن هناك فارقا بين أي مكان تعبد الله فيه والمسجد ، فنحن نرى العامل يعبد الله في المصنع والتلميذ يعبد الله في الفصل ، والفلاح يعبد الله ويؤدي الفروض في الحقل ، ويمكن للساكن في الشارع أن يؤدي صلاته في أي مكان ، وأن يزاول عمله بعد ذلك ، ولكن حين يَحْيِزُ الإنسان مكانا ليكون بيتا لله ، فمحظور أن يزاول فيه نشاطا آخر من نشاطات الحياة ؛ إنه مكان محيز .

إن العبادة كلها مقبولة ، ولكن هناك فارقا بين مكان تعمل فيه ومكان تخصصه لتعبد مسجدا . فالمسجد هو مكان لا يزاول فيه إلا لقاء الله ، ولذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تستغل هذا الحيز في أي أمر يتعلق بدياننا ، وقد أوضح لنا - صلى الله عليه وسلم - أن الذي يعقد صفقة في المسجد لن يبارك الله فيها ، والذي يشتد فيه شيئا ضاللا له لن يجده . فقد دعا الرسول ألا يرد الله عليه ضالته .

إن أمور الدنيا بكفيها أن تأخذ من الإنسان كل يوم ثلاثا وعشرين ساعة ، فليخصص الإنسان المؤمن ساعة لله وحده ، وليبخل كل أغراض الحياة الدنيا كما يبخل النعال على باب المسجد . فليس من حسن الأدب واللباقة أن يشغل الإنسان بأي شيء غير لقاء الله في الوقت المخصص للقاء الله ، وفي المكان المخصص لهذا اللقاء .

فساعة تدخل المسجد ينبغي أن تمنع نفسك من أن تتكلم معك أحد في فضول الكلام ولغو ، وأن تنوى الاعتكاف لتستفيد من وجودك في المسجد . وساعة أن تخصص حيزا ما ليكون مسجدا ، فكيف يكون الاتجاه داخل المسجد ؟ أترك الأمر لكل واحد أن يختار له متجها ؟

لا ، إن المؤمن ملتزم بالاتجاه إلى مكان واحد ، هذا المكان الواحد هو بيت الله باختيار الله بينا المساجد الأخرى هي بيوت الله باختيار خلق الله ، فبيوت الله باختيار خلق الله متجهها جميعا هو بيت الله الحرام .

وحين تنظر هذه النظرة ستجد العالم متواجها ؛ لأن كل عابد سيكون اتجاهه إلى بيت الله مع بقية العابدين لله ، فيلتف المؤمنون كلهم حول بيت الله ، ويتواجهون ، إن وجوها كلها تقابل بعضها بعضا ، ولكن ما ضرورة الاتجاه للكعبة ؟ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٥)

(سورة البقرة)

نقول : إن هذه الآية تؤيد ما نقوله ، فإدام الله المشرق والمغرب ، فهذا هو المعنى العام ، فالتناس أول ما عرفوا الكون تعرفوا على المشرق والمغرب ثم الشمال والجنوب أيضا ، وبعد أن توصل العلم إلى تحديد الجهات الفرعية بجانب الجهات الأصلية الأربع المعروفة عرفنا « الشمال الشرقي » ، « الشمال الغربي » ، « الجنوب الشرقي » ، « الجنوب الغربي » . إذن فكل المتجهات لله ، والاتجاه للكعبة ليحقق هذا القول الكريم .

وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه ، ويكون الغرب أمامه ، ويتجه إليها إنسان آخر إلى الكعبة ، فيتقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة ، وثالث يتجه إلى الكعبة ، فيكون في زاوية أخرى ناظرا إليها ، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات القرعية حول الكعبة .

إذن فقول الحق : « والله المشرق والمغرب » أي جميع الخلق متجه إلى الكعبة ، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى . وأنا لا أريد أن أدخل في متاهة أن الكعبة مركز الأرض وأن الأرض خلقت منها ؛ لأن الشيء إذا كان مكورا فأى نقطة فيه تكون مركزا للجميع ، لذلك فلنترك مثل هذا الكلام ، لكن ألا يكفي أن يرجحها أن الله قد اختارها ؟ إن ذلك يكفي وزيادة ، وبذلك ينتهى الأمر ، إنها كذلك ؛ لأنها بيت الله باختيار الله ، وهذا يكفي .

لقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأشياء التى تفض فيها العقول وليست من صلب العقائد أو الدين لا يصح أن تكون محل خلاف أو جدل . يقول سيدنا على كرم الله وجهه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأله رجل ، « أذلك أول بيت لله ؟ » فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكن هو أول بيت وضع للناس . وهذا إيضاح أن الله قد جعل الكعبة هي أول بيت له يتعبد فيه جنس البشر ، وذلك لقول الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . ولكن إن كانت هناك أجناس سابقة على الجنس البشرى فمن المؤكد أنه كانت هناك لله بيوت لا نعرفها .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكن عشد الفياس أودام

ولذلك فوجود البيت الحرام كبيت الله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة ، فساعة أن يسمع الواحد منهم ، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا : كيف وأدم لم يمر عليه ملايين السنين ؟ لنفترض أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام ، وأحد عشر جيلا لإبراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون الوجود البشري محددًا بآلاف السنوات لا ملايينها .

هذا الإنسان نقول : وهل قال لك أحد : إن آدم أول من عمّر الأرض ؟ إن الدين لم يقل ذلك ، لكن الدين قال : إن آدم هو أول هذا الجنس البشري ، ولكنه ليس أول من سكن الأرض ، لذلك فليقل العلماء : إن عمر هذه الأرض ملايين السنين ولنسمع جميعا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَاسًا بَذْهَبَكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فلا مجال لهذا البحث ، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل قبله بيوت » .

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ۝٤٧﴾

(سورة الحجر)

ألم يقل الحق سبحانه إن الإنسان خليفة ، وردت عليه الملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ

فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ۝٥٠﴾

(سورة البقرة)

إن الذين قالوا ذلك ليسوا من البشر ، إذن فكلام الله يؤكد أن الكعبة هي أول بيت وُضع للناس ، أي للجنس البشري ، ولذلك فلا داعي أن نتكلم في الأشياء التي يقف فيها العقل حتى لا ندخل في متاهة . ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هي أول بيت في الأرض لقال لنا : « إنه أول بيت وضع في الأرض » ، ولم يكن قد حدد الجنس الذي وضع البيت من أجله ، لكن الحق سبحانه قال : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » ، ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكنه أول بيت وضع للناس . إنه جواب يتسع لكل ما يأتي به العلم .

وحين ننظر إلى القول الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » ما معنى « أول » ؟ إنه الابتداء ، وهل كل ابتداء له انتهاء ؟ لا ، إن هناك أموراً لها « أول » وليس لها « آخر » ومثال ذلك العدد « واحد » وما بعده ليس له آخر ، فآخر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن الإنسان أن يحسبه عجزاً في التقديرات الدشليونية ، ولكن ما بعد الدشليون هناك أعداد أخرى ، وكان الإنسان قدما يقف عند الألف ، ثم يقول عن المليون « ألف ألف » ، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر .

إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة . وعندما نرى كلمة « وُضع » نجدها فعلاً ، ونرى أنه قد وُضع للناس . وما دام هذا البيت قد وضع للناس لذلك فمن اللازم حين تأتي كلمة « نامس » أن يكون هناك « بيت » و « آدم » من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضع له . وحين يقال : إن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول : « إن أول بيت وضع للناس ، فلماذا تحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله ؟ إذن فالبيت موجود من قبل آدم . وبعض الناس تظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى البيت ، ولأصحاب هذا الظن نقول : لنفهم القرآن معاً ، إن مثل هذا القول يتناقض القرآن ، لأن القرآن قد قال : « إن أول بيت وضع للناس » وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل عي إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند الله التي وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلا بد أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآن

« إن أول بيت وضع للناس ، مؤكد ذلك ، ومادام قد جاء الفعل مَبْنِيًّا للمفعول فواضعه غير الناس ، قد وَضِعَ ، هو فعل مبني على ما لم يسم فاعله ، فمن الذي وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه : « هدى للعالمين » وهذا يعني أن البيت هدى للملائكة ، لأنهم عالم، وهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، إن أحدا لا يقدر أن يجعل الكون على قدر العقل البشري ، إن على العقل البشري أن يكون في ركاب الكون ، وإياك أن تجعل الكون في ركاب عقلك . أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة أولاً فهذا عدم فهم للنص القرآني القائل :

﴿ وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

(سورة البقرة)

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البعد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض موجودان إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت . وهكذا نستنتج أن الذي كان مظموسا هو القاعدة والارتفاع ، مع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان ، أما البناء فهو الذي يحدد « المكين » وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه . ونحن عندما نصلي في الدور الثالث في الحرم ، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفرنا نفقا تحت الأرض باللف متر ، وأردنا أن نصلي فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جو الكعبة كعبة .

إذن فعمل إبراهيم عليه السلام كان في إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفهم الإيمان ما حدث لإبراهيم عليه السلام . لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بها ليضمهما في هذا المكان . « وهاجر » تعرف أن مكونات الحياة هي المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم عليه السلام : كيف تركنا هنا ؟ هل أرسلنا هنا برأيك أم يتوجيه من الله ؟

فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجه من الله ، لذلك قالت : « لقد اطمأنت ، والله لا يضيعنا أبداً » . لم تقلق هاجر لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان في قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك أب الطفل يذهب بعيداً عنها وتعيش مع ابنتها في هذا المكان الذي لا يوجد به طعام أو ماء ، فهي لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم وعندما تقرأ القرآن الكريم تحمد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت وأن هذا البيت محرم ، وعندما تقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضح بصورة تسمع له أن يساعد والده خليل الرحمن في إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل نشأ طفلاً في هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجوداً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر في معنى كلمة « بكة » التي وردت في هذا القول الكريم : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مبارك » ، فإننا نعرف أن هناك اسماً لمكان البيت الحرام هو « بكة » وهناك اسم آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و « الباء » بتعاون ، ونلاحظ ذلك

في الإنسان « الأخف » أو المصاب بزكام ، إنه ينطق « الميم » كأنها « باء » . والميم
وه الباء « حرفان قريبان في النطق ، والألفاظ منهما تأتي قريبة المعنى من بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » . إننا نقراء « بك » المكان « أى ازدحم
المكان ، وهكذا نعرف من قوله الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة
مباركا ، أى أنه مكان الازدحام الذى يأتي إليه كل الناس وكل الوفود لتزور بيت الله
الحرام . ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم
ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ، ولا يدري أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء
الطواف .

و« بكة » هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة ، أى هى اسم مكان البيت
الحرام ، و« مكة » اسم البلد كلها الذى يوجد به البيت الحرام . و« مكة » مأخوذة
من ماذا ؟ إن « مكة » مأخوذة من « مك » الفصيل الضرع ، أو « امتك الفصيل
الضرع » ، أى امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو
صغير البقر . ومادام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبن فمعنى هذا أنه
جائع ، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه ، والناس تجهد وتبذل فى أن تمتص المياه
القليلة عندما تجدها فى مكة .

وفى كلمة « مباركا » نجد أنها مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور
حول شيء اسمه الثبات ، فهل هو الثبات الجاهد ، أم الثبات المعطى التامى الذى
مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضاً ؟ إننا فى حياتنا اليومية نقول : « إن هذا المال فيه
بركة . مهما صرفت منه فإنه لا ينتهى » ، أى أنه ثابت لا يضيع ، ويعطى ولا ينفد .
وكلمة « بركة » فى حياتنا تعنى أنها تجمع الماء تأخذ منها مهما تأخذ فبأن إليها ماء آخر .

وكلمة « تبارك الله » تعنى « بت الحق » ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحداً أحداً ،
إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات يأتي فى معنى البيت الحرام . إن البيت
الحرام مبارك أبداً « كيف » ؟ ألبيت تضاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن
من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تُجيب إليه ثمرات كل شيء
ولا تنقطع ؟ فقدما كان الذهاب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ
الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأخذ بكماليات

الحياة من هناك . ويقول سبحانه عن هذا البيت الحرام المبارك : إنه « هدى للعالمين » . ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ، ومن يزور البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للجنة أم لا ؟ إنه برف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى عندما تكلم عن البيت لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه هي مقام إبراهيم مع أن فيه آيات كثيرة .

قال الحق :

﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ يُبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٧)

إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة في قوله الحق : « فيه آيات » و« بينات » و« وصف الجمع » . وبعد ذلك قال الحق : « مقام إبراهيم » إنه سبحانه لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات ، والمقام آية واحدة ، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الآيات البينات ، ونحن نقرأ « مقام إبراهيم » بفتح الميم الأولى في كلمة « مقام » ولا ننطقها « مقام » بضم الميم الأولى لأن المقام بضم الميم تعني مكان إقامة إبراهيم ، أما مقام بفتح الميم فمكان القيام ، لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » . وعندما ننظر إلى مقام إبراهيم فإنك تجد فيه كل الآيات البينات ؛ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذي يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى المطلوب الله - كما قلنا من قبل - لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع

الله أن يؤدي كل تكليفات الله بعشق وحب وإكمال وإنعام ، فقال إبراهيم في نفسه : « ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول بداي ؟ » ولم تكن هناك في ذلك الزمن القديم فكرة « السقالات » ، ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا ابنه إسماعيل . وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرا ، ووقف عليه ، ليرفع القواعد قدر الحجر .

إذن فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط ، ولكن بقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا معنى قول الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ أَبْنَىٰ إِبْرَاهِيمُ رُبُّهُ رَبُّهُ يُكَلِّمُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أي أنه أدى مطلوب الله أداء كاملا ، ولا أدل على هذا الأداء الكامل من أنه أتى بحجر ليقف عليه ليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر . ونعرف أن الذي ساعده وشاركه في رفع القواعد هو ابنه إسماعيل . ومن أكرمه الله برؤية مقام إبراهيم يجد أن الحجر يسمع وقوف إنسان واحد ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويتناول والده الأحجار ، أما مكان الأقدام الموجودة في هذا الحجر ، فهذا يعني أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرا من المقروض أن يحمله اثنان فإن هذا يتطلب ثبات القدمين في مكان آمن حتى لا يقع .

فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جعل قدرته ساعة رأى إبراهيم يحتال بهذه الحيلة قال لخليله : سأكفيك مؤنة ذلك . وجعل الحق القدمين تغوصان في الحجر غوصا يستندهما حتى لا تقع . والذي لا يتسع ذهنه إلى أن الله الآن لإبراهيم الحجر ، تقول له : إن إبراهيم قد احتال ، وخاف أن تزل قدمه ، فتحت مكانا في الحجر على قدر قدمه حتى تثبت قدمه حين يحمل ويرفع الحجر ، وهذه آيات بينات . فخذ ما يسمع ذهنك وفهمك له ، إن الله أمان إبراهيم لأنه فكر أن يبني القواعد ويرفعها أكثر مما تطول بداه ، وقد مكّن الله له في ذلك وأعانته عليه ، ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧)

(سورة عمه)

وفي آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، والآيات هي الأمور العجيبة ، وعندما تراها فإنك لا تستطيع أن تنكرها . ودخول البيت يعني الأمن للإنسان الذي يدخله ، ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه في هذا المكان ، وهذا المكان تجتمع فيه القبائل ، وبين بعض هذه القبائل ثارات ودماء وحروب ، لذلك بين الله الوضع الذي بمقتضاه تحفن الدماء ومن دخله كان آمناً ، لماذا ؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويُعاقب حتى ولو كان قد أجرم جرماً يوجب الله عليه الحد فيه . ولذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب - والده لم أتعرض له .

ولكن يُضَيِّق الخلق على المجرم حتى يخرج . وهذا الأمن محدد بأي أمر اقترفه في دنياه ، أما من دخله كان آمناً يوم القيامة فالحكم فيه شيء آخر ، إنها درجة عالية من فضل الله ، والآيات البينات الواضحة في البيت الحرام يراها من زار البيت الحرام ، وليحقق الله أمل كل راغب في زيارة البيت الحرام ، وأن يكرر الزيارة لمن ذهب وأراد أن يعود للزيارة مرة أخرى . فساعة تدخل البيت الحرام فانت هنا تتجه إلى مكان في البيت والمقابل لك في الكرة الأرضية يتجه إلى المكان المقابل ، إلى أن تشير الاتجاهات مشتملة على الكعبة كلها . ونحن عندما نكون في الكعبة فإننا نوجه وجوهنا إلى المبنى لأننا نراها ، ونحن نوجه الوجوه إلى المبنى المقطوع بأنه منها ، والخطيم ، وهو القوس المبنى حول حجر إسماعيل ، هو من الكعبة أيضاً ، ولكن النفقة نصرت ، فجعلوه ليحدد مكان الكعبة ، فظل هكذا ، فإذا غاب الإنسان عن الكعبة واتجه إليها فإنه يكفي أن يتجه إلى جهتها .

ولذلك نجد الصفوف في الصلاة حول الكعبة تتخذ شكل الدائرة ؛ لأن الذين يصلون في داخل الحرم يشاهدونها ، أما الذين يصلون خارجها فيكفي أن يتجهوا إلى جهتها ولو طال الصف إلى ألف متر ، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلاً ، أما في داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة لأن أقصى بعد في الكعبة هو اثنا عشر متراً وربع المتر وتجد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر الأسود تجد الناس تنهافت على تقبيله ، والحجر يمثل أدق أجناس الكون ، ونعلم

جميعا أن الإنسان مستخلف كسيد في الكون ، ومن بعده الحيوان أقل منه في الفكر
ومسخر ، ومن بعد الحيوان يكون جنس النبات ، ومن بعد ذلك يأتي جنس الجهاد
ومنه الحجر .

إننا نرى هذا الإنسان السيد في الكون لا يقبل الله منه النسك القبول التام الحسن
إلا إذا قبل الحجر ، أو حياه ، وهكذا ينقل الحق أعلى الأجناس إلى أدناها . والناس
تزدحم حول الحجر ، ومن لم يقبل الحجر بحس أنه افتقد شيئا كثيرا ، وهكذا ترى
استطرافا وسلوكا من الخلق إلى باب الله ، فالإنسان المتكبر الذي يتوهم أنه سيد على
غيره ، يأتي إليه أمر في النسك بتقبل الحجر أو نحيته بالسلام ، وهذا الإنسان برغم أن الحق
- سبحانه - يقبل منه أن يحیی الحجر الأسود بالسلام ولم يفرض عليه أن يقبله ولكنه مع ذلك
يحاول أن يقبل الحجر ، وهو أدنى الأجناس ، لأن الله قد عظمه ، وهذا أول كسر لأنف غرور
الإنسان ، وحتى لا يظن ظان أنها حجرة أو وثنية ، يأتي الأمر من الحق برجم حجر آخر .

إذن فالحجرية لا ملحظ لها هنا ، فنحن نجد حجرا مقدس ، وحجرا آخر
يرجم . نجد حجرا يقبله الإنسان ويعظمه وحجرا آخر يزدریه ويحقره . وذلك يدل
على رصوخنا لإرادة الأمر سبحانه وتعالى فقط ، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا
فالمؤمن يؤدي حق التعظيم بالسمع والطاعة ، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر
آخر ، فالمؤمن يرمي هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا ، فالذاتية الحجرية
لا تدخل لها على الإطلاق . وبعض من أصحاب الظن السيء قالوا: إن الإسلام قد
استبقى بعض الوثنية .

ولهؤلاء نقول : ولماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود ، ولم تذكروا رجم إبليس وهو
ثلاثة أحجار ؟ لقد عظم المؤمن المؤدى للنسك حجرا واحدا ورجم ثلاثة أحجار ، إن
المؤمن إنما يطيع أمر الله ، فليست للحجر أي ذاتية في النسك أو العبادة . لقد رفعنا
الحق من حضيض عبادة الأصنام التي هي عين الكفر ، لكنه قال لنا : « قبلوا الحجر
الأسود » فقد قبلنا الحجر احتراماً لأمر الأمر ، وذلك هو منتهى اليقين . لقد نقلنا
الحق من مساو إلى مساو ، من عبادة الحجر إلى تعظيم وتقديس حجر مثله ، لكن
الأصنام كانت منتهى الشرك ، وتقبل الحجر الأسود منتهى اليقين . أليست هذه
آيات بينات ؟

وَمَزْمُومٌ الّٰهِي تَوْجِدٌ فِي حَضَنِ الْكَعْبَةِ ، الّٰهِيَسْتَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ؟ إِنْ « هَاجِرٌ » تَرَكَ الْكَعْبَةَ وَتَرَوَّحَ إِلَى « الصَّفَا » وَتَصْعَدَ إِلَى « الْمَرْوَةِ » بَعْدَ أَنْ تَضَعَ « إِسْمَاعِيلُ » بِجَانِبِ الْكَعْبَةِ ، وَتَدُورَ بِحِثَا عَنِ الْمِيَاهِ . وَسَعَتْ هَاجِرٌ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ لَعَلَّهَا تَرَى طَيْرًا أَوْ نَجْدًا إِنْسَانًا يَعْرِفُ طَرِيقَ الْمِيَاهِ لِأَنَّ ابْنَهَا يَحْتَاجُ إِلَى الشَّرْبِ ، وَلَوْ أَنَّهَا وَجَدَتْ عَلَى الصَّفَا أَوْ الْمَرْوَةِ مِيَاهًا فِي أَوَّلِ سَعْيِهَا أَكَانَتْ نَجْدٌ تَصْدِيقًا لِقَوْلِهَا لِإِبْرَاهِيمَ عِنْدَمَا جَاءَ بِهَا لِلْإِفَامَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ « إِنْ اَللّٰهُ لَا يَضِيعُنَا » إِنَّمَا سَعَتْ .

وَكَانَ اَللّٰهُ يَقُولُ لَهَا وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ : عَلَيْكَ بِالسَّمَى ، وَلَكِنْ لَنْ أُعْطِيكَ مِنَ السَّمَى ، إِنَّمَا أُعْطِيكَ الْمَاءَ مِنْ تَحْتِ رَجُلٍ إِسْمَاعِيلٍ ، إِذَنْ قَصَدَتْ فِي قَوْلِهَا : لَنْ يَضِيعُنَا اَللّٰهُ ، لَقَدْ جَعَلَهَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ تَسْمَى سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ ، وَلَا يُمْكِنُ لَامْرَأَةٍ فِي مِثْلِ عَمْرِهَا أَنْ تَقْدِرَ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا يَعْلَمُنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَبَاشِرَ الْأَسْبَابَ ، وَلَكِنَّ الْقَلْبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَسَبِّبِ الْأَسْبَابِ ، وَهُوَ اَللّٰهُ سُبْحَانَهُ ، وَفِي هَذَا مَا يَعْدِلُ سُلُوكُ النَّاسِ جَمِيعًا . فَسَاعَةً يَرَى الْإِنْسَانُ أَنَّ الْيُسْرَ مَكَانٌ قَدِمَ إِسْمَاعِيلُ وَعَلَى الْبَعْدِ تَكُونُ الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ ، وَتَسْمَى بَيْنَهُمَا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَجْدٌ زَمَزَمٌ مَكَانٌ ضَرْبَةُ قَدَمِ إِسْمَاعِيلِ ، أَلَيْسَ فِي هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ تَهْدِي الْإِنْسَانَ أَنْ يَبَاشِرَ الْأَسْبَابَ وَيَأْخُذَ بِهَا ، وَيَتَعَلَّقَ الْقَلْبَ بِمَسَبِّبِ الْأَسْبَابِ ؟

إِنْ هَذَا يُعْطَى الْمُؤْمِنَ إِيمَانِيَّةَ التَّوَكُّلِ ، وَهِيَ تَخْتَلِفُ عَنِ الْكُسْلِ وَهِيَ بِلَادَةُ التَّوَاكُلِ ، فَلْإِيمَانِيَّةِ التَّوَكُّلِ هِيَ أَنَّ الْجَوَارِحَ تَعْمَلُ ، وَالْقُلُوبَ تَتَوَكَّلُ ، أَمَّا الْكُسْلُ عَنِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ مَعَ الْإِدْعَاءِ بِالتَّوَكُّلِ فَهَذِهِ بِلَادَةُ ، وَمِثْلُ هَذَا الْكُسْلُ الْمُتَوَاكُلِ عِنْدَمَا يَأْتِي الْأَكْلُ أَمَامَهُ يَأْكُلُ بِنَهْمٍ وَشَرٍّ ، وَلَوْ كَانَ صَادِقًا لَتَرَكَ اللَّقْمَةَ تَقَفَّرَ إِلَى فَمِهِ ، وَلِمَاذَا يَمْضِغُهَا إِذَنْ ؟ لِمَاذَا يَخْتَارُ التَّوَاكُلَ وَالْكَسْلَ ، وَعَدَمَ الْعَمَلِ ، ثُمَّ يَمْدُ يَدَهُ لِيَأْكُلَ ؟ إِنْ هَذِهِ هِيَ « صِفَاتُ التَّوَاكُلِ » .

إِنَّمَا نَأْخُذُ مِنْ سَمَى « هَاجِرٌ » وَتَفْجُرُ الْمَاءَ عِبْرَةً ، هِيَ الْأَخْذُ بِأَسْبَابِ اَللّٰهِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا نَجِدُ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَشْغُولًا بِنَفْسِهِ مَعَ رَبِّهِ ، وَمَنْ فَرَطَ انْتِشَاغَالَهُ يَكُونُ غَافِلًا عَمَّنْ يَكُونُ مَعَهُ ، وَلَوْ كَانَ أَحَبَّ إِنْسَانٍ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي بِهِ . وَسَاعَةً تَدْخُلُ وَتَنْظُرُ إِلَى الْكَعْبَةِ يَنْفُضُ مِنْ عَقْلِكَ كُلَّ فِكْرٍ فِي أَيْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، لَا تَذْكُرُ أَوْلَادَكَ أَوْ مَالَكَ ، لَكِنَّكَ بَعْدَ أَنْ تَفْرَغَ مِنَ الْمُنَاسِكَ تَعُودُ لِلتَّفَكُّرِ فِي أَوْلَادِكَ وَعَمَلِكَ ، وَإِلَّا لَوْ ظَلَّ حَيْكُ وَشَوْقُكَ وَتَعَلُّفُكَ وَمُوَاجِدَتُكَ بِهِذِهِ الْبُقْعَةِ لَصَاقَ الْمَكَانَ

بالناس جميعا . بعد ذلك يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام : « ومن دخله كان آمنا » . وهنا يجب أن نفهم أن هناك فارقا بين أن يكون « الخبر » تاريخيا للواقع ، وبين أن يكون « الخبر » خبرا تكليفيا فلو كان « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمَنًا » تاريخيا للواقع لثم نقص ذلك بأشياء كثيرة ، فقد وجد فيه قوم ولم يأمنوا .

ونحن نعرف حادث الاعتداء الأخير الذي حاوله جهيمان منذ سنوات قال الناس : إن جهيمان عندما اعتدى على الناس ، لم يستطع حجاج بيت الرحمن أن يكونوا آمنين في البيت . وتساءل بعضهم ، فكيف قال الحق : « ومن دخله كان آمنا » ؟ بل قال بعض أهل الانحراف : إذن مسألة دخول جهيمان إلى البيت الحرام تجعل « ومن دخله كان آمنا » ليست صادقة ! ولهؤلاء نقول :

إن هناك فرقا بين إخبار الحق بواقع قد حدث ، وبين إخبار بتكليف . إن الإخبار بالواقع كان معناه ألا يدخل أحد البيت الحرام ويهجه أو يهاجمه أحد أبدا ، ولكن الإخبار التكليفي معناه : أن يخبر الله بخبر ويقصد به تكليف خلقه به ، والتكليف كما نعرف عرضة لأن يطاع ، وعرضة لأن يعصى ، فإذا قال الله سبحانه : « ومن دخله كان آمنا » فهذا معناه : بأنها المؤمنون ، من دخل البيت الحرام فأمّنوه . ونضرب المثل - والله المثل الأعلى - نقول أنت لولدك : يا بني هذا بيت بفتح للضيوف من دخله بكرم ، أهذا يدل على إنجاز الإكرام لكل من دخل هذا البيت وحصوله له بالفعل وأن هذا لا يتخلف أبدا أم أنك قلت الخبر وتريد لولدك أن يتفذه ؟

إن هذا خبر يحمل أمرا لابنك هو ضرورة إكرام من يدخل هذا البيت ، وتلك الوصية عرضة لتطاع وعرضة لأن تخالف ، لذلك فنحن نفهم من قول الحق : « ومن دخله كان آمنا » على أساس أنها أمر تكليفي ، عرضة للطاعة وللغصيان ، ومثال آخر على ذلك هو قول الله تعالى :

﴿ الْحَبِيبَاتُ الْغَيْبِيَّاتُ وَالْغَيْبِيُّونَ الْغَيْبِيَّاتُ وَالْغَيْبِيُّونَ الْغَيْبِيَّاتُ وَالْغَيْبِيُّونَ الْغَيْبِيَّاتُ
أُولَٰئِكَ مَبْعُوثُونَ لِمَا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة النور)

بعض الناس يقول : نجد واقع الحياة غير ذلك ، حيث نجد امرأة طيبة تقع في

عصمة رجل غير طيب وتزوجه . ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة ويتزوجها ، فكيف يقول الله ذلك ؟ ونحن نرد على أصحاب هذا القول : إن الله لم يقل ذلك تاريخا للواقع . ولكنه أمر تكليفي . أي افعلوا ذلك ، وحكمي وتكليفي أن يكون الطيبات للطيبين والطيبون ليطيبات . فإذا امتثل الخلق أمر الحق فعليهم أن يفعلوا ذلك ، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينشأ بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس .

إذن فقول الحق : « ومن دخله كان آمنا » هو خبر يراد به أمر تكليفي ، فمن أراد أن يكون صادقا فيما كلفه الله به فليؤمن من دخل البيت الحرام . وبعد ذلك بقول الحق سبحانه :

﴿ وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وحين نسمع « لـ » و « على » ، فافهم أن الفائدة تقع على ما دخلت عليه « اللام » ، والتبعة تقع على ما دخلت عليه « على » . فحين نقول : « فلان على فلان كذا » فالنفع لفلان الأول والتبعة على فلان الثاني . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « والله على الناس حج البيت » . فعلى هذا فالنفع هنا تكون لله ، والتبعة هنا تكون على الناس ، لكن لو فطنا إلى سر العبارة لوجدنا أن الله لا يتنفع بشيء من تكليفه لنا ، فالحج لله ، ولكنه يعود إليك ، فما لله عاد إليك ، وما عليك عاد لك .

وكل تكليف عليك فآثره لك ، فإياك أن تفهم من ذلك القول الكريم : « والله على الناس حج البيت » أن اللام الأولى للنفع ، وإياك أن تفهم أن « على » هي للتبعة ، نعم إن الحج لله ، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك ، وهو تكليف عليك ، وفائدته تعود عليك ، فالحق سبحانه وتعالى منزّه عن أن يفيد من حكم من أحكامه ، وهو سبحانه حين ينزل حكما تكليفيا فعلى العبد المؤمن أن يعرف أن فائدة الحكم عائدة عليه وعلى حياته ، والله يكون القصد والحج ، لا لشيء سواه .

ولماذا يقول الحق : إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام ؟ لأنه الخالق وهو

غير وعليم بأن التكليف شاق على النفس ، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم ، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه ، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة . والذي لا يقبل على الطاعة ويحمل الجزاء عليها ويففل عنه . تكون الطاعة شاقة عليه . والذي يقبل على المعصية ويحمل الجزاء عليها تكون المعصية هينة عليه . ولكن الطائع لو استحضّر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه .

ولو أن العاصي استحضّر العذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له ؛ فالعاصي قد يحقق لنفسه شهوة ، لكنها شهوة عاجلة ، أمدها قصير ، ولو استحضّر العاصي العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبدا . ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطارئة ، ويعزلون جزاء المعصية عنها ، ولو أنصفوا أنفسهم ، لاستحضّروا العقاب على المعصية في وقت الرغبة في ارتكابها . وحين يستحضّرون جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنهى عنهم ، وأضرب هذا المثل دائما عن أعنف غرائز الإنسان وهي غريزة الجنس .

هـب أن هناك واحدا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن يناها نقول لهذا المنترد جنسيا : استحضّر العذاب على هذا العمل ، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لتريك بعينيك ما أعدّه الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجا عن شرع الله ، وأوقد له فرنا مسجورا ومحميا ، وقُل له : في مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة .

أقبل هذا المنترد على ارتكاب تلك المعصية ؟ لا ، فشهوة المعصية تضعع عندما يستحضّر العذاب عليها . إن الحق سبحانه يقول : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » والسبيل هو الطريق الموصل للغاية ، والطريق الموصل للغاية عادة ما يكون مطروقا ، وعندما يتجه الإنسان لأداء فريضة الحج فهو طارق للطريق ، أي سيسير عليه ، هكذا تعرف أن هناك ثلاثة أشياء :

طارق ، وهو من كتب الله عليه الحج وهو المكلف .

وسبيل مطروق .

وغاية ، وهي حج البيت .

ومادام الطارق سيسلك طريقا فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك هذا الطريق فكيف تتأتى هذه القدرة ؟ إن أول شيء في القدرة هو الزاد ، وثاني شيء في القدرة هو المطية التي يركبها ، وهكذا نتبين أننا نحتاج إلى زاد وراحلة لطارق الحج . والسبيل الذي يطرقه ، أيكون مخفوقا بالمخاطر ؟ لا ، بل يُفترض أن يكون السبيل آمنا . إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات ، هي : الزاد ، والراحلة ، وأمن الطريق . والزاد عادة يخص الإنسان نفسه ، ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يعول أسرة وصغارا ؟

إذا كان الإنسان على هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زادا لمن يعولهم إلى أن يعود . وعلينا أن ننتبه إلى أن الله قال في كل تكليف : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم » . ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله على الناس وليس لمن أسلموا فقط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمسكون في إبراهيم عليه السلام أن يحجوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى أن يحجوا ليكون ذلك جمعا لهم على أن يتجه الخلق جميعا إلى بيت الله ويعبدوا إلهًا واحدًا هو رب هذا البيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فبعض لم يحج بدون مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعوز ، يقول في الحديث الشريف :

عن عني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ، وذلك أن الله تعالى يقول : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » (١٢) .

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقول الحق : « ومن كفر » فهل يقع من لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر ؟ هنا يقف العلماء وقفة . العلماء يقولون : نعم إنه يدخل في الكفر : لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان كفر بالله ، أو كفر بنعمة

(١٢) رواه الترمذي ، والحديث وإن كان في إسناده خلل بن عبد الله مجهول إلا أنه ورد في طرق أخرى حسنة وكلها تدل على أن مناط الوجوب في توافر الزاد والراحلة .

الله ، ومثال ذلك قوله - جل شأنه - :

﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَيْتِهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْجُوعِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢)

(سورة النحل)

أو هو الكفر ، كان يموت الإنسان يهوديا أو نصرانيا ، وهنا نقول : انبته ، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله : « والله على الناس حج البيت » . فهل تعارضون في هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ولكن لا تنفذونه ؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هي « والله على الناس حج البيت » فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ « نعم » . ولكن الموقف يختلف بين مؤمن إلى آخر : فتحن نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا .

ونجد في هذا الموقف أن الكفر نوعان ، هناك من يكفر بحكم الحج ، أي من كفر في الاعتقاد بأن الله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقا ، لكن هناك نوع آخر وهو الذي يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أمن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفى من يعولهم إلى أن يعود ، وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أن يسعى إلى الحج . لذلك قال بعض العارفين لو أن أحدهم أخبر بأن له ميراثا بمكة للذهب إليه حبرا .

إذن فقوله تعالى : « والله على الناس حج البيت » هي قضية إيمانية ، فمن اعتنقها ببرا من الكفر ، ومن خالفها وأنكرها فهو في الكفر . ومن قام بالحج فهو طائع ، ومن لم يفعل وهو مؤمن بالحج فهو عاص .

ولننظر إلى دقة الأداء القرآن حين يقول الحق : ومن كفر فإن الله غني عن

العالمين . قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه ؟ وقال : « فإن الله غنى عن العالمين » ؟ ونقول : إن الله غنى عن كل مخلوقاته ، وإياك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن ، وأدى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ؛ إن الله غنى عن الذي أدى وعن الذي لم يؤد . إياك أن تظن أن من أدى قد صنع لله معروفا ، أو قدم لله يدا ؛ « فإن الله غنى عن العالمين » وعن لا يفعل ، وعن من يفعل . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا ئَتَىٰكُم مِّنْ أَلَدِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾

وحين نسمع « قل » فهي أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل ؛ إنك إذا كلفت إنسانا أن يقول جملة لمن ترسله إليه فهل هذا الإنسان يأتي بالأمر « قل » أو يؤدي الجملة ؟ إنه يؤدي الجملة ، ومثال ذلك حين تقول لابنك مثلا : « قل لعمرك : إن أبي سيأتيك غدا » فابنك يذهب إلى عمه قائلا : « أبي يأتيك غدا » .

وقد يقول قائل : ألم يكن يكفي أن يقول الله للرسول : « قل يا محمد » فيبلغنا رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفرون ؟ كان ذلك يكفي ، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله ، فكانه قال ما تلقاه من الله ، والذي تلقاه الرسول من الله هو : « قل يا أهل الكتاب » وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله . وهناك آيات كثيرة في القرآن تبدأ بقول الحق : « يا أهل الكتاب » ولا يأتي فيها قول الحق : « قل » . وهناك آيات تأتي مسبقة بـ « قل » « ما الفرق بين الاثنين » ؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه ، فيجعلهم أهلا لخطابه ، فيقول : « يا أهل الكتاب » إنه خطاب من الله لهم مباشرة . ومرة يقول لرسوله : قل لهم

يا محمد لأنهم لم ينساموا إلى مرتبة أن يخاطبوا من الله مباشرة : فإذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق ، مرة مسبوقا بـ « قل » ومرة أخرى غير مسبوق فلتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الذين خلقهم بتلطف معهم مرة ، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم ، ومرة حين يجد منهم اللجاج فإنه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم : قل لهم .

والمثال على ذلك - والله المثل الأعلى - في حياتنا ، نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه : قل لصاحب الصوت العالي أن يصمت . إن هذا القائل قد تعالى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالي بالسكوت . وحين يجرى الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب النوراة ، والنصارى أصحاب الإنجيل ، وهؤلاء هم من يقول عنهم الحق : « يا أهل الكتاب » .

ولم يقل أحد لنا : « يا أهل القرآن » لماذا ؟ لأن الحق حين يقول لهم : « يا أهل الكتاب » فنحن نعرف أن الكتاب يُطلق على كل مكتوب ، وكفرهم بعارض ما علم الله أنه موجود في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لأنه هو الذي أنزل الكتاب ، ويعلم أن ما في الكتاب يدعو إلى الإيمان ، ولا يدعو إلى الكفر . وما دام هو الحق الذي نزل الكتاب ، وهو الشاهد ، فيصبح من ألحق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم في فخ الكفر ؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله : والله - سبحانه - يسجل عليهم أنهم خالفوا ما هو مكتوب ومنزل عليهم في كتابهم . إنهم - أهل الكتاب - إن استطاعوا نعمة أهل الأرض فلن يستطيعوا ذلك بالنسبة لخالق الأرض والسماء .

والحق حين يقول : « لم تكفرون بآيات الله » فهل نفهم من ذلك أن كفرهم بآيات الله هو سترهم آيات الله سترأ أوليا أو أنهم آمنوا بها ، ثم كفروا بها ؟ لنرى ماذا حدث منهم ، لقد كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة ، ومكتوبة في الإنجيل وهم قد آمنوا بها قبل أن يجيء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها . وفي هذا جاء القول الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

(سورة البقرة)

لماذا كفروا به صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه ربح عندهم السلطة الزمنية ، فلم تعد لهم السلطة الزمنية التي كانوا يبيعون فيها الجنة ويبيعون فيها رضوان الله ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم دون النقات لأحكام الله . وسبق أن قلت : إن قريشا قد امتنعت عن قول : « لا إله إلا الله » وهذا الامتناع دليل على أنها فهمت المراد من « لا إله إلا الله » ، فلو كانت مجرد كلمة تقال لقالوها ، لكنهم عرفوا وفهموا أنه لا معبود ولا مطاع ولا مشرع ، ولا مكلف إلا الله .

إن الحق يقول لأهل الكتاب :

﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾

هب أنكم تحبتم في ذواتكم ، وحلتم وزر ضلالكم ، فلماذا تحملون وزر إضلالكم للناس ؟ . كان يكفي أن تحملوا وزر ضلالكم أنتم ، لا أن تحملوا أيضا وزر إضلالكم للناس ؟

إن الحق - سبحانه - قال :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٦٢﴾

(سورة النحل)

إنه سبحانه قال ذلك مع أنه قد قال :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة فاطر)

إن الذي لا يحمل وزرا مع وزره هو الضال الذي لم يُفِضْ غيره ، فهذا يتحمل إثمه فقط . أما الذي يحمل وزر نفسه ، ووزر غيره فهو الضال المضل لغيره ، وهذا يسألهم الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن » .

كأنه يقول : «م ماذا تريدون من الدين الذي يربط العبد بربه ؟ . إنكم لا تريدونه ديناً قيباً ، إنكم تريدونه ديناً معوجاً ، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجاً لغرض ؛ لأن المعوج يطيل المسافة . إن الذي يبرق طريق مستقيم ما الذي يدعوه إلى أن ينحرف عن الطريق المستقيم ليُطِيل على نفسه السبيل ؟ . إن كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضل الطريق المستقيم . أما الذي ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يبغي الغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة ، وقد لا يصل إلى الغاية .

والحق يقول : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً » وساعة نسمع « عوجاً » فإننا قد نسمعها مرة « عوج » بفتح العين . ومرة نسمعها « عوج » بكسر العين . حين نسمعها « عوج » بفتح العين ، فالعُوج هو الشيء الذي له قيام ، كالحائط أو الرمح ، أما « العوج » بكسر العين فهو في المعاني والقيم ، لذلك يقول لهم الحق عن انحرافهم في المعاني والقيم : « تبغونها عوجاً وأنتم شهداء » .

إن الحق يبلغهم : أنتم تبغون الدين عوجاً برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ، إنه جاء مبلغاً بالصدق ، وكنتم تبشرون برسالة محمد ، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون : سيأتى نبي نتبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم . أنتم - يا أهل الكتاب - شهود على صدق هذا الرسول .

لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصي ؛ هم ضلوا وجهدوا أن يُضلوا غيرهم . ويا ليت

ذلك يتم عن جهل ، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم . وبلغت المسألة منهم مبلغ أنهم شهود على الحق . وبرغم ذلك أصروا على الضلال والإضلال . ومعنى « الشهود » ، أنهم عرفوا ما قالوا وراوه رأى العين ، فالشهود هو رؤية شيء تشهده ، وليس شيئا سمعته ، لذلك يذكرهم الحق سبحانه بقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » .

إن الرسالة التي جاء بها محمد مبلغا واضحة ، وهذا مذكور في كتبكم السماوية . فما الذي يجعلكم - يا أهل الكتاب - لا تلتزمون طريق الحق وأنتم شهود ؟ لابد أنكم قد مستكم شبهة إن الله يغفل عن ذلك ، فقال لهم لا : « وما الله بغافل عما تعملون » .

وبعد ذلك يأتي قول الحق سبحانه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقَامِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَرِينَ ﴿١٧﴾

معنى ذلك أن الله نبه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بهم مادمتم أنتم - أيها المؤمنون - على الجادة ، ومادمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين في دينهم ، وأن ينفخوا عوجا ، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم .

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا ، لأن الذين ييغون الأمر عوجا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أن الله غير غافل عما يعملون ، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » .

« إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد إيمانكم كافرين » . الحق يحدد قسما من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تاريخ بنزاهة وصدق وحق ودون تحامل . كأن الحق سبحانه يلفتنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيبسلكون الطريق السوى ، ويحيثون إلى المسلمين أوسلا وجماعات وأفرادا مع الإسلام ؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب . لذلك يقول الحق « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن الحق يؤرخ وهو يسمي الحقيقة ، ويقول سبحانه بعد ذلك :

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ
وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين : « إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ، إن
لذلك قصة ؛ فقد كان اليهود في المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ؛ لأنهم يجيدون
التعامل في المال ، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود
أيضاً التفوق والتميز العلمي ؛ لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة
والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتاباً سواها . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود

هو خبرتهم بالحرب ؛ فلهم فلاح وحصول . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتمييز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والعلم . . بالكتاب وهو تفوق علمي ، ثم خبرتهم بفنون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج . والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التي يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وحّد الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادي . وجاء الاسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة تكراه في بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود في المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجيء الإسلام ، فقالوا فلتنزعج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه « شأس بن قيس » وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمان . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، هيّج ذلك شأس بن قيس وقال : « والله لا بد أن نعيد لها جذعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ماداموا قد اجتمعوا » .

فأرسل فقي من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يسمى يوم « بعث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفقي اليهودي يذكر ويأتى بالشعر الذي قيل في هذا اليوم فهيج حمية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التخاصم واستيقظ التباغض ، وقالوا : « السلاح . . السلاح » وهكذا نجحت المكيدة ، ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهوا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبذعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم !

أى كان من الواجب أن تحجلوا من أنفسكم ؛ لأن رسول الله بينكم ، وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فإذا كانت مواقع كلمات الرسول في نفوس القوم ؟ لقد دفعتهم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخره من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشعال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يسيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن عبيد المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفلات بابا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجهات ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصوريما حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذى دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطيء وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاقتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشئ ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشئ ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا : النزوع السلوكى ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فآلقوا السلاح ، وهدأت مواجهات البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة .

لقد ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هى : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم » . وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم البكاء ثانيا ، وهو أمر حركته المواجهات فيهم ثم تعانقوا أى صححوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والحيرة والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة : فما كان يوم فى الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخره إلا ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بعجوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وجدت الحلية التي تكون المناعة في نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : « ابدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضراً عند كل نزع لشيطان ، أو كيد لعنوا . لقد جعل الحق المناعة ضد فعل الكيد ، ونزع الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله بسخر الكافر حتى في رفعة شأن الإيمان ، فلم يحدث هذه المسألة ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليفول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتقاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوجدت المناعة لغيرها من الأحداث التي تاتي وقد لا يكون الرسول موجوداً .

ولذلك فانت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين . فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام - دون إرادتهم - بمواقفهم الحمقاء ، فمثلاً حين قالوا : سياتى نبي تبعه وتقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذى حدث ؟

إن الأنصار ساعة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذى بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استعلاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعاً للأوس والخزرج على الدخول في الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثراً في تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » نفهم أنه استعظام وتعجب يأتى من الحق . فساعة تسمع : « كيف تكفرون » فذلك أمر عجيب ، لأنه من

المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم .

ويجىء من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يأتى إلا فى علو ، فيقال : « اعتصمت بحبل الإيمان » لأن للإنسان ثقلاً ذاتياً ، هذا الثقل الذائق إن لم يرفعه سواء ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقاً فى الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض . فمن يعتصم بالله ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهوى والسقوط .

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن تتبع ما نُتلى علينا من الآيات ، وما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فيأب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضرورى ، لأنهم كانوا منغمسين فى حماة الجاهلية ، فلا بد أن توجد إشرافة الرسول بينهم حتى تضيء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام ديناً . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى) (١) .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هى العاصم الذى يهتدى إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذى يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يدل إنساناً على الموصول للغاية اسمه هدى . والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعاً ، وجعل بعض الخلق مقهوراً ، وبعض الخلق مخيراً .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات فى الكون ما عدا الإنسان . إلا فى بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضاً ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدى مهمته كما طُلِبَ منه ، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوماً ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك

تعصى الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت : لا ، إنك عاصي ، ولذلك سألحن فلا أمكنك من ركوب ظهري .

هكذا نرى أن كل شيء ماعدا الإنسان مسخر مقهور للغاية المرجوة منه ، وهو خدمة ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذي له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للمخلوق تسخيرا وتسييرا ، وجعل الإجماع في كل الاجناس ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ نَرَأَنَّ اللَّهَ يُسْجِدْ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ
اللَّهُ قُلُوبَهُ مِنْ مُنْكَرٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٨﴾

(سورة الحج)

إن الجمادات الساجدة المسخرة هي : « الشمس والقمر والنجوم » ، والنبات الساجد المسخر هو « الشجر » ، وكذلك « الدواب » فهي ضمن الكائنات التي عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الإنسان فقد قال الحق عنه : « وكثير من الناس » وكثير حق عليه العذاب .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الله الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ ليس التسخير دليلا على قدرة المسخر ، وأن شيئا من خلقه لن يخرج من قدرته ، هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبة بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصى ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبة لله .

هكذا صنف الله المخلوق بين قسم فهري يثبت القدرة ، وقسم اختياري يثبت المحبوبة ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا إذن - لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهي منسجمة مع الإيمان ؟ لأن للشهوة طريقا سطحيا ، وهذا الطريق السطحي يجذب الإنسان كما تجذب النار القراش .

عندما يوقد الإنسان نارًا ما في الخلاء فضوؤها يجذب الفراش ، ويحترق الفراش
بشيران الضوء ؛ فقد جذبته النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه في تلك النار .
والحكمة العربية تقول : « رب نفس عشقت مصرعها » كذلك في الشهوات ، تنزير
الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هي في منهج الله « افعل » ، « لا تفعل » فمن يرد أن ينقذ نفسه من
كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله في « افعل » ، « لا تفعل » . وقد
قلت قديما : إنه من الحق أن يصنع صانع صنعة ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون
الصيانة . والإنسان في حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فها بالنا بالحق مبيحاته بطلاقة
قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صنع الإنسان ، ووضع الحق مبيحاته وتعالى قانون
صيانة صنعه في الإنسان فقال جل وعلا : افعل كذا ولا تفعل كذا ، فمن أراد أن
يعتصم بالحبل المتين فلا يأتي له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم
بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذي خلقه وهو الذي وضع منهجه كقانون لصيانة صنعه ،
وهو القانون الموجز في « افعل ولا تفعل » .

ويقول الحق : « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » وكلمة
الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان في الهواء معلقا في الفراغ ، وهو في
أثناء وجوده في الفراغ فإن ثقله الذاتي هو الذي يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك
الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط والهوى (بضم الهاء وكسر الواو)
ومهمة الشيطان أن يزيّن المعصية بالبريق ، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى
المعصية ، ولذلك يأتي الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا
كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا

أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾

(سورة إبراهيم)

والسلطان كما نعرف نوعان : النوع الأول هو أن يقهر الشيطان الإنسان ،
والشيطان لا قدرة له على ذلك . والنوع الثاني هو أن يقنع الشيطان الإنسان بأن
يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر في هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئاً لا يريده الإنسان . أما
الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلن الشيطان
يوم القيامة : لم يكن لي سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصى الله ، لقد زينت
لك المعصية أيها الإنسان فاستجبت لي .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي » ما معنى
« مصرخكم » ؟ إنها مشتقة من « أصرخ » ، أى سمع صراخك فأخاطبك وأنجذك ،
فمصرخ : منقذ ومنجد ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ،
ولا الإنسان بمستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فتغل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان في الهاوية دون أن يلقيه أحد
فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كأن منهج الله هو
الحبل الممدود إلينا ، فمن يمتصم به ينجو من الهاوية .

وماذا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة ، وسبحانه
يعلم كيف النفس لصاحبها - فلا بد أن يهديننا الله إلى الصراط المستقيم . وبعد ذلك
يقول الحق سبحانه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٧﴾

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بالآية سمعوا كلام أعداء الدين . وحين
تسمع كلمة « اتقوا » فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى ، فعليك أن تجعل
بينك وبينها وقاية ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها .
والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

(من الآية ٤ سورة المائدة)

أى اجعل بينك وبين الله حجابا يقيه من غضبه . وقد يقول قائل : كيف يكون
ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش في معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات
الجمال ، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر
والجبروت وغيرها ، وكذلك النار إنما من جنود صفات جلال الله . فحين يقول
الحق : « اتقوا النار » أو « اتقوا الله » فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق
سبحانه : « اتقوا الله حق تقاته » ماذا تعنى (حق تقاته) ؟ إن كلمة « حق » - كما
نعرف - تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزعزع ، أى لا ينتهى ولا يتذبذب ،
هذا هو الحق .

إذن ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أبها المؤمن إيمانا راسخا لا يفادرك
ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فقطاع الله باتباع المنهج

فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر . وطريق الطاعة يوجد في اتباع المنهج بـ « افعَل » و « لا تفعل » ويُذكر ولا ينسى ، لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التي خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر في كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنسيك النعمة المنعم .

ويشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التي وهبها له الله . ومادمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ولا تكفر بالنعم أي أنك تؤدي حق النعمة ، وكل نعمة يؤدي العبد حقها تعني أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

وقيل في معنى : « حق نقاته » أي أنه لا تأخذك في الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه « حق التقى » ، أي التقى الحق الذي يعتبر تقى بحق وصدق . وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة التغوين)

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : « فاتقوا الله ما استطعتم » ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما في الوسع ، والناس قد تخطئ الفهم لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه . لا ، إن هذا فهم خاطئ ؛ إن قوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم » أي إنك تتقى الله بما كان في استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به . فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو - سبحانه - الذي يخفف . . إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذي يعلم إذا كان الأمر خارجا عن

استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتك فإله هو الذي يخفف عنك . ولذلك فقل الإنسان ألا يستخلم القول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

في غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع ، ثم يبنى التكليف على الوسع . بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذي خلق النفس ، وهو الذي أنزل التكليف لوسع النفس ، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج . إنه سبحانه الذي كلف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفساً إلا وسعها . فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما في وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تأمناً فهو - سبحانه - يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص . مثال ذلك : المريض أو الذي على سفر ، له رخصة الإفطار في رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة .

إذن فإله سبحانه هو الذي علم حدود وسع النفس التي خلقها ، ولذلك لا تقدر وسعك أولاً ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قدّر التكليف أولاً ، وقل : ما دام الحق قد كلف فذلك في الوسع . وفي تذييل الآية الكريمة بقوله : « ولا ثنتين إلا وأنتم مسلمون » نجد أنفسنا أمام شيء عن فعل وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم .

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تمت ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار ؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنك تتعجب ؛ لأن أحداً لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهي عنه : لا تمت ليس في قدرة الإنسان ، ولكن الحال الذي يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، في قدرة الإنسان ؛ لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتي بغير عمل مني ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهي باستطاعتي ، لأن الإسلام يكون باختيارى . صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلماً حتى يصادفك الموت في أى لحظة وأنت مسلم .

إذن . . فقول الله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو نهي عن الفعل الأول وهو ليس باختيارنا . والحال الذي لنا فيه اختيار هو « وأنتم مسلمون » فكيف نوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد فيه ، ولا يعلم أحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأز إلى الأمر الذي لنا فيه اختيار ، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكا بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت في أى لحظة يكون مسلما وكان الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ، لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

وإخفاء الموت عن الإنسان ليس إبهاما كما يظن البعض ، لا ؛ إنه منتهى البيان الواسع ؛ لأن إخفاء الموت ، وميعاده عن الإنسان زمنا وحالا ، وسنا وسببا ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان منا يترقب الموت في أى لحظة ومادام الإنسان مترقبا للموت في أى لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا
حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢٢﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبيه للأوس والخزرج ، وكأنه يقول : اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان لأشياء وبأشياء ليست من الإسلام

في شيء . لكن حين يحىء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تغاضى
إسان بما قبل الإسلام بقوله : « منا كذا . . . » منا كذا . « فهنا يأتي الرد : لا ؛ إن ذلك
قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : « منا خزيمه » فقال واحد من
الخزرج : « منا أبى بن كعب وزيد بن ثابت » فقال واحد من الأوس : « منا حنظلة
ابن الراهب وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة » وخزيمة بن ثابت صحابي جليل جعل
الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ؛ لأن خزيمة صاحب إيمان نوراى .
ونورانية اليقين هدتة إلى الحكم الصواب ؛ فقد اشترى النبى صلى الله عليه وسلم
فرسا من أعراى وذهب ليحضر له الثمن ، ولكن الأعراى أنكر البيع لأن بعض الناس زاده فى ثمن
الفرس دون علم أن الرسول قد اشتراه فنادى الأعراى الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس
فابنته وإلا بيعته .

فقال النبى للرجل : « أأنت قد ابتعت منك » . فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد
لتهز الرجل فرصة أن النبى ابتاع منه دون وجود أحد فى هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمة جالسا
لحظة مطالبته للنبى بشاهد . فقال سيدنا خزيمة : أنا أشهد بأمر رسول الله أنك قد بايعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه : لعل خزيمة رآنا وأنا أبيع الفرس للنبى فسكت الرجل
وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمة . وقال له : « يا خزيمة بم
تشهد ولم تكن معنا ؟ » فقال : أنا أصدقك فى خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟
أعلم أنك لا تقول إلا حقا قد آمنك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول
أن خزيمة نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « من شهد له خزيمة فحسبه »^(١) .

فالأمر الذى يحتاج شاهدين تكفى فيه شهادة خزيمة ، وبذلك أعطى الرسول صلى
الله عليه وسلم الوسام لخزيمة وجعل شهادته شهادة رجلين ، ولتر كيف جمع الله بين
الأوس والخزرج فى جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت :

(١) رواه أبو داود من طريق الزمى عن حمارة بن خزيمة بن ثابت .

فأليت على نفسى ألا أكتب آية إلا إذا وجدتُها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلا آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلا خزيمه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى خزيمه : « من شهد له خزيمه فحسبه » ولنا أن نعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمه من الأوس . لقد جمعها الله فى جمع القرآن ، فنفع الأوسى والخزرجى ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهى أن التفاخر قبل الإسلام كان بخير الإسلام ، لكن ساعة نبىء الإسلام فأى واحد من أى جنس مادام قد أحسن الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسى أن تقول : « منا خزيمه » ؛ فالخزرجى له الفخر بخزيمه أيضا ، وليس للخزرجى أن يقول : « منا زيد بن ثابت » فللاوسى أيضا أن يفخر به ، لأن كلا منهما قد جمعه الله بالأخر فى القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » إن الحرب ظلت مستعرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القيلتين واحد ، هما أخوان لاب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وهذا يدلنا على أن كل نزعة جارحة من الجوارح لا بد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فاليد لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصفعة توجد فى القلب أولا « فألف بين قلوبكم » ، إن الحق سبحانه يقول : « وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » والشفة هى الحافة ، ومرة يقال : « شفا » ، ومرة يقال : « شفة » . لقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع ، فكان الله يقول : لقد نذاركنم بالإسلام ، ولولا الإسلام لموسم فى النار .

ويقول سبحانه : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وهكذا نرى نعمة الإسلام فى الدنيا ، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها فى الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤرقيين بالاختلافات ، وموزعين بالعصبية ، وكل يوم فى شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمة عاجلة فى الدنيا ، والدنيا كما نعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون فى الآخرة وهى دار الجزاء والبقاء .

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿١٤﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِبَنَائِيلِهِ ۖ فَارْسِلُونِ ۝٤٥﴾

إن الرجل الذي فسر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدنا يوسف بعد أمة أي بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة « أمة » على الرجل الجامع لصفات الخير :

﴿ إِنَّ إِلَٰهَ رَبِّكَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿

لأن خصال الخير ليس من الضروري أن تجتمع في واحد ، ولكنها قد تجتمع في عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره منصف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالثة ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصال الخير المكتمل .

وساعة أن تأتي لإنسان ونقول له : ليكن منك شجاع فما معنى ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريبها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا ، أو تقول لآخر : ليكن منك كريم ، أي أخرج من نفسك رجلا كريما .
وقوله الحق سبحانه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، »

هذا القول يعني أن يكون منكم أيها المخاطبون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعني : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكن هناك فيها أعمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، أي أن هذه الآية تطالب كل أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها أمة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذي يأتي المنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهى غيره عن المنكر ، أي أن الإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول : ألا يصنع المنكر ، والثاني : أن ينهى عن المنكر . ولذلك إن جاء نصيح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك بما قاله الشاعر :

خذ بعلمي ولا تركزن إلى عمل

واجن الشار واخل العود للنار

لكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يدخل في زمرة من قال الله فيهم :

﴿ يَتَّبِعِ الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ١

﴿ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ٢

إذن ففوله الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، أى جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة على أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٤ ﴾

(سورة العصر)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح . وبعد ذلك قال الحق : « وتواصوا » ولم يقل « ووصوا » ما معنى « تواصوا » ؟ أى أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موص - بكسر الصاد - حينما نجد من من يضعف أمام معصية ، وكلنا موصى - بفتح الصاد - حين يكون ضعيفا أمام المعصية ؛ فالتواصى يقتضى التفاعل بين جانبيين . . فمرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصى ، وكذلك التواصى بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتى أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم فى وقت ما إلى أن يُصَبَّرَ ، يجد من إخوته من يصبره ، فالأمة كلها مطلوبة : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هكذا نفهم معنى قول الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن المنكر .

ويقول الحق : « وأولئك هم المفلحون » أن كلمة « المفلحون » هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابعة . والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الشجرة نحيثه فى النهاية ، وقد جاء الحق بالسؤال المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر

فيقول : إياك أن تظن أن المشقة التي نصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن النقص الذي تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، فمثلا الإنسان الذي فلق الأرض وأخرج « كيلة » من القمح وبذرهما فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة خمقاء تقول له : إننا لا غلثك إلا أربع « كيلات » من القمح فكيف تأخذ « كيلة » لترميها في الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن « الكيلة » التي أخذها الزوج هي التي ستأتي بعدد من الأرادب من القمح . فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذي يشقى بالحراث وبالحري ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتغوص أقدامه في الطين والمياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بغلته . أما غيره الذي لم يشق بالحراث ولم تعل جبهته حبات العرق ، فبأن في هذا اليوم وهو حزين ونادم-فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنها أمور ترتب لك النفع أي تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين .

وقلنا من قبل : إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمنى لكل الناس ألا يسرقوا شيئا من هذا الإنسان ، وهنا نجد الأمان ينتشر بالإيمان بين الجميع .

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد عيونه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمي الله لك محارمك من عيون الناس ، لقد قيد التكليف حرية الآخرين من أجلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأنت واحد . .

إذن فيجب أن نذكر أن كل تكليف يعطى صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة ، ونعطيك سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، فلا تنظر إلى ما أخذه التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل : إن التكليف قد نقص حركتي لنفسي ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٥﴾

وهذا القول الحكيم ينهى عن اتباع الهوى الذى يؤدى إلى الفرقة . برغم وضوح آيات الحق سبحانه لهم ، لأن هؤلاء الذين يتبعون الهوى من بعد وضوح قضية الحق سيصلهم الله النار ، ولهم عظيم العذاب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٦﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات في الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة ، لأن المادة الملونة للبشرة في جسده موجودة بقوة ، لتعطيه اللون المناسب لمعيشة ظروف البيئة ، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافى من المادة الملونة ، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة .

إذن فالسواد في الدنيا لصالح المسود ، أما في هذه الآية ، فهي تتحدث عما سوف نراه في الآخرة حيث يكون السواد والبيض مختلفين ، تماماً كما تبدل الأرض غير

الأرض والسموات غير السموات ، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض ، انه لن يكون سواداً أو بياضاً من أجل البيئات . ولذلك مستعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسان كانا أسود في الدنيا ، ونجدّه أبيض في الآخر ، وتجد إنساناً آخر كان لونه أبيض في الدنيا ثم صار أسود في الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود في الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطى كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمدّه باللون الذي يقويه على البيئة التي يحيا فيها . وفي مجالنا البشرى ، نحن نعطي المصل لآى إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى نحمله من شر مرض في المكان الذي يذهب إليه ، كذلك خلّق الله في الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان في تكوينه المناعة التي تحفظه ؛ فالله لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة . وهذه المسألة ستبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتبارى ، بدليل أنك ترى واحداً أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه فترة ، وترى واحداً آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، ويريق الصلاح بشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن نديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ (٢٢) إِنَّ رَبَّهَا نَاصِرَةٌ ۖ (٢٣) ﴾

(سورة القيامة)

أى أن ما في داخل النفس إنما ينضج على قالب الإنسان ؛ وتظهره ملامحه ، فقد يكون الأسود مضىء الوجه بالبشر والإشراق والتجل بالجاهلية الأسيرة ، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح .

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة إنسان في الدنيا ، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواء مع البيئة ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع أحد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ لا ؛ لأن كل شيء معد لمهمته .

ومثال آخر : عندما يأتى عامل البناء ليثقى عمود الحديد المستقيم ؛ ويلويه ، فهل

يقال : إن هذا الإنسان قد عرج الحديد ؟ لا ، إنه يريد أن يشكل عود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة . وكذلك الاسوداد أو الابيضاض في الدنيا ، إنما اراده الله ليتناسب مع ظروف الحياة في البيئة ، أما في الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت ، والأرض لن تكون هي الأرض والسماء لن تكون هي السماء ؛ فالخلق يقول :

﴿ يَوْمَ نَبْدِلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءَ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(سورة إبراهيم)

فالمؤمن حين يرى ما أعدّه الله له من النعيم المقيم يقابل عطاء الله باستشراق نفس وسرور وانيساط ، أما الذي يرى مقعده من النار فلا بد أن يكون مظلّم الوجه . والحق سبحانه يوجه سؤالاً هؤلاء : « أكفرتم بعد إيمانكم » أو كان هذا أمر يفاجئ من كان يعرف هؤلاء الناس في الدنيا ؛ فقد رأوهم في الدنيا بيض الوجوه ، ولكن برونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قفرة ، فيقولون لهم : « أكفرتم بعد إيمانكم » ؟ . وكان ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هي سماتهم وعلامتهم في الآخرة أي ما الذي صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعنى أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان . أو يكون « أكفرتم بعد إيمانكم » يجعلنا نقول : البعدية هنا لابد أن يكون لها قبلية : ألم يأخذ الله على خلقه عهداً في عالم الذر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

إنه إقرار إيمان موجود في عالم الذر ، فمن جاء في الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ، بعد أن جاءكم به البشارات التي

عرفتموها ، وقرأتموها في التوراة والإنجيل ، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة ، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩)

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فهذا القول ، إما أن يكون في المرتدين ، وإما أن يكون الكفر في واقع الدنيا بعد الإيمان في عالم النذر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارة في التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيئا ، كالفرق التي خرجت عن الإسلام ، وهي تدعى الانسحاب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحمل كل هذا ، وعندما نتمعن النظر إلى النص القرآني نجد أنه يستوعب كل هذه المعاني .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط : « أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهذا قول يخص بالكفار فقط بذوقون العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعني أن المؤمن بإيمانه سيال ثواب عمله . يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٠٧)

ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاء المؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة :

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأعراف)

ومرة أخرى يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ما الفرق بين الاثنين ؟ إن الناس في العبادة صنفان : منهم من يعبد الله ويريد
نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح . وآخر يعبد الله ؛ لأن
الله يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه
الله .

وما الفرق بين الجنة والرحمة ؟ إن الجنة مخلوقة لله ، فهي باقية بإبقاء الله لها ،
ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضامن كاف ، فمن يرى الله فيه حسن العبادة
لذاته - سبحانه - يضعه الله في الرحمة .

وقلنا من قبل : إن هناك جنة من الجنات اسمها « عليون » ليس فيها متعة من
المتع التي سمعنا عنها في الجنة ، كلحم الطير وغير ذلك ، وليس فيها إلا أن ترى
الله . ومادام العبد لا يأكل عن جوع في الآخرة ، فما الأفضل له ، جنة المتع ، أو
متعة رؤية وجه الله ؟

أنتمتع بالنعمة أم بالمنعم ؟ لا جدال أن التمتع برؤية المنعم أرقى وأسمى
من التمتع بالمتع الأخرى . والدقة الأدائية في القرآن توضح لنا أن الرحمة تكتنف
هؤلاء العباد الصالحين ، وتحيط بهم ، إنهم ظرف للرحمة ودخلون فيها فلا تمسهم
الرحمة فقط ، ولكن تحيط بهم ، وهم خالدون فيها ، ويؤكدنا الحق بظرفية جديدة
بقوله : هم فيها خالدون . فكان هناك رحمة يُدخل فيها العباد ، ثم يطمئتنا على أنها
لا تنتزع منا أبدا . قد فيها « الثانية للمخلود » ، وفي « الأولى للدخول في الرحمة » .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٨)

إن آيات الله هي حججه وبراهينه وجزاءاته ، فمن اسود وجهه يوم القيامة نال العذاب ، ومن ابيض وجهه نال الرحمة وهو فيها خالد . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فما الذى يجعل إنسانا لا يخبر بالحق ؟ لابد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان ، فلأن الحق يُنصب ، فهو يخبر بغير الحق . لكن هل هناك ما يتعصب الخائف ؟ لا ؛ فسبحانه وتعالى منزّه عن ذلك وعن كل نقص أو عيب إذن فلا بد ألا يقول إلا الحق ، فلا شيء خارج عن ملكه بعد ذلك . يقول سبحانه : « وما الله يريد ظلما للعالمين » . إنه سبحانه ينفي الظلم عن نفسه كما قال :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

والحق لا يريد الظلم على إحلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد . وكيف يأن الظلم ؟ إن مظاهر الظلم هي - كما نعرف - أن تأخذ إنسانا بغير جرم . . هذا ظلم ، أو أن تعاقب إنسانا فوق الجرم . . هذا ظلم . أو ألا تعطى إنسانا مستوى إحسانه . . هذا ظلم . وماذا يفعل من يقوم بالظلم ؟ إنه يريد أن يعود الأمر بالنفع له ، فإن كان يريد أخذ إنسان بغير جرم فهو يفعل ذلك ليروى حقدا وغلا في نفسه ، وقد يلفق لإنسان جرما ؛ لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده في أى مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلا ، أو يضعه في السجن حتى لا يفضحه .

إذن لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يحقق منفعة أو يدفع عن نفسه ضررا ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضررا يقع من خلقه عليه ؛ إنه منزّه عن ذلك ؛ فهو القاهر فوق عباده . والحديث القدسي يقول : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى . وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » (١) .

(١) رواه أحمد في المسند ، ورواه مسلم في البر .

والظالم من البشر جاهل . لماذا ؟ لأنه قَوَّى الذي ظلمه ، ولم يضعفه ، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه ، فنقول له : أنت غبي ، قليل الذكاء ، لأنك قويته على نفسك وفعلت عكس ما تريد . ولنوضح ذلك - والله المثل الأعلى - نحن جميعا عيال الله ، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالنا ، إن الواحد منا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه فقلَّب الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يرضى ابنه المظلوم . إذن فالولد الظالم ضرر أخاه ضررا يناسب طفوخته ، ولكنه أعطاه نفعا يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

ومادنا جميعا عيال الله فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه ؟ لا بد أن الحق سيضمحل المظلوم برعايته ، وهكذا بقوى الظالم المظلوم ، والظالم بذلك يعلن عن غيابه ، فلو كان ذكيا ، لما ظلم ، ولضنَّ على عدوه أن يظلمه ، ولقال : إنه لا يستاهل أن أظلمه ، لأنه عن طريق ظلمي له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهي أن يجعله في كنفه ورعايته مباشرة .

وقد نجد واحدا يظلم من أجل نفع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرذ أبدا عن خلقه . ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرذ عن خلقك ، ولكنك شرذت من المخلوق وداريت نفسك ، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك ، لكن الخالق قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . وكان الحق سبحانه يطمئنا بأن تنام ملء جفوننا لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم .

وما الله يريد ظلما للعالمين ، لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق ، أو إرادة الضرر بغير جرم ، والله غني عن ذلك ؛ ولذلك نجد الحق يؤكد غناه عن الخلق وأنه مالك للكون كله فيقول :

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ

تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٦٧﴾

إنه مالك الملك ، كل شيء له وبه وملكه ، وإليه تُرجع كل أمر . ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد في بعضها (تُرْجِعُ الأمور) بفتح التاء بالبناء للفاعل ، وفي قراءة أخرى : « تُرْجِعُ الأمور » بضم التاء بالبناء للمفعول ، وكذلك (ترجعون) تأتي أيضا بضم التاء وفتحها ، وكلها - كما قلنا - قراءات من عند الله .

وعندما يقول الحق : « وإليه تُرجعون » بفتح التاء فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين ، لأن المؤمن يُحِبُّ ويرغب أن يصل إلى الآخرة ، لأن عمله طيب في الدنيا ، فكانه يجرى ويسارع إلى الآخرة ، ومرة يقول تعالى : « وإليه تُرجعون » بضم التاء . وهذا ينطبق على الكافر أو العاصي . إن كلا منها يحاول ألا يذهب إلى الآخرة ، لكن المسألة ليست بإرادته ، إنه مفهور على العودة إلى الآخرة ولذلك نجد التعبير القرآني :

﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دُخَا ۖ ﴾ (١٢)

(سورة الطور)

هناك من يدفعهم إلى النار دفعا . وفي حياتنا - والله المثل الأعلى - نجد الشرطي يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن . . . ذلك هو الدفع . وهكذا يكون قول الحق : « وإليه تُرجعون » بضم التاء وفتح الجيم ، أي أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية . أما المؤمن الواصل فهو يهول إلى آخرته مشتاقا لوجه ربه .

وعندما نقرأ « وإلى الله تُرجع الأمور » . قد يقول قائل : ومتى خرجت الأمور منه حتى ترجع إليه ؟ ونقول : حين خلق الله الدنيا ، خلقها بقهر تسميري لنفع الإنسان ، وجعل فيها أشياء بالأسباب ، فإن فعل الإنسان السبب فإنه يأخذ السبب - بفتح الباء - المشددة ، فالشمس تشرق علينا جميعا ، والضوء والدفء والحرارة ، هي - بأمر الله - للمؤمن والكافر معا ، ولم يصدر الله لها أمرا أن تختص المؤمن وحده بمزاياها ، والهواء لا يمر على المؤمن وحده ، إنما يمر على المؤمن والكافر ، وكذلك الماء ، والأرض يزرعها الكافر فيأخذ منها الثمار ، ويزرعها المؤمن كذلك .

إذن ففي الكون أشياء تسميرية ، وهي التي لا تدخل فيها طاقة الإنسان ، وهناك

أشياء سببية ، فإن فعلت السبب يأت لك المسبب ، والله قد جعل الأسباب للمؤمن والكافر . وعندما يملكك الله بعض الخلق أسباب الخلق فهو القيوم فوق الجميع ، تكن في الآخرة ، فلا أسباب ولا مسببات ، ولذلك يكون الأمر له وحده ، اقرأوا جيدا :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

إن في الدنيا أناسا - بإرادة الله - تملك أسبابا ، وتملك عبيدا ، وتملك سلطانا ، لأن الدنيا هي دنيا الأسباب . أما في الآخرة فلا مجال لذلك . لقد بدأت الدنيا بأسبابها بئس منه ، ورجعت بيته إليه ولمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، ومن يعتز بالسببية تقول له : كن أسير السببية لو كنت تستطيع . ومن يعتز بالقوة لأنها - ظاهرا - سبب للحركة ، تقول له : احتفظ بقوتك إن كنت قادرا . ومن يعتز بالملك تقول له : احتفظ بالملك لو كنت تستطيع . ولا أحد يقادر على أن يحتفظ بأي شيء ، فكل شيء مرده إلى الله ، وإن كان في ظاهر الأمر أن بعض الأشياء لك الآن ، وفي الآخرة لله يكون كل أمر ، ويرجع إليه كل شيء ، لقد بدأت به ، ورجعت إليه ، ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ
خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ
الْفَاسِقُونَ ﴾

هذه الخيرية لها مواصفات وعناصر : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله . فإن تخلف عنصر من هذه العناصر ، انحلت عنكم الخيرية ، فالخيرية لكم بأشياء هي : أمر بالمعروف . نهي عن المنكر . إيمان بالله .

وساعة تسمع كلمة « معروف » وه منكر ، فإنك تجد أن اللفظ موضوع في المعنى الصحيح ، فـ « المعروف » هو ما يتعارف الناس عليه ويتفخرون به ، وينسب كل إنسان أن يعرفه الآخرون عنه . وه المنكر هو الذي ينكره الناس ويخجلون منه ، فمظاهر الخير يجب كل إنسان أن يعرفها الآخرون عنه ، ومظاهر الشر ينكرها كل إنسان .

إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المنحرف ، ومظاهر المنكر مذمومة ومكروهة حتى عند المنحرف . فاللص نفسه عندما يوجد في مجلس لا يعرفه فيه أحد ، ويسمع أن فلاناً قد سرق فإنه يعلن استنكاره لفعل اللص ، إنه أمر منكر ، حتى وإن كان هو يفعله . وهكذا تعرف أن « المعروف » وه المنكر ، يخضعان لتقدير الفطرة . والفطرة السليمة تأني للامور الحسنة ، وتجعلها متعارفاً عليها بين الناس ، وتنكر الفطرة السليمة الامور المنكرة ، حتى ممن يفعلها .

ويورد الله مسألة الإيمان بالله من بعد الأمر بالمعروف والنهي المنكر ، لماذا ؟ لانه من الجائز أن يوجد إنسان له صفات الأريحية والإنسانية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات ، ويقوم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين سواء كانت صحية أو اقتصادية ، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كل ما فعله حابطاً ولا يُعترف له بشيء . لأنه لم يفعل ذلك في إطار الإيمان بالله ، ولذلك فلا تظن أن الذي يصنع الخيرات دون إيمان بالله له أجر عند الله ، فانه يجازى من كان على الإيمان به ، وأن يكون الله في بال العبد ساعة يصنع الخير . فمن صنع خيراً من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له ، ومادام قد صنع ذلك من أجل أن يقال عنه ذلك فقد قيل ، وهو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ،

ولكنك قائلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم لي قال : عالم ، وقرأت القرآن لي قال : قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت في سبيل تحب أن يتفق فيها إلا أنفقت فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت لي قال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمره فسحب على وجهه ثم ألقي في النار^(١) .

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازي في الآخرة من كان الله في ياله ساعة أن عمل . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(سورة فصلت)

إن المؤمن يفعل العمل الصالح ، ويعلم أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمين ، إنه لا يفعل الخير ، لأنه شيعي ، أو وجودي ، أو إنساني إلخ ، قمها صنع إنسان من الخير ، وترك الاعتراف بالله فخبانة الكفر تفسد كل عمل . لأنه جحد وأنكر خالقه وكفر به ، والذي يعمل خيرا من أجل أحد فليقل من هذا الأحد جزاء هذا العمل .

وهنا في هذه الآية ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وإيمان بالله . ولكن ما الذي يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفًا ؟ إنه حرصهم على الجاه الزائف ، فلما جاء الإسلام ، ظن أهل الجاه في الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة والمكانة والمنافع التي كانوا يحصلون عليها ، وكان من حماقة بعضهم أن باعوا الجنة على الأرض وخافوا على المركز والجاه والمنافع ، وكان ذلك من قلة الفطنة ، فالحق يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة في ضوء الإيمان بالله ، فلا تجارة بالدين ، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين ، أجر في الدنيا ، وأجر في الآخرة ، أو أجر على إيمانهم بنبيهم ، وأجر آخر لإيمانهم برسول الله ، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا ؟ لا ، إن بعضهم قد آمن ، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ لهم تاريخاً حقيقياً فيقول سبحانه : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » وكان القياس أن يأتي وصف بعضهم بالإيمان ، وأن يكون غيرهم من أبناء ملتهم كافرين ، لأن الإيمان يقابله الكفر ، لكن الحق يحدد المعنى المناسب لفعلهم فيقول : « وأكثرهم الفاسقون » .

إنه الحق سبحانه وتعالى الذي يتكلم فيورد كل كلمة بمنتهى الدقة ، فهناك فرق بين أن تكفر وليس عندك مقدمات الإيمان وأدلتك ، وأن تكفر وأنت تعرف مقدمات الإيمان كقراءة التوراة والإنجيل .

لقد قرأ أهل الكتاب التوراة والإنجيل وراوا الآيات البينات وعرفوا البشارات ؛ لذلك فهم عندما كفروا برسول الله ، فسقوا أيضاً مع الكفر . إن الذين كفروا برسول الله من أهل الكتاب هم فاسقون حتى في كفرهم ، لأن مقتضى معرفتهم للبشارات والآيات أن يعلنوا الإيمان برسالة رسول الله ، فالواحد منهم ليس كافراً عادياً ، بل هو فاسق حتى في الكفر ؛ لأنه عرف الحق ، ثم خرج وفسق عنه .

ومادام الحق قد قال : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » إذن ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق ؟ سيتريص الفاسقون وهم الأكثرية في اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليوقعوا بهم الأذى والضرر ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ

يُولُوكُمْ أَذًى بَارِئُكُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٣١﴾

لكن الحق سبحانه يطمئن هذه الأقلية من إضرار الأكثرية بهم فيقول : « لن يضروكم إلا أذى » . أى يا أيها الأقلية التي آمنت من أهل الكتاب - مثل عبدالله بن سلام الذي أسلم وترك اليهودية - إياكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذاب عليكم ؟ فالحق - سبحانه - يعلن أن محاولة الأكثرية لإتزان الضرر بالأقلية التي آمنت منهم لن يتجاوز الأذى .

ما هو الضرر ؟ وما هو الأذى ؟

إن الأذى هو الحدث الذي يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهى ، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه ، وتكون له آثار من بعد ذلك ، فعندما يصفع الإنسان إنسانا آخر صنفعة بسيطة فالصنفعة البسيطة تؤلم ، وألمها يذهب مباشرة ، لكن إن كانت الصنفعة قوية وتتسبب في كدمات وتورم فهذا هو الضرر . إذن فالأذى يؤلم ساعة يُباشَرُ الفعل فقط ، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهزاء ، فالفاسق قد يستهزئ بالذى آمن ، فينطق بكلمة الكفر أو الفُجْر ، هذه الكلمة ليس لها ضرر في ذات المؤمن ولكنها تؤذى سمعه . إن الحق سبحانه يطمئن المؤمنين على أن أهل الكفر لن يضروا المؤمنين إلا أذى ، وهذا أقصى ما في استطاعتهم ، وليس لهذا الأذى أثر .

إذن فقول الحق : « لن يضروكم إلا أذى » يعنى أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منكم أبدا اللهم إلا الاستهزاء أو الغمز واللمز ، أو إشارة بحركة تؤذى شعور المؤمن ، أو نجس الكفر ، ونعظمه أو بنطق كلمة عهر أو فجر لا يوافق عليها الدين ، هذا أقصى ما يستطيعه أهل الفسق ، وهم لا يملكون الضرر لأهل الإيمان . وبعد ذلك نرى أن واقع الأمر قد سار على هذا المنوال مع الدعوة المحمدية ومع جنود سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أطلقها الله كلمة : « لن يضروكم إلا أذى » فصارت الكلمة قانونا . فقد وقعت الوقائع بين جند رسول الله وأهل الفسق ، وثبت أن أهل الفسق لم يستطيعوا ضرر أهل الإيمان إلا أذى .

ولننظر إلى ما حدث لبني قينقاع ، ولما حدث لبني قريظة ، ولما حدث لبني النضير ، ولما حدث لليهود خيبر ، هل ضروا المؤمنين إلا أذى ؟ لقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغرارا لا علم لهم بالحرب فانتصرت عليهم ، فإذا أنت حاربتنا فستعرف من الرجال ، وكان ذلك هو مجرد كلام باللسان .

إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعا ، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا أرادوا أن يرتفعوا عن الأذى إلى الضرر الحقيقي فلم يمكنهم الله ؛ لأن الحق يقول : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون » ، فإن أراد أهل الفسق أن يُصعدوا الأذى للمؤمنين ليقعوا ضرا حقيقيا ، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين ، فهزيمتهم أمر لا مخلص منه . ونحن نعرف في اللغة أن هناك ما نسميه « الشرط » وما نسميه « الجواب » فـ « إن » حرف شرط تجزم فعل الشرط وجوابه فإن كان الفعل من الأفعال الخمسة فإننا نحذف النون ، ولذلك نجد القول الحق : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار » .

إن « يقاتلوكم » فعل شرط محذوف من النون . و« يولوكم الأدبار » أصلها يولونكم الأدبار . وهي جواب شرط حذفت منه النون ، وعندما يأتي العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو بالجرم ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجرم !! لكن الحق يعطف بالرفع فيأتي قوله : « ثم لا ينصرون » . إنها كسرة إنحرابية تجعل الذهن العبري يلتفت إلى أن هناك أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت « النون » ؟

هنا نقف وقفة فلتنتطق الآية بكلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا . وهذا القول يكون تاريخيا لمعركة واحدة ، لكن ما الذي سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق ؟ وتكون الإجابة هي : « ثم لا ينصرون » إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا ينصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على الشرط ، فعلة عدم النصر ، ليست القتال ، ولكنها الكفر .

وإذا دققنا الفهم في العبارة حروفا - بعد أن دققنا فيها الفهم جملا - لوجدنا معنى جديدا ، فقد بطن إنسان أن القول كان يفترض أن يتأتى على نحو مغاير ، هو « يولوكم الأدبار فلا ينصرون » لأن الذي يأتي بعد الـ « فاء » يعطى أنهم لا ينصرون عليكم في بداية عهدكم ، وهذا ما تفيد الفاء لأنها للترتيب والتعقيب . لكن الحق أورد حرف « ثم » وهو يفيد التراخي ، وهذا يعني أنهم لا ينصرون عليكم أيها

المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمركة يَرُدُّونَ بها على توليهم الأديار . إنه حكم تأييدي ، لأن « ثم » تأتي للتعقيب مع التراخي ، والفاء تأتي للتعقيب المباشر بدون تراخ . ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتي :

﴿ ثُمَّ أَمَّا هُوَ فَاَقْبِرْ ۖ ﴾ (٢١)

(سورة عبس)

لأن دخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرُّهُ ﴾ (٢٢)

(سورة عبس)

فإذا كان هناك تعقيب بعد مدة زمنية فالحق يأتي بـ « ثم » ، وإذا كان هناك تعقيب فوري بلا مدة يأتي الحق بـ « ف » . والتعقيب في الآية التي نتناولها يأتي بعد « ثم » ، وكان هذا حكم مستمر من الحق بأن أهل الفسق لن ينتصروا على أهل الإيمان ، ولو بعد انتهاء المعركة القائمة الآن بينهم ، إنها هزيمة بحكم نهائي ، هذا هو القول الفصل : « ثم لا يُنصرون » وهو أشد وقعا لما لو جاء « لا ينتصرون » لماذا ؟ لأن من الممكن ألا ينتصر أهل الكفر بذواتهم ، ولكن الإيضاح يؤكد أنهم - أهل الكفر - لا ينتصرون لا بذواتهم ، ولا يُنصرون بغيرهم أيضا .

إن « ثم لا ينصرون » قضية دائمة فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط ، ولكنها ستظل إلى أبد الأبد .

ومن السطحية في الفهم أن نقول : إن الآية كانت تتطلب أن يكون القول « ثم لا ينصروا » لأن الأعراب يقتضي ذلك . لكن المعنى الثلاث بالتكلم وهو الحق سبحانه وتعالى الذي يخطئ الضمان والاطمئنان للأمة المسلمة أمام خصومها لا بد أن يقول : « ثم لا ينصرون » وهي أكثر دقة حتى من « لا ينتصرون » لأن « ينتصرون » فيها مدخلية الأسباب منهم ، أما « ثم لا ينصرون » فهي تعني أن لا نصر لهم أبداً ، حتى وإن تعصب لأهل الفسق قوم غيرهم وحاولوا أن ينصروهم فلن يستطيعوا ذلك .

فإن رأيتم - أيها المسلمون - نصرا للكافرين عليكم منهم أو يتعصب قوم لهم

فاعلموا أنكم دخلتم معهم على غير منهج الله . وقد يأتي إنسان ويقول : كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ؟ ونقول : هل نحن نتبع الآن منهج وروح الإسلام ؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان ؟ هل نحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك ؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية ؟

لا ، لقد انتهينا إلى كل شيء إلا الإسلام . قدمنا الانتهاء لعصبية وقومية وعرقية على الإيمان فكيف نطلب نصرا من الله ؟ لا يحق لنا أن نطلب نصرة الله إلا إذا دخلنا المعركة ونحن من جند الله . والهزيمة تحدث عندما لا نكون جنداً لله : لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده فقال :

﴿ وَإِنْ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٦٨)

(سورة الصافات)

لإذا لم نغلب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله . . ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١٦٩)

ونحن نستخدم كلمة « ضرب » في النقود ، عندما نقول : ضرب هذا الجنيه في مصر ، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالب من مادة أكثر صلابة ، من المادة التي يصنع منها النقد ويرسم فيها الحفريات التي تبرز الكتابة والصورة على وجهي الجنيه ،

ثم يصب المادة في ذلك القالب ، وتخضع للقالب فتبرز الكثائية والصور ، ولا تتأني المادة على القالب . كأن « ضُرب » معناها « ألزم » بالبناء للمجهول فيها ، وكان المادة المصنوعة تَلَزَمُ القالب الذي تصب فيه ولا تتأني عليه ولا يمكن أن تتشكل إلا به .

إذن فالضرب معناه الإلزام والقصر على الفعل . وعندما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة » أى لزمتهم الذلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا ، كما لا يستطيع المعدن المضروب نقدا أن يتفك عن القالب الذى صك عليه ، وكأن الذلة قبة ضربت عليهم ، وقالب لهم ، وقول الحق : « أينما ثقفوا » تفيد أنهم إذلاء أينما وجدوا في أى مكان . ولكن هناك استثناء لذلك ، ماهو ؟

إنه قول الحق : « إلا يحبل من الله وحبل من الناس » إنهم لا يعانون من الذلة في حالة وجود عهد من الله أو عهد من أناس أقرباء أن يقدموا لهم الحماية . فلما كانوا في عهد الله أولا وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأعطاهم العهد ، فكانوا آمنين ، ولما خانوا العهد ، ولم يُوفوا به ؛ ماذا حدث ؟ ضربت عليهم الذلة مرة أخرى .

إذن لقد كانوا في عهد الله آمنين لكنهم خانوا العهد ، وانقطع حبل الله عنهم ، فهيجوا الهبة التي عرفناها ونزل بهم ما نزل ، وهو ما حدث لبني قينقاع ولبنى النضير وبني قريظة ويهود خيبر .

إذن فهم قبل ذلك كانوا في عهد مع الله . وأنتم تعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما نزل المدينة بنى المسجد وعقد العهد بينه وبين اليهود وعاشوا في اطمئنان إلى أن خانوا العهد ، ف ضربت عليهم الذلة . وطردوا من المدينة ، كما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

لقد أخذوا العهد من الله من خلال من له الولاية على الناس ، فالرسول في عهده كان قائما على أمر المسلمين ، وكذلك يكون الأمر معهم في ظل القائم على أمر الإسلام ، ويحدث هذا عندما تسير الأمور بمنهج الإسلام .

أما عن حبل الناس فذلك لأنهم لا يملكون أي عزة ذاتية ، إنهم دائماً في ذلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحيل من الله ، أو من جانب حماية من الناس . ونحن نراهم على هذا الحال في حياتنا المعاصرة ، لا بد لهم من العيش في كنف أحد ؛ لذلك فعندما حاربنا « إسرائيل » في حرب أكتوبر ، انتصرنا عليهم إلى أن تدخلت أمريكا بشقلها العسكري . فقال رئيس الدولة المصري : « لا جَلْدُ لي أن أحارب أمريكا » .

إذن لو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لانتهت قوتهم ؛ فهم بلا عزة ذاتية ، وتكون لهم عزة لو كانوا في جانب حبل من الله ، أو حبل من الناس . يقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك : « وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » ولنا أن نلاحظ أن الذلة لها استثناء ، فهم يتألون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس ، أما المسكنة ، فلا استثناء فيها ، وقد قال الحق عنهم في موضع آخر في القرآن الكريم :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

لأن المسكنة أمر ذاتي في النفس ، إنهم مساكين بأمر من الله ، أما الذلة فقد يأتي لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم ؛ فالذلة أمر من خارج ، أما المسكنة فهي في ذاتهم ، وعندما نكون المسكنة ذاتية ، فلا إنقاذ لهم منها ؛ لأنه لا حبل من الله بأنهم فينجيهم منها ، ولا حبل من الناس يعصمهم من آثارها . ويقول الحق : « وباءوا بغضب من الله » وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الحق قد قطعهم في الأرض ؟ ولنقرأ قول الله :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

المكان الوحيد الذي أوهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجزيرة العربية في يثرب ، واستقروا قليلا ، وصارت لهم سيادة علمية ؛ لأنهم أهل كتاب ، وصارت لهم سيادة اقتصادية ، وكذلك سيادة حربية ، وهذا المكان الذي أوهم من الشتات في الأرض هو المكان نفسه الذي تمردوا عليه . لقد كان السبب الذي من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يمجّدونه مكتوبا عندهم في التوراة ؛ ففي التوراة

جاء ما يفيد أن نبيا سيأتي في هذا المكان ولا بد أن يتبعوه كالميثاق الذي قلنا عليه من قبل :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كَنْبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهذا الميثاق يقضى بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التي بُعثوا إليها ، وأن يبلغ أهل الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولا قادمًا من عند الله بالنتيج الكامل . واليهود - لم يأتوا إلى يثرب إلا على أمل أن يتلقفوا النبي المنتظر ليؤمنوا به ، ومن بعد ذلك يكونون حريبا على الكافرين بالله ، لكن ما الذي حدث ؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم في قوله :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فماذا بعد أن باموا بغضب من الله . وبعد أن ختم الله قلوبهم بالمسكنة ؟ وما السبب ؟ تكون الإجابة من الحق سبحانه : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق » لقد أرسل الله لهم آيات عجيبة ولكنهم كفروا بها ، تلك الآيات التي جاءنا ذكر منها في قوله الحق :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِنْ مَّوْطِنَاتِكُمْ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

كثير من الآيات أرسلها الحق لئلا يضل إسرائيل ، منها ما جاء في قوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ تَبَيْتِكُمْ فَيُفَوِّرَ وَادُّوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكنهم تولوا عن الإيمان وأمامهم ضرب موسى عليه السلام الحجر بالعصا
فانفجرت منه عيون المياه ليشربوا .

﴿ وَإِذْ أَسْنَقَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ
عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ انَّاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

وبرغم ذلك فقد قاموا بقتل الأنبياء بغير حق . وادعوا الكذب على أنبيائهم
وقتلوهم ، وفي شأنهم يقول الحق : « ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » ، كَانَ الْعَصِيانَ
سَبِيًّا لِأَن تَضْرِبَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ ، وَأَن يَبْرُءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَأَن تَضْرِبَ عَلَيْهِمُ
الْمَسْكَنَةُ ، وَكُلَّ ذَلِكَ نَاشِئٌ مِنْ قَعْلِهِمْ . وهناك فرق بين أن يبدأهم الله بفعل ، وبين
أن يعاقبهم الله على فعل ، وحتى نفهم ذلك فلنقرأ قوله الحق :

﴿ فِظْلِهِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ كَثِيرًا ۝ ١١٧ ﴾

(سورة النساء)

لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم ، لأن معنى تحريم الطيبات أن
الله حرمهم متعة في طيب ، وذلك لأنهم استحلوا متعة في غير طيب ؛ لأن مرادات
الشارع تأتي على عكس مرادات الخارجين عن أمر الشارع . وكما قلنا من قبل : إنَّ
الحق سبحانه وتعالى بؤرخ للحق وللواقع ولا يشملهم كلهم بحديث يجمعهم جميعا ،
فقد كان منهم أناس تراودهم فكرة الإيمان بالرسول ، وفكرة الإيمان بالقرآن ، ومنهم
من آمن فعلا ؛ لذلك كان من عدل الله أن يفصل بين الذين يفكرون في الإيمان
والمصرين على الكفر . لذلك يقول سبحانه :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ
آيَاتِ اللَّهِ ، إِنَّاءَ الْيَتْلِي وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ ١١٢ ﴾

وهذا ما حدث بالفعل ، لكن أى آيات لله كانوا يتلونها ؟ إنها الآيات المهمة ، آيات القرآن ولماذا يقول الحق : « وهم يسجدون » وهل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود ؟ حتى نعرف تفسير ذلك لابد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلون العتمة ، أى الصلاة فى الليل ، وحتى يعطيهم الله السعة الإسلامية قال عنهم : « يسجدون » ويُعرفهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة ، - العشاء - وهى صلاة المسلمين ، وماداموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون ، إذن فهم مسلمون أو نفهم من قوله : « وهم يسجدون » أن الصلاة عنوان الخضوع ، والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة . وماداموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله أثناء الليل وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل . ونعرف أن من حسن العبادة فى الإسلام ، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلاً ، وصلاة التهجد ، وهذه فى مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

وه أثناء « جمع » إن « مثلها مثل » أمعاء « جمع » معنى « .. وه الأثناء » هى مجموع الأوقات فى الليل ، وليست فى « إن » واحد . فهناك مؤمن يقرأ القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن فى وقت آخر ، وكان المؤمن ينقطع الليل فى قراءة للقرآن ، والذي يدخل مع ربه فى مقام الإحسان ، فهو لا يصل فقط صلاة العتمة وهى ستأخذ « إن » واحداً ، أى وقتاً واحداً ، ولكنه عندما يصل فى أثناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة ، وزاد عن المفترض عليه ، ومادام قد زاد عن المفترض ، فهو لا يكتفى بتلاوة القرآن لأنه يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، أى أنه وجد ربه أهلاً لأن يصل له أكثر مما افترض عليه ، كأنه قد قال لنفسه : أنت كلفتني يارب بخمس صلوات لكنك يارب تستحق أكثر من ذلك . وكان هذا البعض من أهل الكتاب لم يكتفوا بإعلان الإيمان بالإسلام فقط ، ولكنهم دخلوا بقلوبهم ، فصلوا أثناء الليل . وأحبوا أن ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ ﴾

(سورة الذاريات)

ما معنى « محسن » ؟ إنها وصف للإنسان الذى آمن بربه فعبد الله بأكثر مما افترض

وتعبدنا بالزكاة بالنصاب ، ومننا من يزيد على النصاب ، وتعبدنا سبحانه بالحج مرة ، ومننا من يزيد عدد مرات الحج . فحين يريد العبد أن يدخل في مقام الإحسان فبإيه هو أداء عبادات من جنس ما تعبد به ؛ فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التي يعبد بها الله ، ولكنه يزيد فيها افترضه الله . وهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن ، لقد دخلوا بشغلهم في الإسلام فصلوا أثناء الليل وقروا القرآن ، ودخلوا مقام الإحسان ، وأرادوا أن يطبقوا القول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَابِهِمْ جَعُونَ ﴾ (٧)

أي أنهم ماداموا قد صلوا في الليل ، وقليلًا ما هجعوا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة في آناء كثيرة من الليل . ونحن حين ندخل في مقام الإحسان ونصل في الليل ، ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شيء عنها، وننظر فنجد نجومًا لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلًا نجد من النجوم المتلألئة اللامعة في الأرض ، ويسألون عنها فيقال لهم : إنها البيوت التي يصل أهلها آناء الليل وهم يسجدون ، وكل بيت فيه هذا يضيء كالنجوم لأهل السماء . ويضيف الحق في صفات هؤلاء : « وبالأسحار هم يستفخرون » وهل فرض الله على خلقه بأن يصلوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلًا من الليل ؟ لا ، ولكن من يريد أن يدخل في مقام الإحسان ، فهو يفعل ذلك . أما المسلم العادي فيكتفي بصلاة العشاء ، وعندما يأتي الصبح فهو يؤدي الفريضة . لكن من يدخل في مقام الإحسان فقليلًا من الليل ما يهجم . وينطبق عليه القول الحق :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٨﴾ يَخِذْنَ مِمَّا رَزَقَهُمْ رَزَقَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ﴿١٩﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ يَمْتَنِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِلَّا لَأَخْرَجَهُم يَسْفَحُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٢﴾﴾

ومذه دقة البيان القرآني التي توضح مقام الإحسان ، فيكون في ما لهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذي يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذي يعلم مقام الإيمان ، ومقام الإيمان - كما نعرف - قد جاء ذكره في قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ^(١٢) لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ^(١٣) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ ^(١٤) ﴾

(سورة المعارج)

فالإنسان في مقام الإيمان قد يفيد الإخراج من ماله بحادود الزكاة أو فوقها قليلا ، لكن في مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال . وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء ؛ فمنهم من دخل الإسلام من باب الإحسان ، فقال فيهم الحق : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » . وكان الحق بهذا الاستثناء الواضح . يؤكد لنا أننا لا نصح أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم هم الذين جاء فيهم قوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » لا ؛ فأهل الكتاب ليسوا سواء ، ولذلك لا يكون حكم الله منسحبا عليهم جميعا ، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون ، إنهم أمة قائمة ، وكلمة « قائم » هي ضد « قاعد » ، والقفود غير الجلوس ، فالجلوس يكون عن الاضطجاع فيقال : كان مضطجعا فجلس .

لكن عندما نقول : « كان قائما » فإننا نقول فقعدا ، فالقعود يكون بعد القيام .
والقعود في الصلاة مريح ، أما القيام فهو غير مريح ، ونحن نعرف أن الرسول صلى
الله عليه وسلم كان يقف في الصلاة حتى تتورم قدماءه ، لأن الثقل كله على
القدمين ، ولكن عندما تقعد فتحن توزع الثقل على جملة أعضاء الجسم . وعندما
يصفهم الحق : « من أهل الكتاب أمة قائمة » فمعنى ذلك أنهم أخذوا أمانة أداء
القروض بكل إخلاص ، وكانوا يؤدّون الصلاة باستدامة وخشوع . ويستمر الحق في
وصفهم في الآية التالية :

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٤﴾

وهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إنما يتصفون بالصفات التي أوردها الله صفة لخير أمة أخرجت للناس وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد دخل هذا البعض من أهل الكتاب بثقلهم - ومن أول الأمر - في مقام الإحسان ، وما داموا قد دخلوا في مقام الإحسان فهم يحق كانوا مستشرقين لظهور النبي الجديد . وبمجرد أن جاء النبي الجديد تلقفوا الخيط وآمنوا برسالته ، وصاروا من خير أمة أخرجت للناس . ويكمل الحق سبحانه صفاتهم بقوله : « ويسارعون في الخيرات » وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى في حق المؤمنين :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين « السرعة » و « العجلة » ف « السرعة » و « العجلة » يلتقيان في تقليل الزمن بالنسبة للحدث ، ومثال ذلك أن يقطع إنسان المسافة من مكان إلى مكان في زمن معين ، والذي يسرع في قطع المسافة هو الذي يستغرق من الزمن أقل وقت ممكن ولكن هناك اختلاف بين السرعة والعجلة ، وأول خلاف بينهما يتضح في المقابل ، فمقابل السرعة الإبطاء ، ويقال : فلان أسرع ، وعلان أبطأ ومقابل العجلة هو « الأناة » فيقال : فلان تأني في اتخاذ قراره . فالسرعة بمدوحه ومقابلها وهو « الإبطاء » مذموم ، « والعجلة » مذمومة ، ومقابلها وهو التأني بمدوح ؛ لأن السرعة هي التقدم فيما ينبغي التقدم فيه ، والعجلة هي التقدم فيما لا ينبغي التقدم فيه ، ولذلك قيل في الأمثال : « في العجلة الندامة ، وفي التأني السلامة » وقال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

وهو سبحانه : هنا يقول « ويسارعون في الخيرات » أى كلما لمحت لهم بارقة في الخير فهم يسرعون إليها ، أى أنهم يتقدمون فيها ينبغى التقدم فيه ، إنهم يعلمون أن الإسراع إلى الخير حدث ، وكل حدث يقتضى حركة ، والحركة تقتضى متحركاً ، والمتحرك يقتضى حياة ، فما الذى يضمن للإنسان أن تظل له حياة ، لذلك يجب أن نسرع إلى الخيرات ، وسيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأرضاه كان بنام القيلولة ، وكان حاجبه يمنع الناس من إيقاف الخليفة ، فجاء ابن عمر بن عبدالعزيز وقال للحاجب :

أريد أن أدخل على أمير المؤمنين الساعة ، فملعه الحاجب قائلاً : إنها ساعة يستريح فيها وهو لا يستريح من الليل أو النهار إلا فيها ، فدعه ليستريح . وسمع سيدنا عمر بن عبدالعزيز الضجة ، فبأى الحاجب . قال الحاجب : إنه ابنك ، ويريد أن يدخل عليك وأنا أطلبه ألا يدخل حتى تستريح . قال عمر بن عبدالعزيز للحاجب : دعه يدخل . فلما دخل الابن على أبيه ، قال الابن : يا أبى بلغنى أنك ستخرج ضيعة كذا لتقفها في سبيل الله . قال عمر بن عبدالعزيز : أفعل إن شاء الله . غدا نبرمها . قال الابن متسائلاً : هل يبقيك الله إلى غد ؟ فقال عمر بن عبدالعزيز وهو يركى : الحمد لله الذى جعل من أولادى من يعينى على الخير .

لقد أراد الابن من أبيه أن يسارع إلى الخير ، فها دامت هبة الخير قد هبت عليه فعلى الإنسان أن يأخذ بها ، لأن الإنسان لا يدرك أخبار الأحداث في نفسه ، لذلك فعليه أن يسارع إلى اقتناص هبة الخير ، وما هو ذا ابن عمر بن عبدالعزيز يعين والده على الخير ، لكنا في زماننا قد نجد من الأبناء من يطلب الخير على أبيه إن فكر الأب في فعل الخير ، متأسين قول الحق : « ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين » .

وهنا يبرز سؤال هو : لأى عمل هم صالحون ؟

والإجابة تقتضى قليلاً من التأمل . إننا نقول في حياتنا : « إن فلاناً رجل صالح » ومقابله « رجل طالح » . والإنسان صالح للخلافة ، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء في الأرض ، والرجل الصالح يرى الشيء الصالح في ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً . أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشيء الصالح فيفسده ، ولا يفعل صلاحاً .

إن الرجل - على سبيل المثال - قد يجد بشرا يأخذ منه الناس الماء ، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله . وإن كان طالحا فقد يردم البئر بالتراب . أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع في خدمة الناس التي تستقى من البئر ، فيفكر لبنى خزانا عاليا ويسحب الماء من البئر بألة رافعة ، ويخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت ، فيأخذ الناس المياه وهم في المنازل ، إن هذا الرجل قد استخدم فكره في زيادة صلاح البئر .

إذن فكلمة « رجل صالح » تعنى أنه صالح لأن يكون خليفة في الأرض وصالح لاستعمار الأرض أى أن يجعلها عامرة ، فيترك الصالح في ذاته ، أو يزيده صلاحا ، ويحاول أن يصلح أى أمر غير صالح . الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عين عمق علم ، فلا يقدم على العمل الذى يعطى سطحية نفع ثم يسبب الضرر من بعد ذلك .

ومثال ذلك حين اخترعوا المبيدات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات في الزراعة ، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبيئة أكثر مما أفادوا ، لذلك عادوا يقولون : لا تستعملوا هذه المبيدات ، لأنها ذات أضرار جمة ؛ ولهذا لا بد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْعُورًا ١٨٠ ﴾

(سورة الإسراء)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَتَذَكَّرُونَ بِالْأَنْحَسِيرِينَ أَغْمَلًا ١٨١ ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِنُونَ ۝ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٨٢ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد أكرم الله من آمن من أهل الكتاب فوصفهم الوصف الحقيقي ، فهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، ثم يحكم الحق عليهم حكما عاما بأنهم من الصالحين لعبارة الكون والخلافة في الأرض .

ومن بعد ذلك بضيف الحق :

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ ١١٥

إنه سبحانه يعطيهم الجزاء العادل ، وإن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق ، فالخير الذي يفعلونه لن يُجحد لهم أو يُسر عن الناس ، لأنه سبحانه علیم بالمتقين ، فمن الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد ، أما الحق فهو يرى كل عمل ، وهو الذي يملك حسن الجزاء . وبعد ذلك يعود الحق لبيان حال الذين كفروا فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ١١٦

يظن الكافرون أن الأموال والأولاد قد تغني عن الله ، إنهم لا يحسنون التقدير ، فالأموال والأولاد هما من مظان الفتنة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ٢٨

(سورة الأنفال)

ومادامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أن تفهم الأمر على حقيقته ؛ فالفتنة ليست مذمومة في ذاتها ؛ لأن معناها اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة ، وينجح .

كَانَ يَكُونُ عِنْدَهُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ ، وَهَمُّ فِتْنَةٍ بِالْفِعْلِ فَلَا يَفْرَهُ الْمَالُ بَلْ إِنَّهُ اسْتَعْمَلَهُ فِي الْخَيْرِ ، وَالْأَوْلَادُ لَمْ يَصِيبُوهُ بِالْفُرُورِ بَلْ عَلِمَهُمْ حَمْلَ مَنَهِجِ اللَّهِ وَجَعَلَهُمْ بِشَاوِنَ عَلَى النَّمَاذِجِ السَّلَوَكِيَّةِ فِي الدِّينِ ، لِذَلِكَ فَسَاعَةً بِسَمْعِ الْإِنْسَانِ أَيْ أَمْرٌ فِيهِ فِتْنَةٌ فَلَا يَظُنُّ أَنَّهَا أَمْرٌ سَيِّئٌ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنَّ الْفِتْنَةَ هِيَ اخْتِبَارٌ وَابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْجَحَ مَعَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ ؛ فَالْفِتْنَةُ إِثْمًا تَضُرُّ مَنْ يَخْفَقُ وَيُضْعَفُ عِنْدَ مُوَاجَهَتِهَا . وَالْكَافِرُونَ لَا يَنْجَحُونَ فِي فِتْنَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، بَلْ سَوْفَ يَأْتِي يَوْمٌ لَا يَمْلِكُونَ فِيهِ هَذَا الْمَالُ ، وَلَا أَوْلَادُكَ الْأَوْلَادَ ، وَحَتَّى إِنْ مَلَكَوا الْمَالَ فَلَنْ يَشْتَرُوا بِهِ فِي الْآخِرَةِ شَيْئًا ، وَسَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِمْ مُشْغُولًا بِنَفْسِهِ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ الْحَقِّ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَبُّكُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَا تَتَّبِعُوا الْآخِرَةَ وَلَا تَتَّبِعُوا مَا يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ذَلِكُمْ يَكُونُ عَيْنًا يَكْنُزُهُمْ عَنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۚ ﴾

(سورة لقمان)

إِنَّ كُلَّ أَمْرٍ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَأْنٌ يَلْبِثُهُ عَنِ الْآخِرِينَ ، وَالْكَافِرُونَ فِي الدُّنْيَا مُشْغُولُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَعِنْدَمَا تَتَأَمَّلُ قَوْلَهُ : « لَنْ نَغْنَى عَنْهُمْ » نَجِدُ أَنَّنَا نَقُولُ : أَغْنَاهُ عَنْ كَذَا أَيْ جَعَلَهُ فِي اسْتِغْنَاءٍ فَمَنْ هُوَ الْغَنِيُّ إِذَنْ ؟ الْغَنِيُّ هُوَ مَنْ تَكُونُ لَهُ ذَاتِيَّةٌ غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ إِلَى غَيْرِهِ ، فَإِنْ كَانَ جَائِعًا فَهُوَ لَا يَأْكُلُ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « لَيْسَ الْغَنِيُّ عَنِ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغَنِيَّ غَنَى النَّفْسِ » (١) .

وَالْمَقْصُودُ بِالْعَرَضِ هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ ، وَمَتَاعٌ ، وَعَرَضُ الدُّنْيَا كَالْمَاءِ الْمَالِحِ ، كُلَّمَا شَرِبْتَ مِنْهُ أَزْدَدْتَ ظَمًا . إِنْ الْكَافِرُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَخْدَعُ نَفْسَهُ وَيُغْشِيهَا ، وَيَغْتَرُّ بِالْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَيَنْسِي أَنَّ الْحَيَاةَ تَسِيرُ بِأَمْرِ مَنْ يَمْلِكُ الْمُلْكَ كُلَّهُ ، إِنْ الْكَافِرُ يَأْخُذُ مَسْأَلَةَ الْحَيَاةِ فِي غَيْرِ مَوْقِعِهَا ، فَالْفُرُورُ بِالْمَالِ وَالْأَوْلَادِ فِي الْحَيَاةِ أَمْرٌ خَادِعٌ ، فَالْإِنْسَانُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ الْحَيَاةَ بِلَا مَالٍ أَوْ أَوْلَادٍ . وَمَنْ يَغْتَرُّ بِالْمَالِ أَوْ الْأَوْلَادِ فِي الْحَيَاةِ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَجِدُ أَمْوَالَهُ وَأَوْلَادَهُ حُمْسَةً عَلَيْهِ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ أَنَّ الْمَالَ وَالْأَوْلَادَ أَبْعَدَاهُ عَمَّا يُوْهَلُهُ هَذَا الْمَوْقِفُ فَهُوَ يَتَعَلَّى مِنَ الْأَمْسَى وَيَقَعُ فِي الْحُمْسَةِ .

(١) رواه أحمد في المستدرك ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وهذا مصير يلقى بمن يقع في خديعة نفسه بالمال أو الأولاد . وكيف يكون الإنسان صاحباً للنار ؟ لنعرف أولاً معنى كلمة « صاحب » ، إن صاحب هو الملازم ، فنحن نقول : فلان صاحب فلان أى ملازمه ، لكن من أين تبدأ الصحبة ؟ إن الذى يبدأ الصحبة هو « فلان » الأول ، له فلان الثانى الذى يقبل الصحبة أو يرفضها ، وهذا أمر قد نعرفه وقد لا نعرفه ، وعن الصحبة مع النار نرى أن الإنسان يلوم نفسه ويؤنبها على أنه اختار النار وصاحبها .

إلى هنا نرى في الحياة إنساناً قد ارتكب ذنباً وأصابه ضرر ، فيضرب نفسه ويقول : أنا الذى استأهل ما نزل بى واستحقه ، وكذلك الإنسان الكافر يجد نفسه يوم القيامة ، وهو يدخل النار ، ويقول لنفسه : أنا أستحق ما فعلته بنفسى ، وتقول النار لحظتها رداً على سؤال الحق لها :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (٤٠)

(سورة ق)

وفي الآخرة نرى أبعاض الإنسان الكافر وهى تبغض صاحبها ، فإذا كان للإنسان ولاية على أبعاضه فى الدنيا ، وهى خاضعة لإرادته إلا أن هذه الأبعاض تأتى يوم القيامة وصاحبها خاضع لإرادتها . إن الظالم يقول ليده فى الدنيا ، « اضربى فلاناً وشددى الصفعة » فلم تعصه يده فى الدنيا ؛ لأن الله خلقها خاضعة لإرادته ، والظالم لنفسه بالكفر يأمر لسانه أن ينطق بكلمة الكفر ، فلا يعصاه اللسان فى الدنيا ، لماذا ؟ لأن أبعاضه خاضعة لإرادته فى الحياة الدنيا ، لكن ذلك الكافر يأتى يوم القيامة وتنزع عنه إرادته ، فتتحرر أبعاضه ، ولا تكون مرغمة على أن تفعل الأفعال التى لا ترتضيها ، وتتمرد الأبعاض على صاحبها ، وتشهد عليه . قد يقول قائل : ولكن الأبعاض هى التى تتعذب . نعم ، ولكنها تقبل العذاب تكفيراً عما فعلت .

إذن فالصحبة تبدأ من الأبعاض للنار « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإن رأينا كفاراً يعملون خيراً فى الدنيا فليحذر كل منا نفسه قائلاً : إياك يا نفس أن

تتخذعى بذلك الخير . لماذا ؟ لأن الكافر بعش كفر القمة ، وكل عمل مع كفر القمة هو عمل حابط عند الله ، وإن كان غير حابط عند الناس . وبعد ذلك يقول الحق عن هؤلاء الكافرين :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

إن الحق يصف ما ينفقه هؤلاء الكافرون في أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن منهج الله إنه - سبحانه - يشبهه بريح فيها صر ، أى شدة ، فهاذة ، الصاد والراء ، تدل على الشدة والضجة والصخب ، ومثال ذلك ما قاله الحق عن امرأة إبراهيم :

﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرٍّ فَفَضَّكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾

(سورة الذاريات)

إنها أتت وجاءت بضجيج ؛ لأنها عجوز وعقيم ويستحيل عادة أن تلد . ومثل قوله الحق :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾

(سورة الحاقة)

والرياح الصرصر هي التي تحمل الصفيع وما صوت مسموع .

وقوله الحق : « كمثل ريح فيها صر » أى أن الريح جعلت البرد شائعا وشديدا ، فالبرد قد يكون في منطقة لا ريح فيها ، ويظل باقيا في منطقته تلك ، وعندما تأتي

الرياح فإنها تنقل هذا البعد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به . وماذا تفعل الرياح التي فيها شدة برد ؟ إنها تفعل الكوارث ، ويقول عنها الحق : « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » وساعة نسمع كلمة « حرث » فنحن نعرف أنه الزرع ، وقد سماه الله حرثاً ، ليعرف الإنسان أنه إن لم يحرق فلن يحصل ، يقول الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٧﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلَمَ نَفْسَهُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

كان الرياح العارمة تفسد الحرث ، وهو العملية اللازمة للإنبات ، فالحرث إثارة للأرض ، أي جعل الأرض مشقة لتنمو فيها الجذور البسيطة ، وتنفو على اختراقها ، وأخذ الغذاء منها ، وهذه الجذور تستطيع - أيضاً - من خلال هشاشة الأرض المحروثة أن تأخذ الهواء اللازم للإنبات .

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم في الخير ، لكن ذلك لا ينفعهم ولا يجدي منه . مصداقاً لقوله تعالى : « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وهكذا يكون مصير الإنفاق على نية غير مؤمنة ، كهيئة الحرث الذي هبت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد ، فالصراة فيه الشدة والبرودة والعنف ، وحاتم الطائي كريم العرب يقول لعبده :

أوقد في قنن الليل ليل قر
والريح بأعلام رين صر
على يري نبارك من بحر
إن جلبت ضيفاً فانت حر

إن هذا الرجل الكريم يطلق سراح العبد إذا ما هدى ضيفاً إلى منزل حاتم الطائي . « والليل القر » : هو الليل الشديد البرودة . و« الرياح الصر » : هي

الريخ الشديدة المصحوبة بالبرد . ونعرف في قرآننا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات ، فيتلفها . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد جاء بهذه الآية الكريمة بعد أن أوضح لنا في الآية السابقة عليها أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً ومصيرهم النار ، وهو سبحانه يدفع أى شبهة تطرأ على السامع ، وهي أن هذه الأموال التى أنفقها الكافرون لعمل الخير ، لن تغنى عنهم شيئاً في الآخرة ؛ لأنهم لا يملكونها . لماذا ؟

لأن العمل إنما يزداد لثواب عليه ، والنية دائماً هى التى تحدد الهدف من كل حركة . . فهل كان في نية الكفار حين أنفقوا أموالهم في الخير الذى يعلمه الناس كالمساعدات ، وتفريج الكرب ، وإنشاء المستشفيات . هل كان في بال هؤلاء الكفار ربُّ هذه النعم ، أو كانوا يعملونها طمعاً في جاه الدنيا ، وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية ؟

لاشك أنهم كانوا يعملونها للجاه ، أو للتاريخ ، أو للإنسانية ؛ لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك ، فهم لا يؤمنون بوجود إله ، ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يحاسبون فيه على ما قدموا . وقلنا من قبل : إن الذى يعمل عملاً فليطلب أجره من عمل له ، وما داموا قد عملوا للدنيا وذكرها ، وجاهها ، والفخر فيها ، فقد أعطتهم الدنيا كل شيء . .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً ، وهو الذى يضرب الأمثال للناس لعلمهم يتذكرون . ومعنى المثل : أن يأتى إلى أمر معنوي قد يغيب عن بعض العقول فهمه ، فيشخصه ويمثله بأمر حسي يعرفه الجميع ، ونحن نعرف أن المحسّات هى أصل المعنويات في الفهم . ونعرف أن الطفل أول ما تفتح إدراكاته يدرك الشيء المحسّس أولاً ، ثم بعد ذلك يكوّن من المحسّات المعقولات .

فانطلق - على سبيل المثال - يرى ثاراً فيمسكها فتحرقه ، فيتكون عند الطفل اقتناع بأن النار محرقة . ويشرب الطفل عسلاً ، فيجده حلواً ، فيتكون عنده اقتناع بأن العسل حلو الطعم ، ويأكل الطفل شيئاً مرا كالحنظل ، فتتكون عنده قضية معلومة وهى أن هذا الشيء مر الطعم ، فكل المعلومات التى يعرفها الإنسان بوسائل

إدراكه المتعددة إنما تأتي من الأمور المحسنة أولاً .

والأمور المحسنة - كما علمنا - وسائلها الحواس الخمس الظاهرة ، وهي : العين لترى ، والأذن لتسمع ، والأنف ليشم ، واللسان ليزوق ، والأنامل لتلمس ، وهكذا نعرف أن كل حاسة ظاهرة لها غاية في الإدراك . والإنسان يتمتع بحواس أخرى ندرك أفعالها ، ولكننا لا ندرك أجهزتها أو آلاتها .

مثال ذلك : حاسة البعد وهي أن يعرف الإنسان هل الشيء الذي يراه قريب منه أو بعيد عنه ؟ وكذلك حاسة الثقل فيحمل الإنسان الشيء فيعرف مدى ثقله ، إنه يدرك ذلك الثقل بحاسة غير الحواس الخمس الظاهرة ، هذه الحاسة هي حاسة الثقل يكتشف بها الإنسان أن شيئاً أثقل من شيء آخر ؛ ذلك أن العضلات التي تحمل الشيء تعرف قدر الجهد المبذول في الحمل . وهناك حاسة أخرى غير ظاهرة هي حاسة « البين » فيمسك الإنسان القماش بأنامله ليغرف هل سمك هذا القماش أكبر من سمك قماش آخر ؟ ولمعرفة سمك الشيء لا بد أن يكون واقفاً بين لامين ، إذن فهناك حواس كثيرة تربى المعاني عندنا ؛ فكل الإدراكات بنت الحس ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَعْرِجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة النحل)

هذه هي الوسائل للإدراك ، وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولاً لأنها الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك « الأفئدة » وهي المختصة بالمعاني والقلبيات وغيرها . فإذا أراد الله أن يضرب مثلاً في أمر معنوي قد تختلف فيه العقول قهر سبحانه يأتي بأمر حسي يتفق فيه الحواس . ونعلم أن في البلغة أمراً اسمه « التشبيه » ؛ فعندما يجهل إنسان شيئاً يقول لمعلمه : شبه لي الأمر الذي أجهله بأمر أعرفه . والإنسان منا قد يسأل صاحبه : أتعرف فلاناً ؟ فيقول صاحب : لا أعرفه ، فيقول الإنسان منا لصاحبه : إن فلاناً الذي لا تعرفه يساوى فلاناً في الطول ، ويساوى فلاناً في اللون . وهكذا ينتقل الإنسان من أمر

لا يعرفه إلى أمر يعرفه . والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لفهم الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا أن الذين كفروا ساعة تكون هم آلهة متعددة فملكاتهم تصاب بالاضطراب يقول - سبحانه - :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال رجل مملوك تعدد من الشركاء ، والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متفقين ، بل بينهم نزاع وشقاق ، وبطبيعة الحال لابد أن يكون هذا العبد مرهقا ، وهكذا نكون قضية الشرك بالله ، إن العبد في مثل هذه الحالة يكون مشتتا وموزع النفس بين الذين يملكونه وهم متشاكسون ، أما قضية التوحيد فالحق يشبهها بالقول : « ورجلا سلما لرجل » .

وهكذا ينقلنا الحق سبحانه - رحمة بنا - من المعنى العقدي العالي إلى معنى محس من الجديع ، لنرى أن الرجل المملوك لسيد واحد يتلقى أوامره من واحد فقط ، وكذلك يريد الله في هذه الآية أن يضرب مثلا لمن ينفق شيئا على غير نية إرضاء الله في طاعته ، فمهما أنفق هذا الإنسان فإن إنفاقه خابط . ونحن عندما نقرأ آيات القرآن الكريم علينا ألا نأخذ جزئية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ الجملة كلها لفهم المثل كله كصورة مؤلفة مثلا ضرب الله لنا مثلا بالشركاء المتشاكسين الذين يملكون رجلا ، فعلينا إذن ألا نأخذ المثل بحرفيته ، ولكن نأخذ الأمر بمجموع المثل . مثال آخر ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ حَشِيبًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ٦٥ ﴾

(سورة الكهف)

فهل الحياة الدنيا كالماء ؟ لا ، ولكن قصة الحياة كلها ، تشبه القصة التي يضربها الحق كمثال ، الماء حين ينزل يختلط بالأرض ، وبعد ذلك تنبت ، فتعطى نباتا ، والنبات يتبع الزهر الجميل ، وبعد ذلك ينتهي إلى هشيم ، هكذا هي الدنيا في

وُحِرْفَتَهَا ؛ فالبداية مزهرة ، فيها نصارة وخضرة وبهجة ، ونهاية مؤلة ومدمرة .

إذن فالحق سبحانه ينقل لنا معنى الحياة الدنيا ويشبهها بالأزهار والنبات ونهايته أن يصبح هشيما تذروه الرياح ، وهو ما يقوله في موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ فَجَمَعْنَاهَا حَشِيبًا كَانَ لَمْ تَنْفَخِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يونس)

وعندما نتمعن النظر في قوله الحق :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌ أُصَابَتْ حَرَتْ قَوْمٌ

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٧)

(سورة آل عمران)

نجد في هذه الآية « مشبها » و« مشبها به » . المُشَبَّه هم القوم الذين ينفقون أموالهم بغير نية الله ، أى كاثرون بالله ، والمُشَبَّه به : هو الزرع الذى أُصَابَتْ الرِّيح وفيها الصر ، والنتيجة أنه لا جدوى هنا ، ولا هناك .

ولماذا تصيب الرِّيح حرث قوم ظلموا أنفسهم ، وهل لا تصيب الرِّيح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم ؟

إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم في ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذَا أَقْمُوا لِيَصْرَمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ (١٧)

وَلَا يَسْتَشْشِرُونَ ﴿١٧﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٨﴾

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيعِ ﴿١٩﴾

(سورة الفلم)

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا ترى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك في الحياة ، والرجل الذي لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ، ويصبر على كارثته ، يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته في ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء ، أو تكون تطهيرا للهلك . أما الذي ينشق على غير نية الله وهو كافر ، فلا ثواب له .

ويذيل الحق الآية بقوله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيد لها عنده ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة على غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فحبطت أعمالهم ، وتلك هي عدالة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوْا مَا عَيْنَتْمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » فلنعلم أن ما يحىء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساعة ينادى الحق المؤمنين به ، فإنه ينادى ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمن به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يشير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكر في السماء ، فكر في الأرض ، فكر في مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إلها واحدا . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له مادمت قد أمنت بالإله الواحد ، فتلق عن الإله الحكم .

إن الحق حين يقول : « يا أيها الذين آمنوا » فهو سبحانه يخاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف به « افعل » وه لا تفعل » إلا من آمن ، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل في حظيرة الإيمان : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » فإذا ما دخل الإنسان في حظيرة الإيمان فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف به « افعل » وه لا تفعل » ومادام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، القيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته . ويحيى . في بعض الأحيان ما ظاهره أن الله ينادى مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان كقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » .

ويتساءل الإنسان كيف ينادى الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وهنا نرى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدي أفعال الإيمان دائما ويضيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمرا موجودا فيه ، فلنعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدانة على هذا اللون من السلوك الذي يحبه الله ، وكأن الحق حين يقول : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » إنما يحمل هذا القول الكريم أمرا بالاستدانة على الإيمان ، لأن البشر من الأغيار . ونحن نعرف أن الله أفسح بالاختيار مجالا لقوم آمنوا فارتدوا ، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهي المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدانة الإيمان .

وحيث نقرأ قول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا ، ومادام في الأمر تكليف فعنصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكلفى من الله له مقدمة هي : « يا أيها الذين آمنوا » ولا تبحث أيها المؤمن في علة الحكم ،

وتسأل : لماذا كلفني يارب بهذا الأمر ؟ فليس من حقت أيها المؤمن أن تسأل :
 لماذا ؟ مادمت قد آمنت ، فالحق سبحانه لم يكلف إلا من آمن به ، فإذا كنت - أيها
 المؤمن - قد آمنت بأنه إنه صادق قادر حكيم فآمن الله على نفسك ، ونفذ مطلوب الله
 به أفضل ، ولا تفعل ، سواء فهمت العلة أم لم تفهمها . وسبق أن ضربنا المثل
 ومازلنا نكرره .

إن المريض الذي يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه
 الهضمي مصاب بعلة ، ويفكر في اختيار الطبيب المعالج ويختار طبيباً متخصصاً في
 الجهاز الهضمي ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهي عمل العقل بالنسبة
 للمريض ، فقد اختار طبيباً وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجري الفحص الدقيق ،
 ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، ويشخص الداء ، ثم يكتب الدواء ،
 وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض ، فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب : لن
 أخذ هذا الدواء إلا إذا أقنعتني بحكمته . بل عليه أن يتخذ كلام الطبيب ، وهكذا
 يطيع المريض الطبيب ، وكلاهما مساوٍ للآخر في البشرية ، فكيف يكون أدب
 الإنسان مع مخالفه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن
 آمنت - أيها المؤمن - بالله حكيماً ، فتلق عن الله الحكم ، لأنه مأمون على أن يوجهك
 لأنك أنت صنعته .

إن الحق يأمر المؤمن بالصلاة ، وعلى المؤمن أن يؤديها ، ولا يبحث عن علة الصلاة كأنها
 رياضة مثلاً ، لا ، إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصلي ، فإنك تلتفت
 إلى أن نفسك قد انشغلت بالصلاة وشعرت بالراحة ، فتقول لنفسك : ما أحلى
 راحة الإيمان ، هذه هي علة الحكم الإيماني . إن علة الحكم الإيماني يعرفها المؤمن
 بعد أن ينفذه ، ولذلك نجد الحق من فضل كرمه ، يقولنا لنا :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فأنت ساعاً أن تنفي الله في الحكم ، يعطيك العلة ، ويعطيك راحة الإيمان ،
 إنك أيها العبد لا تسأل أولاً عن الاقتناع بالعلة حتى تنفذ حكماً لله ، لأن الحق

سبحانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام لحلقه فزونا طويلة ، ومثال ذلك أننا ظلمنا لا نعرف علة حكم من الأحكام لما أربعة عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضار التي فيه ؟ تلك المضار التي ثبتت معمليا . . لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم نقذوه ، واكتشف أحقاد الأحقاد أن فيه ضررا ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا نعرف له علة ، إن هذا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن ستأتى أشياء توضح بعض الأحكام فيما لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطينا تلك الإيضاحات الثقة في كل حكم لا نعرف له علة ، وتصبح علة كل حكم هي : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن الحق بهذا القول ينادى كل عبد من عباده : يا من آمننا بى إلها خذ منى هذا التكليف . ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أنى طبيب لمريضك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندما يزور الإنسان مريضا ويسأله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمريض يجيب : لقد كتب الطبيب لى هذا الدواء ، فما بالك بتنفيذ أحكام الله ؟ إنه يجب أن ننفذها لأن الله قالها ، ولذلك فالعاقلون بعمق وجدبة يختلفون عن مدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الجادون يقولون : إن هذا العقل مطية يوصلك إلى باب السلطان ولكن لا يدخل معك عليه . فكان العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيها ليس له قدرة عليه .

إن الحق سبحانه فى هذا التكليف القادم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » أى إنكم مادمتم قد آمنتم ، فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزع الشيطان وكيد الأعداء . إن نزع الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتي من البطانة التي تتداخل مع الإنسان .

ولفهم كلمة « بطانة » جيدا ، إن بطانة الرجل هم خاصته ، أى الناس الذين

يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة « بطانة » مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ، فنحن عندما نمسك أى قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتسميهم وتستعبد لهم . ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الانتصار شعار ، والناس دثار » (١) .

« والشعار » هو الثوب الذى يلامس شعر الجسد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعلم من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية عبودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة « بطانة » مأخوذة . كما قلنا . من بطانة الثوب ، لأنها التى تلتصق بالجسم حتى تحميه ، فنحن نرتدى الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لتبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أى التى تدخل فى حياة الناس ، وكل شر فى الوجود من هذه البطانة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم وموحي إليه وله من الصحابة ما يطمع أى عبد مؤمن أن يتخذه فدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه وأبيه سيدنا على كرم الله وجهه قال الحسين :

يا أبى قل لى عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قال على كرم الله وجهه :

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفى الحديث : « كان رسول الله يكثر الذكر » (٢) .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما فليجلس فقد أدى حركة هى القعود ، ومن كان جالسا فقام ، فقد أدى حركة هى القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل حركة ، شاكرا نعمة الخالق عز وجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه : كم عضلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

(١) رواه البخارى فى المغازى ، ورواه مسلم فى الزكاة ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة ، ورواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه النسائى فى الجمعة .

إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهي أعداد لا يعرفها الإنسان . فما الذى جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هى العضلات التى تتحرك لترفع اليد ، ونلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر :

«وفيك انطوى العالم الأكبر»

كان العالم الكبير قد انطوى وصار فى داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تنام ، وتحب أن تقوم فتقوم . وبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك فى مملكة جسدك ، هى من تسخير الله ، تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سلب أحدا غيرك القدرة على رفع الذراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد واثت لمجرد أن لك يدا ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ، ولكنه لا يستطيع أن يأمرها فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات فى النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استيقظ أحدكم فليقل : الحمد لله الذى ردّ على روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره »^(١) .

انه يوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أن نذكر الذى خلقنا وخلق فبنا القدرة على الحركة .

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتطلبها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عدد غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره فى كل حركة فهو الذى خلق كل إنسان منا صالحا لكل هذه القدرات .

وتعود إلى وصف على كرم الله وجهه مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .

ولتنبيه إلى دقة الرسول في التعامل مع البطانة من البشر ، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها : ويوطن المكان ، أي أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة بتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى في عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا في المسجد ، وهذا منهي عنه . فعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب واقتراض السبع وأن يوطن الرجل المكان في المسجد كما يوطن البعير ^(١) .

ويضيف على كرم الله وجهه في وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، « وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويحلب دعوة المملوك » ^(٢) .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهي به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغدا يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطي كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطي نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي في الصلاة والنهي عن نقرة الغراب أي تخفيف السجود بقدر وضع الغراب منقاره ،

والقراش السبع : هو وسط الذراعين في السجود وعدم رفعها ، وأن يوطن المكان : أي يلازمه فلا يصل في غيره .

(٢) رواه الطبراني

واحد في مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ؛ وذلك حتى يعرف كل جلس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذي بعث الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن الالتحام بالناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استغلال الالتحام في غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تَنبِهُوا إِلَى أَنْكُمْ فِي مَعَكُمْ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ يَمَانُكُمْ وَيَعَانِدُ إِيْمَانَكُمْ ، وَهَؤُلَاءِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكُوكُمْ عَلَى إِيْمَانَكُمْ ، بَلْ لَا يَدُ أَنْ يَكِيدُوا لَكُمْ ، وَهَذَا الْكَيْدُ يَتَجَلَّى فِي أَنَّهُمْ يَدْسُونَ لَكُمْ أَشْيَاءَ ، وَيَنْفِذُونَ إِلَيْكُمْ .

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير من آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضا ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقول مؤمن: هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى ، أو هذا أخى من الرضا ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإنكم أن تتخذوا أناسا يتدخلون معكم بالود ؛ لأن الشرايق من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم سذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم - الكفار - لا يقصرون في هذا أبدا ، لذلك يأتي الأمر من الحق :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، احْمُوا هَذَا الْإِيْمَانَ فَلَا تَتَدَخَّلُوا مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ تَدَاخِلُوا يَفْسِدُ عَلَيْكُمْ أُمُورُ دِينِكُمْ ؛ لأنهم لن يهدأوا ، لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلى : « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ، أَى لَا يَقْصِرُونَ أَبَدًا فِي الْكَيْدِ لَكُمْ ، وَالْخَبَالُ: هُوَ الْفَسَادُ لِلْهَيْئَةِ الْمُدِيرَةِ لِلْجَسْمِ وَهُوَ الْعَفْشُ ، وَنَحْنُ نَسْمَى اخْتِلَالُ الْعَقْلِ « خَبَالًا » .

إن الحق يقول :

﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُخَدُّوْا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوْا مَا عَمِلْتُمْ

قَدْ بَدَتْ اَلْبَغْضَاءُ مِنْ اَقْرَبِهِمْ وَمَا تُحْنِي صُدُورُهُمْ اَكْبَرُ قَدْ يَتَنَالَكُمُ الْاَلَيْتُ
 اِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

(سورة آل عمران)

فالنهي عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهي عنه هو أن تتخذ بطانة من غير المؤمنين ، لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر في لحظة واحدة في أنها تريد للمؤمنين الخيال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يجنون العنت والمشقة للمؤمنين « ودوا ما عنتهم » والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفي هذا يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اَللّٰهُ لَاعْتَسَكَرْ اِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

أي أنه سبحانه لو أراد ، لكلفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يسّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يزدون إلا الخيال للمؤمنين ، ويجنون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمناً فانت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا في المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفع تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية في سلام وانسجام .

ونحن نرى ذلك في المجتمعات التي وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مؤمنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودخل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون في تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ ، والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق

تعاليم ما يؤمن به . فالرجل - على سبيل المثال - حين ينظر إلى حاله ، أى زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان ؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تنجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفرغ وتتخبط ملكاته .

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم في مشقة . والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسي وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة ، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر ؛ لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحسر بالمشقة . والكافرون لا يتركون أى فرصة تآكل بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها . « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا بآلوانكم خيالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم » .

ومادامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف تتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم . والمنافق له لسان يظهر خلاف ما يبطن . وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرة كلام المؤمن .

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا يتمون إلى الإيمان ولا يتمون إلى الكفر ، والذي يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ؛ لأن ما تخفى صدورهم أكبر . وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فلما أن يقولوها أمام منافقين ، ولما أن يقولوها لبعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن ، والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم فإله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان في المؤمن حتى ينهيه إلى أدق الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق في غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق قد بدت البغضاء من

أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد . لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما في صدورهم . إن الغيظ الذي في قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على الستهم ، ولكن من الذي نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما في صدور الكافرين بما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله - جلّت قدرته - قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : « وما تخفى صدورهم أكبر » إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ، لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعاً أبداً في إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينسحب المؤمنون .

وإذا ما دققنا التأمل في تذييل الآية نجد أن الحق قال : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » إذن ، فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح ذلك ، وقد قلنا من قبل إن الآيات ، إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات . ولنسمع قول الحق بالنسبة للقرآن :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَرِّقٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٧١ ﴾

(سورة النحل)

وفي مجال الكون يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعلم أن الآية هي الشيء العجيب اللافت الذي يجب أن نشته إليه لنأخذ منه دستوراً لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية

تؤيد صدق الآيات المنهجية . ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات .
والذى يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بينت أنهم قد نهوا عن
أن يتخذوا بطلانة من دونهم - أي من غير المؤمنين - وهما هي ذى الآية التالية تقول :

هَٰئِنتُمْ أَوْلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ وَتُؤْمِنُونَ
بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
عَصَوْا عَلَيْكُمْ أَلَا نَأْمِلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلُوبَ مَوْتُوا يَعِظُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

وما زال الحديث والكلام عن البطلانة ، وهو يدل على أن البطلانة لم نستطع أن نلوي
المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من
الكافرين . ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون
أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك
قالوا : « آمنا » . إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق . ولماذا - إذن -
جاء الحق بقوله : « نحبونهم ولا يحبونكم » ؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق في منهج الإسلام ،
وأراد المؤمنون أن يحبوا الكافرين مشاعب الكفر في الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب
الحقيقي ، فهل بدأهم الكافرون الحب ؟ لا ؛ لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخذ
المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة . ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا
المآرب ، ولذلك قالوا : « آمنا » ومعنى قولهم : « آمنا » يدلنا على أن موقف المسلمين
كان موقفا صلبا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون يذًا من نفاقهم « وإذا لقوكم قالوا
آمنا » قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء في أقوالهم ، ولم يكن سلوكهم
مطابقا لما يقولون . وهنا بدأ المسلمون في تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك

قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون . . . وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان في الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف في قوله : « وإذا خنثوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » فما هو العض ؟

إن العض لغويا ، هو التواء الفكين على شيء ليقتضاه . وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة ، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية البمل ، ويسمون الأنامل أيضا البنان ، وعملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عمدة انفعالية قسرية . أي أن الفكر لا يرتبها ؛ فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعض الأصبع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل في الانفعال . ومن أين يجيء الغيظ ؟

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يرحلوا المؤمنين قيد شجرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ؛ ولذلك وقعوا في الغيظ عندما لم يتمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ؛ وهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد في فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارا . أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السببة التي يصنعها فيه آخر بسببة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ؛ ولكن يتبع القول المأثور :

« إنا لا نكافي من عصي الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه » (١)

(١) هذا القول مسند إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما جاء رجل فقال له : إن لي جارا يؤذي ويشتكي ويضيق علي فقال : « أذهب فإن هو غصني بالله فأكبحك الله فيه » من كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي - فصل حقوق الجوار .

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة ، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة .

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكن المسلمون يزدون على سوء المعاملة بحسن المعاملة ، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يعمون في بئر وحمة الغيظ . وعندما يخلو الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسري التابع للغضب والعجز عن تحقيق المآرب ؛ ذلك أن كل تأثير إدراكي في النفس البشرية إنما يطرق بجبال وجدانها فيها .

والمجال الوجداني لا بد أن يعبر عن نفسه بعملية تزرعية تظهر بالحركة ؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو يتفعل بسرعة ويثور بالكلمات ، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب . أما الذي لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه ؛ لأنه يحزن انفعالاته ، ويسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو ؛ ولذلك يقول الأثر : « اتقوا غبط الحليم » فمتى تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة في قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل .

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان ، فيتفعل الإنسان بالتزوع الحركي . والنشريع الإسلامي لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا يتفعل ، لكنه بطلب من المسلم أن يتفعل انفعالا مهنديا ؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالْكَنُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعي غيظ الإنسان ، والذي لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله يريد من الإنسان أن يكون إنسانا ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المروي الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولنا في النبي صلى الله عليه وسلم القدوة

الحنة ، فحين مات ولده إبراهيم :

قال عليه الصلاة والسلام : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم نحزنون » (١) .

إن النبي صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان ، فالعين تدمع ، والقلب يحزن ، والإنسان لا يكون أصم أمام الأحداث ، إنما على الإنسان أن يكون متفعلاً انفعالاً مهندياً .

وعندما يعبر القرآن عن الإنسان السوي فهو لا يضع المؤمن في قالب حديدي بحيث لا يستطيع أن يتغير بقول سبحانه :

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

إذن فليس المؤمن مطبوعاً على الذلة ، ولا مطبوعاً على العزة ، لكنه يتنقل للمواقف المختلفة ، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعاً للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلاً ، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المنكبرين فيكون المؤمن عزيزاً ، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ رُسُلُهُمْ رُحْمًا
مُحَمَّدًا يَتَنَفَّسُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

(من الآية من سورة الفتح)

إن الرحمة ليست خلقاً ثابتاً ، ولا الشدة خلقاً ثابتاً ولكن المؤمنين يتنقلون للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون في مواجهة الكفار فهو قوى وشديد . والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد ،

(١) رواه البخاري في الخائز وصنم في الفضائل . وابن ماجه في الخائز ورواه أحمد في المسند .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

إذن فالحق لم يمنح المؤمن من أن يعاقب أحداً على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعفيم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طباعهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن في إيمانه فيها بعد ، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويجولون في حقوق المسلمين ؛ وهذا فالمؤمن يتدرب على ترويع العقاب حتى على المؤمن المخطئ ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أى مجترىء على حق من حقوق الله ، والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقى بعقابه ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرتقى أكثر ، ويستمتع لقول الحق :

﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق في ترويع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يقصر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أى لا يعبر عن الغيظ نزوعيا ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برىء وشفى منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبك أحد فانت لا تسبه ، وهذا الكظم يعني كتمان الانفعال في القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر وتجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقى ارتقاء

أعلى ، وبصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان ، فهو القاتل : « والله يحب المحسنين » وهكذا يحسن المؤمن إلى المسيب للغيظ بكلمة طيبة .

فإذا يكون موقف الذي تسبب في غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ في المرحلة الأولى وعفوت في المرحلة الثانية . وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهي التي تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان . . « والله يحب المحسنين » لا بد أن يراجع المسيب للغيظ نفسه ويندم على ما فعل .

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم ، فالذي بمعنى النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق في الطبع البشري حين قال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ولكنه ارتقى بالمؤمن . وعندما تنظر إلى هذا الأمر كمقضية اقتصادية وتحسبها به منه « وه له » فسجد أن المؤمن قد كسب . . ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - ساعة يجد الأب ابنه من ابتاه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم . فهو أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كرم رب يغار له ونحن نعرف أن واحدا قال لعارف بالله :

أحسن لمن أساء إليك ؟ فقال العارف بالله : أفلا أحسن لمن جعل الله في جانبي ؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين ، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وأيسر في قلبه فسقينة بينما الكافر يغلي من الحقد ، ويسبب هذا الأمر بكاد يفقد صوابه ؛ لذلك يقول الحق : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

وه خلوا ، المقصود بها . أن الكافرين إذا ما أصبحوا في مجتمع كفرة وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين ، ولقد فعلوا هذا الأمر - عض الأنامل من الغيظ - في غيبة الإيمان والمؤمنين بالله ، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن ، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين ؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك رباً للمؤمنين يقول الخائف من الأمور لرسوله ، ويبلغها الرسول للمؤمنين .

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفصح لهم ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، وهنا ينبغي أن نفهم أن هناك أمراً قد يغيب ، ولكن الإنسان قد يحين أن ينفث غيظه ، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتتفعل عليه ، أو قد تتفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ « تحويل النزوع » . فالغاضب يمتلئ بطاقة غضبية ، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيخاف أن يتفعل عليه ، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعرض على أنامله ، ومادامت المسألة هكذا ، فقد قال الحق :

﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(من الآية ٦١٩ سورة آل عمران)

ومعنى ذلك أن إغاضة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من الغيظ ، لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر : « قل موتوا بغيظكم » .

ونحن قد عرفنا أنه سباعة يؤمر الإنسان بشيء ليس في اختياره - لأن الموت ليس في اختيارهم - وأن يختار بينه وبين شيء في اختياره كالغيظ ، فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر إليه ليظل أسير الأمر الذي يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت .

وعندما يقول الحق : « موتوا بغيظكم » فهذا يعني أن الكافرين لن يستطيعوا الموت ، ولكن سيظلون في حالة الغيظ إلى أن يموتوا ؛ لأنهم لا يعرفون متى يموتون ، وهكذا يظلون على حافهم من الغيظ من المؤمنين ، ومادام الكافرون في حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بسلوك صحيح .

وفي هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور ، أي بالأمور التي

نظراً على الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمَا نَحْنِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة آل عمران)

ومادام هو الحق العليم بما تخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعي ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضاً بأن يقضج الأعمال غير النزوعية الكامنة في صدورهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ إِن تَسْتَسْكِمُ حَسَنَةً تَسْوَهُمْ وَإِن تَصِيكُمُ

سَيِّئَةً يَفْرِحُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا

لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

والقرآن كلام الله وله - سبحانه - الطلاقة التامة والفني الكامل ، والعبارات في المعنى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب . . . إنه هو سبحانه الذي قال :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا

﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأَىٰ مُمُونٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الملءرج)

وهو سبحانه الذي قال :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝ ﴾

(سورة النساء)

إنه جل وعلا يتكلم عن المس في الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان
كإصابة في الخير أو في الشر ، وفي الآية التي نحن بصدد الخواطر عنها نجد خلافا في
الأسلوب فسبحانه يقول : « إن تمسكم حسنة تسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا
بها » إنه لم يورد الأمر كله مَسًّا ، ولم يورده كله « إصابة » إنه كلام رب حكيم وعندما
نتمعن في المعنى فإن الواحد منا يقول : هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم .

ولنتعرف الآن على « المس » و « الإصابة » بعض العلماء قال : إن المس والإصابة
يعنى واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مَنُوعًا ۝ ﴾

(سورة المعارج)

ولكننا نقول إن المس هو إيجاد صلة بين الماس والممسوس ، فإذا مس الرجل
امرأته ، فنحن نأمره بالوضوء فقط ، لأنه مجرد التقاء الماس بالممسوس ، والأمر ليس
أكثر من التقاء لا تحدث به الجنابة فلا حاجة للغسل ، أما الإصابة فهي التقاء
وزيادة ، فالذى يضرب واحدا صفعه فإنه قد يورم صدغه ، فالكعب يلتقى بالخد ،
ويصيب الصدغ ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة ، وحين يقول
الحق : « إن تمسكم حسنة تسوهم » .

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة ، وليست كبيرة إنها مجرد غنيمة أو قليل من
الخير . . . وفي حياتنا اليومية نجد من يمتلئ غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة
قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا ؟
ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أى خير يأتى للمؤمنين إنما يسبب

التعب والكدر للكافرين . فمجرد من الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فلماذا عن أمر
السيرة ؟

إن الحق يقول : « وإن نصيبكم سيرة يفرحوا بها » إن الكافرين يفرحون لأي سوء
يصيب المؤمنين مع أنه كان مفتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحما :

وحبك من حادث بأمري ،
نرى حاسد له راحما

يعنى حبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذي كان بحده ينقلب راحما
له ويقول : والله أنا حزنت من أجله .

إذن فلما تشتد إصابة المؤمنين أكانت تغير من موقف الكافرين ؟ ، لا ، كان أهل
الكفر يفرحون في أهل الإيمان ، وإذا جاء خبر أي خير للمؤمنين يمزنون فالحق
يقول : « أن تمسككم حسنة تسوهم » والحسنة هي أي خير يمسه مساً خفيفاً ،
« وإن نصيبكم سيرة يفرحوا بها وإن تصبروا وتنقروا لا يضركم كيدهم شيئاً » ، قالت
سها كاذوا لك فقل بصيبك بأذى ..

إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم ، وتصبر على شرهم ، وتصبر على
فرحهم في المصائب ، وتصبر على حزنهم من النعمة نصيبك أو تمسك ، اصبر فيكون
عندك مناعة ؟ وكيدهم لن ينال منك . اصبر واتق الله : لتضمن أن يكون الله في
جانبك ، « وإن تصبروا وتنقروا لا يضركم كيدهم شيئاً » .

وما الكيد ؟ الكيد هو أن نبيت وتحال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيد
من غيرك ، أي تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكبد ، وهما
بمعنى واحد ، فما يصيب الكبد يؤلم ؛ لأن الكبد هو البضع القوي في الإنسان ، إذا
أصابه شيء أعى الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كيد الحقيقة أي
نوصل إلى نقطة القوة في الموضوع الذي يحكى عنه .

وما معنى يبيتون ؟ قالوا : إن التبيت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً

يبست وعمر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يكر ، إنما يكر ويكيد الضعيف الذي لا يقدر على المواجهة ، فإن نصبروا على مقتضيات عداوتهم وتنفوا الله لا يضرهم كيدهم شيئاً ؛ لأن الله يكون معكم .

ويذبل الحق الآية بالقول الكريم : « إن الله بما يعملون محيط » . وساعة ترى كلمة « محيط » فهذا يدل على أنه عالم بكل شيء . والإحاطة : تعنى ألا تترك حاجة منه . وهما هي ذى تجربة واقعية في تأريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكداً : « وإن نصبروا وتنفوا لا يضرهم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

إنه في هذه المرة - في غزوة أحد - جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون قلة ، سبعائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه في قوله : « وإن نصبروا وتنفوا لا يضرهم كيدهم شيئاً » وليس المقصود هنا الكيد التبييني بل عملهم العلني ، أي راذكر صدق هذه القضية :

« وإذ غدوت من أهلك » ، والغدوة هي : أول النهار ، والرواح : آخر النهار ، والأهل : نطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها في هذا الوقت الذي أراد فيه كفار قريش أن يثاروا لأنفسهم من قتل بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل منور من معركة بدر كان له فرسان وله رجال ، حتى أنهم بعد معركة بدر قال زعيمهم أبو سفيان لأصحابه : قل للنساء لا تبكين قتلاكم فإن البكاء يذهب الحزن ، فالدموع بسمونها غسل الحزن ، أو فوب المواجهيد ، فساعة يبكي إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح .

فلو حزنت النساء ويكين على نخل بدر لحطت جذوة الانتقام ، لذلك قال
أبو سفيان : قل لمن لا ييكن . إنه يريد أن يظل الغبط في مسألة بدر موجوداً إلى أن
يأخذوا الثار . وفعلوا اجتمع معسكر الكفر في ثلاثة آلاف مقاتل عند أحد ، وبعد
ذلك استشار النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من
أكبر المنافقين هو عبدالله بن أبي بن سلول ، وما استدعاه إلا في هذه المعركة ، فقال
عبدالله بن أبي بن سلول وأكثر الأنصار :

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال منا ، ولم يدخل علينا
عدو إلا نلنا منه ، فإننا نرى ألا نخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محسن ، وإن
دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم وزمائم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ،
وإن رجفوا رجفوا خائبين وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا :

« يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا جئنا عنهم وضعفنا ، ولم يترك
أصحاب هذا الرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا »

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن
الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكروه على
ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكروناك يا رسول
الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ينبغي لني لبس لأمنته أن يضعها حتى يقاتل » (١).

وأخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذي يُذكر به القرآن صدفاً للقضية التي جاءت في
الآية السابقة : « وإن نصبروا وتتفوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون
محيط » .

(١) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ورواه الطبراني بنحوه ، واللائمة : هي الدرع .

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

(الآية ١٢١ سورة آل عمران)

و« تبوئ » المؤمنين مقاعد للقتال « أى توطن المؤمنين فى أماكن للقتال » وبوأت فلانا يعنى : وطنته فى مكان يبوأ إليه أى يرجع ، واسم وطن « لأن الوطن يرجع إليه الإنسان .

انظر إلى الدقة الأدائية لقول الحق : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » أى تجعل لهم مباءة ووطناً . وكلمة « مقاعد » أى أماكن للثبات ، والحرب كثر وفر وقيام ، والذي يجارب يشته الله فى المعركة ، فكانه موطن فى الميدان ، فكان أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أى منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذى نبته وبوآته فيه أى إن هذا هو وطنك الآن ؛ لأن مصيرك الإيمان سيكون رهناً به .

إذن فقله : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ » أى توطن « المؤمنين » ونقول لهم : إن وطنكم هو مقاعدكم التى ثبتكم بها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماة ؛ وأمر عليهم « عبدالله بن جبر » وهم يومئذ خمسون رجلاً وقال رسول الله لهم :

« قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تتركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » (١) .

لكنهم لم يقدروا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى الغنيمة ؛ وشاء الله أن يجعل التجربة فى محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم : حتى يبين للمؤمنين فى كل المعارك التى تلى ذلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس فى عملية الجندية . وإنكم إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا .

(١) رواه ابن سعد وابن هشام والبخارى بنحوه .

وقد يقول قائل : الإسلام انهزم في أحد . ونقول : لا ، إن الإسلام انتصر. ولو أن المسلمين انتصروا في « أحد » مع مخالفة الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، أكان يستقيم لرسول الله أمر ؟

إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم يفقدوا الأمر ، وكان لابد أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحينها هبت ريح النصر على المؤمنين في أول المعركة ، ابتدا المقاتلون في الانشغال بالأسلاب والعتائم ، فقال الرماة : سيأخذ الأسلاب. غيرنا ويتركونا ونزلوا ليأخذوا العتائم ، فانتهر خالد بن الوليد وكان على دين فومه انتهر الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأذيع وفشا في الناس خير قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكفأوا وانهزموا فجعل رسول الله يدعو ويقول : « إلى عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله : قد بناك بآياتنا وأمهاتنا ، أتنا خير فتلك فرعبت قلوبنا فلوينا مذهبين

إن التحقيق التاريخي لمعركة أحد قد أكد أن المسألة لا تعتبر هزيمة ولا انتصاراً ، لأن المعركة كانت لا تزال مائعة . وبعدها دعا الرسول من كان معه في غزوة أحد إلى الخروج في طلب العدو ، وأدركوهم في حراء الأسد وقر الكافرون : إن الله أراد أن يعطي المؤمنين درساً في التزام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : « وإذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذي يوزع المهام ، فهذا جناح أمين وذلك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة . ويذيل الحق هذا بقوله : « والله سميع علیم » حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال . وسبحانه « علیم » بما يكون في النيات ، لأن المسألة في الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ

وَلِيَهُمَا عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾

والفشل هو الجبن ، وانطائفتان هما « بنو حارثة » من الأوس ، « بنو سلمة » من الخزرج ، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار ، فجماعوا في الطريق إلى المعركة ، وسمِعوا كلام المنافق ابن سلول ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ؛ لأنه مجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون .

وقال ابن سلول المنافق للرسول : لو تعلم قتالاً لا تبعناكم . إلا أن عبد الله ابن حارثة قال : أنشدكم الله وأنشدكم رسول الله وأنشدكم دينكم . فساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن هموا في التراجع .

وما معنى « الهم » هنا ؟ إن الهم هو تحرك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير في مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فالذي حدث منهم هو مجرد هم بخاطر الانسحاب ، لكنهم ثبتوا .

ولماذا ذلك ؟ لقد أراد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام منطقي في نظره إلى الإنسان ، فالإنسان تأتبه خواطر كثيرة . لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا العلاج . فقال : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ،

وقد قات واحد من الطائفتين : والله ما يسرن أن لم أهم - أي لقد انشرح قلبي لأن مهمت - لأن ضمنت أن من الذين قال الله فيهم : « والله وليهما » ، وحسبي ولاية الله . لقد فرح لأنه أخذ الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا نلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمات حول غزوة أحد ، ونحن تعلم أن هذه الغزوة كانت الغزوة التالية لغزوة بدر الكبرى . وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلّة في العدد والعدة ، ففى بدر لم يذهب المسلمون إلى

المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش في العير تعويضاً لأموالهم التي تركوها في مكة . ومع ذلك شاء الله ألا يواجهوا العير المحملة ، ولكن ليواجهوا الفئة ذات الشوكة ، وجاء النصر لهم .

ولكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربي المهابة للمسلمين في قلوب خصومهم ، فإنه قد جمع هم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتدبير ضربة يردون بها اعتبار الكفر ، ولذلك رأينا رموس قريش وقد منعت نساءها أن يبيكين على قتلاهم ، لأن اليكاء يُريح النفس المنحبة ، وهم يريدون أن يظل الحزن مكتوباً ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التي يحبون أن تظل موججة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بمال العير الذي لجا ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم .

وقد حاولوا قبل أخذ أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يردون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فلما نعى خبرها إلى سيدنا رسول الله تهض بصحبته إليهم ، فبلغ أيا سفيان خروج رسول الله ، فقر هارباً وألقى ما عنده من مؤنة في الطريق ليخفف الحمل على الدواب لتسرع في الحركة ، ولذلك يسمونها « غزوة السوق » لأنهم تركوا طعامهم من السوق . ثم حاول بعض الكفار أن يغيروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين ، فمرة عددهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلوا شئت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم . وكان من خطته صلى الله عليه وسلم حين يذهب إلى قوم كان يبلغه أنهم يريدون أن يتآمروا لغزو المدينة أن يظل في بندهم وفي معسكرهم وقتاً ليس بالقليل .

كل ذلك سبق غزوة أحد . وبعد ذلك تجمعوا ليجيئوا لغزوة أحد ، وكان ما كان ، والآيات التي تعالج هذه الغزوة فيها إجابات بما جاء في المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بوأ للمقاتلين مقاعد للقتال ، وأمرهم بالثبات في تلك المواقع لكن بعضاً من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر هم بالانسحاب ، لكن ثبت أخيراً ، وفر كفار قريش . وقد نجلت في هذه المعركة آيات الله الكبيرة .

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين • بيدر • وهم قلة ، لم يخرجوا لمعركة وإنما خرجوا لمصادرة غير . وربما ظن أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه الوثيرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لا بد من استنفاد الأسباب ، إعداداً لعدة ولعدد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فلما خالفوا كان ولا بد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تنشأ إلا بعد استهلال بالنصر ، ولذلك نبيحي ، فيما بعد مستون آية حول هذه الغزوة ؛ لتبين لنا مناط العبرة في كل أطوارها نستخرج منها العظة والدرس . ونعلم أن المنتصرين عادة يكون الجور معهم رخاء . ولكن الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، فجاء القرآن هنا ليقص علينا طرفاً من الغزوة نستخرج منها العبرة والعظة ، العبرة الأولى :

أنهم حينما خرجوا ، تخلف المنافقون بقيادة ابن أبي ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمخص المؤمنين . والتمحيص يأتي في الشيء الواحد ، أما التمييز فيأت في شئين : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، إنما التمهيص يأتي للمؤمن ويعرّفه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات ومن اليقين ، والحق إنما يمحص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمونة في التاريخ كله إلى أن تقوم الساعة على حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم قلوب ثابتة ، وجأش قوى عند الشدائد ، وهمة دونها زخارف الدنيا كلها .

وبعد ذلك يعالج النفس البشرية في أوضاعها البشرية ، فمعقائد الإيمان لا تنصب في قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مئاسية تعطى دفعة من العقيدة يتكون بعد ذلك الأمر العقدي كله . ولذلك يبين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنفدت الطائفتان ذلك الهم أم رجعت وفاءت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان . وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر ، وقفة خرجت ثم عادت .

لقد تحدثت النفوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالزماة الذين رأوا النصر أولاً ، وهؤلاء من الذين ثبتوا ، ما فرؤوا أولاً مع ابن أبي ، وما كانوا من الطائفة التي

همت ، ولكنهم كانوا من الذين نبتوا . لكنهم عند طريق النصر الأول اشتاقوا
للغنائم ، وتحالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُم مِّنْ يَّأْتِيهِمْ حَتَّىٰ إِذَا فَتِنْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ
وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا نَحِبُونَ مِّنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ
ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد ذلك تأتي لفظة أخرى وهي ألا تفتن في أحد من البشر ، فخالد بن
الوليد بطل معسكر الكفر في أحد ، وهو الذي استغل فرصة نزول الرماة عن
أماكنهم ، وبعد ذلك طوق جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من خالد قبل أن يسلم ،
ألم يكن في غزوة الخندق ؟ لقد كان في غزوة الخندق . وكان في غزوات كثيرة غيرها
مع جند الشرك ، فابن كانت عبقرية في هذه الغزوات ؟ ..

إن عبقرية البشر تتصارع مع عبقرية البشر ، ولكن لا توجد عبقرية بشرية
تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد في معركة الخندق ، لقد
ظهر دوره في معركة أحد ؛ لأن المقاتلين لخالد خالفوا أمر القيادة فبقيت عبقرية بشر
لعبقرية بشر ، ولكنهم لو ظلوا في حصن المنج الإلهي في التوجيه لما استطاعت
عبقرية خالد أن تطفو على تدبيرات ربه أبداً .

والنحقيق التاريخي لكل العسكريين الذين درسوا معركة أحد قالوا : لا هزيمة
للمسلمين ولا انتصار للكفار ؛ لأن النصر يقتضي أن يحل فريق قريباً عن أرض
المعركة ، ويظل الفريق الغالب في أرض المعركة ، فهل قریش ظلت في أرض المعركة
أو قرّت ؟ لقد قرّت قریش .

ويُفسر النصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقابلة ، فهل أسر قریش واحداً
من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعاً وليس فيها إلا من
تخلف من المنافقين والضعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم فوزهم السطحي لأن

يدخلوا المدينة .

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا غنيمة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا ظلوا في أرض المعركة ، فكيف تسمى هذا نصراً ؟ فلتقل : إن المعركة ماعت . وظل المسلمون في أرض المعركة .

وهنا تتجلى البطولة الحقة ، لأننا كما قلنا في حالة النصر يكون الأمر رخاء ، حتى من لم يتل في المعركة بلاء حسناً ينتهز فرصة النصر ويصون ويحول ، ولكن المهزومين والذين أصيب قائلدهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن طلحة بن عبيد الله يطأ طهره لرسول الله ليمتنبه فيصعد على الصخرة . ورسول الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رباعيته وثأتى حلقته من حلق المغفر في وجنته ، بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرجفون وقالوا : إن رسول الله قد قتل .

وكل هذا هو من النحيص ، فمن ثبت مع هذا ، فهو الذي يؤمن أن يحمل السلاح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه «سعد بن الربيع» .

يقول عليه الصلاة والسلام : «مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ ؟ أَقَى الْأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ هُوَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ : فَذَهَبَتْ لَأَخْصِيهِ ، فَرَأَيْتُهُ وَقَدْ طَعَنَ سَبْعِينَ طَعْنَةً مَا بَيْنَ ضَرْبَةِ سَيْفٍ وَطَعْنَةِ رِمَحٍ وَرَمِيهِ قَوْسٍ . فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ لَهُ : رَسُولُ اللَّهِ يَقْرُئُكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ : كَيْفَ تَحْذُكُ - أَيْ كَيْفَ حَالُكَ - ؟

قال سعد ابن الربيع : قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأَنْصارِ ليس لكم عند الله عُذر إنْ خَلَصَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَفِيكُمْ عَيْنٌ تَطْرَفُ . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أُلخِنَ في المعركة فلم يقو على أن يجارب

بنصائه^(١) ، انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته ذوقاً في آذان المسلمين .
وليعلم أن هؤلاء الذين اتخنوه جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قربوه إلى لقاء ربه ، وأنه
ذاهب إلى الجنة . وتلك هي الغاية التي يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يعذرهم القرآن في أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون
للمعارك ! فمثلاً عمرو بن الجموح ؛ كان أعرج ، والعرج عذر أقامه الله مع المرض
والعمى ؛ لأنه سبحانه هو القاتل :

﴿ نَبَسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة النور)

وكان لعمر بن الجموح بنون أربعة مثل الأسد قد ذهبوا إلى المعركة ، ومع ذلك
يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن بني يريدون
أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه
في الجنة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد
عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه
فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ابني
الذي استشهد بيد رأيته في الرقيا يقول لي : « يا أبت أقبل علينا » فأرجو أن تأذن لي
بالمقتال في « أحد » فأذن له فقاتل فقتل فصار شهيداً .

وتتجلى الروعة الإيمانية والنسب الإسلامي في حذيفة بن اليمان ، لقد كان أبوه
شيخاً كبيراً مسلماً فأخذ سيفه ولاحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقه
الشهادة في سبيل الله ، فدخل في المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون

(١) النصال : جمع نصل وهو حديد السيف والسهم والرمح والنسكن .

ولا يعرفونه ، فقال ابنه حذيفة : أبى والله . فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزدى دينه ، فقال له حذيفة بن اليمان : وأنا تصدقت بها على المسلمين .

هذه الأحداث التي دارت في المعركة تدلنا على أن غزوة أحد كان لابد أن تكون هكذا ، لتمحص المؤمنين تحميصاً يؤهلهم لأن يحملوا كلمة الله ويعملوها في الأرض ، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر ، فكأنه يريد أن يقول : إن الأمر بالنسبة لكم أمر إلهكم الذي يربكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم . وإياكم أن تعتمدوا على العدد والعدة ولكن اعتمدوا على الحق سبحانه وتعالى وعلى ما يريد الحق توجيهها لكم ، لأن مدد الله إنما يأتي لمستقبل مدد الله ، ولا يأتي المدد لغير مستقبل مدد الله .

ونعرف أن فيه فرقا بين الفاعل وبين القابل ، فالفاعل شيء والقابل للانفعال بالفعل شيء آخر . وضرباً لذلك مثلاً : بأن الفاعل قد يكون واحداً ، ولكن الانفعال يختلف ، وحتى نقرب المسألة نقول : كوب الشاي تأتي لتشرب منه فتجده ساخناً فتتفخ فيه ليرد ، وفي الشتاء تصبح لتجد يدك باردة فتتفخ فيها لتدفأ ، إنك تتفخ مرة لتبرد كوب الشاي ، ومرة تتفخ لتدفأ يدك ، إذن فالفاعل واحد وهو النافع ، ولكن القابل للانفعال شيء آخر ، ففيه فاعل وفيه قابل ، ومثال آخر : إن القرآن كلام الله ولو أنه نزل على الجبال لحزت خاشعة ، ومع ذلك يسمعه أناس ،

لا يستر الله عليهم بل يكشفهم لنا ويفضحهم بعظمة الوهية :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ ﴾ (١٦)

(سورة محمد)

إنهم لم يفعلوا بالقرآن ، وقولهم : « ماذا قال أنفأ » معناه استهزاء بما قيل . ونجد الحق يرد على ذلك بقوله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ ﴾

(سورة محمد)

إن الفاعل واحد والفاعل مختلف . ويتابع الحق بلاغه الحكيم في قوله :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعْلَمَ كَيْفَ تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ (١٧)

)

إذن فعدد الله لكم إنما يتأتى لمستقبل إيمان ، فإن لم يوجد المستقبل - بكسر الباء - فلا يوجد المدد . فإذا كنت لا تستطيع أن تستقبل ما ترسله السماء من مدد نقول لك : أصلح جهاز استقبالك ؛ لأن جهاز الاستقبال كالمذياع الفاسد ، إن الإرسال من الإذاعات مستمر ، لكن المذياع الفاسد هو الذي لا يستقبل . إذن فإن كنت تريد أن تستقبل عن الله فلا بد أن يكون جهاز استقبالك سليماً . ويوضح الحق ذلك بقوله جل جلاله :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ ۖ ﴾

رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٧٤﴾

وبين سبحانه وتعالى كيفية إصلاح جهاز الاستقبال لتلقى مدد الله فيقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَتَوَقَّعُوا وَيَأْتُواكُم مِّن قُورِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٧٥﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ضرب المثل بالصبر والتقوى في بدر مع القفة فكان النصر ، وهنا في أحد لم تصبروا ؛ فساعة أن رأيتم الغنائم سال لعابكم فلم تصبروا عنها ، ولم تتفوا أمر الله المبلغ على لسان رسوله في التزام أمانكم . . فكيف تكونون أهلاً للمدد ؟

إذن من الذي يمدد المدد ؟ إن الله هو الذي يعطى المدد ، ولكن من الذي يستقبل المدد ليتفح به ؟ إنه الفادر على الصبر والتقوى .

إذن فالصبر والتقوى هما العدة في الحرب . لا تقل عدداً ولا عدة . ولذلك قال ربنا لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولم يقل : أعدوا لهم ما تظنون أنه يغلبهم ، لا . أنتم تعدون ما في استطاعتكم ، وساعة تعدون ما في استطاعتكم وأسبابكم قد انتهت . . فالف هو الذي يكملكم بالنصر .

والبشر في ذواتهم يصنعون هذا ، فمثلاً - والله المثل الأعلى من قبل ومن بعد -

لنفترض أنك تاجر كبير . وتأتيك العربات الضخمة محملة بالبضائع ، صناديق وطرود كبيرة ، وأنت جالس بينما يفرغ العمال البضائع ، وجاء عامل لينزل الطرد فغلبه الطرد على عافيت . وتجد نفسك بلا شعور منك ساعة تجده سيقع منه وتقوم لنصرتة ومعاونته ، لقد استفيد هذا العامل أسبابه ولم يقدر ، فالذى يعنيه الأمر بمد يده إليه ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى . كأنه يقول :بذل وقدم أسبابك ، فإذا ما رأيت أسبابك انتهت والموقف أكبر منك ، فاعلم أنه أكبر منك أنت ولكنه ليس أكبر من ربك إنه سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۚ

وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٧٦﴾ ﴾

قرباك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف ، الذين أنزلهم الله وأمدكم بهم أو بالملائكة المدربين على القتال . . إياكم أن تظنوا أن هذا المدد ، هو شرط في نصر الله لك . بذاتك أو بالملائكة ؟ إنه قادر على أن ينصرك بدين ملائكة ، ولكنها بشرى لتونس المادة البشرية ، ساعة يرى المؤمنون أعداداً كبيرة من المدد ، والكفار كانوا متفوقين عليهم في العدد ، فإن أسباب المؤمنين تطمئن وثق بالنصر . إذن فالملائكة مجرد بشرى ، ولكن النصر من عند الله العزيز الذى لا يغلب . وكل الأمور تسير بحكمته التى لا تملوها حكمة أبداً . يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَيَقَطَّعَ ظَرْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتِهِمْ فَيُنْقَلِبُوا

خَائِبِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

وقطع الطرف بتحدد بمعرفة ما هو طرف لماذا ؟ فإن كان الطرف هو العدد الكثير فقطع الطرف أن يقتل بعضه . وإن كان الطرف هو أرضاً واسعة فقطع الطرف أن يأخذ من أرضهم . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١١ ﴾

(سورة النحل)

لقد كانت الأرض الكُفْرِيَّة تخسر كل يوم جزءاً منها لينضم هذا الجزء إلى الأرض الإيمانية ، هذا بالنسبة لسعة الأرض ، وافترض أن الطرف هو المال ، فقطع الطرف هنا يكون بأن تأخذ بعض المال كغنائم ، ثم هناك المنزلة التي كانت تهاجم الجزيرة كلها ، كل الجزيرة تهاجم قريشاً ، وقوافلها التجارية للشمال والجنوب لا تستطيع قبيلة أن تتعرض لها ؛ لأن كل القبائل تعرف أنها ستذهب إلى البيت في موسم الحج ، فلا توجد قبيلة تتعرض لها لأنها غداً ستذهب إلى قريش ، إذن فالسيادة والعظمة كانت لقريش ، وساعة تعلم القبائل أن رجال قريش قد كسروا وانهزموا ، وأن رحلتهم إلى الشام أصبحت مهددة ، فإنهم يبحثون عن فريق آخر يذهبون إليه .

إن قطع الطرف كان على أشكال متعددة ، فإن كان طرف عدد يقتل بعضهم ، وإن كان طرف أرض فبعضها يؤخذ وتذهب إلى أرض إيمانية ، وإن كانت عظمة وقهرا تأتهم الهزيمة ، وإن كان نفوذاً في الجزيرة فهو يتزلزل ، ليقطع طرفاً من الدين كفروا .

ولنلاحظ أن الحق قد قال : « ليقطع طرفاً » - لم يقل ليستأصل - لأن الله سبحانه وتعالى أبقى على بعض الكفار لأن له في الإيمان دوراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتلئاً بالعطف والرحمة والحنان على أمته ، وكان يحسن الظن بالله أن يهديهم ، ولذلك تعددت آيات القرآن التي تتحدث في هذا الأمر . ها هو ذا الحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ١٢ ﴾

(سورة الكهف)

وفي موقع آخر بالقرآن الكريم يقول الحق :

﴿لَعَلَّكَ بَمِيعِ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٥﴾﴾

(سورة الشعراء)

والله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فَأَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » والرسول يحب أن يهتدى إلى الإيمان كل فرد في أمته ، فقال الحق :

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

أى ليس لك يا محمد من الأمر شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم ، أو يعذبهم ، فلا يميزك ذلك لأنهم ظالمون أى ما عليك يا محمد إلا البلاغ فقط . أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر . والظلم كما نعرف هو أخذ الحق من ذى الحق وإعطائه لغيره . وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير الله ، وهو الشرك . ولذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٩﴾﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

إن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

(سورة آل عمران)

وهذه مسألة لم تخرج عن ملك الله ، لماذا ؟ لأن السماوات والأرض وما فيهن ملك لله : قيل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد أن غضب المشركون وجهه بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم - أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو عليهم فنهاه الله لعلمه - سبحانه - أن فيهم من يضمن وأنزل قوله تعالى :

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

ومما أننا نتحدث عن ملامح في غزوة أحد أريد أن أقول : « جبل أحد رضي الله عنه » ؛ لأننا سمعنا بعض العارفين بالله حين تذكر كلمة « أحد » قال : أحد رضي الله عنه - فتعجب القوم لقول الشيخ عبد الله الزيدان الذي قال ذلك ، فلما رأى عجبهم قال لهم : ألم يخاطبه رسول الله بقوله : « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان »^(١) ، ألم يقل فيه رسول الله : « أحد جبل يحبنا ونحبه »^(٢) أتريدون أحسن من ذلك في الصحبة ! قل : أحد رضي الله عنه .

وقلنا سابقاً : إنك إذا وقف عقلك في حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت ، بل أخذها بالمقاييس الأعلى . ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجرى ويسعى سعياً حثيثاً مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله في الكون ، فبين لنا أن الحيوانات لها لغات تفاهم بها ، ويحاولون الآن أن يضعوا قاموساً للغة الأسماك . والحق سبحانه وتعالى ذكر لنا حكاية النملة مع سليمان - عليه السلام - فقال :

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة ، وأبو داود في السنة ورواه أحمد في المسند .

(٢) رواه البخاري عن سهل بن سعد ، والترمذي ، والطبراني عن أنس وأحمد والطبراني والبيهقي عن سويد بن عامر

﴿ يَأْتِيهَا النَّملُ أَذْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُودُهُ وَهُمْ لَا يَسْمُرُونَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

هذا القول يدل على أنَّملة خرجت وقامت بعمل (وردية) كي تحافظ على من معها ثم عادت لتتكلم مع أبناء فصيلتها ، وسمعتها سيدنا سليمان ، فتبسم من قولها . إذن العليم ينسابق ويخمد ويُسارع الآن ليثبت أن لكل جنس في الوجود لغة يفهم بها ، وكل جنس في الوجود له الفعل ، وكل جنس في الوجود له تكرار ، ولذلك قال الحق لنا على لسان سيدنا سليمان :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ عَلَيَّا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ ﴾

(من الآية ١٦ سورة النمل)

وكانت هذه خصوصية لسيدنا سليمان عليه السلام ، إذن للطيور منطق . وعندما تنسأى ونذهب إلى الجهاد نسمع قول الحق سبحانه في آل فرعون وعدم بكاء الجهاد عليهم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ ۖ كَبِيرٍ ۖ وَنَعْمَةٍ ۖ كَانُوا فِيهَا فَنِكَهِينَ ۖ كَذَلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ۖ آخَرِينَ ۖ ﴿٦٨﴾ فَسَبَّكْتَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ۖ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ۖ ﴾

(سورة الدخان)

هل تبكى السماء والأرض ؟ إنه أمر عجيب ؛ فالجهاد من سماء وأرض لا تفاهم فقط ولكن لها عواطف أيضاً ؛ لأن البكاء إنما ينشأ عن انفعال عاطفي وجداني .

وهذا يعني أن الجهادات لا تتكلم فقط ، ولكنها تحس أيضاً ، فالأرض تخرج أنفاسها ،
وتحدث أخبارها ، كيف ؟

﴿ يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهُ ۝ ﴾

(سورة الزلزلة)

والسما والارض أتيا إلى الله في منتهى الطاعة والخشوع :

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَبَىٰ دُخَانٍ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَرَفًا ۝ ١١ ۝

قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ ١٢ ۝ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فهناك ما هو أكثر من التفاهم ، إن لها عواطف مثلك تماما ، وكما تحزنك
حاجة فالأرض أيضاً تبكى ، ومادامت تبكى إذن فلها مقابل بأن تفرح ، ويقول الله
نعاني عن أرض فرعون : « فما بك عليهم السما والأرض » فلو أنها لم تبك مع بعض
الناس ؛ لما كان لهذا الكلام مبرة .

لذلك قال الإمام علي - كرم الله وجهه - : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان :
موضع مصلاه ؛ لأنه سيحرم من نعمة الإيمان ، ومصعد عمله ، موضع في الأرض
وموضع في السماء . إذن فلا بد أن نفهم أن لكل شيء شعوراً . وقال صلى الله عليه
وسلم : « إذا مات المؤمن استشرت له بقاع الأرض فليس من بقعة إلا وهي تتمنى
أن يدفن فيها » (١)

لماذا نقول هذا الكلام الآن ؟ نقول ذلك حتى إذا ثبت بالعلم أن لكل شيء لغة ،
ولكل شيء في أجناس الكون تفاهما ، يقال إن فيه ناساً هبت عليهم نسيات الإيمان
فأدركوها وأحسوها من القرآن ، فلا بد مني أحد أنه ابتكر من ذات نفسه لأنها في
القرآن وإن كنا لا نعرف كيف تأتي .

(١) رواه الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما . وتكملة الحديث : « وإذا مات الكافر أظلمت الأرض فليس
من بقعة إلا وهي تستبطل بالله أن يدفن فيها » .

وهذه المعركة - معركة أُحُد - التي أخذت ستين آية ، نجد أن الحق تكلم عنها هنا فقال : « وإذ غدوت من أهلك » و« إذ همت طائفتان » ، وقوله : « ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أدلة » ، وبعد ذلك يترك الغزوة في حرارتها ويأتينا بأشياء يضعها هنا ، ثم يأتي ليكمل الغزوة . لو أن هذه لفظة من الغزوة وتنتهي ثم يأتي موضوع آخر ، لما شغلنا أنفسنا ، إنما الغزوة ستأتي فيها ستون آية ، فكيف ينهي الكلام في الغزوة ولا يعطينا إلا استهلال الغزوة ، وبعد ذلك ينصب القرآن على معاني بعيدة عن الغزوة ؟ فما الذي يجعله - سبحانه - يترك أمر الغزوة ليقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الرِّبَا أضعافاً مضاعفةً وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١٢٦﴾ وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢٧﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٩﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَنِظَةِ الْغَبِيظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا إِلَهُهُمُ إِنَّهُمْ مُغْفِرُونَ ﴿١٣١﴾ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَنْصَرِفَ عَلَيْهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ صَافِيًا ﴿١٣٢﴾ أُولَئِكَ يَرْجَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُؤْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَنْ يَعْصِ أَمْرًا مِنْ رَبِّهِمْ يَرْجُوا عَذَابَ اللَّهِ وَنِعْمَ عَذَابُ اللَّهِ ﴿١٣٣﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكَ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٤﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا لم يعطينا الحق إلا استهلال الغزوة وبعد ذلك انصب على قضايا أولها قضية الربا ، ما العلاقة بين هذه القضايا وتلك الغزوة ؟ . وأقول : رحم الله صاحب

الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب فقد استطاع أن يستخلص من هذه النقلة مبادئ إيمانية عقدية لو أن المسلمين في جميع بقاع الأرض جعلوها نصب أعينهم لما كان لأى دولة من دول الكفر غلب علينا .

ونريد أن تفهم هذه اللفظات ، ولماذا استهلكت بمسألة الربا ؟ لأن الذى كان يسيباً في الهزيمة أو عدم النصر في معركة أخذ أنهم طمعوا في الغنمة . والغنمة مال زائد ، والربا فيه طمع في مال زائد .

والقرآن حين يعالج هنا قضية حديثة ، والأحداث أغيار تمر وتنتهي ، فهو سبحانه يريد أن يستبقى عطاء الحدث لبشيع في غير زمان الحدث ، وإلا فالحدث قد يمر بعظاته وعبره وينتهي ولا تكون له فائدة . والنفس حين تمر بالأحداث تكون ملكاتها متفتحة ؛ لأن الحدث - كما قال المحفور له الشيخ سيد قطب - يكون ساعياً ، فحين يستغل القرآن الحدث قبل أن يبرد فإن القضية التي تتعرض لها الموعظة تتمكن من النفس البشرية . وهو سبحانه لم يرد أن تمر أحداث أجد بما فيها من العبر والعظات إلا ويستغلها القرآن الكريم ليثبت بها قضايا إيمانية تشيع في غير أزمته الحدث من الحروب وغيرها لتتنظم أيضاً وقت السلام . فآية الربا هنا كأنما سقطت وسط النصوص التي تتعرض لغزوة أحد .

والسطحيون قد يقولون : ما الذى جعل القرآن ينتقل من الكلام عن أحد إلى أن يتكلم في الربا مرة ثانية بعد أن تكلم عنه أولاً ؟

ونقول : إن القرآن لا يؤرخ الأحداث ، وإنما يريد أن يستغل أحداثاً ليسط ويوضح ما فيها من المعاني التي تجعل الحدث له عرض وله طول وله عمق ؛ لأن كل حدث في الكون يأخذ من الزمن قدر الحدث ، والحدث له طول هو قدر من الزمن ، يكون ساعة أو ساعتين أو ليلة مثلاً ، هذا هو طول الحدث .

والأحداث التي يحريها الله لها طول بمجده عمر الحدث الزمني ، ولها عرض يعطيها الاتساع ، فبعد أن كانت خطاً مستقيماً صارت مساحة ، ويجعلها الحق شاملة لأشياء كثيرة ، فهو لا يريد للحدث أن يسير كخط مستقيم ، بل يريده طريقاً واسعاً له

مساحة وله عرض . هذا العرض يعطيه رقعة مساحية تأخذ كثيراً من الأشياء ، وهذا أيضاً قد ينتهي مع الحدث ، ولذلك يريد الله أن يعطى للحدث بعداً ثالثاً وهو العمق في التاريخ فيعطى عطاءه ، كما نستفيد نحن الآن من عطاء حدث هو غزوة أحد .

إذن فالحدث له حجم أيضاً ، وهذا ما يجعل الناس تقف لتقول : إن صلة الرحم تعطيل العمر ، والعمر له حد زمني محدد وهو الخط المستقيم له ، فهناك واحد يزيد من عرض عمره ، فبدلاً من أن ينتفع الناس في مجال صغير فهو يعمل وينفع في مجال أوسع ، إذن فهو يعطى لعمره مساحة .

وهناك إنسان آخر يريد أن يكون أقوى في العمر ، فماذا يعمل ؟ إنه يعطى لعمره عمقاً ، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهي عمره مهما كانت رقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »^(١) .

ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ١١ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ١٢ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ١٣ ﴾

(سورة إبراهيم)

هي كلمة طيبة قيلت ، لكنها مثل الشجرة الطيبة ؛ لأنها ترسخ في أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة ، وكلما فعل السامع هذه الكلمة فعلاً نابعاً من تأثير هذه الكلمة فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة حتى ولو كان قد مات .

(١) رواه أبو داود و الترمذى والنسائى والبخارى في الأدب المفرد .

فكان قائل هذه الكلمة مازال يعيش ، وكان عمره قد طال بكلمته الطيبة . إذن فأعمال الخير التي تحدث من الإنسان ليس معناها أنها تطيل العمر ؛ لأن العمر محدود بأجل ، ولكن هناك إنسان يعطي عمره عرضاً ، وآخر يعطيه عمقاً ويظل العطاء منه موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، فكانه أعطى نفسه عمراً خالداً . ويقولون : والذكر للإنسان عمر ثان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح الدروس المستفادة من غزوة أحد ، إن أول مخالفة كانت سبباً ليس في الهزيمة ، ولكن دعنا نقل : « في عدم إتمام النصر » ، لأنهم بدأوا متصرفين ، ولم يتم النصر لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوافع هذه المخالفة أنهم ساءوا الغنائم ، اندفعوا إليها ، إذن فدوافعها هي طلب المال من غير وجه مشروع ؛ لأن النبي قال لهم : (انضجوا عنا الخيل ولا تؤتوا من قبلكم ، الزموا أماكنكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا نخطفنا الطير فلا ترحوا مكانكم) وبهذا صارت مبارحة المكان أمراً غير مشروع ، فتطليح النفس إلى شيء في غير ما أمر به رسول الله يعتبر أمراً غير مشروع والتطليح هنا كان للمال ، وهكذا الربا .

وأراد الحق أن تكون سخونة الحدث ، والآخر الذي نشأ من الحدث في أن المسلمين لم يتم نصرهم ، وتعبوا ، وكان مصدر التعب أن قليلاً منهم أحبوا المال الزائد من غير وجه المشروع . فأراد - سبحانه - أن يكون ذلك مدخلاً لبيان الأثر السيئ للتعامل بالربا .

إذن فهذه مناسبة في أننا نجد آية الربا هنا وهي توضح الآثار السيئة للطمع في المال الزائد عن طريق غير مشروع ، والقرآن فيه الكثير من المواقف التي توضح آثاراً تبدو في ظاهرها غير مترابطة ، ولكن النظرة العميقة تؤكد الترابط .

وقلنا من قبل في قول الله تعالى :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۖ فَإِن خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ ۚ كَمَا عَلَيْكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۗ ﴾
(سورة البقرة)

قد يقول أحد السطحين : إن الحق سبحانه وتعالى كان يتكلم عن الطلاق قبل هاتين الآيتين فقال سبحانه :

﴿ وَإِنْ خَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ لَنْ نَسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يُضَوْنَ أَوْ يُنْفَوْنَ الَّذِي بَيْنَهُ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٩٥ ﴾

(سورة البقرة)

ويترك الحق الحديث عن الطلاق ويأمر بالحفاظ على الصلاة بقوله الحكيم :
« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وبعد ذلك يعود الحق لاستكمال حديث الطلاق والفراق بالموت .

﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِثْقَاقَ الذِّكْرِ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْخُلُوفِ غَيْرِ إِتْرَاجٍ فَإِنْ تَرَجَعْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٩٦ ﴾

(سورة البقرة)

إنه يتكلم عن الطلاق ، والوفاء ، ثم يترك بينهما آية الصلاة ، لماذا ؟ ليتضح لنا أن المنهج الإسلامي منهج متكامل . إياك أن تقول : إن الطلاق غير الصلاة ، غير الوفاء ، أبداً ، إنه منهج متكامل . ولأنه - سبحانه وتعالى - يريد أن ينبهنا إلى أن لطلاق عملية تأن والنفس فيها غضب ، وتأن الزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل الزوجة في كدر ، فيقول لهم المنهج : لو كنتم تحسنون الفهم لفرعتم إلى الصلاة حين نواجهكم هذه الأمور التي فيها كدر .

وساعة تكون في كدر قم وتوضاً وضّل ، لأن النبي علمنا أنه إذا خزيه أمر قام

إلى الصلاة ، فساعة تجد الجو المشحون بالتوتر بين الزوج والزوجة وأهلها قل لهم :
المسألة صارت أكبر من حيلنا ، فيها نصل ليساعدنا الله على حل هذه المسائل
الصعبة ، وأنا أتحدى ألا يوجد الله حلاً لمشكلة لنا فيها المسلم إلى الصلاة قبلها .

وهكذا نفهم أن الحق قال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » لأن
محافظةكم عليها هي التي مستهين كل الخلافات ؛ لأن الله لا يكون في بالكم ساعة
ضيقتكم وفي ساعة شدتكم فتسلمون للضيقة والشدة وتسون الصلاة ، في الوقت
الذي يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى الصلاة . إنك في وقت الضيق والشدة
عليك أن تذهب إلى ربك ، وأقول هذا المثل - والله المثل الأعلى - إن الولد الذي
يضره أصحابه يذهب إلى أبيه ، كذلك زوجتك إذا أغضبتك تذهب إلى أهلها ،
فكيف لا تذهب إلى ربك وقت شدتك وكربك ؟ .

وهكذا نجد أن قوله الحق : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » جاء في
المكان الصحيح ، وهكذا آية الربا ، جاءت في مكانها هنا ونحصرها أنه تكلم عن
الربا أولاً ، ففانى الجاذبة وسخونة الحدث وينزل هذا القول الكريم . كي يعرف كل
من يريد مالاً زائداً على غير ما شرع الله أنه سيأتي منه البلاء على نفسه وعلى غيره ،
فالبلاء في أحد شمل الجميع : الرمة وغير الرمة أيضاً .

إذن فكل الدنيا تتعب عندما تخالف متبع الله ، والمال الزائد من غير ما شرع الله
إن لم يترك فقد اذن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسول الله .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الرِّبَا أَضْعَافًا
مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

والربا زيادة في المال ، فهل يؤكل ؟ نعم ؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة

التي تأكلها ، هذا هو الأصل . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصبح
منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا » (١) .

ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا في منطقة ليس فيها رغيف خبز ، فليتنفعه
ملكية جبل من الذهب . « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » وقوله سبحانه :
« أضعافاً » وه مضاعفة ، هو كلام اقتصادي على أحدث نظام ، فالأضعاف هي :
الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً ، فعندما يكون أصل المال
مائة ، على سبيل المثال - وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفايدة فيصبح المجموع مائة
وعشرين . إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة ، هذا هو معنى أضعاف .

فماذا عن معنى « مضاعفة » ؟ إنا منجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال
جديداً ، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضاً ، إذن
فالأضعاف ضوعفت أيضاً ، وهذا ما يسمى بالربح المركب ، وهل معنى هذا أننا
نأكله بغير أضعاف مضاعفة ؟ لا ؛ لأن الواقع في عهد رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان هكذا .

وقد يقول لك واحد : إنا أفهم القرآن وأن المنهى هو الأضعاف المضاعفة ، فإذا لم
تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل في نسبة فائدة على أصل
المال فقط ؟ . ولكن مثل هذا القاتل نرده إلى قول الله :

﴿ وَإِنْ تَبِمَ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧٩ سورة البقرة)

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تقتضي أن يعود الإنسان إلى حدود رأس
ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب . وعندما نجد كلمة « أضعافاً مضاعفة »
فهي قد جاءت فقط لبيان الواقع الذي كان سائداً في أيامها .

وبعد ذلك يقول الحق تديلاً للآية : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ونقول دائماً

(١) رواه البخاري في الأدب ، والترمذي وابن ماجه عن عبدالله بن محمد .

ساعة ترى كلمة « اتقوا » يعنى اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، وهى تكون الوقاية بينكم وبين الله بكل صفات جماله وجلاله ؟ لا ، فالوقاية تكون مما يتعب وما يؤلم ويؤذى ، إذن فانقوا الله يعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله من جبروت وقهر وانتقام وقاية ، وعندما يقول الحق : « واتقوا النار » فهى مثل قوله : « واتقوا الله » ، لأن النار جند من جنود صفات الجلال .

وعندما يقول الحق : « لعنكم نفلحون » نعرف أن كلمة « الفلاح » هذه تأتى لترغيب المؤمن فى منهج الله ، وقد جاء الحق بها من الشئ المحسن الذى نراه فى كل وقت ، ونراه لأنه متعلق ببقاء حياتنا ، وهو الزرع والفلاحة ، أنت تحرث وتبذر وفروى ، وبعد ذلك تحصد .

إذن فهو يريد أن يوضح لك أن المتاعب التى فى الحرث ، والمتاعب التى فى البذر ، والمتاعب التى فى السقى كلها متى ترى نتيجةها ؟ أنت ترى الشجعة ساعة الحصاد ، فالفلاح يأخذ (كيلتين) من القمح من مخزنه كى يزرع ربع فدان ، ولا يقول له : أنت أنقصت المخزون ، لأنه أنقص المخزون للزيادة ، ولذلك فالذى لم ينقص من مخزنه ولم يزرع ، يأتى يوم الحصاد يضع يده على خده نادماً ولا ينفع الندم حينئذ !

إن الحق يريد أن يقول لنا : إن المنهج وإن أنعبك ، وإن أخذ من حركتك شيئاً كثيراً إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب نيتك وإقبالك على العمل ، ولقد ضرب لنا الله المثل فى قوله :

﴿ كُنْزٌ حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الآية ٢٦١ سورة البقرة)

هذا أمر واضح ، حبة تأخذها منك فتتقص ما عندك ، لكنها تعطيك سبعائة ، إذن فساعة تؤخذ منك الحبة لا تقل : إنك نقصت ، إنما قدّر أنك ستزيد قدر كذا . ويعطينا الله ذلك المثل فى خلق من خلقه وهو الأرض ،

الأرض الصماء ، أنت تعطيها حياة فنعطيك سبحانه . فإذا كان خلق من خلق الله وهو الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت . أفلا يعطيك رب هذه الأرض أضعافاً مضاعفة ؟ إنه قادر على أجزال العطاء ، هذا هو الفلاح عنى حقيقته ، وبعد ذلك فإنه ساعة يتكلم عن الفلاح بقول لك : إنك لن تأخذ الفلاح فقط ولكنك تنفى النار أيضاً .

فيقول الحق سبحانه :

﴿وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٢١)

إذن ففيه مسألتان : سلب لمضرة ، وإيجاب منفعة ، إنه يوجب لك منفعة الفلاح ويسلب منك مضرة النار . ولذلك يقول تعالى :

﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

لأنه إذا زُحِرَ عن النار ولم يعد في نار ولا في جنة فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحِرَ عن النار وأدخل الجنة ؟ إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا السبب في أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيرنا النار ونمر عليها ، لماذا ؟ كي نعرف كيف نجانا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كي نفلح وتنفى النار ؟ إن الوسيلة هي اتباع منهج الله الذي جاء به على لسان رسوله :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣١)

«وه الرحمة» تتجلى في ألا يوقعك في المتعبية ، أما الشفاء فهو أن تقع في المتعبية ثم تزول عنك ، لذلك فنحن إذا ما أخذنا المنهج من البدء فسنأخذ الرحمة .

﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

إن الشفاء هو إزالة للذنوب الذي تورطنا فيه ويكون القرآن علاجاً ، والرحمة تتجلى إذا ما أخذنا المنهج في البداية فلا تأتي لنا أية مناعب . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

والسرعة - كما عرفنا - مقابلها العجلة ، إن السرعة هي : التقدم فيها ينبغي ، ومعنى أن تتقدم فيها ينبغي : أنك تجعل الحدث تأخذ زمناً أقل ، والمثال على ذلك عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات في زمن أقل ، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات في السيارة فهو يسرع كي تأخذ منه ساعتين . إذن فالسرعة هي : التقدم فيها ينبغي ، وهي محمودة ، وضدها : الإبطاء . فالسرعة محمودة ، والإبطاء مذموم .

لكن «العجلة» تقدم فيها لا ينبغي ، وهي مذمومة ، مقابلها «التأني» ، والتأني ممدوح ، إذن فالسرعة محمودة ، ومقابلها الإبطاء مذموم ، والعجلة مذمومة ، ومقابلها التأني ممدوح ، والمثل الشعبي يقول : في التأني السلامة وفي العجلة الندامة .

إن الحق يقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » أى : اخذوا المغفرة واخذوا الجنة بسرعة ، لأنك لا تعرف كم ستبقى في الدنيا ، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملاً من أعمال الخير ، لأنك لا تعرف أبقى له أم لا . فانتبهز فرصة حياتك واخذ المغفرة واخذ الجنة ، هذا هو المعنى الذى يأتى فيه الأثر الشائع « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

الناس تفهمها فهماً يؤدي مطلوباتهم النفسية بمعنى : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً : يعنى أجمع الكثير من الدنيا كى بكفليك حتى يوم القيامة . وليس هذا فهماً صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً ، أما أمر الآخرة فعليك أن تعجل به .

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » ونحن نعرف أن المساحات لها طول وعرض ، لأن الذى طوله كعرضه يكون مربعاً ، إنما الذى عرضه أقل من طوله فنحن نسميه « مستطيلاً » ، ونحن يقول الحق « عرضها السموات والأرض » نعرف أن العرض هو أقل البعدين ، أى أنها أوسع مما نراه ، فكانه شبه البعد الأقل في الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضاً فأعطانا أوسع مما نراه . فإذا كان عرضها أوسع مما نعرف فما طولها ؟ أنه حد لا نعرفه نحن .

قد يقول قائل لماذا بين عرضها فقال : « عرضها السموات والأرض » . فإين طولها إذن ؟ ونقول : وهل السموات والأرض هي الكون فقط ؟ إنه سبحانه يقول :

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

ويقول صلى الله عليه وسلم : (ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألصقتها ملك في فلاة) . ألست هذه من ملك الله ؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أعدت للمتقين ، ومعنى « أعدت » أى هيئت وصنعت وانتهت المسألة ! يؤكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

(عرضت على الجنة ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت) (١) .

لماذا ؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعنى أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك ، ولكن الوجود للحدث ينفى أن لا يوجد ؛ لأن وجوده صار واقعاً ، فعندما يقول : « أعدت » فمعناها أمر قد انتهى الحق من إعداده ، ولن يأخذ من ثخامات الدنيا ويتنظر إلى أن ترتقى الدنيا عندكم ويأخذ وسائل ومواد بما ارتقيتم ليعدها الجنة ، لا .

لقد أخبر سبحانه عنها فقال : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، وأعد سبحانه الجنة كلها بـ « كن » ، فعندما يقول : « أعدت » تكون مسألة مفروغاً منها . ومادامت مسألة مفروغاً منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه ، والجنة أعدت للمتقين ، فمن هم المتقون ؟

الَّذِينَ يُفِقُّونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٤﴾

هذه بعض من صفات المتقين « والكاظمين الغيظ » لأن المعركة - معركة أخذ - ستعطينا هذه الصورة أيضاً . فحزمة وهو سيد الشهداء وعجم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقتل . ولينه يُقتل فقط ولكنه مُثل به ، وأخذ بضع منه وهو الكبد فلاكته « هند » ، وهذا أمر أكثر من القتل . وهذه معناها ضغن داء .

وحينها جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مقتل حمزة وقالوا له : إن « هنداً »

(١) رواه البخاري في الآذان ، وابن ماجه في الإقلاعة ورواه أحمد في المسند .

أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها ، إذ جعلها الله عَصِيَّةً عليها ، قال : « ما كان الله ليعذب بعضاً من حمزة في النار ، كأنها ستذهب إلى النار ، ولو أكلتها لتمثلت في جسمها خلايا ، وعندما تدخل النار فكأن بعضاً من حمزة دخل النار ، فلا يد أن ربها يجعل نفسها تحبش وتنهياً للقيء وتلفظ تلك البضعة التي لاكتها من كبد سيد الشهداء .

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة بأنها أظلم ما لقي : إنها مقتل حمزة فقال : (لئن أظفرن الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم) .

وهنا جاء كظم الغيظ لياخذ ذروة الحدث وقمته عند رسول الله في واحد من أحب البشر إليه وفي أكبر حادث أغضبه ، وينزل قول الحق :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١٥)

(سورة النحل)

كى نعرف أن ربنا - جل جلاله - لا يفعل لأحد : لأن الانفعال من الأغيار ، وهذا رسوله فأنزل - سبحانه - عليه : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » ويأتى هنا الأمر بكظم الغيظ ، وهو سبحانه يأتى بهذا الأمر في مسألة تخص الرسول وفي حدث « أحد » . وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون في السلم كما كانت في الحرب . وتكون مع الناس دون رسول الله ؛ لأنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ » ونعرف أن كل الأمور المعنوية مأخوذة من الحسيات . وأصل الكظم أن تملأ القربة ، والقرب - كما نعرف - كان يحملها « السقا » في الماضي ، وكانت وعاء نقل الماء عند العرب ، وهي من جلد مذبوغ ، فإذا ملئت القربة بالماء شد على رأسها أى ربط رأسها ربطاً محكماً بحيث لا يخرج شيء مما فيها ، ويقال عن هذا الفعل : « كظم القربة » أى ملأها وربطها ، و القربة لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فمن ليوتها تخرج الماء فتكظم وتربط بإحكام كى لا يخرج منها شيء .

كذلك الغيظ يفعل في النفس البشرية ، إنه يهيجها ، والله لا يمنع الهياج في النفس لأنه انفعال طبيعي ، والانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها في التكوين الإنساني . إنما هو يريد لها لأشياء مثلاً : الغريزة الجنسية ، هو يريد لها لبقاء النوع ، وبضع من التشريع ما يهذبها فقط ، وكذلك انفعال الغيظ ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصَبَّ في قلب من حديد لا عواطف له ، لا ، هو سبحانه يريد للمؤمن أن يتفعل للأحداث أيضاً ، لكن الانفعال المناسب للحدث ، الانفعال السامى الانفعال المشمر ، ولا يأتى بالانفعال المدمر .

لذلك يقول الحق :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سَاجِدًا يَسْتَغْفِرُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فالمؤمن ليس مطبوعاً على الشدة ، ولا على الرخمة ، ولكن الموقف هو الذى يصنع عواطف الإنسان ، فالخلق سبحانه يقول :

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وهل هناك من هو ذليل عزيز فعلاً ؟ نقول : المنهج الإيماني يجعل المؤمن هكذا ، ذلة على أتباع المؤمن وعزة على الكافر . إذن فالإسلام لا يصب المؤمنين في قالب كفى لا ينفعون في الأحداث .

ومثال آخر : ألم يتفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم ؟ لقد تفعل وبكى وحزن . إن الله لا يريد المؤمن من حجر . بل هو يريد المؤمن أن يتفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عند فراق ابنه : (إن العين تدمع وإن القلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك

يا إبراهيم لحزونون (١).

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب . بل انفعال موجه ، والغبط يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن منيع الله ، ولكن على المؤمن أن يكظمه . . أى لا يجعل الانفعال غالباً على حسن السلوك والتدبير . والكظم - كما قلنا - مأخوذ من أمر محس . مثال ذلك : نحن نعرف أن الإبل أو العجاوات التى لها معدنان ، واحدة يُخْتَرَن فيها الطعام ، وأخرى تتغذى منها مباشرة كالجمل مثلاً ، إنه يجتر .

ومعنى : يجتر الجمل أى يسترجع الطعام من المعدة الإضافية ويصغفه ، هذا هو الاجترار . فإذا امتنع الجمل عن الاجترار يقال : إن الجمل قد كظم . وأخفق سبحانه بقول : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الانفعال فى ذاته ، فقد يبقى فى النفس وتكظمه ، ومعنى كظم الانفعال : أن الإنسان يستطيع أن يخرج به إلى حيز النزوع الانفعالى ، ولكنه يكبح جماح هذا الانفعال . أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك ، وكان الأمر لم يحدث ، وهذه هى مرتبة ثانية . أما المرتبة الثالثة فهى : أن تفعل انفعالات مقابلاً : أى أنك لا تنف عند هذا الحد فحسب ، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك . إذن فهناك ثلاث مراحل : الأولى : كظم الغيظ . والثانية : العفو . والثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه .

وهذا هو الارتقاء فى مراتب اليقين ؛ لأنك إن لم تكظم غيظك وتفعل ، فالمقابل لك أيضاً لن يستطيع أن يضبط انفعاله بحيث يساوى انفعالك ، ويميل تجاهك باخدة والغضب ، وقد بطل الغيظ تماماً وربما ورث أجيالاً من أبناء وأحفاد . لكن إذا ما كظمت الغيظ ، فقد نخجل الذى أمامك من نفسه وتنتهى المسألة .

« والعافين عن الناس » مأخوذة من « عفى على الأثر » والأثر ما يتركه سير الناس

(١) روى البخارى فى الجنائز ، ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى المنتزه ورواه أحمد فى المسند .

في الصحراء مثلاً ، ثم تأتي الريح لتمحو هذا الأثر ، ويقول الحق في تذييل الآية :
« والله يحب المحسنين » .

وقلنا في فلسفة ذلك : إننا جميعاً صنعة الله ، والخلق كلهم عيال الله . وما دمتنا
كلنا عيال الله فعندما يُسيء واحد لأخيه فإنه يقف في صف الذي أسىء إليه ، ويعطيه
من رحمته ومن عفوه ومن حنانه أشياء كثيرة . وهكذا يكون المساء إليه قد كسب .
أليس من واجب المساء إليه أن يُحسن للمسيء ؟ .

لكن العقل البشري يفقد ذكائه في مواقف الغضب ؛ فالذي يسيء إلى إنسان
يحسبه عدواً . لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذي يسيء إليك إنما يجعل الله في
جانبك ؛ فالذي نالك من إيذائه هو أكثر مما سلبك هذا الإيذاء . هنا يجب أن تكون
حسن الإيمان وتعطى المسيء إليك حسنة .

ويضيف الحق من بعد ذلك في صفات أهل الجنة :

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِنْهُمْ وَمَنْ
يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا
فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

والفاحشة هي الذنب الفظيع . فهل معنى ذلك أن الرماة في غزوة أحد حين تركوا
مواقعهم ، قد تخرجوا من الإيمان ؟ لا ، إنها زلة فقط ، لكنها اعتبرت كبيرة من
الكبائر لمن أشار على المؤمنين أن ينزلوا ، واعتبرت صغيرة لمن حُرّض - بالبناء للمفعول -
على أن ينزل من موقعه .

إذن فهو قول مناسب : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » وجاء الحق هنا بـ « ذكروا الله » كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو من نسي الله ، فلاحظه فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة أو على بال من ظلم نفسه ، والذي يُجرى الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة ، أنه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه في الآخرة ماثلاً أمامه ، ولو تصور هذا لامتنع عن الفاحشة .

وكذلك الذي يميل في الطاعة أيضاً ، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين . ولو ذكر الله وعطاءه للمتقين لما تكامل عن طاعة الله . ولذلك يقول الحق : « ذكروا الله فاستغفروا لدنوبهم » فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله .

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف . بعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وظلم النفس صغيرة من الصغائر . وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هي الزنا ، لأن القرآن نص عليها ، ومادون ذلك هو الصغيرة .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا كبيرة مع الاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار)^(١)

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة لأن الصغيرة مع الصغيرة نصير كبيرة . وحين ننظر إلى قول الله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » نجد أن الذي فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضاً لأنه حقق نفسه شهوة عارضة ، وأبغى على نفسه عذاباً خالداً .

ولماذا لم يقل الحق إذن : والذين ظلموا أنفسهم فقط ؟ أي يكون العطف بـ (الواو) لا بـ (أو) ؛ لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس .

لأن الذي يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة ، لكن الذي

(١) رواه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس زعمه ، ورواه البيهقي - عن ابن عباس - موقفاً ، وله شاهد عند البخاري ، ومن جهة الديلميين عن أبي مرقوعا ، وأخرجه الطبراني عن أبي هريرة . وزاد في آخره : « فطوبى لمن وجد في كتابه استغفاراً كثيراً » لكن في إسناده بشرين غريبين الفارسي مزوك .

يظلم نفسه بذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع ؛ فالذي يشهد الزور - على سبيل المثال - إنه لا يحقق لنفسه النفع ، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً . إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لم يلب حاجة عاجلة لغيره ، ولم ينقذ نفسه من عذاب الآخرة . أما الإنسان الذي يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة في الدنيا ، وبعد ذلك ينال العقاب في الآخرة .

لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه ، بل يضر نفسه ؛ فالذي هو شر أن يبيع دينك بدنياك ؛ إنك في هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل . والحق لم يته عن متاع الدنيا ، ولكنه قال عنه : « فل متاع الدنيا قليل » . وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره ، وهو لا يأخذ شيئاً ويظلم نفسه .

ويقول الحق : « فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » . ومعنى « ذنب » هو مخالفة لتوجيه منهج . فقد جاء أمر من المنهج ولم يتفد الأمر . وجاء نهي من المنهج فلم يلتزم به . ولا يسمى ذنباً إلا حين يعرفنا الله الذنوب ، ذلك هو تقنين السماء . وفي مجال التقنين البشري نقول : لا نجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم .

وهذا يعني ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة ؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها ، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها . أي أنه يتم النص على الجريمة قبل أن ينص على العقوبة ، فما بالنا بمنهج الله ؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً ، وبعد ذلك يحدد العقوبات التي يستحقها مرتكب الذنب .

ولننتبه إلى قول الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك : أستغفر الله لا . إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله وأن يصير على ألا يفعل الذنب أبداً .

وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى ؛ إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر نصر على عدم العودة ، إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط ألا

يكون بنية مُسبقة ، وتقول لنفسك : سارنكب الذنب ، واستغفر لنفسي بعد ذلك .
إنك بهذا تكون كالستهزيء بربك ، فضلا على أنك قد تصع الذنب ولا يهلك الله
لستغفر . وقوله الحق : « ولم يصررا على ما فعلوا وهم يعلمون » يوضح لنا أنه
لا عفو إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص .

إن الحق يعلمنا ويعرفنا أولاً ما هو الذنب ؟ وما هو العقاب ؟ وكمية الاستغفار ؟
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ جَرَّأُوهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجِئْتُ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ
أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١٣٦)

« أولئك » إشارة إلى ما تقدم في قوله سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٥)

(سورة آل عمران)

مع بيان أوصاف المتقين في قوله :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُلُوفِ الْعِغِظِ وَالْعَائِينَ عَنِ النَّاسِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إنهم ينفقون في السراء نفقة الشكر . وينفقون في الضراء نفقة الذكر والتضرع ،

لأن النعمة حين توجد بسراء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة ، والنعمة حين تنفق في الضراء تقتضى ضراعة إلى الله ليخرج عن المنفق آثار النعمة والضراء . إذن فهم يتفقون سواء أكانوا في عسر ، أم كانوا في سر .

إن كثيراً من الناس ينسيهم البر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم . وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بالآلام الغير ويشغلوا بالآلام أنفسهم . لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً . وأمره بالإتفاق في العسر واليسر . ولذلك قالوا : فلان لا يقبض يده في يوم العرس ولا في يوم الحزن .

وتتابع أوصاف المتقين :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِيْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفي ذلك لون من تطمين المؤمن على أعيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستحب مرة لتزغات الشيطان ، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى ، لأن الله جميل ذلك من أوصاف المتقين . فالفاحشة التي تكون من تزعج الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون . لأن الحق هو الغفور : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

إنهم قد أخبروا بذلك ، فلم يحرم الحق أحداً إلا بنص ، ولم يعاقب إلا بجرمة . وقول الحق سبحانه : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » هو إشارة لكل ما سبق . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جميل للمعاملين بهذا العمل من التقوى فوسين : القوس الأول الذي ابتداء به هو قوله الحق : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

والقوس الثاني هو الذي أنهى الأمر : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار » .

فالجنة الأولى التي ذكرها الله إلهاباً للمواطف النفسية لتقبل على ما يؤدي لهذه الجنة ، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً . « ونعم أجر العاملين » .

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل . والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه . فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل ، وأيضاً تقدير للعامل . فإن طلب أصحاب عمل متعددون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة ، وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل .

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل ، أو حاجة من عامل ، وحين ننظر إلى الصفقة في الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك . ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً .

ما هذه المسألة ؟ . هو ليس محتاجاً إلى عملك ، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك : إن هذا الأجر هو الحد الأدنى ، لكن لي أنا أن أضعف هذا الأجر ، ولي أن أفضّل عليك بما فوق الأجر . فكم مرحلة إذن ؟ إنها ثلاث مراحل ، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر .

إذن فالمحاجة من جهة واحدة هي جهتك أنت أيها العبد ، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك ، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط ، ولكن فوق ذلك بكثير . إن الذي تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك - على سبيل المثال - ما يكفيك قوت يوم ، أو قوت يوم ونصف يوم . ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا تنتهي مدة إنفاقه ، فهو القائل : « ونعم أجر العاملين » .

هذا هو الأجر الذي يقال فيه : نعم هذا الأجر ؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودي ، بل يفوق كل ما بذلت من جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود .

إنه سبحانه متفضل على أولاً . ومتفضل على أخيراً ، لبدل الحق سبحانه وتعالى على
أنك - أيها العبد - حين تعمل الطاعة يعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك
أجرأ على ما فعلت .

وأوضحنا أن هذه الآيات جاءت بين آيات معركة أخذ إرشاداً واستشاراً للأحداث
التي وقعت في أحد ، حتى إذا عاش الإنسان في تصور الأحداث فالأحداث تكون
ساختة ، ويكون النقاط العبرة منها قريباً إلى النفس ؛ لأن لها واقعاً يحتمها ويؤكددها .
والحق سبحانه وتعالى يقول من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١٣٧)

أي أنتم لستم بدعاً في هذه المسألة . « خلت » تعني « مضت » ، أي حصلت
واقعاً في أزمان سبقت هذا الكلام . وعادة فالأخبار التي يتكلم بها الإنسان مرة تكون
خبراً يحتمل الصدق والكذب ، لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صدق أو كذب ؛ لأن
الواقع ليس أمراً مستقبلاً ، ولكنه أمر قد سبق ، فبمجرد أن يحىء الكلام لا ينتظر
واقعاً يؤكد صدق الكلام ، لأن الواقع قد حدث من قبل ، فيقول سبحانه : « قد
خلت من قبلكم سنن » .

والسنن هي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون ،
ليضمن للإنسان - السيد في هذا الكون - ما يحقق مصلحته ، ومصلحة الإنسان تتمثل
في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسبق قبل الإنسان .

وقد قلنا إن في هذا الكون تسخييراً : أي لا إرادة له ، لا إرادة للجهد ولا للنبات .

ولا للحيوان في أن تفعل الخير لك أو لا تفعل . فلم يحدث أن جاء إنسان لأرض صالحة للزراعة ، ووضع فيها بذوراً ، فلم تنبت الأرض وقالت له : لن أعطيك ، ولم تقل الأرض يوماً عن إنسان : إنه كافر فلن أعطى له الرزق .

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان مادام يأخذ بأسبابها ؛ فهي تؤدي له . والحيوانات أيضاً مسخرة لخدمتك لا باختيارك ، ولا بقدرة تسخيرك لها ، ولكن بتسخير الله لها أن تفعل .

وقلنا: إن الإنسان قد تكون عنده مطية ، مثل بعض الفلاحين ، فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكوام السباح من روث الحيوان وفضلاته ، وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عملها هذا ويجعلها ركوبة له ، ويدللها بالأشياء التي تعرفونها من لجام جميل وسرج أجمل ، ويرفها في حياتها وينظفها .

هل في الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباح أو امتنعت في الحالة الثانية عن حمل الإنسان ؟ لا ؛ أنت تسبرها مثلما تريد أنت ، فليس لها اختيار . ولا النبات له اختيار ، ولا الجماد له اختيار ، ولا الحيوان أيضاً ، إنما الاختيار للإنسان .

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه مستقل بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية . والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرياً على الإنسان كي يظل في إطار التسخير . ويترك الحق للإنسان أشياء لينقي له فيها الاختيار . فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه شيء يسير على أحدث نظام ولا تصادم فيه ، والذي فيه اختيار للإنسان هو الذي يجتلي ، لماذا ؟

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذي خلق وهو الله - سبحانه وتعالى - فإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فأجعل اختيارك في إطار منهج الله ؛ وحين تجعل اختيارك في إطار منهج الله تكون قد أصبحت سوية كبقية الاجناس وتسير الأمور معك بانتظام .

وعندما تقارن بين شيء للإنسان فيه اختيار وعمل ، وشيء لا اختيار للإنسان فيه

ولا عمل ، فأنت تجد أن الشيء الذي لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر ، ولا خلاف فيه أبداً ، أما الشيء الذي فيه اختيار للإنسان ، فأنت تجد فيه الخلاف .

مثال ذلك : لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير ، فإننا نجدها تسير في طريق واحد ، وتتقابل جيئة وذهاباً فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار ، ولا قتل لراكب أحد الحمارين .

إن الحيوانات يتفادى ويتحاشى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نالماً . ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تصادم ؛ لأن ذلك من نطاق تسخير الحق للحيوان .

ولنتظر إلى الإنسان حين تدخل ليصنع وسيلة مواصلات ، صنع الإنسان الران السيارات ، بقودها الإنسان ، ومع أن الإنسان هو الذي يقود السيارات ، ورغم ذلك بدأت تأتي المخالفات والمصادمات والحوادث ؛ لأن للإنسان بدءاً في ذلك .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدللك على أن ما خلق مسخراً بأمر الله وتوجيهه لا يتأتى منه فساد أبداً ، إنما يتأتى الفساد مما لك فيه اختيار ، فحاول أن تختار في إطار منهج الله ، فعندما يقول الحق لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فقلبك أن تصدق وتطيع ؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارت بانتظام رائع ، وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور في حياتك تمشي بيسر .

ولذلك قلنا : إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس ، ولم يشتكوا أزمة هواء ، لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام ؟ إن الإنسان له دخل في إنتاج الطعام . فما للإنسان فيه دخل يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله : « افعل كذا ولا تفعل كذا » .

الكون مخلوق بحق . ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء في الوجود يؤدي مهمته كما أَرادها الله ، وكما سخر من أجله . وإذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء يسير بحق . وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل ونتاج ما هو باطل ، والكون مبني على الحق .

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١)

(سورة الدخان)

إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة ، فلا شيء يعتدى على شيء آخر أبداً . واختيار الإنسان هو الذي يأتي بمقابل الحق وهو الباطل ، ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل ، والباطل يصطدم بالحق لكن الحق يبقى ، والباطل يزول ويذهب ، ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا بقول تعالى :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٢٢)

(سورة الإسراء)

إذن فقوله سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » يعني : اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق ، أدام وبقي اصطدام الباطل بالحق ؟ لا ؛ لأن الباطل كان زهوقاً . ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول في مواكب الناس بعضهم مع بعض ، ولكن في مواكب الباطل مع حق السماء . وحق السماء يمثلها الرسل والمناهج التي جاءت من عند الله وكل حق جاء من السماء وجاء من مناهج الله قابله قوم مبطلون .

لماذا ؟ لأن السماء دائماً لا تتدخل إلا حين يشيع الفساد ، ومادام الفساد يشيع فإن هناك طائفة منتفعة بالفساد ، وهذه الطائفة المنتفعة بالفساد والباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتي مواكب السماء ليصدم هذا الباطل والفئة المنتصرة للباطل ، فتشأ معركة ، فقال الحق حينئذ : « قد خلت من قبلكم سنن » . قالها الحق ليعرف أن الباطل زهوق ، وأن كل معارك أهل الأرض مع منهج السماء قد انتصر فيها الحق . ولذلك تأتي سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك ، بداية من قوله سبحانه :

﴿ وَإِلَّا مَدِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٢٣)

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَنَّتِمْ ﴾ (٢٤)

(سورة العنكبوت)

هذه هي الصورة الأولى ، وثاني الصورة الثانية :

﴿وَعَادًا وَنَمُودًا وَقَدْ ثَبَّيْنَا لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ^ط وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتلككم على ما حدث لهم . والصورة الثالثة :

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(سورة العنكبوت)

وساعة تسمع « وما كانوا سابقين » . أى كأن هناك حاجة تلاحقهم ، والذي يلاحقه شيء فإنه يحاول أن يسبقه ، لكنهم لا يستطيعون . وثاني السن واضحة بعد ذلك :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ^ط فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّبَغَةُ
وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع في أمم قد سبقتم وبقيت لها مساكن ، فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب ، ولا تزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكل مكان فيه أثر من الآثار . ولذلك يوضح الحق : فإن كنتم تريدون التأكد من ذلك فأتوا قد أخبرتم ، ومن آمن بى فليصدق خبرى ، ولغير المؤمن ولن يريد اطمئنان قلبه بقول سبحانه :

﴿ فَبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقَةُ الْكَافِرِينَ ﴾

(الآية ٣٦ سورة النحل)

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق - وهو الشيء الثابت - مع الباطل ، وهذه القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له . ويصنعها الحق فيهم ، صراعاً بين حق وباطل فيما لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً . وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل في أشياء ليست من الإنسان ولكنها تخدم الإنسان ، وهذه نراها في الأمور المادية . أما في القيم فالحق يقول :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ طَرَفِ الْإِبْرَةِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝٣٦﴾

(سورة الرعد)

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال في الأودية ، والأودية كما نعرفها هي المكان المحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعلى فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل في الأودية . والوديان هي محل الخصب ، لأن الغرين والطين الذي ينزل من الجبال مع مياه المطر ويتسبب ويضرب تراباً خصباً يخرج منه الزرع . وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، ويبقى المياه يبحث له عن ملك آخر ، ولو إلى باطن الأرض ، وذلك كان مظهراً مألوفاً في الجزيرة العربية ، فعندما يأتي السيل فإن الأودية تمتلئ ماءً ، كل وادٍ يأخذ على قدر سعته . « فاحتمل السيل زبداً رابياً » ونحن نراه في الحقول ونسميه « الريم » الذي يطفو على سطح الماء ، ما الذي يحدث لهذا الريم ؟ إنه يتجمع ويطفو ثم يركن ويكمل جانباً . ألم تر القدر بها لحم تفور ؟ . إننا نجد الريم قد طفا على السطح . وهذا الريم فيه أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود في القدر ، فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجته على السطح ، فإما أن يخرج الإنسان خارج القدر ، وإما أن يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهي .

ومن أين جاء هذا الزبد ؟ إنه يأتي من الأرض ، والأرض فيها أشياء كثيرة ، كجذور النبات وبقايا ما حملته الهواء ، وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض ، هذه الأشياء عندما توجد في المسام ، وتأتي الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها ؛ لذلك فعندما ينزل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ؛ ليحبل هناك منفذاً للجذور الصغيرة .

وينزل الله المطر ليغسل التربة كلها ، ويجعل هذه الأشياء تطفو ؛ لأنها غثاء ، ويطفو الغثاء . وساعة أن يطفو الغثاء قياك أن تفهم أن ذلك علو ، إنه علو إلى انتهاء ، كذلك فورة الباطل .

إياك أئن تظن أن الزبد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان علواً على ما في القدر ، لا . إنه تطهير لما في القدر أو الإناء ، ولهذا قال الحق : « فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التمرجية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى . ولننظر إلى الأشياء القذرة التي تلقى في البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطئ .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الفجر)

إنها تخرج على الشاطئ ويجمعها المكلفون بتنظيف الشاطئ . وإلا كيف تتم صيانة الماء ؟ إنه سيحاته يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية . إذن فلماذا عندما ينزل سبلاً ، فإنه يلتقي التربة من الموانئ التي تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة ، وقد لا يكفى بعضنا بهذا المثل ، فيضرب لنا الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَقٍ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَأَنَّهُ لَظَلَّ قَالِمًا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ونحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أى معدن فى النار ، فإن المعدن ينصهر ويصير كالمجينة وتخرج منه فقائيع ونحن نسميها خبث المعدن ، وعندما نخرج الخبث من المعدن فإنه يصير قوياً ، إذن فالنار قد صهرت المعدن ، وأخرجت منه الخبث الضار فيه ، أو الذى يجعله لا يؤدى مهمته بكفاءة عالية ، فأنا قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو أريد أن أستخرج منه الصلب ، وهذه العمليات معناها أننا نصهر الحديد بالنار لنزيل خبثه ليزداد قوة . وكذلك الذهب والفضة ساعة نريد أن نخلصها من هذه الآثار فإننا نصهرهما لنخرج منها الأشياء الخارجة عنها أى التى تختلط بهما وتشوبها وهى ليست منها .

لماذا إذن ياربى هذا التمثيل الحسى فى المياه ؟ والحلية التى لا تؤدى ضرورة ، والمتاع وهو الذى يؤدى ضرورة ؟ إنه سبحانه يقول : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » .

إن الحق كالماء ، والحق كالنار ، والماء يحمل الزيت الراى بعيداً عن مسام الأرض ، والنار تخرج الزيت والخبث من المعادن ، وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة لنا ، كذلك يضرب الله الحق والباطل : « فأما الزيت فيذهب جفاء » .

وجفاء أى مطروحاً مرمياً ، « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . ذلك هو صراع الحق والباطل فى المبادئ والقيم ويصوره الله فى الأمور المادية . ومن العجيب أنه يصوره بتناقضين ولكنها متناقضان يؤدىان مهمة واحدة ، ماء ونار ، فإياك حين ترى شيئاً يتناقض شيئاً أن تقول : هذا يتناقض ذاك ، لا لأن هذا الشيء مطلوب لمهمة ، وذاك الشيء مطلوب لمهمة أخرى .

إذن فقول الحق سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » هو لفت لنا إلى صراع الحق مع الباطل ، وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله فورة وعلو ، ونقول : هذا إلى جفاء . وهذه سنة من سنن الحياة . وإن أردتم أن تتأكدوا منها ، فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى :

« فسيرا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وهنا ملحظ عام ، وملحظ خاص ، الملحظ العام : أننا نفهم أن المقصود بذلك السير على الأرض ، وتلك هي حدود رؤيتنا ، لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل فهو الخالق لهذا الكون ، ونحن مازلنا نجهل جزئيات في هذا الكون ، ولم نعرف بعضها إلا أخيراً ، وخالق الكون هو الذي يعلم كل أحوالنا .

نحن نقول : إننا نسير على الأرض ، لأننا كنا نفهم أن هذه الأرض ليس عليها إلا نحن فقط ، ثم تبين لنا - بعد أن أخذ العلم حظه - أنه لولا وجود الهواء في الأرض لما صلحت للحياة . ولذلك فعندما تدور الأرض - فالحواء الذي حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوي . إذن فالغلاف الجوي جزء من الأرض وله امتداد كبير ، فالإنسان عندما يسير فإنه يسير في الأرض ، أما الذي يسير على الأرض فهو الذي يسير فوق الغلاف الجوي ، أما السائر على اليابسة ، والغلاف الجوي مازال فوقه فهو يسير في الأرض لا على الأرض .

ومادامت المسألة هي سنن تقدمت ، ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة ، لذلك يقول لنا : « فسيروا في الأرض » تسير بماذا ؟ . إما أن تسير بالانتقال ، أو تسير بالأفكار ؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير وينرك هذه المهمة للرحالة ، والرحالة - مثلاً - هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة ، ورأوا وادي الأحقاف ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بنهاها .

إذن ففيه عواصف وازت الكثير من الأشياء ، فعاصفة واحدة تطمر قافلة . فكيف من العواصف قد هبت على مر هذه الفرون ؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد فيقول :

﴿ الْمَرْتَكِبُ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ① إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ② الَّتِي لَا يَخْلُقُ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ③ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ④ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ⑤ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ⑥ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑦ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑧ ﴾

إنه سبحانه يخبرنا أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد أي متفوقة على حضارة مصر القديمة . وهي عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فآين هي الآن ؟ .

ومدامت الرمال بعاصفة واحدة - كما قلنا - تطمر قافلة ، فكم عاصفة مرت على هذه البلاد ؟ . ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض . لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض ؟ لقد غطتها العواصف الرملية .

والمثل على ذلك : أنك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود تجد من التراب الناعم ما يغطي أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ . فإذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً ، أو عامين ، أو ثلاثة أعوام ، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه ؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويغطي الأثاث والأرض . وإذا كانت هذه الأمور تحدث في منازلنا فما بالك بالمنطقة التي فيها أعاصير وعواصف رملية ؟ هل تطمر المدن أو لا ؟

إن المدن والحضارات تطمر تحت الرمال ؟ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنجد نحفر في الأرض ، وهذا لون من السير في الأرض للرؤية والعظة . ونحن يقول الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » فإذا يعنى بعاقبة المكذبين ؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة يقول عنها الحق :

﴿الرَّكَيفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِعَادٍ ۚ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ۚ وَتَمُودَ الَّذِي جَاءَ بِالسَّحَرِ بِالْوَادِ ۚ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۚ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۚ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۚ﴾

(سورة الفجر)

إن الذي أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل هذه الحضارة ما يصونها ؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها ؟ .

لا بد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها ، فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء . إنها القوة الأعلى منها ، وهكذا نصدق قوله الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . إنه القيوم الذي يرى كل الخلق ، فمن يطغى ويقتد فليلق النهاية نفسها . إذن فقوله سبحانه يحمل كل الصديق :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وبعد ذلك يقول الحق :

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾

انظر إلى الكلمة « هذا بيان للناس » إن البيانات عندما تنافى تأخذ قوتها وسطوتها وعظمتها من قوة من أصدر البيان ؛ أنت ساعة تجد ثورة في مجتمع ما فإننا نسمع كلمة « بيان رقم واحد » تهتز له الدنيا وهو بيان قادم من يشر فيها بالناس بالبيان القادم من الله ؟

إنه إيضاح من الله : أنا لن آخذكم على غرة « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » وه الهدى : كما نعرف هو الطريق الموصل للغاية المرجوة . وه الموعظة : معناها : حمل النفس ترغيباً وترهيباً ، لعمل الخير والترغيب ، والبعد عن الشر بالترهيب ، تلك هي الموعظة .

وكل هذه الأشياء عندما جاءت في ثانيا آيات أخذ بعد أن أخذنا منها العبرة والحديث مازال ساخناً . ولذلك فقبل أن يكمل لنا قصة أخذ استثار النفوس بهذه المسألة ، ووضع لنا الأشياء المادية والقيمة ؛ لتأخذ بها في حياتنا ، وحتى لا تنتهي قصة أخذ وينصرف الناس عن العظات التي كانت فيها .

ومادامت المسألة هكذا ، وكان المقاتلون في سبيل الله هم جنود الحق ، وعرفوا ذلك بتأييد الله لهم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بينهم . وهو حامل المعجزة الدالة على صدقه ؛ لذلك فالذي حدث في معركة أحد لا يصح أن يضعفكم ؛ لأنكم تعرفون كيف يسند الله الحق ويقويه ، وتعرفون حملة الله على الباطل . وقد أوضحنا لكم السنن والبيان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

والمقصود بقوله : « ولا تهنوا » أي لا تضعفوا ، وهي أمر خاص بالمسألة البدنية ؛ لأن الجراحات أنهكت الكثيرين في موقعة أحد لدرجة أن بعضهم أقعد ، ولدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقدر أن يصعد الجبل ، وحمله طلحة بن عبيد الله على ظهره ليقوم ، لذلك قال الحق : « ولا تهنوا » ، لأنك عندما تستحضر أنك مؤمن وأن الله لن يخل بينك وبين جنود الباطل لأنك نصير للحق ، والحق من الله وهو الحق لا يسلم نبيه وقومه لأعدائهم فيوم تأق لك هذه المعاني إياك أن تضعف . والضعف هو نقصان قوة البدن .

« ولا تحزنوا » والحزن مواجهة قلبية ، وهم قد حزنوا فقد مات منهم كثير . مات منهم خمسة وسبعون شهيداً ، خمسة من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وهذه عملية صعبة وشاقة ، وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء ، وغضب لمقتل حزة - رضي الله عنه - وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً ! وما وقفت موقفاً قط أعيظ إلى من هذا » ثم قال : « لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم مكائك » .

فقال الحق : « ولا تحزنوا » ، لماذا ؟ لأنك يجب أن تقارن الحدث بالغاية من الحدث .

صحيح أن القتل صعب وإزهاق للنفس ، ولكن النظر إلى أين ذهاب . وانظر ماذا خلف من بعده . أما هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه وهي ليست كالحياة عندكم . إن الحياة عندنا لها مقاييس ، والحياة عند ربنا لها مقاييس ، فهل مقاييسنا أعلى من مقاييسه ؟ لا ، حاشا لله .

إذن فإذا نظرت إليه هو فاعلم أنه ذهب لخير مما ترك ، فلا تحزن عليه بل تفرح له ، لأنه مادامت الغاية ستصل إلى هذه المسألة ، إذن فقد قصر له مسافة الحياة ، ومادامت الغاية أن يصل إلى رحمة الله وإلى حياة عند الله بكافة مغائبيها ، فهو سعيد بجوار ربه ، ونحن في الغايات الدنيوية عندما نريد أن نذهب إلى مكان نُسرَّ من يجعل لنا الزمن لنصل إلى هذا المكان .

فبدلاً من أن أذهب إلى الإسكندرية ماشياً أذهب راكباً حصاناً أو أذهب راكباً سيارة ، والمتفرقة يذهب راكباً طائرة ، فإذا كانت الغاية مرجوة ومحبة إلى النفس ، وبعد ذلك يحىء لك حدث يقرب لك المسافة من الغاية ، فلماذا تحزن إذن ؟ لقد استشهد . إياك أن تقول : إن الله حرمنى قوته في نصرته الحق ، لا . هو أعطى قوة أخرى لكثير من خلقه نصر بهم الحق ، إنك عندما تعرف أن إنساناً باع نفسه لله ، لا بد أن تعرف أن الغاية عظيمة ، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة بدر ، يقدم أهله ، لأنه يعرف أنه إن قُتل واحد منهم إلى أين سيذهب ، إذن فهو يحب أهله ، لكنه يحبهم الحب الكبير ، والناس تحب أهلها هنا أيضاً لكن الحب الدنيوي .

« ولا تحزنوا » على ما فاتكم من الغنائم أو لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر لماذا ؟ وثائق الإجابة ، « وأنتم الأعلون » . . . ولذلك جاء مصداق ذلك حينما نادى أبوسفيان فقال : « اغل هبل » أى أن إلههم صار عالياً ، فقال الرسول لأصحابه : ألا تردون عليهم ؟ ، قالوا : بماذا ترد قال : قولوا لهم : الله أعلى وأجل فقال أبوسفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال أبوسفيان : إن موعدهم « بدر » العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لرجل من أصحابه : « قل نعم هو بيننا وبينك موعد »^(١)

فـ « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فما دعتهم على الإيمان فأنتم الأعلون ، وإذا أردتم أن تعرفوا معنى « الأعلون » حقاً ، فقلونا معركة « أخذ » بمعركة « بدر » ، هم قتلوا منكم في أخذ ، وأنتم قتلتم منهم في بدر . ولكنكم أسرتم منهم في بدر ، ولم يأسروا منكم أحداً في « أخذ » . وأنتم غنمتم في بدر ، ولم يفتكموا شيئاً في أخذ .

وأنتم الأعلون لأن الله حمى مدينتكم مع أنه لا حامية فيها ممن يكون فيه معنى الجندية . كل ذلك وأنتم الأعلون ، هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة . وإن نظرنا إلى المعركة نفسها « أخذ » وندع بدرأ وحدها ، في ظل قوله تعالى : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » لقد ثبتت تلك القضية لأنكم حينما كنتم مؤمنين - ومن شرط الإيمان اتباع أمر الذي لا ينطق عن الهوى - انتصرتم . وانتصرتم انتصاراً رائعاً ؛ لأنكم قتلتم في أول جولة للحرب بضعاً وعشرين من صناديدهم وفيهم صاحب الراية ، ولكنكم حينما خالفتم أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، تلخلخ الإيمان في قلوبكم .

إذن فالعملية التي حدثت تؤكد صدق « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فأنتم علوتم في أول الأمر ، وعندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار ، فقد صدقت القضية في قول الله : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وأيضاً فإنكم لو نظرتهم إلى المعركة نفسها لوجدتم أن عدوكم لم يبق في أرض المعركة ، بل أنتم الذين بقيتم في موضع المعركة . وأين ذهب هو ؟ أذهب إلى موقع آخر ينال فيه غلبة ونصراً ؟ لم يكن هناك إلا المدينة ، والمدينة ليس فيها أحد ، ولم يذهب عدوكم إلى هناك ، وإنما ذهب ناحية مكة ، إذن فهو الذي هرب .

وبعد ذلك ماذا حدث ؟ ألم يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ويطلب العدو مرهباً له ليظنوا به القوة ، وإن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ؟

(١) رواه ابن إسحاق وأحمد والبخاري ومسلم .

ولقد خرج رسول الله ، مع من ؟ أجاء بحامية لم تشهد المعركة ؟ لا . بل قال عليه الصلاة والسلام مناديا المسلمين : « إلى عباد الله » ، فالذين شهدوا المعركة سبعائة ، جرح منهم الكثير وقتل منهم خمسة وسبعون ، فيهم حمزة ، ومصعب بن عمير ، وعبدالله بن جحش ، وشناس بن عثمان ، وسعد مولى عتية ، هؤلاء خمسة من المهاجرين ، والباقي من الأنصار ، هؤلاء مطروحوون من العدد الذي شاهد أول الموقعة ، حتى أن رسول الله لم يأخذ بدلاً منهم من المدينة من القوم الذين عرضوا أنفسهم ليكونوا مع الجيش الذي يطارد قريشاً ، بل أثر الرسول أن يذهب بمن ذهب معه إلى المعركة أنفسهم ، ولم يكن منهم بطبيعة الحال الشهداء أو الجرحى .

لم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد المعركة إلا واحداً . وهو سيدنا جابر بن عبدالله . الذي لم يخرج في معركة أحد واعتذر إلى رسول الله بأن أباه عبدالله بن عمرو بن حرام قد خلفه على بنات له سبع وقال له :

يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ولست بالذي أترك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي فتخلف على أخوانك فتخلف عليهن فقبل رسول الله عذره، وأذن له فخرج معه وطاردهم رسول الله ومن معه إلى حمراء الأسد ، أما والده عبدالله بن عمرو فقد استشهد في أحد ومع ذلك فقد طلب من رسول الله على الرغم من استشهاده أبيه أن يخرج إلى حمراء الأسد . وذلك لتعلم أن الله يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة المدثر)

هذا وإن واحداً من المشركين الذين كانوا موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن خلفائه وهو معبد الخزاعي ، قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد وقال له : يا محمد : أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ثم لقي أباسفيان بن حرب ومن معه بالروحاء^(١) وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة - القاموس المحيط .

وسلم وأصحابه فقال له أيوسفیان: ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله ، ولم يزل بهم حتى ثنى. أباسفیان ومن معه فلولوا وجوههم إلى مكة خائفين مسرعين ، وقد ذهب رسول الله إلى حمراء الأسد فلم يجد أحداً فعسكر رسول الله ثلاثة أيام هناك ، ومعنى ذلك أنهم هم الذين فروا من المعركة . إذن فأنتم الأعلون ، ولكن لاحظوا الشرط « إن كنتم مؤمنين » . ثم بعد ذلك يسئلي الله المؤمنين فيقول :

﴿ إِن يَمَسُّكُمْ فِيْهِ فَعَدَمَسَ الْقَوْمَ فَرَحٌ ﴾
 فَمِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ
 وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

وقد تكلمنا - من قبل - عن « المس » وهو : إصابة يدون حس . . أي لمس لكلك لا نحس بحرارة أو نعومة مثلاً ، إنما « اللمس » هو أن نحس في الشيء حرارة أو نعومة ويحتاج إلى الالتصاق الموقت ، إنما « المس » هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً ، و« الفرح » هو : الجراح ، وفي لغة أخرى تقول « الفرح » - بضم القاف - وأقول بالفرح وهو الألم الناشئ من الجراح ، كي يكون لكل لفظ معنى .

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معناها واحد في الجملة ، إلا أن لكل معنى منها ملحظاً ، أنت تسمع مثلاً : رأى ، ونظر ، ولمح ، ورمى ، ورنأ . كل هذه تبدل على البصر . لكن كل لفظ له معنى :

رمى: رأى بمؤخر عينيه ، ولمح: رأى شامداً من بعد ، ورنأ: نظر بإطالة ، وهكذا .

ويقال أيضاً : جلس ، وقعد ، فالعنى العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الجلوس يكون عن اضطجاع . والقعود عن قيام ، كان قائماً فقعد ، والاثنان ينتهيان إلى وضع واحد ، فكذلك « قرح » و« قرح » كل لفظ له معنى دقيق .

ويقولون - مثلاً - إن للأسد أسماء كثيرة ، فيقال : « الأسد » و« الغضنفر » و« الرئبال » و« الوُرد » و« القشورة » . صحيح هذه أسماء للأسد ، ولكن لكل اسم معنى محدد ، فـ « الأسد » هو اللفظ العام والعلم على هذا الحيوان ، و« الغضنفر » هو الأسد عندما ينفض ليدته ، و« الوُرد » هو حالة للأسد عندما يكون قد مط صلبه ، فكل موقف للأسد له معنى خاص به .

وقوله الحق : « إن يحبسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » لاحظ أن المتكلم هو الله فافطن جيداً إلى مرادات كلامه . ونعرف أنه في الشرط والجواب ، أن الشرط يأتي أولاً ثم يأتي الجواب من بعد ذلك مرتباً عليه ونتيجة له ، كقولنا : « إن تذاكر تنجح » إن النجاح هو جواب لشرط وهو الاستذكار .

وقوله الحق : « إن يحبسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » فهل المعنى المراد من هذه الجملة الشرطية أن من القرح للكافرين الذي حدث في بدر كان كجزء لمس القرح للمؤمنين في أحد ؟ لا ، إنه لا يكون أبداً جواباً لشرط ؛ لأنه لو كان جواب شرط لقال الحق : « إن يحبسكم قرح فسيمس القوم قرح مثله » ولكنه لم يقل ذلك لأن القرح الذي أصاب المشركين في بدر كان أسبق من القرح الذي أصاب المؤمنين في أحد .

وكان الحق يقول : « إن يحبسكم قرح فلا تبتسوا » فقد مس القوم قرح مثله ، وليس ذلك جواب الشرط ، ولكنه جاء ليُستدل به على جواب الشرط ؛ أي أنه تعليل لجواب الشرط ، أقول ذلك حتى لا يتدخل دعوى من الأدعياء وبتهم القرآن - والعياذ بالله - بما ليس فيه . إنه - سبحانه - يثبت المؤمنين ويسليهم . ومثال ذلك ما نقوله نحن لوأحد إذا أصابته كارثة :

... إن كان قد حدث لك كذا ، فقد حدث لخصيك مثله . إذن فتحن نسلبه .
والمقصود هنا أن الحق يسأل المؤمنين : إن يمسكم فرح فلا تبتهسوا ، فليكن عندكم
سُلوٌ ولتجتازوا هذا الأمر ولترض به نفوسكم ؛ لأن القوم قد مسهم فرح مثله .

والأسوة والتسلية ، هل ثأى بما وقع بالفعل أم بما سيقع ؟ . إنها ثأى بما وقع
بالفعل ، إذن فهي تعلل تعليلًا صحيحاً : « إن يمسكم فرح فقد مس القوم فرح
مثله » .

وأطلق الحق سبحانه من بعد ذلك قضية عامة : « وتلك الأيام نداولها بين
الناس » . ما معنى المداولة ؟ . داول أى نقل الشيء من واحد لآخر . ونحن هنا أمام
موقعتين ؛ غزوة بدر وغزوة أحد . وكان النصر للمسلمين في غزوة بدر بالإجماع ،
أما غزوة أحد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر .

إذن فقوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أى مع التسليم جدلاً بأن
الكفار قد انتصروا - رغم أن هذا لم يحدث - فإننا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون
إليهم .

وإياك أن تفوتك هذه الملاحظة ، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها
المؤمنون . ومعنى مخالفة منكم ، أى أنكم طرحتم المنهج . ومعنى أنكم طرحتم
المنهج ، أى أنكم أصبحتم مجرد « ناس » مثلهم .

ومادمت قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتساوين معهم ، فإن النصر
لكم يوم ، ولهم يوم . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : إن المداولة بين الناس هي مداولة
بين مؤمنين وكافرين .

فإن ظننتم مؤمنين فلا يمكن أن ينتقل النصر إلى الكفار ، إنما النصر يكون لكم .
انظر ماذا قال : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولم يقل بين المؤمنين والكافرين ،
أى بينكم وبين قريش .

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات تضم الليل والنهار ، ولكن المقصود به « الأيام » هنا هو أوقات النصر أو أوقات الغلبة . ويقال أيضاً : « يوم فلان على فلان » إذن « تلك الأيام نداولها بين الناس » لم تتضمن المداولة بين المؤمنين والكافرين ، ولكنها مداولة بين الذين مالت أبصارهم إلى الغنائم فتخلخل إيمانهم ، ففازت قريش ظاهرياً . فلو ظللتهم على إيمانكم لما حدث ذلك أبداً . لكنكم تخليتم عن منهج ربكم ، وبذلك استويتم ونساويتم مع غير المؤمنين ، وبذلك تكون الأيام لذلك مرة وهذا مرة أخرى ، إنها مطلق عدالة .

علينا أن نذكر الشرط السابق ، لا لعدم الهزيمة . بل للعلو والنصر :

« وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

إن الحق سبحانه في مسألة مداولة الأيام بين المؤمنين الذين تخلخل إيمانهم : مادمتم اشتركتهم معهم في كونكم مجرد « أناس » فيصبح النصر يوماً لهم ويوماً لكم ، والذكي العبقري الفطن الذي يحسن التصرف هو من يغلب ؛ لأن المعركة هنا تدور بين قوة بشر مقابل قوة بشر . وما دام المسلمون قد تخللوا عن منهج الله فقد صاروا مجرد بشر في مواجهة بشر . ولذلك قلنا : إنه عندما تحلى الرماة عن إنفاذ أمر القائد الأعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت عبقرية خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين .

ويجب أن نلاحظ في قوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أننا لا يمكن أن نقول : إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين ، إنما هي بين الناس ؛ لأن الناس هم مجموعة الإنسان ، فإن نجردوا عن منهج السماء فهم سواسية ، وصاحب الحيلة يغلب ، أو صاحب القوة يغلب ، أو صاحب العدد أو العدة يغلب .

ولكن ما الذي يعرض كل تلك الإمكانيات ويحقق النصر ؟ إنك إن تأخذ الله في جانبك فلن يجرؤ مخلوق أن يكون في مواجهة الحق في معركة . لقد قلنا قديماً وعلينا أن نعيها جيداً : إن الولد الصغير حينما يضطهده زملاؤه فيلجأ إلى حضن أبيه ، عندئذ ينصرف كل منهم إلى حاله ، لكن أفرانه يستطعون أن يهزموه عندما يعتمد

عن أبيه . فما بالنا ونحن عيال الله ؟ وكذلك شأن الكفار مع المؤمنين .

إن الكفار قادرون على الانفراد بالمؤمنين حينما يتخلل المؤمنون عن منهج الله ؛ لأن الله لن ينصر أناساً ليسوا على منهجه ، فلو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يبطل قضية الإيمان . وعندما نستقرئ القرآن الكريم ؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهي هو خبر كله شر .

فبحانه يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ ﴾

(سورة العصر)

إن الإنسان على إطلاقه لفى خسر ، ولكن من الذي يتجو من الخسران ؟ وتأني الإجابة من الحق فيقول :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

وتؤكد القضية في موضع آخر من القرآن الكريم فيقول - سبحانه -

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١١ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝١٢ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝١٣ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝١٤ ﴾

(سورة المعارج)

إذن كل كلام - في القرآن - عن الإنسان على إطلاقه يأتي من ناحية الشر . وما الذي ينجيه من ذلك ؟ إنه المنهج الإلهي .

إذن فقول الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » تحمل تأنيًا ولذعة خفيفة لمن أعلنوا الإيمان ولكنهم تخلفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » والله لا يحب الظالمين .

ففى وقت النصر نجد حتى الذى لم يشترك فى المعركة يريد أن يدخل نفسه ضمن المتصرين . لكن وقت الهزيمة فالحق يظهر ، والذى يظل فى جانب الهزيمة معترفا بأنه شارك فى نزولها بالمسلمين وإن لم يكن شارك فقد عذر أو لام من كان سببا فيها ، وهو مع ذلك يسهم فى حمل أوزارها وآثارها الضارة ، ويتحمل ويشارك فى المسئولية ، إنه بذلك يكون صادقا .

وقد يقول قائل : هل الله لا يعلم الذين آمنوا ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث . لكن علم الله الأزل الغيبى لا نرى نحن به الحجة ، ولذلك لا تكون الحجة ظاهرة بيننا ، ولكن حين يبرز علم الله إلى الوجود أمانا فإنه علم تقوم به الحجة واضحة على من آمن ، وعلى من لم يحسن الإيمان ، وذلك حتى لا يدعى أحد لنفسه أنه كان سيفعل ، لكن الفرصة لم تواته .

وهكذا نأتى المواقف الاختبارية والابتلاءات ليعلم كل منا نفسه وتبرز الحجة علينا جميعا . إذن : فهناك فرق بين علم الله الأزل للأشياء كما سوف تحدث ، ولكن لا تقوم به الحجة علينا . فقد يدعى البعض أنه لو قلمت معركة شديدة فإنهم سوف يصمدون ، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى من الصامد ومن هو غير ذلك من المتخاذلين القارين ؟ ولنضرب لذلك مثلا والله المثل الأعلى : نحن فى حياتنا العادية نجد أن عميد إحدى الكليات يأتى إلى المدرس ويقول له : نحن نريد أن نعقد امتحانا لتعرف على المتفوقين من الطلاب ، ونمنح كلاً منهم جائزة .

فيرد المدرس : ولماذا الامتحان ؟ إننى أستطيع أن أقول لك : من هم المتفوقون ، وأن أرتبهم لك من الأول ومن الثانى وهكذا .

لكن عميد الكلية يصصر على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة ، ويختار العميد مدرسا آخر ليضع هذا الامتحان . وتظهر النتيجة ويكون توقع المدرس الأول

هو الصائب ، وهكذا يكون تفوق هؤلاء الطلاب تفوقاً بحجة . وإذا كان ذلك يحدث في المستوى البشري فما بالنا بعلم الله الأزلي المطلق ؟

إن الحق بعلمه الأزلي يعلم كل شيء ويُحيط بكل شيء ، وهو سبحانه لا يقول لنا : أنا كنت أعلم أنكم لودخلتم معركة ستفعلون كذا وكذا ..

وكان يمكن أن يجادلوا ويدعوا لأنفسهم أشياء ليست فيهم ، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله أزلاً . إذن فالتغيير هنا لا يكون في علم الله ، لكن التغيير يكون في المعلوم لله ، ليس في الغلام بل في المعلوم بحيث نراه حُجة علينا .

ويقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » وساعة تسمع كلمة « يتخذ » هذه ، اعرف أنها اصطفاة واختيار . وسبحانه يقول :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

أى أنه جل وعلا قد أثار إبراهيم واصطفاه ، إذن فالانحياز دائماً هو أن يأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته .

وحين يقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » فنحن نعرف أن « شهداء » هي جمع شهيد ، وكلمة شهيد لها معانٍ متعددة ، فالشهيد في القتال هو الذي يُقتل في المعركة ، وهذا سيكون حياً ويرزق عند ربه ، وإياك أن تقول : إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجد عظاماً وتراباً . وهذا يعني أنه سلب الحياة . لا ، إن الله وضع أن الشهيد حيّ عنده ، وليس حياً عند البشر . وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيراه عظاماً وتراباً ، فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٥٥)

(سورة آل عمران)

إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا تعرف كتبها ، ويوم تفتح عليهم فيورهم تصبر
أمرا محسا ، ولكن الله يبيننا أن الشهداء أحياء عند ربهم . وعندما نتأمل كلمة
« شهداء » نجد أنها تعني أيضا الشهادة على الحق الذي قامت من أجله المعركة ،
وكل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلولا يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدي إلى قتلهم
خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا .

وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها . وقد ينصرف المعنى في
« شهداء » إلى أنهم بلغوا الدعوة حتى انتهت دماؤهم . ويذيل الحق الآية بقوله :
« والله لا يحب الظالمين » .

ومعنى هذا التذليل أن المعركة يجب أن تدور في إطار الحق ، ومثلما قلنا : مادام
الناس متخلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل سندور المعركة صراع بشر لبشر ،
والقادر من الطرفين هو الذي يغلب . فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر
إلا أنه لا يُجانب المسلم الذي لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، لذلك قد يغلب الكافر
المسلم الذي لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، ولكن إن تمسك المؤمن بمطلوب الإيمان
فالنصر مضمون لهم يأمر الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾

والتمحيص يختلف عن المحق ، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من
العناصر الضارة ، أما المحق فهو الذهاب بها كلها . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لابد من تجربة تثبت أنكم قُتِبتُمْ ونجحتُم في الفتنه ، والفتنه هي الامتحان . إذن فلا تحسبوا أن المسأله سوف تمر بسهولة ويكتفى منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا . إذا كنتم صادقين في قولكم بلزمتكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا ؛ فالحق حين يكون قويا فهو لا يحتاج إلى أسوة . بل قضية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الضعف . ودخول الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن ..

والحق يقول : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » وعندما نسمع ذلك فعليا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا من المجاهد ومن الصابر ، ولكنه علم لا تقوم به الحجة على الغير ، فإذا حدث له واقع صار حجة على الغير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

وكان القوم الذين فاتهم شرف الاشتراك في بدر قد أرادوا أن يذهبوا مع الرسول للمشاركة في غزوة أحد ، ويوضح لهم الحق : أكنتم تظنون أن تمنى المعارك وحده يحقق النصر ، وهل كنتم تظنون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لابد أن تكون منتصرة ؟ وإن كنتم تظنون أن المسأله هي نصر لمجرد التمنى ، فمعنى ذلك أنكم دخلتم إلى معسكر الإيمان من أجل الفأل واليمن والنصر ، ونحن نريد أن نعرف من الذي يدخل معسكر الإيمان وهو بائع روحه وهو محسوب حياته في سبيل الله .

فلو أن الأمر يمر رخاء ، لدخل كل واحد إلى معسكر الإيمان ، لذلك يقول الحق : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . فهل ظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون أن يُخرج الحق على الملاما علمه

غيبا ، وترجمه الأحداث التي يُجرىها سبحانه فيصبر واقفا وحجة عليكم ، ويرز الله سبحانه من الذين جاهدوا ؛ أي دخلوا في زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى في الحق .

ويقول سبحانه : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » أي إن ما كنتم تتمنونوه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمني كان صحيحا لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
أَفَاِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ
يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي
اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾

وتحس نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الأول هو « محمد » ، وله اسم ثاني عرفناه من القرآن وجاء في الإنجيل هو « أحمد » :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا أَمْرًا بِلِيَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا أَجْرٌ مِمَّنْ ﴾

(سورة الصف)

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم « محمد » في القرآن أربع مرات ، و« أحمد » وردت مرة واحدة .

والآية التي نحن بصدددها ، وهي آية ذكر فيها اسم محمد : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾

(سورة الاحزاب)

وقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ﴾

(سورة محمد)

وها هو ذا القول الكريم :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۝ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والاسم هو ما وضع علماً على المسمى ؛ بحيث إذا ذكر الاسم جاء إلى الذهن المسمى ، فإذا اشترك اثنان في بيعة واحدة في اسم ؛ فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان في أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما محمد ، فلا بد أن نميز بين الاثنين بصفة ، وفي الريف نجد من يسمى « محمدًا الكبير » و « محمدًا الصغير » .

وكلمة « محمد » وكلمة « أحمد » مشتركتان في أصل المادة ؛ لأنها من « الحاء والميم والذال » فالمادة هي الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى في محمد غير التوجيه الاشتقاقى في أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصل ، انحل عن معناه الأصل ، وصار علماً على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلاً له جارية سوداء فيسميها « قمرًا » وقد يكون للرجل عبد شقي فيسميه : « سميداً » . فإذا صار الاسم علماً على شيء فإنه ينتقل من معناه الأصلي ويصير علماً على المسمى ، لكن الناس حين تسمي أبناءها تلمح التفاوت في أن يصير المعنى الأصلي واقعاً .

والدقيقة التي يسميها صاحبها « قمرًا » افتقدت جان المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن تأخذ جمال الاسم . وكلمة « محمد » حين ننظر إليها في الاشتقاق نجد أنها ذات يقع عليها الحمد من غيرها ، مثلما نقول : فلان مكرم أي وقع التكريم من الغير عليه .

وكلمة « أحمد » نجد أنها ذات وقع عليها الحمد لغيرها . وعندما نقول : مكرم - بضم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة - أي وقع التكريم منه لغيره . ونحن عندنا اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، في القرآن وكلاهما من مادة « الحمد » فـ « محمد » ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيراً من غيره . لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم « محمود » هو الذي يطلق عليه فقط .

أما « أحمد » فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحمد وقع منه لغيره . و « أحمد » تتطابق مع أفعال التفضيل فنحن نقول : « فلان كريم وفلان أكرم من فلان » . إذن فـ « أحمد » أي وقع منه الحمد لغيره كثيراً ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا « حامد » . إذن فـ « أحمد » مبالغة في « حامد » وقع منه الحمد لغيره كثيراً فصار أحمد . و « محمد » مبالغة في « محمود » . وقع عليه الحمد من غيره كثيراً فصار محمداً .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين : فهو محمد من الله وحامد لله . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين : مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، فبالاصطفاء كان « محمداً » و « محموداً » ، وبالمجاهدة كان « حامداً » و « أحمداً » . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه

وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا محمد وأحمد والمقبى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة » (١) .

وسيكون لذلك كلام ونحن نتناول هنا بالخواطر معركة أحد ، فبعد أن انحل القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرة عليهم من المشركين القرشيين ، بعد ذلك يتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا ، ويشكك المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قنفة يمسك حجرا ويضرب به حضرة النبي عليه الصلاة والسلام فيكسر رِجْلَيْهِ . وتتفرق في وجتي الرسول حلقتا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وكلها مجاهدات بشرية .

أما كان الله يقادر أن يُجيب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك كان تكريما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة ، وحتى يعرف الله المؤمنين بمحمد نقول : إن الله لم يأت بمحمد ليدلله على خلقه ، ولكن ليدل كل مؤمن على أن رسول الله حينما حدث له ما حدث قد ذاق المجاهدة ؛ فقد فر بعض المقاتلين من المعركة في أحد ، وكادت ربيع الغزيمة تهبط على معسكر الإيمان ، هاهو ذا سيدنا أبو عبيدة رضي الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حلقتي المغفر في وجتيه صلى الله عليه وسلم ، فيحاول سيدنا أبو بكر أن يخلع حلقتي المغفر ، فيتالم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة :
- إليك يا أبا بكر . بالله دعني .

ومسك أبو عبيدة بإحدى الحلقتين وبنزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة - رضي الله عنه - ساقط الثنتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وينزف دمه صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة يلهمها الله أن تأخذ بقطعة من حصير وتحرقها ، وتأخذ

(١) رواه أحمد وسلم عن ابن موسى الأشعري .

التراب الباقي من الحريق وتضمده به الجرح . إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله لذة
المجاهدة .

وبأى أنس بن النضر ومجد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله
وفد ألقوا ما بأيديهم ، فساء لهم أنس : ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فيقول : فإذا تصنعون بالخياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات
عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم استقبل القوم من المشركين فقاتل حتى
قُتل .

هذه كلها مواقف لم تكن تأتي وتظهر إلا بهذه المعركة . « وما محمد إلا رسول : إني
أسمعوا . هذا محمد وهذه منزلته ، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم ،
وكان من الواجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكد على بشرته .
« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على
أعقابكم ، »

وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم ؟ فكيف
تكونون أقل شأنًا من هذه الأمم ؟ هبوا أن ذلك قد حدث ، فلماذا لا يبقى الخير
الذي بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة ؟ الرجل الذي يكون قد صنع خيرا بموت
مبوت ، أيكون قد صنع شيئا ؟ لا ؛ فالذي يريد أن يصنع خيرا فعلبه أن يصنع خيرا
بخلفه .

لذلك فالزعامات الفاشلة هي التي يكون الفرد فيها زعيما ، ثم يموت وتبحث عن
زعيم بعده فلا تجد وتساءل : لماذا خنق الزعيم أصحابه وزملاءه ؟ أكان خائفا
منهم ؟ ونظّل نتحن أن يكون قد رى الزعيم أناسا ، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه ،
فلا يوجد إنسان يضمن حياته ؛ لذلك يقول الحق : « وما محمد إلا رسول قد خلت
من قبله الرسل » .

ومساعة تسمع القول الكريم : « وما محمد إلا رسول » فهذا أسلوب اسمه أسلوب

القصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمداً على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعنى أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمداً أكبر من رسول ولا يموت . فأوضح الله سبحانه أن محمداً رسول ، وقد نزلت من قبله الرسل ، ولن يخلد الله أحداً .

وهل غاب ذلك عن الذهن ؟ نعم كان ذلك يغيب عن الذهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآناً يُتلى ، تجد أن سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق وحى الله ، إنه يحدث مُلْهِم .

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول المفاجعة ونسب الآية فيأتى سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت ، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » . فقال عمر بن الخطاب : « فلكأن لم أقرأها إلا يومئذ » .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإن قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإن والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ، ولا في عهد عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يذُبرنا^(١) فاختار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم ، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فخذوا به نهتدوا كما هُدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) يذُبرنا : يكون آخرنا موتاً .

والأمر الثاني : هو حاجة إيمان ؛ فالعشق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيمان ؛ فعمر بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تغلني رجلاي ، وحتى هويت على الأرض .

إذن لقوله سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » يعني لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالاته فوق ما رفعته أنا .

ومعنى « ينقلب على عقبه » أي يرجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التي جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق : « أفإن مات أو قتل » قول واضح ، وسبق أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقلنا : إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون بنقض البنية التي لا تسكن الروح فيها إلا بمواصفاتها ، فإن نقضت البنية ولم تجد الروح المسكن الملائم لها نزعها ، لكن الموت على إطلاقه : هو أن تذهب الحياة بدون نقض البنية ، فالإنسان يذهب حتف أنفه ، أي نجده قد مات وحده .

إذن فنقض البنية يؤدي إلى ذهاب الحياة بالقتل ؛ لأن الروح لا تسكن في مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقض للبنية فهذا هو الموت لا القتل .

والله سبحانه يقول : « أفإن مات أو قتل » ذلك أنهم أشاعوا أن النبي قد قتل . وكيف يجوز ذلك على الصحابة والله قد قال :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

وهنا نقول : هل أنت علمت أن هذه الآية قد نزلت قبل أحد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن الظن بأن كل صحابي يكون مستحضرا لكل آيات القرآن في بؤرة

شعوره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسي هذه الآية : « أفإن مات أو قتل ، كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه - سبحانه - يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم .

وهكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أحد كل الطوائف والأصناف التي تُنسب إلى الإيمان تمثيلاً يتضح في موقف ابن أبي حنيفة حيث انخدل وانقطع عن رسول الله بثبوت القوم ، ومرحلة أقل منها ، تمثل في طائفتين همتا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرماة موقف في المعركة الأحذية .

فحين رأوا النصر أولاً ورأوا الغنائم سال لعاب بعضهم على الغنائم ، فحصل انشقاق فيهم ، فعبد الله بن جبير وهو رئيس الرماة ومعه من معه من القلة يُصر على تنفيذ أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا الغنائم ، وحينها أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل فرت البقية الباقية من الرماة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله ينادي القوم : « إلى عباد الله إلى عباد الله » (١) .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصنف الله مواقف المنسوين إليه . وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مفضوح إيماناً إن وقف موقفاً يخالف منهج الله . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - في هذا الوقت - في موقف الإنهاك لقوته البشرية لدرجة أننا قلنا : إنه أراد أن يصعد قلم تقو مادته البشرية ، قطاطاً طلحة ظهره ليصعد النبي عليه ، وهو في هذه المرحلة من الإنهاك المادي البشري يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة في هذا الضعف وفي هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جبابرة قريش . كان هذا الجبار يتهده .

ولو أن الموقف كان موقف قوة لرسول الله أكان من المعقول أن يتصر رسول الله على جبار قريش ؟

(١) رواه الحافظ ابن كثير في التفسير .

ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، في موقف إنيأه وكيف يقف من جبار
قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو « أبي بن خلف الجمحي » وكانت عنده رَمَكَةٌ (١)
يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم قَرَقًا (٢) من
دُرَّة لأقتلك عليها . فيقول له رسول الله قولة الواصل من أن ربه لن يخذله : « بل أنا
أقتلك إن شاء الله » .

لم يلق هذا الرجل مع رسول الله وهو في قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو في
هذا الموقف الذي أُنْخِصَتْ فيه الجراح وكسرت رِباعيته ودخلت حلقنا المغفر في وجنتيه
وسال دمه . وبعد ذلك يأتي إليه هذا الرجل - أبي بن خلف الجمحي - وهو يقول :
أبي محمد ؟ لا نجوت إن تجا ، فقال القوم : يا رسول الله أبعطف عليه رجل منا ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا . إنه رسول الله - لا يريد قوة لقوة ، ولكنه
علم أن أَيْتًا قد عرف أن رسول الله منك فحاج في هذا الوقت ، فأخذ رسول الله
الحرية ، وضرب أبي بن خلف بها فثألت منه ، فسقط من على فرسه بخور كما
بخور الثور ، فقال له أصحابه : « لا بأس عليك يا أباي » ، ما أجزعك : إنما هو
خدش (٣) .

وهذا الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي اشتد عليه غضب الله
تعالى لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على من قُتِلَ رسول
الله صلى الله عليه وسلم بيده في سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دُمُوا وجه رسول
الله صلى الله عليه وسلم » (٤) .

ولننظر كيف أن الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا وعنادا ، ولم

(١) الرمكة : أشد البرذون ويطلق على غير العرن من الخيل ، عظيم الخلفة تحيط بالأعضاء قوت الأرجل عظيم
الحوافر .

(٢) القَرَقُ : مكيل يسع سنة عشر رطلاً = ٧ كج تقريبا .

(٣) ابن كثير في التفسير .

(٤) رواه البخاري .

بعباده عقيدة قلبية ، إنهم يعتقدون صدقه ، ويعتقدون حسن بلاغه عن الله ،
ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَحَمِّدُوا بِهَا وَأَسْتَفِئْتَهَا أَنْفُسَهُمْ فَلْيَأْذَنُوا وَقُولُوا قَاتِلْهُمْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ
الْمُفْسِدِينَ ۝ ١١ ﴾

(سورة النمل)

فما هو الاستيفان هنا ؟ لقد قال أصحاب أبي له : ما أجزعك إنما هو خدش
فقال أبو له : والذي نفسي بيده لو كان الذي بين باهل الحجاز ثلثوا جميعا . لكن
أصحاب أبي قالوا له مرة أخرى : لا بأس عليك يا أبي إنه خدش بسيط . لكن
أبي يقول :

« لا والله لقد علمت أنه يقتلني » لأنه قال لي بكفة : « أنا قاتلك إن شاء الله » فوالله
لو بصبقت على لقتلني . فمات وهم قافلون به إلى مكة .

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في موقف الضعف والإنهاك ،
ويشاء له الله أن يقتل جبارا من جبابرة قريش وهو في هذه الحالة . إن كل ذلك لأدلة
تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمدد النصر من الله ، فالله يمد رسوله
حتى في وقت الضعف . ومدده سبحانه لرسوله . وقت ضعف الرسول هو إعلام
بقيومته سبحانه على جنوده ؛ لأنهم لو ظلوا أقوياء لقليل في عرف البشر : أقوياء
وغلبوا .

لكن هامو ذا الرسول يصيب الجبار من قريش في مقتل والرسول ضعيف ، وبعد
ذلك يعطى الحق سبحانه لرسول الله أشياء إيمانية تزيد ثقه بأنه هو رسول الله ،
وتزيد المؤمنين ثقه بأنه رسول الله . لقد خرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛
لأنه قال : (إني قد رأيت والله خيرا رأيت بقرا تذبح ورأيت في ذباب سيفي ثلثيا ،
ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة) (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لقد رأيتني يوم أحد وما في الأرض فرس مخلوق غير جبريل عن يميني وطلحة عن يساري)^(١) .

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرِضَتْ عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يخوض المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم ، لقد رأى فأول ، وأما الذي يتعلق بالثامن ، فيأتى إلى واحد من قتل المعركة - وقتل المعركة ، لا يُغسلون ، لأن الذي يغسل هو من يموت في غير معركة - يأتى الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول :

« إن صاحبكم لنفسه الملائكة » - يعنى حنظلة - المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة في الشهداء . كيف ؟ . لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . . . ولا يُخرج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُغسل . . . ولكن الذى يغسله هم الملائكة . . . إن الملائكة تغسل حنظلة .

وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروبته . . . ثم نودى للمعركة . . . فاعجله نداء المعركة . . . فذهب إلى المعركة جنباً . . . فذلك غُسل الملائكة له ، لقد تأكد الخبر من زوجة حنظلة . . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سبحانه وتعالى لم يتخل عنهم في أوقات الضعف ، وأن تلك العملية كانت عمية مقصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم نقل سابقاً : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا : يا رسول الله : إن جابر بن عبد الله عليه دين ليهودى وأجل الدين إلى جَزَر التمر وتمره نحاس هذا العام أى فسد من أفة مثلاً فتحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودى أن يُنظر جابراً - أى ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر - فذهب رسول الله إلى اليهودى وطلب منه أن يُنظر جابراً ، فلم يرض اليهودى وقال : لا يا أبا القاسم . . .

(١) رواه الحاكم في المستدرک عن أن مبررة

فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودي : لا يا أبا القاسم .
فأعاد عليه الرسول مرة ثالثة فقال اليهودي : لا يا أبا القاسم . . فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب بى إلى بستانك .

وذهب رسول الله فجاس خلال النخل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذى يجلس
فيه ، واضطجع وقال : يا جابر جز واقض . قال جابر : قد هبت فجوزت ، فإذا
ما جززته يؤدى ما على لليهودى ويبقى لى ما لم يبق لى وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أشهد أنى رسول الله » . إن الحق سبحانه يعطى رسوله بينات توضح أنه رسول
الله ، فاليهودى لم يرض بشفاعه النبى ، فيعطى الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله .
وهكذا ترى أن الله يعطى رسوله فى وقت الضعف الأدلة التى تؤكد له أنه رسول
الله . والذى يدل على ذلك هؤلاء الذين أحيا أن يؤذوه فى اسمه . إن اسمه محمد
كما نعرف ، وه محمد أى المدحج من الكل ، وبكثرة ، فبأق خصومه ويريدون أن
ينجوه وأن يلعنوه ، فبصرفهم الله سبحانه ونعالى حتى عن شتم الاسم لا التسمي
فقط .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد - سبحانه - ألا يتألوا بالسباب من اسم
رسول الله ، فألهم الله خصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم « مذمما » بدلا من
« محمدا » . وعندما يريدون الفتن ، فهم لا يلعنون الاسم محمدا ولكنهم يسبون
الاسم الذى اختاروه وهو « مذمم » ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبى لهب :

« مذمما عصينا . . وأمره أبينا . . ودينه قلوبنا » (١) . وهى تقصد رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقد حدث أن حالة الخطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها حجر فلما وقفت عليها
أخذ الله يبصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فقالت :

يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجون الله لو وجدته لضربت بهذا الحجر
فاه أما والله إن لشاعرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قریش يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً وأنا محمد » (١).

هكذا نرى من أفواه الخاطئين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم
أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلن يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث في غزوة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد على صديق بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسدهته ، ولذلك حين نلاحظ المعارك التي جاءت بعد هذه المعركة فإننا لا نجد للمؤمنين هزيمة أبداً ، لأنهم صُفوا بالتصفية وربُّوا التربية التي جعلت كل واحد منهم عارفاً أن الله يعلم ما يحفظه وإن لم يحسن البلاء والجهاد فسيُفصح الله ما في نفسه ، وسيعلن الله عنه ؛ لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل على الجهاد ، وكل المعارك بعد أحد جاءت نصراً وجاءت سلاماً .

وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة وهو النصر ، ونحذرننا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) .

« ومن ينقلب على عقبيه ، هي صورة حركية مادية مراثية . وقد حدث ذلك من بعض الصحابة في معركة أحد ، لقد فر البعض وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى « انقلب » أى أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجهها لعدوه ، وهى مثل قوله : « وَلَوْ اَلْدَابَارُ » .

(٦) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْمَنَاقِبِ ، وَالثَّانِي فِي الطَّلَاقِ وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمَنَاقِبِ .

ولكن في قوله : « انقلبتم على أعقابكم » فيه انقلاب حسي أيضا ، وفيها كذلك انقلاب نفسي ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولذلك سيعرفنا الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فشا وذاع في الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ؛ فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا : لو كان نبيا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذين آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا : سنذهب إلى ابن أبي ليلى لئلا نأمن من ابن أبي ليلى . فيقف أنس بن النضر قائلا : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - أي المنافقون - واعتذر إليك مما يقول هؤلاء - أي ضعاف الإيمان - .

لقد وزعها بالحق ، فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا : إنهم سيعودون إلى دينهم القديم ، ويعتذر ويستغفر عن ضعف الإيمان . ويقول سبحانه : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا . لماذا ؟ لأن الله أزلا وقيل أن يخلق شيئا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذن فأي صفة من صفات الكمال لم تطرأ عليه - سبحانه - من خلقه ، إنه - سبحانه - أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم المنهج لتكثروا خلقا سوريا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن ننظر إلى المناهج التي تأتي من الله على أنه لا تقع فيها الله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك فمن يلحظ هذه ، فهو يعرف أن ربنا يستحق الشكر على أنه كلفنا بالمنهج . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : « وسيجزي الله الشاكرين » لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمة ، نعمة منحني وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هي :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

كِتَابًا مُّوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٢٥﴾

وساعة تسمع « ما كان » أى « ما ينبغي » . فنحن فى حياتنا نقول : ما كان لك أن تضرب زيدا ، ونقصد أنه ما ينبغي أن تضرب زيدا . فقوله : وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ، هذا القول قد يندفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختيارى ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إيجاء ؛ لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك .

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فيها لها أن تموت إلا أن يأذن الله . فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تملك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أرادته النفس فلن يأتى إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد فى واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور .

نجد من يضيق ذروعا بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكدر فى الدنيا فيستحضر ، إنه يريد أن يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرحبة فأى شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن لى ربا ، وما أجراه على ربي فهو المربى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعل هذا البلاء كفارة لى عن ذنب .

وهذا عكس من يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه ، وكل منا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويدركهم من ينفذ

مشيئة الله في إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل في نفسه النار . فالمتنحدر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن ، فلا يبلغه الله هذا ، فقد تجد متنحرا يريد أن يطلق على نفسه رصاصة من مهندس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد متنحرا آخر يريد أن يشق نفسه بحبل معلق في السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحياة إلا من وهب الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذي يقتله إنسان آخر . وهنا يرد المثل الشعبي : لو صبر القاتل على المقتول مات بمفرده . إن اللحظة التي تفارق الروح مادة الجسد موقوفة بأجل محدود ، فمرة تأتي اللحظة بدون سبب ، ويموت الإنسان حتف أنفه ، ويقول أصداؤه : لقد كان معنا منذ قليل . (إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

ولذلك نجد إنسانا يعمى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين يقول في ذلك :
في الموت ما أعيا وفي أسبابه

كل امرئ رمي بطن كتابه
أسد للممرك من يموت بظفره
عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عيسك فكسل طب نسافخ
أو لم ينم فالنطب من أذنبه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقي الإنسان بأسد ، فيستوى الموت بالناي ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام الموت عن الإنسان فقد بشفيه من أمراضه قرص دواء أو جرعة ماء . أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكون دُنْبًا أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نقض بنية المقتول ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

إذن فقول الحق : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » يطلق قضية

عامة . والكتاب المؤجل يطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هي الموت الحقيقي . فالقاتل حين يتفرض بنية القتل إنما يوافق الأجل المكتوب الذي أراده الله . لكن لماذا تعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بنية إنسان آخر .

والحق يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . ولنلاحظ قوله : « بإذن الله » فهي تدلنا على أن الله هو الذي يطلق الإذن . والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة . ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية لله فيقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَلَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا قَبَضَ أَلْفَيْ قَوْمٍ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٥ ﴾

(سورة الزمر)

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية لملك واحد :

﴿ قُلْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١٦ ﴾

(سورة السجدة)

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رسل من معاونين ملك الموت :

﴿ وَهُوَ الْغَايِمُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِغُونَ ١٧ ﴾

(سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى صادق في كل بلاغ عنه ، لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكِّل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذي يحدد ذلك . وما دام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذي يتوفى الأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذي يتوفى

الأنفس - عزرائيل - له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته . إذن نصيرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة يبلغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضى مآذونا ، والمآذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ١٨ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٢٠ ﴾

(سورة الشورى)

وهذا ينسب عملية أن تقول : إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ؛ ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لآل ف سنة ، وهم الدولة الأولى في العالم . وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا في عصور الظلمات . لماذا أنكرتم هذه ؟! لأن التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوهموه ، ولذلك نقول لهم : نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون غيورا على أسباب الله ، فلا يدع

أسباب الله للكافر بالله ، أياخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو ؟ لا ؛ لأن من يعبد الله أولى بسرّه في الوجود ، فكوننا تتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا ننافسهم في هذا المجال هذا تقصير منا .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وستجزي الشاكرين » ونلاحظ أن الحق قد جاء بلفظ « الشاكرين » مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أسبابا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمسائل الدنيا فهي تستحق الشكر ، وإن كانت سنعطيكم تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيكم خبر الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا .

وبعد هذا الكلام النظري « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . . يقول ما يؤكد وجوده في موكب الإيمان الذي سبقكم ؛ لأن فيه فرقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

« وكأين » هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل « كم » ؛ فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تحافني ؟ فتقول له : كم زرتك ؟ إن قولك : « كم زرتك » في ظاهرها أنها استفهام ، وأنت لا تريد أن تقول له مسنهما كم مرة زرتك فيها ، بل تقول له : أنت الذي عليك أن تقول - لأنك بقولك ستعترف أن زرتك كثيرا ، فيكون الجواب موافقا لما فعلت . وأنت لا تقول « كم زرتك » إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فسيقول : « زرتني كثيرا » ولو كنت لا تثق أنه سيقول : زرتني كثيرا ، لكأ قلنها ،

فعندما تقول له : كم زرتك ، كم تفضلت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمتك ؟ فإن « كم » تأتي للتكثير ، وتأتي مثلها « كأي » إنها للتكثير أيضا ، عندما تقول مثلا : « ياما حصل كذا » و « ياما » هذه معناها « كأي » .

وقد سألتك صديق : كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأي رجل يفعل كذا ويحصل له كذا ، أي أن المسألة ليست غريبة ، إن قولك : كأي رجل معناها أنها شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان الاستعمالان صحيحان والمعنى : كثير من نبي قاتل معه مؤمنون برسالته كما حدث وحصل مع رسول الله . وقوله الحق « ربيون » أي ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و « ربيون » أيضا تعني : أتباعا يقاتلون ، و « ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهي مثل « الريانيين » .

وقول الحق : « فما وهنوا » أي ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتي بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول : أنتم لماذا ضعفتم في موقفكم في غزوة أحد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم في القتال معه أشد من حماس أي أتباع نبي مع نبيهم ؛ لأنه النبي الخاتم الذي سيضع المبدأ الذي ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتي أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا ؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا أدخرنكم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفي هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : « وكأي من نبي » أي وكثير من الأنبياء « قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم » ونستوحى من كلمة « وهنوا » أي ما ضعفوا . فكانه قد حدث في القتال ما يضعف ، « فما وهنوا لما أصابهم » أي ما حدثت لهم نكسة ملها حدثت لكم .

« وما ضعفوا وما استكانوا » . وكل من « وهنوا » و « ضعفوا » و « استكانوا » هذه جاءت في موقعها الصحيح ؛ لأن « الوهن » بداية الضعف ، و « الوهن » عمله القلب وهو ينضج على الجوارح ضعفا . و « استكانوا » ماذا تعني ؟ إنها من « سكن » . والسكون تقايله الحركة .

والحرب تحتاج إلى حركة ، والذي يأتي للحرب فهو يحتاج إلى كَر وفر . أما الذي لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع - الألف والسين والتاء - وتأق بعدها كلمة ، تعلم أن (الألف والسين والتاء) للطلب ، « فاستفهم » أى طلب أن يفهم ، وهي تأق لطلب المادة التي بعدها . كأن نقول : « استعلم » أى طلب أن يعلم ، أو نقول : « استخير » أى طلب الخبر ، و« استكان » يعنى طلب له كونا أى وجودا ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغا يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى « استكانوا » .

ومادامت من الكون يكون وزنها - مثلها يقول الصرفيون - « استعمل » يعنى طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن ، وهي بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس « استعمل » بل هو « افتعل » فـ « استكانوا » هل تعنى أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وقيل في معناها : فما خضعوا وما ذلوا من الاستكانة ؛ وهي الدلة والخضوع .

« فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » فما يصيب العبد ابتلاء من الله ، وفي الحديث : « إذا أحب الله فوما ابتلاه »^(١) . وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشغلهم عن المعركة ، لأنهم لو صبروا على التحمل لأمدتهم الله بمجدد من عنده ؛ لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهي . بآق إمداد الخالق .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى بتذيل الآية : « والله يحب الصابرين » أى وكفى جزاء عن الصبر أن تكون محبوبا لله ؛ لأننا قلنا سابقا : قد تحب الله لنعمة التي أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست في أن تحب الله أنت ، وإنما في أن تصير بتطيق

(١) رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والبيهقي المقدسي عن انس ، وصححه السيوطي .

منتهجه فيك محبوباً لله . وقد أثر عن بعضهم قوله :

وَالَا أَلَمْ تَرَ كَثِيراً أَحَبُّ وَلَمْ يُحِبَّ !!؟

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون محبوباً من الله ؛ لأن حبك للنعم لا يكفي ، فمثل هذه النعم أخذها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى . هناك مقدم وهناك مؤخر ، فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جزاء الله في الآخرة وهو الأصل .

إذن ، فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله : « وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ » لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن تكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم . صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهنا أو ضعفاً أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مُسَكَّة اليقين بالله . ومُسَكَّة اليقين بالله تجعلهم أهلاً لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك . ومدد الله لك لا يتجل بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلَىٰ مِمَّنْ فَتَنَةٍ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ ﴾

(سورة الزمر)

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم ، فما وهنوا ؛ لأنهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك لنفسك إلا حين تغيب عنه ، فقالوا : ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا : ربنا انصرتنا كي نخرج من الضعف ، لا . بل فكروا في الأسباب التي أدت بهم إلى هذا :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا ١٩ ﴾

عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

فكان ما حدث نتيجة للذنوب تقدم فقطنوا إلى السبب ، كان المقرض أنهم في معركة ، وهذه المعركة أجهدتهم وأهكتهم ، صحيح أنهم لم يضعفوا ، وكان المقرض أن يقولوا: يارب انصرنا أولا ، لا . بل قالوا : لا بد أن نعرف السبب في النكسة الأولى ، السبب في هذه النكسة أن الله لم يسلمني إلى نفس إلا لأن نسيته .

وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا ، ، ربنا ، ، وانظر لكلمة النداء في « ربنا » ، كان يمكن أن يقولوا : يا الله إنما جاءوا بكلمة « ربنا » لماذا ؟ لأن علاقة العبد بالربوبية من قبل علاقته بالالوهية ، فالالوهية مكلفة ، فمعنى « إله » أي : معبود ، ومادام معبودا فله تكليف بطاع فيه ، وهذا التكليف يأتي بعد ذلك ، هو سبحانه له ربوبية في الخلق ، قبل أن يكلفهم ، ومادام الرب هو الذي يتولى التربية ، فالأولى أن يقولوا : يارب ، إذن قولهم : « ربنا » يعني أنت متولى أمورنا ، أنت الذي تربينا .

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا » فكأنه لا شيء يصيبنا إلا بذنوب من الغفلة ارتكبناه . ونعرف من كلمة « ذنب » أن الذي يقطن إلى معناها لا يفعلها أبدا ، لأن كلمة « ذنب » مأخوذة من مادة « الذَّبَّ » . والذَّبُّ سيأتى بعده عقوبة . فاللفظ نفسه يوحي بأن شيئا سيأتى ، وعندما تذكر عقاب الذنب فأنت لا تفعله .

« اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا » لأن كل معصية تكون تجاوزا عما أحله الله لك ، وزيادة غير مشروعة وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مقومات حياتك : فالله شرع لنا الزواج لنأتي بالأولاد ، وعندما تأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالا بقدر حركتنا ، فإن طمعنا في مال غيرنا فقد أسرفنا . « وأسرفنا » يعني أن تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك . ولذلك فالخلق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يَحْيَايَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ بِمِيعَاتٍ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا الْغُفُورَ الرَّحِيمَ ﴾ (٥٢)

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح : أنا خلقت لك كذا من النساء فيما الذي جعل عينيك تزوج وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟ أنا أخلقت لك كسب يدك وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة ، لماذا أسرفيت ؟ إذن فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه « إسراف » . وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا . لقد بدأوا يدخلون في الحق ، لكنهم في البداية رأوا الباطل ، والباطل هو من أسباب تحمل الحق عن نصرتنا أولاً ، لكن عندما يغفر سبحانه الذنب ويغفر الإسراف في الأمر نكون أهلاً للمدد وأهلاً لتثبيت الله .

« وثبت أقدامنا » كيف يقول الحق ذلك والمفهوم في المعركة أن الأقدام لا تثبت ؟ المعركة تطلب من المقاتل أن يكون صواباً جوالاً متحركاً ، إذن فما معنى « وثبت أقدامنا » ؟ إن قول الحق : « وثبت أقدامنا » يعني لا تجعلنا نفر من أرض المعركة ، ولا نترك أرض المعركة أبداً . ولذلك قلنا : إن الكفار عندما حدث منهم ما حدث لم يظلوا في أرض المعركة ، بل تركوا أرض المعركة وانصرفوا ، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم انهزموا إلا أنهم مكثوا في أرض المعركة مدة ، وكروا وراء أعدائهم وطاردهم . وقد اهتدى البشر أخيراً إلى هذا المعنى ، ففى فرنسا نيشان يسمونه « نيشان الذبابة » لماذا الذبابة ؟ لأن الذبابة إن طردتها عن مكان لا بد أن تعود إليه ، فكذلك المفروض على القائد - مادام انسحب من منطقة - أن يوطن نفسه على العودة إليها ، فيعطوه نيشان الذبابة .

فقوله : « وثبت أقدامنا » في أى منطقة ؟ وفي أى معركة ؟ علينا ألا نبرح أماكننا ؛ لأننا صاعداً أن نبرحها فهذه أول الهزيمة ، وهذا أمر يُجَرِّى العدو علينا .

« وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . كلمة « وانصرنا على القوم الكافرين » هي حيية ، فها هموا قد قالوا : « وانصرنا على القوم الكافرين » فهم إذن

مؤمنون ، ومؤمنون بحق ؛ ولذلك فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول قوله المشهورة : إنكم تنتصرون على عدوكم بطاعة الله ، فإن استويتم أنتم وهم في المعصية غلبوكم بغدثهم وغددهم .

ولذلك فالإيمان يتطلب أن تنتهوا إلى موطن الضعف فيكم أولاً ، والذي استوجب أن يصيبكم ما أصابكم ، حقاً إنكم لم تضعفوا ، ولم تستكينوا وأصابكم من المعركة شيء من التعب والألم ؛ وكان الحق يوضح لنا أنهم قد تنهوا فاحسنوا البحث في نفوسهم أولاً ، لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المغفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس ، وبعد ذلك تكلموا عن المعركة . فماذا كان العطاء من الله ؟

وبأتينا الجواب في قوله الحق :

﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ﴾

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٨﴾

أي أن الذي يريد الدنيا فإله يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء ، ولنا أن نلاحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحسن أو بشيء ، فقط قال : « ثواب الدنيا » ، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول : « وحسن ثواب الآخرة » وهذا هو الجمال الذي يجب أن يُعشق ؛ لأن الدنيا مهما طالبت فهي متاع وغرور وزخرف زائل ، ومهما كنت منعماً فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنين : إما أن تزول عنك النعمة ، وإما أن تزول أنت عن النعمة .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله يحب المحسنين » وقد أحسنوا حين ناجوا ربهم بعدما أصابهم . إنهم سألوا المغفرة ، وسألوا أن يغفر لهم إسرافهم في أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على القوم الكافرين ؛ لأنهم رأوا أن قوتهم البشرية حين

يتخلل عنهم مدد الله تصيح هباء لا وزن لها .

ه فاتناهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ه ومثلها قلنا في الصبر : ه والله يحب الصابرين ه كفى بالجزاء على الصبر أن تكون محبوباً لله ، كذلك كفى بالجزاء على الإحسان أن تكون محبوباً لله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ
كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
خَاسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾

ومادمتهم مؤمنين وهم كفار فكيف يتأتى منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ، أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق سينغل فرصة الضعف في النفس الإيمانية المسلمة ، ويحاول أن ينسل إليها ، مثلها قلنا : إن جماعة من المنافقين قالوا : قتل محمد ، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا . والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا : نذهب إلى ابن أبي - المنافق الأول في المدينة - ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبي سفيان ليأخذ لنا الأمان .

ولذلك يقول الحق : ه يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ه ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوه من آمنتم به . وينزل القول الحق :

﴿ جَلَّ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّصِيرِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

وَأَلْقَى الْحَقُّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ بِالْفَعْلِ . فَمَسَاعَةٌ قَالُوا لَأَبَى سَفِيَانُ : إِنْ مُحَمَّدًا قَادِمٌ إِلَيْكَ بِجَيْشٍ كَثِيفٍ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَانْضَمَّ لَهُ مُقَاتِلُونَ لَمْ يُحَارِبُوا مِنْ قَبْلُ ، وَقَادِمٌ إِلَيْكُمْ فِي حِمَاءِ الْأَسَدِ . مَاذَا صَنَعَ أَبُو سَفِيَانٍ وَقَوْمُهُ ؟ أَلْقَى اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ وَفَرَوْا .

وكلمة « سلقى » مأخوذة من « الإلقاء » وهو لا يكون إلا لمادة وعين . ويبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : « فَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ » ، هذه حاجة مادية . قال تعالى :

﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الاعراف)

إنه أمر مادي . . ونحن نقول : ألقى الحجر . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَالْقَوَىٰ أَجْبَأَتْهُمُ وَأَغْوَيْنَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَظِيمُونَ ٥٥ ﴾

(سورة الشعراء)

إنها حبال ، أى أمر مادي . وسبحانه وتعالى يقول عن الوحي لأم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ قَالِقِيْهِ فِيْ أُنثَىٰ وَلَا تَخَافِيْ

وَلَا تَحْزَنِيْ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٦٧ ﴾

(سورة القصص)

فالإلقاء أمر مادي ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعاً ، فقال : أنا ساجع الرعب وأضعه في القلب ، ويكون عمله مادياً . فإذا ما استقر الرعب في القلب جاء الخور ، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تحاذلاً ، فيقول : « سلقى في قلوب الذين كفروا الرعب » فكأنه مثل لنا الرعب ، والرعب أمر معنوي وهو التخوف من كل شيء ، فأوضح : بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه في القلب ، فيبقى به ليصنع الخور والخذلان .

« سلقى في قلوب الذين كفروا الرعب » انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله . إنه هنا يأتي بـ « نون العظمة » ، « سلقى » ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة

قلوب الذين كفروا الرعب « فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه . إذن فتأتون العظمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة .

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بإلقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقي في قلوبهم الرعب ، لماذا ؟ « بما أشركوا » . إن الإشراف بالله هو الذي جاء لهم بالرعب ؛ لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تغلوا عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة - كما يدعون - لقاتلوا لتلك الآلهة : رب محمد بعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا ينفع ولا يضره أقرب من نفعه .

« بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة « السين واللام والطاء » ونقول : فلان تسلط على فلان ، أي أرغمه بقدرته عليه . ويقولون : فلان سيطر اللسان ، أي قادر أن يسب ، إذن فائسطة هي : الفهر ، والقوة التي ترغم على الفعل ، وفي المعنويات هي الحجة والبرهان . والمؤمنون دائما ذوو سلطان من الله ؛ لأنهم إن انتصروا ماديا فذلك سلطان الفهر ، وإن انهزموا ماديا فعندهم سلطان الحق والدليل ؛ ولذلك قلنا سابقا : إن إبليس باق يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَتُوبُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَوْ مَوْءَانِئْتُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وقلنا إن السلطان نوعان : إما قوة تفهروا على أن تفعل المعصية ، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راض عن الفعل . أما سلطان الدليل فيقتنعك بأن تفعل ؛ فتكون قد فعلت برضاك ، فمرة بأن السلطان بمعنى : قوة تفهرك على أن تفعل الفعل وأنت

مرغم . إنما قوة الدليل تفنعتك أن تفعل ، فيأتي الشيطان ليقر على نفسه في الآخرة ويقول : « وما كان لي عليكم من سلطان » أي ليس معي قوة تفهركم على المعصية ، وليس معي دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية ، لا هذا ولا ذاك ، فما الحكاية إذن ؟ قال : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي » . أي إنكم اطعتموني واستجبتم لدعوتي بلا سلطان قوة أفهركم به على شيء ، ولا سلطان دليل أقنعكم به .

ويذيل الحق الآية بقوله : « وما أواهم النار وبئس مثوى الظالمين » أي أن المرجع الذي يأوون إليه هو النار ، والمأوى ؛ هو الموضع الذي ترجع أنت إليه . وكان في هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقبه على النار فهو - أي الكافر - مأواه ومناواه الذي يرجع إليه . ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق في بعض الأساليب : « وإليه ترجعون » وقوله : « وإليه ترجعون » . « وبئس مثوى الظالمين » . أي مثوى لا مقر بعده أبدا ، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه ، لكن المثوى الذي سيفي خلودا للظالمين هو النار وهو بئس المثوى . وبعد ذلك يقول الحق :

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا
تَحْسَنُوا بِأَذْنِهِ تَحَتَّى إِذَا قَسَيْتُمْ
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا
أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ
الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ
صَرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا

عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٥﴾

ونعرف أن في « صدقكم الله وعده » مفعولين : الأول هو ضمير المخاطبين في قوله : « صدقكم » ، والثاني هو قوله « وَعَدَ » المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة « الله » فهو - سبحانه - قد أحدث وعداً ، والواقع جاء على وفق ما وعد . لقد قال الحق :

﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرْكُمْ وَيُخْلِفَ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(سورة محمد)

وقال سبحانه :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْمُغْلِبُونَ ﴾ ﴿١٥٦﴾

(سورة الصافات)

والآيتان تؤكدان قضية وعده ، بعد ذلك جاء التطبيق العملي . فهل وقع الوعد أو لم يقع ؟ لقد وقع ، ومتى ؟ فهل يشير الحق في هذه الآية إلى موقعة بدر ؟

« إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ » . وه تحسونهم « أي تذهبون الحس منهم ، والحس : هو الخواص الخمس ، ومعنى أذهبت عنه يعني أفقده تلك الخواص . « إِذْ تَحْسُونَهُمْ » وقد حدث ، وتمكنتم منهم ؟ تقتلونهم وتأسروهم ، أو الحس : هو الصوت الذي يخرج من الإنسان ، ومادام فقد الحس يعني انتهى ، « إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ » فحينما صدقتم لقاءكم لعدوكم على منهج الله صدق الله وعده ؟ هذا في بدر .

أما هنا في أحد فقد جاء فيكم قوله : « حَتَّى إِذَا فَتِلِمَ » أي جيتم . « وتنازعتم في الأمر وعصيتم » أمر الرسول « من بعدما أراكم ما تحبون » وهي الغنائم ، « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . كأنه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين : معركة فيها صدق وعد الله ، وفعلاً انتصرتم ، وأيضاً صدق وعد الله حينما تخليتكم

عن أمر الرسول فحدث لكم ما حدث . إذن فالمبألة مبسطة أمامكم بالتجربة الواقعية ، ليس بالكلام النظري وليس بالآيات فقط ، بل بالواقع .

أو أن الأمر كله دائر في أحد ، نقول فرضا : هو يدور في أحد ودع بدرا هذه ، حينما دخلتم أيها المسلمون أول الأمر انتصرتكم أم لم تنتصروا ؟ لقد انتصرتكم ، وطلحة بن أبي طلحة الذي كان يحمل الزاية للكفر قتل هو وبضعة وعشرون ، الراية الكافرة قد سقطت في أول المعركة ، وحامل الراية يقتل وهذا ما أوضحه قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، فجماعة تقول : لنبق في أرض المعركة ، وجماعة تقول : نانسحب . ورأيتم الغنائم فحدث منكم كذا وكذا . فتأن النكسة ، ولو لم يحدث ما حدث لكان من حقكم أن تشككوا في هذا الدين ، إذن فما حدث دليل على صدق هذا الدين ، وأنكم إن تخللتم عن منهج من مناهج الله فلا بد أن يكون مآلكم الفشل والخيبة والهزيمة .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر » ، فجماعة قالوا : نظل كما أمرنا الرسول ، وجماعة قالوا : نذهب إلى الغنائم « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . ومادمت قد تنازعتم وقالت جماعة : لنتمسك بمواقعنا ، وقالت جماعة أخرى : لنذهب إلى الغنائم ، إذن فالذي أراد مواصلة القتال إنما يريد الآخرة ولم تلهه الغنائم ، والقسم الذي أراد الدنيا قال : لنذهب إلى الغنائم . وفي هذه المسألة قال ابن مسعود رضي الله عنه : والله ما كنت أعلم أن أحدا من صحابة رسول الله يريد الدنيا حتى نزل قينا ما نزل يوم أحد .

أي أنه لم يكن يتصور أن من بين الصحابة من يريد الدنيا ، بل كان يظن أنهم جميعا يريدون الآخرة ، فلما نزل قول الله : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » عرف ابن مسعود أن من الصحابة من تنقلب به الأغيار . وذلك لا يقدح فيهم ، لأنهم رأوا النصر ، فظنوا أن المسألة انتهت ، لقد سقطت راية الكفر ، وقتل المؤمنون عددا من صناديد قريش . ولقد عفا الله عن المؤمنين وغفر لهم ما بدر منهم من مخالفة لأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم ، فلما نظرتهم إلى الغنائم اتجه نظركم إلى مطلوب دنياكم ، فانصرفتم عنهم ، ولم تجهزوا عليهم ولم تتم لكم هزيمتهم ونهرهم ، « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » وإبتلاؤكم في هذه الغزوة إنما هو رياضة وتدريب على المنهج ، كأنها غزوة مقصودة للإبتلاء ، فترون منها كل ما حدث . وبعد ذلك نجحت التجربة ، فبعد هذه المعركة لم ينهزم المسلمون في معركة قط .

ولذلك يقولون : الدرس الذي تعلم النصر في الكثير لا يعتبر هزيمة في القليل . والمثال على ذلك : لنفرض أن ولداً من الأولاد رسب سنة ، ثم حل ذلة الرسوب ، نجده بنال بسبب ذلك مرتبة متميزة بعد ذلك بين العشرة الأوائل ، إذن فالرسوب الأول له كان خيراً .

« ولقد عفا عنكم » لأنه كان لكم وجهة نظر أيضاً عندما تصورتهم أن المعركة انتهت بسقوط راية الكفر ومقتل طلحة بن أبي طلحة ومقتل بعض من الصناديد في معسكر الكفر ، فظننتم أن المسألة انتهت ، لكن كان يجب أن تذكروا أن الرسول قال لكم : اثبتوا في مراكزكم وأماكنكم حتى لو رأيتمونا تنج القوم إلى مكة ، ولو رأيتموهم يدخلون المدينة .

أبوجد تحذير أكثر من ذلك ؟! « والله ذو فضل على المؤمنين » وسبحانه جل وعلا لم يخرجهم من الخطيئة الإيمانية بهذا القول الحكيم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تَكْلُونَ عَلَى
أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ
فَأَثْبِتْكُمْ عَمَّائِمًا لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا
عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ

خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٣﴾

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » هنا جاء لهم بلفظة من المعركة ، حتى إذا سمع كل واحد منهم هذا الكلام يستحضر الصورة المخزية التي ما كان يصح أن تحدث ، « إذ تصعدون » ، فيه « تصعد » ، وفيه « تصعد » وهنا « تصعدون » من « أصعد » ، وه « أصعد » أي ذهب في الصعيد ، والصعيد الأرض المستوية حتى تعينه على سرعة الفرار . إنما « صعد » تحتاج إلى أن يكون هناك مكان عال يصعدون إليه . وهم ساعه أرادوا أن يفروا جزوا إلى الأرض السهلة ومشوا ، فكل منهم لا يريد أن يتعرض هنا أو هناك ، إذن فالمناصب لها « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » والفار لا ينظر هنا أو هناك ، ليس أمامه إلا الأرض السهلة .

« ولا تلوون على أحد » أي لا تعرجون على شيء ، والأهم من ذلك أن هناك تنبيه من القائد الأعظم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يدعوكم « والرسول يدعوكم في أخراكم » أي بناديبكم من مؤخرتكم طالباً منكم العودة إلى ميدان القتال « فأتابكم غيا بغم » . أنتم غمتم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنكم خالفتم أوامره ، فوقفكم الله هذا الموقف .

كلمة « فأتابكم غيا بغم » كأنه يقول : عاقبكم . ولكنه سبحانه يأتي بها مغلطة بحنان الأنوذية « فأتابكم » . إذن فهي نواب ... أي أن الحق سبحانه وتعالى برؤيته وبالوحيته ، يعلم أن هؤلاء مؤمنون فلم يقس عليهم ، قال : « فأتابكم غيا بغم » فكان ما حدث لكم تخلص حتى .

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » ولولم تحدث مسألة الحزن والحزى والدلة لشغلتمكم مسألة أنكم فاتتكم الغنائم والنصر ، ولظل بالكم في الغنائم ، لأنها هي السبب في هذا . كأن الغم الذي حدث إنما جاء ليخرج من قلبكم لفظة سبل اللعاب على الغنيمة . وما أصابكم من القتل والهزيمة ، « فأتابكم غيا بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خير مما تعملون » أي أنه سبحانه يقدر ما الذي استولى

عليكم ، لأن من الجائر « والرسول يدعوكم في أغراضكم » أنهم لم يسمعوا النداء من
هول المعركة ، « والله خير بما تعملون » وهو سبحانه خير بكل فعل وإحساس .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَّعَاسًا يَفْتَنِي
طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ
هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ
يُخَفُّونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ
لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ
لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ
اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِّذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

وكلمة « أنزل » تدل على أن هذا عطاء علوي ليس له شأن بالأسباب المادية
ولا بالقوانين البشرية ؛ لأن النوم عرض من الأعراض التي نطرقها على الأحياء ، هذا
العرض نستوجبه عمليات كيميائية في نفسك ، وهذه العمليات الكيميائية حتى الآن
لا يعرفون ما هي ، وأقصى ما فهم منه أنه ردع ذات الجسم الإنسان . فكان الجهاز
المتحرك المكون من مخ يعمل ، وعين ترى ، وأذن تسمع ، وحواس وحركة هذا الجهاز له
طاقة ، ساعة تنتهي منه الطاقة ، لا يقول لك : أنت الذي تترك العمل لا ، بل

يقول لك : أنا لم أعد صالحا للعمل . إنه ردع ذاتي ، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن في مجال الآلات بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الآلات فهي تتوقف .

فالردع الذاتي هو في النوم وبأنتيك التعاس . وتبين بالبحث العلمي أن هناك أشياء في الجسم لا تخرج كفضلات . بل تحتاج إلى التعادل والتوازن الكيميائي . ونحن نعلم أن هناك بقايا كنتيجة للحركة ، وهناك احتراق للطاقة ، وكل حركة فيها احتراق ، وبقايا هذا الاحتراق تخرج مرة على هيئة بول ، ومرة تخرج غائطا ومرة تخرج غائطا ، وبهكذا ، إذن كثير من هذه الفضلات هي نتيجة عمليات الاحتراق ، لكن هناك أشياء لا نريد لها أن تخرج ولكن نريدها أن تتعادل ، فعندما تنام لا يوجد لك حركة وتبتدىء الكيماويات داخل الجسم في التعادل ، وهذا هو ما يفعله لك النوم الذي تستوجيه أسبابك المادية .

وصاحب الهم والنغم لا ينام أبدا ، فهو يسهو عن نفسه ويرهق جسمه أكثر وتكون المصيبة كبيرة عليه ، وهنا ينزل الحق فضله عليكم بالنوم لأن أسبابكم لا تساعد أيا منكم على أن ينام .

وأنتم تذكرون قديما أننا قلنا : إن الإمام عليا كرم الله وجهه لما اشتهر بالفتيا ، وكلما سأله عن امر أفتى فيه ، فقالوا : تأتي له بمسألة معقدة وترى كيف يأتي بالفتيا ، وكأنهم نسوا أنه يُفتى لأنه تربي في حضن النبوة ، فقد جاءت النبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا على مازال صغيرا ، أما الصحابة الآخرون فقد جاءت النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كبار في السن ، فهناك معلومات دخلت عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن سيدنا عليا كرم الله وجهه لم تدخل عليه معلومة من معلومات الجاهلية . كل المعلومات التي عنده نبوية ، فكل هذا التفاعل ينشأ عنه فتيا ، لذلك كان سريعا في الإفتاء .

على سبيل المثال ، تأتي له امرأة فنقول : يا ابن أبي طالب كيف يعطونني دينارا من ستمائة ؟ مورثي خلف ستمائة دينار فأعطوني دينارا واحدا . فقال لها : لعله مات عن زوجة ، وعن بنتين ، وعن أم ، الزوجة تأخذ الثمن (خمسة وسبعين دينارا)

والبتان ثأخذان الثلثين (أربعمئة دينار) وللأم السلسل وهو مائة دينار، ولعل له اثني عشر أخا وأختا واحدة، أشقاء أو لأب، موأنت هذه الأخت وقد بقي من التركة خمسة وعشرون دينارا توزع على الاثني عشر أخا والأخت ؛ فيكون نصيبك دينارا . كيف عرف ذلك ؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم في بيت النبوة .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها نجد أن الحق قد أنزل عليهم نعاسا ليؤمنهم قلم يتشا النوم هنا من حركة الاختيار ، ولكن الله أنزله ، ومعنى « أنزله » ؛ أنه بعث رحمة جديدة من السماء ليُخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا بما هم فيه . ولذلك قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه .

إذن فهي عملية قسرية . والنعاس حينها ينزل من الحق سبحانه وتعالى يكون عملية إنفاذ من حركة فأتت فرصتها على النفس البشرية فعوضها الله ، ولكن القوم الذين ناققوا ماذا كان حالهم ؟ لاشك أن الذين جاءوا نفاقا لم يصيبهم غم على ما حدث . بل بالعكس ، لا بد أن يكون قد أصابهم فرح أو اطمئنان على ما حدث ، وهؤلاء لا يكونون أهلا لأن ينزل الله عليهم أمانة النعاس . بل يتركهم الله لذواتهم ؛ لأنهم لم يكونوا في حصن الله باتباع منهج الإسلام أو بالاخلاص . على الأقل - لفكرة الإسلام ، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم .

إذن قلن يُنزل عليهم أمانة النعاس . ومادام لن ينزل عليهم أمانة النعاس ، فقد أصبحوا في قلق ، لماذا ؟ لأن نفوسهم قد أهمتهم . والإنسان حين يؤمن ويتقبل الإسلام من ربه يكون قد باع نفسه لربه ، ومادام قد باع نفسه لربه فالصفة الإيمانية لا بد أن تستمر . وإذا استيقظ المسلم مرة لنفسه نقول له : لقد رجعت في عقد الصفة . ومادمت قد رجعت في عقد الصفة فالله الذي كان قد اشتراك يتركك لنفسك ، فقله : « أهمتهم أنفسهم » أي خرجوا عن صفة الإيمان ؛ لأن الذي يعقد صفة بالإيمان مع ربه ، هو من قال الله فيه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ

(سورة التوبة)

إن القلق والاضطراب يستبدان بهم ويصابون بالفرع من كل شيء . لكن حال الصنف الأول والطائفة الأولى يختلف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعاملهم معاملة من بقي

في الصفة الإيمانية وإن كانت نفوسهم البشرية قد فسرت الأحداث تفسيراً خاطئاً ، فظنوا أن المسألة في المعركة انتهت ، فذهبوا لأخذ الغنيمة ، إن هؤلاء قد أحترم الله بقاءهم على الإخلاص للإسلام ، وأدبهم على تفسيرهم للأحداث تفسيراً غير حق ، فأنابهم عما لما خالفوا فيه ، وأنزل عليهم أمته لإخلاصهم في قضية الإسلام .

« وطائفة قد اهتمهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » وإذا سمعت كلمة « طائفة » فاعلم أنها جماعة ، لكن هذه الجماعة لها مواصفات خاصة هي التي تجمعها على فكرة واحدة كأنهم يطوفون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة لكنها جماعة تدور حول فكرة واحدة ، ويأتى القول الحكيم هنا ليبين لك ما قالوه في نفوسهم ، وماداموا قد قالوا في نفوسهم ، أسمعهم أحد ؟ لا ، ولكن الله أخبر به ، وأخبر بما في نفوسهم جميعاً يقول واحد ، بما يدل على أنهم يطوفون حول فكرة واحدة ، فالنصح الوجداني يجعلهم يقولون جملة واحدة هي : « هل لنا من الأمر من شيء » وماداموا سيقولون في نفوسهم فمن الذى سمعهم وهم جماعة ؟ إنه الله سبحانه - « والله عليهم بذات الصدور » .

وانت إذا قلت « طائفة » تجد أنها في عرف اللفظ « مفرد » ، وعندما تجمعها تقول : « طوائف » ، لكن هي لفظ مفرد يدل على جمع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يزدبه المفرد من الجمع . وهذه لا يثبت عليها إلا البليغ ، فبفرق بينها كللفظ مفرد وبين ما تدل عليه كجمع ، ولذلك تجد هذا في إعجاز القرآن ، فالحق يقول :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ١١ ﴾

(سورة الحجرات)

وحينما يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين » فهو هنا يأتي بالخبر ، اقتتلنا أو اقتتلوا ؟ إنه سبحانه يقول : « اقتتلوا » ، اللفظة طائفتان لكن الدقة البلاغية لاحظت أن كل طائفة مكونة من جماعة . « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فإذا

نفعل ؟ « فأصلحوا بينها » . فمرة رجع للجماعة ومرة رجع للثنتين ، ففي ساعة الاقتال لا تقف الطائفة بسيف واحد وتضرب ضربة واحدة ، لا ، ففي ساعة القتال كل فرد من الطائفة له عمل ، إذن فالفرديّة المكوّنة للطائفة متعددة .

لكن عندما نُصلح هل نأق بكل فرد من هذه الطائفة وبكل فرد من الطائفة الأخرى أو نأخذ هذه الطائفة ممثلة في رؤوسها والطائفة الأخرى ممثلة في رؤوسها ونعقد الصلح بين الطائفتين ؟ فدقّة القرآن تقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » وبعد ذلك يعود الحقّ للثنية فيقول : « فإن بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبقي حتى تفر إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما » والصلح يكون بين جماعة ممثلة في قيادة وجماعة أخرى ممثلة في قيادة .

وقوله الحقّ : « وطائفة قد أهنتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا » هذا القول يدل على أنها طائفة تدور حول حركة واحدة ، ويدل على أن التفاف تفاف متفق عليه ، وليس كل واحد منهم يتفاف في نفسه ، لا ، إنها طائفة المنافقين ، وقد كوّنوا جماعة ، ولهم سياسة مخصوصة ، ولهم كلام مخصوص ولهم وحدة فكر ، ولهم وحدة قول ، تعرفهم من قول الحقّ : « وطائفة قد أهنتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية » .

ونعرف أن الحقّ هو الشيء الثابت ، وما دام ثابتاً فهو لا يتغير ، وقضية الحقّ فيه تكون معقدة ، فالله حقّ ، خلق السماوات والأرض ، وكل الكون بالحقّ ، أنزل كتابه بالحقّ ، كله حقّ ، فهم يظنون بالله غير الحقّ مع أنه حقّ ، ونشأ الكون منه بقانون حقّ ، واستمرت سنن الله في الكون بالحقّ ، وهو دائماً ينصر الحقّ ، وهم يظنون بالله غير الحقّ ، يقولون : ربنا لم ينصرنا على الرغم من أنه وعدنا بالنصر ، وتناسوا العناصر التي جعلها الله أسباباً للنصر ، إنها سنة الله وسنة الله تتحقق ولو على أحيابه ، لقد خالفوا أمر الرسول ، فلا بد أن يهزموا ، فلا بماملة لأحد ، فالذي يخالف لا بد أن يأخذ جزاءه ، لأن هذا هو الحقّ .

كان يجب أن يقولوا إن الحقّ واضح لدرجة أن أحيابه ومعهم رسوله حينما خالفوا

عن أمر الله الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم طبق الله عليهم سنته ، إذن فهي سنة بالحق ، لكنهم ظنوا بالله ظن الجاهلية ، والمقصود به إما ظن أهل الجاهلية ؛ وإما أن تكون الجاهلية علماً على الشك كنه ، وهذا الظن له نضج سلوكي .

« يقولون هل لنا من الأمر من شيء » أي هل انتصرنا أو ظفرتنا أو غلبنا أو أخذنا غنائم ؟ أو يكون قولهم : « هل لنا من الأمر من شيء » مقصوداً به : أننا خرجنا إلى المعركة بدون رأينا ؛ فقد كان من رأينا ألا نخرج وأن نظل في المدينة وعندما يدخلونها علينا نحاربهم . « يقولون هل لنا من الأمر من شيء » قل إن الأمر كله لله ، هم لم يمتلكوا البصيرة الإيمانية ولم يعرفوا لماذا لم ينصرهم الله ، هم فهموا أنهم لم ينتصروا ؛ لكن في عرف الحق أنه انتصار ؛ لماذا ؟ لأن المعركة أثبتت أن المبدأ إن خولف فلا تنصر ، إذن فالإسلام قد انتصر ، ولكن الذي انهزم هم المتخاذلون عن منهج الإسلام ، وهذا نصر للإسلام في ذاته . ولذلك يجب أن نفرق دائماً بين المبدأ الإسلامي والتسويين للمبدأ .

إياك أن تأخذ الحكم على المبدأ من التسويين للمبدأ ، فلا يكون التسويين للمبدأ حجة على الحكم في ذاته إلا إذا كانوا ملتزمين به ؛ لأن الله حينما شرع ديناً سماه الإسلام ليحكم حركة الحياة في الناس فهو قد قن وحرم فيه أفعالاً ، ومادام قد قن وحرم فيه أفعالاً فمعناه أن المؤمنين المسلمين الذين انتسبوا له من الممكن أن يخالفوا بأفعالهم تلك الأحكام ، فعندما يقرر الإسلام جلد أو رجم الزاني والزانية ، وحينما يشرع الإسلام قطع يد السارق أو السارقة ، وحين يشرع الإسلام تلك العقوبات للجرائم ، فمعنى ذلك أنه من الجائز أن تحدث تلك الجرائم ، فإذا ما حدثت فأنت لا تأخذها من واقع تجرم لتحكم به على الإسلام ، لا تقل إن الإسلام أباح السرقة بل قل : سرق مسلم ووضع الإسلام عقوبة صارمة عليه وهي قطع يده .

« يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ما هنا » وهذه هي الفضيحة هم ، فإذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شيء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا للموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شيء من الظفر الذي وعد الله به عمداً وأصحابه ما قتلنا ما هنا ، فعل الرأي يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن

يعملوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذى قال إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب ؟
إن الموت قضية نظراً لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة
المكان ومجهولة العمر .

إذن فإدامت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً
مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ
إلا فى مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة
ها واقع فى حياتكم . هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط
بسن ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة .

إذن فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية .
ولذلك يأتى الرد من الحق بأمر واضح للرسول صلى الله عليه وسلم : « قل لو كنتم
فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فكانت أيها الميت قد
تكون أحرص على لقاء الموت من حرص الموت عليك . يدلل أننا قلنا : إن الإنسان
يكون مريضاً ، ويلج على أن تُجرى له عملية جراحية فيعثر الطبيب قائلاً : عنلى عند
كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فبأنى له المريض برسالة لكى يقبل الطبيب لإجراء
العملية الجراحية ويلج عليه . وعلى أجر الطبيب وقد يموت المريض . إذن فهو يلج
على الموت أو لا ؟ إنه يلج على الموت .

بقول الحق : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى
مضاجعهم » وكلمة « بَرَزَ » تدل على اندفاع حركى ، فمعنى : بَرَزَ من الصَّفِّ ؛ يعنى
أن الصَّفِّ له الشام واقعى ، والذى يبرز إنما يقوم بحركة مخالفة للصَّفِّ ، هذه
حركة .

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتل الله
ما فى صدوركم وليمنحخص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » . والذى يبرز إلى
المضجع هو من يخرج من مكان الاستقرار ، ولأ فكيف يكون الابتلاء لمن بقدر الله
سبحانه أن يحملوا معركة الإسلام إلى أن تقوم الساعة إذا لم تكن هذه المسائل ؟ لابد
أن يكونوا قوماً قد عركتهم التجربة ، تمحصين بالأحداث حتى لا يكون مأموناً على

حل السلاح في الإسلام إلا هؤلاء الصفوة المختارة .

فصاعقة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج ، ونهى إلى أن يخرج إلى أحد ، نجد جماعة يتخاذلون بواسطة ابن أبي ، هذه أول تصفية ، وبعد ذلك ينقسم الرماة ، وهذه تصفية أخرى ، فريق يظل وفريق ينزل للغنائم ، وبعد ذلك يُشاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، هذه تصفية ثالثة .

« وليبتلي الله ما في صدوركم وليمتحس ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور » وكلمة « ذات الصدور » معناها صاحبة الصدور . وفي الصدر يحرض الإنسان على إخفاء الأمر الذي يجب أن يحتفظ به لنفسه يحرض كحرض الصاحب على صاحبه ، كأن الصدر حريص على ألا يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفضحهم أمام الناس ، ويفضحهم أمام نفوسهم ، فقد يجوز أن يكونوا مغشوشين في نفوسهم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ١٥٥

وعندما نقرأ كلمة « اسْتَزَلَّهُمْ » نعرف أن (الهزيمة والسيئ والتاء) للمطلب ، تطلب ما بعدها ، مثل : استفهم أي طلب الفهم ، استعلم يعني طلب العلم ، استقوى يعني طلب القوة ، وه اسْتَزَلَّ ، يعني طلب الزلل ، ومعنى « الزلل » هو العثرة والهوة ، أي أن الإنسان يقع في الغلط ، إذن فالشيطان طلب أن يزلوا ، « ببعض ما كسبوا » ، كأن الشيطان لا يجترئ على أن يستزل أحداً من آمن إلا إذا صادف فيه

ولذلك فالنفس هي مطية الشيطان إلى الذنوب ، وفي الحديث الشريف : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » (١) وعندما يرى الشيطان واحداً تغلبه نفسه في حاجة فالشيطان يقول : هذا فيه أمل ! وهو الذي يجري منه مجرى الدم كما سبق في الحديث ، أما الملتزم الذي ساعة تحذره نفسه بشيء ويأبى فالشيطان يخاف منه ، إذن فالشيطان لا يستزل إلا الضعيف ، ولذلك فالذي يكون ربه على ذكره دائماً لا يجترئ عليه الشيطان أبداً .

إذن فقولهُ : « إنما استزلهم الشيطان » يعنى طلب منهم أن يزلوا نتيجة لانه عرف انهم فعلوا أشياء أبدوا وأظهروا فيها ضعفهم ، « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » . وكلمة « ببعض ما كسبوا » . . . كأن قول الله « ولقد عفا الله عنهم » أنه لم يأخذهم بكل ما كسبوا ؛ لأن ربنا يعفو عن كثير . « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم » .

(٦) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا
غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لَيَجْعَلَنَّ اللَّهُ
ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

والضرب في الأرض هو السعى واستنباط فضل الله في الأرض وفي سبيله لإعلاء كلمته ، فالذين كفروا يرتبون الموت والقتل والعمليات التي يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا ؟ على أنه ضرب في الأرض أو خرج ليشاغل في سبيل الله ، وقالوا : لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا ! سنرد عليهم ، ونقول لهم : كأنكم لم تتروا أبداً ميتاً في فراشه . كأنكم لم تتروا مقتولاً يسقط عليه جدار ، أو يصول عليه جمل ، أو نصيبه طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يقتل يكون ضارباً في الأرض لشيء أو خارجاً للجهاد في سبيل الله ؟

إذن فهذا مُحَقَّق في استقراء الواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطينا صورة من حكمهم على الأشياء ، إنه حكم غير مبني على قواعد استقرائية حقيقية . فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول : هذه طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحاً في الأشياء الواضحة ، ومادام حكمهم ليس صحيحاً أو حقيقياً في الجزئيات التي تحدث - فإذا عرفت أنهم كفروا فهذا كلام منطقي بالنسبة لهم - فشأنهم أنهم لا ينتهون في أحكامهم فلا عجب - إذن - أن كانوا كافرين .

« أو كانوا غُزًى » ، « غُزًى » : جمع غَزَا ، مثل : صُومَ وقُومَ ، يعني جمع : صائم

وقائم . لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم .
إذن فالحق سبحانه وتعالى يصور سم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما
يقولون : لو كانوا عندنا لكانا منعناهم أن يخرجوا أو يقتلوا ، إذن فبحسب السبب .

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلهم أو موتهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه
حسرة في قلوبهم ، ولو أنهم ردوها إلى الحق الأعلى لكان في ذلك راحة لهم ولما كانوا
قد أدخلوا أنفسهم في مناهة ، ويحدث منهم هذا حتى تعرف غباءهم أيضاً ، فهم
أغبياء في كل حركاتهم وفي استقراء الأحداث الجزئية ، وأغبياء في استخراج القضية
الإيمانية الكلية ، أغبياء في أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها في مسألة ليست من
شأنهم ، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم .

« لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » إن القضية
الإيمانية هي « والله يحيى ويميت » أي هو الذي يهب الحياة وهو الذي يهب الموت ،
فلا الضرب في الأرض ولا الخروج في سبيل الله هو السبب في الموت ، ولذلك يقول
خالد بن الوليد - رضي الله عنه - : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسد
موضع شبر إلا وفيه ضربة منيف أو طعنة رمح ، وهانذا أموت على فراشي كما يموت
الغدير - أي حتف أنفه - فلا تأمت أعين الجنباء .

والشاعر يقول :

ألا أيذا الزجاجرى أحضر الوغى

وإن أشهد اللذات هل أنت تخليدي؟

أي يا من تمنى أن أحضر الحرب هل تضمن لي الخلود ودوام البقاء إذا أحجمت
عن القتال . ويكمل الشاعر قوله :

فإن كنت لا تطيع دفع مني

فدعني أبادرها بما ملكك يدي

ويختم الحق الآية بقوله : « والله بما تعملون بصير » فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم

لم يستبرأوا حتى في المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من « عليهم » ، لأن « عليهم » تؤدي إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياة ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذي يفضحهم . لا ، هي صارت حركة واضحة بحيث تُبصر . فجاء قوله : « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾
١٥٧

والذي يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل ، فما الذي يرجع عنده هذا العمل ؟ إنه يتغنى بالخير بالحياة . ومادام يتغنى الخير بالحياة ، إذن فحركته في الحياة في وهمه ستأتيه بخير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية ، ونقول له : الخير في حياتك على قدر حركتك : قوة وعلمها وحكمة ، أما تمتعك حين تلتقي بالله شهيداً فعلى قدر ما عند الله من فضل ورحمة وهي عطاءات بلا حدود ، إذن فأنت ضيعت على نفسك الفرق بين قدرتك وحيكمتك وعلمك وحركتك في الكسب وبين ما يُنسب إلى الله في كل ذلك ، ولذلك يقول الحق :

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾
١٥٨

ولنا أن نلاحظ أن قول الحق في الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت قال تعالى : « ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم » وجاء في هذه الآية بتقديم الموت على القتل قال - جل شأنه - : « ولئن متم أو قتلتم » فقدم القتل على الموت في الآية الأولى لأنها جاءت في المقاتلين ، والغالب في شأنهم أن من يلقى الله منهم ويفضي إلى ربه يكون سبب القتل أكثر مما يكون سبب الموت حتف أنفه ، أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله - تعالى - وأن أكثرهم ترهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدم الموت هنا على القتل . إذن فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها : إنه قول الحكيم الخبير . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

إن الآية كما ترى تبدأ بكلام إنخباري هو « فيما رحمه من الله لئن لهم » . فكأنه - سبحانه - يريد أن يقول : إن طبيعتك باعتماد طبيعة تناسب لما يطلب منك في هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إلى عباد الله ، إلى عباد الله إلى رسول الله ، وهذا شيء يُحفظ ويُغضب . ولكنه لا يحفظ طبيعتك ولا يُغضب سبحانه لأنك مفطور مع أمك على الرحمة . فكأنه يريد أن يحسن رسول الله على أمته التي أصابته بالغم ، فقال له : إياك أن تجازيها على هذا ، لأن طبيعتك أنك رحيم ، وطبيعتك أنك لست فظاً ، طبيعتك أنك لست غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك في هذه المسألة ، مثلما نأق لواحد مثلاً ونقول له : أنت طبيعة أخلاقك حسنة ، يعني اجعلها حسنة في هذه .

« فيها رحمة من الله لنت لهم » أى بأى رحمة أودعت فيك . ساعة نقول : بأى رحمة فأنت تبهم الأمر ، وعندما تبهم الشيء فكأنه شيء عظيم ، لأن الشيء يُبهم إما لأنه صغير جدا ، وإما لأنه كبير جدا ، فالشيء إذا كان كبيرا يكون فوق المستوى الإدراكي ، وإذا كان صغيرا جدا يكون دون مستوى الإدراك . ولذلك فالأشياء الضخمة جدا نرى منها جانبا ولا نرى الجانب الآخر ، والشيء الدقيق جدا لا نراه ، ولذلك يقولون : هذا الشيء نكرة ، وذلك يدل مرة على التعظيم ويدل مرة على التحقير ، ومرة يدل على التكثير ، ومرة يدل على التقليل . فإن نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لضخامته إذن فهو كبير ، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه لثقله ودقته ، وأنه ليس في متناول البصر يكون قليلا أو دقيقا .

إذن فقول الحق : « فيها رحمة » أصلها هو : برحمة من الله طبعت عليها لنت لهم ، وهـ ما ، لماذا جاءت هنا ؟ إنك إما أن تأخذها إبهامية . . . يعنى بأى رحمة فوق مستوى الإدراك ، رحمة عظيمة . أو تقول : « فيها رحمة » أى أن « ما » تكون اسماً موصولا . وكأن الحق يقول له : فبالرحمة المودعة من خالقك فيك والتي تناسب مهمتك في الأمة لنت لهم ، وما دامت تلك طبيعتك فليكن لهم في هذا الأمر واعف عنهم واستغفر لهم .

وهذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت في أحد : الحدث الأول : أنه صلى الله عليه وسلم رأى ألا يخرج إلى قتال قريش خارج المدينة بل يظل في المدينة ، فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتمويض عما فاتهم من شرف القتال في « بدر » أن يخرج إليهم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رأيهم ، وليس لأمته ، فلما أحسوا أنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا نخرج ، فقال : « ما ينبغي لئلى إذا ليس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » فهادام قد استعد للحرب انتهى الأمر ، هذه أول مسألة وهى مسألة المشورة .

وبعد ذلك تخلف ابن أبي بثلث الجيش وهذه مسألة ثانية ، أما المسألة الثالثة فهى مخالفة الرأى أمره صلى الله عليه وسلم وتركهم مواقعهم على الرغم من أنه صلى الله

عليه وسلم قد حذرهم من ذلك وقال لعبد الله بن جبير الذي أمره على الرماة :
« أنضح عنا الخيل بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك
لا تؤذين من قبلك »^(١) ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله ، والمسألة الرابعة هي :
فرارهم حينها قيل : قُتِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسألة الخامسة : أنه
حين كان يدعوهم : فمروا لا يلوون على شيء .

كل تلك أحداث كادت تترك في نفسه صلى الله عليه وسلم آثاراً ، فكان الله
سبحانه وتعالى يقول : أنا طبعتك على رحمة تشع لكل هذه المفضات ، والرحمة مني ،
ومادامت الرحمة موهوبة مني فلا بد أن جعلت فيك طاقة تتحمل كل مخالفة من أمرك
ومن اتباعك . ولا تظن أنك قد أرسلت إلى ملائكة ، إنما أرسلت إلى بشر ، والبشر
خطاءون ، البشر من الأغيار ، فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على الرحمة ،
وأنت بذاتك طلبت مني كثيراً من الخير لأمتك ، ومن رحمته أن جبريل نادى رسول الله صلى
الله عليه وسلم^(٢) فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله
إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فتأداني ملك الجبال فسلم على ثم قال :
يا محمد إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرن بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن
أطبق عليهم الأحشيش ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من
أصلاهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً »^(٣) .

فأنا أطلب منك الرحمة التي أودعها في قلبك فاستعملتها في كل مجال ، وهذه
الرحمة لنت لهم ، وهذه الرحمة اتقوا حولك ، اتقوا حولك لأدبك الجسم ،
ولتواضعك الوافر ، لجبال خلقك ، لبسمتك الحانية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك
لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أي واحد منهم يده في يدك لم تسحب يدك أنت
حتى يسحبها هو ، خلقت عالٍ ، كل ذلك أنا أجعله حيثة لتتنازل عن كل تلك
المفضات وليسعها خلقك وليسعها خلما ، لأنك في دور التربية والتأديب . والتربية
والتأديب لا تقتضي أن تغضب لأي بادرة تبدر منهم ، وإلا ما كنت مربياً ولا مؤدباً .

(١) الدر المنثور للسيوطي ج ٢ ص ٦٨ . (٢) عند عودته من الطائف وقد آذاه أهلها .

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق ، ورواه مسلم في الجهاد ، [الأحشيش] جبالان في مكة ، أبو نبيس والذي يقال له
وسمى قميحمان أو هو الجبل الأحمر الذي ينزل عليه وسمى الجبلان بالأحشيش لصلابتهما وغلظ حجارتهما .

« ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » لماذا ؟ لأنك تخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية . والذي يخرج واحدا عما ألف لا يصح أن يجمع عليه إخراجهم عما اعتاد بالأسلوب الحسن اللفظ ؛ لأنه في حاجة إلى التردد وإلى الرحمة ، لا يجمع عليه بين أمرين تفيح فعله ، وإخراجهم عما ألف واعتاد ، ولذلك يقولون للذي ينصح إنساناً ، النصح ثقيل ؛ لأن النصح معناه تحريم الفعل في التصريح ؛ فعندما تقول لواحد : لا تفعل هذا ، ما معناها ؟ معناها أن هذا الفعل سيء ، فهاضمت تحريم فعله فلا يجمع عليه أمرين : إنك فحيت فعله وأخرجته عما ألف ، وبعد ذلك تنصحه بما يكرهه لا ، إنه في حاجة إلى ملاطفة وملاينة لتستل منه الحاصل الفبيحة ، نحن نستعمل ذلك في ذوات أنفسنا حين نجد مرضاً يحتاج إلى علاج مر ، فنغلف العلاج المر في غلاف من السكر بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم أو نقص ، حتى ينزل في المنطقة التي لا نحس بهذه المرارة ؛ لأن الإحساس كله في الفم .

فإذا كنتم تفعلون ذلك في الأمور المادية ، فلا بد إذن أن تطبق ذلك أيضاً في الأمور المعنوية ، ولأن النصح ثقيل فلا تجعله جدلاً ولا ترسله جيلاً ، وخفة البيان تؤدي عنك بدون إثارة أو استشارة ، ويلطف بحمل على التقبل .

بهذا نصل إلى ما تريد ، ومثال ذلك حكاية الملك الذي رأى في منامه أن أسنانه كلها وقعت ، فجاء للمعبر ليحبر ، فقال له : أهلك جميعاً يموتون ، التعبير لم يسر منه الملك ، فذهب لواحد آخر فقال له : ستكون أطول أهل بيتك عمراً ، إنه التعبير نفسه ، فهاضم أطول أهل بيتك عمراً ، إذن فسيموتون قبله ، هي هي ، ولذلك قالوا : الحقائق مرة فاستعبروا لها خفة البيان .

« ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » إذن فبالرحمة لبنت لهم وبلين القول تبعوك والفوك وأحيوك . وه اللفظ ، هو : ماء الكرش ، والإبل عندما تجد ماء فهي تشرب ما يكفيها مدة طويلة ، ثم بعد ذلك عندما لا تجد ماء فهي تخرج من الماء المخزون في كرشها وتشرب منه ، في موقعة من المواقف لم يجدوا ماء فذهبوا للإبل وأخذوا الماء من كرشها ، الماء من كرش الإبل يكون غير مستساغ الطعم ، هذا معنى « اللفظ » ، ونظروا لأن هذا يورث غضاظة فسموا : « خشونة القول » فظاظة ، واللفظ في القلب هو ما ينشأ عنه الخشونة في الألفاظ .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك » . إنها رحمة طُبعت عليها
 يا رسول الله من الحق الذي أرسلك . وبالرحمة أنت لهم وظهر أثر ذلك في إقبالهم
 عليك وحُبهم لك ؛ لأنك لو كنت على نقیض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن
 فالسوابق تثبت أن هذه هي طباعك ، وخلقتك ، هو الرحمة واللين .

وبعد ذلك اعف عنهم ، وقلنا : إن « العفو » هو : عفو الذنب محو تاماً وهو يختلف
 عن كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ يعني أن تكون المسألة موجودة في نفسك أيضاً
 إلا أنك لا تعاقب عليها ؛ لأنك كففت جوارحك وصنت لسانك ، أما المسألة
 فما زالت في نفسك ، لكن العفو هو أن تحو المسألة كلها نهائياً ، وتأكيداً لذلك العفو
 فأنت قد تقول : أنا من ناحيتي عفوت . لا . المسألة لا تتعلق بك وحدك ، لأنك
 رسول من الله ، أنت وزمائك إله يغار عليك ، فلا يكفي أن تعفو عنهم . بل لابد أن
 تستغفر الله لهم أيضاً ، فمن الممكن أن يعفو صاحب الذنب ، ولكن رب ورب صاحب
 الذنب لا يعفو . فيوضح الحق : أنت عفوت فهذا من عندك ؛ لكنه يطلب منك أن
 تستغفر لأجلهم . كي لا يعذبهم الله عما بذر منهم نحوك .

« فاعف عنهم » هذه خاصة بالرسول صل الله عليه وسلم . . « واستغفر لهم »
 بسبب ما فعلوه ، وترتب عليه ما ترتب من هزيمتكم في « أحد » ، وشجك
 وجرحك ، ولا تقل : استسرتهم وطاوعتهم في المشورة ، وبعد ذلك حدث
 ما حدث ، فتكره أن تشاورهم ، لا تقل هذا الباب برغم ما حدث نتيجة تلك
 المشورة وأنها لم تكن في صالح المعركة ، فالعبرة في هذه المشقة هي أن تكون « أحد »
 معركة التأديب ، ومعركة التهذيب ، ومعركة التمهيص ، إذن فلا ترتب عليها أن
 تكره المشورة ، بل عليك أن تشاورهم دائماً ، فإدام العفو قد رخصت به نفسك ،
 ومادمت تستغفر لهم ربك ، واستغفارك ربك قد تستغفره بعيداً عنهم ، وعندما
 تشاورهم في أي أمر من بعد ذلك فكان المسألة الأولى انتهت ، ومادامت المسألة
 الأولى قد انتهت ، فقد استأنفنا صفحة جديدة ، وأخذنا الدرس والعظة التي
 سنتعلمها في أشياء كثيرة بعد ذلك ..

ولذلك نجد بعد هذه المعركة أن الأمور سارت سيرها المنتصر دائماً ؛ لأن التجربة

والتعليم والتدريب قد أثر وأثمر ، للدرجة أن سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - عندما جاءت حروب الردة ، ماذا صنع ؟ شاور أصحابه ، فقال له بعضهم : لا تفعل . فهل سمع مشورتهم ؟ لا . ألم يسمع مشورتهم ، إنما شاورهم . فلإنقاذ المشورة حُكْم ، ولرد المشورة حُكْم ، المهم أن تحدث المشورة ؛ ونعمل بأفضل الآراء فالمشورة : تلقىج الراى بأراء متعددة ، ولذلك يقول الشاعر :

شاور سواك إذا تابعتك نائبة
يوما وإن كنت من أهل المشورات

لقد اهتدى الشاعر إلى كيفية تفريب المعنى لنا ، فعلى الرغم من أن الإنسان قد يكون من أهل المشورة والناس تأخذ برأيه ، فعليه أن يسأل الناس الراى والمشورة ، لماذا ؟ ها هوذا الشاعر يكمل النصيحة :

فالعين تنظر منها مادنا ونأى
ولا ترى نفسها إلا بمرآة

إن العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد ، لكن هذه العين نفسها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآة ، وكذلك شأن المسألة الخاصة بفكرك والتي تعرض عليك ، إن عقلك ينظر فيها بامتناء ودون انفعال ؛ لأنه لا هوئى لك ، والحق هو الذى يجذبك . لكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواك ويحلبها لك ويحسنها .

إذن فالمشورة فى أحد كانت نتيجةها كما علمتم ، وكان الله يقول لرسوله : إياك أن تأخذ من سابقة المشورة أن المشورة لا تنفع ، فتقاطمهم ولا تشاورهم ؛ لأنك لن تظل حيا فيهم ، وسياق وقت بحكمهم بشر مثلهم ، ومادام يحكمهم بشر مثلهم فلا تحرمه أن يأخذ آراء غيره ، وعندما يأخذ الآراء وتكون أمامه آراء متعددة فهو يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الصحيح بحكم الولاية وبحكم أنه الإمام ، ويستطيع أن يفاضل ويقول : هذه كذا وهذه كذا ، إلا أن يُفوض غيره .

« وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » وقد عزم رسول الله أيضا على

الحرب ولبس لأمته ، أكان يلبس اللأمة - وهي عُدة الحرب - وبعد ذلك يقولون له : لا تخرج قيدعها ؟ لا ، فالمسألة لا تختمل التردد . « فإذا عزمتم فتوكل على الله » وهذه فائدة الإيمان ، وفائدة الإيمان : أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، معادلة جميلة ! الجوارح تقول : نزرع ، نحراث ، نأثى بالبذر الجيد ، نروى ، نضع سعاداً ونفترض أن الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فتأثى بقش ونحوه ونغطيه ، كل هذه عمل الجوارح . وبعد ذلك القلوب تتوكل .

فإياك أن تقول : المحصول آتٍ لآنى أحسنت أسبابي ، لا . لأن فوق الأسباب مُسَبِّها . فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، هذه فائدة الإيمان لآنى مؤمن بالله له طلاقة القدرة ، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب . الأسباب لك يا بشر ، أما الذى فوق الأسباب فهو لله ، فانت حين تعمل أخذت بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنت المسبب وهو الله - سبحانه - .

إذن فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل . إياك أن تظن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، لا ، فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب من يقول ذلك أنه يجب أن يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه ، ونقول للرجل الذى يدعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لست متوكلاً ، ولو كنت صادقاً فى التوكل إياك أن تمد يدك إلى لقمة وتضعها فى فمك . كن متوكلاً كما تدعى ، ودع التوكل يضع لك اللقمة فى فمك وانرك التوكل ليمضغها لك !

وطبعاً لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضاً : إن ادعاءك التوكل هو بلادة حس إيمان وليس توكلاً .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » « عزمت » تفتضى عزيمة ، والتوكل يفتضى إظهار عجز ، فمعنى أنى أتوكل على الله أننى استغفرت أسبابي ، ولذلك أرجع إلى من عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق .

وفي حياتنا اليومية نسمع من يقول : أنا وكلت فلانا ، أى أننى لا أقدر على هذا الأمر فوكلت فلانا . ومعنى توكيله لفلان أنه قد أظهر عجزه عن هذا الأمر . ولهذا ذهب إلى غير عاجز . كذلك التوكل الإيماني ، فالتوكل معناه : تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقة بحسن تدبيره ، ومن تدبيره أن أعطاك الأسباب فلا ترد يد الله الممدودة بالأسباب ثم تقول له اعمل لى يارب ، لأننا قلنا في سورة الفاتحة: إن الإنسان يدهو قاتلا :

﴿إِنَّا لَنَنصُرُكَ وَإِنَّا لَنَنصِيبُ ۝٥﴾

(سورة الفاتحة)

ومعنى « نصبركم » أى نطلب منك المعونة التى نتقن بها العمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٦﴾

الحق يقول هنا : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، المؤمنون بمن ؟ بالله . وما داموا مؤمنين به فمن إيمانهم به أنه إله قادر حكيم عالم بالمصلحة ، ولا يوجد أحسن من أنك تركله .

وعندما نقرا « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فقد تسأل : وما هو المقابل ؟ المقابل هو « وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » . إذن فأنت دتجئت بالأسباب التى قالها الحق سبحانه وتعالى مؤثرا بأمر القيادة السبائية التى مثلت فى الرسول المبلغ عن الله ، وقد أخذت عهدك على قدر استطاعتك ، إياك أن تقارن

عَدَدُكَ بِعَدَدِ خَصْمِكَ أَوْ تَقَارَنَ عُدَّتُكَ بِعُدَّةِ خَصْمِكَ ؛ فَاللهُ لَا يَكْلِفُكَ أَنْ تُغَابِلَ
العدد بالعدد وَلَا الْعُدَّةَ بِالْعُدَّةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : أَنْتَ تُعَدُّ مَا اسْتَطَعْتَهُ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّ اللَّهَ
يُرِيدُ أَنْ يَصْحَبَ رَكِبَ الْإِيمَانِ مَعُونَةَ الْمُؤْمِنِ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْمَسَائِلُ قَدْرَ بَعْضِهَا ،
لَكَانَتْ قُوَّةُ لِفْوَةٍ . لَكِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْعَدَدُ قَلِيلًا وَتَكُونَ الْعُدَّةُ أَقْلًا وَأَنْ نَعْتَرِفَ
وَنَقُولَ : هَذَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ يَا رَبِّ . وَمَادَامَ هُوَ الَّذِي قَدَرْنَا عَلَيْهِ ، فَتَكُونَ هَذِهِ هِيَ
الْأَسْبَابُ الَّتِي مَكْنَتُنَا مِنْهَا ، وَتَشْنُ بِأَنَّكَ يَا رَبِّ سَتَضَعُ مَعَ الْعَدَدِ الْقَلِيلِ مَدَدًا مِنْ
عِنْدِكَ ، فَأَنْتَ الْمَعْبُودُ الْأَعْلَى ، فَسَبِّحَانِكَ الْغَائِلُ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۖ ﴾ (١١)

(سورة محمد)

والحق هنا بقول : « إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ » فَأَنْتَ تَضْمِنُ نَصْرَ اللَّهِ لَكَ
إِنْ كُنْتَ قَدْ دَخَلْتَ عَلَى أَنْ تَنْصُرَهُ .

كَيْفَ نَعْرِفُ أَنَّنَا نَنْصُرُ اللَّهَ ؟ نَعْرِفُ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَأْتِي النُّتِيجَةُ يَنْصُرُنَا ، لِأَنَّهُ سَبِّحَانَهُ
لَا يُعْطَى قَضِيَّةٌ فِي الْكَوْنِ وَبَعْدَ ذَلِكَ بِأَيِّ الْوَاقِعِ لِيَكْذِبَهَا ، وَإِلَّا فَالْمُسْلِمُونَ يَكُونُونَ
قَدْ انْخَدَعُوا - مَعَاذَ اللَّهِ - لِأَنَّهُ لَوْ جَاءَ الَّذِينَ بِقَضِيَّةٍ ثُمَّ بَأَى الْوَاقِعَ لِيَكْذِبَهَا ، فَلَا يَدَّ أَنْ
يَقُولُوا : إِنْ الْوَاقِعُ كَذَبَ نَلِكُ الْقَضِيَّةِ . لَكِنَّ الْحَقَّ قَالَ : « إِنْ نَنْصُرُوا اللَّهَ
يَنْصُرْكُمْ » وَبِحَيْءِ الْوَاقِعِ مُؤَكَّدًا هَذِهِ الْقَضِيَّةُ ، عِنْدُنَا نَحْنُ لَا نَصْدُقُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ
فَفَطْ ، بَلْ نَصْدُقُ كُلَّ مَا غَابَ عَنَّا ، فَعِنْدَمَا تَظْهَرُ جَزْئِيَّةٌ مَادِبَةٌ وَافِعَةٌ عَسُومَةٌ لَتَبِتْ
لِي صَدَقَ الْقُرْآنُ فِي قَضِيَّةٍ ؛ فَأَنَا لَا أَكْتَفِي بِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، بَلْ أَقُولُ : وَكُلَّ مَا لَا أَعْلَمُهُ
دَاخِلٌ فِي إِطَارِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ .

وَلِلذَلِكَ فَلْنَا : إِنْ الْحَقُّ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى تَرَكَ بَعْضَ أَسْرَارِهِ فِي كَوْنِهِ ، وَهَذِهِ الْأَسْرَارُ
الَّتِي تَرَكَهَا فِي كَوْنِهِ هِيَ أَسْرَارُ لَا تَوْدِي ضَرُورَاتٍ ؛ إِنْ عَرَفْنَاهَا فَتَحْنُ لِنَتَفَعَّ بِهَا قَلِيلًا
فِي الْكَمَالِيَّاتِ ، وَيَتَرَكُ الْحَقُّ بَعْضَ الْأَسْرَارِ فِي الْكَوْنِ إِلَى الْعُقُولِ لِنَسْتَبْطِئَهَا ، فَالْشَيْءُ
الَّذِي كَانَ الْعَقْلُ يَقِفُ فِيهِ قَدِيمًا يَصْبِيحُ بِاكتشاف أسرار الله مقبولا ومعقولا ، كَانَ
الْشَيْءُ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ الْعَقْلُ سَابِقًا أُثْبِتَ الْأَبَامُ أَنَّهُ حَقٌّ ، إِذَنْ فَمَا لَا يُعْرِفُ مِنَ
الْأَشْيَاءِ يُؤْخَذُ بِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ أَوْ بِمَا أُخِذَ مِنَ الْغَيْرِ .

يقولون - مثلاً - اكتشف الميكروب على يد « باستير » ، لكن ألم يكن الميكروب موجوداً قبل « باستير » ؟ كان الميكروب موجوداً ، ولم يكن أحد يراه ، لأن الشيء إذا دق ولطف لا نقدر أن ندركه ، فليس عندنا الآلة التي ندركه ، ولم تكن قد اخترعنا المجهر الذي يكبر الأشياء الدقيقة آلاف المرات . وكذلك اخترع الناس التلسكوب ، فبعد أن كان الشيء لا يرى لبعده ، أصبح يرى بواسطة التلسكوب ، وإن كان الشيء ضئيلاً جداً ولا نراه . فقد استطعنا أن نراه بواسطة المجهر المسمى « الميكروسكوب » .

وهو التلسكوب ، يقرب البعيد وهو الميكروسكوب ، يكبر الصغير فنرى له حركة وحياة ، ونجد له مجالاً يسبح فيه ، وهذا جعلني إذا حدثني القرآن أن الله خلقنا غاب عن الحس لا يدرك من جن وملائكة ، فلا أكذب ذلك ، لأن هناك أشياء كانت موجودة ولم تدخل تحت حسي ولا إدراكي مع أنها من مادي ، فإذا كانت الأشياء الأخرى من مادة أخرى مثل الملائكة من نور ، أو الجن من النار ، ويقول لي سبحانه أنهم مخلوقون وموجودون فأننا لا أكذب ما جاء عن الحق ، لأن هناك أشياء من جنسي كانت موجودة ولم أستطع أن أراها .

إذن فهذه قربت لي المسألة ، فعندما يقول الحق : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فنحن نعرف أن نصر الله مترتب على أن تدخل المعركة وأنت تريد أن تنصر الله ، وتنصره بماذا ؟ بأنك تحقق كلمته وتجعلها هي العليا ، وليس هذا فقط هو المطلوب ، بل لتجمل - أيضاً - كلمة الذين كفروا السفلى .

« وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده » إنه في ظاهر الأمر يكون معنا ، لكننا نشعر أنه تخلى عنا ، لماذا ؟ لأننا نترك بعضاً من تعاليم الله ، إذن فهو في المظهر العام معكم كمسلمين ، ومن معيته لكم أن يؤدبكم على المخالفة فيخذلكم عندما تخالفون عن أمره .

ويحتم الحق سبحانه الآية بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وفي الآية السابقة قال سبحانه : « إن الله يحب المتوكلين » ، والذي لا يتوكل على الله عليه أن يراجع إيمانه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ما معنى « يَغُلُّ » ؟ أولا : « الغلول » هو الأخذ في الخفاء . وهو مأخوذ من « أغل الجازر » - أى الجزار - أى عندما يسلم الجلد يأخذ بعض اللحم مع الجلد ، ثم يطوى الجلد مخفيا ما أخذه من اللحم ، هذا هو الأصل ، وأطلق شرعا على الخيانة في الغنائم ، ففى هول المعارك قد يجد المقاتل شيئا ثميناً فيأخذ هذا الشيء خفية ، وهذا اسمه « الغلول » ، وأيضا كلمة « الغل » فى الصدور ، أى إخفاء الكراهية ، وكل المادة إخفاء .

والحق يقول : « وما كان لنبي أن يغُل » لماذا ؟ لأن من الجائز أن الرماة - فى غزوة أحد - ساعة رأوا الغنائم أقبلوا عليها ، لأن غنائم بدر لم تكن قد قسمت بين كل من اشتركوا فى القتال ، فالذى كان يعثر على غنيمة كان يأخذها ، وكانت بدر أول معركة ، وكان الهدف من ذلك تشجيع المقاتلين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : قد قال : « من قتل قتيلا فله سلبه » .

وظن المقاتلون فى أحد أن المسألة ستكون مثل بدر ، وظن البعض أن الرسول لن يعطيهم غنائم ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى : بأن هذه مسألة وتلك مسألة أخرى ، فمن يفعل مثل هذا يكون قد غُل . وساعة تسمع : « وما كان لنبي أن يغُل » أى أن من طبعه صلى الله عليه وسلم ومن فطرته وسجيته ألا يتأتى ذلك منه أبدا ، لكن من الجائز أن يحدث مثل ذلك من واحد من أمته ، إذن فهناك فرق بين امتناع

المؤمن أن يكون غالاً ، أى يأخذ لنفسه شيئاً من الغنيمة ، وامتناع الرسول أن يكون غالاً ، لأن طبعه وسجيته لا تستقيم مع هذه ، لكن الأمر يختلف مع المقاتلين ، فمن الممكن أن يكون أحدهم كذلك ، فسيدينا عمر في معركة القرس ، حينما جاء جماعة بناج كسرى ، والناج فيه كل الفئاس وتلك سمة عظيمة الملوك ، فقال الفاروق عمر : إن قوما أدوا إلى أميرهم هذا لأمناء . فقد كان من الممكن أنهم يخفونه .

« وما كان لئى أن يغُل ، وساعة نسمع » وما كان : أى : وما ينبغي ولا يصح أن يكون ذلك الأمر ، وبعد ذلك يأتى بالحكم العام فيمكن أن يحدث غلول من أخذ فيقول : « ومن يغلل يأت بما غُل يوم القيامة » فالذى غل في حاجة وعان فيها يأت بها يوم القيامة كما صورها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حله إلا لقي الله يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بغير له رغاء أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رئى بياض إبطيه يقول : اللهم قد بلغت » (١) .

إن من يأخذ حراماً في خفية يأت يوم القيامة وهو يحمل البعير أو البقرة أو الشاة مثلاً . وآه لو كان ما أخذه حاراً فله نهب !!

فإذا كان سيأتى بما غُل يوم القيامة - فالذى أخذه سيفضحه - ولذلك تسمى « الفاضحة » ، وه الطامة ، . إذن فمن الممكن في الدنيا أن يأخذها خفية ويغُل . لكنه سيأتى في يوم القيامة وهو يحمل ما أخذه على ظهره ، ثم يقول مثادياً رسول الله : يا محمد . . يا محمد ، لأن كل مسلم قد علم واطمأن إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رءوف ورحيم وأنه لن يرضى بهذه الحكاية ، لكن رسول الله أبلغ عن عقاب من يفعل ذلك في حياته ، وعلى كل المؤمنين به ألا يفكروا في الغلول وأخذ الغنيمة خفية .

ولماذا تكون الغنيمة في الحرب شراً ؟ لأن المقاتل يعيش أثناء القتال في مهمة أن

(١) رواه البخاري ومسلم ، « رغاء » يغم الرءاء صوت البعير ، « خوار » يغم الحاء صوت البقرة ، « تيعر » تصيح والبعار : صوت الغنم .

تكون كلمة الله هي العليا فكيف يرضى لنفسه بهذه المهانة وهي إخفاء النعمة ؟ إنه يحارب من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، ويجب أن يكون في مستوى ذلك .

وبعد ذلك يأتي الحق بالقضية العامة : « ثم نوفي كل نفس ما كسبت » ، وهي تشمل الغلول في النعمة والغلول في غير النعمة ، ولتصور هذه بالنسبة لكل من يكون أمانة أو ثمن عليها ، وأنه سيأتي يوم القيامة يحمل عبارة - مثلاً - لأنه بناها بغير أمانة أو يحمل أطنانا من سمك لأنه سرقها ، أو يحمل أطنانا من الجبن الفاسد التي استوردها . فكل من سرق شيئا سيأتي يوم القيامة وهو يحمله ، وإذا كنا نشهد أن الناس لا تطيق أن تقضح بين الخلق ، والخلق محدودون لأنهم المعاصرون ، فما بالك بالقضية التي ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة . إذن فعل كل إنسان أن يحرس نفسه لأن المسألة ستقضح .

« ومن يظلل يأت بما غل يوم القيامة ثم نوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ومادم سبحانه سيوفي كل نفس ما كسبت فكل سيأخذ قدر ما فعل ، فلا ظلم ، فلو ترك الأمر بلا حساب لكان هذا هو الظلم وحاشا لله أن يظلم أحدا . وبعد تلك التهيئة والإيضاح يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَتْسَلِّمُ الْمَصِيرُ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح بعض القضايا طرح الاستفهام ، فهو يطرحها لا ليعلم هو فهو عالم ، ولكن ليستطلق السامع ، ونطلق السامع حجة فوق خبر المخبر ، فلو قال : إن الذي يتبع رضوان الله لا يساوى من ذهب إلى سخط الله لكان ذلك إخبارا منه وهو صادق فيما يقول ، لكنه سبحانه يريد أن يستطلق عباده بالقضية ، « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء » ، « باء » أي : رجع « بسخط من الله » .

لاشك أن كل من يسمع عن الفارق بين اتباع الرضوان ، أو الرجوع بالسخط يقول : إن اتباع الرضوان يرفع درجة الإنسان ، والذي يبوء بالسخط يهبط إلى درك الخسران ، فالقضية قاطبة السامع . . فكان الحق يستنطقنا بالقضية لتكون حجة علينا ، والذي يتبع رضوان الله بالطاعة ، أيساويه من يرجع إلى سخط الله بالمعصية ؟

أفمن يتبع رضوان الله فلا يغفل في الغنيمه ولا يخترن في الامانة كمن غل في الغنيمه وخان في الامانة ؟

أفمن اتبع رضوان الله بأن استمع لأوامر الله حين استنفره لجهاد العدو ، كمن لم يذهب لنداء الله ليكون في جند الله مقاتلا لعدو الله ، لا ؛ فالذى لا يستجيب لنداء الله هو من يبوء بسخط الله .

و السخط ، هو : إظهار التقبيح ، لكن إظهار التقبيح قد لا يؤثر في أناس غليظي الإحساس ، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم ؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم : « وماواه جهنم وبئس المصير » و « ماواه » أى المكان الذى يأتى ويرجع إليه هو جهنم وبئس المصير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُورِهِمْ

يَعْلَمُونَ ﴾

« هم درجات » أى ينزلون في الآخرة منازل على قدر أعمالهم ، فكما ترى الدرجات موصلة إلى المراقي العالية كذلك في الآخرة كل إنسان محاسب بعمله ، ويأخذ عليه درجة ، ولنا أن نلاحظ أن الحق يستخدم كلمة « درجات » بالنسبة للجنة ؛ لأن فيها منازل ورتباً ، أما فيما يتعلق بالنار ، فيأتى لفظ « درجات » ،

فالدركة تنزل ، والدرجة ترفع .

« هم درجات عند الله » فالله هو العادل الذي ينظر لخلقهم جميعاً على أنهم خلقه ، فلا يعادى أحداً ، إنه يحكم القضية في هذه المسألة سواء أكانت لهم أم كانت عليهم ، وبعد ذلك يردفها - سبحانه - بقوله : « والله بصير بما يعملون » ليظهر هؤلاء على أن الله بصير بما يعملون فلن يضيع عنده عمل حسن ، ولن يهدر عنده سيئة يدرت منهم . « والله بصير بما يعملون » . ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » ، والعمل أهم الأحداث ، لأن العمل هو تعلق الجارحة بما تبطت به ، فالقلب جارحة عملها النية ، واللسان جارحة عملها القول ، والأذن جارحة وعملها الاستماع ، والعين جارحة وعملها أن تنظر . إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تنشئه لتؤدي مهمتها في الكائن الإنساني ، إذن فكل أداء مهمة من جارحة يقال له : « عمل » .

لكن « الفعل » هو تعلق كل جارحة غير اللسان بالحدث ، أما تعلق اللسان فيكون قولاً ومقابله فعل ، إذن ففيه قول وفيه فعل وكلاهما « عمل » إذن فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معاً ؛ لأن العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها ، لكن الفعل هو : شغل جارحة غير اللسان بالعمل المطلوب منها ، وشغل اللسان بمهمته يسمى : قولاً ولا يسمى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيراً ، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ بَنَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ ۝

أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل ، والكل عمل « والله بصير بما يعملون » قولاً أو فعلاً وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ
رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا
مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤)

والذي يمن على الآخر هو الذي يعطيه عطية يحتاج إليها هذا الآخر ، فكان الحق يقول : وهل أنا في حاجة إلى إيمانكم ؟ في حاجة إلى إسلامكم ؟ أصفه من صفات معطلة حتى تأتوا أنتم لتكملوها لي ؟ لا ، إذن فحين أبعث لكم رسولا رحيبا بكم ، فالمنة تكون لي وحدي .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

أكان يبعثه ملكا ؟ لا . بل بعثه من البشرية ، كي تكون الأسوة فيه معقولة . فعندما يقول لكل مسلم افعل مثلي ، فالمسلم عليه أن يطبق ما يأمره به الرسول ، لكن لو كان ملكا أكانت تنفع فيه الأسوة ؟ لا ، فقد يقول لك : افعل مثلي ، فتقول له : لا أقدر لأنك ملك ، ومن يدعى الألوهية لرسول ، فهو ينفى عنه الأسوة ؛ لأنه عندما يقول : كن مثلي ، يمكنك أن تقول : وهل تقدر ؟ أنت طبيعتك مختلفة ، فهل نصل لذلك ؟ لا تقدر ، ولذلك فالذين يقولون بالوهمية رسول ، إنما يفقدون الأسوة فيه ، والمفهوم في الرسول أن يكون أسوة سلوكية ، وأن يكون مبلغا عن الله منهجه ، وأن يعلن بشريته ويقول : أنا بشر وأستطيع أن أمثل وأطبق المنهج . إذن فهو أسوة سلوكية تطبيقية .

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنة على من آمن فقط ؟ لأنه هو الذي انتفع بهذه الحكاية ، لكن الباقيين أهدروا حقهم في الأسوة ولذلك تكون المنة على من آمن .

« لقد من الله على المؤمنين » وما هي المنّة ؟ المن : الأصل فيه أنه القطع ، لكن حين نسمعها نجد أنها تستعمل في أشياء متقابلة ، فمثلا : المن هو العطاء بلا مقابل ، والمن هو : تكدير النعمة بالتحدث بها ، مثل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا آتَوْا مِنَّا وَلَا أَذَى لَهُمْ لِحُرْمِهِمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١١١)

(سورة البقرة)

إذن فالمن الذي نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل ، ولكن المن قد استعمل في تكدير النعمة بكثرة الكلام فيها ، فقد يقول الإنسان لمن يمن عليه : لا أريد النعمة التي تتكلم عنها دائما ، إذن فالمن استعمل في النعمة وفي تكدير النعمة ، نقول : مَنْ على فلان إذ أنقذني من ضيق كنت فيه ، ويقال : فلان ليس فيه منّة ، أى ليس فيه قوة ، وكلها تدور في معنى القطع ، فإذا استعمل في النعمة والعطاء نقول : نعم فيها قطع ، لأن النعمة جاءت لتقطع الحاجة ، ففيه حاجة ثم جاء عطاء ، والعطاء قطع الحاجة . فاستعملت في معناها .

فإذا جاءت نعمة بعد حاجة والحاجة انقطعت بالنعمة فلا بد أن تأتي بفعل بعدها وهو أن تشكر من أنعم عليك ، وعصروا أنه الله ، فالمن يقطع الشكر لأنك إن متت بالنعمة وأظهرت تفضلتك بها على من أسديتها إليه فقد تسببت في أن الأخذ لا يشكرك بل إنه ينضايق من نعمتك وقد يرذها عليك . فإذا : هنا قطع للشكر ، فإن قطعت حاجة محتاج فهذا يسمى « نعمة » وإن فخرت بنعمتك عليه حتى كدرتها فقد قطعت ومنعت شكره لك ، وهذا يسمى « منّا » أى أذى لأنه يؤذى مشاعر وإحساس الأخذ . وإن قطعت مطلقا اختصت باسم « المنّة » ، يقولون : فلان لا منّة فيه أى لا قوة عنده تقطع في الأمور ، وهنا يقول : « لقد من الله على المؤمنين » و« مَنْ » هنا بمعنى أعطى نعمة ، والنعمة في الدنيا تعطيك على قدر دنياك ، و« منّة » الله برسوله صل الله عليه وسلم تعطى عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة ، فتكون هذه منّة كبيرة .

« لقد من الله على المؤمنين إذ » ، و« إذ » بمعنى ساعة أى حين بعث فيهم رسولا

منهم فقد عمل فيهم مئة وقدم لهم ومنحهم جملاً كبيراً وأنعم عليهم نعمة ، « إذ بعث فيهم رسولا » . فإذا كان مطلق بعث رسول كي يهتدي الناس إلى منهج الله يكون نعمة فإذا كان الرسول من أنفسهم ؟ إن هذه تكون نعمة أخرى لأنه مادام من أنفسهم ومن رهطهم ومن جماعتهم ، هو معروف نسباً وحسباً ومعروف أمانة ، فلا يخون ، ومعروف صدقاً فلا يكذب ، كل هذه « مئة » ولم يتعب أحداً في أن يبحث وراءه : أكذب قبل ذلك حتى نعتبر ذلك كذبا ؟ ، أخان قبل ذلك حتى نعتبر ذلك خيانة ؟ لا ، هل هو من الناس المدعين الذين يريدون أن يقيموا ضوضاء من حولهم ؟ لا . بل هو في الحسب والنسب معروف ، جده عبدالمطلب سيد البطحاء ولا يوجد واحد من أهله نافها .

وعرف الجميع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة منذ صغره ، إذن فالمقدمات تجعل الناس لا يجهد نفسها في أن تتحرى عنه أصادق هو أم غير صادق ؟ إذن فهو مئة ، ولذلك حينما بعث الله سيد الخلق إلى الخلق ؛ كان هناك أناس بمجرد أن قال لهم : إني رسول الله ، آمنوا به ، لم يقدم معجزة ولم يقولوا له : ماذا سنقول أو ماذا نعمل ؟ بل بمجرد أن قال : إنه رسول الله صدقوه ، فغلب أي حشبة استندوا في التصديق ؟ لقد استندوا على الماضي .

لقيتموه أمين القوم في صغر

وما الأمين على قول بمتهم

ها هو ذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بقول : إن كان قد قال فقد صدق . إذن فالمقدمات التي يعرفونها عنه كانت هي الحجة في تصديق الرسول ، وخديجة - رضي الله عنها - عندما آمنت به ، أقال لها المعجزات والقرآن ؟ لا . بل بمجرد أن قال لها : أنا رسول الله . قالت له : صدقت فلا بد أن تكون رسولا ، هو نفسه كان يشكك وهي مؤمنة به ، هو نفسه يتساءل : لعل ذلك يكون كذا ، وذهبت به خديجة - رضي الله عنها - إلى ورقة بن نوفل لتطمئنه على الرغم من أنها كانت قد توصلت إلى الحكم في القضية التي سألت عنها ورقة بن نوفل وأوضحت لرسول الله أن ما تقوله لا يمكن أن يوقعك في بلية أو خزي أو ذلة ؛ لأن صفاتك جاءت كمقدمات لهذه النتيجة ، وهي أنك رسول كريم « إنك لتعمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على الثواب

الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً (١) ، إنسان بهذه الصفات لا يمكن أن يأتيه شيطان ، وتعال نذهب معا لأهل الكتاب الذين لهم علم بهذه المسألة . كأنها آمنت برسالة رسول الله قبل أن يقول لها ورقة بن نوفل شيئاً .

إذن فقله : « من أنفسهم » أى معروف لهم ، فلم يأت لهم بواحد منقطع عليهم من السماء ، وقال : هذا رسول ، لا . إنه رسول « من أنفسهم » ، وهذه أول مبتة ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، هذا إذا أخذت المحيط القريب أنه من الرمحط ومن القبيلة ومعروف لهم ، « من أنفسهم » أو من جنس ونوع العرب ، وهذه أيضاً مبتة ، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة ، والرسول عندما يأتي ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يريد أناساً تفهم عنه ، فأوضح لهم : لم أكلفكم لتقولوا ماذا يريد ، لا ، هو من أنفسكم ، وهو إنسان له مواصفاتكم ، ولكنهم لفرط عنادهم لم يؤمنوا مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ أَهْدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا ۖ ﴾

رَسُولًا ﴿٩١﴾

(سورة الإسراء)

إنهم يستكثرون كيف يبعث الله بشراً ويجعله رسولا ، وهذا غباء في الاعتراض ، وبأن الرد الجميل من الله :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مُلْكُكُمْ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا ۖ ﴾

رَسُولًا ﴿٩٢﴾

(سورة الإسراء)

أنتم من البشر ، فلا بد أن نأتيكم برسول من جنسكم ، حتى إذا قال لكم : افعلوا كذا تقولون : نعم ؟ لأنه بشر ويعمل ونحن بشر نستطيع أن نعمل مثله . . لكنه لو كان ملكاً لقال الواحد منكم : وهل أنا أقدر أن أكون كالملك ؟ إذن فلا تنفع

هذه الحكاية ، وهكذا من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا ، « من أنفسهم » ، إن أخذتها على أساس أنها قبيلة محدودة ومعروفة فهي مئة ، وإن أخذتها على أنه من جنس عرب فيكون اللسان واحداً فهي مئة ، وإن أخذتها من الجنس العام وهو الإنسان فهي مئة أيضاً .

وهل اعتبار معنى واحد من المعاني بتقضى المعاني الأخرى أو تأتى كلها في سلك واحد ؟ إنها معاني تأتى كلها في سلك واحد ، لأن المتكلم هو الله ، ومادام المتكلم هو الله فيكون عطاء اللفظ أكثر من عطاء الفاظ الخلق ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، وهناك قراءة - وإن كانت قراءة شاذة - تقول : « من أنفسهم » (بفتح الفاء) أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم وهم أفضل فريش ، وفريش أفضل العرب .

وماذا يعمل الرسول ؟ يُفهم من قوله : « رسولا » أنه لا يأتى بشيء من عنده ، بل هو - مع هذه المنزلة الحقة بخلقه الجميل وماضيه الناصح - هو مع هذا رسول وليس له فى الأمر شيء ، إذن فمرسله خبرته ، فلا تنبه إلى هذا الرجل العظيم فحسب بل يجب عليك أن تسأل : من أين جاء ؟ لابد أن تلتفت إلى أن الذى بعثه أعظم منه .

« رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ، وكلمة « يتلو » بمعنى يقرأ لأن الكلمة تتلو الكلمة ، فالذى يقرأ أى ينطق كلمة بعد كلمة ، كلمة تالية بعد أخرى « يتلو عليهم آياته » وكلمة « الآيات » - كما تعرف - تستعمل للأمور العجيبة ، الثلاثة للنظر ، تقول مثلاً : فلان آية فى الحسن . أى حسنه لافى للنظر ، وتقول : فلان آية فى الذكاء ، صحيح أن هناك أذكىاء كثيرين ، لكنه آية فى الذكاء . . أى أن هذا الإنسان أمره عجيب فى الذكاء ، إذن فكلمة « آية » معناها : الأمر العجيب ، وهو الذى يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمل فى عجائبه .

والآيات نوعان : آيات منظورة فى الكون مثل قول الحق :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْبَأُ الْقُرْآنَ وَالْغَمْرَ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ ﴿

(سورة فصلت)

وكل ظواهر الكون تعتبر أشياء عجيبة . والنوع الثاني : هو آيات القرآن مثل قوله الحق :

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مُّسْكِنًا آيَةً رَّأَوْهُ أَظْمَرًا يَمْزِيلُ قَالَُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

(سورة النحل)

إذن فالآيات هي الأمور العجيبة وهي قسبان : منظور ومقروء ، المنظور : كل الكون ، والمقروء : هو القرآن ، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التي في الكون يشاهدونها ويرونها ، لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة ، وتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ؛ فينتهي الإنسان إلى الإيمان بمن خلق هذا الكون .

إن الحق يقول عن الرسول : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم » والمسألة ليست أنه يتلو الآيات لمعجرتها منها فحسب ، لا ، فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كل سامع للقرآن إلى من خلق ذلك الكون الجميل البديع الذي فيه الآيات العجيبة . ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذي يناسب جمال الكون ، إذن فالرسول يتغل المؤمنين إلى المنهج الذي يزكى الإنسان ، وأنت إذا سمعت كلمة « يزكيهم » فأنت تعرف أنها من الزكاة . والزكاة أول معانيها : التطهير ، والتنقية ، والنماء . والآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المظهر أو المظهر ، إنه لمصلحة المظهر . التنقية والنماء لمصلحتكم أنتم وهذا لا يشكك في التكليف ؛ لأن التكليف لم يأت للمكلف ، إنما جاء للمكلف ، وأضرِبَ هذا المثل - والله المثل الأعلى - فالرجل يكون ميسور الحال وعنده مال وعنده عقارات وأطيان ، وبعد ذلك يحب لأولاده أن ينجحوا في المدارس

فيشجعهم قائلا لكل منهم : إن نجحت فإفعل لك كذا . هو لا يريد منهم شيئا لنفسه ، فعنده النعمة الكافية ، هو يريد - فقط - مصلحتهم هم .

إذن فالمكلف لن ينتفع بتكليفنا أبدا ، فالنقية لصالحنا والتطهير لصالحنا والثناء لصالحنا - والتزكية هي : تطهير وتنقية وثناء - ولننظر إلى الحالة التي كانت الجاهلية عليها ، هل كانت طاهرة ؟ هل كانت نقية ؟ هل كانت تامة ؟ لم يكن بها وصف من تلك الأوصاف ، لأنها جاهلية ، فكلهم محكومون بالهوى والجبروت والسلطان والقهر ، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يستبقى حياته وبعد ذلك يستبقى نوعه ، وبعد ذلك يستدبهم ما حوله ، والتزكية شملت كل أمر من هذه الأمور ، تزكية في الإنسان نفسه ، في ذاته ، بدلا من أن يكذب لسانه طهره عن الكذب ، بدل أن تمتد عينه إلى محارم غيره طهر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلا من أن تمتد يده خفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

والسرقة - كما نعلم حتى عند من سرق - نقیصة ، بدليل أن اللص يتوارى ويحاول أن يسترها وألا يراه أحد ، لأنها رذيلة ونقيصة . ويأتى المنهج فيقول له : لا تسرق ، ويظهر المنهج حركة جوارح الإنسان في الأرض ، ويظهر قلبه من الحقد كي يعيش مرتاحا ، ويبقى قوته مصونة للعسل الجاد المثمر ، فلم يبدد قوته ، ولم يبدد نظراته ، ولم يبدد علاقاته بالناس ؟

إذن فالمنهج يمتنى الإنسان ، إنه تطهير وتنقية وثناء له ، وبعد ذلك عندما يصاب الإنسان بالعجز وعدم القدرة ، فلن يستدله الغير لكي يعطيه لقمة . لقد زكاه المنهج من هذه ونقاها من الذلة وجعل له في مال القادر حقا ، والقادر هو الذي يبحث عن الضعيف ليعطيه حقه ؛ لأن العاجز عندما يرى كل المؤمنين حوله قادرين يبحثون عنه ليعطوه حقه وليس مجرد صدقة يتصدقون بها عليه حيثذا يقول : أنا لست وحدى في الكون . أنا في الكون بفلان وبفلان ، فتكون تنمية له ، مادام الكل يعطيه .

أما عن بقاء النوع فإذا يعنى ؟ إن الحق يريد طهارة الإنسان والذرية التي أتى وأن يجعل لها وعاء شريفا عفيفا ، وإطارا لا تشويه شائبة فجاء المنهج ليتركبكم في كل

شيء ، بركى حركات جوارحكم فلا تنجى الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند من خلقها ، فخالق قد أضح : باعين حدودك كذا ، بالسان حدودك كذا ، يابد حدودك كذا ، يارجل حدودك كذا ، باقلب حدودك كذا ، فالذى خلق كل جارية هو الذى أعطى لكل منها حدودها فلا تجاوز ولا تناون ولا إفراط ولا تفريط ، فإن خرجت عن غير ما وضع لها فى منهج الله فقد خالفت . وهكذا نرى أن المنهج قد جاء بزيككم أى يظهركم وينفيكم وينسيكم فى كل مجال من مجالات الحياة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » وساعة يقول الحق : « الكتاب » فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن ، والحكمة هى السنة . والحق يقول :

﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا بُشِّرَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا

خَبِيرًا ﴿٢١﴾

(سورة الأحزاب)

وآيات الله معروفة وهى آيات القرآن ، والحكمة هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : « ينزل عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » ، إذن فالكتاب هو القرآن ، سينزل عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء فى هذا الكتاب . بعض المفسرين قال : لا بد أن نحمل « الكتاب » هنا على معنى آخر غير القرآن ، فقالوا : الكتاب يعنى الكتابة ، وأول عمل زاولوه فى الكتابة كتابة المصحف . إذن فالتقى المعنيان ، ولذلك فى غزوة بدر ، كان يتم فداء الأسرى إما بالمال وإما أن كل أسير يجيد القراءة والكتابة إذا أراد أن يفدى نفسه فعليه أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فقد كانت الأمة أمية . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للامية ، أوخذ هذه اللفظة على أساس أن هناك فرقا بين التلاوة والتعليم ، التلاوة : يتلو عليهم ، أى أن الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأن يتلوا هم القرآن . « ويعلمهم الكتاب والحكمة » وه علم . أى نقل العلم من معلم إلى مُعلم .

ويختتم الحق هذه الآية بالقول الكريم : « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » وهناك أساليب تأتي في القرآن فيها « إن » وتجد كل « إن » في موضع لها معنى يختلف عن الآخر ، فمثلا تأتي « إن » شرطية ، يعنى يأتي بعدها فعل شرط وجواب شرط مثل قوله الحق :

﴿ إِنْ يَسْكُرْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة آل عمران)

أى إن يسكم قرح فلا تأسوا ولا تبتسوا . فقد مس القوم قرح مثله ، وقوله الحق :

﴿ إِنْ تَبَدُّوا لَأَصْدَقْتِ فِيمَا هِيَ ﴾

(من الآية ٢٧١ سورة البقرة)

إننا هنا نجد أن « إن » شرطية ، فمب شرط وجواب شرط . ومرة تأتي « إن » وبعدها « إلا » :

﴿ إِنْ أَمَّهُتُّهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

وهو سبحانه يتكلم هنا عن الذين يظاهرون من نساءهم ، أى يقول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمي ، إن أمك هي التي ولدتك وامراتك لم تلدك ، فلو كانت أمك لكنت محرمة عليك ، « إن أمهاتهم إلا اللاتي » ، فعندى هنا « إن » وبعدها « إلا » ومادام جاءت « إلا » فالذى بعدها يكون مثبنا ، والذي قبلها يكون منقبا ، مثل قولنا : « ما قام القوم إلا زيدا » إن زيدا يختلف عنهم . « إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم » أى : ما أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم ، إذن فـ « إن » هنا ليست

شرطية لكنها هنا « إن » النافية وتعرفها بوجود « إلا » .

ومرة ثالثة تأتي « إن » لا هي شرطية ، ولا هي نافية مثل آيتنا هنا « وإن كانوا من قبل لقي ضلال مبين » . ونقول : هذه « إن » التي هي تخفيف « إن » أي « إن » هنا تخففة من الثقيلة ويكون المعنى وإن الحال والشأن والقصة والواقع أنهم كانوا في ضلال مبين . ويقول النحاة : اسمها ضمير الشأن - أي الحال والقصة - وهو محذوف .

وما هو الضلال ؟ يقولون : ضل فلان الطريق أي مشى في مكان لا يوصله للغاية ، أو يوصل إلى ضد الغاية ؛ لأن الضلال في الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلني لغايتي المرجوة ، وقد لا يوصلني لشر منها أو لمقابلها ، لكن في الأمر القبيح ماذا يفعل ؟ إنه لا يوصلك إلى الغاية المرجوة وهي الجنة فحسب ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلال واضح ؛ بدليل أن النفاثين التي جاء الإسلام ليظهر الإنسان منها ، يحب مرئيتها ألا تعلم عنه وسط الناس ، فالسارق يسرق لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه لص ، والكاذب يكذب لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه كذاب ، بدليل أنك عندما تقول له : يا كذاب تكون له ضاعقة . إذن فالنقيصة تفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد أو يعرف بها .

« وإن كانوا من قبل لقي ضلال مبين » أي ضلال ظاهر وهو ضلال يعرفه صاحبه بدليل أننا قلنا في قصة سيدنا يوسف ؛ حيث نجد في القصة اثنين من الفتيان قد دخلوا السجن ، وماذا حدث لهما :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَسْتُ أُخْرَجْتُ خُرّاً وَقَالَ
الْآخَرُ إِنِّي أَرَسْتُ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَلْكُلُ الْعُمَّمَةُ نَيْفًا يَأْتِيهِ
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد رأوا في يوسف عليه السلام كان عنده ميزان الإحسان فهو يعرف الحسن والقيح ، ولأنهما يعرفان ميزان الإحسان فلا بد أن تكون المسائل بالنسبة لهما واضحة . ولماذا لم يقلها واحد منها من قبل ؟

لقد شهدا هذه الشهادة لسيدنا يوسف لأنهما يطلبان الآن مشورته في تأويل الرؤى . كان يوسف عليه السلام مسجوناً ، ولم ينظر إليه أحد إلا كمسجون . ومن سلوكه معهما في السجن عرفا أنه طيب ومحسن . ولذلك التفتا إليه ورأيا فيه أنه قادر على تأويل رؤيا كل منهما . مثلما قلنا : إن المنحرف نفسه يعرف قيمة الفضيلة ، وهكذا نجد أن الفضيلة مسألة ذاتية وليست نسبية ، أي أنه حتى المنحرف عن الفضيلة يرى الفضيلة فضيلة .

وبعد ذلك يعود الحق إلى قضية عجيبة ، فإذا كان الله سبحانه قد من على المؤمنين بالرسول ، ومن أنفسهم ، وجاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء وغناء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة وهي وضع الشيء في موضعه ، أو البحث عن أسرار الأشياء كان يجب عليكم - إذن - أنه إذا قال قولة لا تخالفوا عنها أبداً ، وعندما يجري على يديه أمر فهو لا يحتاج إلى مناقشة ، إذن فما حكايكم ؟

يقول الحق :

﴿ أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا
قُلْتُمْ أَنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦٥)

لماذا تقولون : كيف يهزمتنا الكفار ؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم خالفتم الرسول الذي من ربكم به عليكم ، وآناكم ، وزكاكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، كان

مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذى هو بهذه المواصفات أن تطيعوه ، ولا تقولن أحدكم : لماذا تحدث هذه الهزيمة ؟ ولا تقولن أحد لماذا حكاية أحد وكيف يهزمنا الكفار ؟ إن هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله من عليكم وبعت فيكم رسولا ، ثم إن أحدًا ليست مصيبة بادرة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة ، ونلتهم منهم ضعف ما نالوا منكم .

فأنتم بدأنتم بدر وأعطاكم الله الخبر . أنتم قتلتم سبعين وأسرتهم سبعين ، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحدًا في «أحد» ، أنتم أخذتم غنائم في بدر ، وهم لم يأخذوا أى غنيمة في أحد ، ما العجيبة في هذه !! كان يجب أن تبحثوا في ذواتكم وفي نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لَكُمْ ؟! أليكون منكم ذلك السؤال وهو «أى هذا» ، لأن «أى» معناها استنكار أن هذا يحدث أى من ابن أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل في سبيل الله وفيما النبى والوحى وهم مشركون ونقول لكم : وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب ؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضى منكم أن تنفذوا ما قاله الرسول ، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى ، الذى كنتم عليه في بدر .

وساعة تسمع «أولما» فهناك همزة الاستفهام ثم «وارعطف» ، «أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا» ، «ولما» هنا هى الحينية ، فإذا يكون المعنى ، لقد آمتم بالله إلها وآتمتم بالرسول مخلصًا ، أحين تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها تقولون أنى هذا؟

كان المنطق الا تسألوا هذا السؤال أبدا لأنكم آمتمتم بآله عادل له سنن لا تتبدل ولا تتحول . أكان يترك السنن من أجلكم ؟!

﴿سُئِلَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ لِسْنةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

(سورة الاحزاب)

وفى موقع آخر من القرآن يقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ نَهَلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَحْدَ
لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَحْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

فلو أنكم استحضرت الإيمان بالإله الذي أطلق السنن في الكون ليسوس به أمر ملكه بما يحقق أمر المصلحة لما قلتم هذا وما دمتم قد آمنتم بأن الإله هو الذي صنع تلك السنن فكان الواجب عليكم أن تعلموا أن الإله لن يهاجمكم بإبطال سننه من أجل أنكم نُسبتم إليه أولا بأنكم مسلمون ، فإنكم إن خالفتم فسنتن الله واقعة ، وكان يجب أن تفهموا هذا الأمر ، وكان يجب ألا تسألوا هذا السؤال ، وقد آمنتم بالله إلهائه سنن ، وآمنتم بالرسول المبلغ عن الله . أحسن تصيكم مصيبة مع هذا الإيمان قد أصبتم مثلها ، تقولون : أى هذا ؟ أنتم حدث منكم أنكم أصبتم خصومكم ، وباليتم أصبتموهم بمثل ما أصابوكم به بل أنتم أصبتم مثلها ، كان يجب أن تقارنوا : لماذا أصبتم مثلها من قبل ، ولماذا أصبتم الآن ؟ كان يجب أن تعرضوا عملكم على الموازين الإيمانية ؛ فإن عرضتموه على الموازين الإيمانية لما سألتم هذا السؤال : وأن هذا ..

وساعة تسمع : أى هذا ، فلها معنيان : إما أنها تأن بمعنى (كيف يحدث هذا) ؟ وإما بمعنى (من أين يحدث هذا) ؟ فإن كانت لأعيان وتجب أن تعرف ، مثلها أحب سيدنا زكريا أن يعرف : من أين يأتي الرزق لسيدتنا مريم وهي في المحراب :

﴿ كَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكَرِيَّا الْيَمْرَأَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَسْرِمُ أَيْ لَكَ هَذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة آل عمران)

أى من أين ؟ وتانى مرة اخرى بمعنى « كيف » :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى ؟ إذن فمرة تكون بمعنى « من أين » ، ومرة تكون بمعنى « كيف » ، والذين دخلوا معركة أحد كانوا ينكرون ويستعجبون لعدم انتصارهم . . . فأوضح لهم الحق : لو كنتم منحصرين قضية الإيمان بالله عادل وضع في كونه سننا وهو لن يغير سنه ولن يحولها من أجلكم أنتم ، إن عليكم أن تعرفوا أن الله لا يتغير من أجل أحد ، ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله .

« أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا » : وهى « لَمَّا » بمعنى : حين ، واسمها : « لما الحينة » وهى « لَمَّا » تكون أيضا من أدوات وعوامل الجزم مثل : « لَمَّا » وهى « لَمَّا » أيضا تنفى مثل قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

أى أن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد ، إنما من الجائز أنه قد يدخل بعد ذلك ، هذه اسمها « لَمَّا » الجزامة ، وهناك « لَمَّا » الشرطية مثل قولنا : لما يقوم زيد يحدث كذا ، وهذه فيها شرط ، وفيها الزمن أى حين يقوم يحدث كذا ، مثل قوله الحق :

﴿ قَلَمَّا أَسْلَمَ وَلَلَّهُ لَلْجَبِينِ ۝ وَنَدَّيْنَاهُ أَنْ يَكْفُرْ يَهُودَ ۝ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّبُوبَا ﴾

(سورة الصافات)

أى حين أسلم وتله للجبين وتناديناه أن يكفر يهود . . . قد صدقت الرؤيا أى ناديناه ، والواو هنا مقحمة مثلها في قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وقتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » أى قال لهم . ومعنى مقحمة : جىء بها للتوكيد والتقوية . أو جاءت الواو هنا لتفيد أن نداء الله لسيدها إبراهيم جاء مصاحبا لإلقاء ابنه إسماعيل على وجهه ليذبحه .

فهـ لئـا هـه وهـ الـة الـى نـن بـصـدـهـا هـى « لما الحـنة » ، أـن تصـيـكم
أى : أوقـت تصـيـكم مصـية قد أصـبـم مثـليـها « قلـم أن هـذا » كان يـجب أن تـقـارنوا
لماذا أصـبـم فى بـدر مـن عـدوكم ضـعـف ما أصـاب مـنكم ، ولماذا أصـاب عـدوكم مـنكم
يوم أـحـد هـذا ؟ كان يـجب أن تـسـالوا أنـفـسـكم هـذا السـؤال ؛ لأن المـيزان مـنـصوب
وموضوع ؛ ومادمتـم تـفاـقـلـتم عـن هـذا نـسيـان لـكم الرـد . . قل يا مـحمد هـم رداً عـلى
هـذا : « هو مـن عـند أنـفـسـكم » . لـقد خـالـفـتم عـن أـمر الرـسول ، ومادمتـم خـالـفـتم عـن
أمر الرـسول فلا يـد أن يـحـدث هـذا بـمـقـتضى إـمـانـكم بـاله له سـنن لا تـتـحـول ولا تـتـبدل .
« أو لما أصـابـكم مصـية قد أصـبـم مثـليـها قلـم أن هـذا قل هو مـن عـند أنـفـسـكم » .

وبعد ذلك تـذـيل الـة بـقـوله سـبـحـانـه : « إن الله عـلى كل شـئ قـدير » .
فما مـوضـعـها هـنا ؟ مـوضـعـها أنه مادامت لله سـنن ، وسـنن الله لا تـتـبدل ، والله
موصوف بالقدرة الفريدة له . قلن ياق إله آخر ويقول : يـطـلـى هـذه السـنن . ومادام
لا يـوجـد إله آخر يـقول ذلك فهو سـبـحـانـه قـدير عـلى كل شـئ ، وهو قـدير عـلى أن تـظـل
سـنـته دائـمة ، ولا تـوجـد قـوة تـزـحـزح هـذه القـضية ؛ لأن السـنن وضـعـها الله . فمن
الذى يـغـيـرها ؟ إنـها لن تـغـيـر إلا بـقـوة أـعلى ومعـاذ الله أن تـكون هـناك قـوة أـعلى مـن قـوة
الله ؛ لذلك يـوضـح سـبـحـانـه : أنا قـدير عـلى كل شـئ وقـدير عـلى أن أصـون سـنـى فى
الكون ، فلا تـتـخـلف ولا تـوجـد قـوة أـخرى تـحـول هـذه السـنن أو تـبـدـلـها .

ولا تـظنوا أن ما أصـابكم جاء فقط لأن السـنن لا تـتـغـيـر ، لا ، فهـذا قد حـدث يـاذن
مـن الله ، فالله أوضـح للكون : مـن يـخـالـف أـمرى أـفـعل فـيه كذا . إذن فالكون لم
يـحـدث ، فـيه شـئ دون عـلم الله وإـذنه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ

وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

أى أنه سبحانه قد جمع المؤمنين وجميع الكافرين في أحد بإذن منه ويعلمه والنتيجة معروفة عنده ، وأنه سيحدث منكم كذا وكذا ، إذن فهذا أمر معلوم ، أو « بإذن الله » أى فى السنن التى لا تتخلف ، فالتسألة لم تأت بغير علم الله ، لا ، لقد جاءت بإذن الله ولا تتخلف - تطبيقاً - عن أحد من خلقه أبداً مهما كانت منزلته .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين » ساعة ترى أمراً أجراه الله ليعلم الذين نافقوا ، وليعلم المؤمنين . نعرف أن الله عالم بهم قبل أن تقع الأحداث ، ولكن علمه لا يكون حجة على الغير إلا إن حدث منه بالفعل ؛ لجواز أن يقول : يا رب أنت حاسبتنى بعلمك أن هذه سيحدث ، لكن ما كنت لأفعله . فيوضح الحق : لا . أنت قد علمته لأنك فعلته وصار واقعاً منك وتقوم به الحجة عليك .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت كمعلم تقول لواحد من الطلبة : أنت راسب ، فيقول لك : لا ، لا بد أن أمتحننى . تقول له : أنا أعرف أنك راسب ، فيقول لك : أنا لا آخذ بعلمك بل لا بد أن أمتحننى . تقول له : تعال أمتحنك . ونعطيه بعض الأسئلة فيرسل . وهنا يصير علمه بمرسوبه أمراً واقعاً ، وهو كان يعلمه بنسبى علم ، لكنه الآن لا يقدر أن يجادل لأنه صار واقعاً محسوساً .

ويقول الحق : « وليعلم المؤمنين » ومنهم الثابت الإيمان الذى لا يتزعزع ويعلم أنه إذا أصابه مضيق بما قدم لنفسه ، هذه المصيبة تزيد إيمانه بالله .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْادِعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ

يَا فَوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾

وقوله : « وليعلم الذين نافقوا ، أي يجعلهم يظهرون وينكشفون أمام الناس ، والاول لم تحدث هذه الأحداث فكيف كنت تعرف المنافق ؟ سيستر نفسه . لا بد إذن ان تأتي أحداث لتظهره وتفضحه ، فالمنافق براوغ ، لذلك يأتي الحق بأحداث ليظهر على حقيقته ، وقد كان .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا » . . وكانت المدينة مهاجمة ، وإذا انتصر الكفار فسيدخلون ويشبون ويأخذون المسلمين أسرى ويفعلون كل منكر !! فقال عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري للمنافقين : اخرجوا وقاتلوا معنا ، وإن لم تخرجوا لتقاتلوا معنا . . اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن نساءكم ، لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا ، إنه دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحمية والأنفة فيهم وذلك بعد أن ينس من أنهم لم يقاتلوا في سبيل الله ، ولما رأى أصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبدالله : اذهبوا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم .

إذن ففيه فرق بين القتال في سبيل الله وبين الدفاع عن النفس فقال : « قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا » . . أو ادفعوا عنا ولو بتكثير سوادتنا وإظهار كثرتنا حتى يظن المشركون أن معنا أناسا كثيرين . « قالوا لو نعلم قتالاً لاتبناكم » . . وعندما تابع هذا المنطق في القصة في ذاتها نجد أن « ابن أبي » كان من رأيه أن يظل رسول الله في المدينة لماذا ؟ لأنه قد ثبت بالتجربة أنه إذا جاء قوم ليغيروا على المدينة ودخلوها فأهل المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم ينهزمون .

إذن فالفضية واضحة في ذهن ابن أبي ، فهو لم يرض أن يخرج لأن التجارب أثبت له أنهم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العدو فعدوهم ينتصر عليهم ، وإذا ظلوا انتصروا ، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج ، ولكن مادامت المسألة قد صدرت من رأس النفاق عبدالله بن أبي فأنت لا تستطيع أن تحكم أين الحق ، فمن الجائز أن آثار

يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هذه الآثار كانت باقية في نفس ابن أبي ، ففى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسول إلى المدينة كان هو اليوم الذى كان سيتوج فيه المنافق ابن أبي ، ليكون ملكاً على المدينة ، فلما جاء الرسول بهذا الحدث الكبير تغير الوضع وصار التاج من غير رأس تلبسه ، فهذه قد حملها في نفسه .

« قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » لقد ادعى ابن أبي أن الخروج من المدينة هو كإلقاء إلى التهلكة وليس قتالاً ؛ لأن القتال تدخله وعندك مظنة أن تنتصر ، إنما هذا إلقاء إلى تهلكة وليس قتالاً ، لكن أقال : « لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » وهو صادق ؟

إن الحق يقضهم : « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان » ، فقبل ذلك كانوا في نفاق مستور ، ومادام النفاق مستوراً فاللسان يقول والقلب ينكر ويجهل ، فهم مذبذبون بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، هذه المسألة جعلت قريباً من الكفر الظاهر .

« يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » . . إذن فالقلب عمله النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول ، ولذلك قلنا : إن المنافق موزع النفس ، موزع الملكات ، يقول بلسانه كلاماً وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم غشاشون ، ونفوسهم موزعة .

« يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » والقول ضرورى بالفهم ؛ لأن القول يطلق ويراد به البيان عما في النفس ، فتزجج الإنسان لما في نفسه كتابة ، يعتبر قولاً - لغة - ولذلك فالذي يستحي من واحد أن يقول أنه كلاماً فهو يكتبه له في ورقة ، فإشارة يكتب يكون قد قال ، وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم وهذا تبجح في النفاق ، فلو كانوا يستحون لهمسوا به : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » إذن فاللسان لم يتفق مع القلب . فالقلب منعقد ومصر على الكفر - والعياذ بالله - واللسان يتبجح ويعلن الإيمان .

ونعرف أن «الصدق» هو أن يوافق القول الواقع، والواقع في القضية الإيمانية نية في القلب وحركة تثبت الإيمان، أما المنافقون فلسانهم لا يوافق قلبهم، فلما كان ما في القلب مستورا ثم ظهر إلى الجوارح انكشفوا. وهذا هو السبب في أنهم كانوا أقرب إلى الكفر، «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم» وهذا لون من نقص التصور الإيماني في القلب، كأنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر مثلهم. وبعد ذلك يقول الحق :

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

فعندما أراد ابن أبي أن يخذل الجيش، وافقه بعض المنافقين ولم يوافق بعض البعض. هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم، وقالوا : لو كانوا أطاعونا ومكثوا في المدينة لم يخرجوا لما انهزموا ولما قتلوا، وكان الحق يوضح لنا أسلوبيهم : لذلك سناخذهم من منطقتهم .. هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قتلوا في المعركة والذين هم من جماعتهم : «لو أطاعونا» كان قولاً صدر منهم : «أن أقعدوا» ولكن القوم الآخرين الذين هم أقل نفاقاً . لم يطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يرد الله على هذه ؟ انظروا إلى الرد الجميل : أنتم تقولون : «لو أطاعونا» ، فكان طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل . والذي يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت ؟ ولذلك يقول الحق سخرية بهم : «فادراؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين» وفي ذلك رد عليهم من كلامهم «لو أطاعونا ما قتلوا»

ومادامت تعرفون وسيلة للسلامة من القتل فاستعملوا هذه الوسيلة في أن تدفعوا عن أنفسكم الموت . وأنتم مع المتقدمين منكم والحاضرين تموتون ولا تستطيعون رد الموت عنكم ، إذن فأنتم لا تعرفون طريق السلامة من الموت ؛ فكم من محارب عاد من الحرب سليماً ، وكم من محارب من القتال قد مات وانتهى ، وَهَبَ أن بعضاً من المؤمنين للفاتلين قد قُتل ، إن الذي قُتل في المعركة ليس أهون على الله ممن سلم من المعركة ، هؤلاء أحب إلى الله وقد عجل الله لقاءهم وأنزلهم المنزل المقرب عنده .

ونعرف أن الحدث إنما يُحمد ويُذم بالنسبة للغاية منه ، فكل حدث يُقربك من الغاية يكون محموداً ، وكل حدث يُبعدك عن الغاية يكون غير محمود ، فإذا كانت الغاية أن تذهب إلى الاسكندرية مثلاً ؛ فقد تذهب إليها ماشياً فتحتاج إلى عدة أيام ، وقد تذهب إليها راكباً دابة فتحتاج إلى زمن أقل ، أو تذهب إليها راكباً عربة فيقل الزمن لساعات ، أو تذهب إليها راكباً طائرة فتصلها في نصف الساعة ، فكلما كانت الوسيلة قوية كان الزمن قليلاً ؛ لأننا نعلم أن القوة الفاعلة في النقلة تتناسب مع الزمن تناسباً عكسياً . وكلما زادت القوة قل الزمن ، ومادامت غايته أن أذهب إلى الاسكندرية . فالذي يُعجل لي الزمن ويقلله لأذهب إليها أفضل أم لا ؟ إنها الوسيلة الأفضل .

فمادامت الغاية أن تذهب إلى لقاء الله وأن تمشي في جواره ومعينه ، فحين يُعجل الله ببعضنا فيأخذهم من أقصر طريق فهذا أفضل بالنسبة لهم أم لا ؟ هذا أفضل ، وهكذا نرى أن الناس تنظر للموت نظرة حقاء ، إن موت المؤمن الحق الصادق الإيمان إنما يقربه إلى الغاية ، فما الذي يُجزئني !

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ
أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣٩﴾

أنتم تخافون الموت ، ولكن هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله ليسوا بميتين ، لأن حياتهم حياة موصولة ،
إن هناك فارقا كبيرا بين الموت والشهادة ، فالذى يقتل شهيدا تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أى بقانونه سبحانه ، فلا تحكم قانونك أنت ، فأنت - كما قلت - لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القتلى مجرد أشلاء ، هم عندك أشلاء وأموات في قانونك أنت ، لكنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

فالحياة تختلف عن الموت في ماذا ؟ إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، في ظاهر الأمر انتهى ولم يعد يتنفع برزق ولا بأكل ، لأن الرزق لجعل لاستبقاء الحياة ، ومادام الرزق قد ضُيع لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن فلا رزق ، لكن الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حي . ومن ضروريات الحياة أنه يرزق أى يتنعم باستبقاء الحياة ، وعليها أن نفهم أن العندية عندك غير العندية عند الله . فالشهيد حي عند ربه ويرزق عند ربه رزقا يناسب الحياة التى أرادها له ربه ، وتعلم أن الرزق هو الخاصية التى توجد للأحياء . وعندما نقرأ قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » قد يقول قائل : من الجائر أنك تأخذ إنسانا وتبقيه حيا وتعطيه طعاما وشرابا لكن أمور فرح بموقعه ؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست في قبره ولكنها عند ربه وهو فرح بموقعه لذلك يقول الحق :

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ
بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

والعدل يتحقق بين البشر بأن كلا منهم يموت . ولكن الفضل أن يجعل الله انقضاء الحياة في الدنيا لمن يحبه بالاستبهاد وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه « فرحين بما آتاهم الله من

فضله ، وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأخوة الإيمانية قد بغيت فيهم ولبست كخاصية الأحياء بل أنقى وأبقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضى أن يُحب المؤمن لأخيه ما يُحب لنفسه ، والشهداء في حياتهم عند ربهم كذلك ، مما يدل على أن الحياة التى يحياها الشهداء هي حياة نامية فيها رزق ومواجيد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضل من الله قد فضله به . ولذلك فالشهيد يستبشر بالذى لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول : يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » : « ويستبشرون » من البشرى ، والبشرى هي الخبر السار « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » ويلحقوا أى يأتوا بعدهم ، فالشهداء يقولون : إنهم سيأتون لنا وما داموا سيأتون لنا فنحن نحب أن يكونوا معنا في النعيم والخير الذى نحيا فيه . وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه ، لأنه يعلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحبه لنفسه » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى فتاديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن فضلهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهّدوا في الجهاد ولا ينكلوا من الحرب . فقال الله - عز وجل - : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزّل الله هذه الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وما بعدها » .

ونعرف أن « البشر » عادة هو الفرحة ، وهي تبدو على بشرة الإنسان ، فساعة يكون الإنسان فرحاً ، فالفرحة تظهر وتشرق في وجهه ولذلك نسميها « البشارة » ، لأنها تصنع في وجه المَبشّر شيئاً من الفرح مما يعطيه بريقاً ولمعاناً وجاذبية .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أي أن الذين خلفوا عن الشهادة لا خوف عليهم ، فهؤلاء الذين لم يستشهدوا بعد قد يخوضون معركة ما ، فيقول الحق على لسان الشهداء لكل منهم : لا تخف لأنك ستذهب لخير في الحياة « ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١)

إن الحق سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء الذين قاتلوا في سبيل الله ، وما هو ذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢)

انظر إلى المنزلة العالية كي تعلم أن الهزة التي حدثت في أحد أعادت ترتيب الذرات الإيمانية في نفوس المؤمنين . ولذلك أراد الله ألا يطول أمد الغم على من ندموا بسبب ما وقع منهم ، وألا يطول أمد الكفار الذين فرحوا بما ألحق بالمؤمنين من الضرر في المعركة الأخيرة ، هؤلاء المشركون فرحون ، وهؤلاء المسلمون في حزن ؛ لأننا قلنا : ماداموا مسلمين ومؤمنين فلهم حق ، وإن قصروا فعليهم عقوبة ، وسبحانه قد أنزل بهم العقوبة لكن بقي لإسلامهم حق على الله ؛ لأنه أجزى تلك الأقدار ليُهذب ويحص ويؤرب ، فلا يطيل أمد الغم على المؤمنين ولا يمد الفرحة للكافرين ، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم والحالة كما تعلمون هكذا ، ويؤذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب قريش قاتلا : « لا يخرجن معنا إلا من حضر معنا القتال » .

ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بعده لا يزيد على عدد المقاتلين الذين كانوا يواجهونهم حتى لا يقال إنهم جاءوا بمدة إضافية ، بل بالعكس ، قال الذين خرجوا لمطاردة الكفار هم الذين بقوا مع الرسول في أحد ، ونقص منهم من قُتل ونقص منهم أيضا كل من أثقلته جراحه . لقد كانوا أقل من كانوا في المعركة ، وكان الله يريد أن يبين لنا أن النصح قد أدى مطلوبه .

هم في هذه الحالة استجابوا للرسول ، كان المسألة جاءت رد اعتبار لمن شهدوا المعركة ؛ حتى لا يضعفوا أمام نفوسهم ؛ وحتى لا يجعلوها زلة تطاردهم وتلاخفهم في تاريخهم الطويل ، بل يعلمون أن معركة أحد قد انتهت وعرفوا آثارها .

وبمجرد أن أذن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنداء السابق استجابوا جميعا ، ولم يُسمع إلا لجابر بن عبد الله أن يكون إضافة لهم ؛ لأنه أبدى العذر في أنه لم يكن مع القوم ؛ لأن له أخوات سبعا من البنات وأمره أبوه أن يمكث مع أخواته لرعايتهن ، فسمح له رسول الله .

- وكما قلنا - فإن الله أراد بكل أحداث أحد أن يُعيد ترتيب الذرات الإيمانية ، ومادامت الذرات الإيمانية قد انتظمت فقد تم إصلاح جهاز الاستقبال عن الله ، وفي لحظة واحدة يستجيبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أنهم يلاحقون الكفار ، وذهبوا إلى هراء الأسد وكان ما كان . وبعد ذلك أرسل الله لهم من جنوده من يُخَذِّل هؤلاء القوم الكافرين ، ويقول لهم : إن محمدا قد خرج إليكم بجيش كبير .

ونلاحظ أن الحق سبحانه يحىء هنا بقوله : « الذين استجابوا » وهي تقابل « من خالفوا » أمر رسول الله وهم الرماة ، « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » .

لقد استجابوا وهم مُرهقون ومُتألمون ومُتخون بالجراح ، فكل واحد منهم قد ناله

نصيب من إرهاب القتال ، ومع ذلك استجابوا لله وللرسول ، وكل منهم أصابه القرح أو القرح . . . يعنى الألم أو الجرح ، « من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، وهم قد أحسنوا في الاستجابة ؛ لذلك فلهم الأجر العظيم ، « أجر عظيم » لأن ما حدث منهم من أمر المخالفة قد أخذوا عليه العنوية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

المسألة ليست ذلك فقط ، المسألة أن المنافقين زاحوا يروجون إشاعات كاذبة بأن المشركين قد استدعوا عددا جديدا من كفار مكة وذلك ليخيفوا المؤمنين ، فلم يخف مؤمن واحد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » وساعة ترى كلمة « الناس » فاعرف أن الإيمان بعيد عنها ، وما داموا « أناسا » فهم يقابلون أناسا آخرين ، ومن يغلب فهو يغلب بجهد وشطارته وحسن تصرفه ، لكن المؤمن يقابل الكافر ، والمؤمن يتلقى المدد من ربه .

قيل : إن الشيطان قد يتمثل على هيئة حشد من الناس ليرهب المؤمنين ، والشيطان من عالم الجن ، وعالم الجن يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، وقد أعطاه الله القدرة على أن يتشكل بما يحب . فله أن يتشكل في إنسان ، في حيوان ، أو كما يريد ، ولكن إذا تشكل فالضرورة تحكمه لأنه ارتضى أن يخرج عن واقعه ليتشكل هيئة أخرى ، فإذا ما تشكل على هيئة إنسان ، فقانون الإنسان يسرى عليه ، بحيث

إن كان معك مسدس أو سيف أو خنجر وتمكنت منه وطعته يموت . وهذا هو ما رحنا من تخويفهم لنا .

ولذلك نجد أن الشيطان يظهر لمحة خاطفة ثم يختفي ، لأنه يخاف أن يكون الإنسان الذي أمامه واعياً بأن الصورة المحكمه ، فعندما يتمثل لك بأى شكل تخنقه فيخلق ، لذلك يخاف من الإنسان ، فلا يظهر إلا فى لمحات خاطفة .

ويمكن أن نفهم أيضا قول الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، أن هناك بعضاً من الكفار أشاعوا أن أباسفياك وصحبه قد حشدوا حشودهم ، فكلمة « جمعوا » تعطى إجماعاً بأنهم جاءوا بمقاتلين آخرين ، أو أن قلوبهم قد تجمعت ، وسواء هذا أو ذاك فهم عندما فروا فلولوا ، لأن القوم المهزمين لا يسرون سراً منتظماً يجمعهم ، بل يسير كل واحد منهم حسب سرعته ، ويصح أن يتجمعوا ثانية ، أو جاءوا بناس آخرين ، ولنا أن نلاحظ أن الأسلوب يحتمل كل ذلك .

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاحشروهم » ومثل هذا القول قد يفت فى عصب المؤمنين ، لكن التمهيد الإيماني قد صقل معسكر الإيمان فلم يهتموا بهذا الكلام ، وهكذا أثمر الدرس الأول ، لقد تعلموا أن المخالفة عن أمر الله الممثل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد المخالفة تجعل الضعف يسرى فى النفس ، لكن الثبوت والتمسك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزز الإحساس بالقوة ، لذلك لم يابهوا لهذا التهديد بل قالوا : « إن العدد هذا ليس فى إلاننا ، لأننا نعتمد على الله وحسن الإيمان ، إنهم قالوا : « حسينا الله ونعم الوكيل » فلم يهتموا بالعدد وفهموا أن الإيمان يقتضى أن يقاتلوا الكافرين حتى يعلمهم الله بأيديهم ، وفى هذا درس لكل محارب ، فعندما تحارب ، فأنت إما أن تكون منصوراً بإيمانك بالله وإما أن تكون على عكس ذلك :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

لقد فطنوا إلى أنفسهم ، وتغير الترتيب الإيماني في أعماقهم ، ونلمس ذلك في أن بعضاً من الناس جاءوا يصدونهم ويخذلونهم ، فلم يستطيعوا بل زادهم هذا القول إيماناً « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هي التي تنصرهم والله حسبهم وكافهم عن أي عدد من الأعداد وهو نعم الوكيل ، ومعنى « الوكيل » أنني عندما أعجز عن أمر أو كلُّ أحدٍ فهو وكيل عني ، وعندما نوكل الله فيها عجزنا عنه فهو نعم الوكيل ، لماذا ؟ وتأتينا الإجابة : « فأنقلبوا بنعمة من الله » ، ولقد نصرنا بالرعب الذي أنزله الله في قلوب أعدائهم ولم يشككوا مع الكفار ، فصدق قول الله :

﴿ سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الانفال)

ويأتى الحق من بعد ذلك بما يصدق القضية :

﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِمُ الْمُسْلِمِينَ وَاللَّهُ وَفَّىٰ ذُو فَضْلٍ
سُوءٌ وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾

وهذه القضية يجب أن يشعروها كل مؤمن يتعرض لتمحيص الحق له ، وعلى كل مسلم أن يتذكر تلك تجربة ، تجربة أحد ، فليلة واحدة كانت هي الفارق بين يوم معركة أحد ويوم الخروج للملاحقة الكفار في هراء الأسد ، ليلة واحدة كانت في حضانة الله وفي ذكر لتجربة التمحيص التي مر بها المؤمنون إنها قد فعلت العجيب ؛ لأنهم حينها طاردوا الكفار ، لم يأبهوا لمحاولات الحرب النفسية التي شنها عليهم الأعداء ، بل زادهم ذلك إيماناً وقالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن حولهم ومن قوتهم ومن عددهم ومن أي شيء إلا أن يقولوا : الله كافيتنا وهو نعم الوكيل لمن عجز عن إدراك بغيته . لقد عرفوا الأمر المهم ، وهو أن يكون كل منهم دائماً في حضانه ربه ، وقد أخذ صحابة رسول الله وآل بيت رسول الله هذه الجرعة الإيمانية واستنبطوا منها الكثير في حل قضاياهم .

وقول الله سبحانه : « حسبنا الله ونعم الوكيل » يذكّرنا بالإمام جعفر الصادق ابن سيدي محمد الباقر بن سيدي علي زين العابدين وكان من أفقه الناس بالقرآن ، وكان من أعلمهم في استنباط أسرار الله في القرآن ، إنه كان يجد في قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » استنباطاً رائعاً ، فهو يتعجب لأي إنسان أدركه الخوف من أي شيء يخيف ، والإنسان لا يخاف إلا أمراً يتقضى عليه رتبة راحته ، ويقلقه ويهدده في سلامته وأمنه وأطمئناته ، ويكون لهذا الخوف مصدر معلوم ، فإذا ما تعرض المؤمن لمثل هذا الخوف فعليه أن يتذكر قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » لأنها قضية نفعت الجيش كله في معركته مع الكفار ، فحين يأخذ الفرد هذه الجرعة فهو يستعيد رباطة الجأش . واشتداد القلب فلا يفر عند الفزع .

وبينها سيدنا جعفر الصادق إلى هذه القضية للفزع إليها عند كل ما يخيفنا فيقول : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله : « حسبنا الله ونعم الوكيل » إنه ينظره الإيمانية بتعجب لإنسان أدركه الخوف ثم لا يفزع إلى هذا القول الكريم « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ثم يستبط بإشراقه سر هذا فيقول : لأن سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء » وانظروا إلى قول سيدنا جعفر الصادق : « فإن سمعت الله بعقبها » هو قرأ بنفسية المؤمن الصادق ، فالمؤمن حين يقرأ كلام الله إنما يستحضر أنه يسمع الله يتكلم إنه يقول : فإن سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء » ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢١)

(سورة الاعراف)

فانت حين تستمع إلى القرآن فالله هو الذي يتكلم ، ومن العيب أن يتكلم ربك

في اذنك ثم تشغل عنه وهو ربك ، إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك : « حسينا الله ونعم الوكيل » وأن تقولها بحقها ، فإن قلتها بحقها كفاك الله شر ذلك الخوف ، لأن الله يقول بعد « وقالوا حسينا الله ونعم الوكيل » : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » انظر إلى النعمة والفضل ، إنها من الله ، وقد تصيبك النعمة والفضل ولكن تقدر ذلك في آخريات الأمور ، فأوضح الله أن النعمة زادت في أنها غنيمة باردة ، ولم يحدث فيها أن مسنا سوء ، إن ذلك هو قمة العطاء ورأسه وسنامه ، فإذا قدرته في آخريات الأمور فقد أخطأت التقدير « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ونتيجة لتلك التجربة النافعة هي أن « اتبعوا رضوان الله » ، وقد نجحت التجربة مع المؤمنين .

ويقول الإمام جعفر الصادق ليكمل العلاج لجوانب النفس البشرية ، ويصف الدواء . فالنفس البشرية يفرعها ويقلقها ويجعلها مضطربة أن تخاف شراً يقع عليها ، وعلاج هذا : « حسينا الله ونعم الوكيل » ، ويضيف : وعجبت لمن اغتم ولم يفرع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

وه الغم ، قلق في النفس ، ولكنك لا تدرك أسبابه ، فأسبابه مُعَقَّدة ، صدر بضيق ، ولذلك تقول : أنا صدري ضيق ، أنا متعب ولا أدري لماذا ؟ أي لم يمر بك الآن أشياء تستوجب هذا ، إنما قد تكون حصيلة تفاعلات لأحداث وأمور أنت لا تتذكرها الآن ، هذا اسمه « غم » ، فإذا ما فرغ العبد إلى قول الحق سبحانه : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » فالعبد يفر بذنبه ويقول : هذا الغم لم يأتني إلا لأنني خرجت عن المنهج ، ويذكرنا سيدنا جعفر الصادق بأنه سمع بعدها قول الله :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الأنبياء)

والذي قال ذلك هو سيدنا يونس « فاستجبنا له ونجيناه من الغم » .

وهذه الاستجابة من الله ليست خاصة كانت ليونس عليه السلام ، لأنه سبحانه قال : « وكذلك ننجي المؤمنين » أى أنه باب واسع أدخل الله فيه كل المؤمنين ، ويضيف سيدنا جعفر الصادق : وعجبت لمن مكر به ولم يفرغ إلى قول الله :

﴿ وَأَفْرِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرُ الْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة غافر)

فلما سمعت الله بعقبها يقول : « فوفاه الله حيث ما مكروا » .

ومكر به معناها يت له الشر بحيث يخفى ، لأن المكر هو : تبييت من خصمك لشر يصيبك ، بينما أنت تقف بجانب الحق ، فيكون هذا المكر شراً يبيت خيراً وحق ، وهذا هو المكر السيئ ، ويقابله مكر حسن ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن فهناك مكر ليس بسيئاً ، كان يبيت صاحب الحق لصاحب البشر . تبييتنا يخفى عليه ، هذا اسمه مكر خير ، لأنه محاربة لشر ، ولذلك يوضح لنا الله هذا الأمر : افطنوا إلى هذه ، فإن كانوا يمحرون ويبيتون ، فهم إن يبتوا على الخلق جميعاً لا يبيتون على الله لأنه سبحانه العليم ، الخالق ، الموقن ، وإن يبيت الله لهم فلن يستطيعوا كشف هذا التبييت ، إذن فالله خير الماكرين ، لأن تبييتهم مكشوف أمام الخالق ، لذلك فهو مكر ضعيف ، أما المكر الحقيقي فهو الذي لا توجد وسيلة تعرفه بها .

ونواصل مع سيدنا جعفر الصادق قوله في علاج النفس البشرية فيقول : وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفرغ إلى قول الله :

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فلما سمعت الله بعقبها بقوله :

﴿إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُزَيِّنَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

واستنبط سيدنا جعفر الصادق ذلك من حكاية صاحب الجنة :

﴿وَلَوْلَا إِذَا دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُزَيِّنَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾

(سورة الكهف)

إنك حين تقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» فإن الدنيا تأتيك مهرولة ، لأنك جرّدت نفسك من حولك ، ومن قوة حيلتك وأسبابك ، وتركت الأمر لله سبحانه وتعالى القادر على كل عطاء .

إذن فالجوانب البشرية في النفس : هي خوف له علاج ووُصفه ، وهم له علاج ووُصفه ، ومكر بك له علاج ووُصفه ، وطلب دنيا وسعادة لها علاج ووُصفه ، والوصفة التي نحن بصددتها هنا : « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

والنعمة أن يعطيك الله على قدر عملك ، والفضل من الله هو أن يزيدك عطاء ، ولم يمسس السوء أحداً من المؤمنين الذين طاردوا المقاتلين من قريش ، وكان من نتيجة ذلك أنهم جمعوا بين كل ما وهبه الله لهم ؛ من نعمة وفضل مع اتباعهم رضوان الله ؛ فقد صارت المسألة بالنسبة لهم تجربة مُحَسَّنة وتجربة « واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

لقد حاول المنافقون أن يشبطوا المؤمنين عن لقاء كفّار قريش ، ف يريد الحق أن يكشفهم ، ويظهر الدافع إلى مثل ذلك الموقف من المنافقين ؛ لذلك قالوا للمؤمنين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »

ويظهر الله للمؤمنين حقيقة موقف المنافقين :

فموسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً .

وعلى ذلك نقرأ قول الحق : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه » ونفهم منها : أن ذلكم الشيطان يخوفكم أنتم من أوليائه ، لأن حرف الجر في الآية الكريمة محذوف ، ويعاضد هذا ويقويه قراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه ، وبينه الحق المؤمنين ألا يخافوا من أولياء الشيطان فيقول : « فلا تخافوهم » .

وهذا يوضح لنا أن الشيطان إنما أراد أن يخوف المؤمنين من أوليائه وهم المنافقون والكافرون . وبعض المفسرين قال : « يخوف أولياءه » المفصود بهم أن الشيطان يخوف أولياءه حتى يتجنبوا من القتال ، فتزغ فيهم أنهم إن خرجوا للقتال فقد يموتون . ولكن إن جاز ذلك القول على المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول للاقاة المشركين فكيف يجوز ذلك على الصنف الثاني من أوليائه وهم الكفار ؟ إن الكفار قد خرجوا فعلاً لقتال المؤمنين . ونفهم من قول الحق : « فلا تخافوهم وخافون » أن أولياء الشيطان ليسوا هم الخائفين ولكنهم هم المخوفون : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين أن يصنعوا معاملة ومعاملة ، أبحافون أولياء الشيطان ، أم يبحافون الله ؟ ولا بد أن يصلوا إلى الخوف من الله القادر على دحر أولياء الشيطان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٦)

لقد كان المنافقون في أول المعركة مُحْتَفِيزِينَ وَمُسْتَوْدِعِينَ ، ثم ظهرت منهم بادرة الانخدال في أحد فكانوا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، ولكنهم من بعد ذلك سارعوا إلى الكفر ، كان هناك من يلاحقهم بسوط لينسابقوا إلى الكفر .

وها هو ذا الحق سبحانه قد حدد عناصر المعركة ، أو قوى المعركة ، أو ميدان المعركة أو جنود المعركة ، فنبه رسوله : « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » ولم يقل : « لن يضروكم شيئا » لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابة المؤمنين ليسوا طرفاً في المسألة ، فعداء الذين يسارعون في الكفر هو عداء الله ، لذلك يقول الحق : « إنهم لن يضروا الله شيئا » . كأن المعركة ليست مع المؤمنين . ولكنها معركة الكافرين مع الله ، وما دامت المعركة مع الله فالمؤمنون جنود الله ؛ وهم الصورة التي أرادها الله لهزيمة الكافرين :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ ١١ ﴾

(سورة التوبة)

فلو كانت معركة الكفر مع المؤمنين بالله فقط لقال الله : « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » إنهم لن يضروكم شيئا ، لكن المسألة ليست هكذا ، لقد أراد معسكر الكفر والنفاق أن يدخل معركة مع الله ، ولا توجد قوة قادرة على ذلك ، وهذا يطمئن الله المؤمنين أكثر ، ليزدادوا ثباتاً على الإيمان ؛ لأن الكل من البشر مؤمنين وكفاراً أغيار ، وقد يتحول بعض من البشر المؤمنين الأغيار عن المنهج قليلاً ، فعندما تكون المعركة بين بشر وبشر فقد يغلب أحد الطرفين بقوته .

ومن أجل المزيد من الاطمئنان الكامل نقل الله المعركة مع الكفر إلى مسألة أخرى ، إنه بجلاله وكماله وجبروته هو الذي يقف ضد معسكر الكفار . والمهم فقط أن يظل المؤمنون في حضرة الله . والرسول كان يحزنه أن يسارع البعض إلى الكفر . فهل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم أنه إنما جاء مُبْلِغاً فقط ؟ . إنه يعلم ولكنه كان يحرص - صلى الله عليه وسلم - على أن يؤمن الناس جميعاً ليدوقوا حلاوة ما جاء به . هذا الحرص هو الذي يدفع الحزن إلى قلب الرسول ، وعندما يرى

واحداً لا يتذوق حلاوة المنهج ، فالرسول يأمل أن يذوق الناس كلهم حلاوة الإيمان ، لأنه صلى الله عليه وسلم رموف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعاً « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ودليل ذلك أن جاءه التخيير .

فقد نادى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما رقبوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فتاداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » (١)

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبقى على هؤلاء فقط ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة . وقد كان . وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما أخبر الله في آيات القرآن - يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بِخَيْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ ۖ إِنَّ لَّهُ يُؤْمِنُونَ ۚ هَٰذَا الْحَدِيثُ أَسَفًا ۝ ١٠ ﴾

(سورة الكهف)

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بِخَيْعِ نَفْسِكَ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ ١١ ۖ إِنَّ لَنَا نُقُولَ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ

آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ ١٢ ﴾

(سورة الشعراء)

والحق سبحانه وتعالى لا يريد اعتناقاً ، لكنه يريد قلوباً تاتي بهامس الاختيار والمحبة ، فباستطاعته وهو الخالق الأكرم أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمحصية ، كما خلق الملائكة ، إن كل الأجناس تُسبح بحمده ، إذن فالقرآن يبين جرحه صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن الناس جميعاً وأن يذوقوا حلاوة اللقاء برهيم ،

وَاتَّبَاعِ مَنْهَجِ اللَّهِ ، وَخِلَافَةِ التَّشْرِيعِ الَّذِي يُسَعِّدُهُمْ وَيُسَعِّدُ كُلَّ مَلَائِكَتِهِمْ . فَإِذَا
مَا جَاءَتْكَ الْمَسَائِلُ عَلَى غَيْرِ مَا يَحِبُّ رَسُولُ اللَّهِ . فَهَا هُوَ ذَا قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ :
« وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » .

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبَلِّغَ البشر : أيها الناس إن من قُرْطِ حُبِّ الرُّسُولِ
لكم أنه يُحْزَنُ من أَجْلِ عَصِيَانَتِكُمْ وَأَنَا الَّذِي أَقُولُ لَهُ : لَا تَحْزَنْ . وَالرَّبُّونِي صَلَّيَ اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا بِالْأُمَّةِ كَأَمَّا ، كَمَا يَقُولُ الْقُرْآنُ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧٩)

(سورة الأنبياء)

ويكفيه موقفه صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها
تُجِردُهَا ، فتأتي الأسم إلى رسول الله صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُكْرِمُهُ اللَّهُ بِقَبُولِ شَفَاعَتِهِ
حَتَّى يُعْجَلَ اللَّهُ بِالْفَصْلِ وَالْحِسَابِ ، وهذه رحمة للعالمين ، لأنهم من هول الموقف
يَتَعَبَّوْنَ الانْتِصِرَافَ وَلَوْ إِلَى النَّارِ .

ونحن قلنا سابقاً : إن الحق سبحانه وتعالى علم انشغال سيدنا رسول الله صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَمْنِهِ وَبِرَحْمَتِهِ بِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ اللَّهُ - لِيَرْبِّحَ عَوَاطِفَهُ وَمَوَاجِدَهُ - مَا وَرَدَ هُنَا
فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ :

نَعْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الشَّيْءَ صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا
قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ : « رَبِّ إِنِّي أَضِلُّنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ نَبِّعْنِي فَإِنَّهُ
مِنِّي » .

وقول عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - « إِنِّي تَعْلِيهِمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ أَمْنِي أَمْنِي وَيَكُنْ ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا جَبْرِيلُ أَذْهَبْ
إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُيَكِّبُكَ ؟ فَأَنَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَأَلَ ،
فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ اللَّهُ : يَا جَبْرِيلُ ،

اذهب إلى محمد فقل : (إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوذك)^(١)

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - له موقف آخر يدل على كمال رحمته بأمته ، فقد أنزل الله فيها أنزل من القرآن التكريم - بعد فترة الوحي - قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

انظروا إلى ما ورد عن سيدنا علي في هذه الآية، فقد روي أنه - رضى الله عنه - قال لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية في كتاب الله تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) . قالوا : إنا نقول ذلك قال : ولكننا - أهل البيت - نقول : إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) . وفي الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (إذا لا أرضي وواحد من أمي في النار)^(٢) .

كما روي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (لكل نبي دعوة مستجابة فصالح كل نبي دعوته وإلى اختباث دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة)^(٣) .

وهكذا نرى شغل رسول الله بأمته كأمر واضح موجود في بؤرة شعوره .

إذن فقول الله : « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » هو توضيح من الله لرسوله بأنهم لم يسارعوا في الكفر نقصيراً منك ، فأنت قد أديت واجبك ، وبضيف سبحانه : « إنهم لن يضرروا الله شيئاً » ولم يقل سبحانه : إنهم لن يضرروك ، أولن يضرروا المؤمنين ، لا بل لقد جعل سبحانه وتعالى المعركة معه وهو القوى ذو الجبروت إنه هنا يطمئن المؤمنين .

ويريد الله ألا يجعل للذين يسارعون إلى الكفر حظاً في الآخرة فيقول : « يريد الله

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان .

(٢) من تفسير الإمام القرطبي .

(٣) أخرجه البخاري .

ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم ، ومادامت هذه إرادات الله في ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ، أليكون لهم عمل يضاد مرادات ربهم ؟ لا .

إنه سبحانه يريد بما شرع من منهج أن تأتيهم سنته ، والله يعذب من يخالف سنته التي شرعها . لأنه جلت قدرته يطلب من المكلفين أن يطبقوا سنته التي شرعها لهم .

وفرق بين وجود « لام العاقبة » التي تأتي حين يكون في مُراد العبد شيء ، ولكن القدرة الأعلى تريد شيئاً آخر ، وهي تختلف عن « لام الإرادة » والتعليل فد « لام الإرادة » والتعليل « تنضح في قولنا : ذاكر التلميذ لينجح ، لأن علّة المذاكرة هي الرغبة في النجاح ، أما « لام العاقبة » ، فتتضح عندما يقول الأب لابنه : أنا ذلك لترسب آخر العام .

أدلل الأب ابنه حتى يرسب ؟ لا ، ولكن الأب يأتي هنا بـ « لام العاقبة » أي كان للأب مراد ، ولكن قدرة أعلى جاءت على خلاف المراد .

ونوضح المسألة أكثر ، فالحق يقول في قصة سيدنا موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ غَالِقَةٌ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ ۚ إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٦٠﴾

(سورة القصص)

ونحن لا يد أن ننتبه إلى قول الحق : « فآلقه في اليم » والإنسان العادي لو قال لامرأة تحمل رضيعها : إن خفت على ابنك فآلقه في البحر . هذه المرأة لن تصدّق هذا القائل ، لكن أم موسى تلقت هذا الوحي من الله ، وأتلفى من الله لا بضادمه فكر شيطان ولا فكر بشر ، فالإلهام من الله يتجلّى في قوله : « وأوحينا إلى أم موسى . »

ومادام الله هو الذي ألهمها ، فإن خاطر الشيطان لا يجي . ولذلك قامت أم موسى بتنفيذ أمر الله . وطمئنها الله فقال لها : « ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك »

وجاعلوه من المرسلين .

ويُنبّه سبحانه أم موسى أنه لن يرده إليها لمجرد أنه قرّة عين ، ولكن لأن لموسى ايضاً مهمّة مع الله . وفي لفظة أخرى يقول الحق عن مسألة الوحي لام موسى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا يُوْحَىٰ ۖ ۝١٨٨ إِنِ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّكَ وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَالْقَهْمُ عَلَيْكَ مَحْبَىٰ مَنِي ۖ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝١٨٩ ﴾

(سورة طه)

واحق هنا في هذه اللقطة بصف وقت تنفيذ العملية التي أوحى بها ، ففيه فرق بين التمهيد للعملية قبل أن تقع كما حدث في اللقطة السابقة حيث قال لها الحق : « فإذا خفت عليه فالقيه في اليم » . كان ذلك هو الإعداد ، ثم جاء وقت التنفيذ ، فقال الحق لموسى : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى » . إنها سلسلة من الأوامر المتلاحقة التي تدل على أن هذه العملية كانت في وقت أخذ جنود فرعون لأطفال بني إسرائيل ليقتلوهم ، إنه سبحانه يبين لنا أن جنود الله من الجهادات التي لا تعى تلقت الأمر الإلهي بأن تصون موسى ، فكلمة « اقدفيه » تدل على السرعة ، وتلقى « اليم » الأمر من الله بأن موسى عندما يلقي في البحر ، فلا بد أن يلقيه إلى الساحل . « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقدفيه في التابوت فاقديه في اليم فليلقه اليم بالساحل » إنها أوامر للمُسخر من المخلوقات التي لا تعصى .

لكن كيف تكون أوامر الحق لعدو لله ؟ إن الله يدخلها كخاطر مُلح في رأس فرعون ليُنَفَّذَ مُرَاد الله . إن امرأة فرعون تقول له ما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَئِكَ لَا تَفْقَهُوا عَمِّي أَن يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا آلَ فِرْعَوْنَ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٩٠ ﴾

(سورة القصص)

لقد دخل أمر الله كخاطر ، والنقطة آل فرعون لا ليكون قرّة عين لامرأة فرعون ، ولكن لأمر مختلف أراده الله . فهل ساعة الالتقاط كان في باهم أن يكون موسى عدواً

أو قرّة عين ؟ إنها « لام العاقبة » التي تنضح في قوله : « ليكون لهم عدواً وحزناً » .
فالإنسان يكون في مُرادٍ شيء ، ولكن القدرة الأعلى من الإنسان - وهو الله - تريد شيئاً آخر .

الإنسان في تحصيله أن يقوم بالعملية لكذا ، ولكن القوة الأعلى من الإنسان تريد العملية لهدف آخر ، وهي التي أوحى للإنسان أن يقوم بهذه العملية . ويتجلى ذلك بوضوح في العملة لالتقاط آل فرعون لموسى . كان فرعون يريد قرّة عين له ، ولكن الله أراد أن يكون عدواً لفرعون . وفي هذا المثال توضيح شامل للفرق بين « لام العاقبة » و « لام الإرادة » والتعليل . وعندما نرى أحداثاً مثل هذه الأحداث فلا نقول : « هذا مراد الله » ولكن فنقول : (العاقبة فيها فعلوا وأحدثوا خلاف ما خططوا) .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَ يَضُرُّوْا
اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

لأنهم لن يضرّوا الرسول وصحابته لأنهم في معيّة الله ، وهم لن يضرّوا الله ، وفي ذلك طمأنة للمؤمنين ، كان الحق سبحانه وتعالى يقول : أيها المؤمنون بن المصدقون بمحمد إن المعركة مع الكفر ليست معركة المؤمنين مع الكافرين ، ولكنها معركة ربكم مع هؤلاء الكافرين . وفي هذا اطمئنان كبير .

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان » ، و « الأشتراء » صفقة ، والصفقة تقتضى « ثمناً » و « ثمناً » . و « الثمن » هنا هو الإيمان ، لأن الباء تدخل على المتروك ، و « الثمن » هو الكفر لأنه هو المأخوذ . فهل أخذوا الكفر ودفعوا الإيمان ثمناً له ؟

وهل معنى ذلك ان الإيمان كان موجوداً لديهم ؟

نعم كان عندهم الإيمان ؛ لأن الإيمان القديم هو إيمان الفطرة وإيمان العهد القديم الذي أخذه الله على الذر قبل أن توجد في الذر الأغيار والأمواء :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

(سورة الاعراف)

أو على الأقل كان الإيمان والكفر في متناولهم ؛ بانضباط قانون الاختيار في النفس البشرية ، لكنهم أخذوا الكفر بدل الإيمان . والبديلة واضحة ، فقد استبدلوا الكفر بالإيمان ، فالباء - كما قلت - دخلت على المتروك . لقد تركوا الإيمان القديم وهو إيمان الذر ، أو تركوا إيمان الفطرة فالحديث الشريف يقول :

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (١) .

لقد انسلوا من الإيمان ، ودفعوه ثمناً للكفر ، فعندما يأخذ واحد الخمر ، فهو قد أخذ الكفر بدلاً من الإيمان . وهم « لن يضروا الله شيئاً وهم عذاب اليم » لماذا ؟ لأننا إن افترضنا أن الدنيا كلها قد آمنت فهذا لن يفيد الله في شيء . والحديث القدسي يقول :

قال الله تعالى : (يا عبادي إن حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدون أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعته فاستطعمون أطعكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسون أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرون أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفي فتفنعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على

أنقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم
وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من
ملكى شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد
فسألون فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا
أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد
خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (١) .

إذن ، فلا الإيمان من البشر يزيد الله شيئاً ، ولا الكفر ينقص من الله شيئاً ، لأن
الإنسان قد طرأ على ملك الله . ولم يأت الإنسان في ملك الله بشيء زائد ، فالإنسان
صنعه الله وخلقه من عناصر ملكه - جلّت قدرته - ويستمر الحديث في توضيح أن
الحق سبحانه لا يعالج شيئاً بيديه فيأخذ منه زمناً . لا ، إنه سبحانه جلّت مشيئته
يقول للشيء : كن ، فيكون .

وكلمة « كن » نفسها هي أقصر أمر . إن أمره النطق وأدق من أن يدركه على
حقيقته مخلوق . لكن الحق يأق لنا بالصورة الخفيفة التي تجعل بشريتنا تفهم الأمر .
فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله شيئاً ولهم عذاب أليم . فهم لن يعيشوا
بِنَجْوَةٍ ويُبعد عن العذاب ، بل سيكون لهم العذاب الأليم .

ونحن نجد أن الحق يقول مرة في وصف مشرى الكافرين إنه عذاب أليم ، ومرة
أخرى لهم عذاب عظيم ومرة عذاب مهين ، لماذا ؟

لأن العذاب له جهات متعددة ، فقد يوجد عذاب مؤلم ، ولكن المُنذَب يتجلد
أمام من يُعذِّبه ويُظهر أنه مازال يملك بقية من جلد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم ،
ولذلك قال الشاعر :

وَنَجْدِي لثَامَتَيْنِ أُرِيهِمُ
أَنْ لَرَيْبِ الدَّهْرِ لَا اتَضَمُّعُ

فالتجلد هو نوع من الكبرياء على الواقع . ولذلك يأتي من بعد ذلك قوله الحق إن
لأمثال هؤلاء عذاباً مهيباً ، أي إنهم سيذوقون الدل والالم ، ولا أحد فيهم يستطيع
التجلد . وهذا النوع من العذاب لا يقف فقط عند حدود الألم العادي ، ولكنه
عذاب عظيم في كميته وقدره ، وأليم في وقعه ، ومهين في إذلاله وذلك بالنفس البشرية
وغرورها . لذلك فعندما نجد أن العذاب الذي أعده الله للكافرين موصوف بأنه
« عذاب أليم » و « مرة » عذاب عظيم « مرة » عذاب مهين « فلنعرف أن لكل واحدة
معنى ، فليست المسألة عبارات تقال هكذا بدون معنى مقصود .

وأريد أن أقف هنا في هذا الحديث عند « لأم العاقبة » لأن البعض يحاول أن يخلق
منها إشكالات إن هؤلاء المتريعين لكلام الله يحاولون النيل منه ، وهم لا يبحثون إلا
فيما يتوهمون - جهلاً - أنه نقاط ضعف ، وهو سبحانه وتعالى يقول عن الكفار والعباد
بالله وهم في النار :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (١٧) قَالَ أَخْسِفُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٨﴾
إِنَّهُمْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ
﴿١٩﴾ فَاتَّخَذُوهُمْ بَعْزًا حَتَّىٰ أَنْسُو كَذِبِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَلُّكُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿

(سورة المؤمنون)

لقد انشغل الكفار بالسخرية من أهل الإيمان بإشارات أو لمز وغمز أو اتهام
بالرجعية أو الدروشة أو مثل ذلك من ألوان السخرية ، لدرجة أنهم نسوا مسألة
الإيمان ، فما الذي أنساهم ذكر الله ؟ لقد أنساهم ذكر الله انشغالهم بالسخرية من
أهل الإيمان .

لقد قضى الكفار وقتهم كله للسخرية من أهل الإيمان حتى نسوا ولم يذكروا أن
هناك خالقاً للكون . وهذا ما يسمى « غاية العاقبة » وليست غاية وعنة للإرادة ،
لأنهم لم يريدوا نسيان ذكر الله ولكن أمرهم انتهى إلى ذلك .

وسيعذب الله الكافرين عذاباً ألماً وعظيماً ومهيباً ، ولكل وصف مراده في النص

حتى يستوعب كل حالات الإهانة من إبلام ، فالذى لا يألم بشيء صغير ولا يتحمل الألم القوى سيجد الألم الكبير ، وكذلك الذى يتجلد على الألم العظيم ، سيجد الألم المهيّن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ
لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴾

وعندما نسمع قول الله : « ولا يحسبن » فهو نهي ، وقد نهى الله الكافرين عن ماذا ؟ إن الكافر عندما يجرد نفسه قد أفلت في المعركة من سيف المؤمنين وإن عمره قد طال في الكفر ، فهو يظن أن الحق سبحانه وتعالى تركه لحيره ؛ لأنه يلهم أن عمره هو أثمن شيء عنده ، فمادام قد حوفظ له على عمره فهو الخير ، نقول لمثل هذا الكافر : إن العمر زمن ، والزمن وعاء الأحداث ، إذن فالزمن لذاته لا يجود إلا بالحدث الذى يقع فيه ، فإذن كان الحدث الذى يقع في الزمن خيراً ؛ فالزمن خير . وإن كان الحدث الذى يقع في الزمن شراً ؛ فالزمن شراً ، ومادام هؤلاء كافرين ، فلا بد أن كل حركاتهم في الوجود والأحداث التى يقومون بها هي من جنس الشر لا من جنس الخير ، لأنهم يسرون على غير منهج الله . وربما كانوا على منهج المضادة والمضادة للمنهج الله .

وذلك هو الشر . إذن فالله لا يمل لهم بقصد الخير ، إنما يمل الله لهم لأنهم ماداموا على الكفر فهم يشغلون أوقات أعمارهم بأحداث شريرة تخالف منهج الله . وكل حدث شررى له عذابه وجزاؤه . إذن ، قاطلة العمر لهم شر .

والحق سبحانه يقول : « ولا يحسبن الذين كفروا إنما عمل لهم خير لأنفسهم »
 و« يحسبن » هي فعل مضارع ، والماضى بالنسبة له هو « حَسِبَ » - بكسر السين -
 ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَحِبَّ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (١)

(سورة العنكبوت)

إن الماضى هو « حَسِبَ » - بكسر السين - والمضارع « يحسب » - بفتح السين - .
 أما حَسِبَ « بحسب » - بكسر السين - في المضارع وفتحها في الماضى فهي من الحساب
 والعدد ، وهو عند رافعي مضبوط .

أمر « حَسِبَ » و« يحسب » فأن بمعنى الظن ، والظن كما نعرف أمر وهمي ، والحق سبحانه
 يذكرهم أن ظنهم بأن بقاء حياتهم هو خير لهم ليست حقا . بل هي حدس وتخمين لا يرقى
 إلى اليقين .

صحيح أن العمر محسوب بالسنوات ؛ لأن العمر طرف للأحداث ، والعمر بذاته
 - مجرداً عن الأحداث - لا يقال إن إبطائه خير أو شر ، وإنما يقال : إن العمر خير أو
 شر بالأحداث التي وقعت فيه ، والأحداث التي تقع من الكافر تقع على غير منهج
 إيمان فلا بد أن تكون شراً ، حتى ولو فعل ما ظاهره أنه خير فإنه يفعله مضارة لمنهج
 الله . فلو كانت المسألة بالعملية الرقمية : لقلنا : « حَسِبَ » و« يحسب » - بفتح السين
 في الماضى وكسر السين في المضارع - لكن هي مسألة وهمية ظنية ؛ لذلك نقول :
 « يحسب » - بفتح السين في المضارع - أي يظن - وهو سبحانه يقول : « وإنما يحلى
 لهم » . ما الإملاء ؟ الإملاء هو تمديد الوقت وإبطائه . ولذلك نجد في القرآن :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَخَذَ إِلَهِي بِيَأْزِيمٍ لَّيْنُ لَّزَنَّتْ لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ (٢)

(سورة مريم)

إنه يأمر سيدنا إبراهيم أن يهجره مدة طويلة . هذا هو معنى « وأهجرني ملياً » .

والمقصود هنا أن إطالة أعمارهم بعد أن أفلتوا من سيوف المؤمنين . ليست خيراً
 لهم ولا يصح أن يظنوا أنها خير لهم ، لأن الله إنما يحلى لهم ؛ « ليزدادوا إثماً ولهم

عذاب مهين « وهنا نجد « لام العقاب » .

وياك أن تقول أيها المؤمن : إن الله قد فعل ذلك ليعاقبهم . لا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع سنته في الكون ويطبقها على من يخرج على منهجه ، فمن يصنع إثماً يعاقبه الله عليه « إثماً على لهم ليزدادوا إثماً » فكل ظرف من الزمن يمر عليهم يصنعون فيه أعمالاً آثمة على غير المنهج .

« ولهم عذاب مهين » وتأتي كلمة « مهين » وصفاً للعذاب مناسبة تماماً ؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد تملكه الزهو والعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطع رقبته بالسيف ، وينته بالعزيزة الأثمة ، لذلك فالإيلام هنا لا يكفى ، لأنه قد يكتسب الألم ويتجلد عليه ، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو العقاب المناسب لمثل هذا الموقف . والمتكلم هنا هو الله ، وسبحانه العليم بالمتناسب لكل حال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى
الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ۝١٧٩﴾

وساعة نسمع « ما كان » فلنعرف أن هنا « جحوداً » أي أن هناك من يجحد القضية . ويسمونها « لام الجحود » . فقبل حادثة أحد ، كان المنافقون متداخلين مع

المؤمنين . أكان الله يترك الأمر مختلطاً هكذا ، ولا يُظهر المنافقين بأحداث تبين مواقعهم الحققة من الإيمان ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى لا يقبل ذلك ؛ حتى لا يظل المنافقون دسيسة في صفوف المؤمنين . وكان لا بد أن تأتي الأحداث لتكشفهم . وجاءت أحداث أُخذ لنهيج الصف المنسوب إلى الإيمان ، وتفرزه ليتميز الخبيث من الطيب ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَمَّا الزُّبَيُّ فَيَذْهَبُ جُحًّا ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

إذن كانت أحداث أُخذ ضرورية .

وقوله الحق : « ما كان الله ليناً للمؤمنين » مقصود بها أن الله لم يكن ليدع المؤمنين ويتركهم عرضة لاختلاط المنافقين بهم بدون أن يتميز المنافقون بشيء من الأشياء ، حتى لا تظل المسألة مقصورة على ما يعلمه الله لرسوله من أمر المنافقين . فلو أعلم الله رسوله فقط بأمر المنافقين ، ولو أعلن الرسول ذلك للمؤمنين دون الاختيار واقعي للمنافقين لكان ذلك مجرد تشخيص نظري للنفاق باقٍ من جهة واحدة ، وأراد الله أن تأتي حادثة واضحة وتجربة عملية واقعية تبين وتظهر الواقع ، حتى يتكشف المنافقون ، وحتى لا يعترض أحد منهم عندما يوصف بأنه منافق ، وحتى لا يكون هذا الوصف مجرد كلام من الخصم ، بل بفعل ارتكبه هم عملياً ، وبذلك تكون الحجة قوية للغاية .

لقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى في الصلاة ؛ لأن كل منافق منهم أراد أن يجذب مسألة نفاقه ، ويؤاخره ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه ، والمنافق كان يعرف أن المؤمنين يتسابقون إلى الصلاة ، فهو يسارع ليكون في الصف الأول من الصلاة . فيخبر الله سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَبْتَنَّهُمْ فَلَاعْرِفَنَّهُمْ بِإِسْمِهِمْ ۖ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي الْحَرِّ الْقَوْلِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ۖ ﴾

(سورة محمد)

أى لو لاحظت كلامهم لعرفتكم ، مثلهم مثل كل المنافقين في الدنيا ، تلاحظ في كلامهم لفظة من اتفاق ، فالؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين وبأق وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة ، تجدد المؤمن يقول : فلتنضم إلى الصلاة ، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن : لتأخذنى على جناحتك للجنة يوم القيامة . ومثل هذه الكلمة يكون « نحن القول » . أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق ، فيستغل اتفاق المؤمن باللهجة من السخريّة في التّحية ، « كيف حالك أيها الشيخ (فلان) ؟ » ومعنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

وذلك من : نحن القول : الذى يظهر به المتناقض .

ومثل هذه العمليات عندما يواجهها المؤمن الواعي المستر الذي يتجلى الله عليه بالإشرافات النورية ، مثل هذه العمليات تكون وقوداً للمؤمن وتزيد من إيمانه ؛ لأن المؤمن على منهج الحق ، وقادر على نفسه ، هذا ما ينشط المتألق كثيراً ؛ فللمتألق يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا يقدر المؤمن على نفسه ؟ والمتألق لا يقدر على نفسه ؛ لذلك يريد أن يسحب المؤمن من عقيدته ليكون معه على النفاق والعياذ بالله . وعلى المؤمن أن يوطن نفسه على أنه سيواجه منافقين يريدون أن يردوه عن الإيمان ، وسيجد أناساً يسخرون منه ويتغامزون عليه ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿۱۹﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ

يَغَامِرُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٦١﴾ وَإِذَا

رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾

(مسودة الخطيب)

والمُنافِقُ أَوْ الْكَافِرُ قَدْ يَقُولُ لِأَهْلِهِ : لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ شَيْخًا أَوْ رَجُلًا دِينًا أَوْ مَدِينًا فَسَخَّرَتْ مِنْهُ وَأَهْنَتْهُ وَيَتَنَدَّرُ الْمُنَافِقُ بِمِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ فِي بَيْتِهِ الْفَاسِدَةِ ، وَيَكْشِفُهَا الْحَقُّ لَنَا بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ : لَيَبْغِضُنَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَعْوِضُ كُلُّ مُؤْمِنٍ عَمَّا يَصِيبُهُ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْقِسَافِ :

﴿ قَالَتِ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٣﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾

(سورة التائبين)

فالحق سبحانه بئال المؤمنين يوم القيامة : هل قدرنا أن نجازي الكفار والمنافقين الذين سخرُوا منكم ؟ فيقولون : نعم يارب العالمين قد جوزُوا وأثبُوا على فعلهم أرقى الجزاء وأتمه وأكمله .

إن سخرية المنافقين والكافرين من المؤمنين لها أمد ، ذنبوى ينقضى ، ولكن السخرية في الآخرة لا تنقضى أبداً . وعندما تنفيسها تحزن المؤمنين ، نجد أننا الفائزون الرباحون إن شاء الله . فلو ترك أى منافق ليتدخل فى أحضان المؤمنين ، ولا يظهر ذلك للمؤمنين لكانت المسألة صعبة العلاج ، ولهذا يقول الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِصَمْتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴾ ﴿٢٦﴾

(سورة محمد)

والحق لا يكتفى بذلك ، لكنه يكشف لنا واقع المنافقين بتجارب عملية حتى لا يقول واحد منهم : لست منافقاً . وعندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مدوية فعلية ، ومخجلة تبين أنه منافق ، فيكون قد وُصم بالنافق ، لأن كثيراً من الناس الذين يظنون طوال عمرهم ينافقون اعتياداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابد أن يأتى الله لهم بخاطر من الخواطر ويقعوا فى فخ اكتشاف المؤمنين لهم حتى يعرفهم المؤمنون ويقيمهم على حقيقتهم ، فسبحانه وتعالى القائل :

« ما كان الله ليبدل المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

وكلمة « يذر » تعنى « يترك » أو « يدع » . والدارسون للنحو يعرفون أن هناك فعلين هما « يذر » و« يدع » ، أهملت العرب الفعل الماخى لهما ، فهذان الفعلان

ليس لها فعل ماضٍ . ونستخدمها في صيغة المضارع .

والحق سبحانه لم يكن ليدع المؤمنين على ما هم عليه من الاختلاط واندساس المنافقين بينهم وعدم معرفة المؤمنين للمنافقين ؛ لذلك يميز ويظهر الخبيث من الطيب . فلا يكتفى بإخبار النبي بأمر الخبيث فقط ، ولكنه يكشف الخبيث بفعل واقعي . فيقول : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ؛ لأن الله لو أطلعكم على الغيب لتعرفوا المنافقين لأنكروا أنفسهم منكم وسروها عنكم ، ولذلك يجري سبحانه الوقائع لتكشف الخبيث من الطيب ، ويعد ذلك بوصم المنافق بالتفاق بإقرار نفسه وإقرار فعله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » . إنه جل وعلا يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على بعض الغيب حتى يزدادوا ثقة في أن الله لا يتخلل عنهم ، أي يعطي للرسول دلالات على المنافقين ، حتى يزداد الرسول ثقة في أن الله لا يتخلل عنه .

والله يرحمه لا يكشف الغيب لكل المؤمنين ، فلو أطلع المؤمن على الغيب لفسدت أمور كثيرة في الكون . وهُبْ أن الله أطلع الإنسان على غيب حياته ، فعرف الإنسان ألف حادثة سارة ثم حادثة واحدة مكذبة ؛ فإن كدر الإنسان بالحادثة الواحدة المكذبة التي تقع بعد عشرين عاماً يفسد على الإنسان تنعمه بالأحداث السارة .

وإن كان الإنسان يريد أن يطلع على غيب الناس فهل يقبل أن يطلع على غيب أحد ؟ فلماذا تريد أيها الإنسان أن تعرف غيب غيرك ؟ امرضي أي واحد منا أن يعرف الناس غيبه ؟ لا . إذن فنستر المعلومات عن الناس وجعلها غيباً هي نعمة كبرى .

ومع ذلك فالناس تلح أن تعرف الغيب . ونرى من يجري على الدجالين والعرافين ومن يدعون كذباً أنهم أولياء الله ، وكل ذلك من أجل أن يعرف الواحد بعضاً من الغيب . وهنا نقول : ليست مهارة العراف في أن يقول لك ماذا سيحدث لك في المستقبل ، لكنها في أن يقول واحد من هؤلاء المدّعين لمعرفة الغيب : إن حادثاً مكروهاً سيفع لك ، وسأمنعه أو أدفعه بعيداً عنك . لا أحد يستطيع دفع قدر الله ،

ولذلك فلتترك المستقبل إلى أن يقع . لماذا ؟ . حتى لا يحيا الواحد منا في الهم والحزن قبل أن يقع . إذن فقول الحق : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » هو سنة من الله لأن نظام الملك يتظم بها ويحتاج إليها .

فكل إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتي له فترة يضعف فيها في شيء من الأشياء ، فإذا ما عرف الغير منطقة الضعف في إنسان ما ، وعرف هذا الإنسان منطقة الضعف في أخيه ، فلسوف يبدو كل الناس في نظر بعضهم بعضاً ضعافاً . ومن فضل الله أن أخفى غيب الناس عن الناس . وجعل الله إنساناً ما قوياً فيها لا نعلم ، وذلك قوياً فيها لا نعلم ، وبذلك تسير حركة الحياة بانتظامها الذي أراده الله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » والحق يجتبي من الرسل ، أي بعضاً من الرسل - لا كل الرسل - ليطلعهم على الغيب حتى يعطى لهم الأمان بأنهم موصولون بمن أرسلهم ، فهو سبحانه لم يرسلهم ليتخلل عنهم ، لا ، إنيهم موصولون به لذلك يطلعهم على الغيب ، وقلنا : إن الغيب أنواع : فمطلق الغيب : هو ما غاب عنك وعن غيرك . ولكن هناك غيباً غائباً عنك وهو معلوم لغيرك ، وهذا ليس غيباً .

مثال ذلك إن ضاعت من أحدكم حافظة نقوده ، وسارقتها غيب ، ومكانها غيب عن صاحبها ، لكن الذي سرقها عارف بمكانها ، إذن فهذا غيب على المسروق ، ولكنه ليس غيباً على السارق . إنه ليس غيباً مطلقاً ، وهذا ما يضحك به الدجالون على السذج من الناس ، فبعض من الدجالين والمشعوذين قد يتصلون بالشيطان أو الجن ، ويقول للمسروق حكاية ما عن الشيء الذي سرق منه وهؤلاء المشعوذون لا يعرفون الغيب ؛ لأن الغيب المطلق هو الذي لا يعلمه أحد ، فقد استأثر به الله لنفسه .

ومثال آخر : الأشياء الابتكارية التي يكشفها البشر في الكون ، وكانت سرّاً ولكن الله كشف لهم تلك الأشياء ، وقد يتم اكتشافها على يد كفار أيضاً . فهل قال

أخذ: إنهم عرفوا غيباً ؟ لا ؛ لأن لئلا هذا الغيب مقدمات ، وهم بحثوا في أسرار الله ، ووفقهم سبحانه أن يأخذوا بأسبابه ماداموا قد بذلوا جهداً ، والله يعطي الناس - مؤمنهم وكافرهم - أسبابه . وماداموا يأخذون بها فهو يعطيهم المكافأة على ذلك . والله المثل الأعلى ، وسبحانه منزّه عن كل تشبيه ، أقول لكم هذا المثل للتقريب :

المدرس الذي يعطي تمرين هندسة للتلميذ ليقوم بحله ، فهل مجيء الخلل غيب ؟ لا ؛ لأن التلميذ يعرف كيف يحل التمرين الهندسي ؛ لأن فيه المعطيات التي يتدبر فيها بأسلوب معين فتعطي النتيجة . ومادام التلميذ يخرج بنتيجة لتمرين ما بعد معطيات أخذها ، فذلك ليس غيباً .

ولذلك فعلينا أن نفطن إلى أن الغيب هو ما غاب عن الكل ، وهذا ما استأثر الله بعلمه وهو الغيب المطلق ، وهو سبحانه وتعالى بطلع عليه بعضاً من خلقه من الرسل ، وهو سبحانه القائل :

﴿ عَلَّمَ الْغَيْبَ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

(سورة الجن)

وأما الأمر المخفى في الكون ، وكان غيباً على بعض من الخلق ثم يصبح مشهداً لخلق آخرين فلا يقال إنه غيب ، وعرفنا ذلك أثناء تناولنا بالخواطر لآية الكرسي :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد نسب هذا الإحاطة للبشر ، ولكن بإذن منه ، فهو يأذن للسر أن يولد ، تماماً كما يوجد للإنسان سلالات ولها أوقات معلومة لميلادها ، كذلك أسرار الكون لها ميلاد . وكل سر في الكون له ميلاد ، هذا الميلاد ساعة يأتي ميغاده فإنه يظهر ، ويحيط به البشر . فإن كان العباد قد بحثوا عن السر وهم في طريق المقدمات ليصلوا إليه ووافق وصولهم ميغاد ميلاده ، يكونوا هم المتكشفين له . وإن لم يكن ميغاد ميلاد هذا السر فلن يتم اكتشافه . وإذا كان ميلاد السر ولم يوجد عالم معمل يأخذ بالأسباب والمقدمات فالحق يخرج هذا السر كمصادفة لواحد من البشر . وحينئذ يقال : إن هذا السر قد ولد مصادفة من غير موعد ولا توقع .

وأسرار الله التي جاءت على أساسها الاكتشافات المعاصرة ، كثير منها جاء مصادفة . فالعلماء يكونون بصدد شيء ، ويعطيهم الله ميلاد سر آخر . إذن فليس كل اكتشاف إنما لبحث العلماء في مقدمات ما ، ولكن العلماء يشتغلون من أجل هدف ما ، فيعطيه الله اكتشاف أسرار أخرى ؛ لأن ميلاد تلك الأسرار قد جاء والناس لم يشتغلوا بها . ويتكرم الله على خلقه ويعطيهم هذه الأسرار من غير توقع ولا مقدمات .

ويستمر سياق الآية : فأمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم ه وهو سبحانه يخاطب المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى إذا خاطب قوماً بوصف ، ثم طلب منهم هذا الوصف فيما معناه ؟ . ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

إنهم مؤمنون ، والحق قد ناداهم بهذا الوصف . معنى ذلك أنه يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مر الأزمان ، لأن الإيمان هو يقين بموضوعات الإيمان في ظرف زمني ، والأزمان متعاقبة لأن الزمن ظرف غير قار . وه غير قار : تعنى أن الحاضر يصير ماضياً ، والحاضر كان مستقبلاً من قبل . فالماضى كان في البداية مستقبلاً ، ثم صار حاضراً ، ثم صار ماضياً . والزمن « ظرف » ، ولكنه ظرف غير قار . أى غير ثابت . لكن المكان ظرف ثابت قار . فكان الله يخاطبك : إن الزمن الذى مر قبل أن يخاطبك شغل بإيمانك ، والزمن الذى يحى أيضاً اشغله بالإيمان .

إذن معنى ذلك : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم . « وإن تؤمنوا وتتفوا
فلكم أجر عظيم » ولنا أن تتصور عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيمان يعود خيره على
من يؤديه ، ومع ذلك فالله يعطي أجراً لمن اتبع المنهج . إذن فعندما يضع الحق
سبحانه وتعالى منهجاً فإنه قد فعله لصالح البشر وأيضاً بشيهم عليه ، وهو يقول :

﴿ قَنِ أَتَّبِعْ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقَّ ۖ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ
مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۖ ﴾

(سورة طه)

إن اتبع للمنهج يأخذ نفعه ساعة نادية هذا المنهج . ويزيد الله فوق ذلك أنه
سبحانه يعطي المنهج للمنهج أجراً ، وهذا محض الفضل ، وقلنا من قبل : إن العمر
الذى عبده الله للكافرين والمنافقين ليس خيراً . إذن فعلى الناس أن يأخذوا المسائل
والأزمة بتبعات وآثار ونتائج ما يحدث فيها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَآءِ أَنَّهُمْ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيَبْطُقُونَ
مَا يَبْخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۖ ﴾

لقد ظن بعض من المنافقين والكفار أن طول العمر ميزة لهم ، وهانحن أولاء
بصدد قوم آخرين ظنوا أن المال الذى يجمعونه هو الخير فكلما زاد فرحوا . فيقول
الحق : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فالماا قد جاءهم من

فضل الله ، ذلك بأنهم دخلوا الدنيا بغير جيب . ولا أحد فينا قد رأى كفتاً له جيب . ولا أحد فينا قد رأى قباط طفل ولید له جيب . فالإنسان يدخل الدنيا بلا جيب ، ويخرج بلا جيب . وكل ما باق للإنسان هو من فضل الله ، فلا أحد قد ابتكر الأشياء التي يأتي منها الرزق . ويمكن أن تشكر من رزق موجود . فتطور في الوسائل والأسباب وللإنسان جزء من الحركة التي وهبها الله له ليضرب في الأرض ، ولكن لا أحد باق بأرض من عنده ليزرع فيها ، ولا أحد باق ينزور من عنده لم تكن موجودة من قبل ويزرعها ، ولا أحد باق بماء لم يوجد من قبل ليروي به ، فالأرض من الله ، والينزور عطاء من الله ، والماء من رزق الله ، وحتى الحركة التي تتحرك بها الإنسان هي من فضل الله .

فبأن الله لو أراد إنسان أن يحمل الفأس ليضرب في الأرض ضربة ، فهل يعرف الإنسان كم عضلة من العضلات نتحرك ليرفع الفأس ؟ وكم عضلة تتحرك حين ينزل الفأس !!

وعندما يضرب الإنسان الفأس . فهو يضربها في أرض الله . والذي أراد لنفسه قابلاً فإنه يذهب إلى الحديد ليصنعها له ، لكن هل سأل الإنسان نفسه من أين أتى الحديد ؟ وفي هذه قال الحق :

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فماذا توجد أنت أيها الإنسان ؟

أنت تأخذ المواد الخام الأولية من عند الله ، وتبذل فيها الحركة الممنوحة لك من الله ، وأنت لا توجد شيئاً من معدوم ؟ بل إنك توجد من موجود ، فكل شيء من فضل الله . وأنت أيها الإنسان مضارب في كون الله . فعملك الذي يفكر ، من الذي خلقه ؟ إنه الله . وجوارحك التي تنفعل للعقل من الذي خلقها ؟ إنه الله .

وجوارحك تنفعل في منفع هو الأرض ، بآلة هي الفأس ، ثم ترونها بماء هو

نازل من السماء . فما الذي هو لك أيها الإنسان ؟ إن عليك أن تعرف أنه ليس لك شيء في كل ذلك ، إنما أنت مضارب لله . فلتعظ حتى المضاربة .

والحق سبحانه لا يطلب إلا قدرًا بسيطاً من نتاج وثمره الأرض . . إن كانت تروى بماء السماء فعليك عشر نتاجها . وإن كانت الأرض تروى بماء الطيور أو الساقية فعليك نصف العشر .

والذي يزرع أرضاً فإنه يحرقها في يوم ، ويرونها كل أسبوعين .

أما الذي يتاجر في صفقات تجارية فهي تحتاج إلى عمل في كل لحظة ، ولذلك فإن الحق قدّر الزكاة عليه بمقدار اثنين ونصف بالمائة . إذن فكلما زادت حركة الإنسان قلل الله قدر الزكاة . وهذه العملية على عكس البشر . فكلما زادت حركته . فإنهم يأخذون منه أكثر !!

والله سبحانه يريد أن توجد الحركة في الكون ؛ لأنه إن وجدت الحركة في الكون انتفع الناس وإن لم يقصد التحرك . وبعد ذلك فإن يذهب الذي يأخذه الله منك ؟ . إنه يعطيه لأخ لك ولغيره . فها دام سبحانه يعطى أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففي هذا اطمئنان وأمان لك ، لأن الغير سيعطيك لو صرت عاجزاً غير قادر على الكسب . وفي هذا طمأنينة لأغيار الله فيك . فإن جاءت لك الأغيار فتسجد أناساً بساعدونك . وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعي في أرقى معانيه . اليس التأمين أن تعطى وأنت واجد وإن تأخذ وأنت فاقد ؟ . إذن فهذا كله من فضل الله .

« ولا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم » إن الذين ييخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدر عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ؛ لأن الحق يقول : « سيطوقون ما ييخلوا به يوم القيامة » أي أن ما ييخلوا به يصنعه الله طوقاً في رقبة البخيل ، وساعة يرى الناس البطوق في رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله في ماله .

والرسول صلى الله عليه وسلم يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يطلب منه حق الله ولم يؤده ، يأتى المال الذى منعه وضم وبخل به يتمثل لصاحبه يوم القيامة « شجاعاً أقرع » وهو ثعبان ضخم ، ويطوق رقبته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعنى شذقيه - يقول : « أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى : « ولا يحسن الذين ييخطلون بما آتاهم الله من فضله » إلى آخر الآية (١) .

إذن فالذى يدخر بخلاً على الله فهو يزيد من الطرق الذى يلتفت حول رقبته يوم القيامة .

« والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير » نعم فله ميراث السموات والأرض ، ثم يضعها فيمن يشاء ، فكل ما فى الكون نسبته إلى الله ، ويوزعه الله كيفما شاء . إن الإيمان يدعونا ألا نتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الخلقوم ، فقد روى عن أبى هريرة أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » (٢) لأنه عند وصول الروح إلى الخلقوم لا يكون له مال .

قول الحق : « والله بما تعملون خبير » قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يدلس الإنسان على البشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفتريين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ويكون هذا المنهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك ، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل . وبعد ذلك يقول الحق :

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ

(١) تفرد به البخارى عن مسلم من هذا الوجه . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة - باب أى صدقة أفضل .

وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

روى - في سبب نزول هذه الآية الكريمة : قال سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك ، فسأل عباده القرض ؟ فانزل الله : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء .^(١) .

والذين عايشوا الإسلام في المدينة كانوا من اليهود . واليهود كما تعرف كانوا يبدلون ويفخرون على العالم بأنهم أهل كتاب وعلم ومعرفه ، ويدلون على البيئة التي عاشوا فيها أنهم ملوك الاقتصاد كما يقولون الآن عن أنفسهم . كل من يريد شيئاً يأخذه من اليهود . وكانوا يبنون الحصون ويأتون بالأسلحة لتدل على القوة . وجاء الإسلام وأخذ منهم هذه السلطات كلها ، ثم تمتعوا بمزايا الإسلام من محافظة على أموالهم وأمتهم وحياتهم .

إكان الإسلام يتركهم هكذا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون أمناً واطمئناناً ، وسلامة أبدان وسلامة أموال ثم لا يأخذ منهم شيئاً ؟ لقد أخذ منهم الإسلام الجزية . فلم يكن من المقبول أن يدفع المسلم الزكاة ويجلس اليهود في المجتمع الإيماني دون أن يدفعوا تكلفة حمايتهم . ولذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر إلى اليهود في المكان الذي يتدارسون فيه . فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ومعه خبر يقال : أشبع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله قد جاء بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، إنه

(١) رواه ابن مرفويه وابن أبي حاتم .

إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإننا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استغرض منا كما يزعم صاحبكم ، بنهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا . فعضب أبوبكر - رضي الله عنه - فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين (١) .

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يا محمد أبصر ما صنع بن صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ » فقال يا رسول الله : إن عدو الله قال فولا عظميا ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيها قال فنحاص : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء (٢)

هؤلاء لم يفطنوا إلى سر التعبير الجميل في قوله سبحانه :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة الحديد)

فإن هذا القول هو احترام من الحق - سبحانه - لحركة الإنسان في التملك . لماذا احترام الله حق الإنسان في التملك ؟ هو سبحانه يريد أن يفرى المتحرك بزيادة الحركة ، ويعمل غير المتحرك على أن يتحرك . فإن طلب سبحانه شيئاً من هذا المال فهو لا يقول للإنسان : أعطني ما أعطيت لك . بل كانه سبحانه يقول : إني سأحترم عرقك ، وسأحترم حركتك ، وسأحترم فكرك ، وسأحترم جوارحك وطاقاتك وكل ما فيك ، فإن أخذت منك شيئاً فلن أقول لك أعطني ما أعطيت لك ، لكن أقول لك : أقرضها لي ؛ وإن أقرضتها فسوف نقرضها لا لأنتفع بها ، ولكنها لأخيك . وقد اقترض من القادر فيها بعد وذلك لك أنت إذا أصابك الحاجة . لماذا ؟ لأنني أنا الله الذي استدعيت خلقي إلى الوجود . ومادمت أنا الله الذي استدعيت الخلق إلى

(١) أكذبونا : يثبتوا وأظهروا كذبنا .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

الوجود فأرزاقهم مطلوبة مني .

إن الواحد من البشر عندما يدعو اثنين من أصدقائه فهو يصنع طعاماً يكفي خمسة أو عشرة أشخاص . ومادام الله هو الذي استدعى الخلق إلى الوجود فهو الذي يكفل لهم الرزق . وعندما يكفل لهم الرزق فلا بد أن يتحركوا . وعندما يتحركون فهو سبحانه يضمن آثار الحركة . وذلك حتى ينال كل ما يرضيه ، أو على الأقل ما يكفيه من الضروريات .

ولذلك عندما جاءت آثار الحركة من المال وتدخل البشر فيها تأمياً وغير ذلك من الإجراءات فلتت الحركة . لكن الله سبحانه وتعالى يعلم حرص الإنسان على منفعة نفسه فيغريه بذلك حتى يتحرك ويستمتع المجتمع بحركته ، سواء قصد الإنسان أو لم يقصد . إذن فحين يقترض الحق سبحانه وتعالى من بعض خلقه لبعض خلقه ، فهو سبحانه لا يتراجع فيها وهب . بل يقول جل وعلا :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١ ﴾

(سورة الحديد)

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نحن البشر قد نضطر إلى هذا الموقف ، فالواحد منا عندما يعطي أبناءه مصروف اليد ، فكل ابن يدخر ما يبقى منه ، وبعد ذلك يأتي طرف لبعض الأبناء يتطلب مالاً ليس في مكنة الوالد ساعة يأتي الحدث . فيقول الوالد لأبنائه : أفترضون ما في حصص لانكم ، وساردها لكم مضاعفة ، هو أخذها لأحبهم ، لكن لأنه الذي وهب أولاً فلم يرجع في الهبة ، لكنه طلبها قرضاً . وعندما يأتي أول الشهر فهو يرد القرض مضاعفاً ، فإن كان ذلك ما يحدث في مجال البشر فما بالنا بما يحدث من الخالق الوهاب لعباده ؟ هو سبحانه يقول : « من ذا الذي يقترض الله قرضاً حسناً . »

لكن اليهودي لم يأخذ المسألة بهذا الفهم ، لكنه أخذها بغباء المادة فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء . لذلك قال الحق سبحانه : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا . »

ولماذا يكتب الله ذلك وهو العالم بكل شيء ؟ . جاء هذا القول ليدل على التوثيق أيضاً ، فعندما يأتى هذا الرجل ليقرأ كتابه يوم القيامة يجدها مكتوبة ؛ فالكتابة لتوثيق ما يمكن أن يُنكر - بالبناء للمجهول - فإذا كان العلم من الله فقط فالعبد قد يقول :

- إني يا رب الذى تعاقب . فلك أن تقول ما تقول . فإذا ما كان مكتوباً عليهم ليقرأوه . فهذا توثيق لا يمكن إنكاره .

ولم يفهم ذلك اليهودى أن القرض لله هو تلتطف من الحق سبحانه وتعالى واستدراج لحنان الإنسان على الإنسان . فقد شاء الحق أن يحترم أثر عهودك وعرقك أيها الإنسان ، فإن وصلت إلى شيء من المال فهو مالك . ولم يقل الله لك : أعط أخاك ، فسبحانه وتعالى تلتطفنا مع خلقه يقول : أفرضنى ؛ ليضمن الإنسان أن ما أعطاه إنما هو عند ملء . لكن أدب بنى إسرائيل مع الله مفقود ، فقد قالوا من قبل :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وسبب ذلك أنه أصابتهُم سنة وجدب . وذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : « إن الله وسع على اليهود في الدنيا حتى كانوا أكثر الناس مالا ، فلما عصوا الله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه ضيق الله عليهم في زمنه صلى الله عليه وسلم ، فقال فتحاين بن عازوراء ومن معه من يهود : يد الله مغلولة فأنزل الله هذه الآية . إنهم قالوا : الباء بخلت علينا ويد الله مغلولة ، فلم تعطنا رزقاً . هكذا كان اجتراؤهم في الحديث عن الله « يد الله مغلولة » ونعرف أن « الفل » هو ربط اليدين بسلسلة .

وهاهم أولاء يجترئون مرة أخرى فيقولون : « إن الله فقير » . ويورد الحق سبحانه كل ذلك تسلية لسيدنا محمد حتى إذا ما اجتروا عليه بكلمة أو على أصحابه باستهزاء ، فسبحانه يوضح لرسوله : أنهم لم يصنعوا ذلك معك ولا مع أتباعك ،

إن هذا هو موقفهم مني أنا . فإذا كان موقفهم وسوء أدبهم وصل بهم إلى أن يجترئوا على الذات المقدسة العلية ، ويقولون : « إن الله فقير ونحن أغنياء » ويقولون : « يد الله مغلولة » . افتحزن وتأسى على أن يقولوا لك أو لاتباعك أي شيء يسى إليكم ؟

إنها نعمت المواساة من الله لرسوله ونعمت التسلية . ويضيف الحق : « سنكتب ما قالوا » . لماذا يكتب الله ما قالوا مع أن علمه أزلي لا يتسى ؟

﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

(من الآية ٥٢ سورة طه)

لقد جاءت كلمة « سنكتب » حتى لا يؤاخذهم سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كان الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً :

﴿ اقْرَأْ كُتِبَ عَلَيْكَ هَذَا يَوْمَ الْيَوْمِ عَلَىٰ مَا لَا يَحْصَىٰ ۚ ﴾

(سورة الإسراء)

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب في الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصوصنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها ؟ « سنكتب ما قالوا » وهم قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » وهذا معصية في القمة ، وتبجح على الذات العلية ، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم ؛ لذلك يقول الحق : « سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق » .

وعندما يأتي هذا النبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تسلية له من الحق سبحانه . لقد قالوا في ربك يا محمد ما قالوا ، وقتلوا الأنبياء إخوانك ، فإذا صنعوا معك ما صنعوا فلا تحزن فسوف يجازون على ما كتبنا عليهم بشهادة أنفسهم ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق . والحريق يصنع إيلاًماً إحساسياً في النفس .

والإحساس يختلف من حاسة إلى أخرى ، فمرة يكون الإحساس بالبصر ، ومرة بالأذن ، ومرة بالشم أو باللمس أو بالذوق .

والذوق هو سيد الأحاسيس ، فهو لا يضيع من أحد أبداً ، فقد نجد إنساناً أعمى ، وآخر أصم ، أو شخصاً ثالثاً أصيب بالشلل فلا تستطيع يده أن تلمس ، وقد يضرب واحد يركام مستمر فلا يصبح قادراً على الشم ، أما الذوق فهو حاسة لا تختفى من أى إنسان ، ذلك أن الذوق أمر من داخل الذات ، لذلك فهو أبغ في الإيلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ قَبَادُهَا اللَّهُ لِبَاسٍ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

انظر إلى التعبير القرآني « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . جاء التعبير بالإذاقة ، وجاء بشئ لا يذاق وهو اللباس . وهل اللباس يذاق ؟ لا ، لكنه سبحانه يريد أن يبين للإنسان إلى أن كل الحواس التي فيه تحس ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النفس ، إن ذلك يشمل كل جزء في الإنسان .

فالإذاقة تحيط بالإنسان في هذا التصوير البياني القرآن الكريم : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . إذن فهي شدة وقع الإيلام ، واستيعاب العذاب المؤلم لكل أجزاء الجسم حتى صار الذوق في كل مكان . « ذوقوا عذاب الحريق » ، والحريق هو النار القوية التي تحرق . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ

بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ ﴿١١٧﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى عذاب الحريق . والحق سبحانه لم يظلمهم ، لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم . « بما قدمت أيديكم » . فهل معنى ذلك أن كل المعاصي من تقديم البدن ؟ إن هناك معصية للنعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرجل ، ومعصية للقلب ، ولا حصر للمعاصي . فلماذا إذن قال الحق : « بما قدمت أيديكم » ؟

قال الحق ذلك لأن الاعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد ؛ فاليد هي الجارحة التي تفعل بها أكثر أمورنا ، وعلى ذلك يكون قول الحق : « بما قدمت أيديكم » مقصود به : بما قدمتم بأي جارحة من الجوارح .

ويعد ذلك بختنا سبحانه : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » لقد أذاقهم عذاب الحريق نتيجة ما كتبه عليهم ؛ من قول وفعل . والقول هو الافتراء باللسان حين قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » . والفعل هو قتلهم الأنبياء . فهم يستحقون ذلك العذاب .

والفضية العامة في الإله وعدالة الإله أنه ليس بظلام للعبيد .

وهنا وقفه لخصوم الإسلام من المستشرقين ، هم يقولون : الله يقول في قرآنهم « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ، وكلمة « ظلام » هي مبالغة في كلمة « ظالم » ، ففيه « ظالم » وفيه « ظلام » ، و« الظلام » هو الذي يظلم ظلماتاً قومياً ومتكرراً ؛ فـ « ظلام » هي صيغة مبالغة في « ظالم » .

وحتى ترد عليهم لا بد لنا أن نعرف أن صيغ المبالغة كثيرة ، فاللغويون يعرفون أنها : فعال ، فعيل ، مفعال ، فعول ، فعمل ، فظلام مثل قولنا : « أكل » ، « قتل » ، « قتال » بدلاً من أن نقول : « قاتل » . فالقاتل يكون قد ارتكب جريمة القتل مرة واحدة ، لكن الـ « قتال » هو من فعل الجريمة مرات كثيرة وصار القتل حرفته . ومثل ذلك « ناهب » ، ويقال لمن صار النهب حرفته : « نهاب » أي أنه إن نهب ينهب كثيراً ، ويعد النهب في الناس .

وهذه تسمى صيغة المبالغة . وصيغة المبالغة إن وردت في الإثبات أي في الأمر

الموجب فهي تثبيت الأقل ، فعندما يقال : « فلان ظلام » فالثابت أنه ظالم أيضاً ، لأننا ما دما قد أثبتنا المبالغة فإننا ثبت الأقل . ومثل ذلك نقول : « فلان علام » أو « فلان علامة » فمعنى ذلك أن فلاناً هذا عالم . ولكن إذا قلنا : « فلان عالم » فلا يثبت ذلك أنه « علامة » . فصيغة المبالغة ليس معناها « اسم فاعل » فحسب ، إنها أيضاً اسم فاعل مبالغ فيه ، لأن الحدث يأتي منه قوياً ، أو لأن الحدث متكرر منه ومتعدد . فإذا ما أثبتنا صفة المبالغة فمن باب أولى تثبت صفة غير المبالغة . فإذا ما قال واحد : « فلان أكل » فإنه يثبت لنا أنه أكل ، هذا في الإثبات .

والأمر يختلف في النفي . إننا إذا نفينا صفة المبالغة ، فلا يستلزم نفي الصفة الأصلية ، فإن قلت : « فلان ليس علامة » فقد يكون عالماً . وهكذا نفهم لأن الإثبات يختلف عن النفي . فإذا أثبت صفة المبالغة تثبت الصفة التي ليس فيها مبالغة من باب أولى . أما إذا نفيت صفة المبالغة فلا يستلزم ذلك نفي الصفة الأقل .

والنذيل للآية التي نحن بصددھا الآن هو « وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

يفهم المشرقون من هذا القول أنه مجرد نفي للمبالغة في الظلم ، لكنها لم تنف عنه أنه ظالم ولم يفهم المشرقون لماذا تكون المبالغة هنا : إن الحق قد قال : إنه ليس بظلام للعبيد ، ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد . ومعنى ذلك أنه ليس بظلام للعبيد من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، فلو ظلم كل هؤلاء - والعياذ بالله - لقال إنه ظلام ، حتى ولو ظلم كل واحد أيسر ظلم . لأن الظلم تكرر وذلك يتكرر من ظلم وهم العبيد فإن أريد تكثير الحديث فليفتن الغبي منهم إلى أن الله قال : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد .

وإذا كان الظالم لا بد أن يكون أقوى من المظلوم ، إذن فكل ظلم يتم تكييفه بقوة الظالم . فلو كان الله قد أباح لنفسه أن يظلم فلن يكون ظالماً ، لأن عظم قوته لن يجعله ظالماً بل ظالماً .

فإن أردنا الحدث فيكون ظالماً ، وإن أردنا تكراراً للحدث فيكون ظالماً . ونحن

مُحَاوِل بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ أَنْ يَسْتَدْرِكُوا عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ : « وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ » فَهَذَا الْاسْتِدْرَاكُ يَدُلُّ عَلَى عَجْزٍ فِي فَهْمِ مَرَامِي الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ أَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَعْلَمُونَ مَرَامِي الْأَلْفَاظِ وَمُحَاوِلُونَ غَشَّ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ رَصِيداً لُغَوِيّاً يَفْهَمُونَ بِهِ مَرَامِي الْأَلْفَاظِ . وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُسَخِّرُ لِكِتَابِهِ مِنْ يَنْبِهِ إِلَى إِيْظَاهَارِ إِعْجَازِهِ فِي آيَاتِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَى الْحَقُّ مِنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ أَنْ يَقَرَّرَ مِبَادِيَّهَ بَيِّنٍ فِيهَا مَعْسَكَاتِ الْعُدَاءِ لِلْإِسْلَامِ : مَعْسَكَرُ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَمَعْسَكَرُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ ، وَمَعْسَكَرُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ . وَكَانُوا يَغْيِرُونَ عَلَى الْمَدِينَةِ .

فَبَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدِ الَّتِي صَفَّتْ ، وَرَبَّتْ ، وَامْتَحَنَتْ وَابْتَلَتْ ، وَعَرَفَتْ النَّاسُ قَضَايَا الَّذِينَ ، أَرَادَ الْحَقُّ بَعْدَهَا أَنْ يَضَعَ الْمِبَادِيَّهَ .

فَأَوْضَحَ الْقُرْآنُ : أَنَّ هَؤُلَاءِ أَعْدَاؤُكُمْ ؛ تَذَكَّرُوهُمْ جَيِّدًا ، قَاتِلُوا فِي رَبِّكُمْ كَذَا ، وَيَقُولُونَ فِي رَسُولِكُمْ كَذَا ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكُمْ .

وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ
لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ
قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

هَمْ يَدَّعَوْنَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ : رَبَّنَا قَالَ لَنَا هَذَا فِي التَّوْرَةِ ؛ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِرَسُولٍ

بأنبيائكم ، حتى بأنبيائكم بمعجزة محسة ، هذه المعجزة المحسة هي أن يقدم الرسول قرباناً فتتزل نار من السماء تأكله .

هذا كان صحيحاً ، وكلنا نسمع قصة قابيل وهابيل :

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَّا آدَمَ بِالْخَيْزِ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونريد أن نقبل على القرآن وتدبر : لماذا جاء هذا اللفظ : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ؟ إن القبول من الله ، وهو مسألة سرية عنده ، فكيف نعرف نحن أن الله تقبل أو لم يتقبل ؟ لا بد أنه الله قد جعل للقبول علامة حية . ونحن نعرف أن الإنسان قد يعمل عملاً فيقبله الله ، ونجد إنساناً آخر قد يعمل عملاً ولا يقبله الله والعياذ بالله ، فمن الذي أعلمنا أن الله قد قبل عمل إنسان وقربانه ، ولم يقبل عمل الآخر وقربانه ؟ .

وبما أن القبول سر من أسرار الله إذن فلن نعرف علامة القبول إلا إذا كانت شيئاً محساً ، بدليل قوله : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقال الذي لم يتقبل الله قربانه : « لأقتلنك » كأن الذي قبل الله قربانه قد عرف ، والذي لم يتقبل الله قربانه قد عرف أيضاً ، إذن فلا بد أن هناك أمراً حسيماً قد حدث .

وقلنا : إن الله كان يخاطب خلقه على قدر رشد عقولهم حساً ومعنى ؛ ولذلك كانت معجزاته سبحانه وتعالى للأنبياء السابقين لرسول الله هي من الأمور المحسوسة . فالمعجزة التي آتاهها الله لإبراهيم كانت نارا لا تحرق ، وعصا سيدنا موسى تتقلب حية ، وسيدنا عيسى عليه السلام يبرىء الأكفم والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله . والمعجزة الحسية لها ميزة أنها تقنع الحواس ، ولكنها تنتهي بعد أن تقع لمرة واحدة . لكن المعجزة العقلية التي تناسب رشد الإنسانية ، هي المعجزة الباقية ،

وحتى نظل معجزة باقية فلا يمكن أن تكون حية ..

إذنه فعندما تأتي معجزة خالدة لرسول هو خاتم الرسل ، والذي سوف تقوم القيامة على المنهج الذي جاء به ، هذه المعجزة لا بد أن تكون ذات أمد ممتد ، والامتداد يناقض الحسية ؛ لأن الحسية تظل محصورة فيمن رآها ، والذي لم يرها لا يقولها ولا يؤمن بها إلا إذا كان على ثقة عظيمة بمن أخبره بها . وإنا آدم ، قابيل وهابيل قرب كل منهما قربانا .

وه قربان « مثلها في اللغة مثل » غفران « وه عُذوان » والقربان هو شيء أو عمل يتقرب به العبد من الله . وقبول هذا العمل من البر هو سر من أسرار الله . فما الذي أدرى هؤلاء أن قربان هابيل قد تقبله الله ولم يتقبل الله قربان قابيل ؟ ألا بد أن تكون المسألة حسية . ولا بد أن قابيل وهابيل قد اختلفا ، ولكن القرآن لم يقل لنا على ماذا اختلفا ، إنها دعوى أن واحداً منهما مقرب إلى الله أكثر ، ولكن بأي شكل ؟ لم يظهر القرآن لنا ذلك ، ولو كانت المسألة مهمة لأظهرها الله لنا في القرآن الكريم ، فلا تغفل كان الخلاف على زواج أو غير ذلك . فالذي ظهر لنا من القرآن أن خلافاً قد وقع بينهما أو أنها قد حكما الساء . ومبدأ تحكيم الساء لا يستطيع أحد أن ينقضه . وكان لكل واحد منهم شبهة . وعندما قامت الشبهة التي لقابيل ضد الشبهة التي لهابيل ، فلا إقناع من صاحب شبهة لصاحب شبهة ، ولذلك ذهبنا إلى التحكيم .

ولنحن في عصرنا الحديث عندما نختلف على شيء فإننا نقول : نجرى قرعة . وذلك حتى لا يرضخ إنسان لحوى إنسان آخر ، بل يرضخ الاثنان للقدر ، فيكتب كل منهما ورقة ثم يتركان ثالثاً يجذب إحدى الورقتين ؛ أما هابيل وقابيل فيذكر القرآن الكريم : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذا قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

إذن فكل واحد منهما كانت له شبهة ، ولا أحد منهما بمقدر على إقناع الثاني ؛ لذلك قال قابيل بعد أن قبل الله قربان هابيل : « لأقتلك » فإذا قال هابيل ؟ قال : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

إذن فالذى يتقبل الله منه القربان هو الذى سَيُقْتَل . والذى يملاؤه الغيظ هو من لم يتقبل الله قربانه ، وهو الذى سوف يَقْتُل . فإذا قال صاحب القربان المقبول :

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة المائدة)

إذن فهذا أهل لأن يتقبل الله قربانه ، لأنه متيقظ الضمير بمنهج السماء ، وهذه حيشة لتقبل القربان .

وحتى لا نظن أن الآخر « قابيل » كله شر لمجرد أن الشهوة سيطرت عليه ، لكن الحق يظهر لنا أن فيه بعض الخير ، ودليل ذلك قول الحق :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(سورة المائدة)

وهذا القول يدل على أنه تردد ، فلا يقال : « طَوَّعَتْ الماء » ، ولكن يقال « طَوَّعَتْ الحديد » ، فكان الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت وطَوَّعَتْ له قتل أخيه . وعندما قتل قابيل أخاه وهدأت شرّة الغضب وسُحار الانتقام ، رأى أخاه مُلقًى فى العراء :

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُرَوِّبُ لِي
أُجْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَبِي فَأَصْبَحَ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

(سورة المائدة)

وعلى هذا النسق قال اليهود : إن الله أوصانا ألا نؤمن برسول إلا بعد أن يأتى بمعجزة من المَحْسَنَات . لماذا قالوا ذلك ؟ قالوا ذلك لأن معجزة رسول الله الكبرى وهى القرآن الكريم لم تكن من ناحية المَحْسَنَات وانتهى عهد الإعجاز بالمَحْسَنَات فقط، فرسلنا له معجزات حسية كثيرة ، ونظروا لأن هذه ينتهى إعجازها بانقضائها فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة وهو الذى يناسب الرسالة

الخاتمة ، فهم طلبوا أن تكون المعجزة بالمحسّات حتى يصنعوا لأنفسهم شبه عذر في أنهم لم يؤمنوا ، فقالوا ما أورده القرآن :

«الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا .. إلخ»

وعلمنا الحق في هذه الآية أن القربان تأكله النار ، ومن هذا نستنبط كيف تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ، لكى نفهم أن القرآن لا يوجد به أمر مكرر . والحق سبحانه يرينا ردوده الإلهية الملقنة الممتعة :

«قل قد جاءكم رسل من قبل بالبينات وبالذي قتلتم .. إلخ الآية .

لقد جاءكم رسل قبل رسول الله بالقربان وأكلته النار ومع ذلك كفرتم . فلو كان كلامكم أيها اليهود صحيحاً ، لكنتم آتتم بالرسول الذين جاءوكم بالقربان الذى أكلته النار . وهكذا يكشف لنا الحق أنهم يكذبون على أنفسهم ويكذبون على رسول الله ، وأنها مجرد «مماحكات» ولجاج وثناد في المنازعة والخصومة .

والحق سبحانه يأمر رسوله أن يسأل : « فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟

هو سبحانه يريد أن يضع لنا قضية توضح أن عهد المعجزات الحسية وحدها قد انتهى ، ورشد الإنسانية وبلوغ العقل مرتبة الكمال قد بدأ ؛ لذلك أتى سبحانه بآية عقلية لتفكّل مع المنهج إلى أن تقوم الساعة . ولو كانت الآية حسية لاقتصرت على المعاصر الذى شهدنا وتركت من يأتى بعده بغير معجزة ولا برهان . أما مجيئ المعجزة عقلية فيستطيع أى واحد مؤمن في عصرنا أن يقول : سيدنا محمد رسول الله وتلك معجزته . ولكن لو كانت المعجزة حسية وكانت قرباناً تأكله النار ، فما الذى يصير إليه المؤمن ويستند إليه من بعد ذلك العصر ؟

إن الحق يريد أن يعلمنا أن الذى يأتى بالآيات هو سبحانه ، وسبحانه لا يأتى بالآيات على وفق أمزجة البشر ، ولكنه يأتى بالآيات التى تثبت الدليل ؛ لذلك فليس للبشر أن يقترحوا الآية . هو سبحانه الذى يأتى بالآية ، وفيها الدليل : لماذا ؟

لأن البعض قد قال للرسول :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفُجَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بُيُوتَنَا ۚ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَّعِيبٍ فَتَنْفُجَ الْأَنْهَارَ حَتَّىٰ تَخْلُبَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تُسِفَطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعَتْ عَيْنَا كِسْفًا أَوْ نَأْتِيَ بِاللهِ وَأَتَمَّتْكُمْ قَبِيلًا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُتْرَكَ عَيْنًا كَتَبْنَا تَفْرُودُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ مِمَّا تُشْكُتُ إِلَّا بُشْرًا رَسُولًا ۚ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد كانت كل هذه آيات حسنة طلبوها ، والله سبحانه وتعالى يرد على ذلك حين قال لرسوله : إن الذي منعه من إرسال مثل هذه الآيات هو تكذيب الأولين بها :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فحتى هؤلاء الذين قالوا : لن نؤمن حتى تأتي بقربان تأكله النار قد جاءهم من قبل من يحمل معجزة القربان الذي تأكله النار ، ومع ذلك كذبوا ، إذن فالمسألة مما حكمة ولجاج في الخصومة . ورسّل الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتسلية الله لرسوله هنا تسلية بالنظير والمثل في الرسل . كأن الحق بوضوح : إن كانوا قد كذبوك فلا تحزن ؛ فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين ، وأنت لست بدعاً من الرسل .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ ۚ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۚ ﴾

فإن كذبك فلا تحزن . إذن فمعنى ذلك أن المذكور ليس هو الجواب ، إنما هو

أخيثة للجواب « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . الخ .

وعندما نقول : « جاء فلان بكذا » فقد يكون هو الذى أحضره ، وقد يكون هو مجرد مصاحب لمن جاء به .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى - فلنفترض أن موظفاً أرسله رئيسه مظهوف إلى إنسان آخر ، فالموظف هو المصاحب للمظهوف .

إذن فالبينات جاءت من الله ، لكن هؤلاء الرسل جاءوا مصاحبين ومؤيدين بالبينات كى تكون حجة لهم على صدق بلاغهم عن الله ، « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . أى جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد . والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات .

وتعلم أن كل رسول من الرسل الذين سبقوا سيدنا رسول الله كانت معجزتهم منفصلة عن منهجهم ، فالمعجزة شئ وكتاب المنهج شئ آخر . « صحف إبراهيم » فيها المنهج لكنها ليست هي المعجزة ؛ فالمعجزة هي الإحراق بالنار والنجاة ، وموسى عند السلام معجزته العصا وتقلب حية ، وإسحاق البحر ، لكن كتاب منهجه هو « التوراة » ، وعيسى عليه السلام كتاب منهجه « الإنجيل » ومعجزته العلاج وإحياء الموت بإذن الله ، إذن فقد كانت المعجزة منفصلة عن المنهج ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن معجزته هي عين منهجه ، معجزته القرآن ، ومنهجه في القرآن ، لماذا ؟

لأنه جاء رسولاً يحمل المنهج المكتمل وهو القرآن الكريم ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم ، فلا بد أن تظل المعجزة مع المنهج ؛ كى تكون حجة ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « جاءوا بالبينات » : أى المعجزات الدالات على صدقهم . « والنزير والكتاب المنير » أى الكتب التى جاءت بالمنهج ، فهم يحتاجون إلى أمرين اثنين : منهج ومعجزة .

وه البينات « هي المعجزة أى الأمور البينة من عند الله وليست من عند أى واحد

منهم ، ثم جاء « المنهج » في « الزُّبُر » والكتاب المنير . ومعنى « الزُّبُر » : الكتاب ، ومادام الشيء قد كُتِبَ فقد « زُبر » أى كُتِبَ ، وهذا دليل على التوثيق أى مكتوب فلا ينطمس ولا يمحي فالزُّبُر الكتابة ، وه « الزُّبُر » تعنى أيضا الوعظ ؛ لأنه يمنع الموعوظ أن يصنع ما عظم أى يمتنع عن الخطأ وإتيان الانحراف ، وه « الزُّبُر » أيضا تعنى العقل ؛ لأنه يمنع الإنسان من أن يرد موارد التهلكة .

والذين يريدون أن يأخذوا العقل فرصة للانطلاق والانفلات ، تقول لهم : افهموا معنى كلمة « العقل » ، معنى العقل هو التقيد ، فالعقل يقيدك أن تفعل أى أمر دون دراسة عواقبه . والعقل من « عَقَلَ » أى ربط ، كى يقال هذا ، ولا يقال هذا ، ويمنع الإنسان أن يفعل الأشياء التى تؤخذ عليه . وه الزُّبُر أيضا : تحجير البشر ؛ فعندما تحفر البشر ليخرج الماء ، لا تتركه . بل تصنع له حافة من الحجر ونبيه من الداخل بالحجارة . كى لا يُردم بالتراب وكل معاني الزُّبُر ملتقبة ، فهو يعنى : المكتوبات ، والمكتوبات لها وصف ، إنها منيرة ، وهذه الإنارة معناها أنها تبين للمسالك عقبات الطريق وعراقيله ، كى لا يتعثر .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يسأل رسوله صلى الله عليه وسلم ويوضح له : لا تحزن إن كذبتك ؛ فقد كذب رسل من قبلك ، والرسل جاءوا بالمنهج وبالمعجزة ، وبعد أن يعطى الله للمؤمنين ولرسول الله مناعة ضد ما يذيعه المرجفون من اليهود وضد ما يقولون ، وتربية المناعة الإيمانية فى النفس تقتضى أن يجربنا الله على لسان رسوله بما يمكن أن تواجهه الدعوة ؛ حتى لا تفجأنا المواجهات ويكشف لنا سبحانه بما سيفعلون . وبما سيفعلونه .

ونحن نفعل ذلك فى العالم المادى : إذا خفنا من مرض ما كالكوليرا - مثلاً - ماذا نفعل ؟ نأخذ الميكروب نفسه ونضعفه بصورة معينة ثم نحقق به السليم ؛ كى نربى فيه مناعة حتى يستطيع الجسم مقاومة المرض .

ثم بعد ذلك بأن الحق سبحانه وتعالى بقضية إيمانية يجب أن نظل على بال المؤمن دائماً . هذه القضية : إن هم كذبتك فتكذبهم لا إلى خلود ؛ لأنهم سيستهون

بالموت ، فالقضية معركتها موقوتة ، والحساب أخيراً عند الحق سبحانه ، ولذلك يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ
أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ (١٨٥)

ونلاحظ أن كلمة « ذائقة » جاءت أيضاً هنا ، ونعرف أن هناك « قتلا » وهناك « موتا » ، فالموت معناه أعم وهو : انتهاء الحياة سواء أكان ينقض البنية مثل القتل ، أم بغير نقض البنية مثل خروج الروح وزهرتها حتف الأنف ، ولذلك فالعلماء الذين يدققون في الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول : نعم ؛ لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذي قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاق الروح ، أما المقتول فقد كتب الله عليه أن يفارق الحياة بهذا العمل .

إذن فكل نفس ذائقة الموت إما حتف الأنف وإما بالقتل . ولأن الغالب في المقتولين أنهم شهداء ، والشهداء أحياء ، لكن الكل سيموت . يقول تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

انظروا إلى دقة العبارة : « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » ، أي إياكم أن تنظروا نتيجة إيمانكم في هذه الدنيا ، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثواباً في الدنيا

فهذا زمن زائل ينتهي ، فتوابكم على الإيمان لا بد أن يكون في الآخرة لكي يكون تواباً لا ينتهي .

ونعرف ما حدث في بيعة العقبة الثانية ؛ حينما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار عهداً ، قالوا : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ لم يقل لهم صلى الله عليه وسلم منتصرون أو ستملكون الدنيا ، بل قال : « الجنة » قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، فلروعهدهم بأي شيء في الدنيا لقال له أي واحد فظن منهم : ما أهرتها ، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه : أنا أحبك فقدر الدنيا ، فقال له : وهل أنا تافه عندك لهذه الدرجة ؟

فكان الحق سبحانه وتعالى يقول : إياكم أن تفهموا أن جزء الإيمان يكون في الدنيا ؛ لأنه لو كان في الدنيا لكان زائلاً ولكان قليلاً كجزء على الإيمان ، لأن الإيمان وصل بغير منته وهو الله ، فلا بد أن يكون الجزء غير منته وهو الجنة ، فقال : « وإنما توفون أجوركم » . . . وأخذ أهل الذم من كلمة « توفون » أن هناك مقدمات ؛ لأن معنى « وفينه أجره » أي أعطيته وبقي له حاجة وأكمل له ، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات إيمان ، ويكفي إشرافة الإيمان في نفس المؤمن ، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية ؛ فقد يموت من يسمعها بعد قليل في معركة ، وما دام قد مات في معركة فهو لم ير انتصاراً ، ولم ير غنائم ولا أي شيء ، فإذا يكون نصيبه ؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة « توفون » فمن نال منها شيئاً في الدنيا بالنصر ، بالغنائم ، بالزهد الإيمان على أنه انتصر على الكفر فهذا بعض الأجر ، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون في الآخرة ، لأن كلمة التوفية تفيد أن توفية الأجور وتكملها يكون في يوم القيامة ، وأن ما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجر التي يستحقها العاملون .

ويقول الحق : « فمن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها أقرأوا إن شئتم : « فمن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز »^(١)

(١) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه البخاري ومسلم من غير هذا الوجه وبدون هذه الزيادة وأبو حاتم وابن حبان في

وعندما تقول : زحزحت فلاناً ، معناها أنه كان متوقفاً برعب ، فكيف يحدث ذلك عند النار ؟ . نعرف أن النار سببها المعصية ، والمعصية كانت لها جاذبية للعصاة ، وباقى الإيمان ليشدهم فتأخذهم جاذبية المعصية ، فكذلك يكون الجزاء بالنار . إذن فالنار لها جاذبية لأنها ستكون في حالة غيظ . . ولذلك يقول ربنا :

﴿ نَكَادُ نَمِيزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الملك)

النار تتميز من الغيظ على الكافرين . وما معنى نميز من الغيظ ؟ أما رأيت قدراً يفور ؟ ساعة يفور القدر فإن بعض الفقايع تخرج منه وتتفصل عما في القدر ، وهذا « نميز » أي تفرق ، والإنسان منا عندما يكون في حالة غيظ تخرج منه أشياء كفقايع غليان القدر إنه يرغب ويزيد أي اشتد غضبه ، هذه الفقايع تخرج من يقف أمامها أو يلمسها ، وهي من شدة الفوران تميز بعضها وتفصل عن القدر ، كذلك النار ، ولماذا نميز من الغيظ ؟ إنما نميز من الغيظ من الكافرين ؛ لأنها أصلها مُسَبَّحة حامدة شاكرة ، وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ هَلْ أَمْتَلَيْتِ ﴾ وتقول : ﴿ هَلْ مِنْ مَرْبِدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ن)

وذلك مما يدل على أن كلمة : « نميز من الغيظ » حقيقة ؛ ولذلك يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النار لها جاذبية ، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية في الدنيا ، والمعصية في الدنيا هي التي تجذب العصاة ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك : (مثل ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يَفْعُن فيها وهو يذئبن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي)^(١) انظر إلى التشبيه الجميل - حين توقد ناراً في خلاء فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهوام والبعوض تأن على النار ، ولذلك يقولون : رَبُّ نَفْسٍ عَشَقَتْ مَصْرَعَهَا .

لقد جاءت تلك الحشرات على أساس أنها جاءت للنور ، إننا نرى ذلك عندما نشعل موقداً في الخلاء فانت تجد جولة الكثير من هذه الحشرات صرعى ، تلك

(١) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

الحشرات عشقت مصرعها ، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها ، كذلك الإنسان العاصي يمشق مصرعه ؛ لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة متدخلة النار .

« فمن زُحِرَ عن النار ، أى أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان ، ويجرد الزحزحة عن النار ، حتى وإن وقف بينهما لا فى النار ولا فى الجنة فهذا حسن ، فما بالك إن زُحِرَ عن النار وأدخل الجنة ؟ لقد زال منه عطش وأعطى صالحاً . وهذه حاجة حسنة ، وهذا هو السبب فى أن النار مضروب على متنها الصراط الذى سنمر عليه ، لماذا ؟ حتى يرى المؤمن النار . . وهو ماشٍ على الصراط التى لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها ، فيقول : الحمد لله الذى نجانى من تلك النار .

« فمن زُحِرَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » والفوز هو النجاة مما تكره ، ولقاء ما تحب ، مجرد النجاة مما تكره نعمة ، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة ، فهذا فوز . ونلاحظ فى « زُحِرَ » أن أحداً غيره قد زحزحه . نعم لأن الله تكرم عليه أولاً فى حياته بفيض الإيمان وهو الذى زحزحه عن النار أيضاً .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وعندما يصف الحق سبحانه الحياة التى نعرفها بأنها « دنيا » ففى ذلك ما يشير إلى أن هناك حياة توصف بأنها « غير دنيا » وغير الدنيا هى « العليا » ، ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَمِىَّ أَحْسَبُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المتكوت)

أى هى الحياة التى تستحق أن تُسمى حياة ؛ لأن الدنيا لا يقاس زمانها ببدايتها إلى قيام الساعة ، لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكل فرد فى الحياة دنيا ليس عمرها كذلك ، وإنما دنيا كل فرد هى مقدار حياته فيها . ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة أم يوم أم شهر أم قرن . وقصارى الأمر أنها محدودة جداً خاصاً لكل عمر ، وحداً عاماً لكل الأعمار .

والمتعة في الدنيا على قدر حظ الإنسان في المتع ، فهي على قدر إمكاناته . فإذا نظرنا إلى الدنيا بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً ، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يغتر الإنسان بهذه المتعة متذكراً قول الله :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَبَطْغِي ۚ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۚ ﴾

(سورة التين)

فالغرور إذن أن تلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمد لانتهاها ، فحتى لا يغتر عايش في الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله في الآخرة يجب أن يقارن متعة أجلها محدود وإن طال زمانها بمتعة لا أمد لانتهاها ، متعة على قدر إمكاناتك ومتعة على قدر سعة فضل الله ؛ لذلك كانت الحياة الدنيا متاع غرور من غر بالثافة القليل عن العظيم الجليل .

والله لم يظلم الدنيا فوصفها أنها متاع ، ولكن نهى إلى أنها ليست المتاع الذي يُغتر به فيلهو عن متاع أبقي ، إنه الخلود . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ولأتباع رسوله قضية تنشئ فيهم وتؤكد لهم أن الإيمان وحده خير جزاء للمؤمن ، وإن لم يثأت له في الدنيا شيء من النعيم ، ولذلك أراد أن يوطنهم على أن الذين يدخلون الإيمان ، لا يوطنون أنفسهم على أن الإيمان دائماً منتصر ، فلو كان دائماً منتصراً لوطن كل واحد نفسه عليه ورضيه لأنه يضمن له حياة مطمئنة ؛ لذلك كان لا بد أن يوضح لهم : أن هناك ابتلاءات ، فالقضية الإيمانية أن تبطلوا ، وموقع البلاء في نفوسكم أو في أموالكم ، فقال :

﴿ تَبْلَوْنِي فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
وَلَسَّمْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ۚ ﴾

وَإِنْ تَصَيَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ

الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

والبلاء في المال بماذا ؟ بأن تأتي آفة تأكله ، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر ، وهي اختبارك هل تنفق هذا المال في مصارف الخير أو لا تعطيه لمحتاج ، فمرة يكون الابتلاء في المال بالإفناء ، ومرة في وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك فيه ، والحق في هذه الآية قدم المال على النفس ؛ لأن البلاء في النفس يكون بالقتل ، أو بالجرح ، أو بالمرض . فإن كان القتل فليس كل واحد سيقتل ، إنما كل واحد سياثبه بلاء في ماله .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » هما إذن معسكران للكفر : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر المشركين . هذان المعسكران هما اللذان كانا يعانديان الإسلام ، والأذى الكثير تمثل في محاولة إبداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأذى الاستهزاء بالمؤمنين ، وأهل الكفر والشرك يقولون للمؤمنين ما يكرهون ، فوطنوا العزم أيها المسلمون أن تستقبلوا ذلك منهم ومن ابتلاءات السوء بالقبول والرضا .

ويخطيء الناس ويظنون أن الابتلاء في ذاته شر ، لا : إن الابتلاء مجرد اختبار ، والاختبار عرضة أن تنجح فيه وأن ترسب ، فإذا قال الله : « لعلون » ، أي سأختبركم - والله المثل الأعلى - كما يقول المدرس للتلميذ : « سأمتحنك » فبتليك « يعني نختبرك في الامتحان ، فهل معنى ذلك أن الابتلاء شر أو خير ؟ . إنه شر على من لم يتقن التصرف . فالذي يتجح في البلاء في المال يقول : كله فائت ، وقلل الله مسئوليتي ، لأنه قد يكون عندي مال ولا أحسن أدائه في مواقعه الشرعية ، فيكون المال على فتنة . فإله قد أخذ مني المال كي لا يدخلني النار ، ولذلك قال في سورة الفجر :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَنَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيُفْلِحُ فَرِحَ أَكْرَمَ ۝٥﴾

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾

(سورة الفجر)

فهنا قضيتان اثنتان : الإنسان يأتيه المال فيقول : ربى أكرمنى ، وهذا أفضل ممن جاء قبه قول الحق :

﴿ قَالَ لَأَمَّا أُوتِيْتَهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مَنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

إذن فالذى نظر إلى المال وظن أن الغنى إكرام ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانة ، هذا الإنسان لا يفطن إلى الحقيقة ، والحقيقة يقولها الحق : « كلا » أى أن هذا الظن غير صادق ، فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامة ؟ يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت موفقاً فى أن تؤدى مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإن لم تؤد حق الله فالمال مذلة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال الله للثنيين : « كلا » ، وذلك يعنى : لا إعطاء المال دليل الكرامة ولا الفقر دليل الإهانة .

وإراد سبحانه أن يدل على ذلك فقال :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَحْتَضُونَهُ عَلَىٰ طَعَامِ أَيْمَانِكُمْ ﴿١٣﴾ وَتَكُونُ الْوَرَثَ أَكْلًا لِّمَا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

« كلا بل لا تكرمون اليتيم » وما دمتم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وزر ، وكيف إن سلبه منك يا من لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ . . إنه سبحانه قد نزهك أن تكون مهانا ، فلا تحمل مسئولية المال . إذن فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

« كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاضون على طعام المسكين » وحتى إن كنت لا تمتلك ولا تعطى أفلا تحت من عبده أن يُعطى ؟ أنت ضنين حتى بالكلمة ، فمعى تحض على طعام المسكين . أى تحت غيرك . فإذا كنت تضن حتى بالنصح فكيف تقول إن المال كرامة والفقير إهانة ؟ . . . « كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما » أى تأكلون الميراث وتجمعون في أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم دون أن يتحرى الواحد منكم هل هذا المال حلال أو حرام . . . فإذا كانت المسألة هكذا فكيف يكون إيتاء المال تكريماً وكيف يكون الفقر إهانة ؟ . . . لا هذا ولا ذاك .

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » والذي يقول هذا الكلام : هو الله ، إذن لا بد أن يتحقق - فيارب أنت قلت لنا : إن هذا سيحصل وقولك سيتحقق ، فماذا أعطيتنا لتواجه ذلك ؟ - اسمعوا العلاج : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » . . . نصبر على الابتلاء في المال ، نصبر على الابتلاء في النفس ، نصبر على أذى المعسكر المخالف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا ، إن صبرت فإن ذلك من عزم الأمور ، والعزم هو : القوة المجتمعة على الفعل . فانت ثوى أن تفعل ، وبعد ذلك تعزم بمعنى تجمع القوة ، فقله : « فإن ذلك من عزم الأمور » أى من معزوماتها التى تقتضى الثبات منك ، وقوة التجميع والحشد لكل مواهبك لتفعل .

إذن فالمسألة امتحان فيه ابتلاء في المال ، وابتلاء في النفس وأذى كثير من الذين أشركوا ومن الذين أوتوا الكتاب ، وذلك كله يحتاج إلى صبر ، و« الصبر » - كما قلنا - نوعان : « صبر على » و« صبر عن » ، ويختلف الصبر باختلاف حروف الجر ، صبر عن شهوات نفسه التى تزين للإنسان أن يفعل هذه وهذه ، فيصبر عنها ، والطاعة تكون شاقة على العبد فيصبر عليها ، إذن ففى الطاعة يصبر المؤمن على المتاعب ، وفى المعصية يصبر عن المغريات .

و« لتبلون في أموالكم وأنفسكم » توضح أنه لا يوجد لك غريم واضح في الأمر ، فالأفة تأتى للمال ، أو الأفة تأتى للجسد فيمرض ، فليس هنا غريم لك قد تحدد ،

ولكن قوله : « ولتسمع من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا » فهذا تحديد لغريم لك . فساعة ترى هذا الغريم فهو يهيج فيك كوامن الانتقام . فوضح الحق : إياك أن تمكنهم من أن يجعلوك تفعل ، وأجل عملية الغضب ، ولا تجعل كل أمر يستحقك . بل كن هادئا ، وإياك أن تستحق إلا وقت أن تثيق أنك ستتضرر ، ولذلك قال : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

واتقوا مثل « اتقوا الله » أى اتقوا صفات الجلال وذلك بأن تضع بينك وبين ما يغضب الله وقاية . عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدية وأردف أسامة بن زيد ورائه يعود سعد بن عبادة يبنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس فيه عبدالله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أبي . وإذا في المجلس أنخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفي المجلس عبدالله بن رواحة . فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة تمر عبدالله بن أبي أنفه برذائه وقال : لا تغيروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه : بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يشاورون . فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يجفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا سعد » ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب ؟ يريد عبدالله بن أبي ، قال : كذا وكذا فقال سعد : يا رسول الله اعف عنه واصفح فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ، ولقد اصططح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصاية فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرف بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) .

(١) رواه البخارى في صحيحه عند تفسير هذه الآية

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧)

ونعرف - من قبل - أن الله قد أخذ عهداً وميثاقاً على كل الأنبياء أن يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام في قوله :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ أَصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١)

(سورة آل عمران)

ونأتى هنا إلى عهد وميثاق أخذه الله على أهل الكتاب الذين آمنوا بأبيانهم ، هذا العهد هو : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

فما الذى يبينونه ؟ وما الذى يكتمونه ؟

وهل هم يكتمون الكتاب ؟ نعم لأنهم يسون بعضاً من الكتاب ، وما داموا يسون بعضاً من الكتاب فمعنى ذلك أنهم مشغولون عنه :

﴿ فَلْيُوا حَظًا نَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

والذى لم ينسوه من المنهج ، ماذا فعلوا به ؟ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَاهْتَدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي

الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد كنتموا البيئات التي أنزلها الله في الكتاب ، فالكتم عملية اختيارية ، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه ، لكنهم يتحملون ذنباً من جهة أخرى ، إذ لو كان المنهج على يالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه . والذي لم ينسوه كنتموا بعضه ، والذي لم يكتموا لووا به ألسنتهم وحرفوه .

وهل اقتصروا على ذلك ؟ لا . بل جاءوا بشيء من عندهم وقالوا : هو من عند

الله :

﴿ قَوْلَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ

ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ

(سورة البقرة)

وقولهم : « هذا من عند الله » ما يصح أن يقال إلا لبلاغ صادق عن الله ، وكلمة « ليشتروا به ثمناً قليلاً » لا بد أن توسع مدلولها قليلاً ، ولها معنى عام ، ونحن نعرف أن الثمن تشتري به ، فكيف تشتري أنت الثمن ؟ أنت إذن جعلت الثمن سلعة ، وما دام الثمن يجعل سلعة فيكون ذلك أول مخالفة لمنطق المبادلة ؛ لأن الأصل في الاثمان أن يشتري بها ، أصل المسألة أن نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً عندهم في الكتاب ثم أنكروه .

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فقوله : « لتبينه » يعنى لتبين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما هو موجود عندكم دون تغيير أو تحريف ، وعندما يبينون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون ما جاء حقاً في الكتاب الذى جاءهم من عند الله . وهكذا نجد أن المعانى تلتقى ، فإن بينوا الكتاب الذى جاء من عند الله ، فالكتاب الذى جاء من عند الله فيه نعت محمد ، وهكذا نجد أن معنى تبين الكتاب ، وتبين نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان .

« لتبينه للناس ولا تكتُمونه فنبذوه وراء ظهورهم » يقال : نبذت الشيء أى طرحتَه بقوة ، وذلك دليل على الكراهية ؛ لأن الذى يكره شيئاً يحب أن يقصر أمد وجوده ، ومثال ذلك : لنفترض أن واحداً أعطى لآخر حاجة ثم وجدها جرة تلعه ، ماذا يفعل ؟ هو يلا شعور يلقيها بعيداً . والنبذ له جهات ، ينبذه يمينه ، ينبذه أمامه ، ينبذه شماله ، أما إذا نبذه خلفه ، فهذا دليل على أنه ينبذه نبذة لا التفات إليها أبداً ، انظر التعبير القرآن « فنبذوه وراء ظهورهم » .

إن النبذ وحده دليل الكراهية لوجود الشيء الذى يبغضه ، إمعان في الكراهية والبغض ، فلورمى إنسان شيئاً أمامه فقد يحسن له عندما يراه أو يتذكره ، لكن إن رماه وراء ظهره فهذا دليل الشبذ والكراهية تماماً ، ولذلك يقولون : لا تجعلن حاجتى بظهر منك ، يعنى لا تجعل أمراً أريد منك وراء ظهرك ، والحق يقول : « فنبذوه وراء ظهورهم » أى أنهم جماعة وه « ظهور » جمع « ظهر » ، كأن كل واحد منهم نبذه وراء ظهره . وكان هناك إجماعاً على هذه الحكاية ، وكأنهم اتفقوا على الضلال ، واشتروا به ثمناً قليلاً فبشس ما يشترون . والمشتري هنا هو الثمن ، والثمن يشتري به ، ولندقق النظر في التعبير القرآن ، فهناك واحد يشتري هذا الأمر بأكلة ، وآخر يشتري هذه الحكاية بحلّة أو لباس ، وهناك من يشتريها بحاجة وينتهى ، إنما هم يقولون : نريد نقوداً ونشتري بها ما نحب ، هذا معنى « واشتروا به ثمناً » .

ويعلق الحق على ما يشترونه قائلاً : « فبشس ما يشترون » لماذا ؟ لأنك قد تظن أن بالمال - وهو الثمن - تستطيع أن تشتري به كل شيء ، ولكن النقود لا تنفع الإنسان كما تنفعه الحاجة المباشرة ؛ لأننا قلنا سابقاً : هب أن إنساناً في مكان صحراوي ومعه

جبل من ذهب وليس معه كوب ماء ، صحيح أن المال يأتي بالأشياء ، إنما قد يوجد شيء نافع من الأشياء يعني ما لا يغنيه المال ولا الذهب ، فيكون كوب الماء مثلاً بالدنيا كلها ، ولا يساويه أي مال « فبئس ما يشترون » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ
يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ
الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨٨)

والحسبان للأمر أن يظنه السامع دون حقيقته ، والأمور التي يظنها السامع تسير أولاً على ضوء الشيء الواضح دون التدبر لما وراء واجهات الأشياء ، فالذين يفرحون بما آتوا نوعان : نوع يفرح بما آتاه مناهضاً لدعوة الحق كالمنافقين الذين فرحوا بأنهم غشوا المؤمنين ، وتظاهروا بالإيمان فعاملهم المؤمنون بحق الأخوة الإيمانية ، حدث هذا قبل أن يكشف الحق هؤلاء المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من بعد ذلك .

ونوع آخر يفرح لما آتاه وجاء به مناصراً لدعوة الحق فالفرح الأول - وهو فرح المنافقين - ممنوع ، والفرح الثاني مشروع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ فَضَّلْتُ اللَّهَ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة بونس)

إذن فلم يه الله عن مطلق الفرح ولكن ليفرحوا بفضل الله . إنه سبحانه قد نهى عن نوع من الفرح في مسألة قارون :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

وهكذا نجد آيات تنهى عن الفرح وآيات تثبت للمؤمنين الفرح ، وتأمروهم به . إذن فالفرح في ذاته ليس مباحاً ، ولكن الممقوت بعض دواعي ذلك الفرح ، فدواعيه عند المؤمن أن يفرح بنصر الله ، وأن يفرح بإعلاء كلمة الحق ، وهذه دواع مشروعة . ودواعيه الممنوعة أن يفرح بأن يقف أمام مبادئ من مبادئ الله ليدحض ذلك المبدأ ، وهذا ما يفرح به الكافر ، ولكن الفرح الحقيقي هو الفرح الذي لا يعقبه ندم ، ففرح المؤمن موصول إلى أن تقوم الساعة ، وموصول بعد أن تقوم الساعة . ولكن فرح الكافر والمنافق وأهل الكتاب الذين يصورون الله على غير حقيقته فرح موقوت وممقوت ، إذن فذلك لا يعتبر فرحاً ، لأن الندم يعد الفرح يعطى عقابه شر ، لأن النادم يتحسر دائماً على فعله فهو في غم وحزن .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطى للمؤمن مناعة ، إنكم أيها المؤمنون تراجعون معسكرات تعادىكم . هذه المعسكرات مستفرجة بما أفته ضدكم فيجب ألا يفت ذلك في عضدكم ، ولا تحسبنهم إن فعلوا ذلك بمنجاة من العذاب ، وما دام فرحهم سيؤدى بهم إلى العذاب فهو فرح أحمق .

وماذا صنع الذين جاء فيهم القول : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » يحتمل أن يكون المراد هم أهل الكتاب الذين كتبوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الآية السابقة تقول : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » ماذا فعل هؤلاء إذن ؟ لقد كتبوا أوصاف رسول الله ونعته الموجود في كتبهم وفرحوا بما كتبوا ، وبعد ذلك أحبوا أن يحمدا بما فعلوا من الذين على طريقتهم في الكفر والضلال .

إن الإنسان قد يأى الذنب ولكنه يندم بعد أن يفعله ، ولكنه حين يسترسل فيفرح بما فعل فذلك ذنب آخر ، وهكذا صار إتيان العمل ذنباً ، والفرح به ذنباً آخر ، لأنه لو ندم على ما فعله لكان الندم دليلاً على التوبة ، أما أن يأى العمل وبعد ذلك يفرح

به ثم يأتي بعد ذلك الأشد ؛ فيحب أن يُحمد بما لم يفعل ، فذلك من تمام الحمق ،
لأنه جرم وذنوب مركب من فعل آثم ، ففرح به ، فحب الحمد على شيء لم يفعله ..

أكان يجب أن يُحمد بما فعل أو بما لم يفعل ؟ بما لم يفعل ، لأنه خلع على أمره غير
الحق ، وإذا قال قائل : إنها نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله فالحق
محتمل ؛ لأن هؤلاء تخلفوا عن الحرب مع رسول الله وفرحوا بأن متاعب السفر
ومتاعب الجهاد لم تنلهم ، وبعد ذلك اعتذروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
اعتذارات كاذبة ولو ندعوا لكان خيراً لهم ، ولم يتضح للمسلمين كذبهم فحمدوا لهم
ذلك الاعتذار ، إنهم قد أتوا الذنب ، وفرحوا بأنهم أتوه ، ونجوا من مغارم
الحرب ، وبعد ذلك فرحوا أيضاً بأنهم أحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ، لأن
اعتذارهم كان نفاقاً ، سواء كان هذا أو ذاك فالآية على إطلاقها : للذين يفرحون
بما أتوا من مناجضة الحق وذلك فعل ، والفرح به ذنب آخر ، والرغبة في الحمد
عليه شيء ثالث ، إذن فالذنوب مركب ، فهم يسترون الأمر ويبينون نقيضه كي
نحمدهم ونشكرهم ، والحق سبحانه وتعالى يعطي لهذا دستوراً إيمانياً لمطلق الحياة .

« ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » وهل المنع عليهم أنهم يحبون أن يحمدوا ؟ أو
المنع عليهم والمأخوذون به أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؟ إن المنع عليهم
أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؛ لأن الإنسان إن أحب أن يُمدح بما فعل
فلا مانع ، والقرآن حين يعالج نفساً بشرية خلقها الله بملكات ، فهو يعلم مطلوبات
الملكات ، بعض الملكات قد تحتاج إلى شيء فلا يتجاوز الله هذا الشيء ، إن الإنسان
مطبوع على حب الثناء من الخير ، لأن حب الثناء يثبت له وجوداً ثانياً ، ووجودك
الثاني هو أن تعبر عن نفسك بعملك الذي يكون مبعث الثناء عليك ، والناس لا تثني
على وجودك ، لكنها تثني على فعلك .

ومادام الإنسان يحب الثناء فسيغريه ذلك بأن يعمل ما يُثنى به عليه ، ومادام يُغري
بما يُثنى عليه فسيعمل بإتقان أكثر ، وساعة يعمل فإن المحيط به يتفع من عمله ،
والله يريد إشاعة النفع فلا يمنع سبحانه حب الثناء كي يزيد في الطاقة الفاعلة
للأشياء ؛ لأنه لو حرم ذلك الثناء فلن يعمل إلا من كانت ملكاته سوية ، وسيفقد

المجتمع طاقات من كانت ملكاته قليلة ، فصاحب الملكات القليلة يريد أن يمدح ، فلا مانع من مدحه ليؤيد من العمل ، ويمدح مرة ثانية ، وتستفيد الناس ، والذي ينتظر الشاء من الناس تنزل منزلته ومرتبه عن مرتبه من انتظر التقدير من الله ، فهو الذي جنى على نفسه في ذلك . لكن لا بد أن نمدحه كي يعمل بما فيه من غريزة حب الشاء فنكون قد زدنا من عدد طاقات العاملين .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية ، وهي قضية تزكية الصالح ونجريم الطالع الفاسد في قصة « ذى القرنين » يقول تعالى :

﴿ وَاسْأَلُونَا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قَالَ مَاءْتَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهَآءَ آيَاتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَسَبَّأًا ۖ ﴾

(سورة الكهف)

كي تعلم أن الممكن لا يمكن بذاته وإنما هو ممكن بمن مكنه ، فلو كان عنده تفكير إيماني ، لما اغترته الأسباب أن يتمرد ، لأن الإيمان يعلمه أن الأسباب ليست ذاتية . ومن أجل أن يثبت الله أن الأسباب غير ذاتية فهو ينزع الملك عن يشاء ، ويهب الملك من يشاء ، نقول له : لو كانت الأسباب ذاتية فتمسك بها ، لكن الأسباب هبة من الله ، وآتيانه من كل شيء سبباً ، وحين يأتيه الله الأسباب فالأسباب أنواع : سبب مباشر للفعل ، وسبب متقدم على السبب المباشر ، فأنت إذا ارتديت ثوباً جميلاً ، فوراء ذلك أنك أتيت بالقماش الذي نسجه النسيج ، والنساج استطاع إتقان عمله بعد أن قام الغزال بغزل القطن ، والفطن نتج لأن فلاحاً بذر البنور ورعى الأرض بالحرث والري . فأنت إن نظرت إلى الأسباب المباشرة المتلاحقة فانظر إلى نهاية الأسباب ، وستصل إلى شيء لا سبب له إلا السبب الأعلى وهو الله - جلّت قدرته - .

وسلسل أي شيء في الوجود مستجد أنك أخيراً أمام سبب خلقه الله ، مثال ذلك التور الكهربى الذى تتمتع أنت به . مستجد أن المعمل قام بصنع الزجاج الخاص بالمصابيح الكهربائية ، ونوع من المصانع يصنع الأسلاك الموجودة بالمصباح ، وستنتهى إلى شيء موجود لا يوجد فيه بشر ، فتصل إلى الحق سبحانه وتعالى .

أنت مثلاً جالس على الكرسي . وقد تقول : لقد صنع التجار والنجار جاء بالخشب من البائع ، والبائع جاء بالخشب من الغابة ، فمن أين جاء الخشب إلى الغابة ؟ تقول : لا أعرف ، أما إذا كان عندك الخس الإيمانى فأنت تقول : أوجده الله . وحين تنتهى الأسباب وسلسلتها نجد الله الخالق : إنا مكنا له فى الأرض وأتيناها من كل شئ سبيبا فأتبع سبيبا . فعندما أعطاه الله الأسباب جاء هو بالوسائل فقط ، إذن فالأصل كله من الله .

ويتابع الحق : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمة ، هذا فى عين الناظر فقط ، فأنت حين تتركب البحر ثم ترى الشمس عند الغروب تغرب فى البحر ، وعندما تذهب للمنطقة التى غطست الشمس فيها تجد الشمس موجودة ؛ لأنها لا تغيب أبداً ، إنما تغرب فى عين حمة أى فوجد الشمس فى نظره عند غروبها عنه كأنها تغرب فى مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود . ويتابع الحق : « ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا .

والناس تفهم أن هذا تخيير ، يعنى إما أن نعذبهم ، وإما نحسن إلى من كنت نعذبهم ، لكن الدقة والتمعن يوضحان لنا أن الحق قد أعطى تفويضا لذى القرنين ، بقوله : « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » ففهم ذو القرنين عن الله التفويض ، ولم يأخذ التفويض وأفتري ، بل قال : « أما من ظلم فسوف نعذبه » . وليس هذا هو العذاب الذى يستحقه ، لا ، نحن ستعذبه فى دنيانا كي لا يستترى فيها الشر . وفوق ذلك سيعذبه الله عذاباً آخر .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً » إنه أولاً لم يصف عذابه بنكر ، إنما وصف عذاب الله فقال : « فيعذبه عذاباً نكراً » ، لأن عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله ، فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعباد بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، وماذا عن موقف ذى القرنين من الذى آمن ؟ إنه موقف مختلف .

يقول الحق : « وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا

بسرا ، هو يجازيه بالحسنى ويعطيه المكافآت ويكرمه ، وعندما يتساءل من يجب الثناء قائلاً : لماذا كرم هذا ؟ ويرى أسباب التكريم فيقول لنفسه لا صنعتُ مثله كى أكرم . ولذلك تَجِدُ الشباب يتهافت حتى على اللعب بكرة القدم لماذا ؟ لأنهم يجدون من يضع هدفاً في كرة القدم يكرم ، فيقول : أنا أريد أن أضع هدفاً .

هذا وإن ديننا الحنيف يدعو إلى أن نشكر من قدم خيراً أو أسدى معروفاً خفراً للهمم وتشجيعاً لبذل الطاقات وفي الأثر : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » إذن فحب الثناء من طبيعة الإنسان ، ولكن تُعزى الناس بأن يعملوا لأبد أن تأتي لهم بأعمال تستوعب طاقاتهم المتعددة ، أما إذا اقتصر إتيان العمل على من لا يحبون الثناء ، فسقط الأيدى التي تفعل ، ولذلك تجد العمل حيث توجد المكافأة التشجيعية التي يأخذها من يستحقها ويقابلها من التجريم والعقوبة لمن يعمل في عمله ، فلا يمنح رئيس عمل مكافأة لمن عملوا على هواهم ، بل عليه أن يمنحها لمن أدى عمله بإتقان . وحين يعلم الناس أنه لا يجازى بالخير ولا يكرم بالقول إلا من فعل فعلاً حقيقياً فالكل يفعل فعلاً حقيقياً ، لكن عندما تجد الناس أن المكافآت لا يأخذها أحد إلا بالتزلف وبالتفاق وبالاشياء غير المشروعة فسيفعلون ذلك ، وهكذا تأتي الخيبة .

وهكذا تجد أن قوله الحق : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » .

إن هذا القول يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة ، وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة الفرد بنفسه وبين حوله . وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنوب ، فالإنسان إذا ما أتى ذنباً ، فربما يكون قد تفس عن نفسه بارتكاب الذنب ، لكن بعد ما تهدأ شدة المعصية يجب عليه أن يتب عليه ولا يفرح . هذه أول مرحلة . ولا يتمادي في ارتكاب الذنب ، أما إذا تمادى وخلع على فعله النقيض وادعى أنه قد أتى فعلاً حسناً حتى يناله مدح بدلاً من أن يناله ذم فذلك ذنب مركب ، ويحشره الله ضمن من قال فيهم : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

والمفازة هي المكان الذي يظن الإنسان أن فيه نجاته ، أى أن في هذا المكان فوزاً

له ، ويطلقون كلمة « مفازة » على الصحراء إطلاقاً تفاؤلياً ، لا يسمونها « مهلكة » لأن الذي كان يحاربها يهلك فسموها « مفازة » تفاؤلاً بأن الذي يسلكها يفوز ، أو أن الصحراء أرض مكشوفة ، ومادام الإنسان قد وصل إلى أرض مكشوفة فلن يصادف ما يخافه من حيوانات شرسة أو من وافدات ضارة كالحيات ، أو من عدو راصد ، وفي ذلك فوز له ، لأنه تجنب هذه المخاطر ، إنه إن سار في الجبال والوديان فمن الممكن أن تسر عنه الوحوش المفترسة أو اهوام أو تسر عنه الذين يتبعونه فلا يتوقعهم وقد يصيبونه بالأذى ، فإذا ما ذهب إلى الأرض المكشوفة نجا من كل هذا لأنه ينأى ويتعد عنهم ، وتكون التسمية على حقيقتها ، ومن يرى أن الصحراء مهلكة فليعرف أنها سميت « مفازة » تفاؤلاً ، كما يسمون اللدين الذي لدغه الثعبان يد « السليم » .

ونحن في أعرافنا العادية نتفاهل فنضع للنشء اسماً ضد مباءة تفاؤلاً بالاسم ، مثال ذلك : إذا كنت في ضيافة إنسان وقدم شرباً . قهوة مثلاً ، وبعد أن شرب القهوة بأق الخادم فيقول من قدم لك القهوة لخادمه : نعال «خذ المملوء» ولا يقول : «خذ الفارغ» وهذا لون من التفاؤل .

«فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وهم عذاب أليم» هم يظنون أنهم بمفازة من العذاب برغم أنهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يؤمنون بسيطرة الحق على كل أحوالهم وكل أمورهم فهم يظنون أن انتصارهم في معركة الدنيا لا هزيمة بعده ، ولكن الحق بعد هذه الآية قال :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾